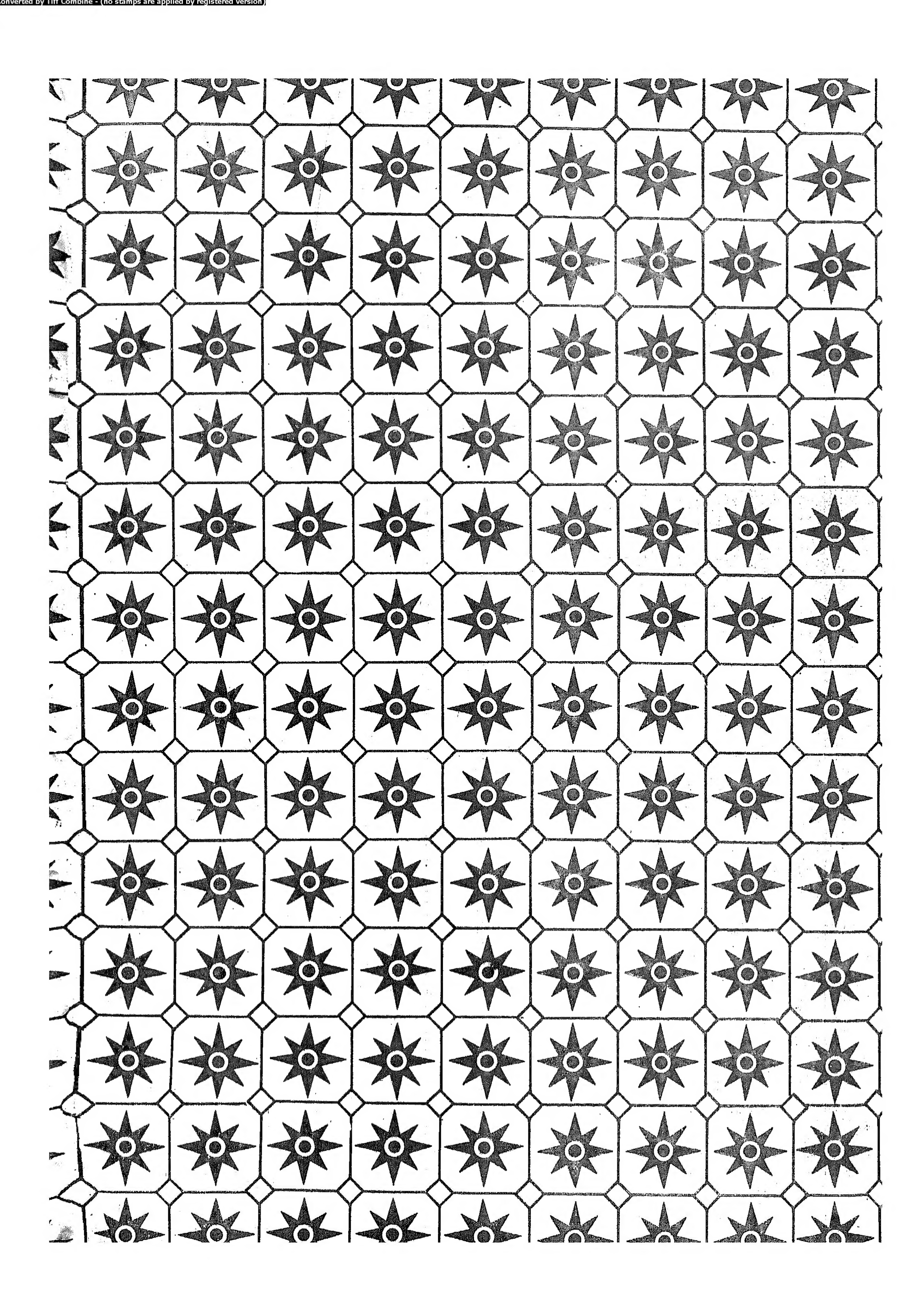
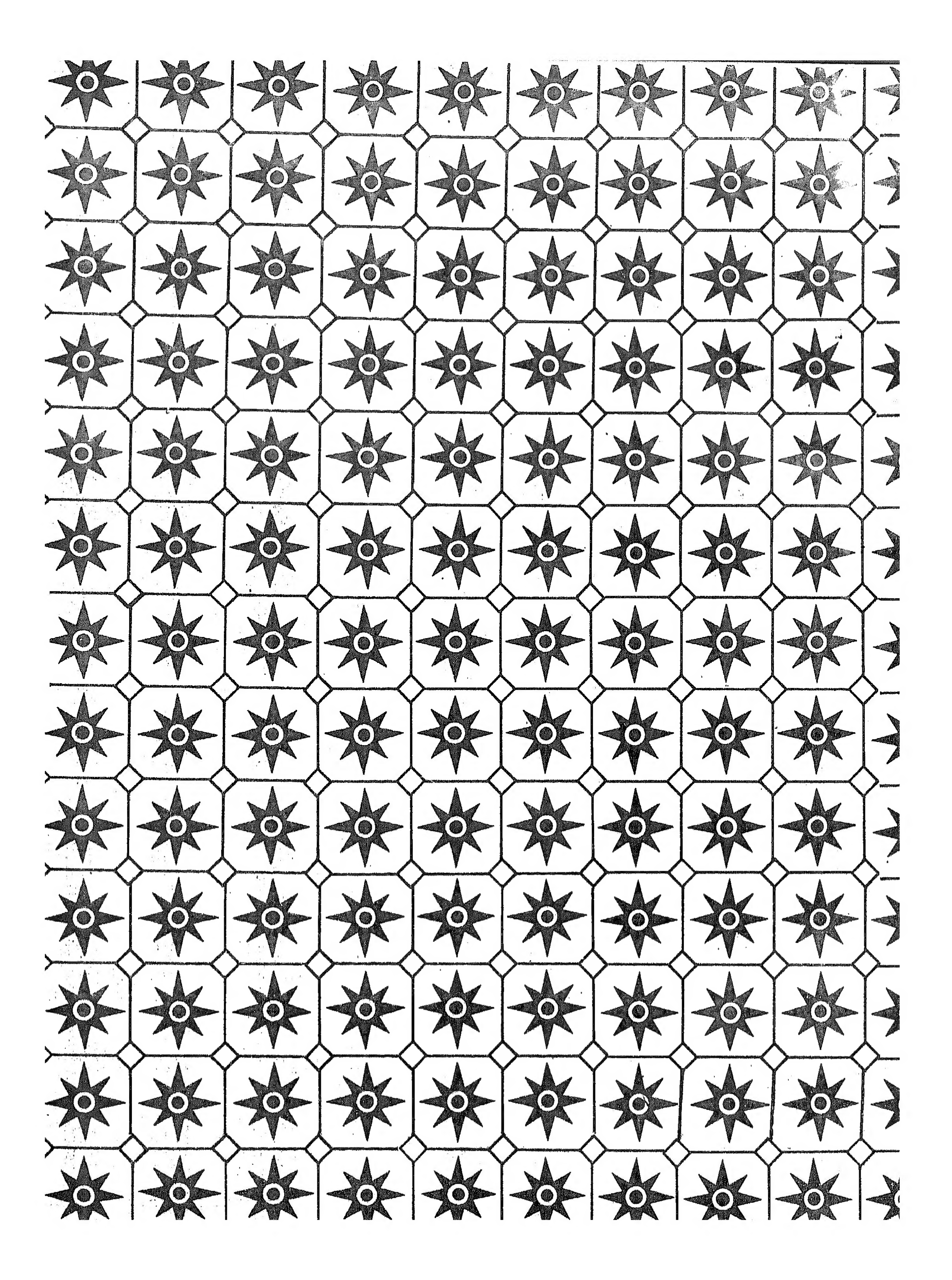
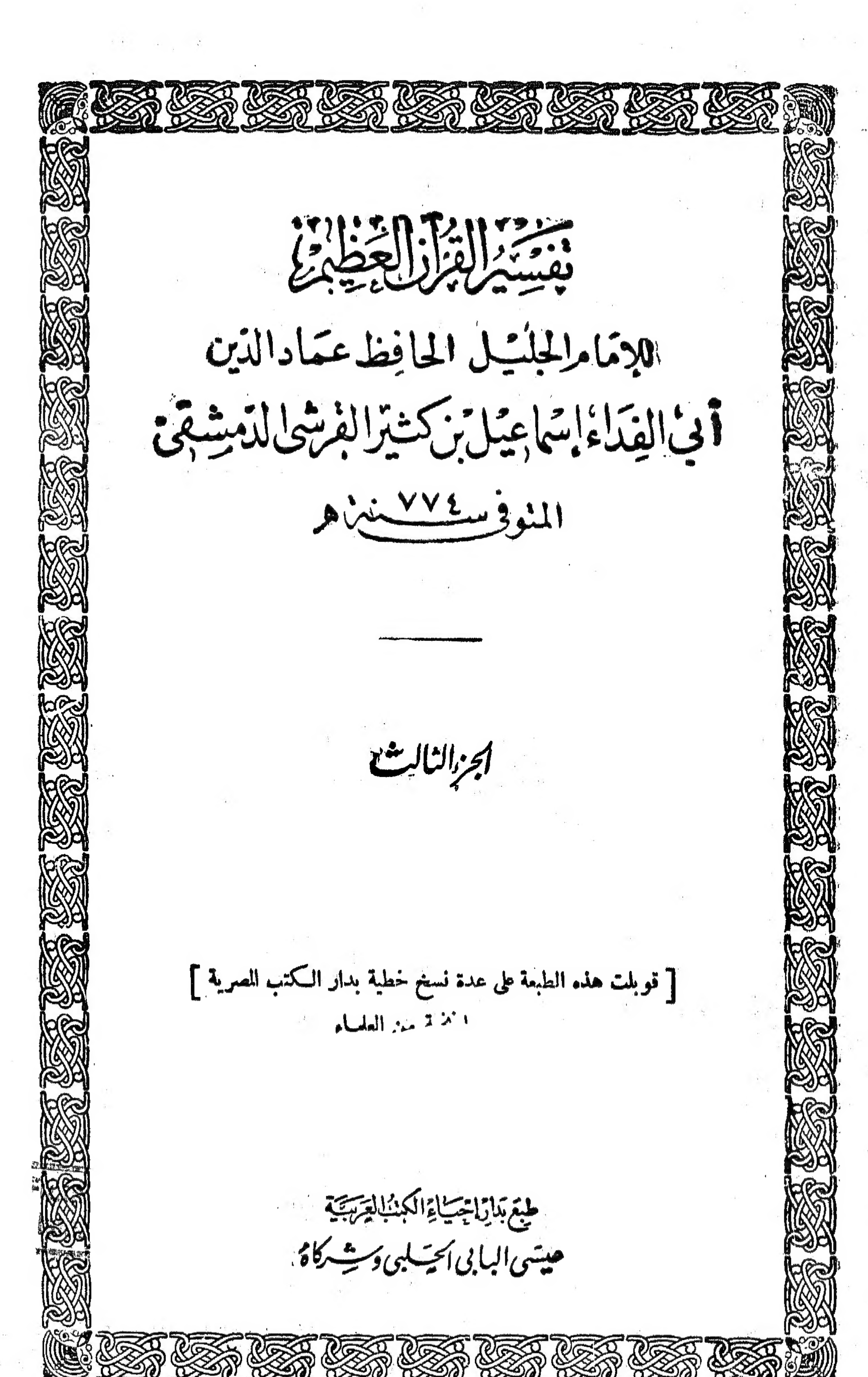








تفسير القرآن العظيم

للإمام الجليل الحافظ عماد الدين

أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي

المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

الجزء الثالث

[قوبلت هذه الطبعة على عدة نسخ خطية بدار الكتب المصرية

ا[illegible]ة من العلماء]

طبع بدار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تفسير سورة سبحان وهي مكية ﴾

قال الإمام الحافظ المتقن أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى : حدثنا آدم بن أبى إياس حدثنا شعبة عن أبى إسحق قال سمعت عبد الرحمن بن يزيد سمعت ابن مسعود رضى الله عنه قال فى بنى إسرائيل والكهف ومريم : إنهن من العتاق الأول وهن من تلادى . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا حماد بن زيد عن مروان عن أبى لبابة سمعت عائشة تقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول مايريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول مايريد أن يصوم وكان يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزمر .

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

يمجد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرته على مالا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ولا رب سواه ، (الذى أسرى بعبده) يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم (ليلا) أى فى جنح الليل (من المسجد الحرام) وهومسجدمكة (إلى المسجد الأقصى) وهو بيت المقدس الذى بإيلياءمعدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمهم فى محلتهم ودارهم فدل على أنه هو الإمام الأعظم ، والرئيس المقدم ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . وقوله تعالى (الذى باركنا حوله) أى فى الزروع والثمار (لنريه) أى محمداً (من آياتنا) أى العظام كما قال تعالى (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه صلى الله عليه وسلم ، وقوله تعالى (إنه هو السميع البصير) أى السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم ، مصدقهم ومكذبهم ، البصير بهم فيعطى كلا منهم مايستحقه فى الدنيا والآخرة

﴿ ذكر الأحاديث الواردة فى الإسراء : رواية أنس بن مالك رضى الله عنه ﴾

قال الإمام أبو عبد الله البخارى : حدثنى عبد العزيز بن عبد الله حدثنا سليمان — هو ابن بلال — عن شريك بن عبد الله قال : سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو ؟ فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه — وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم — فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل فشق جبريل مابين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشو إيماناً وحكمة فحشا به صدره ولغاديده — يعنى عروق حلقه — ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا فضرب باباً من أبوابها فناداه أهل السماء من هذا ؟ فقال جبريل ، قالوا ومن معك ؟ قال معى محمد قالوا وقد بعث إليه ؟ قال نعم قالوا فمرحباً به وأهلا ، يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به فى الأرض حتى يعلمهم ، فوجد فى السماء الدنيا آدم فقال له جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلم عليه ورد عليه آدم فقال مرحباً

وأهلا بابنى نعم الابن أنت ، فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال « ماهذان النهران يا جبريل ؟ » قال هذان النيل والفرات عنصرهما ، ثم مضى به فى السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك ، ثم عرج به إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة الأولى من هذا ؟ قال جبريل قالوا ومن معك ؟ قال محمد صلى الله عليه وسلم قالوا وقد بعث إليه ؟ قال نعم قالوا مرحبا به وأهلا ، ثم عرج به إلى السماء الثالثة فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية ثم عرج به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس فى الثانية وهارون فى الرابعة وآخر فى الخامسة لم أحفظ اسمه وإبراهيم فى السادسة وموسى فى السابعة بتفضيل كلام الله تعالى فقال موسى رب لم أظن أن ترفع على أحدا ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله عز وجل حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله إليه فيما يوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ثم هبط به حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال يا محمد ماذا عهد إليك ربك ؟ قال « عهد إلى خمسين صلاة كل يوم وليلة » قال إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس فقال وهو فى مكانه « يا رب خفف عنا فان أمتى لا تستطيع هذا » فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال يا محمد والله لقد راودت بنى إسرائيل قومى على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه فأمتك أضعف أجسادا وقلوبا وأبدانا وأبصارا وأسماعا فارجع فليخفف عنك ربك ، كل ذلك يلتفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة فقال « يا رب إن أمتى ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم فخفف عنا » فقال الجبار تبارك وتعالى : يا محمد قال « لبيك وسعديك » قال إنه لا يبدل القول لدى كما فرضت عليك فى أم الكتاب فكل حسنة بعشر أمثالها فهى خمسون فى أم الكتاب وهى خمس عليك ، فرجع إلى موسى فقال كيف فعلت ؟ فقال « خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها » قال موسى قد والله راودت بنى إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا موسى قد والله استحييت من ربى عز وجل مما أختلف إليه » قال فاهبط باسم الله . قال واستيقظ وهو فى المسجد الحرام ، هكذا ساقه البخارى فى كتاب التوحيد ورواه فى صفة النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن إسماعيل بن أبى أويس عن أخيه أبى بكر عبد الحميد عن سليمان بن بلال . ورواه مسلم عن هرون بن سعيد عن ابن وهب عن سليمان قال فزاد ونقص وقدم وأخر وهو كما قال مسلم فإن شريك بن عبد الله بن أبى نمر اضطرب فى هذا الحديث وساء حفظه ولم يضبطه كما سيأتى بيانه إن شاء الله فى الأحاديث الأخر ومنهم من يجعل هذا مناما توطئة لما وقع بعد ذلك والله أعلم . وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقى فى حديث شريك زيادة تفرد بها على مذهب من زعم أنه صلى الله عليه وسلم رأى الله عز وجل يعنى قوله ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى . قال وقول عائشة وابن مسعود وأبى هريرة فى حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل أصح وهذا الذى قاله البيهقى رحمه الله فى هذه المسألة هو الحق فإن أبا ذر قال يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ قال « نور أنى أراه » وفى رواية « رأيت نورا » أخرجه مسلم وقوله (ثم دنا فتدلى) إنما هو جبريل عليه السلام كما ثبت ذلك فى الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين ، وعن ابن مسعود وكذلك هو فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة فى تفسير هذه الآية بهذا

وقال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا ثابت البنانى عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته

فسار بى حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة بالحلقة التى يربط فيها الأنبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل : أصبت الفطرة قال ثم عرج بى إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى فرحبا بى ودعوا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك قال ؟ محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطى الشطر الحسن فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟ قال جبريل فقيل ومن معك ؟ قال محمد فقيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بى ودعا لى بخير ثم يقول الله تعالى (ورفعناه مكانا عليا) ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟ قال جبريل فقيل ومن معك ؟ قال محمد فقيل قد أرسل إليه ! قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك ! قال محمد فقيل وقد بعث إليه ! قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام فرحب بى ودعا لى بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت! قال جبريل قيل ومن معك ! قال محمد فقيل. وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام وإذا هو مستند إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه ، ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها قال فأوحى الله إلى ما أوحى ، وقد فرض على فى كل يوم وليلة خمسين صلاة فنزلت حتى أتهيت إلى موسى قال ما فرض ربك على أمتك ! قلت خمسين صلاة فى كل يوم وليلة قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فان أمتك لا تطيق ذلك وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم قال فرجعت إلى ربى فقلت أى رب خفف عن أمتى فحط عنى خمسا فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال ما فعلت فقلت قد حط عنى خمسا فقال إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك قال فلم أزل أرجع بين ربى وبين موسى ويحط عنى خمسا خمسا حتى قال : يا محمد هن خمس صلوات فى كل يوم وليلة بكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب فان عملها كتبت سيئة واحدة . فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك فان أمتك لا تطيق ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد رجعت إلى ربى حتى استحييت » ورواه مسلم عن شيبان بن فروخ عن حماد بن سلمة بهذا السياق وهو أصح من سياق شريك . قال . البيهقى وفى هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس وهذا الذى قاله هو الحق الذى لا شك فيه ولا مرية ، وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بالبراق ليلة أسرى به مسرجا ملجما ليركبه فاستصعب عليه فقال له جبريل ما يحملك على هذا فوالله ما ركبك قط أكرم على الله منه . قال فارفض عرقا ورواه الترمذى عن إسحق بن منصور عن عبد الرزاق وقال غريب لا نعرفه إلا من حديثه . وقال أحمد أيضا حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثنى راشد بن سعيد وعبد الرحمن بن جبير عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما عرج بى إلى ربى عز وجل مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم » وأخرجه أبو داود من حديث صفوان بن عمرو به ومن وجه آخر ليس فيه أنس فالله أعلم ، وقال أيضا حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن سليمان التيمى عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسرى بى على موسى عليه السلام قائما يصلى فى قبره » ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة عن سليمان بن طرخان

التيمى وثابت البنانى كلاهما عن أنس قال النسائى هـذا أصح من رواية من قال سليمان عن ثابت عن أنس ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده حدثنا وهب بن بقية حدثنا خالد عن التيمى عن أنس قال أخبرنى بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به مر على موسى وهو يصلى فى قبره ، وقال أبو يعلى حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة حدثنا معتمر عن أبيه قال سمعت أنسا أن النبى صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به مر بموسى وهو يصلى فى قبره قال أنس ذكر أنه حمل على البراق فأوثق الدابة أو قال الفرس . قال أبو بكر صفها لى فقال رسول الله ﷺ « هى كذه وذه » فقال أشهد أنك رسول الله وكان أبو بكر رضى الله عنه قد رآها ، وقال الحافظ أبو بكر أحمد ابن عمرو البزار فى مسنده حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا سعيد بن منصور حدثنا الحارث بن عبيد عن أبى عمران الجونى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم « بينا أنا نائم إذ جاء جبريل عليه السلام فوكز بين كتفى فقمت إلى شجرة فيها كوكرى الطير فقعد فى أحدهما وقعدت فى الآخر فسمت وارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب طرفى ولو شئت أن أمس السماء لمسست فالتفت إلى جبريل كأنه حلس لاط فعرفت فضل علمه بالله على وفتح لى باب من أبواب السماء فرأيت النور الأعظم وإذا دون الحجاب رفرف الدر والياقوت وأوحى إلى ما شاء الله أن يوحى » ثم قال ولا نعلم روى هذا الحديث إلا أنس ولا نعلم رواه عن أبى عمران الجونى إلا الحارث ابن عبيد وكان رجلا مشهوراً من أهل البصرة . ورواه الحافظ البيهقى فى الدلائل عن أبى بكر القاضى عن أبى جعفر محمد بن على بن دحيم عن محمد بن الحسين بن أبى الحسين عن سعيد بن منصور فذكره بسنده مثله ثم قال وقال غيره فى هـذا الحديث فى آخره ولط دونى أو قال دون الحجاب رفرف الدر والياقوت ثم قال هـكذا رواه الحارث ابن عبيد ورواه حماد بن سلمة عن أبى عمران الجونى عن محمد بن عمير بن عطارد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى ملإ من أصحابه فجاء جبريل فنكت فى ظهره فذهب به إلى الشجرة وفيها مثل وكرى الطير فقعد فى أحدهما وقعد جبريل فى الآخر فنشأت بنا حتى بلغت الأفق فلو بسطت يدى إلى السماء لنلتها فدلى بسبب وهبط إلى النور فوقع جبريل مغشيا عليه كأنه حلس فعرفت فضل خشيته على خشيتى فأوحى إلى نبيا ملكا أو نبيا عبدا وإلى الجنة ما أنت فأومأ إلى جبريل وهو مضطجع أن تواضع قال قلت لا بل نبياً عبداً قلت وهذا إن صح يقتضى أنها واقعة غير ليلة الإسراء فإنه لم يذكر فيها بيت المقدس ولا الصعود إلى السماء فهى كائنة غير ما نحن فيه والله أعلم . وقال البزار أيضا حدثنـا عمرو بن عيسى حدثنا أبو بحر حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه عز وجل . وهـذا غريب . وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا يونس حدثنا عبد الله بن وهب حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن الزهرى عن أبيه عن عبد الرحمن ابن هاشم بن عتبة بن أبى وقاص عن أنس بن مالك قال : لما جاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق فكأنها حركت ذنبها فقال لهـا جبريل مه يا براق فوالله ما ركبك مثله وسار رسـول الله تعالى عليه وسلم فإذا هو بعجوز على جانب الطريق فقال « ما هذه يا جبريل ؟ » قال سر يا محمد ، قال فسار ما شاء الله أن يسير فإذا شىء يدعوه متنحيا عن الطريق فقال هلم يا محمد فقال له جبريل سر يا محمد فسار ما شاء الله أن يسير ، قال فلقيه خلق من خلق الله فقالوا السلام عليك يا أول ، السلام عليك يا آخر ، السلام عليك يا حاشر ، فقال له جبريل اردد السلام يا محمد فرد السلام ، ثم لقيه الثانيـة فقال له مثل مقالته الأولى ثم الثالثة كذلك حتى انتهى إلى بيت المقدس فعرض عليه الخمر والمـاء واللبن فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم اللبن فقال له جبريل أصبت الفطرة ولو شربت المـاء لغرقت وغرقت أمتك ، ولو شربت الخمـر لغويت ولغوت أمتك ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبيـاء عليهم السـلام فأمهم رسـول الله صـلى الله عليه وسلم تلك الليلة . ثم قال له جبريل : أما العجوز التى رأيت على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا كما بقى من عمر تلك العجوز . وأما الذى أراد أن تميل إليه فذاك عدو الله إبليس أراد أن تميـل إليه ، وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وهكذا رواه الحافظ البيهقى فى دلائل النبوة من حديث ابن وهب . وفى بعض ألفاظه نكارة وغرابة ﴿ طريق أخرى ﴾ عن أنس بن مالك وفيها غرابة ونـكارة جداً وهى فى سنن النسائى

المجتبى ولم أرها فى الكبير قال : حدثنا عمرو بن هشام حدثنا مخلد هو ابن الحسين عن سعيد بن عبد العزيز حدثنا يزيد بن أبى مالك حدثنا أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل خطوها عند منتهى طرفها فركبت ومعى جبريل عليه السلام فسرت فقال انزل فصل فصليت ، فقال أتدرى أين صليت ؟ صليت بطيبة وإليها المهاجرة ، ثم قال انزل فصل فصليت فقال أتدرى أين صليت ؟ صليت بطور سيناء حيث كلم الله موسى ؛ ثم قال انزل فصل فصليت، فقال أتدرى أين صليت ، صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام ، ثم دخلت بيت المقدس فجمع لى الأنبياء عليهم السلام فقدمنى جبريل عليه السلام حتى أممتهم ثم صعد بى إلى السماء الدنيا فإذا فيها آدم عليه السلام ، ثم صعد بى إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة عيسى ويحيى عليهما السلام ، ثم صعد بى إلى السماء الثالثة فإذا فيها يوسف عليه السلام ، ثم صعد بى إلى السماء الرابعة فإذا فيها هارون عليه السلام ، ثم صعد بى إلى السماء الخامسة فإذا فيها إدريس عليه السلام . ثم صعد بى إلى السماء السادسة فإذا فيها موسى عليه السلام ، ثم صعد بى إلى السماء السابعة فإذا فيها إبراهيم عليه السلام ، ثم صعد بى فوق سبع سموات وأتيت سدرة المنتهى فغشتنى ضبابة فخررت ساجداً فقيل لى إنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك فرجعت بذلك حتى أمر بموسى عليه السلام فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة ، قال فانك لا تستطيع ان تقوم بها لا أنت ولا أمتك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فرجعت إلى ربى فخفف عنى عشراً ، ثم أتيت موسى فأمرنى بالرجوع فرجعت فخفف عنى عشراً ثم ردت إلى خمس صلوات ، قال فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فانه فرض على بنى إسرائيل صلاتين فما قاموا بهما فرجعت إلى ربى عزوجل فسألته التخفيف فقال إنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمس صلوات فخمس بخمسين فقم بها أنت وأمتك ، قال فعرفت أنها من الله عزوجل صرى فرجعت إلى موسى عليه السلام فقال ارجع فعرفت أنها من الله عزوجل صرى — يقول أى حتم — فلم أرجع » ﴿ طريق أخرى ﴾ وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام ابن عمار حدثنا خالد بن يزيد بن أبى مالك عن أبيه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما كان ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس أتاه جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل حمله جبريل عليها ينتهى خفها حيث ينتهى طرفها ، فلما بلغ بيت المقدس وبلغ المكان الذى يقال له باب محمد صلى الله عليه وسلم أتى إلى الحجر الذى ثمة فغمزه جبريل بأصبعه فثقبه ثم ربطها ثم صعد فلما استويا فى صرحة المسجد قال جبريل يا محمد هل سألت ربك أن يريك الحور العين ؟ فقال « نعم » فقال فانطلق إلى أولئك النسوة فسلم عليهن وهن جلوس عن يسار الصخرة ، قال « فأتيتهن فسلمت عليهن فرددن على السلام فقلت من أنتن فقلن نحن خيرات حسان نساء قوم أبرار نقوا فلم يدرنوا . وأقاموا فلم يظعنوا ، وخلدوا فلم يموتوا ، قال ثم انصرفت فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة قال فقمنا صفوفا ننتظر من يؤمنا فأخذ بيدى جبريل عليه السلام فقدمنى فصليت بهم ، فلما انصرفت قال جبريل يا محمد أتدرى من صلى خلفك — قال — قلت لا — قال — صلى خلفك كل نبى بعثه الله عز وجل — قال — ثم أخذ بيدى جبريل فصعد بى إلى السماء فلما انتهينا إلى الباب استفتح فقالوا من أنت ؟ قال أنا جبريل ، قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد بعث إليه قال نعم — قال — ففتحوا له وقالوا مرحباً بك وبمن معك — قال — فلما استوى على ظهرها إذا فيها آدم فقال لى جبريل يا محمد ألا تسلم على أبيك آدم — قال — قلت بلى فأتيته فسلمت عليه فرد على وقال مرحبا بابنى الصالح والنبى الصالح — قال — ثم عرج بى إلى السماء الثانية فاستفتح فقالوا من أنت قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد ، قالوا وقد بعث إليه قال نعم ففتحوا له وقالوا مرحباً بك وبمن معك فإذا فيها عيسى وابن خالته يحيى عليهما السلام ، — قال — ثم عرج بى إلى السماء الثالثة فاستفتح ، قالوا من أنت ؟ قال جبريل ؛ قالوا ومن معك ؟ قال محمد قالوا وقد بعث إليه ؟ قال نعم ففتحوا له وقالوا مرحباً بك وبمن معك فإذا فيها يوسف عليه السلام ، ثم عرج بى إلى السماء الرابعة فاستفتح قالوا من أنت ؟ قال جبريل ، قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد بعث إليه قال نعم — قال — ففتحوا له وقالوا له مرحباً بك

وبمن معك فإذا فيها إدريس عليه السلام –قال– فعرج بى إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقالوا من أنت قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد ، قالوا وقد بعث إليه ؟ قال نعم –قال– ففتحوا وقالوا مرحباً بك وبمن معك وإذا فيها هرون عليه السلام ، ثم عرج بى إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقالوا من أنت ، قال جبريل ، قالوا ومن معك ؟ قال محمد ، قالوا وقد بعث إليه ؟ قال نعم –قال– ففتحوا وقالوا مرحباً بك وبمن معك ، وإذا فيها موسى عليه السلام ، ثم عرج بى إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقالوا من أنت قال جبريل ، قالوا ومن معك قال محمد ، قالوا وقد بعث إليه ؟ قال نعم ففتحوا له وقالوا مرحباً بك وبمن معك وإذا فيها إبراهيم عليه السلام فقال جبريل يامحمد ألا تسلم على أبيك إبراهيم ؟ قلت بلى فأتيته فسلمت عليه فرد على السلام وقال مرحباً بابنى الصالح والنبى الصالح ، ثم انطلق بى على ظهر السماء السابعة حتى انتهى بى إلى نهر عليه خيام اللؤلؤ والياقوت والزبرجد وعليه طير خضر أنعم طير رأيت فقلت ياجبريل إن هذا الطير لناعم قال يامحمد آكله أنعم منه ثم قال يامحمد أتدرى أى نهر هذا –قال– قلت لا ، قال هذا الكوثر الذى أعطاك الله إياه فإذا فيه آنية الذهب والفضة يجرى على رضراض من الياقوت والزمرد ماؤه أشد بياضاً من اللبن –قال– فأخذت من آنيته آنية من الذهب فاغترفت من ذلك الماء فشربت فإذا هو أحلى من العسل وأشد رائحة من المسك ثم انطلق بى حتى انتهيت إلى الشجرة فغشيتنى سحابة فيها من كل لون فرفضنى جبريل وخررت ساجدا لله عز وجل فقال الله لى : يا محمد انى يوم خلقت السموات والأرض افترضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك –قال– ثم انجلت عنى السحابة فأخذ بيدى جبريل فانصرفت سريعا فأتيت على إبراهيم فلم يقل لى شيئاً ، فأتيت على موسى فقال ماصنعت يامحمد ؟ فقلت فرض ربى علىّ وعلى أمتى خمسين صلاة . قال فلن تستطيعها أنت ولا أمتك فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك فرجعت سريعاً حتى انتهيت إلى الشجرة فغشيتنى السحابة ورفضنى جبريل وخررت ساجدا وقلت رب إنك فرضت علىّ وعلى أمتى خمسين صلاة ولن أستطيعها أنا ولا أمتى فخفف عنا قال قد وضعت عنكم عشرا –قال– ثم انجلت عنى السحابة وأخذ بيدى جبريل –قال– فانصرفت سريعاً حتى أتيت على إبراهيم فلم يقل لى شيئاً ثم أتيت على موسى فقال لى ماصنعت يامحمد ؟ فقلت وضع عنى ربى عشرا قال فأربعون صلاة لن تستطيعها أنت ولا أمتك فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنكم . فذكر الحديث كذلك إلى خمس صلوات وخمس بخمسين ثم أمره موسى أن يرجع فيسأله التخفيف فقلت إنى قد استحييت منه تعالى » قال ثم انحدر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل «مالى لم آت أهل سماء إلا رحبوا بى وضحكوا لى غير رجل واحد فسلمت عليه فرد على السلام ورحب بى ولم يضحك لى» قال يا محمد ذاك مالك خازن جهنم لم يضحك منذ خلق ولو ضحك إلى أحد لضحك إليك ، قال ثم ركب منصرفا فبينا هو فى بعض الطريق مر بعير لقريش تحمل طعاما منها جمل عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء فلما حاذى بالعير نفرت منه واستدارت وصرع ذلك البعير وانكسر ، ثم إنه مضى فأصبح فأخبر عما كان فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا يا أبا بكر هل لك فى صاحبك ؟ يخبر أنه أتى فى ليلته هذه مسيرة شهر ورجع فى ليلته فقال أبوبكر رضى الله عنه إن كان قاله فقد صدق وإنا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا لنصدقه على خبر السماء فقال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ماعلامة ماتقول قال «مررت بعير لقريش وهى فى مكان كذا وكذا فنفرت الإبل منا واستدارت وفيها بعير عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء فصرع فانكسر» فلما قدمت العير سألوهم فأخبروهم الخبر على على مثل ماحدثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ذلك سمى أبو بكر الصديق وسألوه وقالوا هل كان فيمن حضر معك موسى وعيسى ؟ قال «نعم» قالوا فصفهم لنا قال «نعم أما موسى فرجل آدم كأنه من رجال أزدعمان ، وأما عيسى فرجل ربعة سبط تعلوه حمرة كأنما يتحادر من شعره الجمان » هذا سياق فيه غرائب عجيبة ﴿رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة﴾ قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام قال سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك أن مالك بن صعصعة حدثه أن نبى الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسرى به قال « بينما أنا فى الحطيم – وربما قال قتادة فى الحجر– مضطجعا إذ أتانى آت فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة –قال– فأتانى فقدّ – سمعت قتادة يقول فشق – ما بين هذه

إلى هـذه » وقال قتادة فقلت للجارود وهو إلى جنبي مايعنى قال من ثغرة نحره إلى شعرته وقد سمعته يقول من قصته إلى شعرته قال «فاستخرج قلبي — قال — فأتيت بطست من ذهب مملوء إيمانا وحكمة فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض » قال فقال الجارود هو البراق يا أبا حمزة ؟ قال نعم يقع خطوه عند أقصى طرفه قال «فحملت عليه فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى أتى بي إلى السماء الدنيا فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل أو قد أرسل إليه ؟ قال نعم فقيل مرحباً به ولنعم المجيء جاء — قال — ففتح لنا فلما خلصت فإذا فيها آدم عليه السلام قال هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح فقيل من هذا فقال جبريل قيل ومن معك؟ قال محمد قيل أوقد أرسل إليه ؟ قال نعم قيل مرحباً به ولنعم المجيء جاء — قال — ففتح لنا فلما خلصت فإذا عيسى ويحي وهما ابنا الخالة قال هذان يحي وعيسى فسلم عليهما — قال — فسلمت فردا السلام ثم قالا مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح فقيل من هذا ؟ قال جبريل قيل ومن معك؟ قال محمد قيل أو قد أرسل إليه؟ قال نعم قيل مرحباً به ولنعم المجيء جاء — قال — ففتح لنا فلما خلصت إذا يوسف عليه السلام قال هذا يوسف — قال — فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح فقيل من هذا ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل أوقد أرسل إليه ؟ قال نعم قيل مرحباً به ولنعم المجيء جاء — قال — ففتح لنا فلما خلصت فإذا إدريس عليه السلام قال هذا إدريس قال فلما فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح — قال — ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل أوقد أرسل إليه قال نعم قيل مرحباً به ولنعم المجيء جاء ففتح لنا فلما خلصت فاذا هرون عليه السلام قال هذا هرون فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح — قال — ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل أوقد أرسل إليه ؟ قال نعم قيل مرحباً به ولنعم المجيء جاء ففتح لنا فلما خلصت فإذا أنا بموسى عليه السلام قال هذا موسى عليه السلام فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح — قال — فلما تجاوزته بكى قيل له ما يبكيك قال أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي . قال ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح قيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل أوقد بعث إليه قال نعم قيل مرحباً به ولنعم المجيء جاء قال ففتح لنا فلما خلصت فإذا إبراهيم عليه السلام فقال هذا إبراهيم فسلم عليه قال فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح — قال — ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر وإذا ورقها مثل آذان الفيلة فقال هذه سدرة المنتهى قال وإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات — قال — ثم رفع إلى البيت المعمور» قال قتادة وحدثنا الحسن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفاً ثم لا يعودون فيه ثم رجع إلى حديث أنس قال« ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل — قال — فأخذت اللبن قال هـذه الفطرة أنت عليها وأمتك — قال — ثم فرضت عليّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم — قال — فنزلت حتى أتيت موسى فقال ما فرض ربك على أمتك ؟ قال فقلت خمسين صلاة كل يوم قال إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك — قال — فرجعت فوضع عنى عشرا — قال — فرجعت إلى موسى فقال بم أمرت ؟ قلت بأربعين صلاة كل يوم قال إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك — قال — فرجت فوضع عنى عشراً أخر فرجعت إلى موسى فقال بم أمرت فقلت أمرت بثلاثين صلاة قال إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم ,وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك — قال — فرجعت فوضع عنى عشراً أخر فرجعت إلى موسى فقال بم أمرت ؟ قلت بعشرين صلاة كل يوم فقال إن أمتك لا تستطيع

لعشرين صلاة كل يوم وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك قال فرجعت فوضع عني عشراً أخر فرجعت إلى موسى فقال بم أمرت ؟ فقلت أمرت بعشر صلوات كل يوم فقال إن أمتك لا تستطيع لعشر صلوات كل يوم وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك — قال — فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى فقال بم أمرت فقلت أمرت بخمس صلوات كل يوم فقال إن أمتك لا تستطيع لخمس صلوات كل يوم وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك — قال — قلت قد سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم فنفذت فنادى مناد قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي » وأخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة بنحوه . ﴿رواية أنس عن أبي ذر﴾ قال البخاري حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن أنس ابن مالك قال كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال « فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء افتح قال من هذا قال جبريل قال هل معك أحد قال نعم معي محمد صلى الله عليه وسلم فقال أرسل إليه ؟ قال نعم فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح — قال — قلت لجبريل من هذا قال وهذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين منهم أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى ثم عرج بي إلى السماء الثانية فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال له الأول ففتح » قال أنس فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم ولم يثبت كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة قال أنس فلما مر جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم بادريس قال مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح فقلت من هذا قال إدريس ثم مر بموسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح فقلت من هذا قال هذا موسى ثم مررت بعيسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح قلت من هذا ؟ قال هذا عيسى ثم مررت بإبراهيم فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قلت من هذا قال هذا إبراهيم قال الزهري فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان قال النبي ﷺ « ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام » قال ابن حزم وأنس بن مالك قال رسول الله ﷺ « ففرض الله على أمتي خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى مررت على موسى عليه السلام فقال ما فرض الله على أمتك قلت فرض خمسين صلاة قال موسى فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك فرجعت فوضع شطرها فرجعت إلى موسى قلت وضع شطرها فقال ارجع إلى ربك فان أمتك لا تطيق ذلك فرجعت فوضع شطرها فرجعت إليه فقال ارجع إلى ربك فان أمتك لا تطيق ذلك فراجعته فقال هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي فرجعت إلى موسى فقال ارجع إلى ربك قلت قد استحييت من ربي، ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ماهي ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبائل اللؤلؤ وإذا ترابها المسك » وهذا لفظ البخاري في كتاب الصلاة ورواه في ذكر بني إسرائيل وفي الحج وفي أحاديث الأنبياء من طرق أخرى عن يونس به ؛ ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان عن حرملة عن ابن وهب عن يونس به نحوه

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام عن قتادة عن عبد الله بن شقيق قال قلت لأبي ذر لو رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لسألته قال وما كنت تسأله قال كنت أسأله هل رأى ربه فقال إني قد سألته فقال « قد رأيته نوراً أنى أراه » هكذا قد وقع في رواية الإمام أحمد وأخرجه مسلم في صحيحه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك قال « نور أنى أراه » وعن محمد بن بشار عن معاذ بن هشام حدثنا أبي عن قتادة عن عبد الله بن شقيق قال قلت لأبي ذر لو رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لسألته فقال عن أي شيء كنت تسأله ؟ قال كنت أسأله هل رأيت ربك قال أبو ذر قد سألت

فقال رأيت نوراً ﴿ رواية أنس عن أبي بن كعب الأنصاري رضي الله عنه ﴾ قال عبد الله بن الإمام أحمد حدثنا محمد ابن إسحق بن محمد المسيبي حدثنا أنس بن عياض حدثنا يونس بن يزيد قال : قال ابن شهاب قال أنس بن مالك كان أبي بن كعب يحدث أن رسول الله ﷺ قال « فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانا فأفرغها في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء فلما جاء السماء الدنيا إذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة فإذا نظر قبل يمينه تبسم وإذا نظر قبل يساره بكى فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قال قلت لجبريل من هذا ؟ قال هذا آدم وهذه الأسودة التي عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل يمينه هم أهل الجنة والأسودة التي عن شماله هم أهل النار فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل يساره بكى — قال — ثم عرج بي جبريل حتى أتى السماء الثانية فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح له » قال أنس فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وإبراهيم وعيسى ولم يثبت لي كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم عليه السلام في السماء الدنيا ، وإبراهيم في السماء السادسة ، قال أنس فلما مر جبريل عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم بإدريس قال مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح ، قال « قلت من هذا يا جبريل قال هذا إدريس ، — قال — ثم مررت بموسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح فقلت من هذا قال هذا موسى ، ثم مررت بعيسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح ، قلت من هذا قال هذا عيسى بن مريم — قال — ثم مررت بإبراهيم فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قلت من هذا قال هذا إبراهيم » قال ابن شهاب وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثم عرج بي حتى ظهرتُ لمستوى أسمع صريف الأقلام » قال ابن حزم وأنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فرض الله على أمتي خمسين صلاة ، قال فرجعت بذلك حتى أمر على موسى فقال موسى ماذا فرض ربك على أمتك قلت فرض عليهم خمسين صلاة ، فقال لي موسى راجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك قال فراجعت ربي فوضع شطرها فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك فرجعت فقال هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي ، قال فرجعت إلى موسى فقال راجع ربك فقلت قد استحييت من ربي ، قال ثم انطلق بي حتى أتى سدرة المنتهى قال فغشيها ألوان ما أدري ما هي قال ثم دخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك » هكذا رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه وليس هو في شيء من الكتب الستة ، وقد تقدم في الصحيحين من طريق يونس عن الزهري عن أنس عن أبي ذر مثل هذا السياق سواء فالله أعلم

﴿ رواية بريدة بن الحصيب الأسلمي ﴾ قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عبد الرحمن بن المتوكل ويعقوب بن إبراهيم واللفظ له قالا : حدثنا أبو تميلة حدثنا الزبير بن جنادة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما كان ليلة أسري بي — قال — فأتى جبريل الصخرة التي ببيت المقدس — قال — فوضع أصبعه فيها فخرقها فشد بها البراق » ثم قال البزار لا نعلم رواه عن الزبير بن جنادة إلا أبو تميلة ولا نعلم هذا الحديث إلا عن بريدة وقد رواه الترمذي في التفسير من جامعه عن يعقوب بن إبراهيم الدورقي به وقال غريب . ﴿ رواية جابر بن عبد الله رضي الله عنه ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب قال: قال أبو سلمة سمعت جابر بن عبد الله يحدث أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » أخرجاه في الصحيحين من طرق عن حديث الزهري به ، وقال البيهقي حدثنا أحمد بن الحسن القاضي حدثنا أبو العباس الأصم حدثنا العباس بن محمد الدوري حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا أبي عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب قال سمعت سعيد بن المسيب يقول : إن رسول الله ﷺ حين انتهى إلى بيت المقدس لقي فيه إبراهيم وموسى وعيسى وإنه أتي بقدحين قدح من لبن وقدح من خمر فنظر إليهما ثم أخذ قدح اللبن فقال جبريل أصبت هديت للفطرة لو أخذت الخمر لغوت أمتك ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة فأخبر أنه أسري به فافتتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه . وقال ابن شهاب قال أبو سلمة بن عبد الرحمن فتجهز أو كلمة نحوها ناس من قريش إلى

أبى بكر فقالوا هل لك فى صاحبك يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة فى ليلة واحدة . فقال أبوبكر أوقال ذلك ؟ قالوا نعم ، قال فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا فتصدقه فى أن يأتى الشأم فى ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح ؟ قال نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء . قال أبوسلمة فبها سمى أبوبكر الصديق. قال أبو سلمة فسمعت جابر بن عبد الله رضى الله عنهما يحدث أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس قمت فى الحجر فجلى الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»

﴿ رواية حذيفة بن اليمان رضى الله عنه ﴾ قال الإمام أحمد ثنا أبو النضر ثنا سليمان عن شيبان عن عاصم عن زر بن حبيش قال أتيت على حذيفة بن اليمان رضى الله عنه وهو يحدث عن ليلة أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم وهو يقول : فانطلقا حتى أتيا بيت المقدس فلم يدخلاه قال قلت بل دخله رسول الله ﷺ ليلتئذ وصلى فيه قال ما اسمك يا أصلع ؟ فأنا أعرف وجهك ولا أدرى مااسمك قال قلت أنا زر بن حبيش قال فما علمك بأن رسول الله ﷺ صلى فيه ليلتئذ قال قلت القرآن يخبرنى بذلك قال فمن تكلم بالقرآن فلج اقرأ قال فقلت (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) قال يا أصلع هل تجد صلى فيه ؟ قلت لا قال والله ما صلى فيه رسول الله ﷺ ليلتئذ ولو صلى فيه لكتب عليكم صلاة فيه كما كتب عليكم صلاة فى البيت العتيق والله ما زايلا البراق حتى فتحت لهما أبواب السماء فرأيا الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع ثم عادا عودهما على بدئهما قال ثم ضحك حتى رأيت نواجذه . قال وتحدثونى أنه ربطه لايفر منه وإنما سخره له عالم الغيب والشهادة قلت أبا عبد الله أى دابة البراق ؟ قال دابة أبيض طويل هكذا خطوه مد البصر . ورواه أبو داود الطيالسى عن حماد ابن سلمة عن عاصم به ورواه الترمذى والنسائى فى التفسير من حديث عاصم وهو ابن أبى النجود به وقال الترمذى حسن وهذا الذى قاله حذيفة رضى الله عنه نفى ما أثبته غيره عن رسول الله ﷺ من ربط الدابة بالحلقة ومن الصلاة ببيت المقدس مما سبق وما سبق مقدم على قوله والله أعلم بالصواب

﴿ رواية أبى سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى ﴾ قال الحافظ أبوبكر البيهقى فى كتاب دلائل النبوة حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أبو بكر يحيى بن أبى طالب حدثنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا أبو محمد راشد الحمانى عن أبى هرون العبدى (١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال له أصحابه يا رسول الله أخبرنا عن ليلة أسرى بك فيها قال : قال الله عز وجل (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) الآية قال فأخبرهم قال « فبينما أنا نائم عشاء فى المسجد الحرام إذ أتانى آت فأيقظنى فاستيقظت فلم أر شيئا فإذا أنا بكهيئة خيال فأتبعته بصرى حتى خرجت من المسجد الحرام فإذا أنا بدابة أدنى شبها بدوابكم هذه ، بغالكم هذه غير أنه مضطرب الأذنين يقال له البراق وكانت الأنبياء تركبه قبلى يقع حافره عند مد بصره فركبته فبينما أنا أسير عليه إذ دعانى داع عن يمينى يامحمد انظرنى أسألك يامحمد انظرنى أسألك فلم أجبه ولم أقم عليه ، فبينما أنا أسير عليه إذ دعانى داع عن يسارى يا محمد انظرنى أسألك فلم أجبه ولم أقم عليه ، فبينما أنا أسير إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها وعليها من كل زينة خلقها الله فقالت يامحمد انظرنى أسألك فلم ألتفت إليها ولم أقم عليها حتى أتيت بيت المقدس فأوثقت دابتى بالحلقة التى كانت الأنبياء توثقها بها ثم أتانى جبريل عليه السلام بإناءين أحدهما خمر والآخر لبن فشربت اللبن وأبيت الخمر فقال جبريل أصبت الفطرة أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك فقلت الله أكبر الله أكبر فقال جبريل مارأيت فى وجهك هذا ؟ قال فقلت بينما أنا أسير إذ دعانى داع عن يمينى يامحمد أنظرنى أسألك فلم أجبه ولم أقم عليه قال ذاك داعى اليهود أما إنك لو أجبته أووقفت عليه لتهودت أمتك — قال — فبينما أنا أسير إذ دعانى داع عن يسارى قال يامحمد انظرنى أسألك فلم ألتفت ولم أقم عليه قال ذاك داعى النصارى أما إنك لو أجبته لتنصرت أمتك — قال — فبينما أنا أسير إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها عليها من كل زينة خلقها الله تقول يامحمد انظرنى أسألك فلم أجبها ولم أقم عليها قال تلك الدنيا أما إنك لو أجبتها أو قمت عليها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة . قال ثم دخلت أنا وجبريل بيت

(١) هو ضعيف وقيل كذاب .

المقدس فصلى كل واحد منا ركعتين ثم أتيت بالمعراج الذى كانت تعرج عليه أرواح الأنبياء فلم ير الخلائق أحسن من المعراج أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحا إلى السماء فإنما يشق بصره طامحا إلى السماء عجبه بالمعراج قال فصعدت أنا وجبريل فاذا أنا بملك يقال له إسماعيل وهو صاحب السماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنوده مائة ألف ملك قال : قال الله عز وجل (وما يعلم جنود ربك إلا هو) قال فاستفتح جبريل باب السماء قيل من هذا ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل أو قد بعث إليه ، قال نعم فاذا أنا بآدم كهيئته يوم خلقه الله عز وجل على صورته ؟ فاذا هو تعرض عليه أرواح ذريته من المؤمنين فيقول روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها فى عليين ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها فى سجين فمضيت هنيهة فاذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ليس يقربها أحد وإذا أنا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح وأنتن عندها أناس يأكلون منها قلت ياجبريل من هؤلاء ، قال هؤلاء من أمتك يأتون الحرام ويتركون الحلال ، قال ثم مضيت هنيهة فاذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل قال فتفتح أفواههم فيلقمون من ذلك الجمر ثم يخرج من أسافلهم فسمعتهم يضجون إلى الله عز وجل فقلت من هؤلاء ياجبريل ، قال هؤلاء من أمتك (الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) قال ثم مضيت هنيهة فاذا أنا بنساء تعلقن بثديهن فسمعتهن يضججن إلى الله عز وجل قلت ياجبريل من هؤلاء النساء ، قال هؤلاء الزناة[1] من أمتك. قال ثم مضيت هنيهة فاذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر فيقول اللهم لاتقم الساعة قال وهم على سابلة آل فرعون قال فتجىء السابلة فتطؤهم قال فسمعتهم يضجون إلى الله - قال - قلت ياجبريل من هؤلاء ، قال هؤلاء من أمتك (الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) قال ثم مضيت هنيهة فاذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه فيقال له كل كما كنت تأكل من لحم أخيك قلت ياجبريل من هؤلاء ، قال هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون قال ثم صعدنا إلى السماء الثانية فاذا أنا برجل أحسن ماخلق الله عزوجل قدفضل الناس فى الحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب قلت ياجبريل من هذا ، قال هذا أخوك يوسف ومعه نفر من قومه فسلمت عليه فرد علىّ ، ثم صعدنا إلى السماء الثالثة واستفتح فاذا أنا بيحيى وعيسى عليهما السلام ومعهما نفر من قومهما فسلمت عليهما وسلما علىّ ثم صعدنا إلى السماء الرابعة فاذا أنا بإدريس قد رفعه الله مكانا علياً فسلمت عليه فسلم علىّ ، ثم صعدنا إلى السماء الخامسة فاذا أنا بهرون ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء تكاد لحيته تصيب سرته من طولها قلت ياجبريل من هذا ، قال هذا المحبب فى قومه هذا هرون بن عمران ومعه نفر من قومه فسلمت عليه وسلم علىّ . ثم صعدت إلى السماء السادسة فاذا أنا بموسى بن عمران رجل آدم كثير الشعر لو كان عليه قميصان لنفذ شعره دون القميص فاذا هو يقول يزعم الناس أنى أكرم على الله من هذا بل هذا أكرم على الله منى قال قلت ياجبريل من هذا ، قال هذا أخوك موسى بن عمران عليه السلام ومعه نفر من قومه فسلمت عليه وسلم على ، ثم صعدت إلى السماء السابعة فاذا أنا بأبينا إبراهيم خليل الرحمن ساند ظهره إلى البيت المعمور كأحسن الرجال قلت ياجبريل من هذا ، قال هذا أبوك إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ومعه نفر من قومه فسلمت عليه فسلم علىّ وإذا أنا بأمتى شطرين شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس وشطر عليهم ثياب رمد - قال - فدخلت البيت المعمور ودخل معى الذين عليهم الثياب البيض وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمد وهم على خير فصليت أنا ومن معى فى البيت المعمور ثم خرجت أنا ومن معى . قال والبيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك لايعودون اليه إلى يوم القيامة قال ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فاذا كل ورقة منها تكاد تغطى هذه الأمة ، وإذا فيها عين تجرى يقال لها سلسبيل فينشق منها نهران (أحدهما) الكوثر (والآخر) يقال له نهر الرحمة فاغتسلت فيه فغفر لى ماتقدم من ذنبى وما تأخر . ثم إنى رفعت إلى الجنة فاستقبلتنى جارية فقلت لمن أنت ياجارية قالت لزيد بن حارثة وإذا بأنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، واذا رمانها كالدلاء عظما وإذا أنا بطيرها كأنها بختكم هذه فقال عندها ﷺ إن الله تعالى قد

---

(١) الزناة جمع زان فهو للمذكر ، وفى الخصائص اللاتى يزنين ويقتلن أولادهن .

أعد لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ـ قال ـ ثم عرضت على النار فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته ولو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها ثم أغلقت دونى ثم إنى رفعت إلى سدرة المنتهى فتغشانى فكان بينى وبينه قاب قوسين أو أدنى . قال وينزل على كل ورقة منها ملك من الملائكة ـ قال ـ وفرضت على خمسون صلاة ، وقال لك بكل حسنة عشر فإذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنة فإذا عملتها كتبت لك عشراً ؟ وإذا هممت بالسيئة فلم تعملها لم يكتب عليك شىء فان عملتها كتبت عليك سيئة واحدة ثم رجعت إلى موسى فقال بما أمرك ربك ؟ فقلت بخمسين صلاة قال ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك فان أمتك لا تطيق ذلك ، ومتى لا تطيقه تكفر فرجعت إلى ربى فقلت يا رب خفف عن أمتى فانها أضعف الأمم فوضع عنى عشراً وجعلها أربعين فما زلت أختلف بين موسى وربى كلما أتيت عليه قال لى مثل مقالته حتى رجعت إليه فقال لى بم أمرت فقلت أمرت بعشر صلوات قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فرجعت إلى ربى فقلت أى رب خفف عن أمتى فانها أضعف الأمم فوضع عنى خمساً وجعلها خمساً فنادانى ملك عندها تمت فريضتى وخففت عن عبادى وأعطيتهم بكل حسنة عشر أمثالها ثم رجعت إلى موسى فقال بم أمرت ؟ فقلت بخمس صلوات قال ارجع إلى ربك فانه لا يؤوده شىء فاسأله التخفيف لأمتك فقلت رجعت إلى ربى حتى استحييت » ثم أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب : إنى أتيت البارحة بيت المقدس وعرج بى إلى السماء ورأيت كذا وكذا فقال أبو جهل يعنى ابن هشام ألا تعجبون مما قال محمد ؟ يزعم أنه أتى البارحة بيت المقدس ثم أصبح فينا وأحدنا يضرب مطيته مصعدة شهرا ومقفلة شهرا فهذه مسيرة شهرين فى ليلة واحدة قال فأخبرتهم بعير لقريش لما كنت فى مصعدى رأيتها فى مكان كذا وكذا وأنها نفرت فلما رجعت وجدتها عند العقبة وأخبرهم بكل رجل وبعيره كذا وكذا ومتاعه كذا وكذا فقال أبو جهل يخبرنا بأشياء فقال رجل منهم أنا أعلم الناس ببيت المقدس وكيف بناؤه وهيئته وكيف قربه من الجبل فان يك محمد صادقا فسأخبركم وإن يك كاذباً فسأخبركم فجاء ذلك المشرك فقال يا محمد أنا أعلم الناس ببيت المقدس فأخبرنى كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل قال فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس من مقعده فنظر إليه كنظر أحدنا إلى بيته قال بناؤه كذا وكذا وهيئته كذا وكذا وقربه من الجبل كذا وكذا فقال الآخر صدقت فرجع إليهم فقال صدق محمد فيما قال أو نحوا من هذا الكلام وكذا رواه الإمام أبو جعفر بن جرير بطوله عن محمد بن عبد الأعلى عن محمد بن ثور عن معمر عن أبى هارون العبدى ، وعن الحسن بن يحيى عن عبد الرزاق عن معمر عن أبى هارون العبدى به ، ورواه أيضاً من حديث ابن إسحق حدثنى روح بن القاسم عن أبى هارون به نحو سياقه المتقدم ، ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه عن أحمد بن عبدة عن أبى عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد عن أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى فذكره بسياق طويل حسن أنيق أجود مما ساقه غيره على غرابته وما فيه من النكارة ، ثم ذكره البيهقى أيضا من رواية روح ابن قيس الحدانى وهشيم ومعمر عن أبى هارون العبدى واسمه عمارة بن جوين وهو مضعف عند الأئمة ، وإنما سقنا حديثه ههنا لما فيه من الشواهد لغيره ، ولما رواه البيهقى أخبرنا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن أنبأنا أبو نعيم أحمد بن محمد بن إبراهيم البزار حدثنا أبو حامد بن بلال حدثنا أبو الأزهر حدثنا يزيد بن أبى حكيم قال رأيت فى النوم رسول الله ﷺ قلت يا رسول الله رجل من أمتك يقال له سفيان الثورى لا بأس به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا بأس به » حدثنا عن أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى عنك يا رسول الله ليلة أسرى بك قلت رأيت فى السماء فحدثه بالحديث فقال لى « نعم » فقلت له يا رسول الله إن ناسا من أمتك يحدثون عنك فى السرى بعجائب ؟ فقال لى « ذلك حديث القصاص » ﴿ رواية شداد بن أوس ﴾ قال الإمام أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذى حدثنا إسحق ابن إبراهيم بن العلاء بن الضحاك الزبيدى حدثنا عمرو بن الحارث عن عبد الله بن سالم الأشعرى عن محمد بن الوليد ابن عامر الزبيدى حدثنا أبو الوليد بن عبد الرحمن عن جبير بن نفير حدثنا شداد بن أوس قال : قلنا يارسول الله كيف أسرى بك ؟ قال « صليت لأصحابى صلاة العتمة بمكة معتما فأتانى جبريل عليه السلام بدابة أبيض ـ أو قال بيضاء ـ فوق الحمار

ودون البغل فقال اركب فاستصعب عليّ فرازها بأذنها ثم حملني عليها فانطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث انتهى طرفها حتى بلغنا أرضاً ذات نخل فأنزلني فقال صل فصليت ثم ركبت فقال أتدرى أين صليت ؟ قلت الله أعلم ، قال صليت بيثرب صليت بطيبة فانطلقت تهوى بنا يقع حافرها عند منتهى طرفها ثم بلغنا أرضا قال انزل ثم قال صل فصليت ثم ركبنا فقال أتدرى أين صليت ؟ قلت الله أعلم ، قال صليت بمدين عند شجرة موسى ، ثم انطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها ثم بلغنا أرضا بدت لنا قصور فقال انزل فنزلت فقال صل فصليت ثم ركبنا فقال أتدرى أين صليت ! قلت الله أعلم ، قال صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى بن مريم ثم انطلق بى حتى دخلنا المدينة من بابها اليماني فأتى قبلة المسجد فربط فيه دابته ودخلنا المسجد من باب تميل فيه الشمس والقمر فصليت من المسجد حيث شاء الله وأخذنى من العطش أشد ما أخذنى فأتيت بإناءين فى أحدهما لبن وفى الآخر عسل أرسل إلى بهما جميعا فعدلت بينهما ثم هدانى الله عز وجل فأخذت اللبن فشربت حتى عرقت به جبيني وبين يدى شيخ متكىء على مثوات له فقال أخذ صاحبك الفطرة إنه لمهدى ، ثم انطلق بى حتى أتينا الوادى الذى فيه المدينة فإذا جهنم تنكشف عن مثل الروابى[1] قلت يا رسول الله كيف وجدتها ؟ قال وجدتها مثل الحمة السخنة ثم انصرف بى فمررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعيرا لهم قد جمعه فلان فسلمت عليهم فقال بعضهم هذا صوت محمد ثم أتيت أصحابى قبل الصبح بمكة فأتانى أبو بكر رضى الله عنه فقال يا رسول الله أين كنت الليلة فقد التمستك فى منانك ، فقال علمت أنى أتيت بيت المقدس الليلة ، فقال يا رسول الله إنه مسيرة شهر فصفه لى ، قال ففتح لى صراط كأنى أنظر إليه لا يسألنى عن شىء إلا أنبأته به ، فقال أبو بكر أشهد أنك لرسول الله ، وقال المشركون انظروا إلى ابن أبى كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة ، قال فقال إن من آية ما أقول لكم أنى مررت بعير لكم فى مكان كذا وكذا وقد أضلوا بعيرا لهم فجمعه لهم فلان وإن مسيرهم ينزلون بكذا ثم بكذا ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حين كان قريبا من نصف النهار حتى أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذى وصفه رسول الله ﷺ هكذا رواه البيهقى من طريقين عن أبى إسماعيل الترمذى به ثم قال بعد تمامه هذا إسناد صحيح ، وروى ذلك مفرقا من أحاديث غيره ونحن نذكر من ذلك إن شاء الله ما حضرنا ثم ساق أحاديث كثيرة فى الإسراء كالشاهد لهذا الحديث ، وقد روى هذا الحديث عن شداد بن أوس بطوله الإمام أبو محمد عبد الرحمن ابن أبى حاتم فى تفسيره عن أبيه عن إسحق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدى به ، ولا شك أن هذا الحديث أعنى الحديث المروى عن شداد بن أوس مشتمل على أشياء منها ما هو صحيح كما ذكره البيهقى ومنها ما هو منكر كالصلاة فى بيت لحم . وسؤال الصديق عن نعت بيت المقدس وغير ذلك والله أعلم ﴿رواية عبدالله بن عباس رضى الله عنهما﴾ قال الإمام أحمد حدثنا عثمان بن محمد حدثنا جرير عن قابوس عن أبيه قال حدثنا ابن عباس قال : ليلة أسرى برسول الله ﷺ دخل الجنة فسمع فى جانبها وخشا[2] فقال ياجبريل ما هذا ! قال هذا بلال المؤذن فقال النبى ﷺ حين جاء إلى الناس « قد أفلح بلال رأيت له كذا وكذا » قال فلقيه موسى عليه السلام فرحب به وقال مرحبا بالنبى الأمى قال وهو رجل آدم طويل سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما فقال من هذا يا جبريل ! قال هذا موسى ، قال فمضى فلقيه شيخ جليل متهيب فرحب به وسلم عليه وكلهم يسلم عليه قال من هذا يا جبريل قال هذا أبوك إبراهيم ـ قال ـ ونظر فى النار فإذا قوم يأكلون الجيف قال من هؤلاء ياجبريل قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ورأى رجلا أحمر أزرق جداً قال من هذا يا جبريل ! قال هذا عاقر الناقة ، ـ قال ـ : فلما أتى رسول الله ﷺ المسجد الأقصى قام يصلى فإذا النبيون أجمعون يصلون معه ، فلما انصرف جىء بقدحين أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال فى أحدهما لبن وفى الآخر عسل فأخذ اللبن فشرب منه فقال الذى كان معه القدح أصبت الفطرة إسناد صحيح ولم يخرجوه . ﴿طريق أخرى﴾ قال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ثابت أبو زيد حدثنا هلال حدثنى عكرمة عن ابن عباس قال : أسرى برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبعيرهم فقال ناس نحن لا نصدق محمداً بما يقول فارتدوا كفاراً فضرب

(١) فى نسخة الأزهر : والأميرية الزرابى ، وكذا فى الخصائص . (٢) فى النسخ كلها وخشا : وهو تصحيف ، والرجس بالجيم والسين الصوت الخفى .

الله رقابهم مع أبي جهل وقال أبوجهل يخوفنا محمد بشجرة الزقوم هاتوا تمرا وزبدا فتزقموا ، ورأى الدجال في صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام وعيسى وموسى وإبراهيم ، وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الدجال فقال « رأيته فيلمانيا أقمرهجان ، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب درى كأن شعر رأسه أغصان شجرة ، ورأيت عيسى عليه السلام أبيض جعدالرأس حديد البصر ومبطن الخلق ، ورأيت موسى عليه السلام أسحم آدم كثير الشعر شديد الخلق ، ونظرت إلى إبراهيم عليه السلام فلم أنظر إلى ارب منه إلا نظرت إليه مني حتى كأنه صاحبكم ، قال جبريل سلم على أبيك فسلمت عليه » ورواه النسائي من حديث أبي يزيد . ثابت بن يزيد عن هلال وهو ابن حبان به وهو إسناد صحيح

﴿طريق أخرى﴾ قال البيهقي أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا أبو بكر الشافعي أنبأنا إسحق بن الحسن حدثنا الحسين ابن محمد حدثنا شيبان عن قتادة عن أبي العالية قال حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت ليلة أسرى بي موسى بن عمران رجلا طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى بن مريم عليه السلام مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس » وأرى مالكا خازن جهنم والدجال في آيات أراهن الله إياه قال (فلا تكن في مرية من لقائه) فكان قتادة يفسرها أن نبي الله ﷺ قد لقي موسى عليه السلام (وجعلناه هدى لبني إسرائيل) قال جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل رواه مسلم في الصحيح عن عبد بن حميد عن يونس بن محمد عن شيبان وأخرجاه من حديث شعبه عن قتادة مختصرا ﴿طريق أخرى﴾ وقال البيهقي أخبرنا على بن أحمد بن عبدالله أنا أحمد بن عبيد الستار ثنا دبيس المعدل ثنا عفان قال ثنا حماد بن سلمة عن عطاء ابن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « لما أسرى بي مرت بي رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة ؟ قال ماشطة بنت فرعون وأولادها سقط المشط من يدها فقالت باسم الله فقالت بنت فرعون أبي قالت ربي وربك ورب أبيك قالت أولك رب غير أبي ؟ قالت نعم ربي وربك ورب أبيك الله . قال فدعاها فقال ألك رب غيرى قالت نعم ربي وربك الله عز وجل . قال فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ثم أمربها أن تلقى فيها قالت إن لي إليك حاجة قال ماهي ، قال تجمع عظامي وعظام ولدي في موضع قال ذاك لك لما لك علينا من الحق قال فأمر بهم فألقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعاً فيهم فقال يا أمه قعي ولا تقاعسي فإنك على الحق . قال وتكلم أربعة في المهد وهم صغار هذا وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم عليه السلام . إسناد لابأس به ولم يخرجوه ﴿طريق أخرى﴾ قال الإمام أحمد أيضاً حدثنا محمد بن جعفر وروح بن المعبن قالا حدثنا عوف عن زرارة ابن أوفى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « لما كان ليلة أسرى بي فأصبحت بمكة فظعت وعرفت أن الناس مكذبي» فقعد معتزلا حزيناً فمر به عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس اليه فقال له كالمستهزى هل كان من شيء ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم » قال وماهو ، قال « إني أسرى بي الليلة » قال إلى أين ، قال « الى بيت المقدس » قال ثم أصبحت بين ظهرانينا ، قال « نعم » قال فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه اليه ، فقال أرأيت ان دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم » فقال يامعشر بني كعب بن لؤى قال فانفضت اليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا اليهما قال حدث قومك بما حدثتني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني أسرى بي الليلة » فقالوا إلى أين ، قال « إلى بيت المقدس » قالوا ثم أصبحت بين ظهرانينا قال « نعم » قال فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب ، قالوا وتستطيع أن تنعت لنا المسجد وفيهم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد ، فقال رسول الله ﷺ « فما زلت أنعت حتى التبس على بعض النعت ـ قال ـ فجيء بالمسجد وأنا أنظر اليه حتى وضع دون دار عقيل ـ أو عقال ـ فنعته وأنا أنظر اليه ـ قال ـ وكان مع هذا نعت لم أحفظه ـ قال ـ فقال القوم أما النعت فوالله لقد أصاب فيه» وأخرجه النسائي من حديث عوف بن أبي جميلة وهو الأعرابي به ، ورواه البيهقي من حديث النضر بن شميل وهوذة عن عوف وهو ابن أبي جميلة الأعرابي أحد الأئمة الثقات ﴿ رواية عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ﴾ قال

الحافظ أبو بكر البيهقي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو عبدالله محمد بن يعقوب حدثنا السرى بن خزيمة حدثنا يوسف ابن بهلول حدثنا عبد الله بن نمير عن مالك بن مغول عن الزبير بن عدى عن طلحة بن مصرف عن مرة الهمداني عن عبدالله ابن مسعود قال : لما أسرى برسول الله ﷺ فانتهى إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة وإليها ينتهي ما يصعد به حتى يقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها حتى يقبض (إذ يغشى السدرة ما يغشى) قال غشيها فراش من ذهب وأعطى رسول الله ﷺ الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً المقحمات يعني الكبائر . ورواه مسلم في صحيحه عن محمد بن عبدالله بن نمير وزهير بن حرب كلاهما عن عبدالله بن نمير به ، ثم قال البيهقي وهذا الذي ذكره عبدالله ابن مسعود طرف من حديث المعراج ، وقد رواه أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم رواه مرة مرسلا من دون ذكرهما ثم إن البيهقي ساق الأحاديث الثلاثة كما تقدم قلت وقد روى عن ابن مسعود بأبسط من هذا وفيه غرابة وذلك فيما رواه الحسن بن عرفة في جزئه المشهور حدثنا مروان بن معاوية عن قتادة بن عبدالله التيمي حدثنا أبو ظبيان الجنبي قال : كنا جلوسا عند أبي عبيدة بن عبدالله يعني ابن مسعود ومحمد بن سعد بن أبي وقاص وهما جالسان فقال محمد بن سعد لأبي عبيدة حدثنا عن أبيك ليلة أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال أبو عبيدة لا بل حدثنا أنت عن أبيك فقال محمد لو سألتني قبل أن أسألك لفعلت ، قال فأنشأ أبو عبيدة يحدث يعني عن أبيه كما سئل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتاني جبريل عليه السلام بدابة فوق الحمار ودون البغل فحملني عليه ثم انطلق يهوى بنا كلما صعد عقبة استوت رجلاه كذلك مع يديه وإذا هبط استوت يداه مع رجليه حتى مررنا برجل طوال سبط آدم كأنه من رجال أزدشنوءة فيرفع صوته يقول أكرمته وفضلته قال فدفعنا اليه فسلمنا عليه فرد السلام فقال من هذا معك ياجبريل ؟ قال هذا أحمد ، قال مرحباً بالنبي الأمي العربي الذي بلغ رسالة ربه ونصح لأمته ، قال ثم اندفعنا فقلت من هذا ياجبريل ، قال هذا موسى بن عمران قال قلت ومن يعاتب قال يعاتب ربه فيك ، قلت ويرفع صوته على ربه قال إن الله قد عرف له حدته . قال ثم اندفعنا حتى مررنا بشجرة كأن ثمرها السرج تحتها شيخ وعياله قال فقال لي جبريل اعمد إلى أبيك إبراهيم فدفعنا اليه فسلمنا عليه فرد السلام فقال إبراهيم من هذا معك ياجبريل ، قال هذا ابنك أحمد قال فقال مرحباً بالنبي الأمي الذي بلغ رسالة ربه ونصح لأمته يابني إنك لاق ربك الليلة وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها فان استطعت أن تكون حاجتك أوجلها في أمتك فافعل . قال ثم اندفعنا حتى انتهينا إلى المسجد الأقصى فنزلت فربطت الدابة في الحلقة التي في باب المسجد التي كانت الأنبياء تربط بها ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين من بين قائم وراكع وساجد قال ثم أتيت بكأسين من عسل ولبن فأخذت اللبن فشربت فضرب جبريل عليه السلام منكبي وقال أصبت الفطرة ورب محمد قال ثم أقيمت الصلاة فأممتهم ثم انصرفنا فأقبلنا » إسناد غريب ولم يخرجوه ، فيه من الغرائب سؤال الأنبياء عنه عليه السلام ابتداء ثم سؤاله عنهم بعد انصرافه والمشهور في الصحاح كما تقدم أن جبريل كان يعلمه بهم أولا ليسلم عليهم سلام معرفة ، وفيه أنه اجتمع بالأنبياء عليهم السلام قبل دخوله المسجد الأقصى ، والصحيح أنه إنما اجتمع بهم في السموات ثم نزل إلى بيت المقدس ثانيا وهم معه وصلى بهم فيه ثم إنه ركب البراق وكر راجعاً إلى مكة والله أعلم ﴿طريق أخرى﴾ قال الإمام أحمد حدثنا هشيم حدثنا العوام عن جبلة بن سحيم عن مرثد بن جنادة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال « لقيت ليلة أسرى بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا أمر الساعة قال فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام فقال لا علم لي بها فردوا أمرهم إلى موسى فقال لا علم لي بها فردوا أمرهم إلى عيسى فقال أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل وفيما عهد إلى ربي أن الدجال خارج قال ومعي قضيبان فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص قال فيهلكه الله إذا رآني حتى إن الحجر والشجر يقول يامسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله قال فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم قال فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطأون بلادهم فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه ولا يمرون على ماء إلا شربوه قال ثم يرجع الناس إلي فيشكونهم فأدعوا الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم أي تنتن قال فينزل الله

المطر فيحترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر ففيا عهد إلى ربى أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلا أو نهارا . وأخرجه ابن ماجه عن بندار عن يزيد بن هارون عن العوام ابن حوشب رواية عبد الرحمن بن قرط أخى عبد الله بن قرط الثمالى قال سعيد بن منصور حدثنا مسكين بن ميمون مؤذن مسجد الرملة حدثنى عروة بن رويم عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى من بين زمزم والمقام جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فطارا به حتى بلغ السموات العلى فلما رجع قال سمعت تسبيحاً فى السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى من ذى المهابة مشفقات من ذى العلو بما علا سبحان العلى الأعلى سبحانه وتعالى . ونذكر ههنا الحديث عند قوله تعالى من هذه السورة (تسبح له السموات السبع) الآية

﴿ رواية عمر بن الخطاب رضى الله عنه ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا حماد بن سلمة عن أبى سنان عن عبيد بن آدم وأبى مريم وأبى شعيب أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان بالجابية فذكر فتح بيت المقدس قال : قال أبو سلمة فحدثنى أبو سنان عن عبيد بن آدم قال سمعت عمر بن الخطاب يقول لكعب أين ترى أن أصلى فقال إن أخذت عنى صليت خلف الصخرة فكانت القدس كلها بين يديك فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ضاهيت اليهودية ولكن أصلى حيث صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقدم إلى القبلة فصلى ثم جاء فبسط رداءه وكنس الكناسة فى ردائه وكنس الناس فلم يعظم الصخرة تعظيما يصلى وراءها وهى بين يديه كما أشار كعب الأحبار وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم ولكن من الله عليه بالإسلام فهدى إلى الحق ولهذا لما أشار بذلك قال له أمير المؤمنين عمر ضاهيت اليهودية ولا أهانها إهانة النصارى الذين كانوا قد جعلوها مزبلة من أجل أنها قبلة اليهود ولكن أماط عنها الأذى وكنس عنها الكناسة بردائه . وهذا شبيه بما جاء فى صحيح مسلم عن أبى مرثد الغنوى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها »

﴿ رواية أبى هريرة وهى مطولة جداً وفيها غرابة ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير فى تفسير سورة سبحان حدثنا على بن سهل ثنا حجاج ثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية الرياحى عن أبى هريرة أو غيره شك أبو جعفر فى قول الله عز وجل (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) الآية قال جاء جبريل إلى النبى ﷺ ومعه ميكائيل فقال جبرائيل لميكائيل ائتنى بطست من ماء زمزم كيما أطهر قلبه وأشرح له صدره قال فشق عنه بطنه فغسله ثلاث مرات واختلف إليه ميكائيل بثلاث طساس من ماء زمزم فشرح صدره فنزع ما كان فيه من غل وملأه علماً وحلماً وإيمانا ويقينا وإسلاما وختم بين كتفيه بخاتم النبوة ثم أتاه بفرس فحمله عليه كل خطوة منه منتهى بصره أو أقصى بصره قال فسار وسار معه جبريل عليهما السلام قال فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال النبى ﷺ « يا جبريل ما هذا ؟ » قال هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شىء فقال « ما هؤلاء يا جبريل ؟ » قال هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والنعم . ويأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها قال « فما هؤلاء يا جبريل » ، قال هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله تعالى شيئاً وما الله بظلام للعبيد ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر ولحم نىء فى قدر خبيث فجعلوا يأكلون من اللحم النىء الخبيث ويدعون النضيج الطيب فقال « ما هؤلاء يا جبريل ؟ » فقال هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيبة فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالا طيبا فتأتى رجلا خبيثا فتبيت معه حتى تصبح قال ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب ألا شقته ولا شىء إلا خرقته قال «ما هذا يا جبريل؟» ، قال هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونها ثم تلا (ولا تقعدوا

بكل صراط توعدون وتصدون) الآية قال ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها فقال « ما هذا يا جبريل ؟ » قال هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء فقال « ما هذا يا جبريل؟ » فقال هؤلاء خطباء الفتنة ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع فقال « ما هـذا يا جبريل؟ » فقال هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها . ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة وريح مسك وسمع صوتا فقال : « يا جبريل ما هـذه الريح الطيبة الباردة وما هذا المسك وما هذا الصوت ؟ » قال هذا صوت الجنة تقول يا رب ائتني بما وعدتني فقد كثرت غرفي وإستبرقي وحريري وسندسي وعبقري ولؤلؤي ومرجاني وفضتي وذهبي وأكوابي وصحافي وأباريقي وأكوسي وعسلي ومائي ولبني وخمري فائتني بما وعدتني فقال لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ومن آمن بي وبرسلي وعمل صالحا ولم يشرك بي شيئاً ولم يتخذ من دوني أندادا ، ومن خشيني فهو آمن ، ومن سألني أعطيته ، ومن أقرضني جزيته ، ومن توكل على كفيته ، إني أنا الله لا إله إلا أنا لا أخلف الميعاد ، وقد أفلح المؤمنون وتبارك الله أحسن الخالقين ، قالت قد رضيت قال ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً ووجد ريحاً خبيثة فقال . « ما هذه الريح يا جبريل وما هذا الصوت؟ » فقال هذا صوت جهنم تقول يا رب ائتني بما وعدتني فقد كثرت سلاسلي وأغلالي وسعيري وحميمي وضريعي وغساقي وعذابي وقد بعد قعري واشتد حري فائتني بما وعدتني ، قال لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل خبيث وخبيثة . وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب . قالت قد رضيت ، قال ثم سار حتى أتى بيت المقـدس فنزل فربط فرسه إلى الصخرة ثم دخل فصلى مع الملائكة فلما قضيت الصلاة قالوا يا جبريل من هـذا معك قال محمـد ﷺ قالوا أوقد أرسـل إليـه قال نعم قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء . قال ثم لقي أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم فقال إبراهيم عليه السلام : الحمد لله الذي اتخذني خليلا وأعطاني ملكا عظيما وجعلني أمة قانتا يؤتم بي وأنقذني من النار وجعلها علي برداً وسلاما ثم إن موسى عليه السلام أثنى على ربه فقال: الحمد لله الذي كلمني تكليما وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي وجعل من أمتي قوما يهدون بالحق وبه يعدلون . ثم إن داود عليه السلام أثنى على ربه فقال : الحمـد لله الذي جعل لي ملكا عظيما وعلمني الزبور وألان لي الحـديد وسخر لي الجبال يسبحن والطير وأعطاني الحكمة وفصل الخطاب ثم إن سليمان عليه السلام أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذي سخر لي الرياح وسخر لي الشياطين يعملون لي ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، وعلمني منطق الطير وآتاني من كل شيء فضلا وسخر لي جنود الشياطين والإنس والطير وفضلني على كثير من عباده المؤمنين ، وآتاني ملكا عظيما لا ينبغي لأحد من بعدي وجعل ملكي ملكا طيبا ليس فيه حساب . ثم إن عيسى عليه السلام أثنى على ربه عز وجل فقال: الحمد لله الذي جعلني كلمته وجعل مثلي كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيـكون ، وعلمني الكتاب والحكمه والتوراة والإنجيل وجعلني أخلق من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وجعلني أبريء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ورفعني وطهرني وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان علينا سبيل . قال ثم إن محمداً ﷺ أثنى على ربه عز وجل فقال « كلكم أثنى على ربه وإني مثن على ربي فقال : الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين وكافة للناس بشيرا ونذيرا وأنزل على الفرقان فيه بيان لكل شيء وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس وجعل أمتي أمة وسطا وجعل أمتي هم الأولين وهم الآخرين وشرح لي صدري ووضع عني وزري ورفع لي ذكري وجعلني فاتحا وخاتما » فقال إبراهيم عليـه السلام: بهذا فضلكم محمـد ﷺ ، قال أبو جعفر الرازي خاتم بالنبوة فاتح بالشفاعة يوم القيامة ، ثم أتى بآنية ثلاثة مغطاة أفواهها فأتى بإناء منها فيه ماء فقيل له اشرب فشرب منه يسيرا ، ثم دفع إليه إناء آخر فيـه لبن فقيل له اشرب فشرب منه حتى روى ، ثم دفع إليه إناء آخر فيـه خمر فقيل له اشرب فقال لا أريده قد رويت ، فقال له جبريل أما إنها ستحرم على أمتك ولو شربت منها لم يتبعك من

أمتك إلا القليل ، قال ثم صعد به إلى السماء فاستفتح فقيل من هـذا ياجبريل فقال محمد ، فقالوا أو قد أرسـل اليه ؟ قال نعم ، قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ففتح لهما ، فدخل فاذا هو برجل تام الخلق لم ينقص من خلقه شيء كما ينقص من خلق الناس عن يمينه باب يخرج منـه ريح طيبة وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة فاذا نظر إلى الباب الذى عن يمينه ضحك واستبشر وإذا نظر إلى الباب الذى عن شماله بكى وحزن فقلت ياجبريل من هذا الشيخ التام الخلق الذى لم ينقص من خلقه شيء وما هذان البابان ؟ فقال هذا أبوك آدم وهذا الباب الذى عن يمينه باب الجنة فاذا نظر إلى من يدخل الجنة من ذريته ضحك واستبشر ، والباب الذى عن شماله باب جهنم إذا نظر إلى من يدخلها من ذريته بكى وحزن ، ثم صعد به جبريل إلى السماء الثانية فاستفتح فقيل من هذا معك ؟ فقال محمد رسول الله ، قالوا أو قد أرسـل اليه ؟ قال نعم ، قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء قال فدخـل فاذا هو بشابين فقال يا جبريل من هذان الشابان ؟ قال هذا عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابنا الخالة عليهما السلام ، قال فصعد به إلى السماء الثالثة فاستفتح فقالوا من هذا ؟ قال جبريل ، قالوا ومن معك قال محمـد قالوا أو قد أرسـل اليـه قال نعم ، قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء قال فدخل فاذا هو برجل قد فضـل على الناس فى الحسن كما فضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب قال من هذا يا جبريل الذى قد فضل على الناس فى الحسن ؟ قال هذا أخوك يوسف عليه السـلام ، قال ثم صعد به إلى السماء الرابعة فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل ، قالوا ومن معك ؟ قال محمد ، قالوا أو قد أرسـل اليه ؟ قال نعم ، قالوا حياه الله من أخ ومن خليفـة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، قال فدخل فاذا هو برجـل قال من هـذا ياجبريل ، قال هذا إدريس عليه السلام رفعه الله مكاناً علياً ، ثم صعد به إلى السماء الخامسة فاستفتح فقالوا من هذا ؟ قال جبريل ، قالوا ومن معك ؟ قال محمد ، قالوا أو قد أرسل اليه ؟ قال نعم ، قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفـة ونعم المجيء جاء قال فدخل فاذا هو برجل جالس وحوله قوم يقص عليهم قال من هـذا يا جبريل ومن هؤلاء حوله قال هذا هارون المحبب وهؤلاء بنو إسرائل ، ثم صعد به إلى السماء السادسة فاستفتح فقيل من هذا قال جبريل قالوا ومن معك ؟ قال محمد ، قالوا أو قد أرسـل اليه ؟ قال نعم ، قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء قال فدخل فاذا هو برجل جالس فجاوزه فبكى الرجل فقال ياجبريل من هـذا ، قال موسى ، قال فما باله يبكى ، قال يزعم بنو إسرائيل أنى أكرم بنى آدم على الله عز وجل وهذا رجل من بنى آدم قد خلفنى فى دنيا وأنا فى أخرى فلو أنه بنفسه لم أبال ولـكن مع كل نبى أمته ، قال ثم صعد به إلى السماء السابعة فاستفتح فقيل من هذا ، قال جبريل قيل ومن معك قال محمد ، قالوا أو أرسـل اليه قال نعم ، قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، قال فدخل فاذا هو برجل أشمط جالس عنـد باب الجنة على كرسى وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس ، وقوم فى ألوانهم شيء فقام هؤلاء الذين فى ألوانهم شيء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيـه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقـد خلص من ألوانهم شيء ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيـه فخرجوا وقد خلصت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم جاءوا فجلسوا إلى أصحابهم فقال ياجبريل من هـذا الأشمط ثم من هؤلاء البيض الوجوه ومن هؤلاء الذين فى ألوانهم شيء وما هذه الأنهار التى دخلوا فيها فجاءوا وقد صفت ألوانهم ، قال هذا أبوك إبراهيم أول من شمط على وجه الأرض ، وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمـانهم بظلم ، وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شيء فقوم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً فتابوا فتاب الله عليهم ، وأما الأنهار فأولهـا رحمة الله والثانى نعمة الله والثالث سقاهم ربهم شرابا طهوراً ، قال ثم انتهى إلى السدرة فقيل له هذه السدرة ينتهى إليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك . فاذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى وهى شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها والورقة منها تغطى الأمة كلها قال فغشيها نور الخلاق عز وجل

وغشيتها الملائكة أمثال الغربان حين يقعن على الشجرة، من حب الرب تبارك وتعالى ، قالوا فكلمه الله عند ذلك فقال له سل ، فقال إنك اتخذت إبراهيم خليلا وأعطيته ملكا عظيما وكلمت موسى تكليما ، وأعطيت داود ملكا عظيما وألنت له الحديد ، وسخرت له الجبال وأعطيت سليمان ملكا وسخرت له الجن والإنس والشياطين وسخرت له الرياح وأعطيته ملكا لاينبغي لأحد من بعده ، وعلمت عيسى التوراة والانجيل وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان عليهما سبيل ، فقال له الرب عز وجل وقد اتخذتك خليلا — وهو مكتوب في التوراة حبيب الرحمن — وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، وشرحت لك صدرك ، ووضعت عنك وزرك . ورفعت لك ذكرك ، فلا أذكر إلا ذكرت معي ، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس ، وجعلت أمتك أمة وسطا ، وجعلت أمتك هم الأولين وهم الآخرين وجعلت أمتك لاتجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي ، وجعلت من أمتك أقواما قلوبهم أناجيلهم وجعلتك أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً ، وأولهم يقضى له ، وأعطيتك سبعاً من المثاني لم يعطها نبي قبلك وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبيا قبلك ، وأعطيتك الكوثر وأعطيتك ثمانية أسهم الاسلام والهجرة والجهاد والصلاة والصدقة وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجعلتك فاتحاً خاتماً ، فقال النبي ﷺ « فضلني ربي بست : أعطاني فواتح الكلام وخواتيمه وجوامع الحديث ، وأرسلني إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً . وقذف في قلوب أعدائي الرعب من مسيرة شهر ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض كلها طهورا ومسجدا» قال وفرض عليه خمسين صلاة . فلما رجع إلى موسى قال بم أمرت يا محمد ، قال بخمسين صلاة قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك أضعف الأمم فقد لقيت من بني إسرائيل شدة ، قال فرجع النبي ﷺ إلى ربه عز وجل فسأله التخفيف فوضع عنه عشراً ثم رجع إلى موسى فقال له بكم أمرت قال بأربعين قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك أضعف الأمم ولقد لقيت من بني إسرائيل شدة : قال فرجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه فسأله التخفيف فوضع عنه عشرا فرجع إلى موسى فقال بكم أمرت قال أمرت بثلاثين . فقال له موسى ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك أضعف الأمم وقد لقيت من بني إسرائيل شدة . قال فرجع إلى ربه فسأله التخفيف فوضع عنه عشراً فرجع إلى موسى عليه السلام فقال بكم أمرت قال أمرت بعشرين قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك أضعف الأمم وقد لقيت من بني إسرائيل شدة ، قال فرجع إلى ربه عز وجل فسأله التخفيف فوضع عنه عشرا فرجع إلى موسى فقال بكم أمرت قال أمرت بعشر ، قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك أضعف الأمم وقد لقيت من إسرائيل شدة ، قال فرجع على حياء إلى ربه فسأله التخفيف فوضع عنه خمسا فرجع إلى موسى عليه السلام فقال بكم أمرت قال أمرت بخمس ، قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فان أمتك أضعف الأمم وقد لقيت من بني إسرائيل شدة ، قال قد رجعت إلى ربي حتى استحييت فما أنا براجع إليه ، قيل أما إنك كما صبرت نفسك على خمس صلوات فإنهن يجزين عنك خمسين صلاة فان كل حسنة بعشر أمثالها ، قال فرضي محمد ﷺ كل الرضا ، قال وكان موسى عليه السلام من أشدهم عليه حين مر به وخيرهم له حين رجع اليه . ثم رواه ابن جرير عن محمد بن عبيدالله عن أبي النضر هاشم بن القاسم عن أبي جعفر الرازي عن الربيع ابن أنس عن أبي العالية أوغيره شك أبو جعفر عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره بمعناه وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقي عن أبي سعيد الماليني عن ابن عدى عن محمد بن الحسن السكوني البالسي بالرملة حدثنا علي بن سهل فذكر مثل مارواه ابن جرير عنه ، وذكر البيهقي أن الحاكم أباعبدالله رواه عن إسماعيل بن محمد بن الفضل بن محمد الشعراني عن جده عن إبراهيم بن حمزة الزبيري عن حاتم بن إسماعيل حدثني عيسى بن ماهان يعني أباجعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فذكره . وقال ابن أبي حاتم ذكر أبو زرعة حدثنا محمد بن عبدالله بن نمير حدثنا يونس بن بكير حدثنا عيسى بن عبد الله التميمي عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس البكري عن أبي العالية أوغيره شك عيسى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال في قوله تعالى (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام)

فذكر الحديث بطوله كنحو مما سقناه (قلت) وأبو جعفر الرازى قال فيه الحافظ أبو زرعة الرازى يهم فى الحديث كثيراً وقد ضعفه غيره أيضاً ووثقه بعضهم ، والظاهر أنه سيء الحفظ ففيما تفرد به نظر . وهذا الحديث فى بعض ألفاظه غرابة ونكارة شديدة وفيه شيء من حديث المنام فى رواية سمرة بن جندب فى المنام الطويل عند البخارى ويشبه أن يكون مجموعا من أحاديث شتى أو منام أو قصة أخرى غير الإسراء والله أعلم

وقد روى البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهرى أخبرنى سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « حين أسرى بى لقيت موسى عليه السلام — فنعته فإذا رجل حسبته قال — مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة ، قال ولقيت عيسى — فنعته النبى ﷺ قال — ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس — يعنى حمام قال — ولقيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به قال وأتيت بإناءين فى أحدهما لبن وفى الآخر خمر قيل لى خذ أيهما شئت فأخذت اللبن فشربت فقيل لى هديت الفطرة — أو أصبت الفطرة — أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك » وأخرجاه من وجه آخر عن الزهرى به نحوه وفى صحيح مسلم عن محمد بن رافع عن الحجين بن المثنى عن عبد العزيز بن أبى سلمة عن عبدالله بن الفضل الهاشمى عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى فسألونى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كربا ما كربت مثله قط فرفعه الله إلى أنظر إليه ما سألونى عن شيء إلا أنبأتهم به وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء وإذا موسى قائم يصلى وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة وإذا عيسى بن مريم قائم يصلى أقرب الناس شبها به عروة بن مسعود الثقفى وإذا إبراهيم قائم يصلى أقرب الناس شبها به صاحبكم — يعنى نفسه — فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت قال قائل يا محمد هذا مالك خازن جهنم فالتفت إليه فبدأنى بالسلام » وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أبى الصلت عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « رأيت ليلة أسرى بى لما انتهيت إلى السماء السابعة فنظرت فوق فإذا رعد وبرق وصواعق قال وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء آكلوا الربا ، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل منى فإذا أنا برهج ودخان وأصوات فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هذه الشياطين يحومون على أعين بنى آدم لا يتفكرون فى ملكوت السموات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب » ورواه الإمام أحمد عن حسن وعفان كلاهما عن حماد بن سلمة به ورواه ابن ماجه من حديث حماد به ﴿ رواية جماعة من الصحابة ممن تقدم وغيرهم ﴾ قال الحافظ البيهقى حدثنا أبو عبد الله يعنى الحاكم حدثنا عبدالله بن يزيد بن يعقوب الدقاق الهمدانى حدثنا إبراهيم بن الحسين الهمدانى حدثنا أبو محمد هو إسماعيل بن موسى الفزارى حدثنا عمر بن سعد النضرى من بنى نضرة بن معين حدثنى عبد العزيز وليس بن أبى سليم وسليمان الأعمش وعطاء بن السائب بعضهم يزيد فى الحديث على بعض عن على بن أبى طالب وعبد الله بن عباس وعن محمد ابن إسحق بن يسار عمن حدثه عن ابن عباس وعن سليم بن مسلم العقيلى عن عامر الشعبى عن عبد الله بن مسعود وجويبر عن الضحاك بن مزاحم قالوا كان رسول الله ﷺ فى بيت أم هانىء راقداً وقد صلى العشاء الآخرة قال أبو عبد الله الحاكم قال لنا هذا الشيخ وذكر الحديث فكتبت المتن من نسخة مسموعة منه فذكر حديثا طويلا يذكر فيه عدد الدرج والملائكة وغير ذلك مما لا ينكر شيء منها فى قدرة الله إن صحت الرواية . قال البيهقى فيما ذكرنا قبل فى حديث أبى هارون العبدى فى إثبات الإسراء والمعراج كفاية وبالله التوفيق (قلت) وقد أرسل هذا الحديث غير واحد من التابعين وأئمة المفسرين رحمة الله عليهم أجمعين ﴿ رواية عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ﴾ قال البيهقى أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنى مكرم بن أحمد القاضى حدثنى إبراهيم بن الهيثم البكرى حدثنى محمد بن كثير الصنعانى حدثنا معمر بن راشد عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت لما أسرى برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا هل لك فى صاحبك ؟ يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس فقال أو قال ذلك ؟ قالوا نعم قال لئن كان قال ذلك لقد صدق قالوا فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ، قال نعم إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك أصدقه فى خبر

السماء فى غدوة أو روحة فلذلك سمى أبو بكر الصديق ﴿ رواية أم هانىء بنت أبى طالب ﴾ قال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن محمد السائب الكلبى عن أبى صالح باذان عن أم هانىء بنت أبى طالب فى مسرى رسول الله ﷺ أنها كانت تقول ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو فى بيتى نائم عندى تلك الليلة فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا فلما كان قبيل الفجر أهبنا برسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى الصبح وصلينا معه قال «يا أم هانىء لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين» الكلبى متروك بمرة ساقط لكن رواه أبو يعلى فى مسنده عن محمد بن إسماعيل الأنصارى عن ضمرة بن ربيعة عن يحيى بن أبى عمرو الشيبانى عن أبى صالح عن أم هانىء بأبسط من هذا السياق فليكتب ههنا وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى من حديث عبد الأعلى بن أبى المساور عن عكرمة عن أم هانىء قالت بات رسول الله ﷺ ليلة أسرى به فى بيتى ففقدته من الليل فامتنع منى النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قريش فقال رسول الله ﷺ « إن جبريل عليه السلام أتانى فأخذ بيدى فأخرجنى فإذا على الباب دابة دون البغل وفوق الحمار فحملنى عليها ثم انطلق حتى انتهى بى إلى بيت المقدس فأرانى إبراهيم عليه السلام يشبه خلقه خلقى ويشبه خلقى خلقه وأرانى موسى آدم طويلا سبط الشعر شبهته برجال أزد شنوءة ، وأرانى عيسى بن مريم ربعة أبيض يضرب إلى الحمرة شبهته بعروة بن مسعود الثقفى ، وأرانى الدجال ممسوح العين اليمنى شبهته بقطن بن عبد العزى ـ قال ـ وأنا أريد أنا أخرج إلى قريش فأخبرهم بما رأيت » فأخذت بثوبه فقلت إنى أذكرك الله إنك تأتى قومك يكذبونك وينكرون مقالتك فأخاف أن يسطوا بك قالت فضرب ثوبه من يدى ثم خرج إليهم فأتاهم وهم جلوس فأخبرهم ما أخبرنى فقام جبير بن مطعم فقال يا محمد أن لو كنت لك شأن كما كنت ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرانينا . فقال رجل من القوم يا محمد هل مررت بإبل لنا فى مكان كذا وكذا ؟ قال « نعم والله قد وجدتهم قد أضلوا بعيرا لهم فهم فى طلبه » قال هل مررت بإبل لبنى فلان ؟ قال « نعم وجدتهم فى مكان كذا وكذا وقد انكسرت لهم ناقة حمراء وعندهم قصعة من ماء فشربت ما فيها » قالوا فأخبرنا عدتها وما فيها من الرعاة قال « قد كنت عن عدتها مشغولا » فقام فأوتى بالإبل فعدها وعلم ما فيها من الرعاة ثم أتى قريشاً فقال لهم « سألتمونى عن إبل بنى فلان فهى كذا وكذا وفيها من الرعاة فلان وفلان وسألتمونى عن إبل بنى فلان فهى كذا وكذا وفيها من الرعاة ابن أبى قحافة وفلان وفلان وهى تصبحكم بالغداة على الثنية » قال فقعدوا على الثنية ينظرون أصدقهم ما قال فاستقبلوا الإبل فسألوهم هل ضل لكم بعير ؟ فقالوا نعم فسألوا الآخر هل انكسرت لكم ناقة حمراء قالوا نعم قالوا فهل كانت عندكم قصعة قال أبو بكر أنا والله وضعتها فما شربها أحد ولا أهراقوه فى الأرض فصدقه أبو بكر وآمن به فسمى يومئذ الصديق

﴿ فصل ﴾ وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس وأنه مرة واحدة ، وإن اختلف عبارات الرواة فى أدائه أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه فان الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة فأثبت اسرا آت متعددة فقد أبعد وأغرب ، وهرب إلى غير مهرب ولم يتحصل على مطلب . وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه عليه السلام أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط ومرة من مكة إلى السماء فقط ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء وفرح بهذا المسلك وأنه قد ظفر بشىء يخلص به من الاشكالات وهذا بعيد جدا ولم ينقل هذا عن أحد من السلف ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبى صلى الله عليه وسلم به أمته ولنقله الناس على التعدد والتكرر . قال موسى بن عقبة عن الزهرى كان الإسراء قبل الهجرة بسنة وكذا قال عروة وقال السدى بستة عشر شهرا والحق أنه عليه السلام أسرى به يقظة لا مناما من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى فى قبلته تحية المسجد ركعتين ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد فيه إلى السماء الدنيا ثم إلى بقية السموات السبع فتلقاه من كل سماء

مقربوها وسلم على الأنبياء الذين فى السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم حتى مر بموسى الكليم فى السادسة وإبراهيم الخليل فى السابعة ثم جاوز منزلتيهما صلى الله وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام أى أقلام القدر بما هوكائن ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة وغشيتها الملائكة ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق . ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل بانى الكعبة الأرضية مسند ظهره إليه لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لايعودون اليه إلى يوم القيامة . ورأى الجنة والنار وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده وفى هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها . ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لماحانت الصلاة . ويحتمل أنها الصبح من يومئذ ، ومن الناس من يزعم أنه أمهم فى السماء والذى تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس ولكن فى بعضها أنه كان أول دخوله اليه . والظاهر أنه بعد رجوعه اليه لأنه لما مر بهم فى منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحدا واحدا وهو يخبره بهم وهذا هو اللائق لأنه كان أولا مطلوبا إلى الجناب العلوى ليفرض عليه وعلى أمته مايشاء الله تعالى ثم لما فرغ من الذى أريد به اجتمع به هو وإخوانه من النبيين ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه فى الإمامة وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له فى ذلك . ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس والله سبحانه وتعالى أعلم وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل أو اللبن والخمر ، أو اللبن والماء أو الجميع فقد ورد أنه فى بيت المقدس وجاء أنه فى السماء . ويحتمل أن يكون ههنا وههنا لأنه كالضيافة للقادم والله أعلم ثم اختلف الناس هل كان الاسراء ببدنه عليه السلام وروحه أو بروحه فقط على قولين فالأكثرون من العلماء على أنه أسرى ببدنه وروحه يقظة لا مناما ولا ينكرون أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناما ثم رآه بعده يقظة لأنه كان عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح والدليل على هذا قوله تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله) فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام فلو كان مناما لم يكن فيه كبير شىء ولم يكن مستعظما ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم ، وأيضا فان العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وقد قال (أسرى بعبده ليلا) وقال تعالى (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) قال ابن عباس هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به والشجرة الملعونة هى شجرة الزقوم . رواه البخارى ، وقال تعالى (مازاغ البصر وماطغى) والبصر من آلات الذات لا الروح وأيضا فانه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان وإنما يكون هذا للبدن لا للروح لأنها لاتحتاج فى حركتها إلى مركب تركب عليه والله أعلم . وقال آخرون بل أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم بروحه لا بجسده قال محمد بن إسحق بن يسار فى السيرة حدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أن معاوية بن أبى سفيان كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال : كانت رؤيا من الله صادقة . وحدثنى بعض آل أبى بكر أن عائشة كانت تقول مافقد جسد رسول الله ﷺ ولكن أسرى بروحه . قال ابن إسحق فلم ينكر ذلك من قولها لقول الحسن إن هذه الآية نزلت (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) ولقول الله فى الخبر عن إبراهيم (إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى) قال ثم مضى على ذلك فعرفت أن الوحى يأتى للأنبياء من الله أيقاظا ونياما فكان رسول الله ﷺ يقول « تنام عيناى وقلبى يقظان » والله أعلم أى ذلك كان قد جاءه وعاين من الله فيه ماعاين على أى حالاته كان نائما أو يقظانا كل ذلك حق وصدق انتهى كلام ابن إسحق . وقد تعقبه أبو جعفر بن جرير فى تفسيره بالرد والانكار والتشنيع بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن وذكر من الأدلة على رده بعض ماتقدم والله أعلم ﴿ فائدة حسنة جليلة ﴾ روى الحافظ أبو نعيم الأصبهانى فى كتاب دلائل النبوة من طريق محمد بن عمر الواقدى حدثنى مالك بن أبى الرجال عن عمر بن عبد الله عن محمد بن كعب القرظى . قال بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة إلى قيصر فذكر وروده عليه وقدومه إليه ، وفى السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل ثم استدعى من بالشام من التجار فجىء بأبى سفيان

صخر بن حرب وأصحابه فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التى رواها البخارى ومسلم كما سيأتى بيانه وجعل أبوسفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده . قال فى هذا السياق عن أبى سفيان والله مامنعنى من أن أقول عليه قولا أسقطه من عينه إلا أنى أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها على ولا يصدقنى فى شىء . قال حتى ذكرت قوله ليلة أسرى به قال فقلت أيها الملك ألاأخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب ؟ قال وماهو ، قال قلت إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم فى ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح . قال وبطريق إيلياء عند رأس قيصر فقال بطريق إيلياء قد علمت تلك الليلة قال فنظر اليه قيصر وقال وما علمك بهذا قال إنى كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى فاستعنت عليه بعمالى ومن يحضرنى كلهم معالجة فغلبنا فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلا فدعوت اليه النجاجرة فنظروا اليه فقالوا إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى . قال فرجعت وتركت البابين مفتوحين . فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذى فى زاوية المسجد مثقوب وإذا فيه أثر مربط الدابة قال فقلت لأصحابى ماحبس هذا الباب الليلة إلا على نبى ، وقد صلى الليلة فى مسجدنا وذكر تمام الحديث (فائدة) قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية فى كتابه « التنوير فى مولد السراج المنير » وقد ذكر حديث الاسراء من طريق أنس وتكلم عليه فأجاد وأفاد ثم قال : وقد تواترت الروايات فى حديث الاسراء عن عمر بن الخطاب وعلى وابن مسعود وأبى ذر ومالك بن صعصعة وأبى هريرة وأبى سعيد وابن عباس وشداد بن أوس وأبى بن كعب وعبد الرحمن بن قرط وأبى حبة وأبى ليلى الأنصاريين وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدة وأبى أيوب وأبى أمامة وسمرة بن جندب وأبى الحمراء وصهيب الرومى وأم هانئ وعائشة وأسماء ابنتى أبى بكر الصديق رضى الله عنهم أجمعين، منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره على ماوقع فى المسانيد ، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة فحديث الاسراء أجمع عليه المسلمون وأعرض عنه الزنادقة والملحدون (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون)

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ﷺ عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه أيضاً فانه تعالى كثيراً مايقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام وبين ذكر التوراة والقرآن ولهذا قال بعد ذكر الإسراء (وآتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة (وجعلناه) أى الكتاب (هدى) أى هادياً (لبنى إسرائيل أن لاتتخذوا) أى لئلا تتخذوا (من دونى وكيلا) أى وليا ولا نصيراً ولا معبوداً دونى لأن الله تعالى أنزل على كل نبى أرسله أن يعبده وحده لاشريك له ثم قال (ذرية من حملنا مع نوح) تقديره ياذرية من حملنا مع نوح فيه تهييج وتنبيه على المنة أى ياسلالة من نجينا فحملنا مع نوح فى السفينة تشبهوا بأبيكم (إنه كان عبدا شكوراً) فاذكروا أنتم نعمتى عليكم بإرسالى إليكم محمداً صلى صلى الله عليه وسلم وقد ورد فى الحديث وفى الأثر عن السلف أن نوحاً عليه السلام كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله فلهذا سمى عبداً شكوراً . قال الطبرانى حدثنا على بن عبد العزيز حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن أبى حصين عن عبد الله بن سنان عن سعد بن مسعود الثقفى قال إنما سمى نوح عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل أوشرب حمد الله وقال الإمام أحمد حدثنا أبو أسامة حدثنا زكريا بن أبى زائدة عن سعيد بن أبى بردة عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها » وهكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من طريق أبى أسامة به ، وقال مالك عن زيد بن أسلم كان يحمد الله على كل حال ، وقد ذكر البخارى هنا حديث أبى زرعة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال

«أناسيد ولد آدم يوم القيامة ـ بطوله ، وفيه ـ فيأتون نوحا فيقولون يانوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبدا شكورا فاشفع لنا إلى ربك» وذكر الحديث بكماله

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾

يخبر تعالى أنه قضى إلى بنى إسرائيل فى الكتاب أى تقدم إليهم وأخبرهم فى الكتاب الذى أنزله عليهم أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ويعلون علوا كبيرا أى يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس كقوله تعالى (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) أى تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به . وقوله (فإذا جاء وعد أولاهما) أى أولى الافسادتين (بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد) أى سلطنا عليكم جندا من خلقنا أولى بأس شديد أى قوة وعدة وسلطنة شديدة فجاسوا خلال الديار أى تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم أى بينها ووسطها وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحدا وكان وعدا مفعولا . وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف فى هؤلاء المسلطين عليهم من هم ؟ فعن ابن عباس وقتادة أنه جالوت الجزرى وجنوده سلط عليهم أولا ثم أديلوا عليه بعد ذلك . وقتل داود جالوت ولهذا قال (ثم رددنا لكم الكرة عليهم) الآية وعن سعيد بن جبير أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده وعنه أيضاً وعن غيره أنه بختنصر ملك بابل وقد ذكر ابن أبى حاتم له قصة عجيبة فى كيفية ترقيه من حال إلى حال إلى أن ملك البلاد وأنه كان فقيرا مقعدا ضعيفاً يستعطى الناس ويستطعمهم ثم آل به الحال إلى ما آل وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس فقتل بها خلقا كثيرا من بنى إسرائيل ، وقد روى ابن جرير فى هذا المكان حديثا أسنده عن حذيفة مرفوعا مطولا وهو حديث موضوع لا محالة لا يستريب فى ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث والعجب كل العجب كيف راج عليه مع جلالة قدره وإمامته وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزى رحمه الله بأنه موضوع مكذوب وكتب ذلك على حاشية الكتاب . وقد وردت فى هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها لأن منها ما هو موضوع من وضع بعض زنادقتهم ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا ونحن فى غنية عنها ولله الحمد . وفيما قص الله علينا فى كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم . وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد فانهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء وقد روى ابن جرير حدثنى يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد قال : سمعت سعيد بن المسيب يقول : ظهر بختنصر على الشام فخرب بيت المقدس وقتلهم ثم أتى دمشق فوجد بها دما يغلى على كبا فسألهم ماهذا الدم : فقالوا أدركنا آباءنا على هذا وكلما ظهر عليه الكبا ظهر قال فقتل على ذلك الدم سبعين ألفا من المسلمين وغيرهم فسكن وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب وهذا هو المشهور وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة وأخذ معه منهم خلقا كثيرا أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته والله أعلم ثم قال تعالى (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) أى فعليها كما قال تعالى (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها)

وقوله (فإذا جاء وعد الآخرة) أى الكرة الآخرة أى إذا أفسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم (ليسوءوا وجوهكم) أى يهينوكم ويقهروكم (وليدخلوا المسجد) أى بيت المقدس (كما دخلوه أول مرة) أى فى التى جاسوا فيها خلال الديار (وليتبروا) أى يدمروا ويخربوا (ما علوا) أى ما ظهروا عليه (تتبيرا * عسى ربكم أن يرحمكم) أى فيصرفهم عنكم (وإن عدتم عدنا) أى متى عدتم إلى الافساد (عدنا) إلى الإدالة عليكم فى الدنيا مع ما ندخره لكم فى الآخرة من العذاب والنكال ، ولهذا قال (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) أى مستقرا ومحصرا وسجنا لا محيد لهم عنه قال ابن عباس حصيرا أى سجناً وقال مجاهد يحصرون فيها وكذا قال غيره ؛ وقال الحسن فراشا ومهادا ، وقال قتادة قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحى محمد ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يدوهم صاغرون

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

يمدح تعالى كتابه العزيز الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن بأنه يهدى لأقوم الطرق وأوضح السبل ويبشر المؤمنين به الذين يعملون الصالحات على مقتضاه أن لهم أجرا كبيرا أى يوم القيامة وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أى ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن لهم عذابا أليما أى يوم القيامة كما قال تعالى (فبشرهم بعذاب أليم)

﴿وَيَدْعُ الْإِنسَٰنُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه فى بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر أى بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه كما قال تعالى (ولو يعجل الله للناس الشر) الآية وكذا فسره ابن عباس ومجاهد وقتادة وقد تقدم فى الحديث « لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها » وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته ولهذا قال تعالى (وكان الإنسان عجولا) وقد ذكر سلمان الفارسى وابن عباس ههنا قصة آدم عليه السلام حين هم بالنهوض قائما قبل أن تصل الروح إلى رجليه وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه فلما وصلت إلى دماغه عطس فقال الحمد لله فقال الله : يرحمك ربك يا آدم . فلما وصلت إلى عينيه فتحهما فلما سرت إلى أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه فهم بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه فلم يستطع ، وقال يارب عجل قبل الليل

﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا فى الليل وينتشروا فى النهار للمعايش والصنائع والأعمال والأسفار وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام ويعرفوا مضى الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والاجارات وغير ذلك ولهذا قال (لتبتغوا فضلا من ربكم) أى فى معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك (ولتعلموا عدد السنين والحساب) فانه لو كان الزمان كله نسقا واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شىء من ذلك كما قال تعالى (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) وقال تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقمرا منيرا وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) وقال تعالى (وله اختلاف الليل والنهار) وقال (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل

يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار) وقال تعالى (فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم) وقال تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجرى لمستقر لهاذلك تقدير العزيز العليم) ثم إنه تعالى جعل الليل آية أى علامة يعرف بها وهى الظلام وظهور القمر فيه ،وللنهارعلامةوهى النور وطلوع الشمس النيرة فيه وفاوت بين نور القمر وضياء الشمس ليعرف هذا من هذا كما قال تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق – إلى قوله – لآيات لقوم يتقون) وقال تعالى (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) الآية قال ابن جريج عن عبدالله ابن كثير فى قوله (فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) قال ظلمة الليل وسدف النهار وقال ابن جريج عن مجاهد الشمس آية النهار والقمر آية الليل (فمحونا آية الليل) قال : السواد الذى فى القمر وكذلك خلقه الله تعالى وقال ابن جريج قال ابن عباس كان القمر يضىء كما تضىء الشمس والقمر آية الليل والشمس آية النهار فمحونا آية الليل السواد الذى فى القمر وقد روى أبو جعفر بن جرير من طرق متعددة جيدة أن ابن الكواء سأل أمير المؤمنين على بن أبى طالب فقال يا أمير المؤمنين ماهذه اللطخة التى فى القمر فقال ويحك أما تقرأ القرآن ؟ فمحونا آية الليل فهذه محوه . وقال قتادة فى قوله (فمحونا آية الليل) كنا نحدث أن محو آية الليل سواد القمر الذى فيه وجعلنا آية النهار مبصرة أى منيرة وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم وقال ابن أبى نجيح عن ابن عباس (وجعلنا الليل والنهار آيتين) قال ليلا ونهارا كذلك خلقهما الله عز وجل

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بنى آدم (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) وطائره هو ماطار عنه من عمله كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما من خير وشر ويلزم به ويجازى عليه (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ۞ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وقال تعالى (عن اليمين وعن الشمال قعيد ۞ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وقال (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون) وقال (إنما تجزون ما كنتم تعملون) وقال (من يعمل سوءا يجز به) الآية والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره ويكتب عليه ليلا ونهارا صباحا ومساء

وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن أبى الزبير عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول « لطائر كل إنسان فى عنقه » قال ابن لهيعة يعنى الطيرة ، وهذا القول من ابن لهيعة فى تفسير هذا الحديث غريب جداً والله أعلم . وقوله (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) أى نجمع له عمله كله فى كتاب يعطاه يوم القيامة إما بيمينه إن كان سعيدا أو بشماله إن كان شقيا منشورا أى مفتوحا يقرؤه هو وغيره فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ۞ بل الإنسان على نفسه بصيرة ۞ ولو ألقى معاذيره) ولهذا قال تعالى (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) أى إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت لأنك ذكرت جميع ما كان منك ولا ينسى أحد شيئا مما كان منه . وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمى وقوله (ألزمناه طائره فى عنقه) إنما ذكر العنق لأنه عضو من الأعضاء لانظير له فى الجسد ، ومن ألزم بشىء فيه فلا محيد له عنه كما قال الشاعر .

اذهب بها اذهب بها طوقتها طوق الحمام

قال قتادة عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ أنه قال « لاعدوى ولاطيرة وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » كذا رواه ابن جرير ، وقد رواه الإمام عبد بن حميد فى مسنده متصلا فقال : حدثنا الحسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة عن أبى الزبير عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « طير كل عبد فى عنقه »

وقال الإمام أحمد حدثنا على بن إسحق حدثنا عبد الله حدثنا ابن لهيعة حدثنى يزيد أن أبا الخير حدثه أنه سمع عقبة بن عامر

رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ قال « ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه ، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة يا ربنا عبدك فلان قد حبسته فيقول الرب جل جلاله : اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت » إسناده جيد قوي ولم يخرجوه وقال معمر عن قتادة (ألزمناه طائره في عنقه) قال عمله (ونخرج له يوم القيامة) قال نخرج ذلك العمل (كتابا يلقاه منشورا) قال معمر وتلا الحسن البصري (عن اليمين وعن الشمال قعيد) يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابا تلقاه منشورا اقرأ كتابك الآية فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك هذا من أحسن كلام الحسن رحمه الله

﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى أثر النبوة فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه (ومن ضل) أي عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد فإنما يجني على نفسه وإنما يعود وبال ذلك عليه ثم قال (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي لا يحمل أحد ذنب أحد ولا يجني جان إلا على نفسه كما قال تعالى (وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء) ولا منافاة بين هذا وبين قوله (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) وقوله (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك ولا يحمل عنهم شيئا وهذا من عدل الله ورحمته بعباده وكذا قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) اخبار عن عدله تعالى وأنه لا يعذب أحد إلا بعد قيام الحجة عليه بارسال الرسول إليه كقوله تعالى (كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاء نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير) وكذا قوله (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) وقال تعالى (وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل ، أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحدا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه ، ومن ثم طعن جماعة من العلماء في اللفظة التي جاءت معجمة في صحيح البخاري عند قوله تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين)

حدثنا عبد الله بن سعد حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن صالح بن كيسان عن الأعرج بإسناده إلى أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اختصمت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال « وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحداً وإنه ينشيء للنار خلقا فيلقون فيها فتقول هل من مزيد ؟ ثلاثا » وذكر تمام الحديث فهذا إنما جاء في الجنة لأنها دار فضل وأما النار فانها دار عدل لا يدخلها أحد إلا بعد الاعذار إليه وقيام الحجة عليه . وقد تكلم جماعة من الحفاظ في هذه اللفظة وقالوا لعله انقلب على الراوي بدليل ما أخرجاه في الصحيحين واللفظ للبخاري من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ « تحاجت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال « فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع فيها قدمه فتقول قط قط فهنالك تمتلىء ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحداً ، وأما الجنة فان الله ينشيء لها خلقا »

بقي ههنا مسئلة قد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فيها قديما وحديثا وهي الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار ماذا حكمهم وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوته وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه ثم نذكر فصلا ملخصا من كلام الأئمة في ذلك والله المستعان ﴿ فالحديث الأول ﴾ عن الأسود

ابن سريع قال الإمام أحمد حدثنا على بن عبد الله حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبى عن قتادة عن الأحنف بن قيس عن الأسود ابن سريع أن رسول الله ﷺ قال « أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً . ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات فى فترة ، فأما الأصم فيقول رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً ، وأما الأحمق فيقول رب قد جاء الاسلام والصبيان يحذفونى بالبعر ، وأما الهرم فيقول رب لقد جاء الاسلام وما أعقل شيئاً ، وأما الذى مات فى الفترة فيقول رب ما أتانى لك رسول . فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه فيرسل اليهم أن ادخلوا النار ، فوالذى نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً » وبالاسناد عن قتادة عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة مثله غير أنه قال فى آخره « فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاما ، ومن لم يدخلها يسحب اليها » وكذا رواه إسحق بن راهويه عن معاذ بن هشام ، ورواه البيهقى فى كتاب الاعتقاد من حديث أحمد بن إسحق عن على بن عبد الله المدينى به وقال هذا إسناد صحيح ، وكذا رواه حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أبى رافع عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أربعة كلهم يدلى على الله بحجة » فذكر نحوه ، ورواه ابن جرير من حديث معمر عن همام عن أبى هريرة فذكره مرفوعاً ، ثم قال أبو هريرة فاقرأوا إن شئتم (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وكذا رواه معمر عن عبد الله بن طاوس عن أبيه عن أبى هريرة موقوفاً

(الحديث الثانى) عن أنس بن مالك . قال أبو داود الطيالسى حدثنا الربيع عن يزيد هو ابن أبان قال : قلنا لأنس يا أبا حمزة ما تقول فى أطفال المشركين ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ « لم يكن لهم سيئات فيعذبوا بها فيكونوا من أهل النار ، ولم يكن لهم حسنات فيجازوا بها فيكونوا من أهل الجنة »

(الحديث الثالث) عن أنس أيضا . قال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو خيثمة حدثنا جرير عن ليث عن عبد الوارث عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « يؤتى بأربعة يوم القيامة : بالمولود والمعتوه ومن مات فى الفترة والشيخ الفانى الهم كلهم يتكلم بحجته فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من النار ابرز ويقول لهم إنى كنت أبعث إلى عبادى رسلا من أنفسهم وإنى رسول نفسى إليكم ادخلوا هذه قال : فيقول من كتب عليه الشقاء يارب أنى ندخلها ومنها كنا نفر ؟ قال ومن كتب عليه السعادة يمضى فيقتحم فيها مسرعا ، قال : فيقول الله تعالى أنتم لرسلى أشد تكذيباً ومعصية فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار ، وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار عن يوسف بن موسى عن جرير بن عبد الحميد بإسناده مثله

(الحديث الرابع) عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده أيضاً حدثنا قاسم بن أبى شيبة حدثنا عبد الله يعنى ابن داود عن عمر بن ذر عن يزيد بن أمية عن البراء قال . سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين قال « هم مع آبائهم » وسئل عن أولاد المشركين فقال « هم مع آبائهم » فقيل يارسول الله ما يعملون ، قال « الله أعلم بهم » ورواه عمر بن ذر عن يزيد بن أمية عن رجل عن البراء عن عائشة فذكره

(الحديث الخامس) عن ثوبان قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى حدثنا ريحان بن سعيد حدثنا عباد بن منصور عن أيوب عن أبى قلابة عن أبى أسماء عن ثوبان أن النبى ﷺ عظم شأن المسألة قال « إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلية يحملون أوزارهم على ظهورهم فيسألهم ربهم فيقولون ربنا لم ترسل الينا رسولا ولم يأتنا لك أمر ولو أرسلت الينا رسولا لكنا أطوع عبادك فيقول لهم ربهم أرأيتم إن أمرتكم بأمر تطيعونى ؟ فيقولون نعم ، فيأمرهم أن يعمدوا إلى جهنم فيدخلوها فينطلقون حتى إذا دنوا منها وجدوا لها تغيظاً وزفيراً فرجعوا إلى ربهم فيقولون ربنا أخرجنا أو أجرنا منها ، فيقول لهم ألم تزعموا أنى إن أمرتكم بأمر تطيعونى ؟ فيأخذ على ذلك مواثيقهم فيقول اعمدوا اليها فادخلوها فينطلقون حتى إذا رأوها فرقوا منها ورجعوا وقالوا ربنا فرقنا منها ولا نستطيع أن ندخلها فيقول ادخلوها داخرين » فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم « لو دخلوها أول مرة كانت عليهم برداً وسلاماً » ثم قال البزار ومتن هذا الحديث غير معروف إلا من هذا الوجه لم يروه عن أيوب إلا عباد ولا عن عباد إلا ريحان بن سعيد ، قلت وقد ذكره ابن حبان فى ثقاته ، وقال يحيى بن معين والنسائى لا بأس به ولم يرضه أبو داود ، وقال أبو حاتم شيخ لا بأس به يكتب حديثه ولا يحتج به (الحديث السادس) عن

أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري : قال الإمام محمد بن يحيي الذهلي حدثنا سعيد بن سليمان عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الهالك في الفترة والمعتوه والمولود : يقول الهالك في الفترة لم يأتني كتاب ، ويقول المعتوه رب لم تجعل لي عقلا أعقل به خيرا ولا شرا ، ويقول المولود رب لم أدرك العقل فترفع لهم نار فيقال لهم ردوها ، قال فيردها من كان في علم الله سعيدا لو أدرك العمل ، ويمسك عنها من كان في علم الله شقياً لو أدرك العمل ، فيقول إياي عصيتم فكيف لو أن رسلي أتتكم ؟ ! » وكذا رواه البزار عن محمد بن عمر بن هياج الكوفي عن عبيد الله بن موسى عن فضيل بن مرزوق به ثم قال لا يعرف من حديث أبي سعيد إلا من طريقه عن عطية عنه ، وقال في آخره « فيقول الله إياي عصيتم فكيف برسلي بالغيب » (الحديث السابع) عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال هشام بن عمار ومحمد بن المبارك الصوري حدثنا عمرو بن واقد عن يونس بن جليس عن أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل عن نبي الله ﷺ قال « يؤتى يوم القيامة بالممسوخ عقلا وبالهالك في الفترة وبالهالك صغيراً فيقول الممسوخ يارب لو آتيتني عقلا ما كان من آتيته عقلا بأسعد مني » وذكر في الهالك في الفترة والصغير نحو ذلك «فيقول الرب عز وجل إني آمركم بأمر فتطيعوني، فيقولون نعم فيقول اذهبوا فادخلوا النار قال ولو دخلوها ماضرتهم فتخرج عليهم قوابص.فيظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء فيرجعون سراعا ثم يأمرهم الثانية فيرجعون كذلك فيقول الرب عز وجل قبل أن أخلقكم علمت ما أنتم عاملون وعلى علمي خلقتكم وإلى علمي تصيرون ، ضمهم ، فتأخذهم النار » (الحديث الثامن) عن أبي هريرة رضى الله عنه وأرضاه . قد تقدم روايته مدرجة مع رواية الأسود ابن سريع رضى الله عنه وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ، » وفي رواية قالوا : يارسول الله أفرأيت من يموت صغيراً ، قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » . وقال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا عبد الرحمن بن ثابت عن عطاء بن قرة عن عبد الله بن ضمرة عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ فيما أعلم شك موسى قال « ذراري المسلمين في الجنة يكفلهم إبراهيم عليه السلام » وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل أنه قال « إني خلقت عبادي حنفاء » وفي رواية لغيره « مسلمين » (الحديث التاسع) عن سمرة رضى الله عنه رواه الحافظ أبو بكر البرقاني في كتابه المستخرج على البخاري من حديث عوف الأعرابي . عن أبي رجاء العطاردي عن سمرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال «كل مولود يولد على الفطرة» فناداه الناس يارسول الله وأولاد المشركين ، قال « وأولاد المشركين » وقال الطبراني : حدثنا عبد الله بن أحمد حدثنا عقبة ابن مكرم الضبي عن عيسى بن شعيب عن عباد بن منصور عن أبي رجاء عن سمرة قال سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال «هم خدم أهل الجنة»

(الحديث العاشر) عن عم خنساء . قال أحمد حدثنا روح حدثنا عوف عن خنساء بنت معاوية عن بني صريم قالت حدثني عمي قال : قلت يارسول الله من في الجنة ، قال « النبي في الجنة والشهيد في الجنة والمولود في الجنة والوئيد في الجنة » . فمن العلماء من ذهب إلى الوقوف فيهم لهذا الحديث ، ومنهم من جزم لهم بالجنة لحديث سمرة بن جندب في صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام قال في جملة ذلك المنام حين مر على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان فقال له جبريل هذا إبراهيم عليه السلام وهؤلاء أولاد المسلمين .وأولاد المشركين قالوا يارسول الله وأولاد المشركين ، قال « نعم وأولاد المشركين » ومنهم من جزم لهم بالنار لقوله عليه السلام « هم مع آبائهم » ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة ، ومن عصى دخل النار داخرا وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة . وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض : وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب الاعتقاد وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ

والنقاد . وقد ذكر الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمرى بعد ما تقدم من أحاديث الامتحان ثم قال ، وأحاديث هذا الباب ليست قوية ولا تقوم بها حجة وأهل العلم ينكرونها لأن الآخرة دار جزاء وليست بدار عمل ولا ابتلاء فكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك فى وسع المخلوقين والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ﴿ والجواب ﴾ عما قال أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء ومنها ماهو حسن ومنها ماهو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن ، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها . وأما قوله إن الدار الآخرة دار جزاء فلا شك أنها دار جزاء ولا ينافى التكليف فى عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعرى عن مذهب أهل السنة والجماعة من امتحان الأطفال وقد قال تعالى (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود) الآية ، وقد ثبت فى الصحاح وغيرها أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة وأن المنافق لا يستطيع ذلك ويعود ظهره كالصفيحة الواحدة طبقا واحداً كلما أراد السجود خر لقفاه . وفى الصحيحين فى الرجل الذى يكون آخر أهل النار خروجا منها أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غير ما هو فيه ويتكرر ذلك مراراً ويقول الله تعالى يا ابن آدم ما أغدرك ثم يأذن له فى دخول الجنة ، وأما قوله فكيف يكلفهم الله دخول النار وليس ذلك فى وسعهم فليس هذا بمانع من صحة الحديث فان الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط وهو جسر على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب ومنهم الساعى ومنهم الماشى ومنهم من يحبو حبواً ومنهم المكدوش على وجهه فى النار . وليس ما ورد فى أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم ، وأيضاً فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار ، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذى يرى أنه نار فانه يكون عليه بردا وسلاما فهذا نظير ذلك ، وأيضا فان الله تعالى أمر بنى إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم فقتل بعضهم بعضا حتى قتلوا فيما قيل فى غداة واحدة سبعين ألفا يقتل الرجل أباه وأخاه وهم فى عماية غمامة أرسلها الله عليهم وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل وهذا أيضا شاق على النفوس جدا لا يتقاصر عما ورد فى الحديث المذكور والله أعلم . ﴿ فصل ﴾ إذا تقرر هذا فقد اختلف الناس فى ولدان المشركين على أقوال ﴿ أحدها ﴾ أنهم فى الجنة واحتجوا بحديث سمرة أنه عليه السلام رأى مع إبراهيم عليه السلام أولاد المسلمين وأولاد المشركين وبما تقدم فى رواية أحمد عن خنساء عن عمها أن رسول الله ﷺ قال « والمولود فى الجنة » وهذا استدلال صحيح ولكن أحاديث الامتحان أخص منه . فمن علم الله منه أنه يطيع جعل روحه فى البرزخ مع إبراهيم وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة ، ومن علم منه أنه لا يجيب فأمره إلى الله تعالى ويوم القيامة يكون فى النار كما دلت عليه أحاديث الامتحان ونقله الأشعرى عن أهل السنة ، ثم إن هؤلاء القائلين بأنهم فى الجنة منهم من يجعلهم مستقلين فيها ومنهم من يجعلهم خدما لهم كما جاء فى حديث على بن زيد عن أنس عند أبى داود الطيالسى وهو ضعيف والله أعلم

(والقول الثانى) أنهم مع آبائهم فى النار واستدل عليه بما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبى المغيرة حدثنا عتبة بن ضمرة ابن حبيب حدثنى عبد الله بن أبى قيس مولى غطيف أنه أتى عائشة فسألها عن ذرارى الكفار فقالت: قال رسول الله ﷺ « هم تبع لآبائهم » فقلت يا رسول الله بلا أعمال ؟ فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » وأخرجه أبو داود من حديث محمد بن حرب عن محمد بن زياد الالهانى سمعت عبد الله بن أبى قيس سمعت عائشة تقول سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذرارى المؤمنين قال « هم مع آبائهم » قلت فذرارى المشركين ؟ قال « هم مع آبائهم » فقلت بلا عمل؟ قال « الله أعلم بما كانو عاملين » ورواه أحمد أيضاً عن وكيع عن أبى عقيل يحيى بن المتوكل وهو متروك عن مولاته بهية عن عائشة أنها ذكرت أطفال المشركين لرسول الله ﷺ فقال « إن شئت أسمعتك تضاغيهم فى النار » وروى عبد الله بن الإمام أحمد حدثنا عثمان بن أبى شيبة عن محمد بن فضيل بن غزوان عن محمد بن عثمان عن زاذان عن على رضى الله عنه قال : سألت خديجة رسول الله ﷺ عن ولدين لها ماتا فى الجاهلية فقال « هما فى النار » قال فلما رأى الكراهية فى وجهها فقال لها « لو رأيت مكانهما لأبغضتهما » قالت فولدى منك ؟ قال

« إن المؤمنين وأولادهم في الجنة وإن المشركين وأولادهم في النار - ثم قرأ - (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) » وهذا حديث غريب فان في إسناده محمد بن عثمان مجهول الحال وشيخه زاذان لم يدرك علياً والله أعلم .

وروى أبو داود من حديث ابن أبي زائدة عن أبيه عن الشعبي قال : قال رسول الله ﷺ « الوائدة والموءودة في النار » ثم قال الشعبي حدثني به علقمة عن أبي وائل عن ابن مسعود ، وقد رواه جماعة عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن علقمة عن سلمة بن قيس الأشجعي قال : أتيت أنا وأخي النبي ﷺ فقلنا إن أمنا ماتت في الجاهلية وكانت تقرى الضيف وتصل الرحم وإنها وأدت أختا لنا في الجاهلية لم تبلغ الحنث فقال « الوائدة والموءودة في النار إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فتسلم » وهذا إسناد حسن

﴿ والقول الثالث ﴾ التوقف فيهم واعتمدوا على قوله صلى الله عليه وسلم « الله أعلم بما كانوا عاملين » وهو في الصحيحين من حديث جعفر بن أبي إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » وكذلك هو في الصحيحين من حديث الزهري عن عطاء بن يزيد ، وعن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه سئل عن أطفال المشركين فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف وهذا القول يرجع إلى قول من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة لأن الأعراف ليس دار قرار ومآل أهلها إلى الجنة كما تقدم تقرير ذلك في سورة الأعراف والله أعلم

﴿ فصل ﴾ وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين ، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي عن الإمام أحمد أنه قال : لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة وهذا هو المشهور بين الناس وهو الذي نقطع به إن شاء الله عز وجل . فأما ماذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن بعض العلماء أنهم توقفوا في ذلك وأن الولدان كلهم تحت المشيئة ، قال أبو عمر ذهب إلى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث منهم حماد بن زيد وحماد ابن سلمة وابن المبارك وإسحق بن راهويه وغيرهم قالوا وهو يشبه ما رسم مالك في موطئه في أبواب القدر وما أورده من الأحاديث في ذلك ، وعلى ذلك أكثر أصحابه وليس عن مالك فيه شيء منصوص إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة وأطفال المشركين خاصة في المشيئة انتهى كلامه وهو غريب جدا ، وقد ذكر أبو عبد الله القرطبي في كتاب التذكرة نحو ذلك أيضا والله أعلم . وقد ذكروا في ذلك أيضاً حديث عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت : دعي النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه ، فقال « أو غير ذلك يا عائشة ، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم . وخلق النار وخلق لها أهلا وهم في أصلاب آبائهم » رواه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه .

ولما كان الكلام في هذه المسئلة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن الشارع كره جماعة من العلماء الكلام فيها ، روى ذلك عن ابن عباس والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد بن الحنفية وغيرهم وأخرج ابن حبان في صحيحه عن جرير بن حازم سمعت أبا رجاء العطاردي سمعت ابن عباس رضي الله عنهما وهو على المنبر يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يزال أمر هذه الأمة مواتيا أو مقارباً مالم يتكلموا في الولدان والقدر » قال ابن حبان يعني أطفال المشركين ، وهكذا رواه أبو بكر البزار من طريق جرير بن حازم به ثم قال وقد رواه جماعة عن أبي رجاء عن ابن عباس موقوفا

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾

اختلف القراء في قراءة قوله (أمرنا) فالمشهور قراءة التخفيف واختلف المفسرون في معناها فقيل معناه أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قدرياً كقوله تعالى (أتاها أمرنا ليلا أو نهارا) إن الله لا يأمر بالفحشاء ، قالوا معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب ، وقيل معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة رواه ابن جريج

عن ابن عباس وقاله سعيد بن جبير أيضاً ، وقال ابن جرير يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء قلت إنما يجيء هذا على قراءة من قرأ (أمرنا مترفيها) قال على بن طلحة عن ابن عباس قوله (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) يقول سلطنا أشرارها فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب وهو قوله (وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها) الآية وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس ، وقال العوفى عن ابن عباس (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) يقول أكثرنا عددهم وكذا قال عكرمة والحسن والضحاك وقتادة ، وعن مالك عن الزهرى (أمرنا مترفيها) أكثرنا ، وقد استشهد بعضهم بالحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا روح بن عبادة حدثنا أبو نعيم العدوى عن مسلم بن بديل عن إياس ابن زهير عن سويد بن هبيرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « خير مال امرئ له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة » قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله فى كتابه الغريب المأمورة كثيرة النسل والسكة الطريقة المصطفة من النخل والمأبورة من التأبير ، وقال بعضهم إنما جاء هذا متناسبا كقوله : « مأزورات غير مأجورات »

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى منذراً كفار قريش فى تكذيبهم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه قد أهلك أمما من المكذبين للرسل من بعد نوح ودل هذا على أن القرون التى كانت بين آدم ونوح على الإسلام كما قاله ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام . ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فعقوبتكم أولى وأحرى . وقوله (وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيرا) أى هو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى .

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات فإنه قال (عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم) أى فى الدار الآخرة (يصلاها) أى يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه (مذموما) أى فى حال كونه مذموما على سوء تصرفه وصنيعه ، إذ اختار الفانى على الباقى (مدحوراً) مبعداً مقصيا حقيراً ذليلا مهانا . روى الإمام أحمد حدثنا حسين حدثنا رويد عن أبى إسحق عن زرعة عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » وقوله (ومن أراد الآخرة) أى أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور (وسعى لها سعيها) أى طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم (وهو مؤمن) أى قلبه مؤمن أى مصدق بالثواب والجزاء (فأولئك كان سعيهم مشكوراً)

﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾

يقول تعالى (كلا) أى كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة نمدهم فيما فيه (من عطاء ربك) أى هو المتصرف الحاكم الذى لا يجور فيعطى كلا ما يستحقه من السعادة والشقاوة فلا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى ولا مغير لما أراد ولهذا قال (وما كان عطاء ربك محظوراً) أى لا يمنعه أحد ولا يرده راد . قال قتادة (وما كان عطاء ربك محظوراً) أى منقوصا ، وقال الحسن وغيره أى ممنوعا ثم قال تعالى (انظر كيف فضلنا

بعضهم على بعض) أى فى الدنيا فمنهم الغنى والفقير وبين ذلك ، والحسن والقبيح وبين ذلك ، ومن يموت صغيرا ، ومن يعمر حتى يبقى شيخا كبيرا ، وبين ذلك (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) أى ولتفاوتهم فى الدار الآخرة أكبر من الدنيا فان منهم من يكون فى الدركات فى جهنم وسلاسلها وأغلالها ، ومنهم من يكون فى الدرجات العلى ونعيمها وسرورها ، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه كما أن أهل الدرجات يتفاوتون فان الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض وفى الصحيحين « إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء » ولهذا قال تعالى (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) وفى الطبرانى من رواية زاذان عن سلمان مرفوعا « ما من عبد يريد أن يرتفع فى الدنيا درجة فارتفع إلا وضعه الله فى الآخرة أكبر منها » ثم قرأ (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) .

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾

يقول تعالى والمراد المكلفون من الأمة لا تجعل أيها المكلف فى عبادتك ربك له شريكا (فتقعد مذموما) أى على إشراكك به (مخذولا) لأن الرب تعالى لا ينصرك بل يكلك إلى الذى عبدت معه وهو لا يملك لك ضرا ولا نفعا لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له وقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو أحمد الزبيرى حدثنا بشير بن سلمان عن سيار أبى الحكم عن طارق بن شهاب عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى إما آجلا وإما غنى عاجلا » ورواه أبو داود والترمذى من حديث بشير بن سلمان به ، وقال الترمذى حسن صحيح غريب

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾

يقول تعالى آمرا بعبادته وحده لا شريك له فان القضاء ههنا بمعنى الأمر، قال مجاهد (وقضى) يعنى وصى ، وكذا قرأ أبى بن كعب وابن مسعود والضحاك بن مزاحم (ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال (وبالوالدين إحسانا) أى وأمر بالوالدين إحسانا كقوله فى الآية الأخرى (أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير) وقوله (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف) أى لا تسمعهما قولا سيئا حتى ولا التأفيف الذى هو أدنى مراتب القول السيء (ولا تنهرهما) أى ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح كما قال عطاء بن أبى رباح فى قوله (ولا تنهرهما) أى لا تنفض يدك عليهما ، ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال (وقل لهما قولا كريما) أى لينا طيبا حسنا بتأدب وتوقير وتعظيم (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) أى تواضع لهما بفعلك (وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) أى فى كبرهما وعند وفاتهما ، قال ابن عباس ثم أنزل الله (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) الآية وقد جاء فى بر الوالدين أحاديث كثيرة منها الحديث المروى من طرق عن أنس وغيره أن النبى ﷺ صعد المنبر ثم قال « آمين آمين آمين » قيل يا رسول الله علام ما أمنت ؟ قال « أتانى جبريل فقال يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك ، قل آمين ، فقلت آمين ، ثم قال رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له ، قل آمين فقلت آمين ، ثم قال رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، قل آمين ، فقلت آمين » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا هشيم حدثنا على بن زيد عن زرارة بن أوفى عن مالك بن الحارث عن رجل منهم أنه سمع النبى ﷺ يقول « من ضم يتيما من أبوين

مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغني عنه وجبت له الجنة البتة ومن أعتق امرأ مسلماً كان فكاكه من النار يجزى بكل عضو منه عضواً منه » ثم قال حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت على بن زيد فذكر معناه إلا أنه قال عن رجل من قومه يقال له مالك أو ابن مالك وزاد « ومن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار فأبعده الله »

(حديث آخر) وقال الإمام أحمد حدثنا عفان عن حماد بن سلمة حدثنا على بن زيد عن زرارة بن أوفى عن مالك بن عمرو القشيرى سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أعتق رقبة مسلمة فهى فداؤه من النار فان كل عظم من عظامه محررة بعظم من عظامه ، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفرله فأبعده الله عز وجل ، ومن ضم يتيما من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله وجبت له الجنة » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا حجاج ومحمد بن جعفر قالا حدثنا شعبة عن قتادة سمعت زرارة بن أوفى يحدث عن أبى مالك القشيرى قال : قال النبى ﷺ « من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك فأبعده الله وأسحقه » ورواه أبو داود الطيالسى عن شعبة به وفيه زيادات أخر (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة حدثنا سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف رجل أدرك أحد أبويه أو كلاهما عنده الكبر ولم يدخل الجنة » صحيح من هذا الوجه ولم يخرجوه سوى مسلم من حديث أبى عوانة وجرير وسليمان بن بلال عن سهيل به (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا ربعى بن إبراهيم قال أحمد وهو أخو إسماعيل ابن علية وكان يفضل على أخيه عن عبد الرحمن بن إسحق عن سعيد بن أبى سعيد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان فانسلخ فلم يغفرله ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة » قال ربعى لا أعلمه إلا قال « أو أحدهما » ورواه الترمذى عن أحمد بن إبراهيم الدورقى عن ربعى بن إبراهيم ثم قال غريب من هذا الوجه (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يونس حدثنا محمد حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل حدثنا أسيد بن على عن أبيه عن أبى عبيد عن أبى أسيل وهو مالك بن ربيعة الساعدى قال بينما أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من الأنصار فقال يارسول الله هل بقى على من بر أبوى شىء بعد موتهما أبرهما به ، قال « نعم خصال أربع : الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من قبلهما فهو الذى بقى عليك من برهما بعد موتهما » ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن سليمان وهو ابن الغسيل به

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا ابن جريج أخبرنى محمد بن طلحة بن عبيد الله بن عبد الرحمن عن أبيه عن معاوية بن جاهمة السلمى أن جاهمة جاء إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله أردت الغزو وجئتك أستشيرك فقال « فهل لك من أم » قال نعم قال « فالزمها فان الجنة عند رجلها » ثم الثانية ثم الثالثة فى مقاعد شتى كمثل هذا القول ، ورواه النسائى وابن ماجه من حديث ابن جريج به (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا خلف بن الوليد حدثنا ابن عياش عن يحيى بن سعد عن خالد بن معدان عن المقدام بن معديكرب عن النبى ﷺ قال « إن الله يوصيكم بآبائكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب » وأخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عياش به .

(حديث آخر) قال أحمد حدثنا يونس حدثنا أبو عوانة عن أشعث بن سليم عن أبيه عن رجل من بنى يربوع قال أتيت النبى ﷺ فسمعته وهو يكلم الناس يقول « يد المعطى العليا أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك »

(حديث آخر) قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده حدثنا إبراهيم بن المستمر العروقى حدثنا عمرو بن سفيان حدثنا الحسن بن أبى جعفر عن ليث بن أبى سليم عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلا كان فى الطواف حاملا أمه يطوف بها فسأل النبى صلى الله عليه وسلم هل أديت حقها قال « لا ولا بزفرة واحدة » أو كما قال ثم قال البزار لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه . قلت والحسن بن أبى جعفر ضعيف والله أعلم

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾

قال سعيد بن جبير هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه وفى نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به ، وفى رواية لا يريد إلا الخير بذلك فقال (ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين) وقوله (فإنه كان للأوابين غفوراً) قال قتادة للمطيعين أهل الصلاة ، وعن ابن عباس المسبحين وفى رواية عنه المطيعين المحسنين ، وقال بعضهم هم الذين يصلون بين العشاءين وقال بعضهم هم الذين يصلون الضحى ، وقال شعبة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب فى قوله (فإنه كان للأوابين غفوراً) قال الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون ويصيبون الذنب ثم يتوبون ، وكذا رواه عبد الرزاق عن الثورى ومعمر عن يحيى بن سعيد عن ابن المسيب بنحوه وكذا رواه الليث وابن جرير عن ابن المسيب به وقال عطاء بن يسار وسعيد بن جبير ومجاهد هم الراجعون إلى الخير وقال مجاهد عن عبيد بن عمير فى الآية هو الذى إذا ذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر الله منها ووافقه مجاهد فى ذلك ، وقال عبد الرزاق حدثنا محمد بن مسلمة عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير فى قوله (فإنه كان للأوابين غفوراً) قال كنا نعد الأواب الحفيظ أن يقول اللهم اغفر لى ما أصبت فى مجلسى هذا . وقال ابن جرير والأولى فى ذلك قول من قال هو التائب من الذنب الرجاع من المعصية إلى الطاعة مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه ، وهذا الذى قاله هو الصواب لأن الأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع يقال آب فلان إذا رجع قال تعالى (إن إلينا إيابهم) وفى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رجع من سفر قال « آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون »

﴿ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ﴾

لما ذكر تعالى بر الوالدين عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام ، وفى الحديث « أمك وأباك ثم أدناك أدناك » وفى رواية « ثم الأقرب فالأقرب » وفى الحديث « من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أجله فليصل رحمه » وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عباد بن يعقوب حدثنا أبو يحيى التيمى حدثنا فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبى سعيد قال لما نزلت (وآت ذا القربى حقه) دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاها فدك ثم قال لا نعلم حدث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبو يحيى التيمى وحميد بن حماد بن الخوار وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده لأن الآية مكية وفدك إنما فتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة فكيف يلتئم هذا مع هذا ؟ فهو إذا حديث منكر والأشبه أنه من وضع الرافضة والله أعلم : وقد تقدم الكلام على المساكين وأبناء السبيل فى سورة براءة بما أغنى عن إعادته ههنا ، وقوله (ولا تبذر تبذيرا) لما أمر بالانفاق نهى عن الإسراف فيه بل يكون وسطا كما قال فى الآية الأخرى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) الآية ثم قال منفرا عن التبذير والسرف (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) أى أشباههم فى ذلك . قال ابن مسعود التبذير الانفاق فى غير حق وكذا قال ابن عباس وقال مجاهد لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذرا ولو أنفق مدا فى غير حق كان مبذرا . وقال قتادة: التبذير النفقة فى معصية الله تعالى وفى غير الحق والفساد . وقال الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال أتى رجل من بنى تميم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إنى ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة فأخبرنى كيف أنفق وكيف أصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ « تخرج الزكاة من مالك إن كان فانها طهرة تطهرك وتصل أقرباءك وتعرف حق السائل والجار والمسكين » فقال يارسول الله أقلل لى ؟ قال (فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً) فقال حسبى يارسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله فقال رسول الله ﷺ

« نعم إذا أديتها إلى رسولى فقد برئت منها ولك أجرها ، وإثمها على من بدلها » وقوله (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) أى فى التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته ولهذا قال (وكان الشيطان لربه كفوراً) أى جحودا لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته بل أقبل على معصيته ومخالفته ، وقوله (وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك) الآية أى إذا سألك أقاربك ومن أمرناك باعطائهم وليس عندك شىء وأعرضت عنهم لفقد النفقة (فقل لهم قولا ميسوراً) أى عدهم وعدا بسهولة ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله ، هكذا فسر قوله (فقل لهم قولا ميسوراً) بالوعد : مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغير واحد

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد فى العيش ذاما للبخل ناهياً عن السرف (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) أى لا تكن بخيلا منوعا لا تعطى أحدا شيئاً كما قالت اليهود عليهم لعائن الله يد الله مغلولة أى نسبوه إلى البخل تعالى وتقدس الكريم الوهاب وقوله (ولا تبسطها كل البسط) أى ولا تسرف فى الانفاق فتعطى فوق طاقتك وتخرج أكثر من دخلك فتقعد ملوما محسورا وهذا من باب اللف والنشر أى فتقعد إن بخلت ملوما يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك كما قال زهير بن أبى سلمى فى المعلقة

ومن كان ذا مال فيبخل بماله ۞ على قومه يستغن عنه ويذمم

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شىء تنفقه فتكون كالحسير وهو الدابة التى قد عجزت عن السير فوقفت ضعفا وعجزا فانها تسمى الحسير وهو مأخوذ من الكلال كما قال (فارجع البصر هل ترى من فطور ۞ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) أى كليل عن أن يرى عيبا هكذا فسر هذه الآية بأن المراد هنا البخل والسرف : ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم ، وقد جاء فى الصحيحين من حديث أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أووفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع » هذا لفظ البخارى فى الزكاة وفى الصحيحين من طريق هشام بن عروة عن زوجته فاطمة بنت المنذر عن جدتها أسماء بنت أبى بكر قالت : قال رسول الله ﷺ « انفقى هكذا وهكذا وهكذا ولا توعى فيوعى الله عليك ولا توكى فيوكى الله عليك » وفى لفظ « ولا تحصى فيحصى الله عليك » وفى صحيح مسلم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله قال لى أنفق أنفق عليك » وفى الصحيحين من طريق معاوية ابن أبى مزرد عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا » وروى مسلم عن قتيبة عن إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة مرفوعا « ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبدا أنفق إلا عزا ومن تواضع لله رفعه الله » وفى حديث أبى كثير عن عبد الله بن عمر مرفوعا « إياكم والشح فانه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا » وروى البيهقى من طريق سعدان بن نصر عن أبى معاوية عن الأعمش عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « ما يخرج رجل صدقة حتى يفك لحيى سبعين شيطانا »

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عبيدة الحداد حدثنا سكين بن عبد العزيز حدثنا إبراهيم الهجرى عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما عال من اقتصد » وقوله (إن ربك يبسط الرزق

لمن يشاء ويقدر) إخبار أنه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف فى خلقه بما يشاء فيغنى من يشاء ويفقر من يشاء لما له فى ذلك من الحكمة ولهذا قال (إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) أى خبيرا بصيرا بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر كما جاء فى الحديث « إن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه » وقد يكون الغنى فى حق بعض الناس استدراجا ، والفقر عقوبة عياذاً بالله من هذا وهذا

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده لأنه نهى عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأولاد فى الميراث وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته فنهى الله تعالى عن ذلك وقال (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) أى خوف أن تفتقروا فى ثانى الحال ، ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال (نحن نرزقهم وإياكم) وفى الأنعام (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) أى من فقر (نحن نرزقكم وإياهم) وقوله (إن قتلهم كان خطأً كبيراً) أى ذنبا عظيما وقرأ بعضهم كان خطأً كبيرا وهو بمعناه ، وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك — قلت ثم أى ؟ — قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك — قلت ثم أى ؟ — قال أن تزانى بحليلة جارك »

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾

يقول تعالى ناهيا عباده عن الزنا وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه (ولا تقربو الزنا إنه كان فاحشة) أى ذنبا عظيما (وساء سبيلا) أى وبئس طريقا ومسلكا

وقد قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا جرير حدثنا سليم بن عامر عن أبى أمامة أن فتى شابا أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لى بالزنا فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا : مه مه فقال « ادنه » فدنا منه قريبا فقال « اجلس » فجلس فقال « أتحبه لأمك » ؟ قال لا والله جعلنى الله فداك قال ولا الناس يحبونه لأمهاتهم قال « أفتحبه لابنتك ؟ » قال لا والله يا رسول الله جعلنى الله فداك قال ولا الناس يحبونه لبناتهم قال « أفتحبه لأختك ؟ » قال لا والله جعلنى الله فداك قال ولا الناس يحبونه لأخواتهم قال « أفتحبه لعمتك ؟ » قال لا والله جعلنى الله فداك قال ولا الناس يحبونه لعماتهم قال « أفتحبه لخالتك ؟ » قال لا والله جعلنى الله فداك قال ولا الناس يحبونه لخالاتهم قال فوضع يده عليه وقال « اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحصن فرجه » قال فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء . وقال ابن أبى الدنيا حدثنا عمار بن نصر حدثنا بقية عن أبى بكر بن أبى مريم عن الهيثم بن مالك الطائى عن النبى ﷺ قال « ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رحم لا يحل له »

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعى كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس والزانى المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة » وفى السنن « لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم » وقوله (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) أى سلطنة على القاتل فانه بالخيار فيه إن شاء قتله قودا وإن شاء عفا عنه على الدية وإن شاء عفا عنه مجانا كما ثبتت السنة بذلك . وقد أخذ الإمام الحبر ابن عباس من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية

السلطنة أنه سيملك لأنه كان ولى عثمان وقد قتل عثمان مظلوما رضى الله عنه وكان معاوية يطالب علياً رضى الله عنه أن يسلمه قتلته حتى يقتص منهم لأنه أموى وكان على رضى الله عنه يستمهله فى الأمر حتى يتمكن ويفعل ذلك ويطلب على من معاوية أن يسلمه الشام فيأبى معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة وأبى أن يبايع علياً هو وأهل الشام ثم مع المطاولة تمكن معاوية وصار الأمر اليه كما قاله ابن عباس واستنبطه من هذه الآية الكريمة وهذا من الأمر العجب ، وقد روى ذلك الطبرانى فى معجمه حيث قال حدثنا يحى بن عبد الباقى حدثنا أبو عمير بن النحاس حدثنا ضمرة بن ربيعة عن ابن شوذب عن مطر الوراق عن زهدم الجرمى قال : كنا فى سمر ابن عباس فقال : إنى محدثكم بحديث ليس بسر ولا علانية إنه لما كان من أمر هذا الرجل ما كان يعنى عثمان قلت لعلى اعتزل فلو كنت فى جحر طلبت حتى تستخرج فعصانى ، وايم الله ليتأمرن عليكم معاوية وذلك أن الله يقول (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل) الآية وليحملنكم قريش على سنة فارس والروم وليقيمن عليكم النصارى واليهود والمجوس ، فمن أخذ منكم يومئذ بما يعرف نجا ، ومن ترك وأنتم تاركون كنتم كقرن من القرون هلك فيمن هلك ، وقوله (فلا يسرف فى القتل) قالوا معناه فلا يسرف الولى فى قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل ، وقوله (إنه كان منصورا) أى إن الولى منصور على القاتل شرعا وغالباً وقدرا

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

يقول تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده) أى لا تتصرفوا فى مال اليتيم إلا بالغبطة (ولا تأكلوها[1] إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) وقد جاء فى صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى ذر « يا أبا ذر إنى أراك ضعيفا وإنى أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم » وقوله (وأوفوا بالعهد) أى الذى تعاهدون عليه الناس والعقود التى تعاملونهم بها فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه (إن العهد كان مسئولا) أى عنه وقوله (وأوفوا الكيل إذا كلتم)أى من غير تطفيف ولا تبخسوا الناس أشياءهم (وزنوا بالقسطاس) قرئ بضم القاف وكسرها كالقرطاس وهو الميزان قال مجاهد هو العدل بالرومية وقوله (المستقيم) أى الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب (ذلك خير) أى لكم فى معاشكم ومعادكم ولهذا قال (وأحسن تأويلا) أى مآلا ومنقلبا فى آخرتكم . قال سعيد عن قتادة (ذلك خير وأحسن تأويلا) أى خير ثوابا وأحسن عاقبة . وابن عباس كان يقول يا معشر الموالى إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم هذا المكيال وهذا الميزان ، قال وذكر لنا أن نبى الله عليه الصلاة والسلام كان يقول « لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله إلا أبدله الله به فى عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك »

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يقول لا تقل ، وقال العوفى لا ترم أحداً بما ليس لك به علم وقال محمد ابن الحنفية يعنى شهادة الزور ، وقال قتادة لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله ، ومضمون ما ذكروه أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم بل بالظن الذى هو التوهم والخيال كما قال تعالى (اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم) وفى الحديث « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » وفى سنن أبى داود « بئس مطية الرجل زعموا » وفى الحديث الآخر « إن أفرى الفرى أن يرى الرجل عينيه مالم تريا » وفى الصحيح « من تحلم حلماً كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل » وقوله (كل أولئك) أى هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد (كان عنه مسئولا) أى سيسأل العبد عنها يوم القيامة وتسأل عنه وعما عمل فيها

(١) فى جميع النسخ: ولا تأكلوا أموالكم إسرافاً الخ وهو غلط ، وربما كان سببه أن المصنف ذكر أولا آية ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ثم ذكر هذه فسقط من النساخ آخر الآية الأولى وأول الثانية .

ويصح استعمال أولئك مكان تلك كما قال الشاعر :

ذم المنازل بعد منزلة اللوى * والعيش بعد أولئك الأيام

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن التجبر والتبختر فى المشية (ولا تمش فى الأرض مرحاً) أى متبخترا متمايلا مشى الجبارين (إنك لن تخرق الأرض) أى لن تقطع الأرض بمشيك قاله ابن جرير واستشهد عليه بقول رؤبة بن العجاج :

* وقاتم الأعماق خاوى المخترقن *

وقوله (ولن تبلغ الجبال طولا) أى بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك ، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده كما ثبت فى الصحيح « بينما رجل يمشى فيمن كان قبلكم وعليه بردان يتبختر فيهما إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه فى زينته وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض وفى الحديث « من تواضع لله رفعه الله فهو فى نفسه حقير وعند الناس كبير ، ومن استكبر وضعه الله فهو فى نفسه كبير وعند الناس حقير ، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب والخنزير » وقال أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتاب الخمول والتواضع : حدثنا أحمد بن إبراهيم بن كثير حدثنا حجاج بن محمد عن أبى بكر الهذلى قال : بينما نحن مع الحسن إذ مر عليه ابن الأهتم يريد المنصور وعليه جباب خز قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشى ويتبختر إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال : أف أف ، شامخ بأنفه ، ثانى عطفه ، مصعر خده ، ينظر فى عطفيه ، أى حميق ينظر فى عطفه فى نعم غير مشكورة ولا مذكورة ، غير المأخوذ بأمر الله فيها ، ولا المؤدى حق الله منها ، والله ان يمشى أحدهم طبيعته يتلجلج تلجلج المجنون فى كل عضو منه نعمة ، وللشيطان به لعنة فسمعه ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه ، فقال لاتعتذر إلى وتب إلى ربك أما سمعت قول الله تعالى (ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) ورأى البخترى العابد رجلا من آل على يمشى وهو يخطر فى مشيته فقال له ياهذا : إن الذى أكرمك به لم تكن هذه مشيته قال فتركها الرجل بعد . ورأى ابن عمر رجلا يخطر فى مشيته فقال إن للشياطين إخوانا وقال خالد بن معدان : إياكم والخطر فان الرجل يده من سائر جسده رواهما ابن أبى الدنيا ، وقال ابن أبى الدنيا حدثنا خلف بن هشام البزار حدثنا حماد بن زيد عن يحيى عن سعيد عن محسن قال : قال رسول الله ﷺ « إذا مشت أمتى المطيطاء وخدمتهم فارس والروم سلط بعضهم على بعض » وقوله (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً) أما من قرأ سيئة أى فاحشة فمعناه عنده كل هذا الذى نهينا عنه من قوله (ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق) إلى هنا فهو سيئة مؤاخذ عليها مكروهاً عند الله لايحبه ولا يرضاه ، وأما من قرأ سيئه على الاضافة فمعناه عنده كل هذا الذى ذكرناه من قوله (وقضى ربك أن لاتعبدوا إلا إياه) إلى هنا فسيئه أى فقبيحه مكروه عند الله ، هكذا وجه ذلك ابن جرير رحمه الله

﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾

يقول تعالى هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الجميلة ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة مما أوحينا إليك يامحمد لتأمر به الناس (ولاتجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما) أى تلومك نفسك ويلومك الله والخلق (مدحوراً) أى مبعداً من كل خير ، قال ابن عباس وقتادة مطروداً والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ فانه صلوات الله وسلامه عليه معصوم.

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾

يقول تعالى رادا على المشركين الكاذبين الزاعمين عليهم لعائن الله ان الملائكة بنات الله فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، ثم ادعوا أنهم بنات الله ثم عبدوهم فأخطأوا فى كل من المقامات الثلاث خطأ عظيما فقال تعالى منكرا عليهم (أفأصفاكم ربكم بالبنين) أى خصصكم بالذكور (واتخذ من الملائكة إناثاً) أى واختار لنفسه على زعمكم البنات ثم شدد الانكار عليهم فقال (إنكم لتقولون قولا عظيما) أى فى زعمكم أن لله ولدا ثم جعلكم ولده الاناث التى تأنفون أن يكن لكم وربما قتلتموهن بالوأد فتلك إذا قسمة ضيزى وقال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئاً إداً * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولدا * وماينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ، لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾

يقول تعالى (ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ فينزجروا عماهم فيه من الشرك والظلم والافك (وما يزيدهم) أى الظالمين منهم (إلا نفورا) أى عن الحق وبعداً منه .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكا من خلقه العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفا لو كان الأمر كما تقولون وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه فانه لا يحب ذلك ولا يرضاه بل يكرهه ويأباه وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه ثم نزه نفسه الكريمة وقدسها فقال (سبحانه وتعالى عما يقولون) أى هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون فى زعمهم أن معه آلهة أخرى (علوا كبيرا) أى تعاليا كبيرا ، بل هو الله الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحدا

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

يقول تعالى تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن أى من المخلوقات وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون وتشهد له بالوحدانية فى ربوبيته وإلهيته

ففى كل شىء له آية * تدل على أنه واحد

كما قال تعالى (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا) وقال أبو القاسم الطبرانى حدثنا على بن عبدالعزيز حدثنا سعيد بن منصور حدثنا سليمان بن ميمون مؤذن مسجد الرملة حدثنا عروة بن رويم عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به إلى المسجد الأقصى كان بين المقام وزمزم، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فطار به حتى بلغ السموات السبع . فلما رجع قال « سمعت تسبيحاً فى السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى ، من ذى المهابة مشفقات لذى العلو بما علا ، سبحان

العلى الأعلى سبحانه وتعالى » . وقوله (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) أى وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) أى لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات وهذا أشهر القولين كما ثبت فى صحيح البخارى عن ابن مسعود أنه قال كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . وفى حديث أبى ذر أن النبي ﷺ أخذ فى يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل ، وكذا فى يد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم وهو حديث مشهور فى المسانيد ، وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا زبان عن سهل بن معاذ عن ابن أنس عن أبيه رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم « اركبوها سالمة ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرا لله منه » وفى سنن النسائى عن عبد الله بن عمرو قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفدع وقال « نقيقها تسبيح » وقال قتادة عن عبد الله بن أبى عن عبد الله بن عمرو أن الرجل إذا قال لا إله إلا الله فهى كلمة الإخلاص التى لا يقبل الله من أحد عملا حتى يقولها ، وإذا قال الحمد لله فهى كلمة الشكر التى لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها ، وإذا قال الله أكبر فهى تملأ ما بين السماء والأرض ، وإذا قال سبحان الله فهى صلاة الخلائق التى لم يدع الله أحداً من خلقه إلا قرره بالصلاة والتسبيح . وإذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله قال أسلم عبدى واستسلم . وقال الإمام أحمد حدثنا ابن وهب حدثنا جرير حدثنا أبى سمعت مصعب بن زهير يحدث عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال أتى النبي ﷺ أعرابى عليه جبة من طيالسة مكفوفة بديباج : أو مزرورة بديباج فقال إن صاحبكم هذا يريد أن يرفع كل راع بن راع ويضع كل رأس بن رأس فقام إليه النبي ﷺ مغضباً فأخذ بمجامع جبته فاجتذ به فقال « لا أرى عليك ثياب من يعقل » ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس فقال « إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال إنى قاص عليكما الوصية آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين أنهاكما عن الشرك بالله والكبر ، وآمركما بلا إله إلا الله فان السموات والأرض وما فيهما لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى كانت أرجح ولو أن السموات والأرض كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليهما لقصمتهما أو لفصمتهما ، وآمركما بسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء ورواه الإمام أحمد أيضاً عن سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن مصعب بن زهير به أطول من هذا وتفرد به ، وقال ابن جرير حدثنى نصر بن عبد الرحمن الأودى حدثنا محمد بن يعلى عن موسى بن عبيدة عن زيد بن أسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه ؟ إن نوحا عليه السلام قال لابنه يا بنى آمرك أن تقول سبحان الله فانها صلاة الخلق وتسبيح الخلق وبها يرزق الخلق » قال الله تعالى (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) إسناده فيه ضعف فان الأودى ضعيف عند الأكثرين ، وقال عكرمة فى قوله تعالى (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) قال الاسطوانة تسبح والشجرة تسبح - الاسطوانة السارية - وقال بعض السلف: صرير الباب تسبيحه وخرير الماء تسبيحه قال الله تعالى (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) وقال سفيان الثورى عن منصور عن إبراهيم قال الطعام يسبح ويشهد لهذا القول آية السجدة فى الحج ، وقال آخرون إنما يسبح من كان فيه روح يعنون من حيوان ونبات قال قتادة فى قوله (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) قال كل شيء فيه روح يسبح من شجر أو شيء فيه ، وقال الحسن والضحاك فى قوله (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) قالا كل شيء فيه الروح

وقال ابن جرير حدثنا محمد بن حميد حدثنا يحيى بن واضح وزيد بن حباب قالا حدثنا جرير أبو الخطاب قال كنا مع يزيد الرقاشى ومعه الحسن فى طعام فقدموا الخوان ، فقال يزيد الرقاشى يا أبا سعد يسبح هذا الخوان ؟ فقال كان يسبح مرة - قلت الخوان هو المائدة من الخشب - فكأن الحسن رحمه الله ذهب إلى أنه لما كان حيا فيه خضرة كان يسبح فلما قطع وصار خشبة يابسة انقطع تسبيحه وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال «إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير أما أحدهما فكان لا يستنزه من القول وأما الآخر فكان

يمشي بالنميمة » ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين ثم غرز في كل قبر واحدة ثم قال « لعله يخفف عنهما مالم ييبسا » أخرجاه في الصحيحين قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء إنما قال مالم ييبسا لأنهما يسبحان مادام فيهما خضرة فإذا يبسا انقطع تسبيحهما والله أعلم وقوله (إنه كان حليما غفوراً) أى إنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره فان استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر كما جاء في الصحيحين « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة) الآية وقال تعالى (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة) الآية وقال (وكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة) الآيتين ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان ورجع إلى الله وتاب اليه تاب عليه كما قال تعالى (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله) الآية وقال ههنا (إنه كان حليما غفوراً) كما قال فى آخر فاطر (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفوراً) إلى أن قال (ولو يؤاخذ الله الناس) إلى آخر السورة .

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ وإذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن جعلنا بينك وبينهم حجابا مستوراً قال قتادة وابن زيد هو الأكنة على قلوبهم كما قال تعالى (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) أى مانع حائل أن يصل الينا مما تقول شيء وقوله (حجابا مستوراً) بمعنى ساتر كميمون ومشئوم بمعنى يامن وشائم لأنه من يمنهم وقيل مستوراً عن الأبصار فلا تراه وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى ومال إلى ترجيحه ابن جرير رحمه الله وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا أبو موسى الهروى إسحق بن إبراهيم حدثنا سفيان عن الوليد بن كثير عن يزيد بن تدرس عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله تعالى عنها قالت لما نزلت (تبت يدا أبى لهب) جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة وفى يدها فهر وهى تقول: مذمما أتينا ــ أو أبينا ــ قال أبو موسى الشك منى، ودينه قلينا، وأمره عصينا. ورسول الله ﷺ جالس وأبو بكر إلى جنبه فقال أبو بكر رضى الله عنه لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك فقال « إنها لن ترانى » وقرأ قرآنا اعتصم به منها (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً) قال فجاءت حتى قامت على أبى بكر فلم تر النبى ﷺ فقالت يا أبا بكر بلغنى أن صاحبك هجانى فقال أبو بكر لا ورب هذا البيت ماهجاك قال فانصرفت وهى تقول لقد علمت قريش أنى بنت سيدها . وقوله (وجعلنا على قلوبهم أكنة) وهى جمع كنان الذى يغشى القلب (أن يفقهوه) أى لئلا يفهموا القرآن (وفى آذانهم وقراً) وهو الثقل الذى يمنعهم من سماع القرآن سماعا ينفعهم ويهتدون به. وقوله تعالى (وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده) أى إذا وحدت الله فى تلاوتك وقلت لا إله إلا الله (ولوا) أى أدبروا راجعين (على أدبارهم نفوراً) ونفور جمع نافر كقعود جمع قاعد ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل والله أعلم كما قال تعالى (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) الآية قال قتادة فى قوله (وإذا ذكرت ربك فى القرآن) الآية ان المسلمين لما قالوا لا إله إلا الله أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم فضافها إبليس وجنوده فأبى الله إلا أن يمضيها ويعليها وينصرها ويظهرها على من ناوأها ، إنها كلمة من خاصم بها فلج ومن قاتل بها نصر إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين التى يقطعها الراكب فى ليال قلائل ويسير الدهر فى فئام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها ﴿ قول آخر فى الآية ﴾ روى ابن جرير حدثنى الحسين بن محمد الذارع حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبى حدثنا عمرو بن مالك عن أبى الجوزاء عن ابن عباس فى قوله (وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً) هم الشياطين وهذا غريب جدا فى تفسيرها وإلا فالشياطين إذا قرئ القرآن أو نودى بالأذان أو ذكر الله انصرفوا

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا

مَّسْحُورًا * انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾

يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفار قريش حين جاءوا يستمعون قراءته ﷺ سرا من قومهم بما قالوا من أنه رجل مسحور من السحر على المشهور أو من السحر وهو الرئة أى إن تتبعون إن اتبعم محمدا إلا بشراً يأكل كما قال الشاعر :

فان تسألينا فيم نحن فاننا * عصافير من هذا الأنام المسحر

وقال الراجز: * يسحر بالطعام وبالشراب * أى يغذى وقد صوب هذا القول ابن جرير وفيه نظر لأنهم أرادوا ههنا أنه مسحور له رئى يأتيه بما استمعوه من الكلام الذى يتلوه ومنهم من قال شاعر ومنهم من قال كاهن ومنهم من قال مجنون ومنهم من قال ساحر ولهذا قال تعالى (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) أى فلا يهتدون إلى الحق ولا يجدون اليه مخلصا ، قال محمد بن إسحق فى السيرة حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أنه حدث أن أباسفيان بن حرب وأباجهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بن زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى بالليل فى بيته فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا حتى اذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ماقال أول مرة ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض لانبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا فلما أصبح الأخنس ابن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أباسفيان بن حرب فى بيته فقال أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد قال يا أباثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف مايراد بها وسمعت أشياء ماعرفت معناها ولا مايراد بها قال الأخنس وأنا والذى حلفت به . قال ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال يا أبا الحكم مارأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال ماذا سمعت ؟ قال تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك هذه والله لانؤمن به أبدا ولا نصدقه . قال فقام عنه الأخنس وتركه .

﴿ وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد القائلين استفهام إنكار منهم لذلك (أئذا كنا عظاما ورفاتاً) أى ترابا قاله مجاهد وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما غبارا (أئنا لمبعوثون خلقا جديداً) أى يوم القيامة بعدما بلينا وصرنا عدما لا نذكر كما أخبر عنهم فى الموضع الآخر (يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة * أئذا كنا عظاما نخرة * قالوا تلك إذا كرة خاسرة) وقوله تعالى (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه) الآيتين فأمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن يجيبهم فقال (قل كونوا حجارة أو حديدا) إذهما أشد امتناعا من العظام والرفات (أو خلقا مما يكبر فى صدوركم) قال ابن إسحق عن ابن أبى نجيح عن مجاهد سألت ابن عباس عن ذلك فقال : هو الموت وروى عطية عن ابن عمر أنه قال فى تفسير هذه الآية لوكنتم موتى لأحييتكم ، وكذا قال سعيد بن جبير وأبو صالح والحسن وقتادة

والضحاك وغيرهم ، ومعنى ذلك أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذى هو ضد الحياة لأحياكم الله إذا شاء فانه لا يمتنع عليه شئ إذا أراده

وقد ذكر ابن جرير ههنا حديثا « يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة أتعرفون هذا ؟ فيقولون نعم : ثم يقال يا أهل النار أتعرفون هذا ؟ فيقولون نعم ، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت » وقال مجاهد (أوخلقاً مما يكبر فى صدوركم) يعنى السماء والأرض والجبال وفى رواية : ماشئتم فكونوا فسيعيدكم الله بعد موتكم ، وقد وقع فى التفسير المروى عن الإمام مالك عن الزهرى فى قوله (أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم) قال النبى ﷺ قال مالك ويقولون هو الموت . وقوله تعالى (فسيقولون من يعيدنا) أى من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً (قل الذى فطركم أول مرة أى الذى خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكورا ثم صرتم بشرا تنتشرون فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أى حال (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) الآية وقوله تعالى (فسينغضون إليك رءوسهم) قال ابن عباس وقتادة يحركونها استهزاء وهذا الذى قالاه هو الذى تعرفه العرب من لغاتها لأن الانغاض هو التحرك من أسفل إلى أعلى أومن أعلى إلى أسفل ، ومنه قيل للظليم وهو ولد النعامة نغض لأنه إذا مشى عجل بمشيته وحرك رأسه ويقال نغضت سنه إذا تحركت وارتفعت من منبتها . وقال الراجز: * ونغضت من هرم أسنانها *

وقوله (ويقولون متى هو) إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك كما قال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) وقال تعالى (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) وقوله (قل عسى أن يكون قريبا) أى احذروا ذلك فانه قريب إليكم سيأتيكم لامحالة فكل ماهو آت آت . وقوله تعالى (يوم يدعوكم) أى الرب تبارك وتعالى (إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) أى إذا أمركم بالخروج منها فانه لا يخالف ولا يمانع بل كما قال تعالى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) وقوله (فإنما هى زجرة واحدة * فإذاهم بالساهرة) أى إنما هو أمر واحد بانتهار فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها كما قال تعالى (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) أى تقولون كلكم إجابة لأمره وطاعة لا رادته قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فتستجيبون بحمده أى بأمره وكذا قال ابن جريج . وقال قتادة بمعرفته وطاعته ، وقال بعضهم (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) أى وله الحمد فى كل حال . وقد جاء فى الحديث « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم كأنى بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رءوسهم يقولون لا إله إلا الله » وفى رواية يقولون (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) وسيأتى فى سورة فاطر . وقوله تعالى (وتظنون) أى يوم تقومون من قبوركم (إن لبثتم) أى فى الدار الدنيا (إلا قليلا) وكقوله تعالى (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أوضحاها) وقال تعالى (يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا * يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما) وقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون) وقال تعالى (قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين ، قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) .

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة فأنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم وأخرج الكلام إلى الفعال ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة فانه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم ، وعداوته ظاهرة بينة ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة فان الشيطان ينزع فى يده أى فربما أصابه بها .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح فانه لايدرى أحدكم لعل الشيطان أن ينزع فى يده فيقع فى حفرة من النار» أخرجاه من حديث عبد الرزاق. وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد أنبأنا على بن زيد عن الحسن قال حدثنى رجل من بنى سليط قال أتيت النبى ﷺ وهو فى رفلة من النـاس فسمعته يقول: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخـذله التقوى ههنا» قال حماد وقال بيده إلى صدره «وماتواد رجلان فى الله ففرق بينهما إلا حدث يحدثه أحدهما والمحدث شر والمحدث شر والمحدث شر»

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً * وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾

يقول تعالى (ربكم أعلم بكم) أيها الناس أى أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق (إن يشأ يرحمكم) بأن يوفقكم لطاعته والانابة إليه (أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك (يا محمد) عليهم وكيلا) أى إنمـا أرسلناك نذيراً فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار. وقوله (وربك أعلم بمن فى السموات والأرض) أى بمراتبهم فى الطاعة والمعصية (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) وكما قال تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) وهذا لا ينافى ماثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال «لا تفضلوا بين الأنبياء» فان المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهى والعصبية لا بمقتضى الدليل فإذا دل الدليل على شىء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء وأن أولى العزم منهم أفضلهم وهم الخمسة المذكورون نصا فى آيتين من القرآن فى سورة الأحزاب (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبرهيم وموسى وعيسى ابن مريم) وفى الشورى فى قوله (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبرهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم ثم بعده إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام على المشهور وقد بسطناه بدلائله فى غير هـذا الموضع والله الموفق وقوله تعالى (وآتينا داود زبورا) تنبيه على فضله وشرفه. قال البخارى حدثنا إسحق بن نصر أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «خفف على داود القرآن فـكان يأمر بدوابه فتسرج فـكان يقرؤه قبل أن يفرغ» يعنى القرآن

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾

يقول تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله (ادعوا الذين زعمتم من دونه) من الأصنام والأنداد فارغبوا إليهم (ف) إنهم (لا يملكون كشف الضر عنكم) أى بالكلية (ولا تحويلا) أى بأن يحولوه إلى غيركم والمعنى أن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لاشريك له الذى له الخلق والأمر. قال العوفى عن ابن عباس فى قوله (قل ادعوا الذين زعمتم) الآية قال كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا وهم الذين يدعون يعنى فى الملائكة والمسيح وعزيرا وقوله تعالى (أولئك الذين يدعون) الآية روى البخارى من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن إبراهيم عن أبى معمر عن عبد الله فى قوله (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) قال ناس من الجن كانوا يعبدون فأسلموا وفى رواية قال كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم، وقال قتادة عن معبد ابن عبد الله الزمانى عن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن مسعود فى قوله (أولئك الذين يدعون) الآية قال نزلت فى نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم فنزلت

هذه الآية وفى رواية عن ابن مسعود كانوا يعبدون صنفا من الملائكة يقال لهم الجن فذكره وقال السدى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) قال عيسى وأمه وعزير وقال مغيرة عن إبراهيم كان ابن عباس يقول: فى هذه الآية: هم عيسى وعزير والشمس والقمر، وقال مجاهد عيسى والعزير والملائكة، واختار ابن جرير قول ابن مسعود لقوله (يبتغون إلى ربهم الوسيلة) وهذا لا يعبر به عن الماضى فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة وقال والوسيلة هى القربة كما قال قتادة ولهذا قال (أيهم أقرب) وقوله تعالى (ويرجون رحمته ويخافون عذابه) لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء فالخوف ينكف عن المناهى وبالرجاء يكثر من الطاعات، وقوله تعالى (إن عذاب ربك كان محذوراً) أى ينبغى أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله عياذاً بالله منه

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده فى اللوح المحفوظ أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم (عذابا شديداً) إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم كما قال تعالى عن الأمم الماضين (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) وقال تعالى (فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً) وقال «وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله) الآيات.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾

قال سنيد عن حماد بن زيد عن أيوب عن سعيد بن جبير قال: قال المشركون يا محمد إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء فمنهم من سخرت له الريح ومنهم من كان يحيي الموتى فان سرك أن نؤمن بك ونصدقك فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهبا فأوحى الله اليه: إنى قد سمعت الذى قالوا فإن شئت أن نفعل الذى قالوا فان لم يؤمنوا نزل العذاب فانه ليس بعد نزول الآية مناظرة وإن شئت أن نستأنى بقومك استأنيت بهم. قال «يارب استأن بهم» وكذا قال قتادة وابن جريج وغيرهما، وروى الإمام أحمد حدثنا عثمان بن محمد حدثنا جرير عن الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا فقيل له: إن شئت أن نستأنى بهم وإن شئت أن يأتيهم الذى سألوا فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم. قال «لا، بل استأن بهم» وأنزل الله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) الآية ورواه النسائى من حديث جرير به. وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل عن عمران بن حكيم عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبى ﷺ ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك قال «وتفعلون؟» قالوا نعم قال فدعا فأتاه جبريل فقال إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة فقال «بل باب التوبة والرحمة» وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده حدثنا محمد بن إسماعيل بن على الأنصارى حدثنا خلف بن تميم المصيصى عن عبد الجبار بن عمر الابلى عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم عن جدته أم عطاء مولاة الزبير بن العوام قالت: سمعت الزبير يقول لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) صاح رسول الله ﷺ على أبى قبيس «يا آل عبد مناف إنى نذير» فجاءته قريش فحذرهم وأنذرهم فقالوا تزعم أنك نبى يوحى إليك وإن سليمان سخر له الريح والجبال وإن موسى سخر له البحر وإن عيسى كان يحيي الموتى فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهارا فنتخذ محارث فنزرع ونأكل وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا لنكلمهم ويكلمونا وإلا فادع الله أن يصير لنا هذه الصخرة التى تحتك ذهبا فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف فإنك تزعم أنك كهيئتهم. قال فبينا نحن حوله إذ نزل عليه الوحى

فلما سرى عنه قال « والذى نفسى بيده لقد أعطانى ماسألتم ولو شئت لكان ولكنه خيرنى بين أن تدخلوا باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلوا عن باب الرحمة فلا يؤمن منكم أحد فاخترت باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم وأخبرنى أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم أنه يعذبكم عذابا لا يعذبه أحداً من العالمين » ونزلت (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) وقرأ ثلاث آيات ونزلت (ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى) الآية ولهذا قال تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات) أى نبعث الآيات ونأتى بها على ماسأل قومك منك فإنه سهل علينا يسير لدينا إلا أنه قد كذب بها الأولون بعد ماسألوها وجرت سنتنا فيهم وفى أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها كما قال الله تعالى فى المائدة (قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين) وقال تعالى عن ثمود حين سألوا آية ناقة تخرج من صخرة عينوها فدعا صالح عليه السلام ربه فأخرج لهم منها ناقة على ماسألوا فلما ظلموا بها أى كفروا بمن خلقها وكذبوا رسوله وعقروها فقال (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) ولهذا قال تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) أى دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذى أجيب دعاؤه فيها (فظلموا بها) أى كفروا بها ومنعوها شربها وقتلوها فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر وقوله تعالى (وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً) قال قتادة إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضى الله عنه فقال يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه ، وهكذا روى أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرات فقال عمر أحدثتم والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن . وكذا قال رسول الله ﷺ فى الحديث المتفق عليه « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله عز وجل يخوف بهما عباده فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره — ثم قال — يا أمة محمد والله ما أحد أغير من الله أن تزنى عبده أو تزنى أمته ، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً »

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضا له على إبلاغ رسالته ومخبرا له بأنه قد عصمه من الناس فانه القادر عليهم وهم فى قبضته وتحت قهره وغلبته . قال مجاهد وعروة بن الزبير والحسن وقتادة وغيرهم فى قوله (وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) أى عصمك منهم وقوله (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) الآية قال البخارى حدثنا على بن عبدالله حدثنا سفيان عن عمرو عن عكرمة عن ابن عباس (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) قال هى رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به (والشجرة الملعونة فى القرآن) شجرة الزقوم وكذا رواه أحمد وعبد الرزاق وغيرهما عن سفيان بن عيينة به وكذا رواه العوفى عن ابن عباس . وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ومسروق وإبراهيم وقتادة وعبد الرحمن بن زيد وغير واحد وقد تقدمت أحاديث الإسراء فى أول السورة مستقصاة ولله الحمد والمنة . وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وجعل الله ذلك ثباتا ويقينا لآخرين ولهذا قال (إلا فتنة) أى اختبارا وامتحانا ، وأما الشجرة الملعونة فهى شجرة الزقوم لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل عليه لعائن الله : هاتوا لنا تمرا وزبدا وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول تزقموا فلا نعلم الزقوم غير هذا ، حكى ذلك ابن عباس ومسروق وأبو مالك والحسن

البصري وغير واحد وكل من قال إنها ليلة الإسراء فسره كذلك بشجرة الزقوم وقيل المراد بالشجرة الملعونة بنو أمية وهو غريب ضعيف ، وقال ابن جرير حدثت عن محمد بن الحسن بن زبالة حدثنا عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد حدثني أبي عن جدي قال رأى رسول الله ﷺ بني فلان ينزون على منبره نزو القرود فساءه ذلك فما استجمع ضاحكا حتى مات قال وأنزل الله في ذلك (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) الآية وهذا السند ضعيف جدا فان محمد بن الحسن بن زبالة متروك وشيخه أيضا ضعيف بالكلية ، ولهذا اختار ابن جرير أن المراد بذلك ليلة الإسراء وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم قال لاجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك أي في الرؤيا والشجرة وقوله (ونخوفهم) أي الكفار بالوعيد والعذاب والنكال (فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً) أي تماديا فيما هم فيه من الكفر والضلال وذلك من خذلان الله لهم

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

يذكر تبارك وتعالى عداوة إبليس لعنه الله لآدم وذريته وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم فانه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخارا عليه واحتقارا له (قال أأسجد لمن خلقت طينا) كما قال في الآية الأخرى (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) وقال أيضا أرأيتك يقول للرب جراءة وكفرا والرب يحلم وينظر (قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي) الآية قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول لأستولين على ذريته إلا قليلا وقال مجاهد لأحتوين وقال ابن زيد لأضلنهم وكلها متقاربة والمعنى أرأيتك هذا الذي شرفته وعظمته علي لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلا منهم

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا * وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

لما سأل إبليس النظرة قال الله له (اذهب) فقد أنظرتك كما قال في الآية الأخرى قال (فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم (قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم) أي على أعمالكم (جزاء موفورا) قال مجاهد وافرا ، وقال قتادة موفورا عليكم لا ينقص لكم منه . وقوله تعالى (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) قيل هو الغناء قال مجاهد باللهو والغناء أي استخفهم بذلك وقال ابن عباس في قوله (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) قال كل داع دعا إلى معصية الله عز وجل ،وقال قتادة واختاره ابن جرير ، وقوله تعالى (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) يقول واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم فإن الرجل جمع راجل كما أن الركب جمع راكب وصحب جمع صاحب ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه وهذا أمر قدري كقوله تعالى (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا) أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجا وتسوقهم إليها سوقا وقال ابن عباس ومجاهد في قوله (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) قال كل راكب وماش في معصية الله وقال قتادة: إن له خيلا ورجالا من الجن والإنس وهم الذين يطيعونه، تقول العرب أجلب فلان على فلان إذا صاح عليه ومنه نهى في المسابقة عن الجلب والجنب ومنه اشتقاق الجلبة وهي ارتفاع الأصوات ، وقوله تعالى (وشاركهم في الأموال والأولاد) قال ابن عباس ومجاهد هو ما أمرهم به من انفاق الأموال في معاصي الله تعالى، وقال عطاء: هو الربا ، وقال الحسن

هو جمعها من خبيث وإنفاقها فى حرام ، وكذا قال قتادة وقال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما أما مشاركته إياهم فى أموالهم فهو ما حرموه من أنعامهم يعنى من البحائر والسوائب ونحوها وكذا قال الضحاك وقتادة ، وقال ابن جرير والأولى أن يقال إن الآية تعم ذلك كله . وقوله (والأولاد) قال العوفى عن ابن عباس ومجاهد والضحاك يعنى أولاد الزنا ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفها بغير علم . وقال قتادة عن الحسن البصرى قد والله شاركهم فى الأموال والأولاد مجسوا وهودوا ونصروا وصبغوا غير صبغة الإسلام وجزءوا من أموالهم جزءا للشيطان ، وكذا قال قتادة سواء ، وقال أبو صالح عن ابن عباس هو تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد فلان . قال ابن جرير وأولى الأقوال بالصواب أن يقال كل مولود ولدته أنثى عصى الله فيه بتسميته بما يكرهه الله أو بادخاله فى غير الدين الذى ارتضاه الله أو بالزنا بأمه أو بقتله أو وأده أو غير ذلك من الأمور التى يعصى الله بفعله به أو فيه فقد دخل فى مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أومنه لأن الله لم يخصص بقوله (وشاركهم فى الأموال والأولاد) معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى فكل ما عصى الله فيه أوبه أوأطيع الشيطان فيه أوبه فهو مشاركة ، وهذا الذى قاله متجه وكل من السلف رحمهم الله فسر بعض المشاركة فقد ثبت فى صحيح مسلم عن عياض بن حماد أن رسول الله ﷺ قال « يقول الله عز وجل إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وفى الصحيحين أن رسول ﷺ قال « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا فانه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره الشيطان أبدا » وقوله تعالى (وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضى بالحق (إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم) الآية وقوله تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ولهذا قال تعالى (وكفى بربك وكيلا) أى حافظاً ومؤيدا ونصيرا ، وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن موسى ابن وردان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن المؤمن لينضى شياطينه كما ينضى أحدكم بعيره فى السفر » ينضى أى يأخذ بناصيته ويقهره

﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه فى تسخيره لعباده الفلك فى البحر وتسهيله لمصالح عباده لا بتغائهم من فضله فى التجارة من إقليم إلى إقليم ولهذا قال (إنه كان بكم رحيما) أى إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴾

يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين ولهذا قال تعالى (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) أى ذهب عن قلوبكم كل ماتعبدون غير الله تعالى كما اتفق لعكرمة بن أبى جهل لما ذهب فارا من رسول الله ﷺ حين فتح مكة فذهب هاربا فركب فى البحر ليدخل الحبشة فجاءتهم ريح عاصف فقال القوم بعضهم لبعض إنه لايغنى عنكم إلا أن تدعوا الله وحده فقال عكرمة فى نفسه والله إن كان لاينفع فى البحر غيره فانه لاينفع فى البر غيره اللهم لك على عهد لئن أخرجتنى منه لأذهبن فلأضعن يدى فى يد محمد فلأجدنه رءوفا رحيما ، فخرجوا من البحر فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رضى الله عنه وأرضاه . وقوله تعالى (فلما نجاكم إلى البر أعرضتم) أى نسيتم ما عرفتم من توحيده فى البحر وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له (وكان الإنسان كفورا) أى سجيته هذا ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾

يقول تعالى أفحسبتم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا وهو المطر الذى فيه حجارة قاله مجاهد وغير واحد كما قال تعالى (إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر نعمة من عندنا) وقد قال فى الآية الأخرى (وأمطرنا عليهم حجارة من طين) وقال (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور * أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير) وقوله (ثم لا تجدوا لكم وكيلا) أى ناصرا يرد ذلك عنكم وينقذكم منه

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾

يقول تبارك وتعالى أم أمنتم أيها المعرضون عنا بعد ما اعترفوا بتوحيدنا فى البحر وخرجوا إلى البر أن يعيدكم فى البحر مرة ثانية فيرسل عليكم قاصفا من الريح أى يقصف الصوارى ويغرق المراكب قال ابن عباس وغيره القاصف ريح البحار التى تكسر المراكب وتغرقها وقوله (فيغرقكم بما كفرتم) أى بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى وقوله (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) قال ابن عباس: نصيرا وقال مجاهد: نصيراً ثائرا أى يأخذ بثاركم بعدكم. وقال قتادة ولا نخاف أحداً يتبعنا بشىء من ذلك

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن تشريفه لبنى آدم وتكريمه إياهم فى خلقة لهم على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) أن يمشى قائما منتصبا على رجليه ويأكل بيديه ، وغيره من الحيوانات يمشى على أربع ويأكل بفمه وجعل له سمعا وبصرا وفؤاداً يفقه بذلك كله وينتفع به ويفرق بين الأشياء ويعرف منافعها وخواصها ومضارها فى الأمور الدينية والدنيوية وحملناهم فى البر أى على الدواب من الأنعام والخيل والبغال وفى البحر أيضاً على السفن الكبار والصغار ورزقناهم من الطيبات أى من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة والمناظر الحسنة والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحى وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا أى من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات ، وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن زيد بن أسلم قال : قالت الملائكة يا ربنا إنك أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون منها ويتنعمون ولم تعطنا ذلك فأعطنا الآخرة فقال الله تعالى : وعزتى وجلالى لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت كن فكان . وهذا الحديث مرسل من هذا الوجه ، وقد روى من وجه آخر متصلا . وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادى حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن خارجة المصيصى حدثنا حجاج بن محمد حدثنا محمد أبو غسان محمد بن مطرف عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال « إن الملائكة قالت يا ربنا أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة قال لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان » وقد روى ابن عساكر من طريق محمد بن أيوب الرازى حدثنا الحسن بن على بن خلف الصيدلانى حدثنا سليمان بن عبد الرحمن حدثنى عثمان بن حصن بن عبيدة بن علاق سمعت عروة بن رويم اللخمى حدثنى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال « إن الملائكة قالوا ربنا خلقتنا وخلقت بنى آدم وجعلتهم يأكلون الطعام ويشربون الشراب

ويلبسون الثياب ويتزوجون النساء ويركبون الدواب، ينامون ويستريحون ولم تجعل لنا من ذلك شيئاً فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال الله عز وجل : لا أجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان » وقال الطبراني حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا عمر بن سهل حدثنا عبد الله بن تمام عن خالد الحذاء عن بشر بن شغاف عن أبيه عن عبد الله ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « ماشيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم » قيل يا رسول الله ولا الملائكة قال « ولا الملائكة ، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر » وهذا حديث غريب جداً

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم ، وقد اختلفوا في ذلك فقال مجاهد وقتادة أي بنبيهم وهذا كقوله تعالى (ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط) الآية وقال بعض السلف هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث لأن إمامهم النبي ﷺ وقال ابن زيد بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع واختاره ابن جرير ، وروى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال بكتبهم فيحتمل أن يكون أراد هذا وأن يكون أراد مارواه العوفي عن ابن عباس في قوله (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم) أي بكتاب أعمالهم وكذا قال أبو العالية والحسن والضحاك وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) وقال تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) الآية ويحتمل أن المراد بإمامهم أي كل قوم بمن يأتمون به فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم كما قال (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار) وفي الصحيحين «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت » الحديث وقال تعالى (وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته فانه لابد أن يكون شاهداً على أمته بأعمالها كقوله تعالى (وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء) وقوله تعالى (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال ولهذا قال تعالى (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم) أي من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح يقرؤه ويحب قراءته كقوله (فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه — إلى قوله — وأما من أوتي كتابه بشماله) الآيات ، وقوله تعالى (ولا يظلمون فتيلا) قد تقدم أن الفتيل هو الخيط المستطيل في شق النواة . وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً في هذا فقال: حدثنا محمد بن يعمر ومحمد بن عثمان بن كرامة قالا: حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن السدي عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قول الله تعالى (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم) قال « يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له في جسمه ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون اللهم أتنا بهذا، وبارك لنا في هذا فيأتيهم فيقول لهم أبشروا فإن لكل رجل منكم مثل هذا، وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له في جسمه ويراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من هذا أو من شر هذا اللهم لا تأتنا به فيأتيهم فيقولون اللهم أخزه فيقول أبعدكم الله فان لكل رجل منكم مثل هذا » ثم قال البزار لا يروى إلا من هذا الوجه ، وقوله تعالى (ومن كان في هذه أعمى) الآية ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد (ومن كان في هذه) أي في الحياة الدنيا (أعمى) أي عن حجة الله وآياته وبيناته (فهو في الآخرة أعمى)) أي كذلك يكون (وأضل سبيلا) أي وأضل منه كما كان في الدنيا عياذاً بالله من ذلك

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا

أن ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴾

يخبر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلامه وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار وأنه تعالى هو المتولى أمره ونصره وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه فى مشارق الأرض ومغاربها ﷺ تسليما كثيراً إلى يوم الدين

﴿ وإن كادوا ليستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً سنّة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنّتنا تحويلاً ﴾

قيل نزلت فى اليهود إذ أشاروا على رسول الله ﷺ بسكنى الشام بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة . وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية وسكنى المدينة بعد ذلك ، وقيل إنها نزلت بتبوك وفى صحته نظر . روى البيهقى عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار العطاردى عن يونس بن بكير عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يوما فقالوا يا أبا القاسم إن كنت صادقا أنك نبى فالحق بالشام فان الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء فصدق ما قالوا فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بنى إسرائيل بعد ما ختمت السورة (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها — إلى قوله — تحويلا) فأمره الله بالرجوع إلى المدينة ، وقال : فيها محياك ومماتك ومنها تبعث . وفى هذا الإسناد نظر والأظهر أن هذا ليس بصحيح فان النبى ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود وإنما غزاها امتثالا لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) ولقوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون) وغزاها ليقتص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه والله أعلم ، ولو صح هذا لحمل عليه الحديث الذى رواه الوليد بن مسلم عن عقير بن معدان عن سليم بن عامر عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أنزل القرآن فى ثلاثة أمكنة مكة والمدينة والشام » قال الوليد يعنى بيت المقدس وتفسير الشام بتبوك أحسن مما قال الوليد إنه بيت المقدس والله أعلم . وقيل نزلت فى كفار قريش هموا بإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم فتوعدهم الله بهذه الآية وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً ، وكذلك وقع فانه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم ، ولهذا قال تعالى (سنة من قد أرسلنا) الآية أى هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسلنا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب ولولا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم رسول الرحمة لجاءهم من النقم فى الدنيا مالا قبل لأحد به ، ولهذا قال تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) الاية

﴿ أقم الصّلوة لدلوك الشمس إلى غسق الّيل وقرءان الفجر إنّ قرءان الفجر كان مشهوداً * ومن الّيل فتهجّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربّك مقاماً محموداً ﴾

يقول تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات فى أوقاتها (أقم الصلاة لدلوك الشمس) قيل لغروبها قاله ابن مسعود ومجاهد وابن زيد وقال هشيم عن مغيرة عن الشعبى عن ابن عباس: دلوكها زوالها

ورواه نافع عن ابن عمر ورواه مالك فى تفسيره عن الزهرى عن ابن عمر وقاله أبو برزة الأسلمى وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود ومجاهد وبه قال الحسن والضحاك وأبو جعفر الباقر وقتادة ، واختاره ابن جرير ومما استشهد عليه ما رواه عن ابن حميد عن الحكم بن بشير حدثنا عمرو بن قيس عن ابن أبى ليلى عن رجل عن جابر بن عبد الله قال دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندى ثم خرجوا حين زالت الشمس فخرج النبى ﷺ فقال « اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس » ثم رواه عن سهل بن بكار عن أبى عوانة عن الأسود بن قيس عن نبيح العنزى عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس فمن قوله (لدلوك الشمس إلى غسق الليل) وهو ظلامه وقيل غروب الشمس أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقوله (وقرآن الفجر) يعنى صلاة الفجر ، وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواترا من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفا عن سلف وقرنا بعد قرن كما هو مقرر فى مواضعه ولله الحمد (إن قرءان الفجر كان مشهوداً) قال الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود وعن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى ﷺ فى هذه الآية (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) قال تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار . وقال البخارى حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهرى عن أبى سلمة وسعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر » يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً)

وقال الإمام أحمد حدثنا أسباط حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم وحدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً قال « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ثلاثتهم عن عبيد بن أسباط ابن محمد عن أبيه به وقال الترمذى حسن صحيح . وفى لفظ فى الصحيحين من طريق مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون » وقال عبد الله بن مسعود يجتمع الحرسان فى صلاة الفجر فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء . وكذا قال إبراهيم النخعى ومجاهد وقتادة وغير واحد فى تفسير هذه الآية . وأما الحديث الذى رواه ابن جرير ههنا من حديث الليث بن سعد عن زيادة عن محمد بن كعب القرظى عن فضالة بن عبيد عن أبى الدرداء عن رسول الله ﷺ فذكر حديث النزول وأنه تعالى يقول : من يستغفرنى أغفر له ، من يسألنى أعطيه ، من يدعنى فأستجيب له حتى يطلع الفجر. فلذلك يقول (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) فيشهده الله وملائكة الليل وملائكة النهار فانه تفرد به زيادة ، وله بهذا حديث فى سنن أبى داود. وقوله تعالى (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة كما ورد فى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه سئل أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال « صلاة الليل » ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل فإن التهجد ما كان بعد نوم . قاله علقمة والأسود وإبراهيم النخعى وغير واحد وهو المعروف فى لغة العرب ، وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يتهجد بعد نومه عن ابن عباس وعائشة وغير واحد من الصحابة رضى الله عنهم كما هو مبسوط فى موضعه ولله الحمد والمنة ، وقال الحسن البصرى هو ما كان بعد العشاء ويحمل على ما كان بعد النوم واختلف فى معنى قوله تعالى (نافلة لك) فقيل معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك فجعلوا قيام الليل واجباً فى حقه دون الأمة رواه العوفى عن ابن عباس وهو أحد قولى العلماء وأحد قولى الشافعى رحمه الله واختاره ابن جرير ، وقيل إنما جعل قيام الليل فى حقه نافلة على الخصوص لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه . قال مجاهد وهو في المسند عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه .
وقوله (عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً) أي افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاما محموداً يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى . قال ابن جرير قال أكثر أهل التأويل ذلك هو المقام الذي يقومه محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ماهم فيه من شدة ذلك اليوم ﴿ ذكر من قال ذلك ﴾ حدثنا ابن بشار حدثنا عبدالرحمن حدثنا سفيان عن أبي إسحق عن صلة بن زفر عن حذيفة قال : يجمع الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر حفاة عراة كما خلقوا قياما لا تكلم نفس إلا بإذنه ينادى يا محمد فيقول « لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، والشر ليس إليك ، والمهدى من هديت ، وعبدك بين يديك ، ومنك وإليك لامنجى ولاملجأ منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت » فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله عز وجل ، ثم رواه عن بندار عن غندر عن شعبة عن أبي إسحق به ، وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر والثوري عن أبي إسحق به ، وقال ابن عباس هذا المقام المحمود مقام الشفاعة ، وكذا قال ابن أبي نجيح عن مجاهد وقاله الحسن البصري ، وقال قتادة هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة وأول شافع ، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذي قال الله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً) قلت لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لايشركه فيها أحد ، وتشريفات لا يساويه فيها أحد فهو أول من تنشق عنه الأرض ويبعث راكباً إلى المحشر وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه ، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه ، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق وذلك بعد ماتسأل الناس آدم ثم نوحا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى فكل يقول لست لها حتى يأتوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيقول « أنا لها أنا لها » كما سنذكر ذلك مفصلا في هذا الموضع إن شاء الله تعالى ، ومن ذلك أنه يشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار فيردون عنها وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته وأولهم إجازة على الصراط بأمته وهو أول شفيع في الجنة كما ثبت في صحيح مسلم . وفي حديث الصور أن المؤمنين كلهم لايدخلون الجنة إلا بشفاعته وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم ، ويشفع في رفع درجات أقوام لاتبلغها أعمالهم وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة لاتليق إلا له وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيشفع هو في خلائق لايعلم عدتهم إلا الله تعالى ولايشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك ، وقد بسطت ذلك مستقصى في آخر كتاب السيرة في باب الخصائص ولله الحمد والمنة ولنذكر الآن الأحاديث الوارد في المقام المحمود والله المستعان . قال البخاري حدثنا اسماعيل بن أبان حدثنا أبو الأحوص عن آدم بن علي سمعت ابن عمر يقول إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء كل أمة تتبع نبيها يقولون: يافلان اشفع يافلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ﷺ فذلك يوم يبعثه الله مقاما محموداً . ورواه حمزة بن عبد الله عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن جرير حدثني محمد بن عبد الله ابن عبد الحكم حدثنا شعيب بن الليث ثنا الليث عن عبيدالله بن أبي جعفر أنه قال سمعت حمزة بن عبد الله بن عمر يقول سمعت عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ « إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبيناهم كذلك استغاثوا بآدم فيقول لست بصاحب ذلك ، ثم بموسى فيقول كذلك ، ثم بمحمد ﷺ فيشفع بين الخلق فيمشي حتى يأخذ بحلقة باب الجنة فيومئذ يبعثه الله مقاما محموداً . وهكذا رواه البخاري في الزكاة عن يحيى بن بكير وعلقمة عن عبد الله بن صالح كلاهما عن الليث بن سعد به . وزاد فيومئذ يبعثه الله مقاما محموداً يحمده أهل الجمع كلهم . قال البخاري وحدثنا علي بن عياش حدثنا شعيب بن أبي حمزة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محموداً الذي وعدته . حلت له شفاعتي يوم القيامة » انفرد به دون مسلم ﴿ حديث أبي بن كعب ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا أبو عامر الأزدي حدثنا زهير بن محمد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبياء وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر » وأخرجه الترمذي من حديث أبي

عامر عبدالملك بن عمرو العقدى وقال حسن صحيح وابن ماجه من حديث عبدالله بن محمد بن عقيل به ، وقد قدمنا فى حديث أبى بن كعب فى قراءة القرآن على سبعة أحرف ، قال ﷺ فى آخره « فقلت اللهم اغفر لأمتى اللهم اغفر لأمتى وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى فيه الخلق حتى إبراهيم عليه السلام » ﴿حديث أنس بن مالك﴾ قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا سعيد بن أبى عروبة حدثنا قتادة عن أنس عن النبى ﷺ قال « يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون ذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فأراحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شىء فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا . فيقول لهم آدم لست هناكم ويذكر ذنبه الذى أصاب فيستحيى ربه عز وجل من ذلك ويقول ولكن ائتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئة سؤاله ربه ماليس له به علم فيستحيى ربه من ذلك ويقول ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن . فيأتونه فيقول لست هناكم ولكن ائتوا موسى عبدا كلمه الله وأعطاه التوراة فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر لهم النفس التى قتل بغير نفس فيستحيى ربه من ذلك ويقول ولكن ائتوا عيسى عبدالله ورسوله وكلمته وروحه فيأتون عيسى فيقول لست هناكم ولكن ائتوا محمداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتونى ـ قال الحسن هذا الحرف ـ فأقوم فأمشى بين سماطين من المؤمنين ـ قال أنس ـ حتى استأذن على ربى فإذا رأيت ربى وقعت له ـ أو خررت ـ ساجدا لربى فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ـ قال ـ ثم يقال ارفع محمد قل يسمع واشفع تشفع ، وسل تعطه فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحدلى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود اليه الثانية فإذا رأيت ربى وقعت له ـ أو خررت ـ ساجدا لربى فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ثم يقال ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحدلى حدا فأدخلهم الجنة قال ، ثم أعود الثالثة فاذا رأيت ربى وقعت ـ أو خررت ـ ساجداً لربى فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ثم يقال ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه ، واشفع تشفع فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحدلى حدا فأدخلهم الجنة ، ثم أعود الرابعة فأقول يارب مابقى إلا من حبسه القرآن » فحدثنا أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال « فيخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن برة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن ذرة » أخرجاه من حديث سعيد به ، وهكذا رواه الإمام أحمد عن عفان عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بطوله . وقال الإمام أحمد حدثنا يونس بن محمد حدثنا حرب بن ميمون أبو الخطاب الأنصارى عن النضر ابن أنس عن أنس قال حدثنى نبى الله ﷺ قال « إنى لقائم أنتظر أمتى تعبر الصراط إذ جاءنى عيسى عليه السلام فقال هذه الأنبياء قد جاءتك يامحمد يسألون ـ أو قال يجتمعون إليك ـ ويدعون الله أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء الله لغم ماهم فيه فالخلق ملجمون بالعرق ، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة وأما الكافر فيغشاه الموت فقال انتظر حتى أرجع إليك فذهب نبى الله ﷺ فقام تحت العرش فلقى مالم يلق ملك مصطفى ولا نبى مرسل فأوحى الله عز وجل إلى جبريل أن اذهب إلى محمد وقل له ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فشفعت فى أمتى أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنسانا واحدا فما زلت أتردد إلى ربى عز وجل فلا أقوم منه مقاما إلا شفعت حتى أعطانى الله عز وجل من ذلك أن قال يامحمد أدخل من أمتك من خلق الله عز وجل من شهد أن لا إله إلا الله يوما واحدا مخلصاً ومات على ذلك » ﴿حديث بريدة رضى الله عنه﴾ قال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا الأسود بن عامر أخبرنا أبو إسرائيل عن الحارث بن حضيرة عن ابن بريدة عن أبيه أنه دخل على معاوية فإذا رجل يتكلم فقال بريدة يامعاوية تأذن لى فى الكلام ؟ فقال نعم وهو يرى أنه سيتكلم بمثل ماقال الآخر فقال بريدة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنى لأرجو أن أشفع يوم القيامة عدد ماعلى الأرض من شجرة ومدرة » قال فترجوها أنت يامعاوية ولا يرجوها على رضى الله عنه ﴿حديث ابن مسعود﴾ . قال الإمام أحمد حدثنا عارم بن الفضل حدثنا سعيد بن زيد حدثنا على ابن الحكم البنانى عن عثمان عن إبراهيم عن علقمة والأسود عن ابن مسعود قال : جاء ابنا مليكة إلى النبى ﷺ

فقالا: إن أمنا تكرم الزوج وتعطف على الولد ، قال وذكر الضيف غير أنها كانت وأدت فى الجاهلية ، فقال « أمكما فى النار » قال فأدبرا والسوء يرى فى وجوههما فأمر بهما فردا فرجعا والسرور يرى فى وجوههما رجاء أن يكون قد حدث شىء فقال « أمى مع أمكما » فقال رجل من المنافقين وما يغنى هذا عن أمه شيئا ونحن نطأ عقبيه . فقال رجل من الأنصار ولم أر رجلا قط أكثر سؤالا منه يا رسول الله هل وعدك ربك فيها أو فيهما .قال فظن أنه من شىء قد سمعه فقال « ما شاء الله ربى وما أطمعنى فيه وإنى لأقوم المقام المحمود يوم القيامة » فقال الأنصارى يا رسول الله وما ذاك المقام المحمود ؟ قال ذاك إذا جىء بكم حفاة عراة غرلا فيكون أول من يكسى إبراهيم عليه السلام فيقول أكسوا خليلى فيؤتى بريطتين بيضاوين فيلبسهما ثم يقعده مستقبل العرش ثم أوتى بكسوتى فألبسها فأقوم عن يمينه مقاما لا يقومه أحد فيغبطنى فيه الأولون والآخرون » قال ويفتح لهم من الكوثر إلى الحوض فقال المنافق إنه ماجرى ماء قط إلا على حال أو رضراض فقال رسول الله ﷺ « حاله المسك ورضراضه اللؤلؤ » فقال المنافق لم أسمع كاليوم فانه قلما جرى ماء على حال أو رضراض إلا كان له نبت ؟ فقال الأنصارى يارسول الله هل له نبت ؟ فقال: « نعم قضبان الذهب » قال المنافق لم أسمع كاليوم فإنه قلما ينبت قضيب إلا أورق وإلا كان له ثمر قال الأنصارى يا رسول الله هل له ثمرة قال « نعم ألوان الجوهر وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل من شرب منه شربة لا يظمأ بعده ومن حرمه لم يرو بعده » وقال أبو داود الطيالسى حدثنا يحيى بن سلمة بن كهيل عن أبيه عن أبى الزعراء عن عبد الله قال : ثم يأذن الله عز وجل فى الشفاعة فيقوم روح القدس جبريل ثم يقوم إبراهيم خليل الله ثم يقوم عيسى أو موسى قال أبو الزعراء لا أدرى أيهما قال : ثم يقوم نبيكم ﷺ رابعا فيشفع لا يشفع أحد بعده أكثر مما شفع وهو المقام المحمود الذى قال الله عز وجل (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا)

﴿ حديث كعب بن مالك رضى الله عنه ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا محمد بن حرب حدثنا الزبيدى عن الزهرى عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتى على تل ويكسونى ربى عز وجل حلة خضراء ثم يؤذن لى فأقول ما شاء الله أن أقول فذلك المقام المحمود » ﴿ حديث أبى الدرداء رضى الله عنه ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا يزيد بن أبى حبيب عن عبد الرحمن بن جبير عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ « أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه فأنظر إلى ما بين يدى فأعرف أمتى من بين الأمم ومن خلفى مثل ذلك وعن يمينى مثل ذلك وعن شمالى مثل ذلك » فقال رجل يا رسول الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك ؟ قال « هم غر محجلون من أثر الوضوء ليس أحد كذلك غيرهم وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم وأعرفهم تسعى من بين أيديهم ذريتهم »

﴿ حديث أبى هريرة رضى الله عنه ﴾ قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا أبو حيان حدثنا أبو زرعة بن عمرو بن جرير عن أبى هريرة رضى الله عنه قال أتى رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال « أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون فيقول بعض الناس لبعض ألا ترون ما أنتم فيه مما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض عليكم بآدم فيأتون آدم عليه السلام فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه قد نهانى عن الشجرة فعصيت نفسى نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحا فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول نوح إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن

يغضب بعده مثله قط وإنه قد كانت لى دعوة دعوتها على قومى نفسى نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى إبراهيم. فيأتون إبراهيم فيقولون يا إبراهيم أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله فذكر كذباته نفسى نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى عليه السلام فيقولون يا موسى أنت رسول الله اصطفاك الله برسالاته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ماقد بلغنا ؟ فيقول لهم موسى إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنى قد قتلت نفساً لم أومر بقتلها نفسى نفسى. اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى عيسى فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس فى المهد صبياً فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنباً نفسى نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى محمد ﷺ ، فيأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأقوم فآتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى عز وجل ثم يفتح الله على ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه مالم يفتحه على أحد قبلى ، فيقال يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع . فأرفع رأسى فأقول أمتى يا رب أمتى يا رب أمتى يارب ؟ فيقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال والذى نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى ، أخرجاه فى الصحيحين. وقال مسلم رحمه الله حدثنا الحكم بن موسى حدثنا هقل بن زياد عن الأوزاعى حدثنى أبو عمار حدثنى عبد الله بن فروخ حدثنى أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر يوم القيامة وأول شافع وأول مشفع » وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن داود بن يزيد الزعافرى عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) سئل عنها فقال « هى الشفاعة » رواه الإمام أحمد عن وكيع عن محمد بن عبيد عن داود عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) قال « هو المقام الذى أشفع لأمتى فيه » وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن على بن الحسين قال : قال رسول الله ﷺ « إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مد الأديم حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه ــ قال النبى صلى الله عليه وسلم ــ فأكون أول من يدعى وجبريل عن يمين الرحمن تبارك وتعالى والله ما رآه قبلها ، فأقول أى رب إن هذا أخبرنى أنك أرسلته إلى فيقول الله عز وجل صدق ثم أشفع فأقول يا رب عبادك عبدوك فى أطراف الأرض قال فهو المقام المحمود » وهذا حديث مرسل

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا * وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا جرير عن قابوس بن أبى ظبيان عن أبيه عن ابن عباس قال كان النبى ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فأنزل الله (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً) وقال الترمذى حسن صحيح ، وقال الحسن البصرى فى تفسير هذه الآية : إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه فأراد الله قتال أهل مكة أمره أن يخرج إلى المدينة فهو الذى قال الله عز وجل (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) الآية، وقال قتادة (وقل رب أدخلنى مدخل صدق)

يعني المدينة (وأخرجني مخرج صدق) يعني مكة ، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا القول هو أشهر الأقوال وقال العوفي عن ابن عباس (أدخلني مدخل صدق) يعني الموت (وأخرجني مخرج صدق) يعني الحياة بعد الموت ، وقيل غير ذلك من الأقوال والأول أصح وهو اختيار ابن جرير . وقوله (واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً) قال الحسن البصري في تفسيرها وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له ، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له . وقال قتادة فيها إن نبي الله صلى الله عليه وسلم علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسأل سلطانا نصيراً لكتاب الله ، ولحدود الله ، ولفرائض الله ، ولإقامة دين الله فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم قال مجاهد (سلطانا نصيراً) حجة بينة ، واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة وهو الأرجح لأنه لابد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ولهذا يقول تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات — إلى قوله — وأنزلنا الحديد) الآية . وفي الحديث «إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن» أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام مالا يمتنع كثير من الناس بالقرآن ومافيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد وهذا هو الواقع . وقوله (وقل جاء الحق وزهق الباطل) الآية : تهديد ووعيد لكفار قريش فانه قد جاءهم من الله الحق الذى لامرية فيه ولا قبل لهم به وهو مابعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع وزهق باطلهم أى اضمحل وهلك ، فإن الباطل لاثبات له مع الحق ولا بقاء (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) وقال البخارى حدثنا الحميدى حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن عبدالله بن مسعود قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت ستون وثلثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد» وكذا رواه البخاري أيضا في غير هذا الموضع ومسلم والترمذى والنسائى كلهم من طرق عن سفيان بن عيينة به ، وكذا رواه عبدالرزاق عن ابن أبي نجيح به .

وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا زهير حدثنا شبابة حدثنا المغيرة حدثنا أبو الزبير عن جابر رضى الله عنه قال : دخلنا مع رسول ﷺ مكة وحول البيت ثلثمائة وستون صنما تعبد من دون الله . فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت على وجوهها وقال «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد إنه شفاء ورحمة للمؤمنين أى يذهب مافى القلوب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل فالقرآن يشفي من ذلك كله وهو أيضا رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه فانه يكون شفاء فى حقه ورحمة ، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعدا وكفرا والآفة من الكافر لا من القرآن كقوله تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) وقال تعالى (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا * فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) والآيات فى ذلك كثيرة ، قال قتادة فى قوله (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين) إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه (ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) أى لاينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه فان الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا * قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن نقص الانسان من حيث هو إلا من عصمه الله تعالى فى حالتى السراء والضراء فانه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية وفتح ورزق ونصر ونال مايريد أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه. قال مجاهد بعد عنا قلت وهذا كقوله تعالى (فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضرمسه) وقوله (فلما نجاكم إلى البر أعرضتم) وبأنه إذا مسه الشر وهو المصائب والحوادث والنوائب (كان يئوساً) أى قنط أن يعود يحصل له بعد ذلك خير كقوله تعالى (ولئن أذقنا الانسان منارحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور * إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) وقوله تعالى (قل كل يعمل على شاكلته) قال ابن عباس على ناحيته . وقال مجاهد على حدته وطبيعته . وقال قتادة على نيته . وقال ابن زيد دينه وكل هذه الأقوال متقاربة فى المعنى . وهـذه الآية والله أعلم تهديد للمشركين ووعيد لهم كقوله تعالى (وقل للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم) الآية . ولهذا قال (قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أى منا ومنكم وسيجزى كل عامل بعمله فإنه لاتخفى عليه خافية

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله هو ابن مسعود رضى الله عنه قال : كنت أمشى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حرث فى المدينة وهو متوكئ على عسيب فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح : وقال بعضهم لاتسألوه . قال فسألوه عن الروح فقالوا يامحمد ما الروح ؟ فمازال متوكئا على العسيب قال فظننت أنه يوحى اليه فقال (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) قال: فقال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لاتسألوه . وهكذا رواه البخارى ومسلم من حديث الأعمش به ولفظ البخارى عند تفسيره هذه الآية عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : بينا أنا أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى حرث وهو متوكئ على عسيب إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح فقال مارابكم اليه ، وقال بعضهم لايستقبلنكم بشىء تكرهونه . فقالوا سلوه فسألوه عن الروح فأمسك النبى صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئا فعلمت أنه يوحى اليه فقمت مقامى فلما نزل الوحى قال (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) الآية وهذا السياق يقتضى فيما يظهر بادى الرأى أن هـذه الآية مدنية وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة مع أن السورة كلها مكية . وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك أو أنه نزل عليه الوحى بانه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه وهى هـذه الآية (ويسألونك عن الروح) ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ماقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا يحيى بن زكريا عن داود عن عكرمة عن ابن عباس قال : قالت قريش ليهود أعطونا شيئا نسأل عنه هذا الرجل فقالوا سلوه عن الروح فسألوه فنزلت (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) قالوا أوتينا علما كثيراً أوتينا التوراة ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيرا كثيراً قال وأنزل الله (قل لوكان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر) الآية . وقد روى ابن جرير عن محمد بن المثنى عن عبد الأعلى عن داود عن عكرمة قال سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح فأنزل الله (ويسألونك عن الروح) الآية فقالوا تزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلا وقد أوتينا التوراة وهى الحكمة (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيراً) قال فنزلت (ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر) الآية قال ما أوتيتم من علم فنجاكم الله به من النار فهو كثير طيب وهو فى علم الله قليل

وقال محمد بن إسحق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار قال نزلت بمكة (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار يهود وقالوا يامحمد ألم يبلغنا عنك أنك تقول (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أفعنيتنا أم عنيت قومك فقال « كلا قد عنيت » فقالوا إنك تتلو أنا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شىء

فقال رسول الله ﷺ « هي في علم الله قليل وقد آتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم » وأنزل الله (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم)

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا على أقوال (أحدها) أن المراد أرواح بني آدم وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (ويسألونك عن الروح) الآية وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ أخبرنا عن الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد وإنما الروح من الله ولم يكن نزل عليه فيه شيء فلم يحر إليهم شيئا فأتاه جبريل فقال له (قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) فأخبرهم النبي ﷺ بذلك فقالوا من جاءك بهذا قال جاءني به جبريل من عند الله فقالوا له والله ما قاله لك إلا عدونا فأنزل الله (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه) وقيل المراد بالروح ههنا جبريل قاله قتادة قال وكان ابن عباس يكتمه ؛ وقيل المراد به ههنا ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها ؛ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله (ويسألونك عن الروح) يقول الروح ملك . وقال الطبراني حدثنا محمد بن عبد الله بن عرس المصري حدثنا وهب بن روق بن هبيرة حدثنا بشر بن بكر حدثنا الأوزاعي حدثنا عطاء عن عبد الله بن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن لله ملكا لو قيل له التقم السموات السبع والأرضين بلقمة واحدة لفعل ، تسبيحه سبحانك حيث كنت » وهذا حديث غريب بل منكر . وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله حدثني علي حدثني عبدالله حدثني أبو مروان يزيد بن سمرة صاحب قيسارية عمن حدثه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في قوله (ويسألونك عن الروح) قال هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه لكل وجه منها سبعون ألف لسان لكل لسان منها سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها يخلق الله من كل تسبيحة ملكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة وهذا أثر غريب عجيب والله أعلم . وقال السهيلي روى عن علي أنه قال : هو ملك له مائة ألف رأس لكل رأس مائة ألف وجه في كل وجه مائة ألف فم في كل فم مائة ألف لسان يسبح الله تعالى بلغات مختلفة . قال السهيلي وقيل المراد بذلك طائفة من الملائكة على صور بني آدم ، وقيل طائفة يرون الملائكة ولا تراهم فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم ، وقوله (قل الروح من أمر ربي) أي من شأنه ومما استأثر بعلمه دونكم ولهذا قال (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أي وما أطلعكم من علمه إلا على القليل فانه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى ، والمعنى أن علمكم في علم الله قليل وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى ولم يطلعكم عليه كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى ، وسيأتي إن شاء الله في قصة موسى والخضر أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة فنقر في البحر نقرة أي شرب منه بمنقاره فقال يا موسى ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر أو كما قال صلوات الله وسلامه عليه ولهذا قال تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وقال السهيلي قال بعض الناس لم يجبهم عما سألوا لأنهم سألوا على وجه التعنت وقيل أجابهم . وعول السهيلي على أن المراد بقوله (قل الروح من أمر ربي) أي من شرعه أي فادخلوا فيه وقد علمتم ذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة وإنما ينال من جهة الشرع وفي هذا المسلك الذي طرقه وسلكه نظر والله أعلم . ثم ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر وقرر أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم فهي إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء ، قال كما أن الماء هو حياة الشجر ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسما خاصا فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار ماء مصطارا أو خمرا ولا يقال له ماء حينئذ إلا على سبيل المجاز ، وكذا لا يقال للنفس روح إلا على هذا النحو وكذا لا يقال للروح نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه ، فحاصل ما نقول إن الروح هي أصل النفس ومادتها والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن فهي هي من وجه لا من كل وجه وهذا معنى حسن والله أعلم . قلت وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامه وصنفوا في ذلك كتبا ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده في كتاب سمعناه في الروح

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا * إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا * قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . قال ابن مسعود رضى الله عنه يطرق الناس ريح حمراء يعنى فى آخر الزمان من قبل الشام فلا يبقى فى مصحف رجل ولا فى قلبه آية ثم قرأ ابن مسعود (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك) الآية ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا فان هذا أمر لا يستطاع وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذى لا نظير له ولا مثال له ولا عديل له وقد روى محمد ابن إسحق عن محمد بن أبى محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى نفر من اليهود جاءوا رسول الله ﷺ فقالوا له إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به فأنزل الله هذه الآية . وفى هذا نظر لأن هذه السورة مكية وسياقها كله مع قريش ، واليهود إنما اجتمعوا به فى المدينة فالله أعلم . وقوله (ولقد صرفنا للناس) الآية . أى بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه ومع هذا فأبى أكثر الناس إلا كفورا أى جحودا للحق وردا للصواب

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا يونس بن بكير حدثنا محمد بن إسحق حدثنى شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبا سفيان بن حرب ورجلا من بنى عبد الدار وأبا البخترى أخا بنى أسد والأسود بن المطلب بن أسد وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيها ومنبها ابنى الحجاج السهميين اجتمعوا أو من اجتمع منهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك. فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم فى أمره بداء وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم حتى جلس إليهم ، فقالوا يا محمد : إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة فما بقى من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك ، فان كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك بما يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن الرئى - فربما كان ذلك بذلنا أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مابى ماتقولون ، ماجئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فان تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فقالوا يا محمد فإن كنت غير قابل منا ماعرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلادا ولا أقل مالا ولا أشد عيشاً منا فاسأل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليفجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب فإنه كان شيخا صدوقا فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل ؟ فإن صنعت ماسألناك وصدقوك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله وأنه بعثك رسولا كما تقول . فقال لهم رسول الله ﷺ « ما بهذا بعثت إنما جئتكم من عند الله بما بعثنى به فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » قالوا فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك فسل ربك أن يبعث ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزا وقصورا من ذهب وفضة ويغنيك بها عما نراك تبتغى فانك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أنا بفاعل ما أنا بالذى يسأل ربه هذا وما بعثت إليكم بهذا ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا فان تقبلوا ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » قالوا فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فانا لن نؤمن لك إلا أن تفعل . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك» فقالوا يا محمد أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب فيقدم إليك ويعلمك ماتراجعنا به ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به ، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن وإنا والله لانؤمن بالرحمن أبدا فقد أعذرنا إليك يا محمد أما والله لانتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا ، وقال قائلهم نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله . وقال قائلهم لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا. فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبد المطلب فقال يا محمد عرض عليك قومك ماعرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك ثم سألوك أن تعجل لهم ماتخوفهم به من العذاب فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتى معك بصحيفة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول وايم الله لوفعلت ذلك لظننت أنى لا أصدقك ، ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا أسفا لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ولما رأى من مباعدتهم أياه وهكذا رواه زياد بن عبد الله البكائى عن ابن إسحق حدثنى بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس فذكر مثله سواء . وهذا المجلس الذى اجتمع هؤلاء له لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشادا لأجيبوا إليه ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفرا وعنادا ، فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن شئت أعطيناهم ماسألوا فان كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحدا من العالمين ، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة فقال: « بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة كما تقدم ذلك فى حديثى ابن عباس والزبير بن العوام أيضاً عند قوله تعالى (ومامنعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) . وقال تعالى (وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا * أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا * تبارك الذى إن شاء جعل لك خير من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك

قصوراً * بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً. وقوله تعالى (حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) الينبوع: العين الجارية سألوه أن يجرى لهم عينا معينا فى أرض الحجاز ههنا وههنا وذلك سهل على الله تعالى يسير لو شاء لفعله ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا ولكن علم أنهم لا يهتدون كما قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) وقال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا) الآية . وقوله تعالى (أو تسقط السماء كما زعمت) أى أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهى وتدلى أطرافها فعجل ذلك فى الدنيا وأسقطها كسفا أى قطعاً كقولهم (اللهم إن كان هـذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) الآية وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا (أسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين) فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ، وأما نبى الرحمة ونبى التوبة المبعوث رحمة للعالمين فسأل انظارهم وتأجيلهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لايشرك به شيئا وكذلك وقع فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى عبد الله بن أبى أمية الذى تبع النبى ﷺ وقال له ما قال أسلم إسلاما تاما وأناب إلى الله عزوجل . وقوله تعالى (أو يكون لك بيت من زخرف) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة هو الذهب ، وكذلك هو فى قراءة ابن مسعود أو يكون لك بيت من ذهب (أو ترقى فى السماء) أى تصعد فى سلم ونحن ننظر إليك (ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه) قال مجاهد أى مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة هذا كتاب من الله لفلان بن فلان تصبح موضوعة عند رأسه ، وقوله تعالى (قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا) أى سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته بل هو الفعال لما يشاء إن شاء أجابكم إلى ماسألتم وإن شاء لم يجبكم وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وقد فعلت ذلك وأمركم فيما سألتم الى الله عزوجل

قال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا على بن إسحق حدثنا ابن المبارك حدثنا يحي بن أيوب عن عبيد الله بن زجر عن على ابن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال « عرض على ربى عزوجل ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً فقلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما - أو نحو ذلك - فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك » ورواه الترمذى فى الزهد عن سويد بن نصر عن ابن المبارك به وقال هذا حديث حسن وعلى بن يزيد يضعف فى الحديث

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾

يقول تعالى (وما منع الناس) أى أكثرهم (أن يؤمنوا) ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلا كما قال تعالى (أ كان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم) وقال تعالى (ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا) الآية ، وقال فرعون وملؤه (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ؟) وكذلك قالت الأمم لرسلهم (إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين) والآيات فى هذا كثيرة ، ثم قال تعالى منبها على لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته ولو بعث إلى البشر رسولا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه كما قال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) وقال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) وقال تعالى (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون * فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولاتكفرون) ولهذا قال ههنا (قل لو كان

فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين) أى كما أنتم فيها (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) أى من جنسهم. ولما كنتم أنتم بشرا بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمة

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى مرشدا نبيه ﷺ إلى الحجة على قومه فى صدق ما جاءهم به إنه شاهد على وعليكم ، عالم بما جئتكم به فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى أشد الانتقام كما قال تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) وقوله (إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) أى عليما بهم بمن يستحق الانعام والإحسان والهداية ممن يستحق الشقاء والاضلال والازاغة ولهذا قال:

﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن تصرفه فى خلقه ونفوذ حكمه وأنه لا معقب له بأنه من يهده فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه أى يهدونهم كما قال (من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا) وقوله : (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) قال الإمام أحمد حدثنا ابن نمير حدثنا إسماعيل عن نفيع قال سمعت أنس بن مالك يقول : قيل يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال «الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم » وأخرجاه فى الصحيحين وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا الوليد بن جميع القرشى عن أبيه عن أبى الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد قال : قام أبو ذر فقال يا بنى غفار قولوا ولا تحلفوا فان الصادق المصدوق حدثنى أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج ، فوج راكبين طاعمين كاسين ، وفوج يمشون ويسعون ، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار ، فقال قائل منهم هذان قد عرفناهما فما بال الذين يمشون ويسعون ؟ قال « يلقى الله عز وجل الآفة على الظهر حتى لا يبقى ظهر حتى إن الرجل لتكون له الحديقة المعجبة فيعطيها بالشارف ذات القتب فلا يقدر عليها » وقوله (عميا) أى لا يبصرون (وبكما) يعنى لاينطقون(وصما) لايسمعون وهذا يكون فى حال دون حال جزاء لهم كما كانوا فى الدنيا بكماوعمياوصماعن الحق فجوزوا فى محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه (مأواهم)أى منقلبهم ومصيرهم (جهنم كلما خبت) قال ابن عباس سكنت ، وقال مجاهد طفئت (زدناهم سعيراً) أى لهباً ووهجا وجمرا كما قال (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) .

﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾

يقول تعالى هذا الذى جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم جزاؤهم الذى يستحقونه لأنهم كذبوا (بآياتنا) أى بأدلتنا وحجتنا واستبعدوا وقوع البعث (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا) أى بالية نخرة (أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً) أى بعد ما صرنا إلى ماصرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق والذهاب فى الأرض نعاد مرة ثانية ؟ فاحتج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السموات والأرض فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وقال (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى

بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى) الآية وقال (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) إلى آخر السورة . وقال ههنا (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم) أى يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم ، وقوله (وجعل لهم أجلا لا ريب فيه) أى جعل لاعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلا مضروبا ومدة مقدرة لا بد من انقضائها كما قال تعالى (وما نؤخره إلا لأجل معدود) وقوله (فأبى الظالمون) أى بعد قيام الحجة عليهم (إلا كفوراً) إلا تماديا فى باطلهم وضلالهم .

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾

يقول تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه قل لهم يا محمد لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف فى خزائن الله لأمسكتم خشية الإنفاق قال ابن عباس وقتادة أى الفقر أى خشية أن تذهبوها مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً لأن هذا من طباعكم وسجاياكم ولهذا قال (وكان الإنسان قتورا) قال ابن عباس وقتادة أى بخيلا منوعا ، وقال الله تعالى (أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا) أى لو أن لهم نصيبا فى ملك الله لما أعطوا أحدا شيئا ولا مقدار نقير والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله وهداه فان البخل والجزع والهلع صفة له كما قال تعالى (إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين) ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن العزيز ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه وقد جاء فى الصحيحين « يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فانه لم يغض ما فى يمينه »

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا * فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا * وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات وهى الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون وهى العصا واليد والسنين والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات قاله ابن عباس وقال محمد بن كعب هى اليد والعصا والخمس فى الأعراف والطمس والحجر ، وقال ابن عباس أيضا ومجاهد وعكرمة والشعبى وقتادة هى يده وعصاه والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وهذا القول ظاهر جلى حسن قوى ،وجعل الحسن البصرى السنين ونقص الثمرات واحدة وعنده أن التاسعة هى تلقف العصا ما يأفكون (فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) أى ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها كفروا بها وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا وما نجعت فيهم ، فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا إلى آخرها لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله كما قال فرعون لموسى وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات (إنى لأظنك يا موسى مسحورا) قيل بمعنى ساحر والله تعالى أعلم ، فهذه الآيات التسع التى ذكرها هؤلاء الأئمة هى المرادة ههنا وهى المعنية فى قوله تعالى (وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف — إلى قوله فى تسع آيات — إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين) فذكر هاتين الآيتين العصا واليد وبين الآيات الباقيات فى سورة الأعراف وفصلها . وقد أوتى موسى عليه السلام آيات

أخر كثيرة منها ضربه الحجر بالعصا وخروج الماء منه ومنها تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التى شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرا وجحودا . فأما الحديث الذى رواه الإمام حدثنا يزيد حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة قال سمعت عبد الله بن سلمة يحدث عن صفوان بن عسال المرادى رضى الله عنه قال : قال يهودى لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبى حتى نسأله عن هذه الآيات (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) فقال لا تقل له نبى فإنه لو سمعك لصارت له أربع أعين فسألاه فقال النبى صلى الله عليه وسلم «لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة ـ أو قال لا تفروا من الزحف شعبة الشاك ـ وأنتم يا يهود عليكم خاصة أن لا تعدوا فى السبت» فقبلا يديه ورجليه وقالا نشهد أنك نبى قال «فما يمنعكما أن تتبعانى ؟» قالا لأن داود عليه السلام دعا أن لا يزال من ذريته نبى وإنا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود . فهذا حديث رواه هكذا الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن جرير فى تفسيره من طرق عن شعبة بن الحجاج به وقال الترمذى حسن صحيح . وهو حديث مشكل وعبد الله بن سلمة فى حفظه شىء وقد تكلموا فيه ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات فانها وصايا فى التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون والله أعلم ، ولهذا قال موسى لفرعون (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) أى حججا وأدلة على صدق ما جئتك به (وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً) أى هالكا قاله مجاهد وقتادة ، وقال ابن عباس ملعونا ، وقال أيضا هو والضحاك (مثبوراً) أى مغلوبا والهالك كما قال مجاهد يشمل هذا كله قال الشاعر :

إذا جارى الشيطان فى سنن الغـ * ـى ومن مال ميله مثبور

وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله علمت وروى ذلك عن على بن أبى طالب ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون كما قال تعالى (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) الآية فهذا كله مما يدل على أن المراد بالتسع الآيات إنما هى ما تقدم ذكره من العصا واليد والسنين ونقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم التى فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذى أرسله ، وليس المراد منها كما ورد فى هذا الحديث فان هذه الوصايا ليس فيها حجج على فرعون وقومه وأى مناسبة بين هذا وبين إقامة البراهين على فرعون ؟ وما جاء هذا الوهم إلا من قبل عبد الله ابن سلمة فإن له بعض ما ينكر والله أعلم . ولعل ذينك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات فاشتبه على الراوى بالتسع الآيات فحصل وهم فى ذلك والله أعلم وقوله (فأراد أن يستفزهم من الأرض) أى يخليهم منها ويزيلهم عنها (فأغرقناه ومن معه جميعاً وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض) وفى هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة وكذلك وقع فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) الآيتين ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة على أشهر القولين وقهر أهلها ثم أطلقهم حلما وكرما كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بنى إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم كما قال كذلك وأورثناها بنى إسرائيل وقال ههنا (وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً) أى جميعكم أنتم وعدوكم ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : لفيفاً أى جميعا

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾

يقول تعالى مخبرا عن كتابه العزيز وهو القرآن المجيد إنه بالحق نزل أى متضمنا للحق كما قال تعالى (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون) أى متضمنا علم الله الذى أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه وقوله (وبالحق نزل) أى ونزل إليك يامحمد محفوظا محروسا لم يشب بغيره ولا زيد فيه ولا نقص منه بل وصل اليك بالحق فانه نزل به شديد القوى الأمين المكين المطاع فى الملأ الأعلى وقوله (وما أرسلناك) أى يامحمد (إلا مبشرا ونذيرا) مبشرا لمن أطاعك من المؤمنين ونذيراً لمن عصاك من الكافرين ، وقوله (وقرآنا فرقناه) أما قراءة من قرأ بالتخفيف فمعناه فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ثم نزل مفرقا منجما على الوقائع إلى رسول الله ﷺ فى ثلاث وعشرين سنة ، قاله عكرمة عن ابن عباس . وعن ابن عباس أيضا أنه قرأ فرقناه بالتشديد أى أنزلناه آية آية مبينا مفسرا ولهذا قال (لتقرأه على الناس) أى لتبلغه الناس وتتلوه عليهم أى (على مكث) أى مهل (ونزلناه تنزيلا) أى شيئاً بعد شىء

﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ (قل) يامحمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم (آمنوا به أولا تؤمنوا) أى سواء آمنتم به أم لا فهو حق فى نفسه أنزله الله ونوه بذكره فى سالف الأزمان فى كتبه المنزلة على رسله ، ولهذا قال (إن الذين أوتوا العلم من قبله) أى من صالحى أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ويقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه (إذا يتلى عليهم) هذا القرآن (يخرون للأذقان) جمع ذقن وهو أسفل الوجه (سجدا) أى لله عز وجل شكرا على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلا إن أدركوا هذا الرسول الذى أنزل عليه هذا الكتاب ، ولهذا يقولون (سبحان ربنا) أى تعظيما وتوقيراً على قدرته التامة وأنه لا يخلف الميعاد الذى وعدهم على ألسنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ ولهذا قالوا (سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) وقوله (ويخرون للأذقان يبكون) أى خضوعا لله عز وجل وإيمانا وتصديقاً بكتابه ورسوله (ويزيدهم خشوعاً) أى إيمانا وتسليما كما قال (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وقوله (ويخرون) عطف صفة على صفة لا عطف السجود على السجود كما قال الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم

﴿ قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾

يقول تعالى قل يامحمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل المانعين من تسميته بالرحمن (ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) أى لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن فانه ذو الأسماء الحسنى كما قال تعالى (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم — إلى أن قال — له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض) الآية ، وقد روى مكحول أن رجلا من المشركين سمع النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول فى سجوده «يارحمن يارحيم» فقال إنه يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية ، وكذا روى عن ابن عباس رواهما ابن جرير ، وقوله (ولا تجهر بصلاتك) الآية . قال الإمام أحمد حدثنا هشيم حدثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوار

بمكة (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) قال كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن وسبوا من أنزله ومن جاء به قال : فقال الله تعالى لنبيه ﷺ (ولا تجهر بصلاتك) أى بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن (ولا تخافت بها) عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك (وابتغ بين ذلك سبيلا) أخرجاه فى الصحيحين من حديث أبى بشر جعفر بن إياس به ، وكذا رواه الضحاك عن ابن عباس وزاد فلما هاجر إلى المدينة سقط ذلك يفعل أى ذلك شاء ، وقال محمد بن إسحق حدثنى داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جهر بالقرآن وهو يصلى تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه وكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلى استرق السمع دونهم فرقاً منهم فإذا رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يسمع فان خفض صوته ﷺ لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئا فأنزل الله (ولا تجهر بصلاتك) فيتفرقوا عنك (ولا تخافت بها) فلا يسمع من أراد أن يسمع ممن يسترق ذلك منهم فلعله يرعوى إلى بعض ما يسمع فينتفع به (وابتغ بين ذلك سبيلا) وهكذا قال عكرمة والحسن البصرى وقتادة نزلت هذه الآية فى القراءة فى الصلاة ، وقال شعبة عن أشعث بن سليم عن الأسود بن هلال عن ابن مسعود (ولا تخافت بها) من أسمع أذنيه قال ابن جرير حدثنا يعقوب حدثنا ابن علية عن سلمة بن علقمة عن محمد بن سيرين قال نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته وأن عمر كان يرفع صوته فقيل لأبى بكر لم تصنع هذا ؟ قال أناجى ربى عز وجل وقد علم حاجتى ، فقيل أحسنت . وقيل لعمر لم تصنع هذا ؟ قال أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان ، قيل أحسنت فلما نزلت (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) قيل لأبى بكر ارفع شيئاً ، وقيل لعمر اخفض شيئاً ، وقال أشعث بن سوار عن عكرمة عن ابن عباس نزلت فى الدعاء ، وهكذا روى الثورى ومالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أنها نزلت فى الدعاء وكذا قال مجاهد وسعيد ابن جبير وأبو عياض ومكحول وعروة بن الزبير ، وقال الثورى عن ابن عياش العامرى عن عبد الله بن شداد قال كان أعرابى من بنى تميم إذا سلم النبى صلى الله عليه وسلم قال « اللهم ارزقنى إبلا وولداً » قال فنزلت هذه الآية (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) (قول آخر) قال ابن جرير حدثنا أبو السائب حدثنا حفص بن غياث عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها نزلت هذه الآية فى التشهد (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) وبه قال حفص عن أشعث بن سوار عن محمد بن سيرين مثله (قول آخر) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) قال لا تصل مراآة للناس ولا تدعها مخافة الناس ، وقال الثورى عن منصور عن الحسن البصرى (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) قال لا تحسن علانيتها وتسىء سريرتها وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن الحسن به وهشام عن عوف عنه به وسعيد عن قتادة عنه كذلك (قول آخر) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله (وابتغ بين ذلك سبيلا) قال أهل الكتاب يخافتون ثم يجهر أحدهم بالحرف فيصيح به ويصيحون هم به وراءه فنهاه أن يصيح كما يصيح هؤلاء وأن يخافت كما يخافت القوم ثم كان السبيل الذى بين ذلك الذى سن له جبريل من الصلاة . وقوله (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً) لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى نزه نفسه عن النقائص فقال (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك) بل هو الله الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد (ولم يكن له ولى من الذل) أى ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولى أو وزير أو مشير بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لاشريك له ومدبرها ومقدرها بمشيئته وحده لاشريك له قال مجاهد فى قوله (ولم يكن له ولى من الذل) لم يحالف أحدا ولم يبتغ نصر أحد (وكبره تكبيرا) أى عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيراً ، قال ابن جرير حدثنى يونس أنبأنا ابن وهب أخبرنى أبو صخر عن القرظى انه كان يقول فى هذه الآية (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً) الآية قال إن اليهود والنصارى قالوا اتخذ الله ولدا وقالت العرب : لبيك لاشريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك . وقال الصابئون والمجوس لولا أولياء

الله لذل فأنزل الله هـذه الآية (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تـكبيراً) وقال أيضاً حدثنا بشرحدثنايزيدحدثنا سعيد عن قتادة ذكر لنا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم أهله هذه الآية (الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً) الآية ، الصغير من أهله والـكبير . قلت وقد جاءفى حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمى هذه الآية آية العز وفى بعض الآثار أنها ماقرئت فى بيت فى ليلة فيصيبه سرق أوآفة والله أعلم ، وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا بشر بن سيحان البصرى حدثنا حرب بن ميمون حدثنا موسى بن عبيدة الزيدى عن محمد بن كعب القرظى عن أبى هريرة قال خرجت أنا ورسول الله ﷺ ويده فى يدى أو يدى فى يده فأتى على رجل رث الهيئة فقال « أى فلان ما بلغ بك ما أرى ؟ » قال السقم والضر يارسول الله قال « ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر ؟ » قال بلى ، مايسرنى أن شهدت بها معك بدرا أو أحدا ، قال فضحك رسول الله ﷺ وقال « وهل يدرك أهل بدر وأهل أحد ما يدرك الفقير القانع ؟ » قال:فقال أبو هريرة يارسول الله إياى فعلمنى قال « فقل يا أبا هريرة توكلت على الحى الذى لايموت ، الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تـكبيراً » قال فأتى على رسول الله وقد حسنت حالى قال : فقال لى « مهيم » قال قلت يا رسول الله لم أزل أقول الـكلمات التى علمتنى ، إسناده ضعيف وفى متنه نـكارة والله أعلم . آخر تفسير سورة سبحان ولله الحمد والمنة.

﴿ تفسير سورة الـكهف وهى مكية ﴾

﴿ ذكر ما ورد فى فضلها والعشر الآيات من أولها وآخرها وأنها عصمة من الدجال ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا محمد ابن جعفر حدثنا شعبة عن أبى إسحق قال سمعت البراء يقول : قرأ رجل الـكهف وفى الدار دابة فجعلت تنفر فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال « اقرأ فلان فانها السكينة تنزل عنـد القرآن أو تنزلت للقرآن » أخرجاه فى الصحيحين من حديث شعبة به وهذا الرجل الذى كان يتلوها هو أسـيد بن الحضير كما تقدم فى تفسير سورة البقرة . وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا همام بن يحى عن قتادة عن سالم بن أبى الجعد عن معدان ابن أبى طلحة عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال « من حفظ عشر آيات من أول سورة الـكهف عصم من الدجال » رواه مسـلم وأبو داود والنسائى والترمذى من حـديث قتادة به ، ولفظ الترمذى « من حفظ ثلاث آيات من أول الـكهف » وقال حسن صحيح ، (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن قتادة سمعت سالم بن أبى الجعد يحدث عن معدان عن أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من قرأ العشر الأواخر من سورة الـكهف عصم من فتنة الدجال » ورواه مسلم أيضاً والنسائى من حـديث قتادة به ، وفى لفظ النسائى « من قرأ عشر آيات من الـكهف » فذكره ، (حديث آخر) وقد رواه النسائى فى اليوم والليلة عن محمد بن عبد الأعلى عن خالد عن شعبة عن قتادة عن سالم بن أبى الجعد عن ثوبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من قرأ العشر الأواخر من سورة الـكهف فإنه عصمة له من الدجال » فيحتمل أن سالما سمعه من ثوبان ومن أبى الدرداء وقال أحمد حـدثنا حسين حدثنا ابن لهيعة حدثنا زبان بن فايد عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من قرأ أول سورة الـكهف وآخرها كانت له نوراً من قدمه إلى رأسه ومن قرأها كلها كانت له نوراً مابين السماء والأرض » انفرد به أحمد ولم يخرجوه ، وروى الحافظ أبوبكر بن مردويه فى تفسيره بإسـناد له غريب عن خالد ابن سعيد بن أبى مريم عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة الـكهف فى يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضىء له يوم القيامة وغفر له مابين الجمعتين » وهذا الحديث فى رفعه نظر وأحسن أحواله الوقف . وهكذا روى الإمام سـعيد بن منصور فى سننه عن هشيم بن بشـير عن أبى هاشم عن أبى مجلز عن قيس بن عباد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : من قرأ سورة الـكهف يوم الجمعة أضاء له من النور مابينه وبين البيت العتيق . هكذا وقع موقوفا ، وكذا رواه الثورى عن أبى هاشم به من حديث أبى سعيد الخدرى

وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه عن أبى بكر محمد بن المؤمل حدثنا الفضيل بن محمد الشعرانى حدثنا نعيم بن حماد حدثنا هشيم حدثنا أبو هاشم عن أبى مجلز عن قيس بن عباد عن أبى سعيد عن النبى ﷺ أنه قال « من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين » ثم قال هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقى فى سننه عن الحاكم ، ثم قال البيهقى ورواه يحى بن كثير عن شعبة عن أبى هاشم باسناده أن النبى ﷺ قال « من قرأ سورة الكهف كما نزلت كانت له نوراً يوم القيامة » وفى المختارة للحافظ الضياء المقدسى عن عبدالله بن مصعب عن منظور بن زيد بن خالد الجهنى عن على بن الحسين عن أبيه عن على مرفوعا : من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة ، وإن خرج الدجال عصم منه .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾

قد تقدم فى أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتمها فإنه المحمود على كل حال وله الحمد فى الأولى والآخرة ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور حيث جعله كتابا مستقيما لا اعوجاج فيه ولازيغ بل يهدى إلى صراط مستقيم واضحا بينا جليا نذيرا للكافرين بشيرا للمؤمنين ولهذا قال (ولم يجعل له عوجا) أى لم يجعل فيه اعوجاجا ولازيغا ولا ميلا بل جعله معتدلا مستقيما ولهذا قال (قيما) أى مستقيما (لينذر بأسا شديدا من لدنه) أى لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به ينذره بأسا شديدا عقوبة عاجلة فى الدنيا وآجلة فى الأخرى (من لدنه) أى من عند الله الذى لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد (ويبشر المؤمنين) أى بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح (أن لهم أجراً حسنا) أى مثوبة عند الله جميلة (ما كثين فيه) فى ثوابهم عند الله وهو الجنة خالدين فيه (أبداً) دائما لازوال له ولا انقضاء . وقوله (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً) قال ابن إسحاق وهم مشركو العرب فى قولهم نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله (مالهم به من علم) أى بهذا القول الذى افتروه وائتفكوه (ولالآبائهم) أى لأسلافهم (كبرت كلمة) نصب على التمييز تقديره كبرت كلمتهم هذه . وقيل على التعجب تقديره أعظم بكلمتهم كلة كما تقول أكرم بزيد رجلا قاله بعض البصريين ، وقرأ ذلك بعض قراء مكة كبرت كلمة كما يقال عظم قولك وكبر شأنك ، والمعنى على قراءة الجمهور أظهر فإن هذا تبشيع لمقالتهم واستعظام لافكهم ولهذا قال (كبرت كلة تخرج من أفواههم) أى ليس لها مستند سوى قولهم ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم ولهذا قال (إن يقولون إلا كذبا) وقد ذكر محمد بن إسحق سبب نزول هذه السورة الكريمة فقال حدثنى شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس قال : بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ماليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالا : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، قال فقالوا لهم سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ،

وسلوه عن الروح ماهوا ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره مابدا لكم ، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا يامعشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا يامحمد أخبرنا فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله ﷺ « أخبركم غدا عما سألتم عنه » ولم يستثن فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لايحدث الله له في ذلك وحيا ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لايخبرنا بشيء عما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه مايتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ماسألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله عز وجل (ويسئلونك عن الروح ؟ قال الروح) الآية .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾

يقال تعالى مسليا لرسوله صلوات الله وسلامه عليه في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه كما قال تعالى(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) وقال (ولاتحزن عليهم) وقال (لعلك باخع نفسك أن لايكونوا مؤمنين) باخع أي مهلك نفسك بحزنك عليهم ولهذا قال (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث) يعني القرآن (أسفا) يقول لاتهلك نفسك أسفا ، قال قتادة :قاتل نفسك غضبا وحزنا عليهم ، وقال مجاهد جزعا والمعنى متقارب أي لاتأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مزينة بزينة زائلة ، وإنما جعلها دار اختبار لادار قرار فقال (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) قال قتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وفراغها وانقضائها وذهابها وخرابها فقال تعالى (وإنا لجاعلون ما عليها صعيد جرزا) أي وإنا لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار فنجعل كل شيء عليها هالكا صعيدا جرزا لاينبت ولاينتفع به كما قال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى (وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزا) يقول يهلك كل شيء عليها ويبيد وقال مجاهد صعيدا جرزا بلقعا ، وقال قتادة : الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات، وقال ابن زيد : الصعيد الأرض التي ليس فيها شيء ألا ترى إلى قوله تعالى (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) وقال محمد بن إسحق (وإنا لجاعلون ماعليها صعيدا جرزا) يعني الأرض وإن ماعليها لفان وبائد وإن المرجع لإلى الله فلا تأس ولا يحزنك ماتسمع وترى .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا أَمَدًا ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار ثم بسطها بعد ذلك فقال (أم حسبت) يعني يامحمد (أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) أي ليس أمرهم عجيبا في قدرتنا وسلطاننا فإن

خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف كما قال ابن جريج عن مجاهد (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً) يقول قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك ، وقال العوفي عن ابن عباس (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) يقول الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم ، وقال محمد بن إسحق ما أظهرت من حججي على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم ، وأما الكهف فهو الغار في الجبل وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون ، وأما الرقيم فقال العوفي عن ابن عباس هو واد قريب من أيلة وكذا قال عطية العوفي وقتادة . وقال الضحاك أما الكهف فهو غار الوادي والرقيم اسم الوادي وقال مجاهد الرقيم كتاب بنيانهم ويقول بعضهم هو الوادي الذي فيه كهفهم . وقال عبد الرزاق أخبرنا الثوري عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله الرقيم كان يزعم كعب أنها القرية ، وقال ابن جريج عن ابن عباس الرقيم الجبل الذي فيه الكهف ، وقال ابن إسحق عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال اسم ذلك الجبل بنجلوس ، وقال ابن جريج أخبرني وهب بن سليمان عن شعيب الجبائي أن اسم جبل الكهف بنجلوس واسم الكهف حيزم والكلب حمران . وقال عبد الرزاق أنبأنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال القرآن أعلمه إلا حنانا والأواه والرقيم وقال ابن جريج أخبرني عمرو بن دينار أنه سمع عكرمة يقول قال ابن عباس ما أدري ما الرقيم ؟ كتاب أم بنيان ؟ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الرقيم الكتاب ، وقال سعيد ابن جبير : الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم الكتاب ثم قرأ كتاب مرقوم. وهذا هو الظاهر من الآية وهو اختيار ابن جرير، قال الرقيم فعيل بمعنى مرقوم كما يقال للمقتول قتيل وللمجروح جريح والله أعلم ، وقوله (إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا) يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه فهربوا منهم فلجأ إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم (ربنا آتنا من لدنك رحمة) أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا (وهيء لنا من أمرنا رشدا) أي وقدر لنا من أمرنا رشدا هذا أي اجعل عاقبتنا رشداً كما جاء في الحديث « وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشدا » وفي المسند من حديث بسر بن أرطاة عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو « اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » وقوله (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا) أي ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف فناموا سنين كثيرة (ثم بعثناهم) أي من رقدتهم تلك وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعاما يأكلونه كما سيأتي بيانه وتفصيله ولهذا قال (ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين) أي المختلفين فيهم (أحصى لما لبثوا أمدا) قيل عدداً ، وقيل غاية فان الأمد الغاية كقوله * سبق الجواد إذا استولى على الأمد *

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا * هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا * وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾

من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً ، وأما

المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل . وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً ، وقال مجاهد بلغني أنه كان فى آذان بعضهم القرطة يعنى الحلق فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم فآمنوا بربهم أى اعترفوا له بالوحدانية وشهدوا أنه لا إله إلا هو (وزدناهم هدى) استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخارى وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله وأنه يزيد وينقص ، ولهذا قال تعالى (وزدناهم هدى) كما قال (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وقال (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون)وقال(ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك . وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى بن مريم فالله أعلم ، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم ، وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء وعن خبر ذى القرنين وعن الروح فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ فى كتب أهل الكتاب وأنه متقدم على دين النصرانية والله أعلم .

وقوله (وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض) يقول تعالى وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم وأنهم خرجوا يوما فى بعض أعياد قومهم وكان لهم مجتمع فى السنة يجتمعون فيه فى ظاهر البلد ، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له دقيانوس وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم عرفوا أن هذا الذى يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغى إلا لله الذى خلق السموات والأرض فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز منهم ويتبرز عنهم ناحية فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم جلس تحت ظل شجرة فجاء الآخر فجلس إليها عنده وجاء الآخر فجلس إليهما وجاء الآخر فجلس إليهم وجاء الآخر وجاء الآخر ولا يعرف واحد منهم الآخر وإنما جمعهم هناك الذى جمع قلوبهم على الإيمان كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى تعليقا من حديث يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »وأخرجه مسلم فى صحيحه من حديث سهيل عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ والناس يقولون : الجنسية علة الضم ، والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه خوفا منهم ولا يدرى أنهم مثله حتى قال أحدهم تعلمون والله يا قوم إنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شىء فليظهر كل واحد منكم بأمره . فقال آخر أما أنا فإنى والله رأيت ما قومى عليه فعرفت أنه باطل وإنما الذى يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شىء هو الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما وقال الآخر وأنا والله وقع لى كذلك وقال الآخر كذلك حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة فصاروا يداً واحدة وإخوان صدق فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عز وجل ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله (وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً) ولن لنفى التأييد أى لا يقع منا هذا أبداً لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلا ولهذا قال عنهم (لقد قلنا إذا شططا) أى باطلا وكذبا وبهتانا (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين) أى هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلا واضحا صحيحا (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) يقولون بل هم ظالمون كاذبون فى قولهم ذلك فيقال إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أبى عليهم وتهددهم وتوعدهم وأمر بنزع لباسهم عنهم الذى كان عليهم من زينة قومهم وأجلهم لينظروا فى أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذى كانوا عليه ، وكان هذا من لطف الله بهم فإنهم فى تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن فى الناس أن يفر العبد منهم خوفا على دينه كما جاء فى الحديث « يوشك

أن يكون خير مال أحدكم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ولا تشرع فيما عداها لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم واختار الله تعالى لهم ذلك وأخبر عنهم بذلك في قوله (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله) أي وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله ففارقوهم أيضاً بأبدانكم (فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته) أي يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم (ويهيء لكم من أمركم) الذي أنتم فيه (مرفقاً) أي أمرا ترتفقون به فعند ذلك خرجوا هرابا إلى الكهف فأووا اليه ففقدهم قومهم من بين أظهرهم وتطلبهم الملك فيقال إنه لم يظفر بهم وعمى الله عليه خبرهم كما فعل بنبيه محمد ﷺ وصاحبه الصديق حين لجآ إلى غار ثور وجاء المشركون من قريش في الطلب فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه وعندها قال النبي ﷺ حين رأى جذع الصديق في قوله يارسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا فقال « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » وقد قال تعالى (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم) فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف ، وقد قيل إن قومهم ظفروا بهم ووقفوا على باب الغار الذي دخلوه فقالوا ما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم فأمر الملك بردم بابه عليهم ليهلكوا مكانهم ففعلوا ذلك ، وفي هذا نظر والله أعلم . فإن الله تعالى قد أخبر أن الشمس تدخل عليهم في الكهف بكرة وعشيا كما قال تعالى .

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾

فهذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه (ذات اليمين) أي يتقلص الفيء يمنة كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة (تزاور) أي تميل وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان ، ولهذا قال (وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال) أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه وهو من ناحية المشرق فدل على صحة ما قلناه وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب ولا تزاور الفيء يمينا ولا شمالا ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب فتعين ما ذكرناه ولله الحمد ، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة تقرضهم تتركهم ، وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعي ، وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالا فتقدم عن ابن عباس أنه قال هو قريب من أيلة ، وقال ابن إسحق هو عند نينوى وقيل ببلاد الروم وقيل ببلاد البلقاء والله أعلم بأي بلاد الله هو ، ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله اليه فقد قال صلى الله عليه وسلم « ماتركت شيئاً يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أعلمتكم به » فأعلمنا تعالى بصفته ولم يعلمنا بمكانه فقال (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم) قال مالك عن ابن زيد بن أسلم تميل (ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه) أي في متسع منه داخلا بحيث لا تصيبهم إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم قاله ابن عباس (ذلك من آيات الله) حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم ، ولهذا قال تعالى (ذلك من آيات الله) ثم قال (من يهد الله فهو المهتد) الآية أي هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم فإنه من هداه الله اهتدى ومن أضله فلا هادي له .

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى فاذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها ، ولهذا قال تعالى (وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود) وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عينا ويفتح عينا ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد كما قال الشاعر :

ينام باحدى مقلتيه ويتقى * بأخرى الرزايا فهو يقظان نائم

وقوله تعالى (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) قال بعض السلف يقلبون فى العام مرتين قال ابن عباس لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض وقوله (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة: الوصيد الفناء ، وقال ابن عباس بالباب وقيل بالصعيد وهو التراب والصحيح انه بالفناء وهو الباب ومنه قوله تعالى (إنها عليهم مؤصدة) أى مطبقة مغلقة ويقال وصيد وأصيد ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب ، قال ابن جريج يحرس عليهم الباب وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم وكان جلوسه خارج الباب لأن الملائكة لاتدخل بيتا فيه كلب كما ورد فى الصحيح ولا صورة ولا جنب ولا كافر كما ورد به الحديث الحسن . وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال وهذا فائدة صحبة الاخيار فانه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن . وقد قيل إنه كان كلب صيد لأحدهم وهو الأشبه وقيل كلب طباخ الملك وقد كان وافقهم على الدين وصحبه كلبه فالله أعلم ، وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة همام بن الوليد الدمشقى حدثنا صدقة بن عمر الغسانى حدثنا عباد المنقرى سمعت الحسن البصرى يقول كان اسم كبش إبراهيم عليه الصلاة والسلام جرير واسم هدهد سليمان عليه السلام عنفز واسم كلب أصحاب الكهف قطمير واسم عجل بنى إسرائيل الذى عبدوه بهموت . وهبط آدم عليه السلام بالهند وحواء بجدة وإبليس بدست بيسان والحية بأصفهان ، وقد تقدم عن شعيب الجبائى أنه سماه حمران واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولا حاجة إليها بل هى مما ينهى عنه فإن مستندها رجم بالغيب ، وقوله تعالى (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا) أى أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لايقع نظر أحد عليهم إلا هابهم لما ألبسوا من المهابة والذعر لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب أجله وتنقضى رقدتهم التى شاء تبارك وتعلى فيهم لما له فى ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾

يقول تعالى كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم لم يفقدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئاً وذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين ولهذا تساءلوا بينهم (كم لبثتم ؟) أى كم رقدتم (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) لأنه كان دخولهم إلى الكهف فى أول نهار واستيقاظهم كان فى آخر نهار ولهذا استدركوا فقالوا (أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) أى الله أعلم بأمركم وكأنه حصل لهم نوع تردد فى كثرة نومهم فالله أعلم ثم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم إذ ذاك وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا (فابعثوا أحدكم بورقكم)

أى فضتكم هذه وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها فتصدقوا منها وبقى منها فلهذا قالوا (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) أى مدينتكم التى خرجتم منها والألف واللام للعهد (فلينظر أيها أزكى طعاماً) أى أطيب طعاماً كقوله (ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبداً) وقوله (قد أفلح من تزكى) ومنه الزكاة التى تطيب المال وتطهره وقيل أكثر طعاما ومنه زكا الزرع إذا كثر قال الشاعر :

قبائلنا سبع وأنتم ثلاثة   وللسبع أزكى من ثلاث وأطيب

والصحيح الأول لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال سواء كان كثيراً أو قليلا ، وقوله (وليتلطف) أى فى خروجه وذهابه وشرائه وإيابه يقولون وليختف كل مايقدر عليه (ولا يشعرن) أى ولا يعلمن (بكم أحدا * إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم) أى إن علموا بمكانكم (يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم) يعنون أصحاب دقيانوس يخافون منهم أن يطلعوا على مكانكم فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم فى ملتهم التى هم عليها أو يموتوا وإن وافقتموهم على العود فى الدين فلا فلاح لكم فى الدنيا ولا فى الآخرة ولهذا قال (ولن تفلحوا إذا أبدا)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾

يقول تعالى (وكذلك أعثرنا عليهم) أى أطلعنا عليهم الناس (ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لاريب فيها) ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة ، وقال عكرمة : كان منهم طائفة قد قالوا تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك ، وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة فى شراء شىء لهم ليأكلوه تنكر وخرج يمشى فى غير الجادة حتى انتهى إلى المدينة وذكروا أن اسمها دقسوس وهو يظن أنه قريب العهد بها وكان الناس قد تبدلوا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل وأمة بعد أمة وتغيرت البلاد ومن عليها كما قال الشاعر :

أما الديار فإنها كديارهم   وأرى رجال الحى غير رجاله

فجعل لايرى شيئا من معالم البلد التى يعرفها ولا يعرف أحدا من أهلها لاخواصها ولا عوامها فجعل يتحير فى نفسه ويقول لعل بى جنونا أومساً أو أنا حالم ويقول : والله ما بى شىء من ذلك وإن عهدى بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة . ثم قال : إن تعجيل الخروج من ههنا لأولى لى ، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام فدفع إليه مامعه من النفقة وسأله أن يبيعه بها طعاما فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها فدفعها إلى جاره وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون لعل هذا وجد كنزا فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النفقة لعله وجدها من كنز وممن أنت ؟ فجعل يقول أنا من أهل هذه البلدة وعهدى بها عشية أمس وفيها دقيانوس فنسبوه إلى الجنون فحملوه إلى ولى أمرهم فسأله عن شأنه وخبره حتى أخبرهم بأمره وهو متحير فى حاله وما هو فيه فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف - ملك البلد وأهلها - حتى انتهى بهم إلى الكهف فقال لهم دعونى حتى أتقدمكم فى الدخول لأعلم أصحابى فدخل ، فيقال إنهم لايدرون كيف ذهب فيه وأخفى الله عليهم خبرهم ، ويقال بل دخلوا عليهم ورأوهم وسلم عليهم الملك واعتنقهم وكان مسلما فيما قيل واسمه يندوسيس ففرحوا به وآنسوه بالكلام ثم ودعوه وسلموا عليه وعادوا إلى مضاجعهم وتوفاهم الله عزوجل فالله أعلم . قال قتادة : غزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة فمروا بكهف فى بلاد الروم فرأوا فيه عظاما فقال قائل هذه عظام أهل الكهف فقال ابن عباس لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلثمائة سنة رواه ابن جرير وقوله (وكذلك أعثرنا عليهم) أى كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان (ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لاريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم) أى فى أمر القيامة فمن مثبت لها ومن منكر فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف

حجة لهم وعليهم (فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم) أى سدوا عليهم باب كهفهم وذروهم على حالهم (قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً) حكى ابن جرير فى القائلين ذلك قولين (أحدهما) أنهم المسلمون منهم (والثانى) أهل الشرك منهم فالله أعلم ، والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر ، لأن النبى ﷺ قال «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد» يحذر ما فعلوا وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه لما وجد قبر دانيال فى زمانه بالعراق أمر أن يخفى عن الناس وأن تدفن تلك الرقعة التى وجدوها عنده فيها شىء من الملاحم وغيرها

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس فى عدة أصحاب الكهف فحكى ثلاثة أقوال فدل على أنه لا قائل برابع ولما ضعف القولين الأولين بقوله (رجما بالغيب) أى قولا بلا علم كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يكاد يصيب وإن أصاب فبلا قصد . ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله (وثامنهم كلبهم) فدل على صحته وأنه هو الواقع فى نفس الأمر وقوله (قل ربى أعلم بعدتهم) إرشاد إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى إذ لا احتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلا علم لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به وإلا وقفنا . وقوله (ما يعلمهم إلا قليل) أى من الناس . قال قتادة قال ابن عباس أنا من القليل الذى استثنى الله عزوجل كانوا سبعة وكذا روى ابن جرير عن عطاء الخراسانى عنه أنه كان يقول أنا ممن استثنى الله عزوجل ويقول عدتهم سبعة . وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبدالرحمن حدثنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس (ما يعلمهم إلا قليل) قال أنا من القليل كانوا سبعة فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة وهو موافق لما قدمناه

وقال محمد بن إسحق بن يسار عن عبد الله بن أبى نجيح عن مجاهد قال لقد حدثت أنه كان على بعضهم من حداثة سنه وضح الورق . قال ابن عباس فكانوا كذلك ليلهم ونهارهم فى عبادة الله يبكون ويستغيثون بالله وكانوا ثمانية نفر: مكسلمينا وكان أكبرهم وهو الذى كلم الملك عنهم ويمليخا ومرطونس وكسطونس ويبرونس ودنيموس ويطبونس وقالوش هكذا وقع فى هذه الرواية ويحتمل أن هذا من كلام ابن إسحق ومن بينه وبينه فإن الصحيح عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة وهو ظاهر الآية وقد تقدم عن شعيب الجبائى أن اسم كلبهم حمران وفى تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلبهم نظر فى صحته والله أعلم فإن غالب ذلك متلقى من أهل الكتاب ، وقد قال تعالى (فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا) أى سهلا هيناً فان الأمر فى معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة (ولا تستفت فيهم منهم أحدا) أى فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجما بالغيب أى من غير استناد إلى كلام معصوم ، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذى لا شك فيه ولا مرية فيه فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾

هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شىء ليفعله فى المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عزوجل علام الغيوب الذى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « قال سليمان بن داود عليهما السلام لأطوفن الليلة على سبعين امرأة — وفى رواية تسعين امرأة وفى رواية مائة امرأة — تلد كل امرأة منهن غلاما يقاتل فى سبيل الله فقيل له — وفى رواية قال

له الملك - قل إن شاء الله فلم يقل فطاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان ، فقال رسول الله ﷺ - والذى نفسى بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركا لحاجته » وفى رواية « ولقاتلوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون » وقد تقدم فى أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية فى قول النبى ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف «غداً أجيبكم» فتأخر الوحى خمسة عشر يوما ، وقد ذكرناه بطوله فى أول السورة فأغنى عن إعادته وقوله (واذكر ربك إذا نسيت) قيل معناه إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك له قاله أبو العالية والحسن البصرى ، وقال هشيم عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس فى الرجل يحلف قال له أن يستثنى ولو إلى سنة وكان يقول (واذكر ربك إذا نسيت) ذلك قيل للأعمش سمعته عن مجاهد فقال حدثنى به ليث بن أبى سليم يرى ذهب كسائى هذا ورواه الطبرانى من حديث أبى معاوية عن الأعمش به . ومعنى قول ابن عباس أنه يستثنى ولو بعد سنة أى إذا نسى أن يقول فى حلفه أو فى كلامه إن شاء الله وذكر ولو بعد سنة فالسنة له أن يقول ذلك ليكون آتيا بسنة الاستثناء حتى ولو كان بعد الحنث قاله ابن جرير رحمه الله ونص على ذلك لا أن يكون رافعا لحنث اليمين ومسقطا للكفارة وهذا الذى قاله ابن جرير رحمه الله هو الصحيح وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه والله أعلم وقال عكرمة (واذكر ربك إذا نسيت) إذا غضبت وقال الطبرانى حدثنا محمد بن الحارث الجبلى حدثنا صفوان بن صالح حدثنا الوليد بن مسلم عن عبد العزيز بن حصين عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله * واذكر ربك إذا نسيت) أن تقول إن شاء الله ، وروى الطبرانى أيضا عن ابن عباس فى قوله (واذكر ربك إذا نسيت) الاستثناء فاستثن إذا ذكرت ، وقال هى خاصة برسول الله ﷺ وليس لأحد منا أن يستثنى إلا فى صلة من يمينه ثم قال انفرد به الوليد عن عبد العزيز بن الحصين ، ويحتمل فى الآية وجه آخر وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد من نسى الشىء فى كلامه إلى ذكر الله تعالى لأن النسيان منشؤه من الشيطان كما قال فتى موسى (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) وذكر الله تعالى يطرد الشيطان فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان فذكر الله تعالى سبب للذكر ولهذا قال (واذكر ربك إذا نسيت) وقوله (وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً) أى إذا سئلت عن شىء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه وتوجه إليه فى أن يوفقك للصواب والرشد فى ذلك ، وقيل فى تفسيره غير ذلك والله أعلم .

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار مالبث أصحاب الكهف فى كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان وأنه كان مقداره ثلثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية وهى ثلثمائة سنة بالشمسية فان تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين فلهذا قال بعد الثلثمائة وازدادوا تسعا ، وقوله (قل الله أعلم بما لبثوا) أى إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم فى ذلك وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشىء بل قل فى مثل هذا (الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض) أى لا يعلم ذلك إلا هو ومن أطلعه عليه من خلقه وهذا الذى قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد وغير واحد من السلف والخلف وقال قتادة فى قوله (ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين) الآية هذا قول أهل الكتاب وقد رده الله تعالى بقوله (قل الله أعلم بما لبثوا) قال وفى قراءة عبد الله وقالوا ولبثوا يعنى أنه قاله الناس وهكذا قال قتادة ومطرف بن عبد الله وفى هذا الذى زعمه قتادة نظر فان الذى بأيدى أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلثمائة سنة من غير تسع يعنون بالشمسية ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال وازدادوا تسعا والظاهر من الآية إنما هو إخبار من الله لا حكاية عنهم وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله ورواية قتادة قراءة ابن مسعود منقطعة ثم هى شاذة بالنسبة إلى قراءة الجمهور فلا يحتج بها

والله أعلم وقوله (أبصر به وأسمع) أى إنه لبصير بهم سميع لهم . قال ابن جرير وذلك فى معنى المبالغة فى المدح كأنه قيل ما أبصره وأسمعه وتأويل الكلام ما أبصر الله لكل موجود وأسمعه لكل مسموع لا يخفى عليه من ذلك شىء . ثم روى عن قتادة فى قوله (أبصر به وأسمع) فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع . وقال ابن زيد (أبصر به وأسمع) يرى أعمالهم ويسمع ذلك منهم سميعا بصيرا وقوله (مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا) أى انه تعالى هو الذى له الخلق والأمر الذى لا معقب لحكمه وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير تعالى وتقدس

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا * وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس (لا مبدل لكلماته) أى لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل . وقوله (ولن تجد من دونه ملتحدا) عن مجاهد ملتحدا قال ملجأ وعن قتادة وليا ولا مولى قال ابن جرير يقول إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك فانه لا ملجأ لك من الله كما قال تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) وقال (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) أى سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة . وقوله (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) أى اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيا من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء ، يقال إنها نزلت فى أشراف قريش حين طلبوا من النبى ﷺ أن يجلس معهم وحده ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود وليفرد أولئك بمجلس على حدة فنهاه الله عن ذلك فقال (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) الآية وأمره أن يصبر نفسه فى الجلوس مع هؤلاء فقال (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) الآية وقال مسلم فى صحيحه حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا محمد بن عبد الله الأسدى عن إسرائيل عن المقدام بن شريح عن أبيه عن سعد هو ابن أبى وقاص قال كنا مع النبى ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا قال وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى التياح قال سمعت أبا الجعد يحدث عن أبى أمامة قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على قاص يقص فأمسك فقال رسول الله ﷺ « قص فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » وقال أحمد أيضا حدثنا هاشم ثنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة قال سمعت كردوس بن قيس وكان قاص العامة بالكوفة يقول أخبرنى رجل من أصحاب بدر أنه سمع النبى ﷺ يقول « لأن أقعد فى مثل هذا المجلس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » قال شعبة فقلت أى مجلس قال كان قاصا وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده حدثنا محمد حدثنا يزيد بن أبان عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « لأن أجالس قوما يذكرون الله من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ولأن أذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس أحب إلى من أن أعتق ثمانية من ولد إسماعيل دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفا » فحسبنا دياتهم ونحن فى مجلس أنس فبلغت ستة وتسعين ألفا وههنا من يقول أربعة من ولد إسماعيل والله ما قال إلا ثمانية دية كل واحد

منهم اثنا عشر ألفاً . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن إسحق الأهوازى حدثنا أبو أحمد الزبيرى حدثنا عمرو ابن ثابت عن على بن الأقمر عن الأغر أبى مسلم وهو الكوفى أن رسول الله ﷺ مر برجل يقرأ سورة الكهف فلما رأى النبى ﷺ سكت فقال النبى ﷺ « هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم » هكذا رواه أبو أحمد عن عمرو بن ثابت عن على بن الأقمر عن الأغر مرسلا وحدثنا يحيى بن المعلى عن منصور حدثنا محمد بن الصلت حدثنا عمرو بن ثابت عن على بن الأقمر عن الأغر أبى مسلم عن أبى هريرة وأبى سعيد قالا: جاء رسول الله ﷺ ورجل يقرأ سورة الحج أو سورة الكهف فسكت فقال رسول الله ﷺ « هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم » وقال الإمام أحمد ثنا محمد بن بكير ثنا ميمون المرئى ثنا ميمون ابن سياه عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفورا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات » تفرد به أحمد رحمه الله . وقال الطبرانى ثنا إسماعيل بن الحسن ثنا أحمد بن صالح ثنا ابن وهب عن أسامة بن زيد عن أبى حازم عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : نزلت على رسول الله ﷺ وهو فى بعض أبياته (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) الآية فخرج يلتمسهم فوجد قوما يذكرون الله تعالى منهم ثائر الرأس وجاف الجلد وذو الثوب الواحد فلما رآهم جلس معهم وقال «الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم » عبد الرحمن هذا ذكره أبو بكر بن أبى داود فى الصحابة وأما أبوه فمن سادات الصحابة رضى الله عنهم . وقوله (ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) قال ابن عباس ولا تجاوزهم إلى غيرهم يعنى تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) أى شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا (وكان أمره فرطا) أى أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع ولا تكن مطيعا له ولا محبا لطريقته ولا تغبط بما هو فيه كما قال (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى)

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ وقل يا محمد للناس هذا الذى جئتكم به من ربكم هو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ولهذا قال (إنا أعتدنا) أى أرصدنا (للظالمين) وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه (ناراً أحاط بهم سرادقها) أى سورها . قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أنه قال « لسرادق النار أربعة جدر كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة » وأخرجه الترمذى فى صفة النار وابن جرير فى تفسيره من حديث دراج أبى السمح به

وقال ابن جريج قال ابن عباس (أحاط بهم سرادقها) قال حائط من نار . قال ابن جرير : حدثنى الحسين بن نصر والعباس بن محمد قالا حدثنا أبو عاصم عن عبد الله بن أمية حدثنى محمد بن حيى بن يعلى عن صفوان بن يعلى عن يعلى ابن أمية قال : قال رسول الله ﷺ « البحر هو جهنم » قال فقيل له كيف ذلك ؟ فتلا هذه الآية أو قرأ هذه الآية (ناراً أحاط بهم سرادقها) ثم قال « والله لا أدخلها أبدا أو ما دمت حيا لا تصيبنى منها قطرة » . وقوله (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه) الآية قال ابن عباس : المهل الماء الغليظ مثل دردى الزيت ، وقال مجاهد هو كالدم والقيح وقال عكرمة هو الشىء الذى انتهى حره ، وقال آخرون هو كل شىء أذيب . وقال قتادة : أذاب ابن مسعود شيئا من الذهب فى أخدود فلما انماع وأزبد قال : هذا أشبه شىء بالمهل . وقال الضحاك : ماء جهنم أسود

وهي سوداء وأهلها سود ، وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر فان المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها فهو أسود منتن غليظ حار ولهذا قال (يشوى الوجوه) أي من حره إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بإسناده المتقدم في سرادق النار عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال « ماء كالمهل ـ قال ـ كعكر الزيت فإذا قربه إليه سقطت فروة وجهه فيه » وهكذا رواه الترمذي في صفة النار من جامعه من حديث رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث عن دراج به. ثم قال لا نعرفه إلا من حديث رشدين وقد تكلم فيه من قبل حفظه هكذا قال : وقد رواه الإمام أحمد كما تقدم عن حسن الأشيب عن ابن لهيعة عن دراج والله أعلم . وقال عبد الله بن المبارك وبقية بن الوليد عن صفوان بن عمرو عن عبد الله بن بشر عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله (ويسقى من ماء صديد يتجرعه) قال : « يقرب إليه فيتكرهه فإذا قرب منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه ، يقول الله تعالى (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب) » وقال سعيد بن جبير : إذا جاع أهل النار استغاثوا فأغيثوا بشجرة الزقوم فيأكلون منها فاختلبت جلود وجوههم فلو أن مارا مر بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها ، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل وهو الذي قد انتهى حره فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة (بئس الشراب) أي بئس هذا الشراب كما قال في الآية الأخرى (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم) وقال تعالى (تسقى من عين آنية) أي حارة كما قال تعالى (وبين حميم آن) (وساءت مرتفقا) أي وساءت النار منزلا ومقيلا ومجتمعا وموضعا للارتفاق كما قال في الآية الأخرى (إنها ساءت مستقرا ومقاما)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة فلهم جنات عدن والعدن الاقامة (تجرى من تحتهم الأنهار) أي من تحت غرفهم ومنازلهم . قال فرعون (وهذه الأنهار تجرى من تحتي) الآية (يحلون) أي من الحلية (فيها من أساور من ذهب) وقال في المكان الآخر (ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) وفصله ههنا فقال (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق) فالسندس لباس رفاع رقاق كالقمصان وما جرى مجراها وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق وقوله (متكئين فيها على الأرائك) الاتكاء قيل الاضطجاع وقيل التربع في الجلوس وهو أشبه بالمراد ههنا ومنه الحديث الصحيح « أما أنا فلا آكل متكئا » فيه القولان . والأرائك جمع أريكة وهي السرير تحت الحجلة والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالبشخانة والله أعلم . قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة (على الأرائك) قال هي الحجال قال معمر وقال غيره السرر في الحجال . وقوله (نعم الثواب وحسنت مرتفقا) أي نعمت الجنة ثوابا على أعمالهم وحسنت مرتفقا أي حسنت منزلا ومقيلا ومقاما كما قال في النار (بئس الشراب وساءت مرتفقا) وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله (إنها ساءت مستقرا ومقاما) ثم ذكر صفات المؤمنين فقال (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما)

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا *

﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم فضرب لهم ولهم مثلا برجلين جعل الله لأحدهما جنتين أى بستانين من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة فى جنباتهما وفى خلالهما الزروع وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل فى غاية الجودة ولهـذا قال (كلتا الجنتين آتت أكلها) أى أخرجت ثمرها (ولم تظلم منه شيئا) أى ولم تنقص منه شيئا (وفجرنا خلالهما نهرا) أى والأنهار متفرقة فيهما ههنا وههنا (وكان له ثمر) قيل المراد به المال روى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وقيل الثمار وهو أظهر ههنا ويؤيده القراءة الأخرى (وكان له ثمر) بضم الثاء وتسكين الميم فيكون جمع ثمرة كخشبة وخشب . وقرأ آخرون ثمر بفتح الثاء والميم فقال أى صاحب هاتين الجنتين لصاحبه وهو يحاوره أى يجادله ويخاصمه يفتخر عليه ويترأس (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) أى أكثر خدما وحشما وولدا . قال قتادة تلك والله أمنية الفاجر كثرة المال وعزة النفر وقوله (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه) أى بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد (قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا) وذلك اغترار منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة فى جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها وكفره بالآخرة ولهذا قال (وما أظن الساعة قائمة) أى كائنة (ولئن رددت إلى ربى لأجدن منها منقلبا) أى ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لى هناك أحسن من هـذا الحظ عند ربى ولولا كرامتى عليه ما أعطانى هـذا كما قال فى الآية الأخرى (ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى) وقال (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا) أى فى الدار الآخرة تألى على الله عز وجل . وكان سبب نزولها فى العاص بن وائل كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظا له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار (أكفرت بالذى خلقك من تراب) الآية وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذى خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين كما قال تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم) الآية أى كيف تجحدون ربكم ودلالته عليكم ظاهرة جلية كل أحد يعلمها من نفسه فانه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوما ثم وجد وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شىء من المخلوقات لأنه بمثابته فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شىء ولهـذا قال المؤمن (ولكنا هو الله ربى) أى لكن أنا لا أقول بمقالتك بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية (ولا أشرك بربى أحدا) أى بل هو الله المعبود وحده لا شريك له ثم قال :

(ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله ، لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا) هذا تحضيض وحث على ذلك أى هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد مالم يعطه غيرك وقلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله ولهذا قال بعض السلف من أعجبه شىء من حاله أو ماله أو ولده فليقل ما شاء الله لاقوة إلا بالله وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة وقد روى فيه حديث مرفوع أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده حدثنا جراح بن مخلد حدثنا عمر بن يونس حدثنا عيسى بن عون حدثنا عبد الملك بن زرارة عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أومال أوولد فيقول ما شاء الله لاقوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت » وكان يتأول هذه الآية (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) قال الحافظ أبو الفتح الأزدى عيسى بن عون عن عبد الملك ابن زرارة عن أنس لايصح حديثه . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة وحجاج حدثنى شعبة عن عاصم ابن عبيد الله عن عبيد مولى أبى رهم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا قوة إلا بالله » تفرد به أحمد، وقد ثبت فى الصحيح عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال له « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله » وقال الإمام أحمد حدثنا بكير بن عيسى حدثنا أبو عوانة عن أبى بلج عن عمرو بن ميمون قال : قال أبو هريرة قال لى رسول الله ﷺ « يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش؟» قال : قلت فداك أبى وأمى قال « أن تقول لا قوة إلا بالله» قال أبو بلج وأحسب أنه قال «فان الله يقول أسلم عبدى واستسلم» قال فقلت لعمرو قال أبو بلج قال عمرو قلت لأبى هريرة لا حول ولا قوة إلا بالله فقال لا إنها فى سورة الكهف (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله) وقوله (فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك) أى فى الدار الآخرة (ويرسل عليها) أى على جنتك فى الدنيا التى ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى (حسبانا من السماء) قال ابن عباس والضحاك وقتادة ومالك عن الزهرى أى عذابا من السماء والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها ولهذا قال (فتصبح صعيدا زلقا) أى بلقعا ترابا أملس لا يثبت فيه قدم وقال ابن عباس كالجرز الذى لا ينبت شيئا وقوله (أو يصبح ماؤها غورا) أى غائرا فى الأرض وهو ضد النابع الذى يطلب وجه الأرض فالغائر يطلب أسفلها كما قال تعالى (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين) أى جار وسائح وقال ههنا (أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا) والغور مصدر بمعنى غائر وهو أبلغ منه كما قال الشاعر :

تظل جياده نوحا عليه * تقلده أعنتها صفوفا   بمعنى نائحات عليه

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾

يقول تعالى (وأحيط بثمره) بأمواله أو بثماره على القول الآخر والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته التى اغتر بها وألهته عن الله عز وجل (فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها) وقال قتادة يصفق كفيه متأسفا متلهفا على الأموال التى أذهبها عليها (ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا * ولم تكن له فئة) أى عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز (ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا * هنالك الولاية لله الحق) اختلف القراء ههنا فمنهم من يقف على قوله (وما كان منتصرا هنالك) أى فى ذلك الموطن الذى حل به عذاب الله فلا منقذ له منه ويبتدىء بقوله (الولاية لله الحق) ومنهم من يقف على (وما كان منتصرا) ويبتدىء بقوله (هنالك الولاية لله الحق) ثم اختلفوا فى قراءة الولاية فمنهم من فتح الواو من الولاية فيكون المعنى هنالك الموالاة لله أى هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب كقوله (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به

مشركين) وكقوله إخباراً عن فرعون (حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لاإله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) ومنهم من كسر الواو من الولاية أى هنالك الحكم لله الحق ثم منهم من رفع الحق على أنه نعت للولاية كقوله تعالى (الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا) ومنهم من خفض القاف على أنه نعت لله عزوجل كقوله (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) الآية ولهذا قال تعالى (هو خير ثواباً) أى جزاء (وخير عقبا) أى الأعمال التى تكون لله عزوجل ثوابها خير وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا * ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

يقول تعالى (واضرب) يامحمد للناس (مثل الحياة الدنيا) فى زوالها وفنائها وانقضائها (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) أى مافيها من الحب فشب وحسن وعلاه الزهر والنور والنضرة ثم بعد هذا كله (أصبح هشيما) يابسا (تذروه الرياح) أى تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال (وكان الله على كل شىء مقتدرا) أى هو قادر على هذه الحال وهذه الحال وكثيرا مايضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما قال تعالى فى سورة يونس (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام) الآية وقال فى الزمر (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه) الآية وقال فى سورة الحديد (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته) الآية وفى الحديث الصحيح « الدنيا خضرة حلوة » وقوله (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) كقوله (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب) الآية وقال تعالى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) أى الاقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم ، ولهذا قال (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف الباقيات الصالحات الصلوات الخمس ، وقال عطاء بن أبى رباح وسعيد بن جبير عن ابن عباس : الباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن الباقيات الصالحات ماهى فقال هى لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، رواه الإمام أحمد حدثنا أبو عبد الرحمن المقرى حدثنا حيوة حدثنا أبو عقيل أنه سمع الحارث مولى عثمان رضى الله عنه يقول جلس عثمان يوما وجلسنا معه فجاءه المؤذن فدعا بماء فى إناء أظنه سيكون فيه مد فتوضأ ثم قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ وضوئى هذا ثم قال « من توضأ وضوئى هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما كان بينها وبين الصبح ثم صلى العصر غفر له مابينها وبين الظهر ثم صلى المغرب غفر له مابينها وبين العصر ثم صلى العشاء غفر له مابينها وبين المغرب ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ثم إن قام فتوضأ وصلى صلاة الصبح غفر له مابينها وبين صلاة العشاء وهن الحسنات يذهبن السيئات » قالوا هذه الحسنات فما الباقيات الصالحات ياعثمان ؟ قال هى لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم تفرد به ، وروى مالك عن عمارة بن عبد الله بن صياد عن سعيد بن المسيب قال الباقيات الصالحات : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله وقال محمد بن عجلان عن عمارة قال سألنى سعيد بن المسيب عن الباقيات الصالحات فقلت الصلاة والصيام فقال لم تصب فقلت الزكاة والحج فقال لم تصب ولكنهن الكلمات الخمس لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله . وقال ابن جريج أخبرنى عبد الله ابن عثمان بن خثيم عن نافع بن سرجس أنه أخبره أنه سأل ابن عمر عن الباقيات الصالحات قال لا إله إلا الله والله أكبر

وسبحان الله ولا حول ولاقوة إلابالله ، قال ابن جريج وقال عطاء بن أبى رباح مثل ذلك ، وقال مجاهد : الباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولاإله إلاالله والله أكبر . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الحسن وقتادة فى قوله (والباقيات الصالحات) قال لا إله إلاالله والله أكبر والحمدلله وسبحان الله ، هن الباقيات الصالحات ، قال ابن جرير : وجدت فى كتابى عن الحسن بن الصباح البزار عن أبى نصر التمار عن عبد العزيز بن مسلم عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبحان الله والحمد لله ولاإله إلا الله والله أكبر هن الباقيات الصالحات » قال وحدثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنا عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمح حدثه عن أبى الهيثم عن أبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « استكثروا من الباقيات الصالحات » قيل وما هن يارسول الله ؟ قال «الملة» قيل وما هى يارسول الله ؟ قال« التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولاقوة إلا بالله » وهكذا رواه أحمد من حديث دراج به

قال وهب أخبرنى أبوصخر أن عبد الله بن عبد الرحمن مولى سالم بن عبدالله حدثه قال : أرسلنى سالم إلى محمد بن كعب القرظى فى حاجة فقال قل له القنى عند زاوية القبر فإن لى إليك حاجة قال فالتقيا فسلم أحدهما على الآخر ثم قال سالم ماتعد الباقيات الصالحات ؟ فقال لاإله إلا الله والله أكبر وسبحان الله ولا حول ولاقوة إلا بالله ، فقال له سالم : متى جعلت فيها لاحول ولا قوة إلابالله ؟ قال : مازلت أجعلها قال فراجعه مرتين أو ثلاثا فلم ينزع قال فأبيت ؟ قال سالم أجل فأبيت فإن أبا أيوب الأنصارى حدثنى أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول « عرج بى إلى السماء فرأيت إبراهيم عليه السلام فقال ياجبريل من هذا الذى معك ؟ فقال محمد فرحب بى وسهل ثم قال مر أمتك فلتكثر من غراس الجنة فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة فقلت وماغراس الجنة فقال لاحول ولاقوة إلابالله »

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن يزيد عن العوام حدثنى رجل من الأنصار من آل النعمان بن بشير قال خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن فى المسجد بعد صلاة العشاء فرفع بصره إلى السماء ثم خفض حتى ظننا أنه قد حدث فى السماء شىء ثم قال : « أما انه سيكون بعدى أمراء يكذبون ويظلمون فمن صدقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم فليس منى ولست منه ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم فهو منى وأنا منه . ألا وإن سبحان الله والحمد لله ولاإله إلاالله والله أكبر هن الباقيات الصالحات » .

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبان حدثنا يحيى بن أبى كثير عن زيد عن أبى سلام عن مولى لرسول الله ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بخ بخ لخمس ما أثقلهن فى الميزان : لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والده - وقال - بخ بخ لخمس من لقى الله مستيقنا بهن دخل الجنة : يؤمن بالله واليوم الآخر وبالجنة والنار وبالبعث بعد الموت وبالحساب » وقال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا الأوزاعى عن حسان بن عطية قال : كان شداد بن أوس رضى الله عنه فى سفر فنزل منزلا فقال لغلامه ائتنا بالشفرة نعبث بها فأنكرت عليه فقال ماتكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتى هذه فلا تحفظوها على واحفظوا ما أقول لكم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا أنتم هؤلاء الكلمات : اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلباً سليما ، وأسألك لسانا صادقا ، وأسألك من خير ماتعلم وأعوذ بك من شر ماتعلم وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب » ثم رواه أيضاً النسائى من وجه آخر عن شداد بنحوه . وقال الطبرانى حدثنا عبد الله بن ناجية حدثنا محمد بن سعد العوفى حدثنى أبى حدثنا عمر بن الحسين عن يونس بن نفيع الجدلى عن سعد بن جنادة رضى الله عنه قال : كنت فى أول من أتى النبى صلى الله عليه وسلم من أهل الطائف فخرجت من أعلى الطائف من السراة غدوة فأتيت منى عند العصر فتصاعدت فى الجبل ثم هبطت فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأسلمت وعلمنى (قل هو الله أحد) و (إذا زلزلت) وعلمنى هؤلاء الكلمات : سبحان الله والحمد لله ولاإله إلا الله والله أكبر

وقال « هن الباقيات الصالحات » وبهذا الإسناد « من قام من الليل فتوضأ ومضمض فاه ثم قال سبحان الله مائة مرة والحمد لله مائة مرة والله أكبر مائة مرة ولا إله إلا الله مائة مرة غفرت ذنوبه إلا الدماء فانها لا تبطل » وقال على ابن أبي طلحة عن ابن عباس قوله (والباقيات الصالحات) قال هي ذكر الله قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله وتبارك الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وأستغفر الله وصلى الله على رسول الله والصيام والصلاة والحج والصدقة والعتق والجهاد والصلة وجميع أعمال الحسنات وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السموات والأرض . وقال العوفي عن ابن عباس : هي الكلام الطيب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هي الأعمال الصالحة كلها واختاره ابن جرير رحمه الله

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظام كما قال تعالى : (يوم تمور السماء مورا * وتسير الجبال سيرا) أي تذهب من أماكنها وتزول كما قال تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) وقال تعالى (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) وقال (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً * فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) يذكر تعالى أنه تذهب الجبال وتتساوى المهاد وتبقى الأرض قاعاً صفصفاً أي سطحاً مستويا لا عوج فيه ولا أمتا أي لا وادي ولا جبل ولهذا قال تعالى (وترى الأرض بارزة) أي بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد ولا مكان يواري أحدا بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية . قال مجاهد وقتادة (وترى الأرض بارزة) لا حجر فيها ولا غيابة قال قتادة :لا بناء ولا شجر . وقوله (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) أي وجمعناهم الأولين منهم والآخرين فلم نترك منهم أحدا لا صغيرا ولا كبيرا كما قال (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) وقال (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) وقوله (وعرضوا على ربك صفا) يحتمل أن يكون المراد أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفا واحدا كما قال تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) ويحتمل أنهم يقومون صفوفا صفوفا كما قال (وجاء ربك والملك صفا صفا) وقوله (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) هذا تقريع للمنكرين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رءوس الأشهاد، ولهذا قال تعالى مخاطبا لهم (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ولا أن هذا كائن

وقوله (ووضع الكتاب) أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير والفتيل والقطمير والصغير والكبير (فترى المجرمين مشفقين مما فيه) أي من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة (ويقولون يا ويلتنا) أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا (ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) أي لا يترك ذنبا صغيرا ولا كبيرا ولا عملا وإن صغر إلا أحصاها أي ضبطها وحفظها . وروى الطبراني بإسناده المتقدم في الآية قبلها إلى سعد بن جنادة قال لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين نزلنا قفرا من الأرض ليس فيه شيء فقال النبي ﷺ « اجمعوا من وجد عودا فليأت به ومن وجد حطبا أو شيئا فليأت به » قال فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاما فقال النبي ﷺ « أترون هذا ؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا فليتق الله رجل ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة فانها محصاة عليه » وقوله (ووجدوا ما عملوا حاضرا) أي من خير وشر كما قال تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) الآية

وقال تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) وقال تعالى (يوم تبلى السرائر) أى تظهر المخبآت والضمائر . قال الإمام أحمد حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن ثابت عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به » أخرجاه فى الصحيحين وفى لفظ « يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته يقال هذه غدرة فلان بن فلان » وقوله (ولا يظلم ربك أحدا) أى فيحكم بين عباده فى أعمالهم جميعا ولا يظلم أحدا من خلقه بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصى ثم ينجى أصحاب المعاصى ويخلد فيها الكافرين وهو الحاكم الذى لا يجور ولا يظلم قال تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها) الآية : وقال (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا — إلى قوله — حاسبين) والآيات فى هذا كثيرة وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا همام بن يحيى عن القاسم بن عبد الواحد المكى عن عبد الله بن محمد ابن عقيل أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : بلغنى حديث عن رجل سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم فاشتريت بعيرا ثم شددت عليه رحلا فسرت عليه شهرا حتى قدمت عليه الشام فإذا عبد الله بن أنيس فقلت للبواب قل له جابر على الباب فقال ابن عبد الله قلت نعم فخرج يطأ ثوبه فاعتنقنى واعتنقته فقلت حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ فى القصاص فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله عزوجل الناس يوم القيامة — أو قال العباد — عراة غرلا بهما » قلت وما بهما ؟ قال « ليس معهم شىء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديان لا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقضيه منه ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق حتى أقضيه منه حتى اللطمة قال : قلنا كيف وإنما نأتى الله عزوجل حفاة عراة غرلا بهما ؟ قال : « بالحسنات والسيئات » وعن شعبة عن العوام بن مزاحم عن أبى عثمان عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة » رواه عبد الله بن الإمام أحمد وله شواهد من وجوه أخر وقد ذكرناها عند قوله تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا) وعند قوله تعالى (إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾

يقول تعالى منبها بنى آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم ومقرعا لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه وهو الذى أنشأه وابتداه ، وبألطافه رزقه وغذاه ، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله ، فقال تعالى (وإذ قلنا للملائكة) أى لجميع الملائكة كما تقدم تقديره فى أول سورة البقرة (اسجدوا لآدم) أى سجود تشريف وتكريم وتعظيم كما قال تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) وقوله (فسجدوا إلا إبليس كان من الجن) أى خانه أصله فانه خلق من مارج من نار وأصل خلق الملائكة من نور كما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال « خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه وخانه الطبع عند الحاجة وذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك فلهذا دخل فى خطابهم وعصى بالمخالفة» ونبه تعالى ههنا على أنه من الجن أى على أنه خلق من نار كما قال (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) قال الحسن البصرى ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط وإنه لأصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل البشر رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه ، وقال الضحاك عن ابن عباس: كان إبليس من حى من أحياء الملائكة يقال لهم

الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة وكان اسمه الحارث وكان خازنا من خزان الجنه وخلقت الملائكة من نور غيرهذا الحى قال وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا التهبت وقال الضحاك أيضا عن ابن عباس كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازنا على الجنان وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض وكان مماسولت له نفسه من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شرفا على أهل السماء فوقع من ذلك فى قلبه كبر لا يعلمه إلا الله واستخرج الله ذلك الكبر منه حين أمره بالسجود لآدم (فاستكبر وكان من الكافرين) قال ابن عباس قوله (كان من الجن) أى من خزان الجنان كما يقال للرجل مكى ومدنى وبصرى وكوفى وقال ابن جريج عن ابن عباس نحو ذلك ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال هو من خزان الجنة وكان يدبر أمر السماء الدنيا رواه ابن جرير من حديث الأعمش عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد به ، وقال سعيد بن المسيب كان رئيس ملائكة سماء الدنيا ، وقال ابن إسحق عن خلاد بن عطاء عن طاوس عن ابن عباس قال : كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل وكان من سكان الأرض وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علما فذلك دعاه إلى الكبر وكان من حى يسمون جنا . وقال ابن جريج عن صالح مولى التوأمة وشريك بن أبى نمر أحدهما أو كلاهما عن ابن عباس قال إن من الملائكة قبيلة من الجن وكان إبليس منها وكان يسوس ما بين السماء والأرض فعصى فسخط الله عليه فمسخه شيطانا رجيما لعنه الله ممسوخا قال وإذا كانت خطيئة الرجل فى كبر فلا ترجه وإذا كانت فى معصية فارجه ، وعن سعيد بن جبير أنه قال كان من الجنانين الذين يعملون فى الجنة وقد روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذى بأيدينا وفى القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان وقد وضع فيها أشياء كثيرة وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء والبررة والنجباء من الجهابذة النقاد والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث وحرروه وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال كل ذلك صيانة للجناب النبوى والمقام المحمدى خاتم الرسل وسيد البشر صلى الله عليه وسلم أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس منه فرضى الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم وقد فعل ، وقوله (ففسق عن أمر ربه) أى فخرج عن طاعة الله فإن الفسق هو الخروج يقال فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها وفسقت الفأرة من جحرها إذا خرجت منه للعيث والفساد ثم قال تعالى مقرعا وموبخا لمن اتبعه وأطاعه (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى) الآية أى بدلا عنى ولهذا قال (بئس للظالمين بدلا) وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء فى سورة يس (وامتازوا اليوم أيها المجرمون — إلى قوله — أفلم تكونوا تعقلون)

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾

يقول تعالى هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دونى عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً ولا أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا كانوا إذ ذاك موجودين ، يقول تعالى أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبرها ومقدرها وحدى ليس معى فى ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ولا نظير كما قال (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) الآية ولهذا قال (وما كنت متخذ المضلين عضدا) قال مالك : أعوانا

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا * وَرَءَا

الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رءوس الأشهاد تقريعاً لهم وتوبيخا (نادوا شركائى الذين زعمتم) أى فى دار الدنيا ادعوهم اليوم ينقذونكم مما أنتم فيه كما قال تعالى (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ومانرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) وقوله (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) كما قال (وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) الآية ، وقال (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له) الآيتين وقال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) وقوله (وجعلنا بينهم موبقا) قال ابن عباس وقتادة وغير واحد مهلكا ، وقال قتادة ذكر لنا أن عمرا البكالى حدث عن عبد الله بن عمرو قال هو واد عميق فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة وقال قتادة: موبقا واديا فى جهنم

وقال ابن جرير حدثنى محمد بن سنان القزاز حدثنا عبد الصمد حدثنا يزيد بن زريع سمعت أنس بن مالك يقول فى قول الله تعالى (وجعلنا بينهم موبقاً) قال واد فى جهنم من قيح ودم ، وقال الحسن البصرى موبقاً عداوة والظاهر من السياق ههنا أنه المهلك ويجوز أن يكون واديا فى جهنم أو غيره والمعنى أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التى كانوا يزعمون فى الدنيا وأنه يفرق بينهم وبينها فى الآخرة فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير . وأما إن جعل الضمير فى قوله بينهم عائدا إلى المؤمنين والكافرين كما قال عبد الله بن عمرو إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به فهو كقوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) وقال (يومئذ يصدعون) وقال تعالى (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) وقال تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم — إلى قوله — وضل عنهم ما كانوا يفترون) وقوله (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا) أى أنهم لما عاينوا جهنم حين جىء بها تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك (فإذا رأى المجرمون النار) تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم فان توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز وقوله (ولم يجدوا عنها مصرفا) أى ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا بد لهم منها . قال ابن جرير حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الكافر ليرى جهنم فيظن أنها مواقعته من مسيرة أربعمائة سنة » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ ينصب الكافر مقدار خمسين ألف سنة كما لم يعمل فى الدنيا وإن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة »

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾

يقول تعالى ولقد بينا للناس فى هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور وفصلناها كيلا يضلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الهدى ومع هذا البيان وهذا الفرقان الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة . قال الإمام أحمد حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى أخبرنى على بن الحسين أن حسين بن على أخبره أن على بن أبى طالب أخبره أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة فقال « ألا تصليان » فقلت يارسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلى شيئا ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول (وكان الإنسان أكثر شىء جدلا) أخرجاه فى الصحيحين .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴾

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة فى قديم الزمان وحديثه وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع مايشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات وأنه مامنعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذى وعدوا به عياناً كما قال أولئك لنبيهم (فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين) وآخرون قالوا (ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) وقالت قريش (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) (وقالوا يا أيها الذى نزل عليك الذكر إنك لمجنون لوماتأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك ثم قال (إلا أن تأتيهم سنة الأولين) من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم (أو يأتيهم العذاب قبلا) أى يرونه عيانا مواجهة ومقابلة ثم قال تعالى (ومانرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) أى قبل العذاب مبشرين من صدقهم وآمن بهم ومنذرين لمن كذبهم وخالفهم ثم أخبر عن الكفار بأنهم (يجادلون بالباطل ليدحضوا به) أى ليضعفوا به الحق الذى جاءتهم به الرسل وليس ذلك بحاصل لهم (واتخذوا آياتى وما أنذروا هزواً أى اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التى بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب (هزوا) أى سخروا منهم فى ذلك وهو أشد التكذيب

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا * وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾

يقول تعالى وأى عباد الله أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها أى تناساها وأعرض عنها ولم يصغ لها ولا ألقى إليها بالا (ونسى ما قدمت يداه) أى من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة (إنا جعلنا على قلوبهم) أى قلوب هؤلاء (أكنة) أى أغطية وغشاوة (أن يفقهوه) أى لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان (وفى آذانهم وقراً) أى صمما معنويا عن الرشاد (وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا) وقوله (وربك الغفور ذو الرحمة) أى ربك يامحمد غفور ذو رحمة واسعة (لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب) كما قال (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) وقال (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب) والآيات فى هذا كثيرة شتى ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر ور بما هدى بعضهم من الغى إلى الرشاد ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد وتضع كل ذات حمل حملها ، ولهذا قال (بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا) أى ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل وقوله (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا) أى الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم (وجعلنا لمهلكهم موعدا) أى جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين لا يزيد ولا ينقص أى وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبى ولستم بأعز علينا منهم فخافوا عذابى ونذر

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا

حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾

سبب قول موسى لفتاه وهو يوشع بن نون هذا الكلام أنه ذكر له أن عبدا من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم مالم يحط به موسى فأحب الرحيل إليه وقال لفتاه ذلك (لا أبرح) أى لاأزال سائرا (حتى أبلغ مجمع البحرين) أى هذا المكان الذى فيه مجمع البحرين .قال الفرزدق : فما برحوا حتى تهادت نساؤهم * ببطحاء ذى قار عياب اللطائم*

قال قتادة وغير واحد: هما بحر فارس مما يلى المشرق وبحر الروم مما يلى المغرب ، وقال محمد بن كعب القرظى مجمع البحرين عند طنجة يعنى فى أقصى بلاد المغرب فالله أعلم ، وقوله (أو أمضى حقبا) أى ولو أنى أسير حقبا من الزمان قال ابن جرير رحمه الله ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحقب فى لغة قيس سنة ثم قد روى عن عبد الله ابن عمرو أنه قال الحقب ثمانون سنة ، وقال مجاهد سبعون خريفا ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (أوأمضى حقبا) قال دهرا ، وقال قتادة وابن زيد مثل ذلك . وقوله (فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما) وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه وقيل له متى فقدت الحوت فهو ثمة فسارا حتى بلغا مجمع البحرين وهناك عين يقال لها عين الحياة فناما هنالك وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء فاضطرب وكان فى مكتل مع يوشع عليه السلام وطفر من المكتل إلى البحر فاستيقظ يوشع عليه السلام وسقط الحوت فى البحر فجعل يسير فى الماء والماء له مثل الطاق لايلتئم بعده ، ولهذا قال تعالى (واتخذ سبيله فى البحر سربا) أى مثل السرب فى الأرض قال ابن جريج قال ابن عباس صار أثره كأنه حجر . وقال العوفى عن ابن عباس جعل الحوت لايمس شيئا من البحر إلا ييبس حتى يكون صخرة وقال محمد بن إسحق عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر حديث ذلك ما انجاب ماء منذ كان الناس غير مسير مكان الحوت الذى فيه فانجاب كالكوة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه فقال (ذلك ما كنا نبغى) وقال قتادة سرب من البحر حتى أفضى إلى البحر ثم سلك فيه فجعل لايسلك فيه طريقا إلا صار ماء جامدا وقوله (فلما جاوزا) أى المكان الذى نسيا الحوت فيه ونسب النسيان إليهما وإن كان يوشع هو الذى نسيه كقوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وإنما يخرج من المالح على أحد القولين فلما ذهبا عن المكان الذى نسياه فيه بمرحلة (قال) موسى (لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا) أى الذى جاوزا فيه المكان (نصبا) يعنى تعبا (قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) قال قتادة وقرأ ابن مسعود أن أذكركه ولهذا قال (فاتخذ سبيله) أى طريقه (فى البحر عجبا قال ذلك ما كنا نبغى) أى هذا هو الذى نطلب (فارتدا) أى رجعا (على آثارها) أى طريقهما (قصصا) أى يقصان آثار مشيهما ويقفوان أثرهما (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً) وهذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ . قال البخارى حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار أخبرنى سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل. قال ابن عباس كذب عدو الله ، حدثنا أبى بن كعب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم ؟ قال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى: يارب وكيف لى به ؟ قال تأخذ معك حوتا فتجعله بمكتل فحيثما فقدت

الحوت فهو ثم فأخذ حوتا فجعله بمكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه (آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً) ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به ، قال له فتاه (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا) قال فكان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا ، فقال (ذلك ما كنا نبغى فارتدا على آثارهما قصصا) قال فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة فاذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنى بأرضك السلام . فقال أنا موسى . فقال موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم قال أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا (قال انك لن تستطيع معى صبرا) ياموسى إنى على علم من علم الله علمنيه لاتعلمه أنت وأنت على علم من علم الله علمكه الله لاأعلمه . فقال موسى (ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً) قال له الخضر (فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول ، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى قد حملونا بغير نول فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمراً (قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ؟ قال لاتؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً) قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم فكانت الأولى من موسى نسياناً قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة أو نقرتين فقال له الخضر : ماعلمى وعلمك فى علم الله إلا مثل مانقص هذا العصفور من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة فبينما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى (أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا) قال وهذه أشد من الأولى ، (قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً ، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض) أى مائلا فقال الخضر بيده (فأقامه) فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا (لو شئت لاتخذت عليه أجراً ، قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما » قال سعيد بن جبير : كان ابن عباس يقرأ (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا) وكان يقرأ (وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين) ثم رواه البخارى عن قتيبة عن سفيان بن عيينة فذكر نحوه وفيه فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة فنزلا عندها قال فوضع موسى رأسه فنام ، قال سفيان وفى حديث عن عمرو قال وفى أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لايصيب من مائها شىء إلا حي فأصاب الحوت من ماء تلك العين فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر ، فلما استيقظ قال موسى لفتاه (آتنا غداءنا) قال وساق الحديث ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره فى البحر فقال الخضر لموسى ماعلمى وعلمك وعلم الخلائق فى علم الله إلا مقدار ماغمس هذا العصفور منقاره وذكر تمامه بنحوه وقال البخارى أيضاً حدثنا إبراهيم ابن موسى حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال أخبرنى يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار عن سعيد بن جبير يزيد أحدهما على صاحبه وغيرهما قد سمعته يحدث عن سعيد بن جبير قال إنا لعند ابن عباس فى بيته إذ قال سلونى فقلت أى أبا عباس جعلنى الله فداك بالكوفة رجل قاص يقال له نوف يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل أما عمرو فقال لى قال كذب عدو الله وأما يعلى فقال لى قال ابن عباس حدثنى أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « موسى رسول الله ذكر الناس يوما حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ولى ، فأدركه رجل فقال أى رسول الله هل فى الأرض أحد أعلم منك ؟ قال لا : فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله ، قيل بلى قال أى رب ، وأين ؟ قال بمجمع البحرين ، قال أى رب اجعل لى علما

أعلم ذلك به . قال لى عمرو قال حيث يفارقك الحوت وقال لى يعلى خذ حوتا ميتا حيث ينفخ فيه الروح فأخذ حوتا فجعله فى مكتل فقال لفتاه لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت قال ما كلفت كبيرا فذلك قوله (وإذ قال موسى لفتاه) يوشع بن نون ليست عند سعيد بن جبير قال فبينا هو فى ظل صخرة فى مكان ثريان إذ يضرب الحوت وموسى نائم فقال فتاه لا أوقظه حتى إذا استيقظ نسى أن يخبره ويضرب الحوت حتى دخل فى البحر فأمسك الله عنه جرية الماء حتى كأن أثره فى حجر قال : فقال لى عمرو هكذا كأن أثره فى حجر وحلق بين إبهاميه واللتين تليهما قال (لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً) قال وقد قطع الله عنك النصب ليست هذه عند سعيد بن جبير أخبره فرجعا فوجدا خضرا قال : قال عثمان بن أبى سليمان على طنفسة خضراء على كبد البحر قال سعيد بن جبير مسجى بثوب قد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه تحت رأسه فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه وقال هل بأرضى من سلام ؟ من أنت ؟ قال أنا موسى قال موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم قال فما شأنك ؟ قال : جئتك لتعلمنى مما علمت رشدا قال أما يكفيك أن التوراة بيديك وأن الوحى يأتيك ياموسى إن لى علما لا ينبغى لك أن تعلمه وإن لك علما لا ينبغى لى أن أعلمه فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال والله ما علمى وعلمك فى جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر حتى إذا ركبا فى السفينة وجدا معابر صغاراً تحمل أهل هذا الساحل إلى هذا الساحل الآخر عرفوه فقالوا عبد الله الصالح قال فقلنا لسعيد بن جبير خضر قال نعم لا نحمله بأجر فخرقها ووتد فيها وتدا قال موسى (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً) قال مجاهد منكرا قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً كانت الأولى نسياناً والثانية شرطا والثالثة عمدا قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً فانطلقا حتى لقيا غلاما فقتله قال يعلى قال سعيد وجد غلماناً يلعبون فأخذ غلاما كافراً ظريفا فأضجعه ثم ذبحه بالسكين فقال أقتلت نفساً زكية لم تعمل الحنث وابن عباس قرأها زكية زاكية مسلمة كقولك غلاما زكيا فانطلقا فوجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال بيده هكذا ودفع بيده فاستقام قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً قال يعلى حسبت أن سعيداً قال فمسحه بيده فاستقام قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً قال سعيد أجرا نأكله وكان وراءهم ملك وكان أمامهم قرأها ابن عباس أمامهم ملك يزعمون عن غير سعيد انه هدد بن بدد والغلام المقتول اسمه يزعمون حيسور ملك يأخذ كل سفينة غصبا فأردت إذا هى مرت به أن يدعها بعيبها فاذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها منهم من يقول سدوها بقارورة ومنهم من يقول بالقار كان أبواه مؤمنين وكان هو كافرا فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً أن يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة كقوله (أقتلت نفساً زكية) وقوله (وأقرب رحماً) هما به أرحم منهما بالأول الذى قتل خضر وزعم غير سعيد بن جبير انهما أبدلا جارية وأما داود بن أبى عاصم فقال عن غير واحد انها جارية

وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أبى إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خطب موسى عليه السلام بنى إسرائيل فقال ما أحد أعلم بالله وبأمره منى فأمر أن يلقى هذا الرجل فذكر نحو ما تقدم بزيادة ونقصان والله أعلم وقال محمد بن إسحق عن الحسن بن عمارة عن الحكم بن عتيبة عن سعيد بن جبير قال جلست عند ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب فقال بعضهم يا أبا العباس إن نوفا بن امرأة كعب يزعم عن كعب أن موسى النبى الذى طلب العلم إنما هو موسى بن ميشا ، قال سعيد فقال ابن عباس أنوف يقول هذا ياسعيد ؟ فقلت له نعم أنا سمعت نوفا يقول ذلك قال أنت سمعته ياسعيد قال قلت نعم قال كذب نوف . ثم قال ابن عباس حدثنى أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن موسى بنى إسرائيل سأل ربه فقال أى رب إن كان فى عبادك أحد هو أعلم منى فدلنى عليه فقال له نعم فى عبادى من هو أعلم منك ثم نعت له مكانه وأذن له فى لقيه ، فخرج موسى ومعه فتاه ومعه حوت مليح قد قيل له إذا حي هذا الحوت فى مكان فصاحبك هنالك وقد أدركت حاجتك فخرج موسى ومعه فتاه ومعه ذلك الحوت يحملانه فسار حتى جهده السير وانتهى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء وذلك الماء ماء الحياة من شرب منه خلد ولا يقاربه شيء ميت إلا حي فلما نزلا ومس الحوت الماء حي فاتخذ سبيله فى البحر سربا فانطلقا فلما جاوزا النقلة قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال الفتى وذكر أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت

وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا ، قال ابن عباس فظهر موسى على الصخرة حتى إذا انتهيا إليها فإذا رجل متلفف فى كساء له فسلم موسى عليه فرد عليه السلام ثم قال له ما جاء بك إن كان لك فى قومك لشغل قال له موسى جئتك لتعلمنى مما علمت رشدا قال إنك لن تستطيع معى صبرا وكان رجلا يعلم علم الغيب قد علم ذلك فقال موسى بلى قال (وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) أى إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل ولم تحط من علم الغيب بما أعلم (قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً) وإن رأيت ما يخالفنى ، قال (فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء) وإن أنكرته (حتى أحدث لك منه ذكرا) فانطلق يمشيان على ساحل البحر يتعرضان الناس يلتمسان من يحملهما حتى مرت بهما سفينة جديدة وثيقة لم يمر بهما من السفن شىء أحسن ولا أجمل ولا أوثق منها فسأل أهلها أن يحملوهما فحملوهما فلما اطمأنا فيها ولجت بهما مع أهلها أخرج منقاراً له ومطرقة ثم عمد إلى ناحية منها فضرب فيها بالمنقار حتى خرقها ثم أخذ لوحا فطبقه عليها ثم جلس عليها يرقعها فقال له موسى ورأى أمرا أفظع به (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا * قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا * قال لا تؤاخذنى بما نسيت) أى بما تركت من عهدك (ولا ترهقنى من أمرى عسرا) ثم خرجا من السفينة فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية فإذا غلمان يلعبون خلفها فيهم غلام ليس فى الغلمان غلام أظرف منه ولا أثرى ولا أوضأ منه فأخذه بيده وأخذ حجرا فضرب به رأسه حتى دمغه فقتله ، قال فرأى موسى أمرا فظيعا لا صبر عليه ، صبى صغير قتله لا ذنب له قال (أقتلت نفسا زكية) أى صغيرة (بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا * قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا) أى قد أعذرت فى شأنى (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض) فهدمه ثم قعد يبنيه ، فضجر موسى مما يراه يصنع من التكليف وما ليس عليه صبر فأقامه قال (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) أى قد استطعمناهم فلم يطعمونا وضفناهم فلم يضيفونا ثم قعدت تعمل من غير صنيعه ولو شئت لأعطيت عليه أجرا فى عمله ، قال (هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا * أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) وفى قراءة أبى بن كعب (كل سفينة صالحة) وإنما عبتها لأرده عنها فسلمت منه حين رأى العيب الذى صنعت بها ، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما ، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى) أى ما فعلته عن نفسى (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) فكان ابن عباس يقول ما كان الكنز إلا علما ، وقال العوفى عن ابن عباس قالا لما ظهر موسى وقومه على مصر أنزل قومه مصر فلما استقرت بهم الدار أنزل الله أن ذكرهم بأيام الله فخطب قومه فذكر ما آتاهم الله من الخير والنعمة وذكرهم إذ نجاهم الله من آل فرعون وذكرهم هلاك عدوهم وما استخلفهم الله فى الأرض وقال كلم الله نبيكم تكليما واصطفانى لنفسه وأنزل على محبة منه وآتاكم الله من كل ما سألتموه فنبيكم أفضل أهل الأرض وأنتم تقرءون التوراة فلم يترك نعمة أنعم الله عليهم إلا وعرفهم إياها . فقال له رجل من بنى إسرائيل هم كذلك يا نبى الله قد عرفنا الذى تقول فهل على الأرض أحد أعلم منك يا نبى الله ؟ قال لا . فبعث الله جبرائيل إلى موسى عليه السلام فقال إن الله يقول وما يدريك أين أضع علمى بلى ان لى على شط البحر رجلا هو أعلم منك . قال ابن عباس هو الخضر ، فسأل موسى ربه ان يريه إياه ، فأوحى إليه أن ائت البحر فإنك تجد على شط البحر حوتا فخذه فادفعه إلى فتاك ثم الزم شاطىء البحر فإذا نسيت الحوت وهلك منك فثم تجد العبد الصالح الذى تطلب . فلما طال سفر موسى نبى الله ونصب فيه سأل فتاه عن الحوت ، فقال له فتاه وهو غلامه (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) لك ، قال الفتى لقد رأيت الحوت حين اتخذ سبيله فى البحر سربا فأعجب ذلك ، فرجع موسى حتى أتى الصخرة فوجد الحوت فجعل الحوت يضرب فى البحر ويتبعه موسى وجعل

موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء يتبع الحوت وجعل الحوت لا يمس شيئا من البحر إلا يبس عنه الماء حتى يكون صخرة فجعل نبي الله يعجب من ذلك حتى انتهى به الحوت جزيرة من جزائر البحر فلقي الخضر بها فسلم عليه فقال الخضر وعليك السلام ، وأنى يكون السلام بهذه الأرض ومن أنت ؟ قال أنا موسى . فقال الخضر : صاحب بني إسرائيل ؟ قال نعم فرحب به وقال ما جاء بك ؟ قال جئتك (على أن تعلمني مما علمت رشدا * قال إنك لن تستطيع معي صبرا) يقول لا تطيق ذلك قال (ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا) قال فانطلق به وقال له : لا تسألني عن شيء أصنعه حتى أبين لك شأنه فذلك قوله (حتى أحدث لك منه ذكرا) وقال الزهري عن عبيدالله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى فقال ابن عباس هو خضر فمر بهما أبي بن كعب فدعاه ابن عباس فقال إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سئل السبيل إلى لقيه فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه قال إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « بينا موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال تعلم مكان رجل أعلم منك ؟ قال لا ، فأوحى الله إلى موسى بلى عبدنا خضر فسأل موسى السبيل إلى لقيه فجعل الله له الحوت آية وقيل له إذا فقدت الحوت فارجع فانك ستلقاه فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر فقال فتى موسى لموسى أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فاني نسيت الحوت قال موسى (ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا) فوجدا عبدنا خضرا فكان من شأنهما ما قص الله في كتابه

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ، قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

يخبر تعالى عن قيل موسى عليه السلام لذلك الرجل العالم وهو الخضر الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر (قال له موسى هل أتبعك) سؤال تلطف لا على وجه الالزام والاجبار وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم وقوله (أتبعك) أي أصحبك وأرافقك (على أن تعلمن مما علمت رشدا) أي مما علمك الله شيئا أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح فعندها (قال) الخضر لموسى (إنك لن تستطيع معي صبرا) أي إنك لا تقدر على مصاحبتي لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك لأني على علم من علم الله ما علمكه الله وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه وأنت لا تقدر على صحبتي (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) فانا أعرف أنك ستنكر على ما أنت معذور فيه ولكن ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة التي اطلعت أنا عليها دونك (قال) أي موسى (ستجدني إن شاء الله صابر) أي على ما أرى من أمورك (ولا أعصى لك أمرا) أي ولا أخالفك في شيء فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام (قال فان اتبعتني فلا تسألني عن شيء) أي ابتداء (حتى أحدث لك منه ذكرا) أي حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني

قال ابن جرير حدثنا حميد بن جبير حدثنا يعقوب عن هارون عن عبيدة عن أبيه عن ابن عباس قال سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل فقال أي رب أي عبادك أحب إليك قال الذي يذكرني ولا ينساني قال فأي عبادك أقضى قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى قال أي رب أي عبادك أعلم قال الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى قال أي رب هل في أرضك أحد أعلم مني قال نعم قال فمن هو ، قال الخضر قال وأين أطلبه ؟ قال على الساحل عند الصخرة التي ينفلت عندها الحوت قال فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله وانتهى موسى إليه عند الصخرة فسلم كل واحد منهما على صاحبه فقال له موسى إني أحب أصحبك قال إنك لن تطيق صحبتي قال بلى قال فان صحبتني (فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) قال فسار به في البحر حتى انتهى

إلى مجمع البحرين وليس فى الأرض مكان أكثر ماء منه قال وبعث الله الخطاف فجعل يستقى منه بمنقاره فقال لموسى كم ترى هذا الخطاف رزأ من هذا الماء قال ما أقل مارزأ قال يا موسى فإن علمى وعلمك فى علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء وكان موسى قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه أو تكلم به فمن ثم أمر أن يأتى الخضر وذكر تمام الحديث فى خرق السفينة وقتل الغلام وإصلاح الجدار وتفسيره له ذلك .

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه وهو الخضر أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذى يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه فركبا فى السفينة وقد تقدم فى الحديث كيف ركبا فى السفينة وأنهم عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول يعنى بغير أجرة تكرمة للخضر فلما استقلت بهم السفينة فى البحر ولججت أى دخلت اللجه قام الخضر فخرقها واستخرج لوحا من ألواحها ثم رقعها فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكرا عليه (أخرقتها لتغرق أهلها) وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل كما قال الشاعر :

* لدوا للموت وابنوا للخراب * (لقد جئت شيئاً إمرا) قال مجاهد منكراً وقال قتادة عجبا فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط (ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا) يعنى وهذا الصنيع فعلته قصدا وهو من الأمور التى اشترطت معك أن لا تنكر على فيها لأنك لم تحط بها خبرا ولها دخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت (قال) أى موسى (لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا) أى لا تضيق على ولا تشدد على ولهذا تقدم فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال « كانت الأولى من موسى نسيانا »

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾

يقول تعالى (فانطلقا) أى بعد ذلك (حتى إذا لقيا غلاما فقتله) وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان فى قرية من القرى وأنه عمد إليه من بينهم وكان أحسنهم وأجملهم وأضوأهم فقتله ، وروى أنه احتز رأسه وقيل رضخه بحجر ، وفى رواية اقتلعه بيده والله أعلم فلما شاهد موسى عليه السلام هذا أنكره أشد من الأول وبادر فقال (أقتلت نفساً زكية) أى صغيرة لم تعمل الحنث ولا عملت إثما بعد فقتلته (بغير نفس) أى بغير مستند لقتله (لقد جئت شيئاً نكراً) أى ظاهر النكارة (قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا) فأكد أيضا فى التذكار بالشرط الأول فلهذا قال له موسى (إن سألتك عن شيء بعدها) أى إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة (فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا) أى قد أعذرت إلى مرة بعد مرة ، قال ابن جرير حدثنا عبد الله بن زياد حدثنا حجاج بن محمد عن حمزة الزيات عن أبى إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال كان النبى ﷺ إذا ذكر أحدا فدعا له بدأ بنفسه فقال ذات يوم « رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب ولكنه قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا » مثقلة

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عنهما إنهما (انطلقا) بعد المرتين الأوليين (حتى إذا أتيا أهل قرية) روى ابن جريج عن ابن سيرين

أنها الأبلة ، وفى الحديث « حتى إذا أتيا أهل قريه لئاما » أى بخلاء (فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض) إسناد الارادة ههنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة فإن الارادة فى المحدثات بمعنى الميل والانقضاض هو السقوط ، وقوله (فأقامه) أى فرده إلى حالة الاستقامة ، وقد تقدم فى الحديث أنه رده بيديه ودعمه حتى رد ميله وهذا خارق فعند ذلك قال موسى له (لو شئت لاتخذت عليه أجراً) أى لأجل أنهم لم يضيفونا كان ينبغى أن لا تعمل لهم مجاناً (قال هذا فراق بينى وبينك) أى لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتنى عن شىء بعدها فلا تصاحبنى فهو فراق بينى وبينك (سأنبئك بتأويل) أى بتفسير (ما لم تستطع عليه صبرا)

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنه فقال إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة (يأخذ كل سفينة) صالحة أى جيدة (غصبا) فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعيبها فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شىء ينتفعون به غيرها وقد قيل إنهم أيتام ، وروى ابن جريج عن وهب بن سليمان عن شعيب الجبائى أن اسم ذلك الملك هدد بن بدد وقد تقدم أيضاً فى رواية البخارى وهو مذكور فى التوراة فى ذرية العيص بن إسحاق وهو من الملوك المنصوص عليهم فى التوراة والله أعلم

﴿ وَأَمَّا الْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾

قد تقدم أن هذا الغلام كان اسمه حيثور . وفى هذا الحديث عن عباس عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً » رواه ابن جرير من حديث ابن إسحق عن سعيد عن ابن عباس به ، ولهذا قال (فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) أى يحملهما حبه على متابعته على الكفر ، قال قتادة قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقى لكان فيه هلاكهما فليرض امرؤ بقضاء الله فان قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب وصح فى الحديث « لا يقضى الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له » وقال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) وقوله (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما) أى ولداً أزكى من هذا وهما أرحم به منه قاله ابن جريج وقال قتادة أبر بوالديه وقد تقدم أنهما بدلا جارية . وقيل لما قتله الخضر كانت أمه حاملا بغلام مسلم قاله ابن جريج

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

فى هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة لأنه قال أولا (حتى إذا أتيا أهل قرية) وقال ههنا (فكان لغلامين يتيمين فى المدينة) كما قال تعالى (فكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك) (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) يعنى مكة والطائف ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنزلهما . قال عكرمة وقتادة وغير واحد كان تحته مال مدفون لهما وهو ظاهر السياق من الآية وهو اختيار ابن جرير رحمه الله ، وقال العوفى عن ابن عباس كان تحته كنز علم وكذا قال سعيد

ابن جبير ، وقال مجاهد صحف فيها علم ، وقد ورد فى حديث مرفوع مايقوى ذلك . قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو ابن عبد الخالق البزار فى مسنده المشهور حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى حدثنا بشر بن المنذر حدثنا الحارث ابن عبدالله اليحصبى عن عياش بن عباس الغسانى عن أبى حجيرة عن أبى ذر رفعه قال : إن الكنز الذى ذكره الله فى كتابه لوح من ذهب مصمت مكتوب فيه : عجبت لمن أيقن بالقدر لم نصب وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك وعجبت لمن ذكر الموت لم غفل لا إله إلا الله محمد رسول الله . وبشر بن المنذر هذا يقال له قاضى المصيصة قال الحافظ أبو جعفر العقيلى فى حديثه وهم وقد روى فى هذا آثار عن السلف فقال ابن جرير فى تفسيره حدثنى يعقوب حدثنا الحسن بن حبيب ابن ندبة حدثنا سلمة عن نعيم العنبرى وكان من جلساء الحسن قال : سمعت الحسن يعنى البصرى يقول فى قوله (وكان تحته كنز لهما) قال لوح من ذهب مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله . وحدثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى عبد الله بن عباس عن عمر مولى غفرة قال إن الكنز الذى قال الله فى السورة التى يذكر فيها الكهف (وكان تحته كنز لهما) قال كان لوحا من ذهب مصمت مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم عجب لمن عرف النار ثم ضحك عجب لمن أيقن بالقدر ثم نصب عجب لمن أيقن بالموت ثم أمن أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وحدثنى أحمد بن حازم الغفارى حدثنا هنادة بنت مالك الشيبانية قالت سمعت صاحبى حماد بن الوليد الثقفى يقول : سمعت جعفر بن محمد يقول فى قول الله تعالى (وكان تحته كنز لهما) قال سطران ونصف لم يتم الثالث : عجبت للمؤمن بالرزق كيف يتعب وعجبت للمؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت للمؤمن بالموت كيف يفرح . وقد قال الله (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) قالت وذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما ولم يذكر منهما صلاح وكان بينهما وبين الأب الذى حفظا به سبعة آباء وكان نساجاً وهذا الذى ذكره هؤلاء الأئمة وورد به الحديث المتقدم وإن صح لا ينافى قول عكرمة إنه كان مالا لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب وفيه مال جزيل أكثر مازادوا أنه كان مودعاً فيه علم وهو حكم ومواعظ والله أعلم . وقوله (وكان أبوهما صالحا) فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته وتشمل بركة عبادته لهم فى الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة فى الجنة لتقر عينه بهم كما جاء فى القرآن ووردت به السنة قال سعيد بن جبير عن ابن عباس حفظا بصلاح أبيهما ولم يذكر لهما صلاحا وتقدم أنه كان الأب السابع فالله أعلم . وقوله (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما) ههنا أسند الارادة إلى الله تعالى لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله ، وقال فى الغلام (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة) وقال فى السفينة (فأردت أن أعيبها) فالله أعلم . وقوله تعالى (رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى) أى هذا الذى فعلته فى هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ووالدى الغلام وولدى الرجل الصالح وما فعلته عن أمرى أى لكنى أمرت به ووقفت عليه وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) وقال آخرون كان رسولا وقيل بل كان ملكا نقله الماوردى فى تفسيره وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبيا بل كان وليا فالله أعلم . وذكر ابن قتيبة فى المعارف أن اسم الخضر بليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام ابن نوح عليه السلام قالوا وكان يكنى أبا العباس ويلقب بالخضر وكان من أبناء الملوك ذكره النووى فى تهذيب الأسماء وحكى هو وغيره فى كونه باقيا إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه وذكروا فى ذلك حكايات وآثارا عن السلف وغيرهم وجاء ذكره فى بعض الأحاديث ولا يصح شىء من ذلك وأشهرها أحاديث التعزية وإسناده ضعيف ، ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك واحتجوا بقوله تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) وبقول النبى صلى الله عليه وسلم يوم بدر « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض » وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ولا قاتل معه ولو كان حيا لكان من أتباع النبى صلى الله

عليه‌وسلم وأصحابه لأنه عليه السلام كان مبعوثا إلى جميع الثقلين الجن والإنس وقد قال « لوكان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعى » وأخبر قبل موته بقليل أنه لايبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف إلى غير ذلك من الدلائل . قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن آدم حدثنا ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فى الخضر قال « إنما سمى خضرا لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز من تحته خضراء » ورواه أيضا عن عبد الرزاق وقد ثبت أيضا فى صحيح البخارى عن همام عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة فاذا هى تهتز من خضراء » والمراد بالفروة ههنا الحشيش اليابس وهو الهشيم من النبات ، قاله عبد الرزاق . وقيل المراد بذلك وجه الأرض وقوله (ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا) أى هذا تفسير ماضقت به ذرعا ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء ، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال (تسطع) وقبل ذلك كان الاشكال قويا ثقيلا فقال (سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف كما قال (فما اسطاعوا أن يظهروه) وهو الصعود إلى أعلاه (وما استطاعوا له نقبا) وهو أشق من ذلك فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى والله أعلم . فان قيل : فما بال فتى موسى ذكر فى أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك ؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما ، وفتى موسى معه تبع ، وقد صرح فى الأحاديث المتقدمة فى الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون وهو الذى كان يلى بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام ؟ وهذا يدل على ضعف ما أورده ابن جرير فى تفسيره حيث قال : حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة حدثنى ابن إسحق عن الحسن بن عمارة عن أبيه عن عكرمة قال قيل لابن عباس : لم نسمع لفتى موسى بذكر فى حديث وقد كان معه قال ابن عباس فيما يذكر من حديث الفتى قال شرب الفتى من الماء فخلد فأخذه العالم فطابق به سفينة ثم أرسله فى البحر فانها لتموج به إلى يوم القيامة وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب ، إسناده ضعيف والحسن متروك وأبوه غير معروف

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ (ويسئلونك) يامحمد (عن ذى القرنين) أى عن خبره . وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسئلون منهم ما يمتحنون به النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا سلوه عن رجل طواف فى الأرض ، وعن فتية مايدرى ماصنعوا ، وعن الروح ، فنزلت سورة الكهف ، وقد أورد ابن جرير ههنا والأموى فى مغازيه حديثاً أسنده وهو ضعيف عن عقبة بن عامر أن نفراً من اليهود جاءوا يسئلون النبى صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين فأخبرهم بما جاءوا له ابتداء فكان فيما أخبرهم به أنه كان شابا من الروم وأنه بنى الاسكندرية وأنه علا به ملك إلى السماء وذهب به إلى السدوراًى أقواما وجوههم مثل وجوه الكلاب وفيه طول ونكارة ورفعه لايصح وأكثر مافيه أنه من أخبار بنى إسرائيل ، والعجب أن أبازرعة الرازى مع جلالة قدره ساقه بتمامه فى كتابه دلائل النبوة وذلك غريب منه ، وفيه من النكارة أنه من الروم وإنما الذى كان من الروم الاسكندر الثانى وهو ابن فيليس المقدونى الذى تؤرخ به الروم ، فأما الأول[1] فقد ذكر الأزرقى وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل عليه السلام أول مابناه وآمن به واتبعه وكان وزيره الخضر عليه السلام ، وأما الثانى فهو اسكندر بن فيليس المقدونى اليونانى وكان وزيره ارسطاطاليس الفيلسوف المشهور والله أعلم . وهو الذى تؤرخ من مملكته ملة الروم وقد كان قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة ، فأما الأول المذكور فى القرآن فكان فى زمن الخليل كما ذكره الأزرقى وغيره وأنه طاف مع الخليل عليه السلام بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم عليه السلام وقرب إلى الله قربانا ، وقد ذكرنا طرفا صالحا من أخباره فى كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية ولله الحمد . وقال وهب بن منبه : كان ملكا وإنما سمى ذا القرنين

(١) قوله فأما الأول الخ كذا بالنسخ وفى العبارة شبه تكرار فحرر اهـ .

لأن صفحتى رأسه كانتا من نحاس ، قال : وقال بعض أهل الكتاب لأنه ملك الروم وفارس ، وقال بعضهم كان فى رأسه شبه القرنين ، وقال سفيان الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن أبى الطفيل قال سئل على رضى الله عنه عن ذى القرنين فقال كان عبداً ناصحاً لله فناصحه دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فسمى ذا القرنين ، وكذا رواه شعبة عن القاسم بن أبى بزة عن أبى الطفيل سمع عليا يقول ذلك ، ويقال إنه إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ المشارق والمغارب من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب ، وقوله (إنا مكنا له فى الأرض) أى أعطيناه ملكا عظيما ممكنا فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ودانت له البلاد وخضعت له ملوك البلاد وخدمته الأمم من العرب والعجم ، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها ، وقوله (وآتيناه من كل شىء سببا) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدى وقتادة والضحاك وغيرهم: يعنى علما ،وقال قتادة أيضاً فى قوله(وآتيناه من كل شىء سببا) قال منازل الأرض وأعلامها ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله (وآتيناه من كل شىء سببا) قال تعلم الألسنة قال كان لا يغزو قوما إلا كلمهم بلسانهم ، وقال ابن لهيعة حدثنى سالم ابن غيلان عن سعيد بن أبى هلال أن معاوية بن أبى سفيان قال لكعب الاحبار أنت تقول إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا ؟ فقال له كعب إن كنت قلت ذلك فإن الله قال (وآتيناه من كل شىء سببا) وهذا الذى أنكره معاوية رضى الله عنه على كعب الأحبار هو الصواب والحق مع معاوية فى ذلك الانكار فإن معاوية كان يقول عن كعب إن كنا لنبلو عليه الكذب يعنى فيما ينقله لا أنه كان يتعمد نقل ماليس فى صحفه ولكن الشأن فى صحفه أنها من الاسرائيليات التى غالبها مبدل مصحف محرف مختلق ولا حاجة لنا مع خبر الله تعالى ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شىء منها بالكلية فانه دخل منها على الناس شر كثير وفساد عريض . وتأويل كعب قول الله (وآتيناه من كل شىء سببا) واستشهاده فى ذلك على ما يجده فى صحفه من أنه كان يربط خيله بالثريا غير صحيح ولا مطابق فإنه لا سبيل للبشر إلى شىء من ذلك ولا إلى الترقى فى أسباب السموات وقد قال الله فى حق بلقيس (وأوتيت من كل شىء) أى مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يسر الله له الأسباب أى الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والأراضى وكسر الأعداء وكبت ملوك الأرض واذلال أهل الشرك قد أوتى من كل شىء مما يحتاج إليه مثله سببا والله أعلم. وفى المختارة للحافظ الضياء المقدسى من طريق قتيبة عن أبى عوانه عن سماك بن حرب عن حبيب بن حماد قال: كنت عند على رضى الله عنه وسأله رجل عن ذى القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب ؟ فقال سبحان الله سخر له السحاب وقدر له الأسباب وبسط له اليد .

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾

قال ابن عباس (فأتبع سببا) يعنى بالسبب المنزل ، وقال مجاهد (فأتبع سببا) منزلا وطريقا ما بين المشرق والمغرب، وفى رواية عن مجاهد (سببا) قال طرفى الأرض ، وقال قتادة أى اتبع منازل الأرض ومعالمها، وقال الضحاك (فأتبع سببا) أى المنازل ، وقال سعيد بن جبير فى قوله (فأتبع سببا) قال: علما وهكذا قال عكرمة وعبيد بن يعلى والسدى، وقال مطر: معالم وآثار كانت قبل ذلك

وقوله (حتى إذا بلغ مغرب الشمس) أى فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وهو مغرب الأرض وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر وما يذكره أصحاب القصص والأخبار

من أنه سار في الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه فشيء لاحقيقة له وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب واختلاف زنادقتهم وكذبهم وقوله (وجدها تغرب في عين حمئة) أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه وهي لاتفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لاتفارقه والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين من الحمأة وهو الطين كما قال تعالى (إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون) أي طين أملس وقد تقدم بيانه ، وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أنبأنا نافع بن أبي نعيم سمعت عبدالرحمن الأعرج يقول كان ابن عباس يقول في عين حمأة ثم فسرها ذات حمأة قال نافع وسئل عنها كعب الأحبار فقال أنتم أعلم بالقرآن مني ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء ، وكذا روى غير واحد عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد وغير واحد وقال أبو داود الطيالسي حدثنا محمد بن دينار عن سعد بن أوس عن مصدع عن ابن عباس عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ أقرأه حمئة ، وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس وجدها تغرب في عين حامية يعني حارة وكذا قال الحسن البصري ، وقال ابن جرير والصواب أنهما قراءتان مشهورتان وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب قلت ولامنافاة بين معنييهما إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل وحمئة في ماء وطين أسود كما قال كعب الأحبار وغيره . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا العوام حدثني مولى لعبد الله ابن عمرو عن عبد الله قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشمس حين غابت فقال « في نار الله الحامية لولا مايزعها من أمر الله لأحرقت ماعلى الأرض » قلت ورواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وفي صحة رفع هذا الحديث نظر ولعله من كلام عبد الله بن عمرو من زاملتيه اللتين وجدهما يوم اليرموك والله أعلم ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا حجاج بن حمزة حدثنا محمد يعني ابن بشر حدثنا عمرو بن ميمون أنبأنا ابن حاضر أن ابن عباس ذكر له أن معاوية ابن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف (تغرب في عين حامية) قال ابن عباس لمعاوية مانقرؤها إلا حمئة فسأل معاوية عبد الله بن عمرو كيف تقرؤها فقال عبد الله كما قرأتها قال ابن عباس فقلت لمعاوية في بيتي نزل القرآن فأرسل إلى كعب فقال له أين تجد الشمس تغرب في التوراة ؟ فقال له كعب سل أهل العربية فإنهم أعلم بها . وأما أنا فإني أجد الشمس تغرب في التوراة في ماء وطين وأشار بيده إلى المغرب قال ابن حاضر لو أني عندك أفدتك بكلام تزداد فيه بصيرة في حمئة قال ابن عباس وإذا ماهو قلت فيما يؤثر من قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين في تخلقه بالعلم واتباعه إياه

بلغ المشارق والمغارب يبتغي * أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها * في عين ذي خلب وثأط حرمد

فقال ابن عباس ما الخلب قلت الطين بكلامهم قال فما الثأط قلت الحمأة قال فما الحرمد قلت الأسود قال فدعا ابن عباس رجلا أو غلاما فقال اكتب مايقول هذا الرجل وقال سعيد بن جبير بينا ابن عباس يقرأ سورة الكهف فقرأ (وجدها تغرب في عين حمئة) فقال كعب والذي نفس كعب بيده ماسمعت أحداً يقرؤها كما أنزلت في التوراة غير ابن عباس فانا نجدها في التوراة تغرب في مدرة سوداء ، وقال أبو يعلى الموصلي حدثنا إسحق بن أبي إسرائيل حدثنا هشام بن يوسف قال في تفسير ابن جريج (ووجد عندها قوما) قال مدينة لها اثنا عشر ألف باب لولا أصوات أهلها لسمع الناس وجوب الشمس حين تجب ، وقوله (ووجد عندها قوما) أي أمة من الأمم ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم وقوله (قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا) معنى هذا أن الله تعالى مكنه منهم وحكمه فيهم وأظفره بهم وخيره إن شاء قتل وسبى وإن شاء من أو فدى فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه في قوله (أما من ظلم) أي استمر على كفره وشركه بربه (فسوف نعذبه) قال قتادة بالقتل وقال السدي كان يحمي لهم بقر النحاس ويضعهم فيها حتى يذوبوا وقال وهب بن منبه كان يسلط الظلمة فتدخل أجوافهم وبيوتهم وتغشاهم من جميع جهاتهم والله أعلم ، وقوله (ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكراً) أي شديداً بليغا وجيعا أليما وفي هذا إثبات المعاد والجزاء . وقوله وأما من آمن أي تابعنا على ماندعوه إليه من عبادة الله وحده لاشريك له (فله جزاء الحسنى أي في الدار الآخرة عند الله

عزوجل (وسنقول له من أمرنا يسرا) قال مجاهد: معروفا .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا * كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾

يقول تعالى ثم سلك طريقا فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها وكان كلما مر بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل فان أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم واستباح أموالهم وأمتعتهم واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الاقليم المتاخم لهم ، وذكر في أخبار بنى إسرائيل أنه عاش ألفا وستمائة سنة يجوب الأرض طولها والعرض حتى بلغ المشارق والمغارب ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى (وجدها تطلع على قوم) أى أمة (لم نجعل لهم من دونها سترا) أى ليس لهم بناء يكنهم ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس. قال سعيد بن جبير كانوا حمرا قصارا مساكنهم الغيران أكثر معيشتهم من السمك .

وقال أبو داود الطيالسى حدثنا سهل بن أبى الصلت سمعت الحسن وسئل عن قول الله تعالى (لم نجعل لهم من دونها سترا) قال إن أرضهم لا تحمل البناء فإذا طلعت الشمس تغوروا فى المياه فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم قال الحسن هذا حديث سمرة ، وقال قتادة ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئا فهم إذا طلعت الشمس دخلوا فى أسراب حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم وعن سلمة بن كهيل أنه قال : ليست لهم أكنان إذا طلعت الشمس طلعت عليهم فلأحدهم أذنان يفرش إحداهما ويلبس الأخرى ، قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) قال هم الزنج . وقال ابن جرير فى قوله (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) قال لم يبنوا فيها بناء قط ولم يبن عليهم فيها بناء قط كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسرابا لهم حتى تزول الشمس أو دخلوا البحر وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل جاءهم جيش مرة فقال لهم أهلها لا تطلعن عليكم الشمس وأنتم بها ، قالوا لا نبرح حتى تطلع الشمس ما هذه العظام ؟ قالوا هذه جيف جيش طلعت عليهم الشمس ههنا فماتوا ، قال فذهبوا هاربين فى الأرض وقوله (كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا) قال مجاهد والسدى: علما أى نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه لا يخفى علينا منها شىء وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض فانه تعالى (لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء) .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن ذى القرنين ثم أتبع سببا أى ثم سلك طريقا من مشارق الأرض حتى إذا بلغ بين السدين وهما جبلان متناوحان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيثون فيها فسادا ويهلكون الحرث والنسل ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت فى الصحيحين « ان الله تعالى يقول : يا آدم فيقول لبيك وسعديك فيقول ابعث بعث النار فيقول وما بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها فقال ان فيكم أمتين ما كانتا فى شىء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج » وقد حكى النووى رحمه الله فى شرح مسلم عن بعض الناس أن يأجوج ومأجوج خلقوا من منى

خرج من آدم فاختلط بالتراب فخلقوا من ذلك ، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم وليسوا من حواء وهذا قول غريب جداً ثم لادليل عليه لا من عقل ولا من نقل ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب لما عندهم من الأحاديث المفتعلة والله أعلم

وفى مسند الإمام أحمد عن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ولد نوح ثلاثة : سام أبو العرب وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك » قال بعض العلماء هؤلاء من نسل يافث أبى الترك ، وقال إنما سمى هؤلاء تركا لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة وإلا فهم أقرباء أولئك ولكن كان فى أولئك بغى وفساد وجراءة وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثراً طويلا عجيبا فى سير ذى القرنين وبنائه السد وكيفية ما جرى له وفيه طول وغرابة ونكارة فى أشكالهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وآذانهم وروى ابن أبى حاتم عن أبيه فى ذلك أحاديث غريبة لا تصح أسانيدها والله أعلم . وقوله (وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا) أى لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس (قالوا يا ذى القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا) قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أجرا عظيما يعنى أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه إياه حتى يجعل بينه وبينهم سدا فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير (ما مكنى فيه ربى خير) أى إن الذى أعطانى الله من الملك والتمكين خير لى من الذى تجمعونه كما قال سليمان عليه السلام (أتمدونن بمال فما آتانى الله من خير مما آتاكم) الآية وهكذا قال ذو القرنين الذى أنا فيه خير من الذى تبذلونه ولكن ساعدونى بقوة أى بعملكم وآلات البناء (أجعل بينكم وبينهم ردما آتونى زبر الحديد) والزبر جمع زبرة وهى القطعة منه قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وهى كاللبنة يقال كل لبنة زنة قنطار بالدمشقى أو تزيد عليه (حتى إذا ساوى بين الصدفين) أى وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رءوس الجبلين طولا وعرضا واختلفوا فى مساحة عرضه وطوله على أقوال (قال انفخوا) أى أجج عليه النار حتى صار كله نارا (قال آتونى أفرغ عليه قطرا) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدى هو النحاس زاد بعضهم المذاب ويستشهد بقوله تعالى (وأسلنا له عين القطر) ولهذا يشبه بالبرد المحبر . قال ابن جرير حدثنا بشر بن يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلا قال يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال « انعته لى » قال كالبرد المحبر طريقة سوداء وطريقة حمراء قال « قد رأيته » هذا حديث مرسل ، وقد بعث الخليفة الواثق فى دولته بعض أمرائه وجهز معه جيشا سرية لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا فتوصلوا من بلاد إلى بلاد ومن ملك إلى ملك حتى وصلوا إليه ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيما وعليه أقفال عظيمة ورأوا بقية اللبن والعمل فى برج هناك وأن عنده حرسا من الملوك المتاخمة له وأنه عال منيف شاهق لا يستطاع ولا ماحوله من الجبال ثم رجعوا إلى بلادهم وكانت غيبتهم أكثر من سنتين وشاهدوا أهوالا وعجائب ، ثم قال الله تعالى ،

﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا * قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن يأجوج ومأجوج إنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلا بما يناسبه فقال (فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا) وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ولا على شىء منه فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة حدثنا أبو رافع عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً

فيعودون اليه كأشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله فيستثنى فيعودون اليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياه ويتحصن الناس منهم فى حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع وعليها كهيئة الدم فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله عليهم نغفا فى رقابهم فيقتلهم بها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكرا من لحومهم ودمائهم » ورواه أحمد أيضا عن حسن هو ابن موسى الأشهب عن سفيان عن قتادة به وكذا رواه ابن ماجه عن أزهر بن مروان عن عبد الأعلى عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة قال حدث أبو رافع وأخرجه الترمذى من حديث أبى عوانة عن قتادة ثم قال غريب لايعرف إلا من هذا الوجه وإسناده جيد قوى ولكن متنه فى رفعه نكارة لأن ظاهر الآية يقتضى أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه لاحكام بنائه وصلابته وشدته ولكن هذا قد روى عن كعب الأحبار أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل فيقولون غدا نفتحه فيأتون من الغد وقد عاد كما كان فيلحسونه حتى لايبقى منه إلا القليل فيقولون كذلك فيصبحون وهو كما كان فيلحسونه ويقولون غدا نفتحه ويلهمون أن يقولوا إن شاء الله فيصبحون وهو كما فارقوه فيفتحونه وهذا متجه ولعل أباهريرة تلقاه من كعب فانه كان كثيرا ما كان يجالسه ويحدثه فحدث به أبو هريرة فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع فرفعه والله أعلم

ويؤيد ماقلناه من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شىء منه ومن نكارة هذا المرفوع قول الإمام أحمد حدثنا سفيان عن الزهرى عن عروة عن زينب بنت أبى سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبى سفيان عن أمها أم حبيبة عن زينب بنت جحش زوج النبى ﷺ – قال سفيان أربع نسوة – قالت استيقظ النبى صلى الله عليه وسلم من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول « لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا » وحلق قلت يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال « نعم إذا كثر الخبيث » هذا حديث صحيح اتفق البخارى ومسلم على إخراجه من حديث الزهرى ولكن سقط فى رواية البخارى ذكر حبيبة وأثبتها مسلم وفيه أشياء عزيزة نادرة قليلة الوقوع فى صناعة الإسناد منها رواية الزهرى عن عروة وهما تابعيان ومنها اجتماع أربع نسوة فى سنده كلهن يروى بعضهن عن بعض ثم كل منهن صحابية ثم ثنتان ربيبتان وثنتان زوجتان رضى الله عنهن ، وقد روى نحو هذا عن أبى هريرة أيضا فقال البزار حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا مؤمل بن إسماعيل حدثنا وهب عن ابن طاوس عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال « فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا » وعقد التسعين ، وأخرجه البخارى ومسلم من حديث وهب به . وقوله (قال هذا رحمة من ربى) أى لما بناه ذوالقرنين (قال هذا رحمة من ربى) أى بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلا يمنعهم من العيث فى الأرض والفساد (فإذا جاء وعد ربى) أى إذا اقترب الوعد الحق (جعله دكاء) أى ساواه بالأرض تقول العرب ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستويا لاسنام لها وقال تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) أى مساويا للأرض . وقال عكرمة فى قوله (فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء) قال طريقا كما كان (وكان وعد ربى حقا) أى كائنا لامحالة . وقوله (وتركنا بعضهم) أى الناس يومئذ أى يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون فى الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم وهكذا قال السدى فى قوله (وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض) قال ذاك حين يخرجون على الناس وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال كما سيأتى بيانه عند قوله (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق) الآية وهكذا قال ههنا (وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض) قال هذا أول يوم القيامة (ثم نفخ فى الصور) على أثر ذلك (فجمعناهم جمعا) وقال آخرون بل المراد بقوله (وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض) قال إذا ماج الجن والإنس يوم القيامة يختلط الإنس والجن ، وروى ابن جرير عن محمد ابن حميد عن يعقوب القمى عن هرون بن عنترة عن شيخ من بنى فزارة فى قوله (وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى

بعض) قال إذا ماج الإنس والجن قال إبليس أنا أعلم لكم علم هذا الأمر فيظعن إلى المشرق فيجد الملائكة قد قطعوا الأرض ثم يظعن إلى المغرب فيجد الملائكة قد بطنوا الأرض فيقول مامن محيص ثم يظعن يمينا وشمالا إلى أقصى الأرض فيجد الملائكة قد بطنوا الأرض فيقول مامن محيص فبينما هوكذلك إذ عرض له طريق كالشراك فأخذ عليه هو وذريته فبينما هم عليه إذهجموا على النار فأخرج الله خازناً من خزان النار فقال يا إبليس ألم تكن لك منزلة عند ربك ألم تكن في الجنان ؟ فيقول ليس هذا يوم عتاب لو أن الله فرض على فريضة لعبدته فيها عبادة لم يعبده مثلها أحد من خلقه فيقول فان الله قدفرض عليك فريضة فيقول ماهي فيقول يأمرك أن تدخل النار فيتلكأ عليه فيقول به وبذريته بجناحيه فيقذفهم في النار فتزفر النار زفرة لايبقى ملك مقرب ولانبي مرسل إلاجثى لركبتيه ، وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث يعقوب القمي به ثم رواه من وجه آخر عن يعقوب عن هارون عن عنترة عن أبيه عن ابن عباس (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) قال الإنس والجن يموج بعضهم في بعض

وقال الطبراني حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الاصبهاني حدثنا أبومسعود أحمد بن الفرات حدثنا أبوداود الطيالسي حدثنا المغيرة بن مسلم عن أبي إسحق عن وهب بن جابر عن عبدالله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً وإن من ورائهم ثلاث أمم تاويل وتايس ومنسك » هذا حديث غريب بل منكر ضعيف . وروى النسائي من حديث شعبة عن النعمان بن سالم عن عمرو بن أوس عن أبيه عن جده أوس بن أبي أوس مرفوعاً « إن يأجوج ومأجوج لهم نساء يجامعون ماشاءوا وشجر يلقحون ماشاءوا ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفا فصاعداً » وقوله (ونفخ في الصور) والصور كما جاء في الحديث قرن ينفخ فيه والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام كما قد تقدم في الحديث بطوله والأحاديث فيه كثيرة . وفي الحديث عن عطية عن ابن عباس وأبي سعيد مرفوعاً « كيف أنعم وصاحب القرن قدالتقم القرن وحني جبهته واستمع متى يؤمر » قالوا كيف نقول قال «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » وقوله (فجمعناهم جمعاً) أي أحضرنا الجميع للحساب (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً)

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا * أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عما يفعله بالكفار يوم القيامة أنه يعرض عليهم جهنم أي يبرزها لهم ويظهرها ليروا مافيها من العذاب والنكال قبل دخولها ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك » ثم قال مخبراً عنهم (الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى) أي تغافلوا وتعاموا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق كما قال (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهوله قرين) وقال ههنا (وكانوا لايستطيعون سمعاً) أي لايعقلون عن الله أمره ونهيه ثم قال (أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دوني أولياء) أي اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك وينتفعون به (كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلا

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾

قال البخارى حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عمرو عن مصعب قال : سألت أبى . يعنى سعد بن أبى وقاص عن قول الله (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا) أهم الحرورية قال لا هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا لا طعام فيها ولا شراب ، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه فكان سعد رضى الله عنه يسميهم الفاسقين ، وقال على بن أبى طالب والضحاك وغير واحد : هم الحرورية ، ومعنى هذا عن على رضى الله عنه أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم لا أنها نزلت فى هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء بل هى أعم من هذا فان هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلية وإنما هى عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول وهو مخطىء وعمله مردود كما قال تعالى (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية) وقال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) وقال تعالى (والذين كفروا بربهم أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) وقال فى هذه الآية الكريمة (قل هل ننبئكم) أى نخبركم (بالأخسرين أعمالا) ثم فسرهم فقال (الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا) أى عملوا أعمالا باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) أى يعتقدون أنهم على شىء وأنهم مقبولون محبوبون ، وقوله (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه) أى جحدوا آيات الله فى الدنيا وبراهينه التى أقام على وحدانيته وصدق رسله وكذبوا بالدار الآخرة (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) أى لا نثقل موازينهم لأنها خالية عن الخير . قال البخارى حدثنا محمد بن عبد الله حدثنا سعيد بن أبى مريم أخبرنا المغيرة حدثنى أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة — وقال — اقرءوا إن شئتم (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) » وعن يحيى بن بكير عن مغيرة بن عبد الرحمن عن أبى الزناد مثله هكذا ذكره عن يحيى بن بكير معلقا ، وقد رواه مسلم عن أبى بكر محمد بن إسحق عن يحيى بن بكير به ، وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا أبو الوليد حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد عن صالح مولى التوأمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالرجل الأكول الشروب العظيم فيوزن بحبة فلا يزنها » قال وقرأ (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) وكذا رواه ابن جرير عن أبى كريب عن أبى الصلت عن أبى الزناد عن صالح مولى التوأمة عن أبى هريرة مرفوعا فذكره بلفظ البخارى سواء ، وقال أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار حدثنا العباس بن محمد حدثنا عون بن عمارة حدثنا هاشم بن حسان عن واصل عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل رجل من قريش يخطر فى حلة له فلما قام على النبى ﷺ قال « يا بريدة هذا ممن لا يقيم الله له يوم القيامة وزنا » ثم قال تفرد به واصل مولى أبى عنبسة وعون بن عمارة وليس بالحافظ ولم يتابع عليه وقد قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن الأعمش عن شمرة عن أبى يحيى عن كعب قال يؤتى يوم القيامة برجل عظيم طويل فلا يزن عند الله جناح بعوضه ، اقرءوا (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) وقوله (ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا)) أى إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزوا استهزءوا بهم وكذبوهم أشد التكذيب

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾

يخبر تعالى عن عباده السعداء وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به أن لهم جنات الفردوس قال مجاهد : الفردوس هو البستان بالرومية ، وقال كعب والسدى والضحاك : هو البستان الذى فيه شجر الأعناب وقال أبو أمامة : الفردوس سرة الجنة وقال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وقد روى هذا مرفوعا من حديث سعيد بن جبير عن قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبى صلى الله عليه وسلم « الفردوس ربوة الجنة أوسطها وأحسنها »

وهكذا رواه إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن سمرة مرفوعا وروى عن قتادة عن أنس بن مالك مرفوعا بنحوه وروى ذلك كله ابن جرير رحمه الله ، وفى الصحيحين « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فانه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة » وقوله تعالى (نزلا) أى ضيافة فان النزل الضيافة وقوله (خالدين فيها) أى مقيمين ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبداً (لا يبغون عنها حولا) أى لا يختارون عنها غيرها ولا يحبون سواها كما قال الشاعر

فحلت سويدا القلب لا أنا باغياً سواها ولا عن حبها أتحول

وفى قوله (لا يبغون عنها حولا) تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم فى المكان دائما أنه قد يسأمه أو يمله فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدى لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولا ولا انتقالا ولا ظعنا ولا رحلة ولا بدلا

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾

يقول تعالى قل يا محمد لو كان ماء البحر مدادا للقلم الذى يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك (ولو جئنا بمثله) أى بمثل البحر آخر ثم آخر وهلم جرا بحور تمده ويكتب بها لما نفدت كلمات الله كما قال تعالى (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم) وقال الربيع بن أنس إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور كلها وقد أنزل الله ذلك (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى) يقول لو كانت تلك البحور مدادا لكلمات الله والشجر كله أقلام لانكسرت الاقلام وفنى ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شىء لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثنى عليه كما ينبغى حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول ، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها فى نعيم الآخرة كحبة من خردل فى خلال الأرض كلها

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾

روى الطبرانى من طريق هشام بن عمار عن إسماعيل بن عياش عن عمرو بن قيس الكوفى أنه سمع معاوية بن أبى سفيان أنه قال هذه آخر آية أنزلت يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه (قل) لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم (إنما أنا بشر مثلكم) فمن زعم أنى كاذب فليأت بمثل ما جئت به فانى لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضى عما سألتم من قصة أصحاب الكهف وخبر ذى القرنين مما هو مطابق فى نفس الأمر لولا ما أطلعنى الله عليه وإنما أخبركم (أنما إلهكم) الذى أدعوكم إلى عبادته (إله واحد) لا شريك له (فمن كان يرجو لقاء ربه) أى ثوابه وجزاءه الصالح (فليعمل عملا صالحا) ما كان موافقا لشرع الله (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) وهو الذى يراد به وجه الله وحده لا شريك له ، وهذان ركنا العمل المتقبل . لا بد أن يكون خالصا لله صوابا على شريعة رسول الله ﷺ وقد روى ابن أبى حاتم من حديث معمر عن عبد الكريم الجزرى عن طاوس قال : قال رجل يا رسول الله إنى أقف المواقف أريد وجه الله وأحب أن يرى موطنى فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئا حتى نزلت هذه الآية (فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) وهكذا أرسل هذا مجاهد وغير واحد ، وقال الأعمش حدثنا حمزة أبو عمارة مولى بنى هاشم عن شهر بن حوشب قال جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال أنبئنى عما أسألك عنه . أرأيت رجلا يصلى يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد ، ويصوم يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد ، ويتصدق يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد ، ويحج يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد ، فقال عبادة ليس له شىء إن الله تعالى يقول: أنا خير شريك فمن كان له معى شريك فهو له كله لا حاجة لى فيه . وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير حدثنا كثير بن زيد عن ربيح بن عبد الرحمن بن أبى سعيد الخدرى عن أبيه عن جده قال كنا نتناوب رسول الله ﷺ

فنبيت عنده تكون له الحاجة أو يطرقه أمر من الليل فيبعثنا فكثر المحبوسون وأهل النوب فكنا نتحدث فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ما هذه النجوى ؟ » قال فقلنا تبنا إلى الله أى نبي الله إنما كنا فى ذكر المسيح وفرقنا منه فقال « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندى ؟ » قال : قلنا بلى قال « الشرك الخفى أن يقوم الرجل يصلى لمكان الرجل » . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا عبد الحميد يعنى ابن بهرام قال: قال شهر بن حوشب قال ابن غنم لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء لقينا عبادة بن الصامت فأخذ يمينى بشماله وشمال أبى الدرداء بيمينه فخرج يمشى بيننا ونحن نتناجى والله أعلم بما نتناجى به فقال عبادة بن الصامت إن طال بكما عمر أحدكما أو كليكما لتوشكان أن تريا الرجل من ثبج المسلمين يعنى من وسط قراء القرآن على لسان محمد ﷺ فأعاده وأبدأه وأحل حلاله وحرم حرامه ونزله عند منازله لا يجوز فيكم إلا كما يجوز رأس الحمار الميت . قال فبينا نحن كذلك إذ طلع شداد بن أوس رضى الله عنه وعوف بن مالك فجلسا إلينا فقال شداد إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من الشهوة الخفية والشرك » فقال عبادة بن الصامت وأبو الدرداء : اللهم غفرا ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حدثنا أن الشيطان قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب . أما الشهوة الخفية فقد عرفناها هى شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها فما هذا الشرك الذى تخوفنا به يا شداد ؟ فقال شداد أرأيتكم لو رأيتم رجلا يصلى لرجل أو يصوم لرجل أو يتصدق أترون أنه قد أشرك ؟ قالوا نعم والله إن من صلى أو صام أو تصدق له لقد أشرك فقال شداد فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول « من صلى يرائى فقد أشرك ، ومن صام يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك » قال عوف بن مالك عند ذلك أفلا يعمد الله إلى ما ابتغى به وجهه من ذلك العمل كله فيقبل ما خلص له ويدع ما أشرك به فقال شداد عند ذلك فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله يقول أنا خير قسيم لمن أشرك بى من أشرك بى شيئا فان عمله قليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به ، أنا عنه غنى »

﴿طريق أخرى لبعضه﴾ قال الإمام أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنى عبد الواحد بن زياد أخبرنا عبادة بن نسى عن شداد ابن أوس رضى الله عنه أنه بكى فقيل له ما يبكيك قال شيء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكانى ، سمعت رسول الله يقول « أتخوف على أمتى الشرك والشهوة الخفية » قلت يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك قال « نعم أما إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا ولكن يراءون بأعمالهم والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه » ورواه ابن ماجه من حديث الحسن بن ذكوان عن عبادة بن نسى به وعبادة فيه ضعف وفى سماعه من شداد نظر ﴿حديث آخر﴾ قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا الحسن بن على بن جعفر الأحمر حدثنا على بن ثابت حدثنا قيس بن أبى حصين عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله يوم القيامة أنا خير شريك من أشرك بى أحدا فهو له كله » ، وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت العلاء يحدث عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال « أنا خير الشركاء فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا برىء منه وهو للذى أشرك » تفرد به من هذا الوجه ﴿حديث آخر﴾ قال الإمام أحمد حدثنا يونس حدثنا الليث عن يزيد يعنى ابن الهاد عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله، قال « الرياء ، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء» ﴿حديث آخر﴾ قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن بكير أخبرنا عبد الحميد يعنى ابن جعفر أخبرنى أبى عن زياد بن ميناء عن أبى سعيد بن أبى فضالة الأنصارى وكان من الصحابة أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لاريب فيه نادى مناد : من كان أشرك فى عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله فان الله أغنى الشركاء عن الشرك » وأخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث محمد وهو البرسانى به ﴿حديث آخر﴾ قال الإمام أحمد حدثنا

أحمد بن عبد الملك حدثنا بكار حدثني أبي ـ يعني عبد العزيز بن أبي بكرة ـ عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به » وقال الإمام أحمد حدثنا معاوية حدثنا شيبان عن فراس عن عطية عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال « من يرائي يرائي الله به ومن يسمع يسمع الله به » ﴿ حديث آخر ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة حدثني عمرو بن مرة قال سمعت رجلا في بيت أبي عبيدة أنه سمع عبد الله بن عمرو يحدث ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « من سمع الناس بعمله سمع الله به ، مسامع خلقه وصغره وحقره » فذرفت عينا عبد الله ، وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عمرو بن يحيى الايلي حدثنا الحارث بن غسان حدثنا أبو عمران الجوني عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة في صحف مختمة فيقول الله ألقوا هذا واقبلوا هذا فتقول الملائكة يا رب والله ما رأينا منه إلا خيرا فيقول إن عمله كان لغير وجهي ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي » ثم قال الحارث بن غسان روى عنه جماعة وهو ثقة بصري ليس به بأس ، وقال وهب حدثني يزيد بن عياض عن عبد الرحمن الأعرج عن عبد الله بن قيس الخزاعي أن رسول الله ﷺ قال « من قام رياء وسمعة لم يزل في مقت الله حتى يجلس » وقال أبو يعلى حدثنا محمد بن أبي بكر حدثنا محمد بن دينار عن إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن عوف ابن مالك عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل » وقال ابن جرير حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السكوني حدثنا هشام بن عمار حدثنا ابن عياش حدثنا عمرو بن قيس الكندي أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية (فمن كان يرجوا لقاء ربه) الآية ، وقال إنها آخر آية نزلت من القرآن وهذا أثر مشكل فان هذه الآية آخر سورة الكهف والكهف كلها مكية ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها بل هي مثبتة محكمة فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه والله أعلم. وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق حدثنا النضر بن شميل حدثنا أبو قرة عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ « من قرأ في ليلة: (فمن كان يرجوا لقاء ربه) الآية كان له من النور من عدن أبين إلى مكة حشو ذلك النور الملائكة » غريب جداً .

آخر تفسير سورة الكهف

﴿ تفسير سورة مريم وهي مكية ﴾

وقد روى محمد بن إسحق في السيرة من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله (ذكر رحمت ربك) أي هذا ذكر رحمة الله عبده زكريا ، وقرأ يحيى بن يعمر (ذكر رحمت ربك عبده زكرياء) وزكريا يمد ويقصر قراءتان مشهورتان . وكان نبيا عظيما من أنبياء بني إسرائيل ، وفي صحيح البخاري أنه كان نجارا ، كان يأكل من عمل يده في النجارة . وقوله (إذ نادى ربه نداء خفياً) قال بعض المفسرين إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره ، حكاه الماوردي وقال الآخرون إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله كما قال قتادة في هذه الآية (إذ نادى ربه نداء خفياً) إن الله يعلم القلب التقي ، ويسمع الصوت الخفي ، وقال بعض السلف قام من الليل عليه السلام وقد نام أصحابه فجعل يهتف بربه يقول:

خفية يارب يارب، فقال الله له: لبيك لبيك لبيك (قال رب إني وهن العظم منى) أى ضعفت وخارت القوى واشتعل الرأس شيبا) أى اضطرم المشيب فى السواد كما قال ابن دريد فى مقصورته

أما ترى رأسى حاكى لونه　　طرة صبح تحت أذيال الدجا

واشتعل المبيض فى مسوده　　مثل اشتعال النار فى جمر الغضا

والمراد من هذا الاخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة ، وقوله (ولم أكن بدعائك رب شقيا) أى ولم أعهد منك إلا الاجابة فى الدعاء ولم تردنى قط فيما سألتك ، وقوله (وإنى خفت الموالى من ورائى) قرأ الأكثرون بنصب الياء من الموالى على أنه مفعول : وعن الكسائى أنه سكن الياء كما قال الشاعر

كأن أيديهن فى القاع القرق　　أيدى جوار يتعاطين الورق

وقال الآخر　　فتى لو يبارى الشمس ألقت قناعها　　أو القمر السارى لألقى المقالدا

ومنه قول أبى تمام حبيب بن أوس الطائى

تغاير الشعر منه إذ سهرت له　　حتى ظننت قوافيه ستقتتل

وقال مجاهد وقتادة والسدى : أراد بالموالى العصبة ، وقال أبو صالح الكلالة ، وروى عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه كان يقرؤها (وإنى خفت الموالى من ورائى) بتشديد الفاء بمعنى قلت عصباتى من بعدى وعلى القراءة الأولى وجه خوفه أنه خشى أن يتصرفوا من بعده فى الناس تصرفا سيئا فسأل الله ولدا يكون نبيا من بعده ليسوسهم بنبوته ما يوحى إليه فأجيب فى ذلك لا أنه خشى من وراثتهم له ماله فإن النبى أعظم منزلة وأجل قدرا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده وأن يأنف من وراثة عصباته له ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم هذا وجه (الثانى) أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجارا يأ كل من كسب يديه ومثل هذا لايجمع مالا ولا سيما الأنبياء فإنهم كانوا أزهد شىء فى الدنيا (الثالث) أنه قد ثبت فى الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال « لا نورث ، ماتركنا صدقة » وفى رواية عند الترمذى بإسناد صحيح « نحن معشر الأنبياء لانورث » وعلى هذا فتعين حمل قوله (فهب لى من لدنك وليا يرثنى) على ميراث النبوة ولهذا قال(ويرث من آل يعقوب) كقوله (وورث سليمان داود) أى فى النبوة، إذ لو كان فى المال لما خصه من بين إخوته بذلك ولما كان فى الإخبار بذلك كبير فائدة إذ من المعلوم المستقر فى جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها وكل هذا يقرره ويثبته ما صح فى الحديث « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة » قال مجاهد فى قوله (يرثنى ويرث من آل يعقوب) كان وراثته علما وكان زكريا من ذرية يعقوب . وقال هشيم أخبرنا إسماعيل بن أبى خالد عن أبى صالح فى قوله(يرثنى ويرث من آل يعقوب) قال يكون نبيا كما كانت آباؤه أنبياء ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن يرث نبوته وعلمه ، وقال السدى يرث نبوتى ونبوة آل يعقوب وعن مالك عن زيد بن أسلم (ويرث من آل يعقوب)قال نبوتهم وقال جابر بن نوح ويزيد بن هارون كلاهما عن إسماعيل بن أبى خالد عن أبى صالح فى قوله (يرثنى ويرث من آل يعقوب) قال يرث مالى ويرث من آل يعقوب النبوة وهذا اختيار ابن جرير فى تفسيره وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة أن النبى ﷺ قال « يرحم الله زكريا وما كان عليه من وراثة ماله ويرحم الله لوطا إن كان ليأوى إلى ركن شديد » وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا جابر بن نوح عن مبارك هو ابن فضالة عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ « رحم الله أخى زكريا ما كان عليه من وراثة ماله حين قال : هب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب» وهذه مرسلات لا تعارض الصحاح والله أعلم ، وقوله (واجعله رب رضيا) أى مرضيا عندك وعند خلقك تحبه وتحببه إلى خلقك فى دينه وخلقه

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴾

هذا الكلام يتضمن محذوفا وهو أنه أجيب إلى ماسأل فى دعائه فقيل له (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحي) كما قال تعالى (هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحي مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين) وقوله (لم نجعل له من قبل سميا) قال قتادة وابن جريج وابن زيد أى لم يسم أحد قبله بهذا الاسم واختاره ابن جرير رحمه الله وقال مجاهد (لم نجعل له من قبل سميا) أى شبيها أخذه من معنى قوله (فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) أى شبيها وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أى لم تلد العواقر قبله مثله وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لايولد له وكذلك امرأته كانت عاقرا من أول عمرها بخلاف إبراهيم وسارة عليهما السلام فانهما إنما تعجبا من البشارة باسحق لكبرهما لا لعقرهما ولهذا قال (أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون) مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة وقالت امرأته (ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد)

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد ففرح فرحا شديدا وسأل عن كيفية مايولد له والوجه الذى يأتيه منه الولد مع أن امرأته كانت عاقرا لم تلد من أول عمرها مع كبرها ومع أنه قد كبر وعتا أى عسا عظمه ونحل ولم يبق فيه لقاح ولا جماع والعرب تقول للعود إذا يبس عتا يعتو عتيا وعتوا وعسا يعسو عسوا وعسيا ، وقال مجاهد: عتيا يعنى قحول العظم ، وقال ابن عباس وغيره عتيا يعنى الكبر والظاهر أنه أخص من الكبر وقال ابن جرير حدثنا يعقوب حدثنا هشيم أخبرنا حصين عن عكرمة عن ابن عباس قال لقد علمت السنة كلها غير أنى لا أدرى أكان رسول الله ﷺ يقرأ فى الظهر والعصر أم لا ولا أدرى كيف كان يقرأ هذا الحرف (وقد بلغت من الكبر عتيا) أو عسيا ، ورواه الإمام أحمد عن شريح بن النعمان وأبو داود عن زياد بن أيوب كلاهما عن هشيم به (قال) أى الملك مجيبا لزكريا عما استعجب منه (كذلك قال ربك هو على هين) أى إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها (هين) أى يسير سهل على الله ، ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه فقال (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) كما قال تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا)

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن زكريا عليه السلام أنه (قال رب اجعل لى آية) أى علامة ودليلا على وجود ما وعدتنى لتستقر نفسى ويطمئن قلبى بما وعدتنى كما قال إبراهيم عليه السلام (رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) (قال آيتك) أى علامتك (أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) أى أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال وأنت صحيح سوى من غير مرض ولا علة قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ووهب والسدى وقتادة وغير واحد اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة . قال ابن زيد بن أسلم كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة ، وقال العوفى عن ابن عباس (ثلاث ليال سويا أى متتابعات والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح كما قال تعالى فى آل عمران (قال رب اجعل لى آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار) وقال مالك عن زيد بن أسلم (ثلاث ليال سويا) من غير خرس وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم

الناس فى هذه الليالى الثلاث وأيامها (إلا رمزاً) أى إشارة ولهذا قال فى هذه الآية الكريمة (فخرج على قومه من المحراب) أى الذى بشر فيه بالولد (فأوحى إليهم) أى أشار إشارة خفية سريعة (أن سبحوا بكرة وعشيا) أى موافقة له فيما أمر به فى هذه الأيام الثلاثة زيادة على اعماله شكراً لله على ما أولاه . قال مجاهد (فأوحى إليهم) أى أشار وبه قال وهب وقتادة ، وقال مجاهد فى رواية عنه (فأوحى إليهم) أى كتب لهم فى الأرض وكذا قال السدى :

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾

وهذا أيضاً تضمن محذوفا تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به وهو يحي عليه السلام وأن الله علمه الكتاب وهو التوراة التى كانوا يتدارسونها بينهم ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً فلهذا نوه بذكره وبما أنعم به عليه وعلى والديه فقال (يا يحي خذ الكتاب بقوة) أى تعلم الكتاب بقوة أى بجد وحرص واجتهاد (وآتيناه الحكم صبيا) أى الفهم والعلم والجد والعزم والاقبال على الخير والاكباب عليه والاجتهاد فيه وهو صغير حدث قال عبد الله بن المبارك قال معمر قال الصبيان ليحي بن زكريا اذهب بنا نلعب فقال ماللعب خلقنا قال فلهذا أنزل الله (وآتيناه الحكم صبيا) وقوله (وحناناً من لدنا) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وحناناً من لدنا) يقول ورحمة من عندنا وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك وزاد لا يقدر عليها غيرنا وزاد قتادة رحم الله بها زكريا وقال مجاهد (وحناناً من لدنا) وتعطفا من ربه عليه وقال عكرمة (وحناناً من لدنا) قال محبة عليه وقال ابن زيد أما الحنان فالمحبة ، وقال عطاء بن أبى رباح (وحناناً من لدنا) قال تعظما من لدنا وقال ابن جريج أخبرنى عمرو بن دينار أنه سمع عكرمة عن ابن عباس أنه قال لا والله ما أدرى ماحنانا وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن منصور سألت سعيد بن جبير عن قوله (وحناناً من لدنا) فقال سألت عنها ابن عباس فلم يجد فيها شيئا والظاهر من السياق أن قوله وحنانا معطوف على قوله (وآتيناه الحكم صبيا) أى وآتيناه الحكم وحنانا وزكاة أى وجعلناه ذا حنان وزكاة فالحنان هو المحبة فى شفقة وميل كما تقول العرب حنت الناقة على ولدها وحنت المرأة على زوجها ومنه سميت المرأة حنة من الحنية وحن الرجل إلى وطنه ومنه التعطف والرحمة كما قال الشاعر :

تعطف علىّ هداك المليك * فان لكل مقام مقالا

وفى المسند للامام أحمد عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « يبقى رجل فى النار ينادى ألف سنة ياحنان يا منان » وقد يثنى ومنهم من يجعل ما ورد من ذلك لغة بذاتها كما قال طرفة:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا * حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وقوله وزكاة معطوف على وحنانا فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب ، وقال قتادة الزكاة العمل الصالح ، وقال الضحاك وابن جريج العمل الصالح الزكى ، وقال العوفى عن ابن عباس (وزكاة) قال بركة (وكان تقيا) طهر فلم يعمل بذنب ، وقوله (وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا) لما ذكر تعالى طاعته لربه وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما ومجانبته عقوقهما قولا وفعلا أمرا ونهيا ولهذا قال (ولم يكن جبارا عصيا) ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) أى له الأمان فى هذه الثلاثة الأحوال ، وقال سفيان بن عيينة أوحش ما يكون المرء فى ثلاثة مواطن يوم يولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه ويوم يموت فيرى قوما لم يكن عاينهم ويوم يبعث فيرى نفسه فى محشر عظيم قال فأكرم الله فيها يحي بن زكريا فخصه بالسلام عليه فقال (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) رواه ابن جرير عن أحمد بن منصور المروزى عن صدقة بن الفضل عنه ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله (جبارا عصيا) قال كان

ابن المسيب يذكر قال : قال رسول الله ﷺ « ما من أحد يلقى الله يوم القيامة إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا » قال قتادة ما أذنب ولاهم بامرأة ، مرسل وقال محمد بن إسحق عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب حدثني ابن العاص أنه سمع النبي ﷺ قال « كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا » ابن إسحق مدلس وقد عنعن هذا الحديث فالله أعلم ، وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد أخبرنا علي ابن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أوهم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا وما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » وهذا أيضاً ضعيف لأن علي بن زيد بن جدعان له منكرات كثيرة والله أعلم ، وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أن الحسن قال إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا فقال له عيسى استغفر لي أنت خير مني . فقال له الآخر أنت خير مني فقال له عيسى أنت خير مني سلمت على نفسي وسلم الله عليك فعرف والله فضلهما .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكيا طاهرا مباركا عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب فان بين القصتين مناسبة ومشابهة ولهذا ذكرهما في آل عمران وههنا وفي سورة الأنبياء يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه وأنه على مايشاء قادر فقال (واذكر في الكتاب مريم) وهي مريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل ، وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران وأنها نذرتها محررة أي تخدم مسجد بيت المقدس وكانوا يتقربون بذلك (فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا) ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمه فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل والدءوب وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم الذي يرجعون إليه في دينهم ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف وثمر الصيف في الشتاء كما تقدم بيانه في سورة آل عمران فلما أراد الله تعالى وله الحكمة والحجة البالغة أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام (انتبذت من أهلها مكانا شرقيا) أي اعتزلتهم وتنحت عنهم وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس. قال السدي لحيض أصابها ، وقيل لغير ذلك قال أبو كدينة عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس قال إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه وما صرفهم عنه إلا قيل ربك (فانتبذت من أهلها مكانا شرقيا) قال خرجت مريم مكانا شرقيا فصلوا قبل مطلع الشمس رواه ابن أبي حاتم وابن جرير . وقال ابن جرير أيضاً حدثنا إسحق بن شاهين حدثنا خالد بن عبدالله عن داود عن عامر عن ابن عباس قال : إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى الشرق قبلة لقول الله تعالى (فانتبذت من أهلها مكانا شرقيا) واتخذوا ميلاد عيسى قبلة ، وقال قتادة (مكانا شرقيا) شاسعا متنحيا ، وقال محمد بن إسحق ذهبت بقلتها لتستقي الماء، وقال نوف البكالي اتخذت لها منزلا تتعبد فيه فالله أعلم وقوله (فاتخذت من دونهم حجابا) أي استترت منهم وتوارت فأرسل

الله تعالى إليها جبريل عليه السلام (فتمثل لها بشراً سويا) أي على صورة إنسان تام كامل ، قال مجاهد والضحاك وقتادة وابن جريج ووهب بن منبه والسدي في قوله (فأرسلنا إليها روحنا) يعني جبرائيل عليه السلام وهذا الذي قالوه هو ظاهر القرآن فانه تعالى قد قال في الآية الأخرى (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال إن روح عيسى عليه السلام من جملة الأرواح التي أخذ عليها العهد في زمان آدم عليه السلام وهو الذي تمثل لها بشراً سويا أي روح عيسى فحملت الذي خاطبها وحل في فيها وهذا في غاية الغرابة والنكارة وكأنه إسرائيلي (قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) أي لما تبدى لها الملك في صورة بشر وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب خافته وظنت أنه يريدها على نفسها فقالت (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) أي إن كنت تخاف الله تذكيرا له بالله وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل فخوفته أولا بالله عز وجل. قال ابن جرير حدثني أبو كريب حدثنا أبو بكر عن عاصم قال : قال أبو وائل وذكر قصة مريم فقال قد علمت أن التقى ذو نهية حين قالت (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك) أي فقال لها الملك مجيبا لها ومزيلا لما حصل عندها من الخوف على نفسها لست مما تظنين ولكني رسول ربك أي بعثني الله إليك ، ويقال إنها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريل فرقا وعاد إلى هيئته وقال (إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاما زكيا) هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء أحد مشهوري القراء ، وقرأ الآخرون (لأهب لك غلاما زكيا) وكلا القراءتين له وجه حسن ومعنى صحيح وكل تستلزم الأخرى (قالت أنى يكون لي غلام) أي فتعجبت مريم من هذا وقالت كيف يكون لي غلام أي على أي صفة يوجد هذا الغلام مني ولست بذات زوج ولا يتصور مني الفجور ولهذا قالت (ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا) والبغي هي الزانية ولهذا جاء في الحديث النهي عن مهر البغي (قال كذلك قال ربك هو علي هين) أي فقال لها الملك مجيبا لها عما سألت إن الله قد قال إنه سيوجد منك غلاما وإن لم يكن لك بعل ولا يوجد منك فاحشة فانه على ما يشاء قادر ولهذا قال (ولنجعله آية للناس) أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوع في خلقهم فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثى وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه وقوله (ورحمة منا) أي ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده كما قال تعالى في الآية الأخرى (إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين) أي يدعو إلى عبادة ربه في مهده وكهولته قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الرحيم بن إبراهيم حدثنا مروان حدثنا العلاء بن الحارث الكوفي عن مجاهد قال : قالت مريم عليها السلام كنت إذا خلوت حدثني عيسى وكلمني وهو في بطني وإذا كنت مع الناس سبح في بطني وكبر ، وقوله (وكان أمراً مقضيا) يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدره ومشيئته ، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفخ في فرجها كما قال تعالى (ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) وقال (والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا) قال محمد بن إسحق (وكان أمراً مقضيا) أي إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد ، واختار هذا أيضاً ابن جرير في تفسيره ولم يحك غيره والله أعلم.

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ماقال إنها استسلمت لقضاء الله تعالى فذكر غير

واحد من علماء السلف أن الملك وهو جبرائيل عليه السلام عند ذلك نفخ فى جيب درعها فنزلت النفخة حتى ولجت فى الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى ، فلما حملت به ضاقت ذرعا ولم تدر ماذا تقول للناس فانها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به غير أنها أفشت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا . وذلك أن زكريا عليه السلام كان قد سأل الله الولد فأجيب إلى ذلك . فحملت امرأته فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتنقتها وقالت أشعرت يامريم أنى حبلى ؟ فقالت لها مريم وهل علمت أيضا أنى حبلى وذكرت لها شأنها وما كان من خبرها وكانوا بيت إيمان وتصديق ثم كانت امرأة زكريا بعد ذلك إذا واجهت مريم تجد الذى فى بطنها يسجد للذى فى بطن مريم أى يعظمه ويخضع له فان السجود كان فى ملتهم عند السلام مشروعا كما سجد ليوسف أبواه وإخوته وكما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم عليه السلام ولكن حرم فى ملتنا هذه تكميلا لتعظيم جلال الرب تعالى ، قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين قال قرىء على الحارث ابن مسكين وأنا أسمع أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم قال : قال مالك رحمه الله بلغنى أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام ابنا خالة وكان حملهما جميعا معا فبلغنى أن أم يحيى قالت لمريم إنى أرى أن ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك قال مالك أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام لأن الله جعله يحيى الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ثم اختلف المفسرون فى مدة حمل عيسى عليه السلام فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر وقال عكرمة ثمانية أشهر قال ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر وقال ابن جريج أخبرنى المغيرة بن عتبة بن عبد الله الثقفى سمع ابن عباس وسئل عن حمل مريم قال لم يكن إلا أن حملت فوضعت وهذا غريب وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى (فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة) فالفاء وإن كانت للتعقيب لكن تعقيب كل شىء بحسبه كقوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما) فهذه الفاء للتعقيب بحسبها . وقد ثبت فى الصحيحين أن بين كل صفتين أربعين يوما وقال تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة) فالمشهور الظاهر والله على كل شىء قدير أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل بها وكان معها فى المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس يقال له يوسف النجار فلما رأى ثقل بطنها وكبره أنكر ذلك من أمرها ثم صرفه مايعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها ثم تأمل ماهى فيه فجعل أمرها يجوس فى فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه ، فحمل نفسه على أن عرض لها فى القول فقال يامريم إنى سائلك عن أمر فلا تعجلى على . قالت وما هو ؟ قال هل يكون قط شجر من غير حب وهل يكون زرع من غير بذر وهل يكون ولد من غير أب . فقالت نعم وفهمت ما أشار اليه . أما قولك هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر فان الله قد خلق الشجر والزرع أول ماخلقهما من غير حب ولا بذر وهل يكون ولد من غير أب فان الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم فصدقها وسلم لها حالها ، ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة انتبذت منهم مكانا قصيا أى قاصيا منهم بعيدا عنهم لئلا تراهم ولا يروها ، قال محمد بن إسحق : فلما حملت به وملأت قلتها ورجعت استمسك عنها الدم وأصابها مايصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحم وتغير اللون حتى فطر لسانها فما دخل على أهل بيت مادخل على آل زكريا وشاع الحديث فى بنى إسرائيل فقالوا إنما صاحبها يوسف ولم يكن معها فى الكنيسة غيره وتوارت من الناس واتخذت من دونهم حجابا فلا يراها أحد ولا تراه ، وقوله (فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة) أى فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة فى المكان الذى تنحت اليه وقد اختلفوا فيه فقال السدى كان شرقى محرابها الذى تصلى فيه من بيت المقدس ، وقال وهب بن منبه ذهبت هاربة فلما كانت بين الشام وبلاد مصر ضربها الطلق ، وفى رواية عن وهب كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس فى قرية هناك يقال لها بيت لحم ، قلت وقد تقدم فى أحاديث الاسراء من رواية النسائى عن أنس رضى الله عنه والبيهقى عن شداد بن أوس رضى الله عنه أن ذلك ببيت لحم فالله أعلم وهذا هو المشهور الذى تلقاه الناس بعضهم عن بعض ولا يشك فيه النصارى أنه ببيت لحم وقد تلقاه الناس وقد ورد به الحديث إن صح ، وقوله تعالى إخبارا عنها (قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) فيه دليل على جواز تمنى الموت عند

الفتنة فانها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذى لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ولا يصدقونها فى خبرها وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية فقالت (ياليتنى مت قبل هذا) أى قبل هذا الحال (وكنت نسيامنسيا) أى لم أخلق ولم أك شيئا قاله ابن عباس ، وقال السدى قالت وهى تطلق من الحبل استحياء من الناس ياليتنى مت قبل هذا الكرب الذى أنا فيه والحزن بولادتى المولود من غير بعل (وكنت نسيا منسيا) نسى فترك طلبه كخرق الحيض إذا ألقيت وطرحت لم تطلب ولم تذكر وكذلك كل شىء نسى وترك فهو نسى ، وقال قتادة (وكنت نسيا منسيا) أى شيئا لا يعرف ولا يذكر ولا يدرى من أنا ، وقال الربيع بن أنس (وكنت نسيامنسيا) هو السقط ، وقال ابن زيد لم أكن شيئا قط ، وقدقدمنا الأحاديث الدالة على النهى عن تمنى الموت إلا عند الفتنة عند قوله (توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين)

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾

قرأ بعضهم من تحتها بمعنى الذى تحتها ، وقرأ الآخرون من تحتها على أنه حرف جر ، واختلف المفسرون فى المراد بذلك من هو ؟ فقال العوفى وغيره عن ابن عباس (فناداها من تحتها) جبريل ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها ، وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وعمرو بن ميمون والسدى وقتادة: إنه الملك جبرائيل عليه الصلاة والسلام أى ناداها من أسفل الوادى ، وقال مجاهد (فناداها من تحتها) قال عيسى بن مريم وكذا قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: قال الحسن هو ابنها وهو إحدى الروايتين عن سعيد بن جبير أنه ابنها قال أو لم تسمع الله يقول (فأشارت إليه) واختاره ابن زيد وابن جرير فى تفسيره ، وقوله (أن لا تحزنى) أى ناداها قائلا لا تحزنى (قد جعل ربك تحتك سريا) قال سفيان الثورى وشعبة عن أبى إسحق عن البراء بن عازب (قد جعل ربك تحتك سريا) قال الجدول وكذا قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: السرى النهر ، وبه قال عمرو بن ميمون نهر تشرب منه ، وقال مجاهد هو النهر بالسريانية ، وقال سعيد بن جبير السرى النهر الصغير بالنبطية ، وقال الضحاك هو النهر الصغير بالسريانية ، ، وقال إبراهيم النخعى هو النهر الصغير وقال قتادة هو الجدول بلغة أهل الحجاز ، وقال وهب بن منبه . السرى هو ربيع الماء ، وقال السدى هو النهر واختار هذا القول ابن جرير وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع فقال الطبرانى حدثنا أبو شعيب الحرانى حدثنا يحي بن عبد الله البابلى حدثنا أيوب بن نهيك سمعت عكرمة مولى ابن عباس سمعت ابن عمر يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن السرى الذى قال الله لمريم (قد جعل ربك تحتك سريا) نهر أخرجه الله لتشرب منه » وهذا حديث غريب جدا من هذا الوجه . وأيوب بن نهيك هذا هو الحبلى قال فيه أبو حاتم الرازى ضعيف . وقال أبو زرعة : منكر الحديث وقال أبو الفتح الأزدى : متروك الحديث ، وقال آخرون المراد بالسرى عيسى عليه السلام وبه قال الحسن والربيع بن أنس ومحمد بن عباد بن جعفر وهو إحدى الروايتين عن قتادة وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم والقول الأول أظهر ولهذا قال بعده (وهزى إليك بجذع النخلة) أى وخذى إليك بجذع النخلة ، قيل كانت يابسة قاله ابن عباس وقيل مثمرة قال مجاهد كانت عجوة ، وقال الثورى عن أبى داود نفيع الأعمى كانت صرفانة والظاهر أنها كانت شجرة ولكن لم تكن فى إبان ثمرها قاله وهب بن منبه ولهذا امتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعاما وشرابا فقال (تساقط عليك رطبا جنيا * فكلى واشربى وقرى عينا) أى طيبى نفسا ولهذا قال عمرو بن ميمون : ما من شىء خير للنفساء من التمر والرطب ثم تلا هذه الآية الكريمة وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا شيبان حدثنا مسرور بن سعيد التميمى حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى عن عروة بن رويم عن على بن أبى طالب قال : قال رسول الله ﷺ « أكرموا

عمتكم النخلة فانها خلقت من الطين الذى خلق منه آدم عليه السلام وليس من الشجر شىء يلقح غيرها وقال رسول الله ﷺ « أطعموا نساءكم الولد الرطب فان لم يكن رطب فتمر وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران » هذا حديث منكر جدا ورواه أبو يعلى عن شيبان به ، وقرأ بعضهم (تساقط) بتشديد السين وآخرون بتخفيفها ، وقرأ أبو نهيك (تسقط عليك رطبا جنيا) وروى أبو إسحق عن البراء أنه قرأها (يساقط) أى الجذع والكل متقارب

وقوله (فأما ترين من البشر أحدا) أى مهما رأيت من أحد (فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا) المراد بهذا القول الاشارة إليه بذلك لا أن المراد به القول اللفظى لئلا ينافى (فلن أكلم اليوم إنسيا) قال أنس بن مالك فى قوله (إنى نذرت للرحمن صوما) قال: صمتا وكذا قال ابن عباس والضحاك وفى رواية عن أنس صوما وصمتا وكذا قال قتادة وغيرهما ، والمراد أنهم كانوا إذا صاموا فى شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام ، نص على ذلك السدى وقتادة وعبد الرحمن بن زيد . قال ابن إسحق عن حارثة قال: كنت عند ابن مسعود فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر فقال ما شأنك؟ قال أصحابه حلف أن لا يكلم الناس اليوم فقال عبد الله بن مسعود كلم الناس وسلم عليهم فان تلك امرأة علمت أن أحدا لا يصدقها أنها حملت من غير زوج ، يعنى بذلك مريم عليها السلام ليكون عذرا لها إذا سئلت ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير رحمهما الله وقال عبد الرحمن بن زيد لما قال عيسى لمريم (لا تحزنى) قالت وكيف لا أحزن وأنت معى لا ذات زوج ولا مملوكة أى شىء عذرى عند الناس؟ ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا قال لها عيسى أنا أكفيك الكلام (فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا) قال هذا كله من كلام عيسى لأمه وكذا قال وهب

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا * يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا * وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا * وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك وأن لا تكلم أحدا من البشر فانها ستكفى أمرها ويقام بحجتها فسلمت لأمر الله عز وجل واستسلمت لقضائه فأخذت ولدها فأتت به قومها تحمله فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جدا وقالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا أى أمرا عظيما قاله مجاهد وقتادة والسدى وغير واحد وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن أبى زياد حدثنا شيبان حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا أبو عمران الجونى عن نوف البكالى قال وخرج قومها فى طلبها قال وكانت من أهل بيت نبوة وشرف فلم يحسوا منها شيئا فلقوا راعى بقر فقالوا رأيت فتاة كذا وكذا نعتها قال لا ولكنى رأيت الليلة من بقرى ما لم أره منها قط قالوا وما رأيت قال رأيتها الليلة تسجد نحو هذا الوادى . قال عبد الله بن أبى زياد وأحفظ عن شيبان أنه قال رأيت نوراً ساطعاً فتوجهوا حيث قال لهم فاستقبلتهم مريم فلما رأتهم قعدت وحملت ابنها فى حجرها فجاءوا حتى قاموا عليها (وقالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا) أمرا عظيما (يا أخت هرون) أى ياشبيهة هرون فى العبادة (ماكان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) أى أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة فكيف صدر هذا منك قال على ابن أبى طلحة والسدى قيل لها (يا أخت هرون) أى أخى موسى وكانت من نسله كما يقال للتميمى يا أخا تميم وللمضرى يا أخا مضر وقيل نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون فكانت تقاس به فى الزهادة والعبادة وحكى ابن جرير

عن بعضهم أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم يقال له هرون . ورواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير وأغرب من هذا كله مارواه ابن أبي حاتم حدثنا على بن الحسين الهجستانى حدثنا ابن أبي مريم حدثنا المفضل يعنى ابن أبي فضالة حدثنا أبو صخر عن القرظى فى قول الله عزوجل (يا أخت هرون) قال هى أخت هرون لأبيه وأمه وهى أخت موسى أخى هرون التى قصت أثر موسى (فبصرت به عن جنب وهم لايشعرون) وهذا القول خطأ محض فان الله تعالى قد ذكر فى كتابه أنه قفى بعيسى بعد الرسل فدل على أنه آخر الأنبياء بعثا وليس بعده إلا محمد صلوات الله وسلامه عليهما ولهذا ثبت فى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بينى وبينه نبى » ولو كان الأمر كما زعم محمد بن كعب القرظى لم يكن متأخرا عن الرسل سوى محمد ولكان قبل سليمان وداود فان الله قد ذكر أن داود بعد موسى عليهما السلام فى قوله تعالى (ألم تر إلى الملا من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله) وذكر القصة إلى أن قال (وقتل داود جالوت) الآية والذى جرأ القرظى على هذه المقالة ما فى التوراة بعد خروج موسى وبنى إسرائيل من البحر وإغراق فرعون وقومه قال وقامت مريم بنت عمران أخت موسى وهرون النبيين تضرب بالدف هى والنساء معها يسبحن الله ويشكرنه على ما أنعم به على بنى إسرائيل فاعتقد القرظى أن هذه هى أم عيسى وهذه هفوة وغلطة شديدة بل هى باسم هذه وقد كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم كما قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن إدريس سمعت أبى يذكره عن سماك عن علقمة بن وائل عن المغيرة بن شعبة قال بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نجران فقالوا أرأيت ماتقرءون (يا أخت هرون) وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ قال فرجعت فذكرت ذلك رسول الله ﷺ فقال « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم » انفرد باخراجه مسلم والترمذى والنسائى من حديث عبدالله بن إدريس عن أبيه عن سماك به ، وقال الترمذى حسن صحيح غريب لانعرفه إلا من حديث ابن إدريس ، وقال ابن جرير حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية عن سعيد بن أبى صدقة عن محمد بن سيرين قال أنبئت أن كعبا قال إن قوله (يا أخت هرون) ليس بهرون أخى موسى قال فقالت له عائشة كذبت قال يا أم المؤمنين إن كان النبى ﷺ قاله فهو أعلم وأخبر وإلا فانى أجد بينهما ستمائة سنة قال فسكتت وفى هذا التاريخ نظر .

وقال ابن جرير أيضا حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قوله (يا أخت هرون) الآية قال كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به وكان هرون مصلحا محببا فى عشيرته وليس بهرون أخى موسى ولكنه هرون آخر قال وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفا كلهم يسمى هرون من بنى إسرائيل ، وقوله (فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) أى أنهم لما استرابوا فى أمرها واستنكروا قضيتها وقالوا لها ماقالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة فأحالت الكلام عليه وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه فقالوا متهكمين بها ظانين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم (كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) قال ميمون بن مهران (فأشارت إليه) قالت كلموه فقالوا على ماجاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان فى المهد صبيا : وقال السدى لما (أشارت إليه) غضبوا وقالوا لسخريتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هذا الصبى أشد علينا من زناها (قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) أى من هو موجود فى مهده فى حال صباه وصغره كيف يتكلم ؟ قال إنى عبدالله ، أول شىء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد ، وأثبت لنفسه العبودية لربه وقوله (آتانى الكتاب وجعلنى نبيا) تبرئة لأمه مما نسبت اليه من الفاحشة قال نوف البكالى لما قالوا لأمه ماقالوا كان يرتضع ثديه فنزع الثدى من فمه واتكأ على جنبه الأيسر وقال (إنى عبدالله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا — إلى قوله — مادمت حيا) وقال حماد بن سلمة عن ثابت البنانى رفع أصبعه السبابة فوق منكبه وهو يقول (إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا) الآية ، وقال عكرمة (آتانى الكتاب) أى قضى أنه يؤتينى الكتاب فيما قضى ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن المصفى حدثنا يحيى بن سعيد

هو العطار عن عبد العزيز بن زياد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال كان عيسى بن مريم قد درس التوراة وأحكمها وهو في بطن أمه فذلك قوله (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا) يحيى بن سعيد العطار الحمصى متروك وقوله (وجعلني مباركا أينما كنت) قال مجاهد وعمرو بن قيس والثورى وجعلني معلما للخير وفي رواية عن مجاهد نفاعا وقال ابن جرير حدثني سليمان بن عبد الجبار حدثنا محمد بن يزيد بن خنيس المخزومى سمعت وهيب بن الورد مولى بنى مخزوم قال لقى عالم عالما هو فوقه فى العلم فقال له يرحمك الله ما الذى أعلن من عملى ؟ قال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فانه دين الله الذى بعث به أنبياءه إلى عباده ، وقد أجمع الفقهاء على قول الله (وجعلني مباركا أينما كنت) وقيل ما بركته ؟ قال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أينما كان وقوله (وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا) كقوله تعالى لمحمد ﷺ (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) . وقال عبد الرحمن بن القاسم عن مالك بن أنس فى قوله (وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا) قال أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت . ما أثبتها لأهل القدر . وقوله (وبرا بولدتى) أى وأمرنى ببر والدتى ذكره بعد طاعة ربه لأن الله تعالى كثيرا ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين كما قال تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) وقال (أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير) وقوله (ولم يجعلني جبارا شقيا) أى ولم يجعلني جبارا مستكبرا عن عبادته وطاعته وبر والدتى فأشقى بذلك : قال سفيان الثورى الجبار الشقى الذى يقتل على الغضب ، وقال بعض السلف لا تجد أحدا عاقا لوالديه إلا وجدته جبارا شقيا ثم قرأ (وبرا بوالدتى ولم يجعلني جبارا شقيا) قال ولا تجد سيء الملكة إلا وجدته مختالا فخورا ثم قرأ (وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) ، وقال قتادة ذكر لنا أن امرأة رأت ابن مريم يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص فى آيات سلطه الله عليهن وأذن له فيهن فقالت طوبى للبطن الذى حملك وطوبى للثدى الذى أرضعت به فقال نبي الله عيسى عليه السلام يجيبها طوبى لمن تلا كتاب الله فاتبع مافيه ولم يكن جبارا شقيا وقوله (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) إثبات منه لعبوديته لله عز وجل وأنه مخلوق من خلق الله يحيى ويميت ويبعث كسائر الخلائق ولكن له السلامة فى هذه الأحوال التى هى أشق ما يكون على العباد صلوات الله وسلامه عليه

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ذلك الذى قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام (قول الحق الذى فيه يمترون) أى يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به ولهذا قرأ الأكثرون قول الحق برفع قول وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر قول الحق ، وعن ابن مسعود أنه قرأ ذلك عيسى بن مريم قال الحق والرفع أظهر إعرابا ويشهد له قوله تعالى (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبدا نبيا نزه نفسه المقدسة فقال (ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه) أى عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علوا كبيرا (إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) أى إذا أراد شيئا فإنما يأمر به فيصير كما يشاء كما قال (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين) وقوله (وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) أى ومما أمر به عيسى قومه وهو فى مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم وأمرهم بعبادته فقال (فاعبدوه هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى جئتكم به عن الله صراط مستقيم أى قويم من اتبعه رشد وهدى ومن خالفه ضل وغوى . وقوله (فاختلف الأحزاب من بينهم) أى اختلف قول أهل الكتاب فى عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فصممت طائفة منهم وهم جمهور اليهود عليهم لعائن الله على

أنه ولد زنية ، وقالوا كلامه هـذا سحر ، وقالت طائفة أخرى إنما تـكلم الله وقال آخرون بن هو ابن الله ، وقال آخرون ثالث ثلاثة وقال آخرون بل هو عبد الله ورسوله وهذا هو قول الحق الذى أرشـد الله اليه المؤمنين ، وقد روى نحو هذا عن عمرو بن ميمون وابن جريج وقتادة وغير واحد من السلف والخلف . قال عبدالرزاق أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون) قال اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر أخرج كل قوم عالمهم فامتروا فى عيسى حـين رفع فقال بعضهم هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية فقال الثلاثة كذبت ثم قال اثنان منهم للثالث قـل أنت فيه قال هو ابن الله وهم النسطورية فقال الاثنان كذبت ثم قال أحد الاثنين للآخر قل فيه فقال هو ثالث ثلاثة الله إله وهو إله وأمه إله وهم الاسرائيلية ملوك النصارى عليهم لعائن الله . قال الرابع كذبت بل هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته وهم المسلمون . فـكان لـكل رجل منهم أتباع على ماقالوا فاقتتلوا وظهر على المسلمين ، وذلك قول الله تعالى (ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) قال قتادة وهم الذين قال الله (فاختلف الأحزاب من بينهم) قال اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً ، وقد روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس وعن عروة بن الزبير عن بعض أهل العلم قريباً من ذلك ، وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الـكتاب وغيرهم أن قسطنطين جمعهم فى محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم فـكان جماعة الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفاً فاختلفوا فى عيسى بن مريم عليه السـلام اختلافا متباينا جداً فقالت كل شرذمة فيه قولا فمائة تقول فيه شيئاً وسبعون تقول فيه قولا آخر وخمسون تقول شيئاً آخر ومائة وسـتون تقول شيئاً ولم يجتمع على مقالة واحـدة أكثر من ثلثمائة وثمانية منهم اتفقوا على قول وصمموا عليه فمـال إليهم الملك وكان فيلسوفا فقدمهم ونصرهم وطرد من عداهم فوضعوا له الأمانة الـكبيرة بل هى الخيانة العظيمة ووضعوا له كتب القوانين وشرعوا له أشياء وابتدعوا بدعا كثيرة وحرفوا دين المسيح وغيروه فابتنى لهم حينئذ الـكنائس الـكبار فى مملـكته كلها بلاد الشام والجزيرة والروم فـكان مبلغ الـكنائس فى أيامه ما يقارب اثنى عشر ألف كنيسة وبنت أمه هيلانة قمامة على المـكان الذى صلب فيه المصلوب الذى يزعم اليهود أنه المسيح وقد كذبوا بل رفعه الله إلى السماء وقوله (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) تهديد ووعيد شـديد لمن كذب على الله وافترى وزعم أن له ولداً ولـكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم حلماً وثقة بقدرته عليهم فانه الذى لا يعجل على من عصاه كما جاء فى الصحيحين « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شـديد) وفى الصحيحين أيضاً عن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم أنه قال « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم » وقد قال الله تعالى (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىّ المصير) وقال تعالى (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) ولهذا قال ههنا (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) أى يوم القيامة ، وقد جاء فى الحديث الصحيح المتفق على صحته عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل »

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ * وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى مخـبراً عن الـكفار يوم القيامة إنهم يكونون أسمع شىء وأبصره كما قال تعالى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا) الآية أى يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدى عنهم شيئاً ولو كان

هذا قبل معاينة العذاب لكان نافعا لهم ومنقذا من عذاب الله ولهذا قال (أسمع بهم وأبصر) أى ما أسمعهم وأبصرهم (يوم يأتوننا) يعنى يوم القيامة (لكن الظالمون اليوم) أى فى الدنيا (فى ضلال مبين) أى لايسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون فحيث يطلب منهم الهدى لايهتدون ويكونون مطيعين حيث لاينفعهم ذلك ثم قال تعالى (وأنذرهم يوم الحسرة) أى أنذر الخلائق يوم الحسرة (إذ قضى الأمر) أى فصل بين أهل الجنة وأهل النار وصار كل إلى ماصار إليه مخلدا فيه (وهم) أى اليوم (فى غفلة) عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة (وهم لايؤمنون) أى لايصدقون به. قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت - قال - فيقال يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت - قال - فيؤمر به فيذبح قال ويقال يا أهل الجنة خلود ولاموت ويا أهل النار خلود ولا موت» ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لايؤمنون) وأشار بيده ثم قال «أهل الدنيا فى غفلة الدنيا» هكذا رواه الإمام أحمد وقد خرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث الأعمش به ولفظهما قريب من ذلك، وقد روى هذا الحديث الحسن بن عرفة حدثنى أسباط ابن محمد عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة مرفوعا مثله، وفى سنن ابن ماجه وغيره من حديث محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة نحوه وهو فى الصحيحين عن ابن عمر ورواه ابن جريج قال: قال ابن عباس فذكر من قبله نحوه، ورواه أيضا عن أبيه أنه سمع عبيد بن عمير يقول فى قصصه يؤتى بالموت كأنه دابة فيذبح والناس ينظرون، وقال سفيان الثورى عن سلمة بن كهيل حدثنا أبو الزعراء عن عبدالله هو ابن مسعود فى قصة ذكرها قال فليس نفس إلا وهى تنظر إلى بيت فى الجنة وبيت فى النار وهو يوم الحسرة فيرى أهل النار البيت الذى فى الجنة ويقال لهم لو علمتم فتأخذهم الحسرة قال ويرى أهل الجنة البيت الذى فى النار فيقال لهم لولا أن الله من عليكم، وقال السدى عن زياد عن زر بن حبيش عن ابن مسعود فى قوله (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر) قال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أتى بالموت فى صورة كبش أملح حتى يوقف بين الجنة والنار ثم ينادى مناد يا أهل الجنة هذا الموت الذى كان يميت الناس فى الدنيا فلا يبقى أحد فى أهل عليين ولا فى أسفل درجة فى الجنة إلا نظر اليه ثم ينادى مناد يا أهل النار هذا الموت الذى كان يميت الناس فى الدنيا فلا يبقى أحد فى ضحضاح من نار ولا فى أسفل درك من جهنم إلا نظر إليه ثم يذبح بين الجنة والنار ثم ينادى يا أهل الجنة هو الخلود أبد الآبدين ويا أهل النار هو الخلود أبد الآبدين فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتا من فرح ماتوا ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتا من شهقة ماتوا فذلك قوله تعالى (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر) يقول إذا ذبح الموت، ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (وأنذرهم يوم الحسرة) من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله (وأنذرهم يوم الحسرة) قال يوم القيامة وقرأ (أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله) وقوله (إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون) يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس ولا أحد يدعى ملكا ولا تصرفا بل هو الوارث لجميع خلقه الباقى بعدهم الحاكم فيهم فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة قال ابن أبى حاتم ذكر هدبة بن خالد القيسى حدثنا حزم بن أبى حزم القطعى قال كتب عمر بن عبدالعزيز إلى عبدالحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة: أما بعد فان الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت فجعل مصيرهم اليه وقال فيما أنزل فى كتابه الصادق الذى حفظه بعلمه وأشهد ملائكته على حفظه انه يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ

لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَـٰنَ إِنَّ الشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا * يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ واذكر فى الكتاب إبراهيم واتل على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذريته ويدعون أنهم على ملته وقد كان صديقا نبيا مع أبيه كيف نهاه عن عبادة الأصنام فقال (يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولايغنى عنك شيئا) أى لاينفعك ولايدفع عنك ضررا (ياأبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك) يقول وإن كنت من صلبك وترانى أصغر منك لأنى ولدك فاعلم أنى قد اطلعت من العلم من الله على مالم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك (فاتبعنى أهدك صراطا سويا) أى طريقا مستقيما موصلا إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب (يا أبت لاتعبد الشيطان) أى لا تطعه فى عبادتك هذه الأصنام فانه هو الداعى إلى ذلك والراضى به كما قال تعالى (ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين) وقال (إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا) وقوله (إن الشيطان كان للرحمن عصيا) أى مخالفا مستكبرا عن طاعة ربه فطرده وأبعده فلا تتبعه تصر مثله (ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) أى على شركك وعصيانك لما آمرك به (فتكون للشيطان وليا) يعنى فلا يكون لك مولى ولا ناصراً ولامغيثاً إلا إبليس وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شىء بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك كما قال تعالى (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم)

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِى مَلِيًّا * قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن جواب أبى إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه انه قال (أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؟) يعنى إن كنت لاتريد عبادتها ولا ترضاها فانته عن سبها وشتمها وعيبها فانك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك وهو قوله (لأرجمنك) قاله ابن عباس والسدى وابن جريج والضحاك وغيرهم، وقوله (واهجرنى مليا) قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن إسحاق يعنى دهرا وقال الحسن البصرى زمانا طويلا وقال السدى (واهجرنى مليا) قال أبداً. وقال على بن أبى طلحة والعوفى عن عباس (واهجرنى مليا) قال سويا سالما قبل أن تصيبك منى عقوبة وكذا قال الضحاك وقتادة وعطية الجدلى وأبومالك وغيرهم واختاره ابن جرير فعندها قال إبراهيم لأبيه (سلام عليك) كما قال تعالى فى صفة المؤمنين (وإذا خاطبهم الجاهلين قالوا سلاما) وقال تعالى (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغى الجاهلون) ومعنى قول إبراهيم لأبيه (سلام عليك) يعنى أما أنا فلا ينالك منى مكروه ولا أذى وذلك لحرمة الأبوة (سأستغفر لك ربى) ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك (إنه كان بى حفيا) قال ابن عباس وغيره لطيفا أى فى أن هدانى لعبادته والاخلاص له. وقال قتادة ومجاهد وغيرهما إنه كان بى حفيا قال عوده الإجابة وقال السدى الحفى الذى يهتم بأمره، وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام فى قوله (ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين فى ابتداء الإسلام وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل فى ذلك حتى أنزل الله تعالى (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ

قالوا لقوامهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله – إلى قوله – إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء) الآية ، يعني إلا في هذا القول فلا تتأسوا به ، ثم بين تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه فقال تعالى (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين – إلى قوله – وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه أن إبراهيم لأواه حليم) وقوله (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي) أي أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله (وأدعو ربي) أي وأعبد ربي وحده لا شريك له (عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا) وعسى هذه موجبة لا محالة فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ

﴿ فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾

يقول تعالى فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله أبدله الله من هو خير منهم ووهب له إسحاق ويعقوب يعني ابنه وابن إسحاق كما قال في الآية الأخرى (ويعقوب نافلة) وقال (ومن وراء إسحاق يعقوب) ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب وهو نص القرآن في سورة البقرة (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق) ولهذا إنما ذكر ههنا إسحاق ويعقوب أي جعلنا له نسلا وعقبا أنبياء أقر الله بهم عينه في حياته ولهذا قال (وكلا جعلنا نبيا) فلو لم يكن يعقوب عليه السلام قد نبيء في حياة إبراهيم لما اقتصر عليه ولذكر ولده يوسف فإنه نبي أيضا كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته حين سئل عن خير الناس فقال « يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن إسحاق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله » وفي اللفظ الآخر « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » وقوله (ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني الثناء الحسن وكذا قال السدي ومالك بن أنس ، وقال ابن جرير إنما قال عليا لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَٰبِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه عطف بذكر الكليم فقال (واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا) قرأ بعضهم بكسر اللام من الإخلاص في العبادة ، قال الثوري عن عبد العزيز بن رفيع عن أبي لبابة قال : قال الحواريون يا روح الله أخبرنا عن المخلص لله قال: الذي يعمل لله لا يحب أن يحمده الناس ، وقرأ الآخرون بفتحها بمعنى أنه كان مصطفى كما قال تعالى (إني اصطفيتك على الناس) (وكان رسول نبيا) جمع الله له بين الوصفين فانه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، وقوله (وناديناه من جانب الطور) أي الجانب (الأيمن) من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة فرآها تلوح فقصدها فوجدها في جانب الطور الأيمن منه غربيه عند شاطيء الوادي فكلمه الله تعالى وناداه وقربه فناجاه ، روى ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا يحيى هو القطان حدثنا سفيان عن عطاء بن يسار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وقربناه نجيا) قال أدني حتى سمع صريف القلم وهكذا قال مجاهد وأبو العالية وغيرهم يعنون صريف القلم بكتابة التوراة وقال السدي (وقربناه نجيا) قال أدخل في السماء فكلم وعن مجاهد نحوه ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (وقربناه نجيا) قال نجا بصدقه ، وروى ابن أبي حاتم حدثنا عبد الجبار بن عاصم حدثنا محمد بن سلمة الحراني عن أبي واصل عن شهر بن حوشب عن عمرو بن معد يكرب قال لما قرب الله موسى نجيا بطور سيناء قال: يا موسى إذا خلقت لك قلبا شاكرا

ولساناً ذاكراً وزوجة تعين على الخير فلم أخزن عنك من الخير شيئا ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئا.
وقوله (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) أى وأجبنا سؤاله وشفاعته فى أخيه فجعلناه نبيا كما قال فى الآية الأخرى (وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون) وقال (قد أوتيت سؤلك ياموسى) وقال (فأرسل إلى هارون ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون) ولهذا قال بعض السلف ما شفع أحد فى أحد شفاعة فى الدنيا أعظم من شفاعة موسى فى هارون أن يكون نبيا قال الله تعالى(ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) قال ابن جرير حدثنا يعقوب حدثنا ابن علية عن داود عن عكرمة قال :قال ابن عباس قوله (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) قال كان هارون أكبر من موسى ولكن أراد وهب له نبوته وقد ذكره ابن أبى حاتم معلقا عن يعقوب وهو ابن إبراهيم الدورقى به .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق الوعد . قال ابن جريج لم يعد ربه عدة إلا أنجزها يعنى ماالتزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ووفاها حقها . وقال ابن جرير حدثنى يونس أنبأنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث أن سهل بن عقيل حدثه أن إسماعيل النبى عليه السلام وعد رجلا مكانا أن يأتيه فيه فجاء ونسى الرجل فظل به إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد فقال ما برحت من ههنا ؟ قال لا قال إنى نسيت قال لم أكن لأبرح حتى تأتينى فلذلك (كان صادق الوعد) وقال سفيان الثورى بلغنى أنه أقام فى ذلك المكان ينتظره حولا حتى جاءه . وقال ابن شوذب بلغنى أنه اتخذ ذلك الموضع مسكنا ، وقد روى أبو داود فى سننه وأبو بكر محمد بن جعفر الخرائطى فى كتابه مكارم الأخلاق من طريق إبراهيم بن طهمان عن عبد الله بن ميسرة عن عبد الكريم يعنى ابن عبد الله بن شقيق عن أبيه عن عبد الله بن أبى الحمساء قال بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث فبقيت له علىّ بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك قال فنسيت يومى والغد فأتيته فى اليوم الثالث وهو فى مكانه ذلك فقال لى « يا فتى لقد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك » لفظ الخرائطى وساق آثارا حسنة فى ذلك ، ورواه ابن منده أبو عبدالله فى كتاب معرفة الصحابة بإسناده عن إبراهيم بن طهمان عن بديل بن ميسرة عن عبدالكريم به وقال بعضهم إنما قيل له (صادق الوعد) لأنه قال لأبيه (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) فصدق فى ذلك ، فصدق الوعد من الصفات الحميدة كما أن خلفه من الصفات الذميمة قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) وقال رسول الله ﷺ « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان » ولما كانت هذه صفات المنافقين كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق الوعد أيضاً لا يعد أحداً شيئاً إلا وفى له به ، وقد أثنى على أبى العاص بن الربيع زوج ابنته زينب فقال « حدثنى فصدقنى ووعدنى فوفى لى » ولما توفى النبى ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أو دين فليأتنى أنجز له فجاء جابر بن عبد الله فقال إن رسول الله ﷺ قال « لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا » يعنى ملء كفيه فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابراً فغرف بيديه من المال ثم أمره بعده فإذا هو خمسمائة درهم فأعطاه مثليها معها، وقوله(وكان رسولا نبيا) فى هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحق لأنه إنما وصف بالنبوة فقط وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة ، وقد ثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل » وذكر تمام الحديث فدل على صحة ما قلناه وقوله (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا) هذا أيضاً من الثناء الجميل والصفة الحميدة والخلة السديدة حيث كان صابراً على طاعة ربه

عز وجل آمراً بها لأهله كما قال تعالى لرسوله (وأمر أهلك الصلاة واصطبر عليها) الآية وقال (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) أي مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر ولا تدعوهم هملا فتأكلهم النار يوم القيامة ، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فان أبت نضح في وجهها الماء . رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فان أبى نضحت في وجهه الماء » أخرجه أبو داود وابن ماجه . وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال « إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه واللفظ له

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾

ذكر إدريس عليه السلام بالثناء عليه بأنه كان صديقاً نبياً وأن الله رفعه مكاناً عليا ، وقد تقدم في الصحيح أن رسول الله ﷺ مر به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة . وقد روى ابن جرير ههنا أثراً غريباً عجيباً فقال حدثني يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أخبرني جرير بن حازم عن سليمان الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال ابن يساف قال سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر فقال له ما قول الله عز وجل لإدريس (ورفعناه مكاناً عليا) فقال كعب أما إدريس فان الله أوحى إليه أني أرفع لك كل يوم مثل عمل جميع بني آدم فأحب أن يزداد عملا فأتاه خليل له من الملائكة فقال له إن الله أوحى إلي كذا وكذا فكلم لي ملك الموت فليؤخرني حتى أزداد عملا فحمله بين جناحيه حتى صعد به إلى السماء فلما كان في السماء الرابعة تلقاهم ملك الموت منحدراً فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس فقال وأين إدريس ؟ فقال هو ذا على ظهري قال ملك الموت العجب بعثت وقيل لي اقبض روح إدريس في السماء الرابعة فجعلت أقول كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض فقبض روحه هناك فذلك قول الله (ورفعناه مكانا عليا) هذا من أخبار كعب الأحبار الاسرائيليات ، وفي بعضه نكارة والله أعلم

وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن ابن عباس أنه سأل كعباً فذكر نحو ما تقدم غير أنه قال لذلك الملك هل لك أن تسأله يعني ملك الموت كم بقي من أجلي لكي أزداد من العمل وذكر باقيه وفيه أنه لما سأله عما بقي من أجله قال لا أدري حتى أنظر فنظر ثم قال إنك تسألني عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين فنظر الملك تحت جناحه فإذا هو قد قبض عليه السلام وهو لا يشعر به ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس أن إدريس كان خياطا فكان لا يغرز إبرة إلا قال سبحان الله فكان يمسي حين يمسي وليس في الأرض أحد أفضل عملا منه وذكر بقيته كالذي قبله أو نحوه وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله (ورفعناه مكانا عليا) قال إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى . وقال سفيان عن منصور عن مجاهد (ورفعناه مكاناً عليا) قال السماء الرابعة وقال العوفي عن ابن عباس (ورفعناه مكانا عليا) قال رفع إلى السماء السادسة فمات بها وهكذا قال الضحاك بن مزاحم وقال الحسن وغيره في قوله (ورفعناه مكانا عليا) قال : الجنة .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾

يقول تعالى هؤلاء النبيون وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط بل جنس الأنبياء عليهم السلام استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس (الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم) الآية قال السدي وابن جرير رحمه الله فالذي عنى به من ذرية آدم إدريس والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح إبراهيم والذي عنى به من ذرية إبراهيم

إسحق ويعقوب وإسماعيل والذى عنى به من ذرية إسرائيل موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم ، قال ابن جرير ولذلك فرق أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح فى السفينة وهو إدريس فانه جد نوح (قلت) هذا هو الأظهر أن إدريس فى عمود نسب نوح عليهما السلام ، وقد قيل إنه من أنبياء بنى إسرائيل أخذا من حديث الإسراء حيث قال فى سلامه على النبي صلى الله عليه وسلم مرحبا بالنبى الصالح والأخ الصالح ولم يقل والولد الصالح كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام . وروى ابن أبى حاتم حدثنا يونس أنبأنا ابن وهب أخبرنى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن عبد الله بن عمر أن إدريس أقدم من نوح فبعثه الله إلى قومه فأمرهم أن يقولوا لا إله إلا الله ويعملوا ما شاءوا فأبوا فأهلكهم الله عز وجل ، ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء أنها كقوله تعالى فى سورة الأنعام (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * - إلى قوله - أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وقال سبحانه وتعالى (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) وفى صحيح البخارى عن مجاهد أنه سأل ابن عباس أفى ص سجدة ؟ فقال نعم ثم تلا هذه الآية (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) فنبيكم ممن أمر أن يقتدى بهم قال وهو منهم يعنى داود . وقال الله تعالى فى هذه الآية الكريمة (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) أى إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعا واستكانة حمدا وشكرا على ما هم فيه من النعم العظيمة ، والبكى جمع باك فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعا لمنوالهم . قال سفيان الثورى عن الأعمش عن إبراهيم عن أبى معمر قال قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه سورة مريم فسجد وقال هذا السجود فأين البكى يريد البكاء . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير وسقط من روايته ذكر أبى معمر فيما رأيت فالله أعلم

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله وأوامره المؤدين فرائض الله التاركين لزواجره ، ذكر أنه (خلف من بعدهم خلف) أى قرون أخر (أضاعوا الصلاة) وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد ، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها فهؤلاء سيلقون غيا أى خسارا يوم القيامة ، وقد اختلفوا فى المراد بإضاعة الصلاة ههنا فقال قائلون المراد بإضاعتها تركها بالكلية قاله محمد بن كعب القرظى وابن زيد بن أسلم والسدى واختاره ابن جرير ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد ، وقول عن الشافعى إلى تكفير تارك الصلاة للحديث « بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة » والحديث الآخر « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » وليس هذا محل بسط هذه المسألة . وقال الأوزاعى عن موسى بن سليمان عن القاسم بن مخيمرة فى قوله (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة) قال إنما أضاعوا المواقيت ولو كان تركا كان كفرا . وقال وكيع عن المسعودى عن القاسم بن عبد الرحمن والحسن بن سعيد عن ابن مسعود أنه قيل له إن الله يكثر ذكر الصلاة فى القرآن (الذين هم عن صلاتهم ساهون) و (على صلاتهم دائمون) و (على صلاتهم يحافظون) فقال ابن مسعود على مواقيتها . قالوا ما كنا نرى ذلك إلا على الترك قال ذلك الكفر ، قال مسروق لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين ، وفى

إفراطهن الملكة وإفراطهن إضاعتهن عن وقتهن ، وقال الأوزاعى عن إبراهيم بن يزيد ان عمر بن العزيز قرأ (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) ثم قال لم تكن إضاعتهم تركها ولكن أضاعوا الوقت ، وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاه واتبعوا الشهوات) قال عند قيام الساعة وذهاب صالحى أمة محمد ﷺ ينزو بعضهم على بعض فى الأزقة وكذا روى ابن جريج عن مجاهد مثله ، وروى جابر الجعفى عن مجاهد وعكرمة وعطاء بن أبى رباح أنهم من هذه الأمة يعنون فى آخر الزمان ، وقال ابن جرير حدثنى الحارث حدثنا الحسن الأشيب حدثنا شريك عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات) قال هم فى هذه الأمة يتراكبون تراكب الأنعام والحمر فى الطرق لايخافون الله فى السماء ولا يستحيون من الناس فى الأرض ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان الواسطى حدثنا أبو عبد الرحمن المقرى حدثنا حيوة حدثنا بشير بن أبى عمرو الخولانى أن الوليد بن قيس حدثه أنه سمع أباسعيد الخدرى يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يكون خلف بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ، ثم يكون خلف يقرءون القرآن لايعدو تراقيهم ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن ومنافق وفاجر » وقال بشير قلت للوليد ماهؤلاء الثلاثة ؟ قال المؤمن مؤمن به والمنافق كافر به والفاجر يأكل به ، وهكذا رواه أحمد عن أبى عبد الرحمن المقرى ، وقال ابن أبى حاتم أيضاً حدثنى أبى حدثنا إبراهيم بن موسى أنبأنا عيسى بن يونس حدثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن وهب عن مالك عن أبى الرجال أن عائشة كانت ترسل بالشىء صدقة لأهل الصفة وتقول لاتعطوا منه بربريا ولا بربرية فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول « هم الخلف الذين قال الله تعالى فيهم فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة » هذا حديث غريب وقال أيضاً حدثنى أبى حدثنا عبد الرحمن بن الضحاك حدثنا الوليد بن جرير عن شيخ من أهل المدينة أنه سمع محمد بن كعب القرظى يقول فى قول الله (فخلف من بعدهم خلف) الآية قال هم أهل الغرب يملكون وهم شر من ملك ، وقال كعب الأحبار والله إنى لأجد صفة المنافقين فى كتاب الله عزوجل شرابين للقهوات تراكين للصلوات لعابين بالكعبات رقادين عن العتمات مفرطين فى الغدوات تراكين للجماعات قال ثم تلا هذه الآية (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) وقال الحسن البصرى: عطلوا المساجد ولزموا الضيعات، وقال أبو الأشهب العطاردى أوحى الله إلى داود عليه السلام ياداود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات فان القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدى إذا آثر شهوة من شهواته أن أحرمه طاعتى ، وقال الإمام أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنا أبو زيد التيمى عن أبى قبيل أنه سمع عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ « إنى أخاف على أمتى اثنتين : القرآن واللبن[1] » أما اللبن فيتبعون الريف ويتبعون الشهوات ويتركون الصلاة ، وأما القرآن فيتعلمه المنافقون فيجادلون به المؤمنين ورواه عن حسن بن موسى عن ابن لهيعة حدثنا أبو قبيل عن عقبة به مرفوعا بنحوه تفرد به ، وقوله (فسوف يلقون غيا) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (فسوف يلقون غيا) أى خسرانا ، وقال قتادة شراً وقال سفيان الثورى وشعبة ومحمد بن إسحق عن أبى إسحق السبيعى عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود (فسوف يلقون غيا) قال واد فى جهنم بعيد القعر خبيث الطعم وقال الأعمش عن زياد عن أبى عياض فى قوله (فسوف يلقون غيا) قال واد فى جهنم من قيح ودم وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير حدثنى عباس بن أبى طالب حدثنا محمد بن زياد حدثنا شرقى بن قطامى عن لقمان بن عامر الخزاعى قال جئت أبا أمامة صدى بن عجلان الباهلى فقلت حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بطعام ثم قال : قال رسول الله ﷺ « لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفير جهنم مابلغت قعرها خمسين خريفا ثم تنتهى إلى غى وآثام » قال قلت ماغى وآثام قال: قال « بئران فى أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار » وهما اللذان ذكرهما الله فى كتابه (أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) وقوله فى الفرقان (ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما) هذا حديث غريب ورفعه منكر ، وقوله (إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً) أى إلا

(١) كذا فى النسخة المكية وفى النسخة الأميرية : الكتى ، بدل اللبن .

من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات فان الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ويجعله من ورثة جنة النعيم ولهذا قال (فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا) وذلك لأن التوبة تجب ماقبلها ، وفى الحديث الآخر « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التى عملوها شيئا ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها لأن ذلك ذهب هدرا وترك نسيا وذهب مجانا من كرم الكريم وحلم الحليم ، وهذا الاستثناء ههنا كقوله فى سورة الفرقان (والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق -إلى قوله - وكان الله غفورا رحيما)

﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا * لَايَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾

يقول تعالى الجنات التى يدخلها التائبون من ذنوبهم هى جنات عدن أى إقامة التى وعد الرحمن عباده بظهر الغيب أى هى من الغيب الذى يؤمنون به ومارأوه وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم وقوله (إنه كان وعده مأتيا) تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره فان الله لايخلف الميعاد ولا يبدله كقوله (كان وعده مفعولا) أى كائنا لا محالة ، وقوله ههنا (مأتيا) أى العباد صائرون إليه وسيأتونه ومنهم من قال (مأتيا) بمعنى آتيا لأن كل ما أتاك فقد أتيته كما تقول العرب أتت على خمسون سنة وأتيت على خمسين سنة كلاهما بمعنى واحد ، وقوله (لا يسمعون فيها لغوا) أى هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له كما قد يوجد فى الدنيا ، وقوله (إلا سلاما) استثناء منقطع كقوله (لايسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما) وقوله (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) أى فى مثل وقت البكرات ووقت العشيات لا أن هناك ليلا ونهارا ولكنهم فى أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار كما قال الإمام أحمد حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يتمخطون فيها ولا يتغوطون آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لااختلاف بينهم ولاتباغض ، قلوبهم على قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشيا » أخرجاه فى الصحيحين من حديث معمر به ، وقال الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبى عن ابن إسحاق حدثنا الحارث بن فضيل الأنصارى عن محمود بن لبيد الأنصارى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا » تفرد به أحمد من هذا الوجه . وقال الضحاك عن ابن عباس (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) قال مقادير الليل والنهار ، وقال ابن جرير حدثنا على بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم قال سألت زهير بن محمد عن قول الله تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) قال : ليس فى الجنة ليل هم فى نور أبدا ولهم مقدار الليل والنهار يعرفون مقدار الليل بارخاء الحجب وإغلاق الأبواب ، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وبفتح الأبواب وبهذا الإسناد عن الوليد ابن مسلم عن خليد عن الحسن البصرى وذكر أبواب الجنة فقال أبواب يرى ظاهرها من باطنها فتكلم وتكلم فتفهم انفتحى انغلقى فتفعل ، وقال قتادة فى قوله (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) فيها ساعتان بكرة وعشى ليس ثم ليل ولانهار وإنما هو ضوء ونور ، وقال مجاهد ليس بكرة ولا عشى ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون فى الدنيا وقال الحسن وقتادة وغيرهما كانت العرب الأنعم فيهم من يتغدى ويتعشى فنزل القرآن على ما فى أنفسهم من النعيم فقال تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) وقال ابن مهدى عن حماد بن زيد عن هشام عن الحسن (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) قال البكور يرد على العشى والعشى يرد على البكور ليس فيها ليل ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا على ابن الحسين حدثنا سليمان بن منصور بن عمار حدثنى أبى حدثنى محمد بن زياد قاضى أهل شماط عن عبد الله بن حدير

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « مامن غداة من غدوات الجنة وكل الجنة غدوات إلا أنه يزف إلى ولى الله فيها زوجة من الحور العين أدناهن التي خلقت من الزعفران » قال أبو محمد هذا حديث غريب منكر ، وقوله (تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا) أي هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين وهم المطيعون لله عزوجل في السراء والضراء والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنين (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) إلى أن قال (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون)

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا * رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا يعلى ووكيع قالا: حدثنا عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبرائيل « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ » قال فنزلت (وما نتنزل إلا بأمر ربك) إلى آخر الآية . انفرد بإخراجه البخاري فرواه عند تفسير هذه الآية عن أبي نعيم عن عمر بن ذر به ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عمر بن ذر به وعندهما زيادة في آخر الحديث فكان ذلك الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم وقال العوفي عن ابن عباس احتبس جبرائيل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وحزن فأتاه جبرائيل وقال يا محمد (وما نتنزل إلا بأمر ربك) الآية . وقال مجاهد لبث جبرائيل عن محمد ﷺ اثنتي عشرة ليلة ويقولون أقل فلما جاءه قال «ياجبرائيل لقد رثت على حتى ظن المشركون كل ظن» فنزلت (وما نتنزل إلا بأمر ربك) الآية . قال وهذه الآية كالتي في الضحى قال وكذلك قال الضحاك بن مزاحم وقتادة والسدي وغير واحد : إنها نزلت في احتباس جبرائيل ، وقال الحكم بن أبان عن عكرمة قال أبطأ جبرائيل النزول على النبي صلى الله عليه وسلم أربعين يوما ثم نزل فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « ما نزلت حتى اشتقت إليك » فقال له جبريل بل أنا كنت إليك أشوق ولكني مأمور فأوحى الله إلى جبرائيل أن قل له (وما نتنزل إلا بأمر ربك) الآية رواه ابن أبي حاتم رحمه الله وهو غريب ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن مجاهد قال أبطأت الرسل على النبي ﷺ ثم أتاه جبريل فقال له « ماحبسك ياجبريل . » فقال له جبريل وكيف نأتيكم وأنتم لاتقصون أظفاركم ولاتنقون براجمكم ولا تأخذون شواربكم ولا تستاكون . ثم قرأ (وما نتنزل إلا بأمر ربك) إلى آخر الآية . وقد قال الطبراني حدثنا أبو عامر النحوي حدثنا محمد بن إبراهيم الصوري حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي حدثنا إسماعيل بن عياش أخبرني ثعلبة بن مسلم عن أبي كعب مولى ابن عباس عن ابن عباس عن النبي ﷺ أن جبرائيل أبطأ عليه فذكر له ذلك فقال وكيف وأنتم لا تستنون ولا تقلمون أظفاركم ولا تقصون شواربكم ولا تنقون براجمكم ؟ وهكذا رواه الإمام أحمد عن أبي اليمان عن إسماعيل بن عياش عن ابن عباس بنحوه ، وقال الإمام أحمد حدثنا سيار حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا المغيرة بن حبيب عن مالك بن دينار حدثني شيخ من أهل المدينة عن أم سلمة قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أصلحي لنا المجلس فانه ينزل ملك إلى الأرض لم ينزل إليها قط » وقوله (له مابين أيدينا وما خلفنا) قيل المراد ما بين أيدينا أمر الدنيا وماخلفنا أمر الآخرة (وما بين ذلك) ما بين النفختين هذا قول أبي العالية وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة في رواية عنهما والسدي والربيع بن أنس وقيل (ما بين أيدينا) مايستقبل من أمر الآخرة (وما خلفنا) أي مامضى من الدنيا (وما بين ذلك) أي ما بين الدنيا والآخرة ، ويروى نحوه عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن جريج والثوري واختاره ابن جرير أيضا والله أعلم . وقوله (وماكان ربك نسيا) قال مجاهد والسدي : معناه ما نسيك ربك وقد تقدم

عنه أن هذه الآية كقوله (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى) وقال ابن أبي حاتم حدثنا يزيد بن محمد ابن عبد الصمد الدمشقي حدثنا محمد بن عثمان يعني أبا الجماهر حدثنا إسماعيل بن عياش حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة عن أبيه عن أبي الدرداء يرفعه قال « ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرمه فهو حرام وما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته فان الله لم يكن لينسى شيئاً » ثم تلا هذه الآية (وما كان ربك نسيا) وقوله (رب السموات والأرض وما بينهما) أى خالق ذلك ومدبره والحاكم فيه والمتصرف الذى لا معقب لحكمه (فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس هل تعلم للرب مثلا أو شبهاً وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وابن جريج وغيرهم ، وقال عكرمة عن ابن عباس ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه

﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا * فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته كما قال تعالى (وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد) وقال (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) وقال ههنا (ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا * أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) يستدل تعالى بالبداءة على الاعادة يعنى أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئاً أفلا يعيده وقد صار شيئاً كما قال تعالى وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) وفى الصحيح « يقول الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبنى ، وآذانى ابن آدم ولم يكن له أن يؤذينى ، أما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون علىّ من آخره ، وأما أذاه إياى فقوله إن لى ولداً وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » وقوله (فوربك لنحشرنهم والشيطان) أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة أنه لابد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً) قال العوفى عن ابن عباس يعنى قعودا كقوله (وترى كل أمة جاثية) وقال السدى فى قوله جثيا يعنى قياما ، وروى عن مرة عن ابن مسعود مثله . وقوله (ثم لننزعن من كل شيعة) يعنى من كل أمة قاله مجاهد (أيهم أشد على الرحمن عتيا) قال الثورى عن على بن الأقمر عن أبى الأحوص عن ابن مسعود قال: يحبس الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعا ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرما وهو قوله (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً) وقال قتادة (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا) قال ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم فى الشر وكذا قال ابن جريج وغير واحد من السلف وهذا كقوله تعالى (حتى إذا ادّاركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ــ إلى قوله ــ بما كنتم تكسبون) وقوله (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) ثم ههنا لعطف الخبر على الخبر والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها وبمن يستحق تضعيف العذاب كما قال فى الآية المتقدمة (قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون)

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن حرب حدثنا خالد بن سليمان عن كثير بن زياد البرسانى عن أبى سمية قال اختلفنا فى الورود فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن وقال بعضهم يدخلونها جميعا ثم ينجى الله الذين اتقوا ، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له إنا اختلفنا فى الورود فقال يردونها جميعاً، وقال سليمان بن مرة يدخلونها جميعا وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه وقال

صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجا من بردهم ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا» غريب ولم يخرجوه وقال الحسن بن عرفة حدثنا مروان بن معاوية عن بكار بن أبي مروان عن خالد بن معدان قال : قال أهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة: ألم يعدنا ربنا الورود على النار ؟ قال قد مررتم عليها وهي خامدة، وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال كان عبد الله بن رواحة واضعا رأسه في حجر امرأته فبكى فبكت امرأته قال ما يبكيك قالت رأيتك تبكي فبكيت قال إني ذكرت قول الله عز وجل (وإن منكم إلا واردها) فلا أدري أنجو منها أم لا - وفي رواية - وكان مريضاً وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا ابن يمان عن مالك بن مغول عن أبي إسحق كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال يا ليت أمي لم تلدني ثم يبكي فقيل له ما يبكيك يا أبا ميسرة ؟ فقال أخبرنا أنا واردوها ولم نخبر أنا صادرون عنها ، وقال عبد الله بن المبارك عن الحسن البصري قال : قال رجل لأخيه هل أتاك أنك وارد النار قال نعم قال فهل أتاك أنك صادر عنها ، قال لا ، قال ففيم الضحك قال فما رئي ضاحكا حتى لحق بالله وقال عبد الرزاق أيضا أخبرنا ابن عيينة عن عمرو أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع بن الأزرق فقال ابن عباس الورود الدخول فقال نافع: لا ، فقرأ ابن عباس (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) وردوا أم لا وقال (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) أوردهم أم لا ، أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك فضحك نافع . وروى ابن جريج عن عطاء قال : قال أبو راشد الحروري وهو نافع بن الأزرق (لا يسمعون حسيسها) فقال ابن عباس ويلك أمجنون أنت أين قوله (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) (وإن منكم إلا واردها) والله إن كان دعاء من مضى : اللهم أخرجني من النار سالما ، وأدخلني الجنة غانما ، وقال ابن جرير حدثني محمد بن عبيد المحاربي حدثنا أسباط عن عبد الملك عن عبيد الله عن مجاهد قال كنت عند ابن عباس فأتاه رجل يقال له أبو راشد وهو نافع بن الأزرق فقال له يا ابن عباس أرأيت قول الله (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) قال أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها فانظر هل نصدر عنها أم لا . وقال أبو داود الطيالسي قال شعبة أخبرني عبد الله بن السائب عمن سمع ابن عباس يقرؤها (وإن منهم إلا واردها) يعني الكفار وهكذا روى عمر بن الوليد البسقي أنه سمع عكرمة يقرؤها كذلك (وإن منهم إلا واردها) قال وهم الظلمة كذلك كنا نقرؤها ، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ، وقال العوفي عن ابن عباس قوله (وإن منكم إلا واردها) يعني البر والفاجر، ألا تسمع إلى قول الله لفرعون (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) الآية (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) فسمى الورود على النار دخولا وليس بصادر . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن عن إسرائيل عن السدي عن مرة عن عبد الله هو ابن مسعود (وإن منكم إلا واردها) قال رسول الله ﷺ « يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم » ورواه الترمذي عن عبد ابن حميد عن عبيد الله عن إسرائيل عن السدي به، ورواه من طريق شعبة عن السدي عن مرة عن ابن مسعود مرفوعا هكذا وقع هذا الحديث ههنا مرفوعا ، وقد رواه أسباط عن السدي عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال : يرد الناس جميعاً الصراط وورودهم قيامهم حول النار ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم فمنهم من يمر مثل البرق ومنهم من يمر مثل الريح ومنهم من يمر مثل الطير ومنهم من يمر كأجود الخيل ومنهم من يمر كأجود الإبل ومنهم من يمر كعدو الرجل حتى إن آخرهم مرا رجل نوره على موضع إبهامي قدميه يمر فيتكفأ به الصراط والصراط دحض مزلة عليه حسك كحسك القتاد حافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس . وذكر تمام الحديث رواه ابن أبي حاتم وقال ابن جرير حدثنا خلاد بن أسلم حدثنا النضر حدثنا إسرائيل أخبرنا أبو إسحق عن أبي الأحوص عن عبد الله قوله (وإن منكم إلا واردها) قال الصراط على جهنم مثل حد السيف فتمر الطبقة الأولى كالبرق والثانية كالريح والثالثة كأجود الخيل والرابعة كأجود البهائم ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سلم سلم ، ولهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما من رواية أنس وأبي سعيد وأبي هريرة وجابر وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم . وقال ابن جرير حدثني

يعقوب حدثنا ابن علية عن الجريرى عن أبى السليل عن غنيم بن قيس قال ذكروا ورود النار فقال كعب تمسك النار الناس كأنها متن إهالة حتى يستوى عليها أقدام الخلائق برهم وفاجرهم ثم يناديها مناد أن امسكى أصحابك ودعى أصحابى قال فتخسف بكل ولى لها هى أعلم بهم من الرجل بولده ويخرج المؤمنون ندية ثيابهم قال كعب ما بين منكبى الخازن من خزنتها مسيرة سنة مع كل واحد منهم عمود ذو شعبتين يدفع به الدفع فيصرع به فى النار سبعمائة ألف وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى سفيان عن جابر عن أم مبشر عن حفصة قالت : قال رسول الله ﷺ « إنى لأرجو أن لايدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدراً والحديبية » قالت فقلت أليس الله يقول (وإن منكم إلا واردها) قالت : فسمعته يقول (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً) . وقال أحمد أيضاً حدثنا ابن إدريس حدثنا الأعمش عن أبى سفيان عن جابر عن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة قالت كان رسول الله ﷺ فى بيت حفصة فقال « لايدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية » قالت حفصة أليس الله يقول (وإن منكم إلا واردها) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثم ننجى الذين اتقوا) الآية وفى الصحيحين من حديث الزهرى عن سعيد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لايموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحلة القسم »

وقال عبد الرزاق قال معمر أخبرنى الزهرى عن ابن المسيب عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من مات له ثلاثة لم تمسه النار إلا تحلة القسم » يعنى الورود ، وقال أبو داود الطيالسى حدثنا زمعة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « لايموت لمسلم ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم » قال الزهرى كأنه يريد هذه الآية (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا) . وقال ابن جرير حدثنى عمران بن بكار الكلاعى حدثنا أبو المغيرة حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن تميم حدثنا إسماعيل بن عبيدالله عن أبى صالح عن أبى هريرة قال خرج رسول الله ﷺ يعود رجلا من أصحابه وعك وأنا معه ثم قال «ان الله تعالى يقول هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن لتكون حظه من النار فى الآخرة » غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه . وحدثنا أبو كريب حدثنا أبو اليمان عن عثمان بن الأسود عن مجاهد قال الحمى حظ كل مؤمن من النار ثم قرأ (وإن منكم إلا واردها) . وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا زبان بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال « من قرأ قل هو الله أحد حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصرا فى الجنة » فقال عمر اذا نستكثر يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الله أكثر وأطيب » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ ألف آية فى سبيل الله كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا إن شاء الله ومن حرس من وراء المسلمين فى سبيل الله متطوعا لا بأجر سلطان لم ير النار بعينيه إلا تحلة القسم » قال الله تعالى (وإن منكم إلا واردها) وان الذكر فى سبيل الله يضاعف فوق النفقة بسبعمائة ضعف ، وفى رواية بسبعمائة ألف ضعف ، وروى أبو داود عن أبى الطاهر عن ابن وهب وعن يحيى بن أيوب كلاهما عن زبان عن سهل عن أبيه عن رسول الله ﷺ « إن الصلاة والصيام والذكر يضاعف على النفقة فى سبيل الله بسبعمائة ضعف » . وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قوله (وإن منكم إلا واردها) قال هو الممر عليها : وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله (وإن منكم إلا واردها) قال ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها وورود المشركين أن يدخلوها ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم « الزالون والزالات يومئذ كثير وقد أحاط بالجسر يومئذ سماطان من الملائكة دعاؤهم يا الله سلم سلم » وقال السدى عن مرة عن ابن مسعود فى قوله (كان على ربك حتما مقضيا) قال قسما واجبا : وقال مجاهد : حتما ، قال قضاء وكذا قال ابن جريج وقوله (ثم ننجى الذين اتقوا) أى إذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوى المعاصى بحسبهم نجى الله تعالى المؤمنين

المتقين منها بحسب أعمالهم فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التى كانت فى الدنيا ثم يشفعون فى أصحاب الكبائر من المؤمنين فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيخرجون خلقا كثيراً قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم وهى مواضع السجود وإخراجهم إياهم من النار بحسب مافى قلوبهم من الإيمان فيخرجون أولا من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان ثم الذى يليه ثم الذى يليه ثم الذى يليه حتى يخرجون من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ثم يخرج الله من النار من قال يوما من الدهر لا إله إلا الله ولم يعمل خيراً قط ولا يبقى فى النار إلا من وجب عليه الخلود كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى (ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا)

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ماهم عليه من الدين الباطل بأنهم (خير مقاما وأحسن نديا) أى أحسن منازل وأرفع دوراً وأحسن نديا وهو مجتمع الرجال للحديث أى ناديهم أعمر وأكثر واردا وطارقا يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل وأولئك الذين هم مختفون مستترون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ونحوها من الدور على الحق كما قال تعالى مخبراً عنهم (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ماسبقونا إليه) وقال قوم نوح (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) وقال تعالى (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) أى وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم (هم أحسن أثاثاً ورئيا) أى كانوا أحسن من هؤلاء أموالا وأمتعة ومناظر وأشكالا قال الأعمش عن أبى ظبيان عن ابن عباس (خير مقاما وأحسن نديا) قال المقام المنزل والندى المجلس والأثاث المتاع والرئى المنظر ، وقال العوفى عن ابن عباس المقام المسكن والندى المجلس والنعمة والبهجة التى كانوا فيها وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم وقص شأنهم فى القرآن (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم) فالمقام المسكن والنعيم . والندى المجلس والمجمع الذى كانوا يجتمعون فيه ، وقال تعالى فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط (وتأتون فى ناديكم المنكر) والعرب تسمى المجلس النادى ، وقال قتادة لما رأوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى عيشهم خشونة وفيهم قشافة فعرض أهل الشرك ماتسمعون (أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا) وكذا قال مجاهد والضحاك ومنهم من قال فى الأثاث هو المال ومنهم من قال الثياب ومنهم من قال المتاع والرئى المنظر كما قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد ، وقال الحسن البصرى يعنى الصور وكذا قال مالك (أثاثاً ورئياً) أكثر أموالا وأحسن صوراً والكل متقارب صحيح .

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا * حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾

يقول تعالى (قل) يامحمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل (من كان فى الضلالة) أى منا ومنكم (فليمدد له الرحمن مداً) أى فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضى أجله (إما العذاب) يصيبه (وإما الساعة) بغتة تأتيه (فسيعلمون) حينئذ (من هو شر مكانا وأضعف جنداً) فى مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندى . قال مجاهد فى قوله (فليمدد له الرحمن مداً) فليدعه الله فى طغيانه هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير

رحمه الله وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه كما ذكر تعالى مباهلة اليهود فى قوله (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) أى ادعوا بالموت على المبطل منا أو منكم إن كنتم تدعون أنكم على الحق فإنه لا يضركم الدعاء فنكلوا عن ذلك وقد تقدم تقدير ذلك فى سورة البقرة مبسوط ولله الحمد ، وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى فى سورة آل عمران حين صمموا على الكفر واستمروا على الطغيان والغلو فى دعواهم أن عيسى ولد الله وقد ذكر الله حججه وبراهينه على عبودية عيسى وأنه مخلوق كآدم قال تعالى بعد ذلك (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) فنكلوا أيضا عن ذلك

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾

لما ذكر تعالى إمداد من هو فى الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه أخبر بزيادة المهتدين هدى كما قال تعالى (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا) الآيتين. وقوله (والباقيات الصالحات) قد تقدم تفسيرها والكلام عليها وإيراد الأحاديث المتعلقة بها فى سورة الكهف (خير عند ربك ثوابا) أى جزاء (وخير مردا) أى عاقبة ومردا على صاحبها ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر بن راشد عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عودا يابسا فحط ورقه ثم قال « إن قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن هن الباقيات الصالحات وهن من كنوز الجنة » قال أبو سلمة فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال لأهللن الله ولأكبرن الله ولأسبحن الله حتى إذا رآنى الجاهل حسب أنى مجنون وهذا ظاهره أنه مرسل ولكن قد يكون من رواية أبى سلمة عن أبى الدرداء والله أعلم ، وهكذا وقع فى سنن ابن ماجه من حديث أبى معاوية عن عمر بن راشد عن يحيى عن أبى سلمة عن أبى الدرداء فذكر نحوه

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن مسلم عن مسروق عن خباب بن الأرت قال كنت رجلا قينا وكان لى على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه منه فقال لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث قال فانى إذا مت ثم بعثت جئتنى ولى ثم مال وولد فأعطيتك فأنزل الله (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا) إلى قوله — ويأتينا فردا) أخرجه صاحبا الصحيح وغيرهما من غير وجه عن الأعمش به وفى لفظ البخارى كنت قينا بمكة فعملت للعاص بن وائل سيفا فجئت أتقاضاه فذكر الحديث وقال (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) قال موثقا

وقال عبد الرزاق أخبرنا الثورى عن الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق قال : قال خباب بن الأرت كنت قينا بمكة فكنت أعمل للعاص بن وائل فاجتمعت لى عليه دراهم فجئت لأتقاضاه فقال لى لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث قال فإذا بعثت كان لى مال وولد قال فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله (أفرأيت الذى كفر بآياتنا) الآيات وقال العوفى عن ابن عباس إن رجالا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمى بدين فأتوه يتقاضونه فقال ألستم تزعمون أن فى الجنة ذهبا وفضة وحريرا ومن كل الثمرات ؟ قالوا بلى قال فان موعدكم الآخرة فوالله لأوتين مالا وولدا ولأوتين مثل كتابكم الذى

جئتم به فضرب الله مثله فى القرآن فقال (أفرأيت الذى كفر بآياتنا - إلى قوله - ويأتينا فردا) وهكذا قال مجاهد وقتادة وغيرهم إنها نزلت فى العاص بن وائل ، وقوله (لأوتين مالا وولدا) قرأ بعضهم بفتح الواو من ولدا وقرأ آخرون بضمها وهو بمعناه قال رؤبة :

الحمد لله العزيز فردا * لم يتخذ من ولد شىء ولدا

وقال الحارث بن حلزة: ولقد رأيت معاشرا * قد ثمروا مالا وولدا

وقال الشاعر: فليت فلانا كان فى بطن أمه * وليت فلانا كان ولد حمار

وقيل إن الولد بالضم جمع والولد بالفتح مفرد وهى لغة قيس والله أعلم ، وقوله (أطلع الغيب) إنكار على هذا القائل (لأوتين مالا وولدا) يعنى يوم القيامة أى أعلم ماله فى الآخرة حتى تألى وحلف على ذلك (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك ؟ وقد تقدم عند البخارى أنه الموثق وقال الضحاك عن ابن عباس (أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا) قال لا إله إلا الله فيرجو بها وقال محمد بن كعب القرظى (إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) قال شهادة أن لا إله إلا الله ثم قرأ (إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) وقوله (كلا) هى حرف ردع لما قبلها وتأكيد لما بعدها (سنكتب ما يقول) أى من طلبه ذلك وحكمه لنفسه بما يتمناه وكفره بالله العظيم (ونمد له من العذاب مدا) أى فى الدار الآخرة على قوله ذلك وكفره بالله فى الدنيا (ونرثه ما يقول) أى من مال وولد نسلبه منه عكس ما قال إنه يؤتى فى الدار الآخرة مالا وولدا زيادة على الذى له فى الدنيا بل فى الآخرة يسلب من الذى كان له فى الدنيا ، ولهذا قال تعالى (ويأتينا فردا) أى من المال والولد قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (ونرثه ما يقول) قال نرثه . وقال مجاهد (ونرثه ما يقول) ماله وولده وذلك الذى قال العاص بن وائل . وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (ونرثه ما يقول) قال ما عنده وهو قوله (لأوتين مالا وولدا) وفى حرف ابن مسعود ونرثه ما عنده وقال قتادة (ويأتينا فردا) لا مال له ولا ولد وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ونرثه ما يقول) قال ما جمع من الدنيا وما عمل فيها قال (ويأتينا فردا) قال فردا من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا * أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا * فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم أنهم اتخذوا من دونه آلهة لتكون لهم تلك الآلهة (عزا) يعتزون بها ويستنصرونها ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ولا يكون ما طمعوا فقال (كلا سيكفرون بعبادتهم) أى يوم القيامة (ويكونون عليهم ضدا) أى بخلاف ما ظنوا فيهم كما قال تعالى (ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقرأ أبو نهيك (كل سيكفرون بعبادتهم) وقال السدى (كلا سيكفرون بعبادتهم) أى بعبادة الأوثان وقوله (ويكونون عليهم ضدا) أى بخلاف ما رجوا منهم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (ويكونون عليهم ضدا) قال أعوانا قال مجاهد عونا عليهم تخاصمهم وتكذبهم وقال العوفى عن ابن عباس (ويكونون عليهم ضدا) قال قرناء وقال قتادة قرناء فى النار يلعن بعضهم بعضا ويكفر بعضهم ببعض ، وقال السدى (ويكونون عليهم ضدا) قال الخصماء الأشداء فى الخصومة وقال الضحاك (ويكونون عليهم ضدا) قال أعداء . وقال ابن زيد الضد: البلاء ، وقال عكرمة : الضد الحسرة . وقوله (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس تغويهم إغواء ، وقال العوفى عنه تحرضهم على محمد وأصحابه ، وقال مجاهد تشليهم إشلاء ، وقال قتاده تزعجهم إزعاجا إلى معاصى الله ، وقال سفيان الثورى تغريهم إغراء وتستعجلهم استعجالا ، وقال السدى تطغيهم طغيانا ، وقال عبد الرحمن بن زيد هذا كقوله تعالى (ومن يعش

عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) وقوله (فلا تعجل عليهم إنما نعدلهم عدا) أى لا تعجل يا محمد على هؤلاء فى وقوع العذاب بهم (إنما نعد لهم عدا) أى إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط وهم صائرون لامحالة إلى عذاب الله ونكاله وقال (ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) الآية (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) (إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) (قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار) وقال السدى إنما نعدلهم عدا: السنين والشهور والأيام والساعات ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (إنما نعدلهم عدا) قال نعد أنفاسهم فى الدنيا

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا * لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه فى الدار الدنيا واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم وأطاعوهم فيما أمروهم به وانتهوا عما عنه زجروهم أنه يحشرهم يوم القيامة وفدا إليه والوفد هم القادمون ركبانا ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم فانهم يساقون عنفاً إلى النار (وردا) عطاشا قاله عطاء وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد وههنا يقال (أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا) .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبوسعيد الأشج حدثنا ابن خالد عن عمرو بن قيس اللائى عن ابن مرزوق (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) قال يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها وأطيبها ريحا فيقول من أنت فيقول أما تعرفنى ؟ فيقول لا ، الا أن الله قد طيب ريحك وحسن وجهك . فيقول أنا عملك الصالح وهكذا كنت فى الدنيا حسن العمل طيبه فطالما ركبتك فى الدنيا فهلم اركبنى فيركبه فذلك قوله (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) قال ركبانا ، وقال ابن جرير حدثنى ابن المثنى حدثنا ابن مهدى عن سعيد عن إسماعيل عن رجل عن أبى هريرة (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) قال على الإبل وقال ابن جريج على النجائب ، وقال الثورى على الابل النوق ، وقال قتادة (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) قال إلى الجنة : وقال عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه حدثنا سويد ابن سعيد أخبرنا على بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق حدثنا النعمان بن سعيد قال كنا جلوسا عند على رضى الله عنه فقرأ هذه الآية (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) قال لا والله ما على أرجلهم يحشرون ولا يحشر الوفد على أرجلهم ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها عليها رحائل من ذهب فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن جرير من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدنى به وزاد عليها رحائل من ذهب وأزمتها الزبرجد والباقى مثله . وروى ابن أبى حاتم ههنا حديثاً غريباً جداً مرفوعا عن على فقال حدثنا أبى حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدى حدثنا مسلمة بن جعفر البجلى سمعت أبا معاذ البصرى قال: إن علياً كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا) فقال ما أظن الوفد إلا الركب يا رسول الله ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون أو يؤتون بنوق بيض لها أجنحة وعليها رحال الذهب شرك نعالهم نور يتلألأ كل خطوة منها مد البصر فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان فيشربون من إحداهما فتغسل ما فى بطونهم من دنس ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبدا وتجرى عليهم نضرة النعيم فينتهون أو فيأتون باب الجنة فإذا حلقه من ياقوت حمراء على صفائح الذهب فيضربون بالحلقة على الصفحة فيسمع لها طنين ياعلى فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل فتبعث قيمها فيفتح له فإذا رآه خر له - قال مسلمة أراه قال ساجدا - فيقول ارفع رأسك فإنما أنا قيمك وكلت بأمرك فيتبعه ويقفو أثره

فتستخف الحوراء العجلة فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه ثم تقول أنت حبي وأنا حبك وأنا الخالدة التي لا أموت وأنا الناعمة التي لا أبأس وأنا الراضية التي لا أسخط وأنا المقيمة التي لا أظعن فيدخل بيتاً من أسه إلى سقفه مائة ألف ذراع بناؤه على جندل اللؤلؤ طرائق : أحمر وأصفر وأخضر ليس منها طريقة تشاكل صاحبتها. وفي البيت سبعون سريراً على كل سرير سبعون حشية على كل حشية سبعون زوجة على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الحلل يقضي جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه : الأنهار من تحتهم تطرد أنهار من ماء غير آسن قال صاف لا كدر فيه وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ولم يخرج من ضروع الماشية وأنهار من خمر لذة للشاربين لم يعتصرها الرجال بأقدامهم وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل فيستجلي الثمار فان شاء أكل قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء متكئاً ثم تلا (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا) فيشتهي الطعام فيأتيه طير أبيض وربما قال أخضر فترفع أجنحتها فيأكل من جنوبها أي الألوان شاء ثم تطير فتذهب فيدخل الملك فيقول سلام عليكم (تلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون) ولو أن شعرة من شعر الحوراء وقعت لأهل الأرض لأضاءت الشمس معها سواد في نور » هكذا وقع في هذه الرواية مرفوعا وقد رويناه في المقدمات من كلام علي رضي الله عنه بنحوه وهو أشبه بالصحة والله أعلم وقوله (ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً) أي عطاشا (لا يملكون الشفاعة) أي ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض كما قال تعالى مخبراً عنهم (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) وقوله (إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) هذا استثناء منقطع بمعنى لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا وهو شهادة أن لا إله إلا الله والقيام بحقها، قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس (إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) قال العهد شهادة أن لا إله إلا الله ويبرأ إلى الله من الحول والقوة ولا يرجوا إلا الله عز وجل : وقال ابن أبي حاتم حدثنا عثمان بن خالد الواسطي حدثنا محمد بن الحسن الواسطي عن المسعودي عن عون بن عبد الله عن أبي فاخته عن الأسود بن يزيد قال قرأ عبد الله يعني ابن مسعود هذه الآية (إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) ثم قال اتخذوا عند الله عهدا فان الله يقول يوم القيامة من كان له عند الله عهد فليقم قالوا يا أبا عبد الرحمن فعلمنا قال قولوا: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة فاني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك ان تكلني إلى عملي يقربني من الشر ويباعدني من الخير وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إلي يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد . قال المسعودي فحدثني زكريا عن القاسم بن عبد الرحمن أخبرنا ابن مسعود وكان يلحق بهن خائفا مستجيراً مستغفرا راهبا راغبا إليك . ثم رواه من وجه آخر عن المسعودي بنحوه

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام وذكر خلقه من مريم بلا أب شرع في مقام الانكار على من زعم أن له ولداً تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيرا فقال (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم) أي في قولكم هذا (شيئا إدا) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومالك أي عظيما ويقال إدا بكسر الهمزة وفتحها ومع مدها أيضا ثلاث لغات أشهرها الأولى وقوله (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا) أي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظاما للرب وإجلالا لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده وأنه لا إله إلا هو ، وأنه لا شريك له ولا نظير له ولا ولد له ولا صاحبة له ولا كفء له بل هو الأحد الصمد

وفي كل شيء له آية * تدل على أنه الواحد

قال ابن جرير حدثني علي حدثنا عبد الله حدثني معاوية عن علي عن ابن عباس في قوله (تكاد السموات يتفطرن منه

وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً* أن دعوا للرحمن ولداً) قال إن الشرك فزعت منـه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكادت أن تزول منـه لعظمة الله وكما لاينفع مع الشرك إحسان الشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقنوا موتاكم شهادة أن لاإله إلا الله فمن قالهـا عند موته وجبت له الجنة » فقالوا يارسول الله فمن قالهـا فى صحته ؟ قال « تلك أوجب وأوجب » ثم قال « والذى نفسى بيده لوجىء بالسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن فى كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى لرجحت بهن » هكذا رواه ابن جرير ويشهد له حديث البطاقة والله أعلم ، وقال الضحاك (تكاد السموات يتفطرن منه) أى يتشققن فرقاً من عظمة الله ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وتنشق الأرض أى غضباً له عز وجل وتخر الجبال هداً قال ابن عباس هدما ، وقال سعيد بن جبير هداً ينـكسر بعضها على بعض متتابعات ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن سويد المقبرى حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا مسعر عن عون بن عبد الله قال إن الجبل لينادى الجبل باسمه يافلان هل مر بك اليوم ذكر الله عز وجل ؟ فيقول نعم ويستبشر ، قال عون لهى للخير أسمع أفيسمعن الزور والباطل إذا قيل ولا يسمعن غيره ثم قرأ (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً* أن دعوا للرحمن ولداً) ، وقال ابن أبى حاتم أيضاً حدثنا المنذر بن شاذان حدثنا هودة حدثنا عوف عن غالب بن عجرد حدثنى رجل من أهل الشام فى مسجد منى قال بلغنى أن الله لما خلق الأرض وخلق مافيها من الشجر لم يكن فى الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة — أو قال — كان لهم فيها منفعة ولم تزل الأرض والشجر بذلك حتى تكلم فجرة بنى آدم بتلك الكلمة العظيمة قولهم اتخذ الرحمن ولداً فلما تكلموا بها اقشعرت الأرض وشاك الشجر . وقال كعب الأحبار غضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا ماقالوا . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن سعيد ابن جبير عن أبى عبد الرحمن السلمى عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أن يشرك به ويجعل له ولد وهو يعافيهم ويدفع عنهم ويرزقهم » أخرجاه فى الصحيحين وفى لفظ « انهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم » وقوله (وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً) أى لايصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته لأنه لا كفء له من خلقه لأن جميع الخلائق عبيد له ولهذا قال (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً) أى قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة ذكرهم وأنثاهم وصغيرهم وكبيرهم (وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) أى لاناصر له ولامجير إلا الله وحده لاشريك له فيحكم فى خلقه بما يشاء وهو العادل الذى لايظلم مثقال ذرة ولايظلم أحداً

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات وهى الأعمال التى ترضى الله عز وجل لمتابعتها الشريعة المحمدية — يغرس لهم فى قلوب عباده الصالحين محبة ومودة وهذا أمر لابد منه ولامحيد عنه وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير وجه . قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة حدثنا سهيل عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال ياجبريل إنى أحب فلانا فأحبه — قال — فيحبه جبريل قال ثم ينادى فى أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه قال فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال ياجبريل إنى أبغض فلانا فأبغضه قال فيبغضه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء إن الله يبغض فلانا فابغضوه قال فيبغضه أهل السماء ثم يوضع له البغضاء فى الأرض » ورواه مسلم من حديث سهيل ورواه أحمد والبخارى من حديث ابن جريج عن موسى بن عتبة عن نافع مولى ابن عمر

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم نحوه ، وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن بكر حدثنا ميمون أبو محمد المرائى حدثنا محمد بن عباد المخزومى عن ثوبان رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن العبد ليلتمس مرضات الله عز وجل فلا يزال كذلك فيقول الله عز وجل لجبريل إن فلانا عبدى يلتمس أن يرضينى ألا وإن رحمتى عليه فيقول جبريل : رحمة الله على فلان ويقولها حملة العرش ويقولها من حولهم حتى يقولها أهل السموات السبع ثم يهبط إلى الأرض » غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه ، وقال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا شريك عن محمد بن سعد الواسطى عن أبى ظبية عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المقة من الله — قال شريك هى المحبة — والصيت من السماء فإذا أحب الله عبدا قال لجبريل عليه السلام إنى أحب فلانا فينادى جبريل إن ربكم يمق — يعنى يحب — فلانا فأحبوه — أرى شريكا قد قال فتنزل له المحبة فى الأرض — وإذا أبغض عبدا قال لجبريل إنى أبغض فلانا فأبغضه قال فينادى جبريل إن ربكم يبغض فلانا فأبغضوه — أرى شريكا قال — فيجرى له البغض فى الأرض » غريب ولم يخرجوه

قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو داود الحفرى حدثنا عبد العزيز — يعنى ابن محمد — وهو الدراوردى عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إنى قد أحببت فلانا فأحبه فينادى فى السماء ثم ينزل له المحبة فى أهل الأرض فذلك قول الله عز وجل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) » ورواه مسلم والترمذى كلاهما عن عبد الله عن قتيبة عن الدراوردى به وقال الترمذى حسن صحيح ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (سيجعل لهم الرحمن ودا) قال حبا وقال مجاهد عنه سيجعل لهم الرحمن ودا قال محبة فى الناس فى الدنيا وقال سعيد بن جبير عنه يحبهم ويحببهم يعنى إلى خلقه المؤمنين كما قال مجاهد أيضا والضحاك وغيرهم ، وقال العوفى عن ابن عباس أيضا : الود من المسلمين فى الدنيا والرزق الحسن واللسان الصادق ، وقال قتادة (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) أى والله فى قلوب أهل الإيمان ، وذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم ، وقال قتادة وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه يقول مامن عبد يعمل خيراً أوشراً إلا كساه الله عز وجل رداء عمله ، وقال ابن أبى حاتم رحمه الله حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن ابن مهدى عن الربيع بن صبيح عن الحسن البصرى رحمه الله قال : قال رجل والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها فكان لايرى فى حين صلاة إلا قائما يصلى وكان أول داخل إلى المسجد وآخر خارج فكان لايعظم فمكث بذلك سبعة أشهر وكان لايمر على قوم إلا قالوا انظروا إلى هذا المرائى فأقبل على نفسه فقال لا أرانى أذكر إلا بشر لأجعلن عملى كله لله عز وجل فلم يزد على أن قلب نيته ولم يزد على العمل الذى كان يعمله فكان يمر بعد بالقوم فيقولون رحم الله فلانا الآن وتلا الحسن (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) وقد روى ابن جرير أثراً أن هذه الآية نزلت فى هجرة عبد الرحمن بن عوف وهو خطأ فإن هذه السورة بكمالها مكية لم ينزل منها شىء بعد الهجرة ولم يصح سند ذلك والله أعلم ، وقوله (فإنما يسرناه) يعنى القرآن (بلسانك) أى يا محمد وهو اللسان العربى المبين الفصيح الكامل (لتبشر به المتقين) أى المستجيبين لله المصدقين لرسوله (وتنذر به قوما لدا) أى عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد قوما لدا لايستقيمون ، وقال الثورى عن إسماعيل وهو السدى عن أبى صالح (وتنذر به قوما لداً) عوجا عن الحق ، وقال الضحاك الألد الخصم وقال القرظى الألد الكذاب ، وقال الحسن البصرى (قوما لداً) صما وقال غيره صم آذان القلوب ، وقال قتادة قوما لدا يعنى قريشا ، وقال العوفى عن ابن عباس (قوما لدا) فجارا وكذا روى ليث بن أبى سليم عن مجاهد ، وقال ابن زيد : الألد الظلوم وقرأ قوله تعالى (وهو ألد الخصام) وقوله (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) أى من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً) أى هل ترى منهم أحدا أو تسمع لهم ركزا قال ابن عباس وأبو العالية وعكرمة والحسن البصرى وسعيد بن جبير والضحاك

وابن زيد يعني صوتا ، وقال الحسن وقتادة هل ترى عينا أو تسمع صوتا ، والركز في أصل اللغة هو الصوت الخفي ، قال الشاعر : فتوحشت ركز الأنيس فراعها * عن ظهر غيب والأنيس سقامها .

آخر تفسير سورة مريم ولله الحمد والمنة . ويتلوه إن شاء الله تفسير سورة طه ولله الحمد .

﴿ تفسير سورة طه وهي مكية ﴾

روى إمام الأئمة محمد بن إسحق بن خزيمة في كتاب التوحيد عن زياد بن أيوب عن إبراهيم بن المنذر الحزامي حدثنا إبراهيم بن مهاجر بن مسمار عن عمر بن حفص بن ذكوان عن مولى الحرقة - يعني عبدالرحمن بن يعقوب - عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم بألف عام فلما سمعت الملائكة قالوا طوبى لأمة ينزل عليهم هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسن تتكلم بهذا » هذا حديث غريب وفيه نكارة ، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ * وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسين ابن محمد بن شيبة الواسطي حدثنا أبو أحمد - يعني الزبيري - أنبأنا إسرائيل عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : طه يا رجل وهكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء ومحمد بن كعب وأبي مالك وعطية العوفي والحسن وقتادة والضحاك والسدي وابن أبزى أنهم قالوا : طه بمعنى يا رجل ، وفي رواية عن ابن عباس وسعيد ابن جبير والثوري أنها كلمة بالنبطية معناها يا رجل . وقال أبو صالح هي معربة وأسند القاضي عياض في كتابه الشفاء من طريق عبد بن حميد في تفسيره حدثنا هاشم بن القاسم عن ابن جعفر عن الربيع بن أنس قال كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى فأنزل الله تعالى (طه) يعني طأ الأرض يا محمد (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) ثم قال ولا يخفى ما في هذا من الاكرام وحسن المعاملة وقوله (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) قال جويبر عن الضحاك لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ قام به هو وأصحابه فقال المشركون من قريش ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى فأنزل الله تعالى (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى) فليس الأمر كما زعمه المبطلون بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيرا كثيرا كما ثبت في الصحيحين عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين » وما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني في ذلك حيث قال حدثنا أحمد بن زهير حدثنا العلاء بن سالم حدثنا إبراهيم الطالقاني حدثنا ابن المبارك عن سفيان عن سماك بن حرب عن ثعلبة بن الحكم قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي » إسناده جيد وثعلبة بن الحكم هذا هو الليثي ذكره أبو عمرو في استيعابه ، وقال نزل البصرة ثم تحول إلى الكوفة ، وروى عنه سماك بن حرب . وقال مجاهد في قوله (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) هي كقوله (فاقرءوا ما تيسر منه) وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم في الصلاة وقال قتادة (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) لا والله ما جعله شقاء ولكن جعله رحمة ونورا ودليلا إلى الجنة (إلا تذكرة لمن يخشى) ان الله أنزل كتابه وبعث رسوله رحمة رحم بها عباده ليتذكر ذاكر وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه ، وقوله (تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى) أي هذا القرآن الذي

جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك رب كل شيء ومليكه القادر على ما يشاء الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها وخلق السموات العلى في ارتفاعها ولطافتها، وقد جاء في الحديث الذي صححه الترمذي وغيره أن سمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام وبعد ما بينها والتي تليها مسيرة خمسمائة عام ،وقد أورد ابن أبي حاتم ههنا حديث الأوعال من رواية العباس عم رسول الله ﷺ ورضي الله عنه ، وقوله (الرحمن على العرش استوى) تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته أيضا وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف و لا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل ، وقوله (له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى) أي الجميع ملكه وفي قبضته وتحت تصرفه ومشيئته وإرادته وحكمه وهو خالق ذلك ومالكه وإلهه لا إله سواه ولا رب غيره وقوله (وما تحت الثرى) قال محمد بن كعب أي ما تحت الأرض السابعة ، وقال الأوزاعي إن يحيى بن أبي كثير حدثه أن كعبا سئل فقيل له : ما تحت هذه الأرض ؟ فقال الماء ، قيل وما تحت الماء ؟ قال الأرض قيل : وما تحت الأرض؟ قال الماء ، قيل : وما تحت الماء ؟ قال الأرض، قيل وما تحت الأرض؟ قال الماء قيل : وما تحت الماء ؟ قال الأرض ، قيل: وما تحت الأرض؟ قال الماء ، قيل : وما تحت الماء ؟ قال الأرض ، قيل : وما تحت الأرض؟ قال الصخرة قيل : وما تحت الصخرة ؟ قال: ملك قيل : وما تحت الملك ؟ قال حوت معلق طرفاه بالعرش ، قيل : وما تحت الحوت؟ قال الهواء والظلمة وانقطع العلم ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو عبيد الله بن أخي بن وهب حدثنا عمي حدثنا عبد الله بن عياش حدثنا عبد الله بن سلمان عن دراج عن عيسى بن هلال الصدفي عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « إن الأرضين بين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام والعليا منها على ظهر حوت قد التقى طرفاه في السماء والحوت على صخرة والصخرة بيد ملك والثانية سجن الريح والثالثة فيها حجارة جهنم والرابعة فيها كبريت جهنم والخامسة فيها حيات جهنم والسادسة فيها عقارب جهنم والسابعة فيها سقر وفيها إبليس مصفد بالحديد أمامه ويد خلفه فإذا أراد الله أن يطلقه لما يشاء أطلقه » وهذا حديث غريب جدا ورفعه فيه نظر ، وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده حدثنا أبو موسى الهروي عن العباس بن الفضل قال قلت ابن الفضل الأنصاري ، قال نعم عن القاسم بن عبد الرحمن عن محمد ابن علي عن جابر بن عبد الله قال كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فأقبلنا راجعين في حر شديد فنحن متفرقون بين واحد واثنين منتشرين قال وكنت في أول العسكر إذ عارضنا رجل فسلم ثم قال أيكم محمد ومضى أصحابي ووقفت معه فإذا رسول الله ﷺ قد أقبل في وسط العسكر على جمل أحمر مقنع بثوبه على رأسه من الشمس فقلت أيها السائل هذا رسول الله قد أتاك فقال أيهم هو ، فقلت صاحب البكر الأحمر فدنا منه فأخذ بخطام راحلته فكف عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أنت محمد ، قال « نعم » قال إني أريد أن أسألك عن خصال لا يعلمهن أحد من أهل الأرض إلا رجل أو رجلان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سل عما شئت » قال يا محمد أينام النبي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تنام عيناه ولا ينام قلبه » قال صدقت ثم قال يا محمد من أين يشبه الولد أباه وأمه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماء الرجل أبيض غليظ وماء المرأة أصفر رقيق فأي الماءين غلب على الآخر نزع الولد » فقال صدقت فقال ما للرجل من الولد وما للمرأة منه فقال « للرجل العظام والعروق والعصب وللمرأة اللحم والدم والشعر » قال صدقت ثم قال يا محمد ما تحت هذه يعني الأرض فقال رسول ﷺ « خلق » فقال فما تحتهم ؟ قال « أرض » قال فما تحت الأرض ؟ قال « الماء » قال فما تحت الماء ؟ قال « ظلمة » قال فما تحت الظلمة قال « الهواء » قال فما تحت الهواء ؟ قال « الثرى » قال فما تحت الثرى ؟ ففاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء وقال « انقطع علم الخلق عند علم الخالق أيها السائل ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » قال فقال صدقت أشهد أنك رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيها الناس هل تدرون من هذا ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم قال « هذا جبريل صلى الله عليه وسلم » هذا حديث غريب جدا وسياق عجيب تفرد به القاسم ابن عبد الرحمن هذا وقد قال فيه يحيى بن معين ليس يساوي شيئا وضعفه أبو حاتم الرازي ، وقال ابن عدي لا يعرف

قلت وقد خلط في هذا الحديث ودخل عليه شيء في شيء وحديث في حديث وقد يحتمل أنه تعمد ذلك أو أدخل عليه فيه والله أعلم وقوله (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) أي أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسموات العلى الذي يعلم السر وأخفى كما قال تعالى (قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما) قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس (يعلم السر وأخفى) قال السر ما أسره ابن آدم في نفسه (وأخفى) ما أخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه فالله يعلم ذلك كله فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة وهو قوله (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وقال الضحاك (يعلم السر وأخفى) قال السر ما تحدث به نفسك وأخفى ما لم تحدث به نفسك بعد وقال سعيد بن جبير أنت تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غداً والله يعلم ما تسر اليوم وما تسر غدا ، وقال مجاهد (وأخفى) يعني الوسوسة وقال أيضاً هو وسعيد بن جبير (وأخفى) أي ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه ، وقوله (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) أي الذي أنزل عليك القرآن هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة في الأسماء الحسنى في أواخر سورة الأعراف ولله الحمد والمنة

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾

من ههنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم وسار بأهله قيل قاصداً بلاد مصر بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ومعه زوجته فأضل الطريق وكانت ليلة شاتية ونزل منزلا بين شعاب وجبال في برد وشتاء وسحاب وظلام وضباب وجعل يقدح بزند معه ليوري ناراً كما جرت له العادة به فجعل لا يقدح شيئاً ولا يخرج منه شرر ولا شيء فبينا هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً أي ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه فقال لأهله يبشرهم (إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس) أي شهاب من نار وفي الآية الأخرى (أو جذوة من النار) وهي الجمر الذي معه لهب (لعلكم تصطلون) دل على وجود البرد وقوله (بقبس) دل على وجود الظلام وقوله (أو أجد على النار هدى) أي من يهديني الطريق دل على أنه قد تاه عن الطريق كما قال الثوري عن أبي سعد الأعور عن عكرمة عن ابن عباس في قوله (أو أجد على النار هدى) قال من يهديني إلى الطريق وكانوا شاتين وضلوا الطريق فلما رأى النار قال إن لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق أتيتكم بنار توقدون بها

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾

يقول تعالى (فلما أتاها) أي النار واقترب منها (نودي يا موسى) وفي الآية الأخرى (نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله) وقال ههنا (إني أنا ربك) أي الذي يكلمك ويخاطبك (فاخلع نعليك) قال علي بن أبي طالب وأبو ذر وأبو أيوب وغير واحد من السلف كانتا من جلد حمار غير ذكي، وقيل إنما أمره بخلع نعليه تعظيما للبقعة : وقال سعيد بن جبير كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة ، وقيل ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير منتعل وقيل غير ذلك والله أعلم . وقوله (طوى) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس

هو اسم للوادي وكذا قال غير واحد ، فعلى هذا يكون عطف بيان وقيل عبارة عن الأمر بالوطء بقدمية ، وقيل لأنه قدس مرتين وطوى له البركة وكررت والأول أصح كقوله (إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى) وقوله (وأنا اخترتك) كقوله (إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) أي على جميع الناس من الموجودين في زمانه ، وقد قيل إن الله تعالى قال يا موسى أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين الناس ؟ قال لا قال لأني لم يتواضع إلي أحد تواضعك ، وقوله (فاستمع لما يوحى) أي استمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك (إنني أنا الله لا إله إلا أنا) هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وقوله (فاعبدني) أي وحدني وقم بعبادتي من غير شريك (وأقم الصلاة لذكري) قيل معناه صل لتذكرني وقيل معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لي ويشهد لهذا الثاني ما قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا المثنى بن سعيد عن قتادة عن أنس عن رسول الله ﷺ قال « إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها فان الله تعالى قال وأقم الصلاة لذكري » وفي الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك » وقوله (إن الساعة آتية) أي قائمة لا محالة وكائنة لابد منها وقوله (أكاد أخفيها)قال الضحاك عن ابن عباس انه كان يقرؤها أكاد أخفيها من نفسي يقول لأنها لا تخفى من نفس الله أبدا ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس من نفسه وكذا قال مجاهد وأبو صالح ويحيى بن رافع ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (أكاد أخفيها) يقول لا أطلع عليها أحداً غيري وقال السدي ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا قد أخفى الله تعالى عنه علم الساعة وهي في قراءة ابن مسعود إني أكاد أخفيها من نفسي يقول كتمتها من الخلائق حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسي لفعلت ، وقال قتادة أكاد أخفيها وهي في بعض القراءات أخفيها من نفسي ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ومن الأنبياء والمرسلين ، قلت وهذا كقوله تعالى (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) وقال (ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة) أي ثقل علمها على أهل السموات والأرض ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب حدثنا أبو نميلة حدثني محمد بن سهل الأسدي عن ورقاء قال أقرأنيها سعيد بن جبير أكاد أخفيها يعني بنصب الألف وخفض الفاء يقول أظهرها ثم أما سمعت قول الشاعر:

داب شهرين ثم شهراً دميكا بأربكين يخفيان غميرا

قال السدي الغمير نبت رطب ينبت في خلال يبس، والأربكين موضع ، والدميك الشهر التام وهذا الشعر لكعب ابن زهير . وقوله سبحانه وتعالى (لتجزى كل نفس بما تسعى) أي أقيمها لا محالة لأجزي كل عامل بعمله (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (وإنما تجزون ما كنتم تعملون) وقوله (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها) الآية المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة وأقبل على ملاذه في دنياه وعصى مولاه واتبع هواه فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر (فتردى) أي تهلك وتعطب قال الله تعالى (وما يغني عنه ماله إذا تردى) .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ * قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ * فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾

هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام ومعجزة عظيمة وخرق للعادة باهر دال على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عزوجل وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل ، وقوله (وما تلك بيمينك يا موسى) قال بعض المفسرين إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له وقيل وإنما قال له ذلك على وجه التقرير أي أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها فسترى ما نصنع بها الآن (وما تلك بيمينك ياموسى) استفهام تقرير (قال هي عصاي أتوكؤ عليها) أي أعتمد عليها في حال المشي

(وأهش بها على غنمى) أى أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمى ، قال عبد الرحمن بن القاسم عن الإمام مالك: الهش أن يضع الرجل المحجن فى الغصن ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود فهذا الهش ولا يخبط وكذا قال ميمون بن مهران أيضا . وقوله (ولى فيها مآرب أخرى) أى مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك ، وقد تكلف بعضهم لذكر شىء من تلك المآرب التى أبهمت فقيل كانت تضىء له بالليل وتحرس له الغنم إذا نام ويغرسها فتصير شجرة تظله وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة ، والظاهر أنها لم تكن كذلك ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه الصلاة والسلام صيرورتها ثعبانا فما كان يفر منها هاربا ولكن كل ذلك من الأخبار الاسرائيلية ، وكذا قول بعضهم إنها كانت لآدم عليه الصلاة والسلام وقول الآخر إنها هى الدابة التى تخرج قبل يوم القيامة ، وروى عن ابن عباس أنه قال كان اسمها ماشا والله أعلم بالصواب . وقوله تعالى (قال ألقها ياموسى) أى هذه العصا التى فى يدك ياموسى ألقها (فألقاها فإذا حية تسعى) أى صارت فى الحال حية عظيمة ثعبانا طويلا يتحرك حركة سريعة فإذا هى تهتز كأنها جان وهو أسرع الحيات حركة ولكنه صغير فهذه فى غاية الكبر وفى غاية سرعة الحركة (تسعى) أى تمشى وتضطرب قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن عبدة حدثنا حفص بن جميع حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس (فألقاها فإذا هى حية تسعى) ولم تكن قبل ذلك حية فمرت بشجرة فأكلتها ومرت بصخرة فابتلعتها فجعل موسى يسمع وقع الصخرة فى جوفها فولى مدبراً ونودى أن ياموسى خذها فلم يأخذها ثم نودى الثانية أن خذها ولا تخف فقيل له فى الثالثة إنك من الآمنين فأخذها . وقال وهب بن منبه فى قوله (فألقاها فإذا حية تسعى) قال فألقاها على وجه الأرض ثم حانت منه نظرة فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون يدب يلتمس كأنه يبتغى شيئاً يريد أخذه يمر بالصخرة مثل الخلفة من الإبل فيلتقمها ويطعن بالناب من أنيابه فى أصل الشجرة العظيمة فيجتثها ، عيناه تتقدان ناراً وقد عاد المحجن منها عرفاً قيل شعر مثل النيازك وعاد الشعبتان منها مثل القليب الواسع فيه أضراس وأنياب لها صريف فلما عاين ذلك موسى ولى مدبرا ولم يعقب فذهب حتى أمعن ورأى أنه قد أعجز الحية ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه ثم نودى ياموسى أن ارجع حيث كنت فرجع موسى وهو شديد الخوف فقال (خذها) بيمينك (ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) وعلى موسى حينئذ مدرعة من صوف فدخلها بخلال من عيدان فلما أمره بأخذها لف طرف المدرعة على يده فقال له ملك أرأيت ياموسى لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغنى عنك شيئاً قال لا ولكنى ضعيف ومن ضعف خلقت فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية حتى سمع حس الأضراس والأنياب ثم قبض فاذا هى عصاه التى عهدها وإذا يده فى موضعها الذى كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين ولهذا قال تعالى (سنعيدها سيرتها الأولى) أى إلى حالها التى تعرف قبل ذلك

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى * ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى * يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى * وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَٰرُونَ أَخِى * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى * كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾

وهذا برهان ثان لموسى عليه السلام وهو أن الله أمره أن يدخل يده فى جيبه كما صرح به فى الآية الأخرى وههنا عبر عن ذلك بقوله (واضمم يدك إلى جناحك) وقال فى مكان آخر (واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه) وقال مجاهد واضمم يدك إلى جناحك كفك تحت عضدك وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يده فى جيبه ثم أخرجها تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر وقوله (تخرج بيضاء من غير سوء) أى من غير

برص ولا أذى ومن غير شين قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم ، وقال الحسن البصري أخرجها والله كأنها مصباح فعلم موسى أنه قد لقي ربه عز وجل ولهذا قال تعالى (لنريك من آياتنا الكبرى) وقال وهب قال له ربه: ادنه فلم يزل يدنيه حتى سند ظهره بجذع الشجرة فاستقر وذهبت عنه الرعدة وجمع يده في العصا وخضع برأسه وعنقه وقوله (اذهب إلى فرعون إنه طغى) أي اذهب إلى فرعون ملك مصر الذي خرجت فارا منه وهاربا فادعه إلى عبادة الله وحده لاشريك له ومره فليحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم فانه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا ونسي الرب الأعلى . قال وهب بن منبه : قال الله لموسى انطلق برسالتي فإنك بسمعي وعيني وإن معك يدي وبصري وإني قد ألبستك جنة من سلطاني لتستكمل بها القوة في أمري فأنت جند عظيم من جندي بعثتك إلى خلق ضعيف من خلق بطر نعمتي وأمن مكري وغرته الدنيا عني حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي وزعم أنه لا يعرفني فإني أقسم بعزتي لولا القدر الذي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار يغضب لغضبه السموات والأرض والجبال والبحار فان أمرت السماء حصبته وإن أمرت الأرض ابتلعته وإن أمرت الجبال دمرته وإن أمرت البحار غرقته ولكنه هان علي وسقط من عيني ووسعه حلمي واستغنيت بما عندي وحق إني أنا الغني لاغني غيري فبلغه رسالتي وادعه إلى عبادتي وتوحيدي وإخلاصي وذكره أيامي وحذره نقمتي وبأسي وأخبره أنه لايقوم شيء لغضبي وقل له فيما بين ذلك قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وأخبره أني إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة ولا يروعنك ما ألبسته من لباس الدنيا فإن ناصيته بيدي ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذني وقل له أجب ربك فانه واسع المغفرة وقد أمهلك أربعمائة سنة في كلها أنت مبارزه بالمحاربة تسبه وتتمثل به وتصد عباده عن سبيله وهو يمطر عليك السماء وينبت لك الأرض لم تسقم ولم تهرم ولم تفتقر ولم تغلب ولو شاء الله أن يعجل لك العقوبة لفعل ولكنه ذوأناة وحلم عظيم وجاهده بنفسك وأخيك وأنتما تحتسبان بجهاده فإني لو شئت أن آتيه بجنود لاقبل له بها لفعلت ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذي قد أعجبته نفسه وجموعه أن الفئة القليلة ولا قليل مني تغلب الفئة الكثيرة باذني ولا تعجبنكما زينته ولا ماتمتع به ولا تمدا إلى ذلك أعينكما فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين ولو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة ليعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما فعلت ولكني أرغب بكما عن ذلك وأزويه عنكما وكذلك أفعل بأوليائي وقديما ماجرت عادتي في ذلك فاني لأذودهم عن نعيمها وزخارفها كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرة وماذاك لهوانهم علي ولكن ليستكملوا نصيبهم في دار كرامتي سالما موفراً لم تكلمه الدنيا ، واعلم أنه لايتزين لي العباد بزينة هي أبلغ فيما عندي من الزهد في الدنيا فانها زينة المتقين عليهم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع وسيماهم في وجوههم من أثر السجود أولئك أوليائي حقا حقا ، فاذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك وذلل قلبك ولسانك واعلم أنه من أهان لي وليا أو أخافه فقد بارزني بالمحاربة وبادأني وعرض لي نفسه ودعاني إليها وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي ، أفيظن الذي يحاربني أن يقوم لي ، أم يظن الذي يعاديني أن يعجزني أم يظن الذي يبارزني أن يسبقني أو يفوتني . وكيف وأنا الثائر لهم في الدنيا والآخرة لا أكل نصرتهم إلى غيري رواه ابن أبي حاتم (قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري) هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدره فيما بعثه به فانه قد أمره بأمر عظيم وخطب جسيم ؛ بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك وأجبرهم وأشدهم كفراً وأكثرهم جنوداً وأعمرهم ملكا وأطغاهم وأبلغهم تمرداً بلغ من أمره أن ادعى أنه لايعرف الله ولا يعلم لرعاياه إلها غيره ، هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم في حجر فرعون على فراشه ثم قتل منهم نفسا فخافهم أن يقتلوه فهرب منهم هذه المدة بكمالها ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لاشريك له ولهذا قال (رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري) أي إن لم تكن أنت عوني ونصيري وعضدي وظهيري وإلا فلا طاقة لي بذلك (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) وذلك لما كان أصابه من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه كما سيأتي بيانه وما سأل أن يزول ذلك بالكلية بل بحيث

يزول العي ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة ، ولو سأل الجميع لزال ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة ولهذا بقيت بقية قال الله تعالى إخبارا عن فرعون أنه قال (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) أى يفصح بالكلام ، وقال الحسن البصرى (واحلل عقدة من لسانى) قال حل عقدة واحدة ولو سأل أكثر من ذلك أعطي ، وقال ابن عباس شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون فى القتيل وعقدة لسانه فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له رداً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه فآتاه سؤله فحل عقدة من لسانه ، وقال ابن أبى حاتم ذكر عن عمر بن عثمان حدثنا بقية عن أرطاة بن المنذر حدثنى بعض أصحاب محمد بن كعب عنه قال أتاه ذو قرابة له فقال له ما بك بأس لولا أنك تلحن فى كلامك ولست تعرب فى قراءتك فقال القرظى يا ابن أخى ألست أفهمك إذا حدثتك . قال نعم قال فان موسى عليه السلام إنما سأل ربه أن يحلل عقدة من لسانه كى يفقه بنو إسرائيل كلامه ولم يزد عليها هذا لفظه . وقوله (واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى) وهذا أيضاً سؤال من موسى عليه السلام فى أمر خارجى عنه وهو مساعدة أخيه هرون له . قال الثورى عن أبى سعيد عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال نبئ هرون ساعتئذ حين نبئ موسى عليهما السلام وقال ابن أبى حاتم ذكر عن ابن نمير حدثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر فنزلت ببعض الأعراب فسمعت رجلا يقول أى أخ كان فى الدنيا أنفع لأخيه ؟ قالوا لا ندرى . قال أنا والله أدرى؟ قالت فقلت فى نفسى فى حلفه لا يستثنى إنه ليعلم أى أخ كان فى الدنيا أنفع لأخيه . قال موسى حين سأل لأخيه النبوة ، فقلت صدق والله . قلت ومن هذا قال الله تعالى فى الثناء على موسى عليه السلام (وكان عند الله وجيهاً) وقوله (اشدد به أزرى)) قال مجاهد ظهرى (وأشركه فى أمرى) أى فى مشاورتى (كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا) قال مجاهد لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعاً ، وقوله (إنك كنت بنا بصيرا) أى فى اصطفائك لنا وإعطائك إيانا النبوة وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون فلك الحمد على ذلك

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ * إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ * أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ * إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾

هذه إجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام فيما سأل من ربه عز وجل وتذكير له بنعمه السالفة عليه فيما كان من أمر أمه حين كانت ترضعه وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه لأنه كان قد ولد فى السنة التى يقتلون فيها الغلمان فاتخذت له تابوتا فكانت ترضعه ثم تضعه فيه وترسله فى البحر وهو النيل وتمسكه إلى منزلها بحبل فذهبت مرة لتربط الحبل فانفلت منها وذهب به البحر فحصل لها من الغم والهم ما ذكره الله عنها فى قوله (وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها) فذهب به البحر إلى دار فرعون (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) أى قدرا مقدورا من الله حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بنى إسرائيل حذرا من وجود موسى فحكم الله وله السلطان العظيم والقدرة التامة أن لا يربى إلا على فراش فرعون ويغذى بطعامه وشرابه مع محبته وزوجته له ولهذا قال تعالى (يأخذه عدو لى وعدو له * وألقيت عليك محبة منى) أى عند عدوك جعلته يحبك قال سلمة بن كهيل (وألقيت عليك محبة منى) قال حببتك إلى عبادى (ولتصنع على عينى) قال أبو عمران الجونى تربى بعين الله وقال قتادة تغذى على عينى وقال معمر بن المثنى (ولتصنع على عينى) بحيث أرى ، وقال عبد الرحمن بن زيد

ابن أسلم يعني أجعله في بيت الملك ينعم ويترف وغذاؤه عندهم غذاء الملك فتلك الصنعة . وقوله (إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها) وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع فأباها قال الله تعالى (وحرمنا عليه المراضع من قبل) فجاءت أخته وقالت (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) تعني هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة فذهبت به وهم معها إلى أمه فعرضت عليه ثديها فقبله ففرحوا بذلك فرحاً شديداً واستأجروها على إرضاعه فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا وفي الآخرة أعظم وأجزل ، ولهذا جاء في الحديث « مثل الصانع الذي يحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها » وقال تعالى ههنا (فرجعناك إلى أمك كي تقر عنها ولا تحزن) أي عليك (وقتلت نفسا) يعني القبطي (فنجيناك من الغم) وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله ففر منهم هاربا حتى ورد ماء مدين ، وقال له ذلك الرجل الصالح (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) . وقوله (وفتناك فتونا) قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي رحمه الله في كتاب التفسير من سننه قوله (وفتناك فتونا) ﴿ حديث الفتون ﴾ حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا أصبغ بن زيد حدثنا القاسم بن أبي أيوب أخبرني سعيد بن جبير قال سأل عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام (وفتناك فتونا) فسألته عن الفتون ما هو فقال استأنف النهار يا ابن جبير فان لها حديثا طويلا فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون فقال تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أبناء وملوكا فقال بعضهم إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب فلما هلك قالوا ليس هكذا كان وعد إبراهيم عليه السلام فقال فرعون كيف ترون فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل فلا يجدون مولودا ذكرا إلا ذبحوه ففعلوا ذلك فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يذبحون قالوا ليوشكن أن تفنوا بني إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي يكفونكم فاقتلوا عاما كل مولود ذكر واتركوا بناتهم ودعوا عاما فلا تقتلوا منهم أحدا فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار فانهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مكاثرتهم إياكم ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهرون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان فولدته علانية آمنة فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام فوقع في قلبها الهم والحزن وذلك من الفتون يا ابن جبير ما دخل عليه وهو في بطن أمه مما يراد به فأوحى الله إليها أن لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم فلما ولدت فعلت ذلك فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت في نفسها ما فعلت بابني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلي من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فرضة مستقى جواري امرأة فرعون فلما رأينه أخذنه فأردن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن إن في هذا مالا وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئاً حتى دفعنه إليها فلما فتحته رأت فيه غلاما فألقى الله عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط وأصبح فؤاد أم موسى فارغا من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه وذلك من الفتون يا ابن جبير فقالت لهم أقروه فان هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستوهبه منه فان وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم وإن أمر بذبحه لم ألمكم فأتت فرعون فقالت قرة عين لي ولك فقال فرعون يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها ولكن حرمه ذلك » فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها لأن تختار له ظئرا فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئرا تأخذه منها فلم يقبل وأصبحت أم موسى والها فقالت لأخته قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرا أحي ابني أم قد

أ كلته الدواب ونسيت ما كان الله وعدها فيـه فبصرت به أخته عن جنب وهم لايشعرون ، والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه وهولايشعر به فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فأخذوها فقالوا مايدريك مانصحهم لههل تعرفينه ؟ حتىشكوا فى ذلك وذلكمنالفتون يا ابن جبير فقالت نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فىصهرالملك ورجاء منفعة الملك فتركوها فانطلقت إلىأمها فأخبرتها الخبر فجاءتأمه فلماوضعته فىحجرها نزا إلىثديها فمصه حتىامتلأ جنباه ريا وانطلق البشير إلىامرأة فرعون يبشرونها أن قدوجدنا لابنك ظئرا فأرسلت إليها فأتت بهاوبه فلما رأت مايصنع بها قالت امكثى ترضعى ابنى هـذا فانى لم أحب شيئاً حبه قط قالت أم موسى لا أستطيع أن أدع بيتى وولدى فيضيع فانطابت نفسك أنتعطينيه فأذهب به إلى بيتى فيكون معى لاآلوه خيراً فانى غـير تاركة بيتى وولدى ، وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فيـه فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله منجز وعده فرجعت به إلى بيتها من يومها وأنبته الله نباتا حسنا وحفظه لما قد قضى فيه فلم يزل بنو إسرائيل وهم فىناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسىأزيرينىابنى فوعدتها يوما تزيرها إياه فيه ، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظؤرها وقهارمتها لايبقين أحد منكم إلا استقبل ابنىاليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك وأناباعثة أمينا يحصى مايصنع كل إنسان منكم فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج منبيت أمه إلى أن دخـل علىامرأة فرعون فلما دخل عليها نحلته وأكرمته وفرحت به ونحلت أمه لحسن أثرها عليه ثم قالت لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه فلما دخلتبه عليه جعله فى حجره فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض فقال الغواة من أعـداء الله لفرعون ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه انه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك فأرسـل إلى الذباحين ليذبحوه وذلك من الفتون يا ابن جبير بعـد كل بلاء ابتلى به .

وأريد به فتونا فجاءت امرأة فرعون فقالت مابدالك فى هـذا الغلام الذى وهبتهلى ؟ فقال ألاترينه يزعم أنه يصرعنى ويعلونى فقالت اجعل بينى وبينك أمرا يعرف الحق به ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقدمهن اليـه فان بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل وإنتناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحدا لايؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل فقرب اليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده فقالت المرأة ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد هم به وكان الله بالغاً فيه أمره ، فلما بلغ أشـده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بنى إسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل الامتناع فبينما موسى عليه السلام يمشى فى ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعونى والآخر إسرائيلى فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى فغضب موسى غضباً شديدا لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بنى إسرائيل وحفظه لهم لايعلم الناس إلا إنما ذلك من الرضاع إلا أم موسى إلاأن يكون الله أطلع موسى منذلك على مالم يطلع عليه غيره فوكز موسى الفرعونى فقتله وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والاسرائيلى فقال موسى حين قتل الرجل هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ثم قال (رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى فغفرله إنه هو الغفور الرحيم) فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب الأخبار فأتى فرعون فقيلله إن بنى إسرائيل قتلوا رجلامن آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم فقال ابغونى قاتله ومن يشهد عليه فان الملك وإن كان صفوة مع قومه لايستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت فاطلبوا لى علم ذلك آخذ لكم بحقكم فبينماهم يطوفون لايجدون ثبتاً إذا بموسى من الغـد قد رأى ذلك الإسرائيلى يقاتل رجلا من آل فرعون آخر فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى فصادف موسى قدندم على ما كان منـه وكره الذى رأى فغضب الاسرائيلى وهو يريد أن يبطش بالفرعونى فقال للاسرائيلى لمـا فعل بالأمس واليوم إنك لغوى مبيـن فنظر الاسرائيلى إلى موسى بعـد ماقال له ما قال فإذا هو غضـبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيـه الفرعونى فخاف أن يكون بعـد ما قال له إنك لغوى مبين أن يكون إياهأراد ولم يكنأرادهإنما أراد الفرعونى فخاف الاسرائيلى وقال ياموسى أتريدأنتقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس وإنمـا قاله مخافـة أن يكون إياه أراد موسى ليقتـله فتتاركا وانطلق الفرعونى فأخـبرهم بمـا سمع

من الإسرائيلى من الخبر حين يقول ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى فأخذ رسل فرعون فى الطريق الأعظم يمشون على هيئتهم يطلبون موسى وهم لايخافون أن يفوتهم فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة فاختصر طريقا حتى سبقهم إلى موسى فأخبره وذلك من الفتون يا ابن جبير ، فخرج موسى متوجها نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل فانه قال (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل * ولماورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان) يعنى بذلك حابستين غنمهما فقال لهما ماخطبكما معتزلتين لاتسقيان مع الناس ؟ قالتا ليس لنا قوة نزاحم القوم وإنما نسقى من فضول حياضهم فسقى لهما فجعل يغترف فى الدلو ماء كثيرا حتى كان أول الرعاء فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما وانصرف موسى عليه السلام فاستظل بشجرة وقال (رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلا بطانا فقال إن لكما اليوم لشأنا فأخبرتاه بما صنع موسى فأمر إحداهما أن تدعوه فأتت موسى فدعته فلما كلمه قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا فى مملكته فقالت إحداهما (يا أبت استأجره إن خيرمن استأجرت القوى الأمين) فاحتملته الغيرة على أن قال لها مايدريك ماقوته وما أمانته فقالت أما قوته فما رأيت منه فى الدلو حين سقى لنا لم أر رجلا قط أقوى فى ذلك السقى منه وأما الأمانة فانه نظر إلى حين أقبلت اليه وشخصت له فلما علم أنى امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك ثم قال لى امشى خلفى وانعتى لى الطريق فلم يفعل هذا إلا وهو أمين فسرى عن أبيها وصدقها وظن به الذى قالت فقال له هل لك أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين . ففعل فكانت على نبى الله موسى ثمان سنين واجبة وكانت سنتان عدة منه فقضى الله عنه عدته فأتمها عشرا ، قال سعيد وهو ابن جبير : فلقينى رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال هل تدرى أى الأجلين قضى موسى ؟ قلت لا وأنا يومئذ لا أدرى ، فلقيت ابن عباس فذكرت له ذلك ، فقال أما علمت أن ثمانيا كانت على نبى الله واجبة لم يكن نبى الله لينقص منها شيئا ويعلم أن الله كان قاضيا عن موسى عدته التى كان وعده فانه قضى عشر سنين ، فلقيت النصرانى فأخبرته ذلك فقال الذى سألته فأخبرك أعلم منك بذلك ، قلت أجل وأولى ، فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ماقص الله عليك فى القرآن فشكا إلى الله تعالى مايحذر من آل فرعون فى القتيل وعقدة لسانه فانه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام وسأل ربه أن يعينه بأخيه هرون يكون له ردءا ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه ، فآتاه الله سؤله وحل عقدة من لسانه وأوحى الله إلى هرون وأمره أن يلقاه ، فاندفع موسى بعصاه حتى لقى هرون عليه السلام ، فانطلقا جميعا إلى فرعون فأقاما على بابه حينا لايؤذن لهما ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقالا (إنا رسولا ربك) قال فمن ربكما ؟ فأخبراه بالذى قص الله عليك فى القرآن ؟ قال فما تريدان ؟ وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت قال أريد أن تؤمن بالله وترسل معنا بنى إسرائيل ؟ فأبى عليه وقال ائت بآية إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هى حية تسعى عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها فرعون قاصدة اليه خافها فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعنى من غير برص ثم ردها فعادت إلى لونها الأول ، فاستشار الملأ حوله فيما رأى ، فقالوا له هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى يعنى ملككم الذى هم فيه والعيش وأبوا على موسى أن يعطوه شيئا مما طلب وقالوا له اجمع لهما السحرة فانهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما فارسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم ، فلما أتوا فرعون قالوا بما يعمل هذا الساحر ؟ قالوا يعمل بالحيات ، قالوا فلا والله ما أحد فى الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصى الذى نعمل فما أجرنا إن نحن غلبنا ؟ قال لهم أنتم أقاربى وخاصتى وأنا صانع اليكم كل شىء أحببتم ، فتواعدوا يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى. قال سعيد بن جبير فحدثنى ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذى أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء . فلما اجتمعوا

فى صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض انطلقوا فلنحضر هذا الأمر (لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) يعنون موسى وهارون استهزاء بهما ؟ ف(قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين *قال بل ألقوا ، فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) فرأى موسى من سحرهم ما أوجس فى نفسه خيفة فأوحى الله إليه أن ألق عصاك فلما ألقاها صارت ثعبانا عظيمة فاغرة فاها فجعلت العصى تلتبس بالحبال حتى صارت جرزاً إلى الثعبان تدخل فيه حتى ما أبقت عصا ولا حبلا إلا ابتلعته فلما عرف السحرة ذلك قالوا لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا ولكن هذا أمر من الله عز وجل آمنا بالله وبما جاء به موسى من عند الله ونتوب إلى الله مما كنا عليه ، فكسر الله ظهر فرعون فى ذلك للوطن وأشياعه وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون (فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) وامرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه وإنما كان حزنها وهمها لموسى ، فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بنى إسرائيل فإذا مضت أخلف موعده وقال هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟ فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه ويواثقه على أن يرسل معه بنى إسرائيل فإذا كف ذلك عنه أخلف موعده ونكث عهده حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلا ، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل فى المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك عبدى موسى بعصاه فانفلق اثنتى عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه ثم التق على من بقى بعد من فرعون وأشياعه ، فنسى موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصيا لله . فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى إنا لمدركون افعل ما أمرك به ربك فإنه لم يكذب ولم تكذب . قال وعدنى ربى إذا أتيت البحر انفرق اثنتى عشرة فرقة حتى أجاوزه ثم ذكر بعد ذلك العصى فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه التقى عليهم البحر كما أمر فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم (قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه) الآية . قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم ومضى فأنزلهم موسى منزلا وقال أطيعوا هارون فإنى قد استخلفته عليكم فإنى ذاهب إلى ربى وأجلهم ثلاثين يوما أن يرجع إليهم فيها فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه ثلاثين يوما وقد صامهن ليلهن ونهارهن وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم فتناول موسى من نبات الأرض شيئا فمضغه فقال له ربه حين أتاه لم أفطرت وهو أعلم بالذى كان ، قال يا رب إنى كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب الريح قال أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ارجع فصم عشراً ثم ائتنى ففعل موسى عليه السلام ما أمر به ، فلما رأى قومه أنه لم يرجع إليهم فى الأجل ساءهم ذلك وكان هارون قد خطبهم وقال إنكم قد خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوارى وودائع ولكم فيهم مثل ذلك فإنى أرى أنكم تحتسبون مالكم عندهم ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية ولسنا برادين إليهم شيئا من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا فحفر حفيرا وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوه فى ذلك الحفير ثم أوقد عليه النار فأحرقته فقال لا يكون لنا ولا لهم وكان السامرى من قوم يعبدون البقر جيران لبنى إسرائيل ولم يكن من بنى إسرائيل فاحتمل مع موسى وبنى إسرائيل حين احتملوا فقضى له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة فمر بهارون فقال له هارون عليه السلام يا سامرى ألا تلقى ما فى يدك وهو قابض عليه لا يراه أحد طول ذلك فقال هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر ولا ألقيها لشىء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يجعلها ما أريد ، فألقاها ودعا له هارون ، فقال أريد أن يكون عجلا فاجتمع ما كان فى الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد فصار عجلا أجوف ليس فيه روح وله خوار ، قال ابن عباس : لا والله ما كان له صوت قط

إنمـا كانت الريح تدخل فى دبره وتخرج من فيـه وكان ذلك الصوت من ذلك فتفرق بنو إسرائيل فرقا فقالت فرقة يا سامرى ما هذا وأنت أعلم به؟ قال هذا ربكم ولـكن موسى أضل الطريق ، فقالت فرقة لانـكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى فان كان ربنا لم نـكن ضيعناه وعجزنا فيـه حين رأينا وإن لم يكن ربنا فانا نتبع قول موسى ، وقالت فرقة هـذا من عمل الشيطان وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق ، وأشرب فرقة فى قلوبهم الصدق بمـا قال السامرى فى العجل وأعلنوا التـكذيب به ، فقال لهم هارون (يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى) قالوا فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوما ثم أخلفنا ، هذه أربعون يوما قد مضت ، وقال سفهاؤهم أخطأ ربه فهو يطلبه يتبعه ، فلما كلم الله موسى وقال له ما قال أخبره بما لقى قومه من بعده (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) فقال لهم ما سمعتم فى القرآن وأخذ برأس أخيه يجره إليه وألقى الألواح من الغضب ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له وانصرف إلى السامرى فقال له ماحملك على ما صنعت قال قبضت قبضة من أثر الرسول وفطنت لها وعميت عليكم (فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى ، قال فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لامساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً) ، ولو كان إلها لم يخلص إلى ذلك منه فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأى هارون فقالوا لجماعتهم ياموسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فيكفر عنا ما عملنا فاختار موسى قومه سبعين رجلا لذلك لا يألو الخير خيار بنى إسرائيل ومن لم يشرك فى العجل فانطلق بهم يسـأل لهم التوبة فرجفت بهم الأرض فاستحيا نبى الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال (رب لو شئت أهلـكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بمـا فعل السفهاء منا) وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به فلذلك رجفت بهم الأرض فقال (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسـول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل) فقال يا رب سألتك التوبة لقومى فقلت إن رحمتى كتبتها لقوم غير قومى هلا أخرتنى حتى تخرجنى فى أمة ذلك الرجل المرحومة فقال له إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقى من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالى من قتل فى ذلك الوطن وتاب أولئك الذين كان خفى على موسى وهارون واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا وغفر الله للقاتل والمقتول ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجها نحو الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعـد ما سكت عنه الغضب فأمرهم بالذى أمرهم به أن يبلغهم من الوظائف فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقروا بها فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم فأخذوا الـكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل والـكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خلقهم خلق منكر وذكروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عظمها فقالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين لا طاقة لنا بهم ولا ندخلها ماداموا فيها فان يخرجوا منها فانا داخلون قال رجلان من الذين يخافون قيل ليزيد هـكذا قرأت قال نعم من الجبارين آمنا بموسى وخرجا إليه قالوا نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم فانهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فانكم غالبون ويقول أناس إنهم من قوم موسى فقال الذين يخافون بنو إسرائيل (قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) فأغضبوا موسى فدعا عليهم وسماهم فاسقين ولم يدع عليهم قبـل ذلك لمـا رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم موسى فاسقين وحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار وظلل عليهم الغمام فى التيـه وأنزل عليهم المن والسلوى وجعل لهم ثيابا لا تبلى ولا تتسخ وجعل بين ظهرانيهم حجرا مربعا وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فى كل ناحية ثلاثة أعين وأعلم كل سبط عينهم التى يشربون منها فلا يرتحلون من مكان إلا وجدوا ذلك بالحجر بينهم بالمكان الذى كان فيـه بالأمس : رفع ابن عباس هـذا الحـديث إلى النبى ﷺ وصدق ذلك عندى أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث فأنـكر عليـه أن يكون الفرعونى الذى أفشى

على موسى أمر القتيل الذى قتل فقال كيف يفشى عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلى الذى حضر ذلك فغضب ابن عباس فأخذ بيد معاوية وانطلق به إلى سعد بن مالك الزهرى فقال له يا أبا إسحاق هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذى قتل من آل فرعون ؟ الاسرائيلى الذى أفشى عليه أم الفرعونى ؟ قال إنما أفشى عليه الفرعونى بما سمع من الإسرائيلى الذى شهد على ذلك وحضره هكذا رواه النسائى فى السنن الكبرى وأخرجه أبو جعفر بن جرير وابن أبى حاتم فى تفسيريهما كلهم من حديث يزيد بن هارون به وهو موقوف من كلام ابن عباس وليس فيه مرفوع إلا قليل منه وكأنه تلقاه ابن عباس رضى الله عنهما مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار . أو غيره والله أعلم وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك أيضاً ، وقوله عزوجل

﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي * اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾

يقول تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام إنه لبث مقيماً فى أهل مدين فارا من فرعون وملئه يرعى على صهره حتى انتهت المدة وانقضى الأجل ثم جاء موافقاً لقدر الله وإرادته من غير ميعاد والأمر كله لله تبارك وتعالى وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء ولهذا قال (ثم جئت على قدر يا موسى) قال مجاهد أى على موعد ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله (ثم جئت على قدر ياموسى) قال على قدر الرسالة والنبوة . وقوله (واصطنعتك لنفسى) أى اصطفيتك واجتبيتك رسولا لنفسى أى كما أريد وأشاء ، وقال البخارى عند تفسيرها حدثنا الصلت بن محمد حدثنا مهدى بن ميمون حدثنا محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال « التقى آدم وموسى فقال موسى أنت الذى أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة فقال آدم وأنت الذى اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه وأنزل عليك التوراة قال نعم قال فوجدته مكتوبا على قبل أن يخلقنى قال نعم فحج آدم موسى » أخرجاه وقوله (اذهب أنت وأخوك بآياتى) أى بحججى وبراهينى ومعجزاتى (ولا تنيافى ذكرى) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس لا تبطئا ، وقال مجاهد عن ابن عباس لا تضعفا والمراد أنهما لايفتران فى ذكر الله بل يذكران الله فى حال مواجهة فرعون ليكون ذكر الله عونا لهما عليه وقوة لهما وسلطانا كاسراً له كما جاء فى الحديث « إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو مناجز قرنه » وقوله (اذهبا إلى فرعون إنه طغى) أى تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) هذه الآية فيها عبرة عظيمة وهو أن فرعون فى غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين كما قال يزيد الرقاشى عند قوله (فقولا له قولا لينا)

يامن يتحبب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه ؟

وقال وهب بن منبه قولا له إنى إلى العفو والمغفرة أقرب منى إلى الغضب والعقوبة وعن عكرمة فى قوله (فقولا له قولا لينا) قال لا إله إلا الله ، وقال عمرو بن عبيد عن الحسن البصرى (فقولا له قولا لينا) أعذرا إليه قولا له إن لك ربا ولك معادا وإن بين يديك جنة ونارا وقال بقيه عن على بن هارون عن رجل عن الضحاك بن مزاحم عن النزال بن سبرة عن على فى قوله (فقولا له قولا لينا) قال كنه وكذا روى عن سفيان الثورى كنه بأبى مرة والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل رفيق ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ وأنجع كما قال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) وقوله (لعله يتذكر أو يخشى) أى لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة أو يخشى أى يوجد طاعة من خشية ربه كما قال تعالى (لمن أراد أن يذكر أو يخشى) فالتذكر الرجوع عن المحذور والخشية تحصيل الطاعة ، وقال الحسن البصرى (لعله يتذكر أو يخشى) يقول : لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون أهلكه قبل أن أعذر إليه ، وههنا نذكر شعر زيد بن عمرو بن نفيل ويروى لأمية بن

أبى الصلت فيما ذكره ابن إسحاق .

وأنت الذى من فضل من ورحمة	بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له فاذهب وهارون فادعوا	إلى الله فرعون الذى كان باغيا
فقولا له هل أنت سويت هذه	بلاوتد حتى استقلت كما هيا
وقولا له آأنت رفعت هذه	بلا عمد ارفق إذن بك بانيا
وقولا له آأنت سويت وسطها	منيرا إذا ماجنه الليل هاديا
وقولا له من يخرج الشمس بكرة	فيصبح مامست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب فى الثرى	فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه فى رءوسه	ففى ذاك آيات لمن كان واعيا

وقوله عز وجل :

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۞ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۞ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۞ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن موسى وهرون عليهما السلام أنهما قالا مستجيرين بالله تعالى شاكيين إليه (إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) يعنيان أن يبدر إليهما بعقوبة أو يعتدى عليهما فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك قال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم أن يفرط يعجل وقال مجاهد يبسط علينا وقال الضحاك عن ابن عباس أو أن يطغى: يعتدى (قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى) أى لا تخافا منه فاننى معكما أسمع كلامكما وكلامه وأرى مكانكما ومكانه لا يخفى على من أمركم شىء واعلما أن ناصيته بيدى فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا باذنى وبعد أمرى وأنا معكما بحفظى ونصرى وتأييدى وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن عبد الله قال لما بعث الله عزوجل موسى إلى فرعون قال رب أى شىء أقول قال قل هيا شراهيا قال الأعمش فسر ذلك أنا الحى قبل كل شىء والحى بعد كل شىء إسناد جيد وشىء غريب (فأتياه فقولا إنا رسولا ربك) قد تقدم فى حديث الفتون عن ابن عباس أنه قال مكثا على بابه حينا لا يؤذن لهما حتى أذن لهما بعد حجاب شديد وذكر محمد بن إسحاق بن يسار أن موسى وأخاه هرون خرجا فوقفا بباب فرعون يلتمسان الاذن عليه وهما يقولان: إنا رسولا رب العالمين فآذنوا بنا هذا الرجل فمكثا فيما بلغنى سنتين يغدوان ويروحان لا يعلم بهما ولا يجترىء أحد على أن يخبره بشأنهما حتى دخل عليه بطال له يلاعبه ويضحكه فقال له أيها الملك إن على بابك رجلا يقول قولا عجبا يزعم أن له إلها غيرك أرسله إليك . قال ببابى؟ قال نعم قال أدخلوه فدخل ومعه أخوه هرون وفى يده عصاه فلما وقف على فرعون قال إنى رسول رب العالمين فعرفه فرعون ، وذكر السدى أنه لما قدم بلاد مصر ضاف أمه وأخاه وهما لا يعرفانه وكان طعامهما ليلتئذ الطفيل وهو اللفت ثم عرفاه وسلما عليه فقال له موسى ياهرون إن ربى قد أمرنى أن آتى هذا الرجل فرعون فأدعوه إلى الله وأمرك أن تعاوننى قال افعل ما أمرك ربك فذهبا وكان ذلك ليلا فضرب موسى باب القصر بعصاه فسمع فرعون فغضب وقال من يجترىء على هذا الصنيع الشديد فأخبره السدنة والبوابون بأن ههنا رجلا مجنونا يقول إنه رسول الله فقال على به فلما وقفا بين يديه قالا وقال لهما ما ذكر الله فى كتابه وقوله (قد جئناك بآية من ربك) أى بدلالة ومعجزة من ربك (والسلام على من اتبع الهدى) أى والسلام عليك إن اتبعت الهدى ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتابا كان أوله « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم

الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فانى أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين » وكذلك لما كتب مسيلمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا صورته من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك أما بعد فانى قد أشركتك فى الأمر فلك المدر ولى الوبر ولكن قريش قوم يعتدون فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم « من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ولهذا قال موسى وهرون عليهما السلام لفرعون (والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) أى قد أخبرنا الله فيما أوحاه الينا من الوحى المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته كما قال تعالى (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا * فان الجحيم هى المأوى) وقال تعالى (فأنذرتكم ناراً تلظى * لا يصلاها إلا الأشقى * الذى كذب وتولى) وقال تعالى (فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى) أى كذب بقلبه وتولى بفعله

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾

يقول تعالى مخبرا عن فرعون أنه قال لموسى منكرا وجود الصانع الخالق إله كل شىء وربه ومليكه قال (فمن ربكما يا موسى) أى الذى بعثك وأرسلك من هو فانى لا أعرفه وما علمت لكم من إله غيرى (قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يقول خلق لكل شىء زوجه وقال الضحاك عن ابن عباس جعل الإنسان إنسانا والحمار حمارا والشاة شاة وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد أعطى كل شىء صورته وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد: سوى خلق كل دابة وقال سعيد بن جبير فى قوله (أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) قال أعطى كل ذى خلق ما يصلحه من خلقه ولم يجعل للانسان من خلق الدابة ولا للدابة من خلق الكلب ولا للكلب من خلق الشاة وأعطى كل شىء ما ينبغى له من النكاح وهيأ كل شىء على ذلك ليس شىء منها يشبه شيئا من أفعاله فى الخلق والرزق والنكاح ، وقال بعض المفسرين أعطى كل شىء خلقه ثم هدى كقوله تعالى (الذى قدر فهدى) أى قدر قدرا وهدى الخلائق إليه أى كتب الأعمال والآجال والأرزاق ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحيدون عنه ولا يقدر أحد على الخروج منه . يقول ربنا الذى خلق الخلق وقدر القدر وجبل الخليقة على ما أراد (قال فما بال القرون الأولى) أصح الأقوال فى معنى ذلك أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذى أرسله هو الذى خلق ورزق وقدر فهدى شرع يحتج بالقرون الأولى أى الذين لم يعبدوا الله أى فما بالهم إذ كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره فقال له موسى فى جواب ذلك هم وإن لم يعبدوه فان عملهم عند الله مضبوط عليهم وسيجزيهم بعملهم فى كتاب الله وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال (لا يضل ربى ولا ينسى) أى لا يشذ عنه شىء ولا يفوته صغير ولا كبير ولا ينسى شيئا يصف علمه تعالى بأنه بكل شىء محيط وأنه لا ينسى شيئاً تبارك وتعالى وتقدس وتنزه فان علم المخلوق يعتريه نقصانان أحدهما عدم الاحاطة بالشىء والآخر نسيانه بعد علمه فنزه نفسه عن ذلك

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ * مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ * وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه عز وجل حين سأله فرعون عنه فقال (الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى)

ثم اعترض الكلام بين ذلك ثم قال (الذي جعل لكم الأرض مهادا) وفي قراءة بعضهم مهدا أي قرارا تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها وتسافرون على ظهرها (وسلك لكم فيها سبلا) أي جعل لكم طرقا تمشون في مناكبها كما قال تعالى (وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون) (وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) أي من أنواع النباتات من زروع وثمار ومن حامض وحلو ومر وسائر الأنواع (كلوا وارعوا أنعامكم) أي شيء لطعامكم وفاكهتكم وشيء لأنعامكم لأقواتها خضرا ويبسا (إن في ذلك لآيات) أي لدلالات وحججا وبراهين (لأولي النهى) أي لذوي العقول السليمة المستقيمة على أنه لا إله إلا الله ولا رب سواه (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) أي من الأرض مبدؤكم فان أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض وفيها نعيدكم أي وإليها تصيرون إذا متم وبليتم ومنها نخرجكم تارة أخرى (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) وهذه الآية كقوله تعالى (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) وفي الحديث الذي في السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر وقال منها خلقناكم ثم أخذ أخرى وقال وفيها نعيدكم ثم أخرى وقال ومنها نخرجكم تارة أخرى وقوله (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) يعني فرعون أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات وعاين ذلك وأبصره فكذب بها وأباها كفرا وعنادا وبغيا كما قال تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) الآية

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾

يقول تعالى مخبرا عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى وهي إلقاء عصاه فصارت ثعبانا عظيما ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء فقال هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس فيتبعونك وتكاثرنا بهم ولا يتم هذا معك فان عندنا سحرا مثل سحرك فلا يغرنك ما أنت فيه (فاجعل بيننا وبينك موعدا) أي يوما نجتمع نحن وأنت فيه فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين فعند ذلك (قال) لهم موسى (موعدكم يوم الزينة) وهو يوم عيدهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماع جميعهم ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء ومعجزات الأنبياء وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية ولهذا قال (وأن يحشر الناس) أي جميعهم (ضحى) أي ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح ، وهكذا شأن الأنبياء كل أمرهم بين واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج ولهذا لم يقل ليلا ولكن نهارا ضحى قال ابن عباس وكان يوم الزينة يوم عاشوراء وقال السدي وقتادة وابن زيد كان يوم عيدهم وقال سعيد بن جبير كان يوم سوقهم ولا منافاة قلت وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده كما ثبت في الصحيح وقال وهب ابن منبه قال فرعون ياموسى اجعل بيننا وبينك أجلا ننظر فيه قال موسى لم أومر بهذا إنما أمرت بمناجزتك إن أنت لم تخرج دخلت إليك فأوحى الله إلى موسى أن اجعل بينك وبينه أجلا وقل له أن يجعل هو قال فرعون اجعله إلى أربعين يوما ففعل وقال مجاهد وقتادة مكانا سوى منصفا وقال السدي عدلا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مكانا سوى مستو بين الناس وما فيه لا يكون صوت ولا شيء يتغيب بعض ذلك عن بعض مستو حين يرى

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ * قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ * قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن فرعون أنه لما تواعد هو وموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معلومين تولى أى شرع فى جمع السحرة من مدائن مملكته كل من ينسب إلى السحر فى ذلك الزمان وقد كان السحر فيهم كثيرا نافقا جدا كما قال تعالى (وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم) ثم أتى أى اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة وجلس فرعون على سرير مملكته واصطف له أكابر دولته ووقفت الرعايا يمنة ويسرة وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكئا على عصاه ومعه أخوه هرون ووقفت السحرة بين يدى فرعون صفوفا وهو يحرضهم ويحثهم ويرغبهم فى إجادة عملهم فى ذلك اليوم ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم يقولون (أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين) (قال لهم ويلكم لا تفتروا على الله كذبا) أى لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها وإنها مخلوقة وليست مخلوقة فتكونون قد كذبتم على الله (فيسحتكم بعذاب) أى يهلككم بعقوبة هلاكا لا بقية له (وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم) قيل معناه أنهم تشاجروا فيما بينهم فقائل يقول ليس هذا بكلام ساحر إنما هذا كلام نبى ، وقائل يقول بل هو ساحر وقيل غير ذلك والله أعلم . وقوله (وأسروا النجوى) أى تناجوا فيما بينهم (قالوا إن هذان لساحران) وهذه لغة لبعض العرب جاءت هذه القراءة على إعرابها ، ومنهم من قرأ (إن هذين لساحران) وهذه اللغة المشهورة وقد توسع النحاة فى الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه . والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم : تعلمون أن هذا الرجل وأخاه - يعنون موسى وهرون - ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر يريدان فى هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده فينصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم . وقوله (ويذهبا بطريقتكم المثلى) أى ويستبدا بهذه الطريقة وهى السحر فإنهم كانوا معظمين بسببها لهم أموال وأرزاق عليها يقولون إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض وتفردا بذلك وتمحضت لهما الرياسة بهادونكم ، وقد تقدم فى حديث الفتون أن ابن عباس قال فى قوله (ويذهبا بطريقتكم المثلى) يعنى ملكهم الذى هم فيه والعيش . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا نعيم بن حماد حدثنا هشيم عن عبد الرحمن بن إسحق سمع الشعبى يحدث عن على فى قوله (ويذهبا بطريقتكم المثلى) قال يصرفا وجوه الناس إليهما ، وقال مجاهد (ويذهبا بطريقتكم المثلى) قال أولو الشرف والعقل والأسنان . وقال أبو صالح بطريقتكم المثلى أشرافكم وسرواتكم ، وقال عكرمة بخيركم ، وقال قتادة وطريقتهم المثلى يومئذ بنو إسرائيل وكانوا أكثر القوم عددا وأموالا فقال عدو الله يريدان أن يذهبا بها لأنفسهما وقال عبد الرحمن بن زيد بطريقتكم المثلى بالذى أنتم عليه ، وقوله (فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا) أى اجتمعوا كلكم صفا واحدا وألقوا ما فى أيديكم مرة واحدة لتبهروا الأبصار وتغلبوا هذا وأخاه (وقد أفلح اليوم من استعلى) أى منا ومنه ، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل وأما هو فينال الرياسة العظيمة

﴿ قَالُوا يَٰمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام أنهم قالوا لموسى (إما أن تلقى) أى أنت أولا (وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا) أى أنتم أولا لنرى ماذا تصنعون من السحر وليظهر للناس جلية أمرهم (فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) وفى الآية الأخرى أنهم لما ألقوا (قالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) وقال تعالى (سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) وقال ههنا (فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى)

وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها وإنما كانت حيلة وكانوا جما غفيراً وجمعاً كثيرا فألقى كل منهم عصا وحبلا حتى صار الوادى ملآن حيات يركب بعضها بعضاً ، وقوله (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) أى خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ويغتروا بهم قبل أن يلقى ما فى يمينه فأوحى الله تعالى إليه فى الساعة الراهنة أن ألقى ما فى يمينك يعنى عصاك فإذا هى تلقف ما صنعوا وذلك أنها صارت تنينا عظيما هائلا ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق منها شيئا إلا تلقفته وابتلعته والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانا جهرة نهارا ضحوة ، فقامت المعجزة واتضح البرهان ووقع الحق وبطل السحر ولهذا قال تعالى (إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن موسى الشيبانى حدثنا حماد بن خالد حدثنا ابن معاذ ـ أحسبه الصائغ ـ عن الحسن عن جندب بن عبد الله البجلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أخذتم ـ يعنى الساحر ـ فاقتلوه ـ ثم قرأ ـ (ولا يفلح الساحر حيث أتى) قال لا يؤمن حيث وجد » وقد روى أصله الترمذى موقوفا ومرفوعا . فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه علموا علم اليقين أن هذا الذى فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل وأنه حق لا مرية فيه ولا يقدر على هذا إلا الذى يقول للشىء كن فيكون فعند ذلك وقعوا سجدا لله وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون ولهذ قال ابن عباس وعبيد بن عمير : كانوا أول النهار سحرة وفى آخر النهار شهداء بررة. قال محمد بن كعب كانوا ثمانين ألفاً ، وقال القاسم بن أبى بزة كانوا سبعين ألفاً وقال السدى بضعة وثلاثين ألفاً ، وقال الثورى عن عبد العزيز ابن رفيع عن أبى ثمامة كان سحرة فرعون تسعة عشر ألفاً ، وقال محمد بن إسحق كانوا خمسة عشر ألفاً ، وقال كعب الأحبار كانوا اثنى عشر ألفاً ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا محمد بن على بن حمزة حدثنا على بن الحسين ابن واقد عن أبيه عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس كانت السحرة سبعين رجلا أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا المسيب بن واضح بمكة حدثنا ابن المبارك قال : قال الأوزاعى لما خر السحرة سجدا رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها ، قال وذكر عن سعيد بن سلام حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن سلمان عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قوله (وألقى السحرة سجدا) قال رأوا منازلهم تبين لهم وهم فى سجودهم وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبى بزة

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ * قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغلب كل الغلب شرع فى المكابرة والبهت وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه فى السحرة فتهددهم وتوعدهم وقال (آمنتم له) أى صدقتموه (قبل أن آذن لكم) أى وما أمرتكم بذلك وافتتم علىّ فى ذلك ، وقال قولا يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) أى أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى واتفقتم أنتم وإياه علىّ وعلى رعيتى لتظهروه كما قال تعالى فى الآية الأخرى (إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون) ثم أخذ يتهددهم فقال (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل) أى لأجعلنكم مثلة ولأقتلنكم ولأشهرنكم قال ابن عباس فكان

أول من فعل ذلك رواه ابن أبي حاتم . وقوله (ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) أى أنتم تقولون إنى وقومى على ضلالة وأنتم مع موسى وقومه على الهدى فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه ، فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم هانت عليهم أنفسهم فى الله عزوجل و(قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينت) أى لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين (والذى فطرنا) يحتمل أن يكون قسما ويحتمل أن يكون معطوفا على البينات ، يعنون لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذى أنشأنا من العدم المبتدى خلقنا من الطين فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت (فاقض ما أنت قاض) أى فافعل ماشئت وما وصلت إليه يدك (إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) أى إنما لك تسلط فى هذه الدار وهى دار الزوال ونحن قد رغبنا فى دار القرار (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا) أى ما كان منا من الآثام خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبى حدثنا نعيم بن حماد حدثنا سفيان ابن عيينة عن أبى سعيد عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى (وما أكرهتنا عليه من السحر) قال أخذ فرعون أربعين غلاما من بنى إسرائيل فأمر أن يعلموا السحر بالفرماء وقال علموهم تعليما لا يعلمه أحد فى الأرض ، قال ابن عباس فهم من الذين آمنوا بموسى وهم من الذين قالوا (آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر) وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقوله (والله خير وأبقى) أى خير لنا منك (وأبقى) أى أدوم ثوابا مما كنت وعدتنا ومنيتنا وهو رواية عن ابن إسحاق رحمه الله . وقال محمد بن كعب القرظى (والله خير)أى لنا منك إن أطيع (وأبقى) أى منك عذابا إن عصى ، وروى نحوه عن ابن إسحاق أيضا . والظاهر أن فرعون لعنه الله صمم على ذلك وفعله بهم رحمة لهم من الله ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ * وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدى ويرغبونه فى ثوابه الأبدى المخلد فقالوا (إنه من يأت ربه مجرما) أى يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم (فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) كقوله (لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور) وقال (ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى) وقال تعالى (ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون) وقال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا إسماعيل أخبرنا سعيد بن يزيد عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ «أما أهل النار الذين هم أهلها فانهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم فتميتهم إماتة حتى إذا صاروا فحما أذن فى الشفاعة جىء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة فيقال يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل » فقال رجل من القوم كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية وهكذا أخرجه مسلم فى كتابه الصحيح من رواية شعبة وبشر بن المفضل كلاهما عن أبى سلمة سعيد بن يزيد به وقال ابن أبى حاتم ذكر عن عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث قال حدثنا أبى حدثنا حبان سمعت سليمان التيمى عن أبى نضرة عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية (إنه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) قال النبى ﷺ « أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ، وأما الذين ليسوا من أهلها فان النار تمسهم ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فتجعل الضبائر فيؤتى بهم نهرا يقال له الحياة أو الحيوان فينبتون كما ينبت العشب فى حميل السيل » وقوله تعالى (ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات) أى ومن لقى ربه يوم المعاد مؤمن القلب قد صدق ضميره بقوله وعمله (فأولئك لهم الدرجات العلى) أى الجنة ذات الدرجات العاليات والغرف الآمنات والمساكن الطيبات . قال الإمام أحمد حدثنا عفان أنبأنا همام حدثنا زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن عبادة بن الصامت عن

النبي ﷺ قال « الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة ومنها تخرج الأنهار الأربعة والعرش فوقها فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس » ورواه الترمذى من حديث يزيد بن هارون عن همام به ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقى أخبرنا خالد بن يزيد بن أبي مالك عن أبيه قال كان يقال الجنة مائة درجة فى كل درجة مائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فيهن الياقوت والحلى فى كل درجة أمير يرون له الفضل والسودد ، وفى الصحيحين « إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء لتفاضل ما بينهم ـ قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء قال ـ بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » وفى السنن وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما وقوله (جنات عدن) أى إقامة وهى بدل من الدرجات العلى (تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى ماكثين أبدا (وذلك جزاء من تزكى) أى طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك وعبد الله وحده لاشريك له واتبع المرسلين فيما جاءوا به من خير وطلب

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾

يقول تعالى مخبرا أنه أمر موسى عليه السلام حين أبى فرعون أن يرسل معه بنى إسرائيل أن يسرى بهم فى الليل ويذهب بهم من قبضة فرعون وقد بسط الله هذا المقام فى غير هذه السورة الكريمة وذلك أن موسى لما خرج ببنى إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لاداع ولا مجيب فغضب فرعون غضبا شديدا وأرسل فى المدائن حاشرين أى من يجمعون له الجند من بلدانه ورساتيقه يقول إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون ثم لما جمع جنده واستوسق له جيشه ساق فى طلبهم فأتبعوهم مشرقين أى عند طلوع الشمس (فلما تراءى الجمعان) أى نظر كل من الفريقين إلى الآخر (قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معى ربى سيهدين) ووقف موسى ببنى إسرائيل البحر أمامهم وفرعون وراءهم فعند ذلك أوحى الله إليه (أن اضرب لهم طريقا فى البحر يبسا) فضرب البحر بعصاه وقال انفلق على بإذن الله فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم أى الجبل العظيم فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابسا كوجه الأرض فلهذا قال (فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا) أى من فرعون (ولا تخشى) يعنى من البحر أن يغرق قومك ثم قال تعالى (فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم) أى البحر (ما غشيهم) أى الذى هو معروف ومشهور وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور كما قال تعالى (والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى) وقال الشاعر :

* أنا أبو النجم وشعرى شعرى * أى الذى يعرف وهو مشهور . وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم فى اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد كذلك يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ * كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ * وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾

يذكر تعالى نعمه على بنى إسرائيل العظام ومننه الجسام حيث أنجاهم من عدوهم فرعون وأقر أعينهم منه وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا فى صبيحة واحدة لم ينج منهم أحد كما قال (وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) وقال البخارى حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا روح بن عبادة حدثنا شعبة حدثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء فسألهم فقالوا هذا اليوم الذى أظفر الله فيه

موسى على فرعون فقال « نحن أولى بموسى فصوموه » رواه مسلم أيضا فى صحيحه ، ثم إنه تعالى واعد موسى وبنى إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن وهو الذى كلمه الله تعالى عليه وسأل فيه الرؤية وأعطاه التوراة هنالك وفى غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل كما يقصه الله تعالى قريبا ، وأما المن والسلوى فقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة وغيرها فالمن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء ، والسلوى طائر يسقط عليهم فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد لطفا من الله ورحمة بهم وإحسانا إليهم ولهذا قال تعالى (كلوا من طيبات مارزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى) أى كلوا من هذا الرزق الذى رزقتكم ولا تطغوا فى رزقى فتأخذوه من غير حاجة وتخالفوا ما أمرتكم به (فيحل عليكم غضبى) أى أغضب عليكم (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما أى فقد شقى وقال شفى بن مانع إن فى جهنم قصرا يرمى الكافر من أعلاه فيهوى فى جهنم أربعين خريفا قبل أن يبلغ الصلصال وذلك قوله (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) رواه ابن أبى حاتم وقوله (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا) أى كل من تاب إلى تبت عليه من أى ذنب كان حتى إنه تاب تعالى على من عبد العجل من بنى إسرائيل ، وقوله تعالى (تاب) أى رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق ، وقوله (وآمن) أى بقلبه (وعمل صالحا) أى بجوارحه ، وقوله (ثم اهتدى) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أى ثم لم يشكك ، وقال سعيد بن جبير (ثم اهتدى) أى استقام على السنة والجماعة ، وروى نحوه عن مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف وقال قتادة (ثم اهتدى) أى لزم الاسلام حتى يموت ، وقال سفيان الثورى (ثم اهتدى) أى علم أن لهذا ثوابا ، وثم ههنا لترتيب الخبر على الخبر كقوله (ثم كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات)

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ * فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى * قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾

لما سار موسى عليه السلام ببنى إسرائيل بعد هلاك فرعون (وأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون) وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها عشرا فتمت أربعين ليلة أى يصومها ليلا ونهارا وقد تقدم فى حديث الفتون بيان ذلك فسارع موسى عليه السلام مبادرا الى الطور واستخلف على بنى إسرائيل أخاه هرون ولهذا قال تعالى (وما أعجلك عن قومك ياموسى قال هم أولاء على أثرى) أى قادمون ينزلون قريبا من الطور (وعجلت إليك رب لترضى) أى لتزداد عنى رضا (قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى) أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث فى بنى إسرائيل وعبادتهم العجل الذى عمله لهم ذلك السامرى. وفى الكتب الاسرائيلية أنه كان اسمه هرون أيضا وكتب الله تعالى له فى هذه المدة الألواح المتضمنة للتوراة كما قال تعالى (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين) أى عاقبة الخارجين عن طاعتى المخالفين لأمرى ، وقوله (فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا) أى بعد ما أخبره تعالى بذلك فى غاية الغضب والحنق عليهم ، هو فيما هو فيه

من الاعتناء بأمرهم وتسلم التوراة التى فيها شريعتهم وفيها شرف لهم وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يعلم كل عاقل له لب وحزم بطلان ماهم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم ولهذا قال رجع إليهم غضبان أسفا والأسف شدة الغضب وقال مجاهد غضبان أسفا أى جزعا وقال قتادة والسدى أسفا حزينا على ماصنع قومه من بعده (قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) أى أما وعدكم على لسانى كل خير فى الدنيا والآخرة وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه وغير ذلك من أيادى الله (أفطال عليكم العهد) أى فى انتظار ماوعدكم الله ونسيان ماسلف من نعمه ومابالعهد من قدم (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) أم ههنا بمعنى بل وهى للاضراب عن الكلام الأول وعدول إلى الثانى كأنه يقول بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى قالوا أى بنوا إسرائيل فى جواب ما أنبهم موسى وقرعهم (ما أخلفنا موعدك بملكنا) أى عن قدرتنا واختيارنا ، ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلى القبط الذى كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر فقذفناها أى ألقيناها عنا ، وقد تقدم فى حديث الفتون أن هرون عليه السلام هو الذى كان أمرهم بالقاء الحلى فى حفرة فيها نار وهى فى رواية السدى عن أبى مالك عن ابن عباس إنما أراد هرون أن يجتمع الحلى كله فى تلك الحفيرة ويجعل حجرا واحدا حتى إذا رجع موسى عليه السلام رأى فيه مايشاء ثم جاء ذلك السامرى فألقى عليها تلك القبضة التى أخذها من أثر الرسول وسأل من هرون أن يدعو الله أن يستجيب له فى دعوة فدعا له هرون وهو لايعلم مايريد فأجيب له فقال السامرى عند ذلك أسأل الله أن يكون عجلا فكان عجلا له خوار أى صوت استدراجا وإمهالا ومحنة واختبارا ولهذا قال (فكذلك ألقى السامرى ، فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار) وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبادة بن البخترى حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا حماد عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن هرون مر بالسامرى وهو ينحت العجل فقال له ماتصنع فقال أصنع مايضر ولا ينفع فقال هرون اللهم أعطه ماسألك على مافى نفسه ومضى هرون وقال السامرى اللهم إنى أسألك أن يخور فخار فكان إذا خار سجدوا له وإذا خار رفعوا رءوسهم . ثم رواه من وجه آخر عن حماد وقال أعمل ماينفع ولايضر وقال السدى كان يخور ويمشى فقالوا أى الضلال منهم الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه (هذا إلهكم وإله موسى فنسى) أى نسيه ههنا وذهب يتطلبه كذا تقدم فى حديث الفتون عن ابن عباس وبه قال مجاهد وقال سماك عن عكرمة عن ابن عباس فنسى أى نسى أن يذكركم أن هذا إلهكم وقال محمد بن إسحق عن حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فقالوا (هذا إلهكم وإله موسى) قال فعكفوا عليه وأحبوه حبا لم يحبوا شيئا قط يعنى مثله يقول الله (فنسى) أى ترك ما كان عليه من الإسلام يعنى السامرى قال الله تعالى ردا عليهم وتقريعا لهم وبيانا لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا اليه (أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا) أى العجل أفلا يرون انه لا يجيبهم إذا سألوه ولا إذا خاطبوه ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا أى فى دنياهم ولا فى أخراهم قال ابن عباس رضى الله عنهما لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح فى دبره فيخرج من فمه فيسمع له صوت ، وقد تقدم فى حديث الفتون عن الحسن البصرى أن هذا العجل اسمه بهموت وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم وعبدوا العجل فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير كما جاء فى الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب يعنى هل يصلى فيه أم لا فقال ابن عمر رضى الله عنهما انظروا إلى أهل العراق قتلوا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى الحسين وهم يسألون عن دم البعوضة !

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يخبر تعالى عما كان من نهى هرون عليه السلام لهم عن عبادتهم العجل وإخباره إياهم إنما هذا فتنة لكم وإن ربكم الرحمن الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً ، ذو العرش المجيد الفعال لما يريد (فاتبعونى وأطيعوا أمرى) أى فيما آمركم به واتركوا ما أنهاكم عنه (قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) أى لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه وخالفوا هرون فى ذلك وحاربوه وكادوا أن يقتلوه

﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ۝ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم فامتلأ عند ذلك غضبا وألقى ما كان فى يده من الألواح الإلهية وأخذ برأس أخيه يجره إليه وقد قدمنا فى سورة الأعراف بسط ذلك وذكرنا هناك حديث « ليس الخبر كالمعاينة » وشرع يلوم أخاه هرون فقال (ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن) أى فتخبرنى بهذا الأمر أول ما وقع (أفعصيت أمرى) أى فيما كنت قدمت إليك وهو قوله (اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) قال (يا ابن أم) ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ فى الحنو والعطف ولهذا قال (يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) الآية . هذا اعتذار من هرون عند موسى فى سبب تأخره عنه حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم (قال إنى خشيت) أن أتبعك فأخبرك بهذا فتقول لى لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم (ولم ترقب قولى) أى وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم ، قال ابن عباس وكان هرون هائبا مطيعاً له

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ۝ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۝ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۝ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾

يقول موسى عليه السلام للسامرى ما حملك على ما صنعت وما الذى عرض لك حتى فعلت ما فعلت قال محمد بن إسحق عن حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان السامرى رجلا من أهل باجرما وكان من قوم يعبدون البقر وكان حب عبادة البقر فى نفسه وكان قد أظهر الإسلام مع بنى إسرائيل وكان اسمه موسى بن ظفر وفى رواية عن ابن عباس أنه كان من كرمان وقال قتادة كان من قرية سامرا (قال بصرت بما لم يبصروا به) أى رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون (فقبضت قبضة من أثر الرسول) أى من أثر فرسه هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عمار بن الحارث أخبرنا عبيد الله بن موسى أخبرنا إسرائيل عن السدى عن أبى بن عمارة عن على رضى الله عنه قال إن جبريل عليه السلام لما نزل فصعد بموسى عليه السلام إلى السماء بصر به السامرى من بين الناس فقبض قبضة من أثر الفرس قال وحمل جبريل موسى عليهما السلام خلفه حتى إذا دنا من باب السماء صعد وكتب الله الألواح وهو يسمع صرير الأقلام فى الألواح فلما أخبره أن قومه قد فتنوا من بعده قال نزل موسى فأخذ العجل فأحرقه ، غريب ، وقال مجاهد (فقبضت قبضة من أثر الرسول) قال من تحت حافر فرس جبريل ، قال والقبضة ملء الكف والقبضة بأطراف الأصابع ، قال مجاهد نبذ السامرى أى ألقى ما كان فى يده على حلية بنى إسرائيل فانسبك

عجلا جسداً له خوار حفيف الريح فيه فهو خواره ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن يحيى أخبرنا على بن المدينى حدثنا يزيد بن زريع حدثنا عمارة حدثنا عكرمة أن السامرى رأى الرسول فألقى فى روعه أنك إن أخذت من أثر هذا الفرس قبضة فألقيتها فى شىء فقلت له كن فكان فقبض قبضة من أثر الرسول فيبست أصابعه على القبضة ، فلما ذهب موسى للميقات وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حلى آل فرعون فقال لهم السامرى إنما أصابكم من أجل هذا الحلى فاجمعوا فجمعوه فأوقدوا عليه فذاب فرآه السامرى فألقى فى روعه أنك لو قذفت هذه القبضة فى هذه فقلت كن فكان فقذف القبضة وقال كن فكان عجلا جسدا له خوار فقال (هذا إلهكم وإله موسى) ولهذا قال (فنبذتها) أى ألقيتها مع من ألقى (وكذلك سولت لى نفسى) أى حسنته وأعجبها إذ ذاك (قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس) أى كما أخذت ومسست مالم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول فعقوبتك فى الدنيا أن تقول لا مساس أى لا تماس الناس ولا يمسونك (وإن لك موعداً) أى يوم القيامة (لن تخلفه) أى لا محيد لك عنه ، وقال قتادة (أن تقول لا مساس) قال عقوبة لهم وبقاياهم اليوم يقولون لا مساس : وقوله (وإن لك موعداً لن تخلفه) قال الحسن وقتادة وأبو نهيك لن تغيب عنه وقوله (وانظر إلى إلهك) أى معبودك (الذى ظلت عليه عاكفا) أى أقمت على عبادته يعنى العجل (لنحرقنه) قال الضحاك عن ابن عباس والسدى سحله بالمبارد وألقاه على النار ، وقال قتادة استحال العجل من الذهب لحما ودما فحرقه بالنار ثم ألقى رماده فى البحر ولهذا قال (ثم لننسفنه فى اليم نسفا) وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن رجاء أنبأنا إسرائيل عن أبى إسحق عن عمارة بن عبد الله وأبى عبد الرحمن عن على رضى الله عنه قال : إن موسى لما تعجل إلى ربه عمد السامرى فجمع ماقدر عليه من حلى نساء بنى إسرائيل ثم صوره عجلا قال فعمد موسى إلى العجل فوضع عليه المبارد فبرده بها وهو على شط نهر فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب فقالوا لموسى ما توبتنا ؟ قال يقتل بعضكم بعضا وهكذا قال السدى وقد تقدم فى تفسير سورة البقرة ثم فى حديث الفتون بسط ذلك وقوله تعالى (إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما) يقول لهم موسى عليه السلام ليس هذا إلهكم إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو أى لا يستحق ذلك على العباد إلا هو ولا تنبغى العبادة إلا له فان كل شىء فقير إليه عبد له وقوله (وسع كل شىء علما) نصب على التمييز أى هو عالم بكل شىء ، أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ، وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ، والآيات فى هذا كثيرة جداً

﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۞ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ۞ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ كما قصصنا عليك خبر موسى وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والأمر الواقع كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص ، هذا وقد آتيناك من لدنا أى من عندنا ذكراً وهو القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد الذى لم يعط نبى من الأنبياء منذ بعثوا إلى أن ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم كتابا مثله ولا أكمل منه ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن وحكم الفصل بين الناس منه ، وقوله تعالى (من أعرض عنه) أى كذب به وأعرض عن اتباعه أمرا وطلبا وابتغى الهدى من غيره فان الله يضله ويهديه إلى سواء الجحيم ولهذا قال (من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزراً) أى إثما كما قال تعالى (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) وهذا عام فى كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم كما قال (لأنذركم به ومن بلغ) فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع فمن اتبعه هدى

ومن خالفه وأعرض عنه ضل وشقى فى الدنيـا والنار موعده يوم القيامة ولهذا قال (من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه) أى لا محيد لهم عنه ولا انفكاك (وساءلهم يوم القيامة حملا) أى بئس الحمل حملهم

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾

ثبت فى الحديث أن رسـول الله ﷺ سئل عن الصور فقال «قرن ينفخ فيه» وقد جاء فى حديث الصور من رواية أبى هريرة أنه قرن عظيم، الدائرة منه بقـدر السموات والأرض ينفخ فيه إسرافيـل عليه السلام وجاء فى الحديث « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له » فقالوا يا رسـول الله كيف نقول ؟ قال « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » وقوله (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) قيل معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال (يتخافتون بينهم) قال ابن عباس يتساررون بينهم أى يقول بعضهم لبعض إن لبثتم إلا عشرا أى فى الدار الدنيا لقـد كان لبثكم فيها قليلا عشرة أيام أونحوها قال الله تعالى (نحن أعلم بمـا يقولون) أى فى حال تناجيهم بينهم (إذ يقول أمثلهم طريقة) أى العاقل الـكامل فيهم (إن لبثتم إلا يوما) أى لقصر مدة الدنيا فى أنفسهم يوم المعاد لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها وسـاعاتها كأنها يوم واحد ولهـذا يستقصر الـكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة وكان غرضهم فى ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدةولهذاقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة — إلى قوله — ولـكنكم كنتم لا تعلمون) وقال تعالى (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) الآية وقال تعالى (كم لبثتم فى الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماأو بعض يوم فاسـأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) أى إنمـا كان لبثكم فيها قليلا لوكنتم تعلمون لآثرتم الباقى على الفانى ولـكن تصرفتم فأسأتم التصرف قدمتم الحاضر الفانى على الدائم الباقى .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾

يقول تعالى (ويسألونك عن الجبال أى هل تبقى يوم القيامة أو تزول ؟ فقل ينسفها ربى نسفا) أى يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييرا (فيذرها) أى الأرض (قاعا صفصفا) أى بساطا واحداً والقاع هو المستوى من الأرض والصفصف تأكيد لمعنى ذلك وقيل الذى لا نبـات فيه والأول أولى وإن كان الآخر مرادا أيضـا باللازم ولهذا قال (لاترى فيها عوجا ولا أمتا) أى لاترى فى الأرض يومئذ واديا ولا رابية ولا مكانا منخفضا ولا مرتفعا كذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهـد والحسن البصرى والضحاك وقتادة وغير واحد من السلف (يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له) أى يوم يرون هذه الأحوال والأهوال يستجيبون مسارعين إلى الداعى حيثما أمروا بادروا إليه ولو كان هـذا فى الدنيا لـكان أنفع لهم ولـكن حيث لا ينفعهـم كما قال تعالى (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننـا) وقال (مهطعين إلى الداع) وقال محمـد ابن كعب القرظى يحشر الله الناس يوم القيامة فى ظلمة ويطوى السماء وتتناثر النجوم وتذهب الشمس والقمر وينادى مناد فيتبع الناس الصوت يؤمونه ، فذلك قوله (يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له) وقال قتادة لا عوج له لا يميلون عنه وقال أبو صالح لاعوج له لا عوج عنه وقوله (وخشعت الأصوت للرحمن) قال ابن عباس سكنت وكذا قال السدى (فلا تسمع إلا همسا) قال سعيد بن جبير عن ابن عباس يعنى وطء الأقدام وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس وقتادة وابن زيد وغيرهم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (فلا تسمع إلا همسا) الصوت الخفى وهو رواية عن عكرمة والضحاك وقال سعيد بن جبير (فلا تسمع إلا همسا) الحديث وسره ووطء الأقدام فقد جمع سعيد كلا القولين

وهو محتمل أما وطء الأقدام فالمراد سعى الناس إلى المحشر وهو مشيهم فى سكون وخضوع ، وأما الكلام الخفى فقد يكون فى حال دون حال فقد قال تعالى (يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد)

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾

يقول تعالى (يومئذ) أى يوم القيامة (لاتنفع الشفاعة) أى عنده (إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) كقوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) وقوله (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقال (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) وقال (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) وقال (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لايتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) وفى الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم وأكرم الخلائق على الله عزوجل أنه قال « آتى تحت العرش وأخر لله ساجدا ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن فيد عنى ماشاء أن يدعنى ثم يقول يامحمد ارفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع - قال - فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود » فذكر أربع مرات صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء . وفى الحديث أيضا « يقول تعالى أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقول أخرجوا من النار من كان فى قلبه نصف مثقال من إيمان أخرجوا من النار من كان فى قلبه ما يزن ذرة من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان » الحديث ، وقوله (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى يحيط علماً بالخلائق كلهم (ولا يحيطون به علماً) كقوله (ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) وقوله (وعنت الوجوه للحى القيوم) قال ابن عباس وغير واحد خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى لايموت ، القيوم الذى لاينام وهو قيم على كل شىء يدبره ويحفظه فهو الكامل فى نفسه الذى كل شىء فقير إليه لا قوام له إلا به ، وقوله (وقد خاب من حمل ظلما) أى يوم القيامة فإن الله سيؤدى كل حق إلى صاحبه حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء ، وفى الحديث « يقول الله عزوجل وعزتى وجلالى لايجاوزنى اليوم ظلم ظالم » وفى الصحيح « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة والخيبة كل الخيبة من لقى الله وهو به مشرك فان الله تعالى يقول إن الشرك لظلم عظيم » وقوله (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) لما ذكر الظالمين ووعيدهم ثنى بالمتقين وحكمهم وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون أى لايزاد فى سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة وغير واحدة فالظلم الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره والهضم النقص

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

يقول تعالى ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعا لامحالة أنزلنا القرآن بشيراً ونذيرا بلسان عربى مبين فصيح لا لبس فيه ولاعى (وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون) أى يتركون المآثم والمحارم والفواحش (أو يحدث لهم ذكرا) وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات (فتعالى الله الملك الحق) أى تنزه وتقدس الملك الحق الذى هو حق ووعده حق ووعيده حق ورسله حق والجنة حق والنار حق وكل شىء منه حق ، وعدله تعالى أن لا يعذب أحدا قبل الانذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة ، وقوله (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن

يقضى إليك وحيه) كقوله تعالى فى سورة لاأقسم بيوم القيامة (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه * فاذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه) وثبت فى الصحيح عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعالج من الوحى شدة فكان مما يحرك به لسانه فأنزل الله هذه الآية يعنى أنه عليه السلام كان إذا جاءه جبريل بالوحى كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن فأرشده الله تعالى إلى ماهو الأسهل والأخف فى حقه لئلا يشق عليه فقال (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) أى أن نجمعه فى صدرك ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئا (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) وقال فى هذه الآية (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) أى بل أنصت فاذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده (وقل رب زدنى علما) أى زدنى منك علما ، قال ابن عيينة رحمه الله ولم يزل صلى الله عليه وسلم فى زيادة حتى توفاه الله عز وجل ولهذا جاء فى الحديث « إن الله تابع الوحى على رسوله حتى كان الوحى أكثر ما كان يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقال ابن ماجه حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا عبدالله بن نمير عن موسى بن عبيدة عن محمد بن ثابت عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى ماينفعنى وزدنى علما والحمد لله على كل حال » وأخرجه الترمذى عن أبى كريب عن عبد الله بن نمير به وقال غريب من هذا الوجه ، ورواه البزار عن عمرو بن على الفلاس عن أبى عاصم عن موسى بن عبيدة به وزاد فى آخره « وأعوذ بالله من حال أهل النار »

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾

قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : إنما سمى الانسان لأنه عهد إليه فنسى وكذا رواه على بن أبى طلحة عنه ، وقال مجاهد والحسن : ترك ، وقوله (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلا ، وقد تقدم الكلام على هذه القصة فى سورة البقرة وفى الأعراف وفى الحجر والكهف وسيأتى فى آخر سورة ص يذكر تعالى فيها خلق آدم وأمره الملائكة بالسجود له تشريفا وتكريما ويبين عداوة إبليس لبنى آدم ولأبيهم قديما ولهذا قال تعالى (فسجدوا إلا إبليس أبى) أى امتنع واستكبر (فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك) يعنى حواء عليهما السلام (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) أى إياك أن تسعى فى إخراجك منها فتتعب وتعنى وتشقى فى طلب رزقك فانك ههنا فى عيش رغيد هنىء بلا كلفة ولامشقة (إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى) إنما قرن بين الجوع والعرى لأن الجوع ذل الباطن والعرى ذل الظاهر (وأنك لا تظمؤ فيها ولا تضحى) وهذان أيضا متقابلان فالظمأ حر الباطن وهو العطش والضحى حر الظاهر . وقوله (فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) قد تقدم أنه دلاهما بغرور (وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين) وقد تقدم أن الله تعالى عهد إلى آدم وزوجه أن يأكلا من كل الثمار ولا يقربا هذه الشجرة المعينة فى الجنة فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها وكانت شجرة الخلد يعنى التى من أكل منها خلد ودام مكثه وقد جاء فى الحديث ذكر شجرة الخلد فقال أبو داود الطيالسى : حدثنا شعبة عن

أبي الضحاك سمعت أبا هريرة يحدث عن النبي ﷺ قال « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام مايقطعها وهي شجرة الخلد » ورواه الإمام أحمد ، وقوله (فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما) قال ابن أبي حاتم حدثنا علي ابن الحسين بن اشكاب حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم رجلا طوالا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه فأول ما بدا منه عورته فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة فأخذت شعره شجرة فنازعها فناداه الرحمن يا آدم مني تفر فلما سمع كلام الرحمن قال يارب لا ولكن استحياء أرأيت إن تبت ورجعت أعائدي إلى الجنة ؟ قال نعم » فذلك قوله (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) وهذا منقطع بين الحسن وأبي بن كعب فلم يسمعه منه وفي رفعه نظر أيضا وقوله (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) قال مجاهد يرقعان كهيئة الثوب وكذا قال قتادة والسدي ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا جعفر بن عون حدثنا سفيان عن ابن أبي ليلى عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) قال ينزعان ورق التين فيجعلانه على سوآتهما وقوله (وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) قال البخاري حدثنا قتيبة حدثنا أيوب بن النجار عن يحيي بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « حاج موسى آدم فقال له أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم ؟ قال آدم ياموسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه أتلومني على أمر كتبه الله على قبل أن يخلقني أو قدره الله علي قبل أن يخلقني — قال رسول الله ﷺ — فحج آدم موسى » وهذا الحديث له طرق في الصحيحين وغيرهما من المسانيد . وقال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني أنس بن عياض عن الحارث بن أبي ذباب عن يزيد بن هرمز قال سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى قال موسى أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك في جنته ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك ، قال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيا فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين عاما قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أفتلومني على أن عملت عملا كتب الله على أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة — قال رسول الله ﷺ — فحج آدم موسى » قال الحارث وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس اهبطوا منها جميعا أي من الجنة كلكم ، وقد بسطنا ذلك في سورة البقرة (بعضكم لبعض عدو) قال آدم وذريته ، وإبليس وذريته وقوله (فإما يأتينكم مني هدى) قال أبو العالية : الأنبياء والرسل والبيان (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) قال ابن عباس لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة (ومن أعرض عن ذكري) أي خالف أمري وما أنزلته على رسولي أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه (فإن له معيشة ضنكا) أي ضنكا في الدنيا فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره بل صدره ضيق حرج لضلاله وإن تنعم ظاهره ولبس ماشاء وأكل ماشاء وسكن حيث شاء فإن قلبه مالم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (فإن له معيشة ضنكا) قال الشقاء وقال العوفي عن ابن عباس (فإن له معيشة ضنكا) قال كلما أعطيته عبدا من عبادي قل أو كثر لا يتقيني فيه فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة ، وقال أيضا إن

قوما ضلالا أعرضوا عن الحق وكانوا فى سعة من الدنيا متكبرين فكانت معيشتهم ضنكا وذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس مخلفا لهم معايشهم من سوء ظنهم بالله والتكذيب فإذا كان العبد يكذب بالله ويسىء الظن به والثقة به اشتدت عليه معيشته فذلك الضنك ، وقال الضحاك هو العمل السيء والرزق الخبيث وكذا قال عكرمة ومالك بن دينار وقال سفيان ابن عيينة عن أبى حازم عن أبى سلمة عن أبى سعيد فى قوله (معيشة ضنكا) قال يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه، قال أبو حاتم الرازى : النعمان بن أبى عياش يكنى أبا سلمة ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان أنبأنا الوليد أنبأنا عبد الله بن لهيعة عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ فى قول الله عز وجل (فان له معيشة ضنكا) قال ضمة القبر له والموقوف أصح . وقال ابن أبى حاتم أيضا حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا أسد بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج أبو السمح عن ابن حجيرة واسمه عبد الرحمن عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال « المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويفسح له فى قبره سبعون ذراعا وينور له قبره كالقمر ليلة البدر أتدرون فيم أنزلت هذه الآية (فان له معيشة ضنكا)أتدرون ما المعيشة الضنك ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم قال «عذاب الكافر فى قبره والذى نفسى بيده إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تنينا ، أتدرون ما التنين ؟ تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رءوس ينفخون فى جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم يبعثون» رفعه منكر جداً وقال البزار حدثنا محمد ابن يحيى الأزدى حدثنا محمد بن عمرو حدثنا هشام بن سعد عن سعيد بن أبى هلال عن ابن حجيرة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قول الله عز وجل (فان له معيشة ضنكا) قال « المعيشة الضنك الذى قال الله إنه يسلط عليه تسعة وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة » وقال أيضاً حدثنا أبو زرعة حدثنا أبو الوليد حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ (فان له معيشة ضنكا) قال « عذاب القبر » إسناد جيد وقوله (ونحشره يوم القيامة أعمى) قال مجاهد وأبو صالح والسدى لاحجة له وقال عكرمة عمى عليه كل شيء إلا جهنم ويحتمل أن يكون المراد أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضا كما قال تعالى (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم) الآية ولهذا يقول (رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً) أى فى الدنيا (قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أى لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) فان الجزاء من جنس العمل . فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه فليس داخلا فى هذا الوعيد الخاص وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى فانه قد وردت السنة بالنهى الأكيد والوعيد الشديد فى ذلك ، قال الإمام أحمد حدثنا خلف بن الوليد حدثنا خالد عن يزيد بن أبى زياد عن عيسى بن فائد عن رجل عن سعد بن عبادة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « مامن رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقى الله يوم يلقاه وهو أجذم » ثم رواه الإمام أحمد من حديث يزيد بن أبى زياد عن عيسى بن فائد عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ فذكر مثله سواء

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾

يقول تعالى وهكذا نجازى المسرفين المكذبين بآيات الله فى الدنيا والآخرة (لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق) ولهذا قال(ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) أى أشد ألماً من عذاب الدنيا وأدوم عليهم فهم مخلدون فيه ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين « إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة »

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ * وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى * فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ

ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾

يقول تعالى (أفلم يهد) لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمد كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها يمشون فيها (إن في ذلك لآيات لأولي النهى) أي العقول الصحيحة والألباب المستقيمة كما قال تعالى (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) وقال في سورة الم السجدة (أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم) الآية ثم قال تعالى (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى) أي لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة لجاءهم العذاب بغتة ولهذا قال لنبيه مسليا له (فاصبر على ما يقولون) أي من تكذيبهم لك (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس) يعني صلاة الفجر (وقبل غروبها) يعني صلاة العصر كما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ هذه الآية ، وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن عمارة بن رؤيبة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » رواه مسلم من حديث عبد الملك بن عمير به وفي المسند والسنن عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه وإن أعلاهم منزلة لمن ينظر إلى الله تعالى في اليوم مرتين » وقوله (ومن آناء الليل فسبح) أي من ساعاته فتهجد به وحمله بعضهم على المغرب والعشاء (وأطراف النهار) في مقابلة آناء الليل (لعلك ترضى) كما قال تعالى (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وفي الصحيح « يقول الله تعالى يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك فيقول هل رضيتم فيقولون ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك فيقول إني أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا » وفي الحديث الآخر « يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويزحزحنا عن النار ويدخلنا الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم خيرا من النظر إليه ، وهي الزيادة » .

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة لنختبرهم بذلك وقليل من عبادي الشكور ، وقال مجاهد أزواجا منهم يعني الأغنياء فقد آتاك خيرا مما آتاهم كما قال في الآية الأخرى (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك) الآية وكذلك ما ادخره الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في الآخرة أمر عظيم لا يحد ولا يوصف كما قال تعالى (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ولهذا قال (ورزق ربك خير وأبقى) وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن فرآه متوسدا مضطجعا على رمال حصير وليس في البيت إلا صبرة من قرظ واهبة معلقة فابتدرت عينا عمر بالبكاء فقال له رسول الله ﷺ « ما يبكيك يا عمر ؟ » فقال يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت صفوة الله من خلقه فقال « أو في شك أنت يا ابن الخطاب أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا » فكان صلى الله عليه وسلم أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله ولم يدخر لنفسه شيئا لغد ،

قال ابن أبي حاتم أنبأنا يونس أخبرني ابن وهب أخبرني مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أخوف ما أخاف عليكم مايفتح الله لكم من زهرة الدنيا » قالوا وما زهرة الدنيا يارسول الله قال « بركات الأرض » وقال قتادة والسدي : زهرة الحياة الدنيا يعني زينة الحياة الدنيا وقال قتادة (لنفتنهم فيه) لنبتليهم وقوله (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) أي استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة واصبر أنت على فعلها كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا) وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويرفأ وكان له ساعة من الليل يصلي فيها فربما لم يقم فنقول لايقوم الليلة كما كان يقوم وكان إذا استيقظ أقام يعني أهله وقال (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) وقوله (لانسألك رزقا نحن نرزقك) يعني إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لاتحتسب كما قال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب) وقال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون — إلى قوله — إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) ولهذا قال لانسألك رزقا نحن نرزقك ، وقال الثوري لانسألك رزقا أي لانكلفك الطلب وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن هشام عن أبيه أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا فرأى من دنياهم طرفا فإذا رجع إلى أهله فدخل الدار قرأ (ولا تمدن عينيك — إلى قوله — نحن نرزقك) ثم يقول : الصلاة ، الصلاة رحمكم الله وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله ابن أبي زياد القطراني حدثنا سيار حدثنا جعفر عن ثابت قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصابه خصاصة نادى أهله يا أهلاه صلوا ، صلوا . قال ثابت وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة وقد روى الترمذي وابن ماجه من حديث عمران بن زائدة عن أبيه عن أبي خالد الوالبي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك » وروى ابن ماجه من حديث الضحاك عن الأسود عن ابن مسعود سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول « من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله هم دنياه ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديته هلك » ، وروى أيضا من حديث شعبة عن عمر بن سليمان عن عبد الرحمن بن أبان عن أبيه عن زيد بن ثابت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة » وقوله (والعاقبة للتقوى) أي وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة وهي الجنة لمن اتقى الله ، وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رأيت الليلة كأنا في دار عقبة بن رافع وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة وأن ديننا قد طاب »

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ * قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن الكفار في قولهم (لولا) أي هلا يأتينا محمد بآية من ربه أي بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله؟ قال الله تعالى (أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى) يعني القرآن العظيم الذي أنزله عليه الله وهو أمي لا يحسن الكتابة ولم يدارس أهل الكتاب وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها فان القرآن مهيمن عليها يصدق الصحيح ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها وهذه الآية كقوله تعالى في سورة العنكبوت (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أولم يكفهم أنا أنزلنا

عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « مامن نبى إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » وإنما ذكر ههنا أعظم الآيات التى أعطيها عليه السلام وهو القرآن وإلا فله من المعجزات مالا يحد ولايحصر كما هو مودع فى كتبه ومقرر فى مواضعه ثم قال تعالى (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) أى لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا (ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه كما قال (فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لايؤمنون (ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) كما قال تعالى (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون – إلى قوله – بما كانوا يصدفون) وقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم) الآية وقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها) الآيتين ، ثم قال تعالى (قل) أى يامحمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده (كل متربص) أى مناومنكم (فتربصوا) أى فانتظروا (فستعلمون من أصحاب الصراط السوى) أى الطريق المستقيم (ومن اهتدى) إلى الحق وسبيل الرشاد ، وهذا كقوله تعالى (وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا) وقال (سيعلمون غدا من الكذاب الأشر) . آخر تفسير سورة طه ولله الحمد والمنة ويتلوه إن شاء الله تفسير سورة الأنبياء ولله الحمد

﴿ تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام وهى مكية ﴾

قال البخارى حدثنا محمد بن بشار ثنا غندر ثنا شعبة عن أبى إسحق سمعت عبد الرحمن بن يزيد عن عبدالله قال ، بنو إسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ، هن من العتاق الأول وهن من تلادى

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

هذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ودنوها وأن الناس فى غفلة عنها أى لايعملون لها ولا يستعدون من أجلها ، وقال النسائى حدثنا أحمد بن نصر حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسى حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد عن النبى ﷺ (فى غفلة معرضون) قال « فى الدنيا » وقال تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه وقال (اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا) الآية ، وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة الحسن بن هانئ أبى نواس الشاعر أنه قال : أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول :

الناس فى غفلاتهم * ورحا المنية تطحن

فقيل له من أين أخذ هذا ؟ قال من قول الله تعالى (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) وروى[1] فى ترجمة عامر بن ربيعة من طريق موسى بن عبيد الآمدى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرم عامر مثواه وكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه الرجل فقال إنى استقطعت

(١) هذا الخبر غير موجود فى النسخة المكية .

من رسول الله صلى الله عليه وسلم واديا فى العرب وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر لا حاجة لى فى قطيعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحى الذى أنزل الله على رسوله والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار فقال (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) أى جديد إنزاله (إلا استمعوه وهم يلعبون) كما قال ابن عباس : مالكم تسألون أهل الكتب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرءونه محضا لم يشب رواه البخارى بنحوه ، وقوله (وأسروا النجوى الذين ظلموا) أى قائلين فيما بينهم خفية (هل هذا إلا بشر مثلكم) يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم يستبعدون كونه نبيا لأنه بشر مثلهم فكيف اختص بالوحى دونهم ولهذا قال (أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) أى أفتتبعونه فتكونون كمن يأتى السحر وهو يعلم أنه سحر فقال تعالى مجيبا لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب (قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض) أى الذى يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية وهو الذى أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين الذى لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض وقوله (وهو السميع العليم) أى السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم وفى هذا تهديد لهم ووعيد وقوله (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه) هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن وحيرتهم فيه وضلالهم عنه فتارة يجعلونه سحرا وتارة يجعلونه شعرا وتارة يجعلونه أضغاث أحلام وتارة يجعلونه مفترى كما قال (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) وقوله (فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) يعنون كناقة صالح وآيات موسى وعيسى وقد قال الله (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) الآية، ولهذا قال تعالى: (ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون) أى ما آتينا قرية من القرى الذى بعث فيهم الرسل آية على يدى نبيها فآمنوا بها بل كذبوا فأهلكناهم بذلك أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا ، بل (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات والدلائل البينات على يدى رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى وأبهر وأقطع وأقهر مما شوهد مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . قال ابن أبى حاتم رحمه الله ذكر عن زيد بن الحباب حدثنا ابن لهيعة حدثنا الحارث بن زيد الحضرمى عن على بن رباح اللخمى حدثنى من شهد عبادة بن الصامت يقول : كنا فى المسجد ومعنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقرأ بعض القرآن فجاء عبد الله بن أبى ابن سلول ومعه نمرقة وزربية فوضع واتكأ وكان صبيحا فصيحا جدلا فقال يا أبا بكر قل لمحمد يأتينا بآية كما جاء الأولون ؟ جاء موسى بالألواح وجاء داود بالزبور وجاء صالح بالناقة وجاء عيسى بالإنجيل وبالمائدة . فبكى أبو بكر رضى الله عنه فخرج رسول الله ﷺ فقال أبو بكر قوموا بنا إلى رسول الله ﷺ نستغيث به من هذا المنافق فقال رسول الله ﷺ : «إنه لا يقام لى إنما يقام لله عز وجل» فقلنا يا رسول الله إنا لقينا من هذا المنافق ، فقال : «إن جبريل قال لى اخرج فأخبر بنعم الله التى أنعم بها عليك وفضيلته التى فضلت بها فبشرنى أنى بعثت إلى الأحمر والأسود وأمرنى أن أنذر الجن وآتانى كتابه وأنا أمى وغفر ذنبى ما تقدم وما تأخر وذكر اسمى فى الأذان وأمدنى بالملائكة وآتانى النصر وجعل الرعب أمامى وآتانى الكوثر وجعل حوضى من أعظم الحياض يوم القيامة ووعدنى المقام المحمود والناس مهطعون مقنعون رءوسهم وجعلنى فى أول زمرة تخرج من الناس وأدخل فى شفاعتى سبعين ألفا من أمتى الجنة بغير حساب وآتانى السلطان والملك وجعلنى فى أعلى غرفة فى الجنة فى جنات النعيم فليس فوقى أحد إلا الملائكة الذين يحملون العرش وأحل لى ولأمتى الغنائم ولم تحل لأحد كان قبلنا» وهذا الحديث غريب جدا

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر (وماأرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم) أى جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالا من البشر لم يكن فيهم أحد من الملائكة كما قال فى الآية الأخرى (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) وقال تعالى (قل ما كنت بدعا من الرسل) وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم لأنهم أنكر واذلك فقالوا (أبشر يهدوننا) ولهذا قال تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) أى اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة وإنما كانوا بشراً وذلك من تمام نعمة الله على خلقه إذ بعث فيهم رسلا منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم ، وقوله (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام) أى بل قد كانوا أجسادا يأكلون الطعام كما قال تعالى (وماأرسلناقبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) أى قد كانوا بشرا من البشر يأكلون ويشربون مثل الناس ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة وليس ذلك بضارلهم ولا ناقص منهم شيئاً كما توهمه المشركون فى قولهم (مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا * أو يلقى إليه كنز أوتكون له جنة يأكل منها) الآية ، وقوله (وما كانوا خالدين) أى فى الدنيا بل كانوا يعيشون ثم يموتون (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عزوجل تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمه فى خلقه مما يأمر به وينهى عنه ، وقوله (ثم صدقناهم الوعد) أى الذى وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين صدقهم الله وعده وفعل ذلك ولهذا قال (فأنجيناهم ومن نشاء) أى أتباعهم من المؤمنين (وأهلكنا المسرفين) أى المكذبين بما جاءت به الرسل .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ * قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾

يقول تعالى منبها على شرف القرآن ومحرضالهم على معرفة قدره (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم) قال ابن عباس شرفكم وقال مجاهد حديثكم وقال الحسن دينكم (أفلا تعقلون) أى هذه النعمة وتتلقونها بالقبول كما قال تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون) وقوله (وكم قصمنامن قريه كانت ظالمة) هذه صيغه تكثير كما قال (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) وقال تعالى (وكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمه فهى خاوية على عروشها) الآية.وقوله (وأنشأنا بعدها قوماً آخرين) أى أمة أخرى بعدهم (فلما أحسوا بأسنا) أى تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم (إذا هم منها يركضون) أى يفرون هاربين (لاتركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم)هذاتهكم بهم نزرا أى قيل لهم نزرا لاتركضواهاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة ، قال قتادة استهزاء بهم (لعلكم تسئلون) أى عما كنتم فيه من أداء شكر النعم (قالوايا ويلنا إنا كنا ظالمين) اعترفوا بذنوبهم حين لاينفعهم ذلك (فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين) أى مازالت تلك المقالة وهى الاعتراف بالظلم هجيراهم حتى حصدناهم حصدا وخمدت حركاتهم وأصواتهم خمودا

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُۥ مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق أى بالعدل والقسط ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذى

أحسنوا بالحسنى وأنه لم يخلق ذلك عبثا ولا لعبا كما قال (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل الذين كفروا من النار) وقوله تعالى (لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) قال ابن أبي نجيح عن مجاهد (لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا) يعني من عندنا، يقول وما خلقنا جنة ولا نارا ولا موتا ولا بعثا ولا حسابا، وقال الحسن وقتادة وغيرهما (لو أردنا أن نتخذ لهواً) اللهو المرأة بلسان أهل اليمن، وقال إبراهيم النخعي (لاتخذناه) من الحور العين، وقال عكرمة والسدي: والمراد باللهو ههنا الولد وهذا والذي قبله متلازمان وهو كقوله تعالى (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار) فنزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقا ولا سيما عما يقولون من الافك والباطل من اتخاذ عيسى أو العزير أو الملائكة (سبحان الله عما يقولون علوا كبيرا) وقوله (إن كنا فاعلين) قال قتادة والسدي وإبراهيم النخعي ومغيرة بن مقسم أي ما كنا فاعلين وقال مجاهد: كل شيء في القرآن إن فهو إنكار، وقوله (بل نقذف بالحق على الباطل) أي نبين الحق فيدحض الباطل ولهذا قال (فيدمغه فإذا هو زاهق) أي ذاهب مضمحل (ولكم الويل) أي أيها القائلون لله ولد (مما تصفون) أي تقولون وتفترون. ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ودأبهم في طاعته ليلا ونهارا فقال (وله من في السموات والأرض ومن عنده) يعني الملائكة (لا يستكبرون عن عبادته) أي لا يستنكفون عنها كما قال (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون * ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا) وقوله (ولا يستحسرون) أي لا يتعبون ولا يملون (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) فهم دائبون في العمل ليلا ونهارا مطيعون قصدا وعملا قادرون عليه كما قال تعالى (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي أنبأنا عبدالوهاب بن عطاء حدثنا سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا ما نسمع من شيء. فقال رسول الله ﷺ «إني لأسمع أطيط السماء وما تلام أن تئط وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم» غريب ولم يخرجوه ثم رواه أعني ابن أبي حاتم من طريق يزيد بن أبي زريع عن سعيد عن قتادة مرسلا، وقال محمد بن إسحق عن حسان بن مخارق عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال جلست إلى كعب الأحبار وأنا غلام فقلت له أرأيت قول الله تعالى للملائكة (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل. فقال من هذا الغلام؟ فقالوا من بني عبد المطلب، قال: فقبل رأسي ثم قال يابني إنه جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس أليس تتكلم وأنت تتنفس وتمشي وأنت تتنفس؟

﴿أَمِ اتَّخَذُوا ءَالِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون) أي أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض أي لا يقدرون على شيء من ذلك فكيف جعلوها لله ندا وعبدوها معه، ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض فقال (لو كان فيهما آلهة) أي في السموات والأرض (لفسدتا) كقوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) وقال ههنا (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) أي عما يقولون أن له ولدا أو شريكا سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علوا كبيرا. وقوله (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) أي هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه وعلمه وحكمته وعدله ولطفه (وهم يسئلون) أي وهو سائل خلقه عما يعملون كقوله (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وهذا كقوله تعالى (وهو يجير ولا يجار عليه)

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾

يقول تعالى (أم اتخذوا من دونه آلهة قل) يا محمد (هاتوا برهانكم) أي دليلكم على ما تقولون (هذا ذكر من معى) يعنى القرآن (وذكر من قبلى) يعنى الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه ولهذا قال (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) كما قال (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له والفطرة شاهدة بذلك أيضا والمشركون لا برهان لهم وحجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾

يقول تعالى رادا على من زعم أن له تعالى وتقدس ولدا من الملائكة كمن قال ذلك من العرب إن الملائكة بنات الله فقال (سبحانه بل عباد مكرمون) أى الملائكة عباد الله مكرمون عنده فى منازل عالية ومقامات سامية وهم له فى غاية الطاعة قولا وفعلا (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) أى لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم به بل يبادرون إلى فعله وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليه منهم خافية (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) وقوله (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) كقوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) وقوله (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فى آيات كثيرة فى معنى ذلك (وهم من خشيته) أى من خوفه ورهبته (مشفقون * ومن يقل منهم إنى إله من دونه) أى ادعى منهم أنه إله من دون الله أى مع الله (فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) أى كل من قال ذلك وهذا شرط والشرط لا يلزم وقوعه كقوله (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) وقوله (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين)

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

يقول تعالى منبها على قدرته التامة وسلطانه العظيم فى خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات فقال (أو لم ير الذين كفروا) أى الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق المستبد بالتدبير فكيف يليق أن يعبد معه غيره أو يشرك به ما سواه ألم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقا أى كان الجميع متصلا بعضه ببعض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

متلاصق متراكم بعضه فوق بعض فى ابتداء الأمر ففتق هذه من هذه فجعل السموات سبعا والأرض سبعا وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء فأمطرت السماء وأنبتت الأرض ولهذا قال (وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون) أى وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئا فشيئا عيانا وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على مايشاء

فنى كل شىء له آية   تدل على أنه واحد

قال سفيان الثورى عن أبيه عن عكرمة قال سئل ابن عباس : الليل كان قبل أو النهار ؟ فقال أرأيتم السموات والأرض حين كانتا رتقا هل كان بينهما إلا ظلمة ؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا إبراهيم بن أبى حمزة حدثنا حاتم عن حمزة بن أبى محمد عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر أن رجلا أتاه يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما . قال اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ، ثم تعال فأخبرنى بما قال لك ، قال فذهب إلى ابن عباس فسأله فقال ابن عباس : نعم كانت السموات رتقا لا تمطر وكانت الأرض رتقا لا تنبت فلما خلق للأرض أهلا فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال ابن عمر الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتى فى القرآن علما ، صدق هكذا كانت قال ابن عمر قد كنت أقول مايعجبنى جراءة ابن عباس على تفسير القرآن فالآن علمت أنه قد أوتى فى القرآن علما وقال عطية العوفى كانت هذه رتقا لا تمطر فأمطرت وكانت هذه رتقا لا تنبت فأنبتت ، وقال إسماعيل بن أبى خالد سألت أبا صالح الحنفى عن قوله (أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) قال كانت السماء واحدة ففتق منها سبع سموات وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين ، وهكذا قال مجاهد وزاد ولم تكن السماء والأرض متماستين . وقال سعيد بن جبير بل كانت السماء والأرض ملتزقتين فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض كان ذلك فتقهما الذى ذكر الله فى كتابه ، وقال الحسن وقتادة كانتا جميعا ففصل بينهما بهذا الهواء وقوله (وجعلنا من الماء كل شىء حى) أى أصل كل الأحياء . قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو الجماهر حدثنا سعيد بن بشير حدثنا قتادة عن أبى ميمونة عن أبى هريرة أنه قال يانبى الله إذا رأيتك قرت عينى وطابت نفسى فأخبرنا عن كل شىء قال: «كل شىء خلق من ماء». وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا همام عن قتادة عن أبى ميمونة عن أبى هريرة قال : قلت يارسول إنى إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى فأنبئنى عن كل شىء قال « كل شىء خلق من ماء » قال قلت أنبئنى عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة . قال « أفش السلام وأطعم الطعام وصل الأرحام وقم بالليل والناس نيام ثم ادخل الجنة بسلام » ورواه أيضا عبدالصمد وعفان وبهز عن همام تفرد به أحمد وهذا إسناد على شرط الصحيحين إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن واسمه سليم والترمذى يصحح له وقد رواه سعيد بن أبى عروبة عن قتادة مرسلا والله أعلم . وقوله (وجعلنا فى الأرض رواسى) أى جبالا أرسى الأرض بها وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس أى تضطرب وتتحرك فلا يحصل لهم قرار عليها لأنها غامرة فى الماء إلا مقدار الربع فإنه باد للهواء والشمس ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات والحكم والدلالات ، ولهذا قال (أن تميد بهم) أى لئلا تميد بهم ، وقوله (وجعلنا فيها فجاجا سبلا) أى ثغرا فى الجبال يسلكون فيها طرقا من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم كما هو المشاهد فى الأرض يكون الجبل حائلا بين هذه البلاد وهذه البلاد فيجعل الله فيه فجوة ثغرة ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا ولهذا قال (لعلهم يهتدون) وقوله (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) أى على الأرض وهى كالقبة عليها كما قال (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) وقال (والسماء وما بناها) (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج) والبناء هو نصب القبة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بنى الاسلام على خمس » أى خمسة دعائم وهذا لا يكون إلا فى الخيام كما تعهده العرب (محفوظا) أى عاليا محروسا أن ينال وقال مجاهد: مرفوعا . وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكى حدثنى أبى عن أبيه عن أشعث يعنى ابن إسحق القمى عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال رجل يارسول الله ماهذه السماء قال « موج مكفوف عنكم » إسناده غريب وقوله (وهم عن آياتها

معرضون) كقوله (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) أى لايتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات فى ليلها ونهارها من هذه الشمس التى تقطع الفلك بكماله فى يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذى قدرها وسخرها وسيرها. وقد ذكر ابن أبى الدنيا رحمه الله فى كتابه التفكر والاعتبار: أن بعض عباد بنى إسرائيل تعبد ثلاثين سنة وكان الرجل منهم إذا تعبد ثلاثين سنة أظلته غمامة فلم ير ذلك الرجل شيئا مما كان يحصل لغيره فشكى ذلك إلى أمه فقالت له يابنى فلعلك أذنبت فى مدة عبادتك هذه فقال لا والله ما أعلمه قالت فلعلك هممت قال لا ولا هممت قالت فلعلك رفعت بصرك إلى السماء ثم رددته بغير فكر فقال نعم كثيرا قالت فمن ههنا أتيت ثم قال منبها على بعض آياته (وهو الذى خلق الليل والنهار) أى هذا فى ظلامه وسكونه وهذا بضيائه وأنسه يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر (والشمس والقمر) هذه لها نور يخصها وفلك بذاته وزمان على حدة وحركة وسير خاص وهذا بنور آخر وفلك آخر وسير آخر وتقدير آخر (وكل فى فلك يسبحون) أى يدورون قال ابن عباس يدورون كما يدور المغزل فى الفلكة قال مجاهد فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن كما قال تعالى (فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم)

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك) أى يامحمد (الخلد) أى فى الدنيا بل (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات وليس بحى إلى الآن لأنه بشر سواء كان وليا أو نبيا أو رسولا وقد قال تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) وقوله (أفائن مت) أى يامحمد (فهم الخالدون) أى يؤملون أن يعيشوا بعدك لا يكون هذا بل كل إلى الفناء ولهذا قال تعالى (كل نفس ذائقة الموت) وقد روى عن الشافعى رحمه الله أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين

تمنى رجال أن أموت وإن أمت … فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل للذى يبغى خلاف الذى مضى … تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد

وقوله (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) أى نختبركم بالمصائب تارة وبالنعم أخرى فننظر من يشكر ومن يكفر ومن يصبر ومن يقنط كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ونبلوكم يقول نبتليكم بالشر والخير فتنة بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام والطاعة والمعصية والهدى والضلال وقوله (وإلينا ترجعون) أى فنجازيكم بأعمالكم

﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ * خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه (وإذا رآك الذين كفروا) يعنى كفار قريش كأبى جهل وأشباهه (إن يتخذونك إلا هزوا) أى يستهزئون بك وينتقصونك يقولون (أهذا الذى يذكر آلهتكم) يعنون أهذا الذى يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم قال تعالى (وهم بذكر الرحمن هم كافرون) أى وهم كافرون بالله ومع هذا يستهزئون برسول الله كما قال فى الآية الأخرى (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا * إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا) وقوله (خلق الإنسان من عجل) كما قال فى الآية الأخرى (وكان الإنسان عجولا) أى فى الأمور قال مجاهد خلق الله آدم بعد كل شىء من آخر النهار من يوم خلق

الخلائق فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه ولم يبلغ أسفله قال يارب استعجل بخلق قبل غروب الشمس وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا محمد بن علقمة بن وقاص الليثي عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط منها وفيه تقوم الساعة وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلي — وقبض أصابعه يقللها — فسأل الله خيراً إلا أعطاه إياه » قال أبو سلمة فقال عبد الله بن سلام قد عرفت تلك الساعة هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة وهي التي خلق الله فيها آدم قال الله تعالى (خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون) والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك فقال الله تعالى خلق الإنسان من عجل لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته يؤجل ثم يعجل وينظر ثم لا يؤخر ولهذا قال (سأريكم آياتي) أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني (فلا تستعجلون)

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضا بوقوع العذاب بهم تكذيبا وجحودا وكفرا وعنادا واستبعادا فقال (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) قال الله تعالى (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) أي لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا . ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) وقال في هذه الآية (حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) وقال (سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم (ولا هم ينصرون) أي لا ناصر لهم كما قال (ومالهم من الله من واق) وقوله (بل تأتيهم بغتة) أي (تأتيهم النار بغتة) أي فجأة (فتبهتهم) أي تذعرهم فيستسلمون لها حائرين لا يدرون مايصنعون (فلا يستطيعون ردها) أي ليس لهم حيلة في ذلك (ولاهم ينظرون) أي ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب (ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) يعني من العذاب الذي كانو يستبعدون وقوعه كما قال تعالى (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله * ولقد جاءك من نبإ المرسلين) ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده في حفظه لهم بالليل والنهار وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام فقال (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) أي بدل الرحمن يعني غيره كما قال الشاعر

جارية لم تلبس المرققا ولم تذق من البقول الفستقا

أي لم تذق بدل البقول الفستق وقوله تعالى (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) أي لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم بل يعرضون عن آياته وآلائه ثم قال (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ ، أي ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا لا ، ولا كما زعموا ولهذا قال (لا يستطيعون نصر أنفسهم) أي

هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم وقوله (ولاهم منا يصحبون) قال العوفي عن ابن عباس ولاهم منا يصحبون أي يجارون وقال قتادة لا يصحبون من الله بخير وقال غيره ولا هم منا يصحبون يمنعون

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَٰلِبُونَ * قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ * وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * وَنَضَعُ الْمَوَٰزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنهم متعوا في الحياة الدنيا ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه فاعتقدوا أنهم على شيء ثم قال واعظالهم (أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) اختلف المفسرون في معناه وقد أسلفناه في سورة الرعد وأحسن ما فسر بقوله تعالى (ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون) وقال الحسن البصري يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر والمعنى أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة وإنجائه لعباده المؤمنين ولهذا قال (أفهم الغالبون) يعني بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون وقوله (قل إنما أنذركم بالوحي) أي إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلي ولكن لايجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه ولهذا قال (ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون) وقوله (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين) أي ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله ليعترفن بذنوبهم وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا وقوله (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا) أي ونضع الموازين العدل ليوم القيامة ، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه ، وقوله (فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) كما قال تعالى (ولا يظلم ربك احدا) وقال (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) وقال لقمان (يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أوفي السموات أوفي الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » وقال الإمام أحمد حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقاني حدثنا ابن المبارك عن ليث بن سعد عن عامر بن يحي عن أبي عبدالرحمن الحبلي قال سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى وسلم « إن الله عز وجل يستخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر ثم يقول أتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمتك كتبتي الحافظون ؟ قال لا يارب قال أفلك عذر أو حسنة ؟ قال فبهت الرجل فيقول لا يارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول أحضروه فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول إنك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة قال ولا يثقل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم[1] » ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث الليث بن سعد وقال الترمذي حسن غريب وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن عمرو بن يحي عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة ويوضع ما أحصى عليه فيمايل به الميزان قال فيبعث به إلى النار قال فإذا أدبر به إذا صائح

(١) هكذا في الأصل ورواية الترمذي فلا يثقل مع اسم الله شيء اه

من عند الرحمن عز وجل يقول لا تعجلوا فانه قد بقى له فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله فتوضع مع الرجل فى كفة حتى يميل به الميزان » وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا أبو نوح مرارا أنبأنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس عن الزهرى عن عروة عن عائشة أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه فقال يا رسول الله إن لى مملوكين يكذبوننى ويخوننى ويعصوننى وأضربهم وأشتمهم فكيف أنا منهم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم فان كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا لا لك ولا عليك وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلالك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل الذى بقى قبلك» فجعل الرجل يبكى بين يدى رسول الله ﷺ ويهتف فقال رسول الله ﷺ « ماله لا يقرأ كتاب الله (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)» فقال الرجل يارسول الله ما أجد شيئا خيرا من فراق هؤلاء ـ يعنى عبيده ـ إنى أشهدك أنهم أحرار كلهم

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ * وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيرا ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما وبين كتابيهما ولهذا قال (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان) قال مجاهد يعنى الكتاب وقال أبو صالح التوراة وقال قتادة التوراة حلالها وحرامها وما فرق الله بين الحق والباطل ، وقال ابن زيد يعنى النصر وجامع القول فى ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل والهدى والضلال والغى والرشاد والحلال والحرام وعلى ما يحصل نوراً فى القلوب وهداية وخوفا وإنابة وخشية ولهذا قال (الفرقان وضياء وذكرا للمتقين) أى تذكيرا لهم وعظة ، ثم وصفهم فقال (الذين يخشون ربهم بالغيب) كقوله (من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) وقوله (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) (وهم من الساعة مشفقون) أى خائفون وجلون ، ثم قال تعالى (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) يعنى القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (أفأنتم له منكرون) أى أفتنكرونه وهو فى غاية الجلاء والظهور ؟

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ * قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل أى من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه كما قال تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) وما يذكر من الأخبار عنه فى إدخال أبيه له فى السرب وهو رضيع وأنه خرج به بعد أيام فنظر إلى الكوكب والمخلوقات فتبصر فيها وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم فعامتها أحاديث بنى إسرائيل فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح وما خالف شيئا من ذلك رددناه وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه بل نجعله وقفا وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف فى روايته وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ولا حاصل له مما ينتفع به فى الدين ، ولو كانت فائدته تعود على المكلفين فى دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة ، والذى نسلكه فى هذا التفسير الاعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية

لما فيها من تضييع الزمان ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة. والمقصود ههنا أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده من قبل أى من قبل ذلك وقوله (وكنا به عالمين) أى وكان أهلا لذلك ، ثم قال (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون هذا هو الرشد الذى أوتيه من صغره الأنكار على قومه فى عبادة الأصنام من دون الله عز وجل فقال (ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) أى معتكفون على عبادتها قال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد الصباح حدثنا أبو معاوية الضرير حدثنا سعيد ابن طريف عن الأصبغ بن نباتة قال: مر على رضى الله عنه على قوم يلعبون بالشطرنج فقال ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون لأن يمس أحدكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسها (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال ولهذا قال (لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) أى الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم فأنتم وهم فى ضلال على غير الطريق المستقيم ، فلما سفه أحلامهم وضلل آباءهم واحتقر آلهتهم (قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين) يقولون هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعباً أو محقا فيه فإنا لم نسمع به قبلك (قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن) أى ربكم الذى لا إله غيره وهو الذى خلق السموات والأرض وماحوت من المخلوقات الذى ابتدأ خلقهن وهو الخالق لجميع الأشياء (وأنا على ذلكم من الشاهدين) أى وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾

ثم أقسم الخليل قسما أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم أى ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين أى إلى عيدهم وكان لهم عيد يخرجون إليه ،قال السدى: لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه يابنى لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا فخرج معهم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال إنى سقيم فجعلوا يمرون عليه وهو صريع فيقولون: مه فيقول إنى سقيم فلما جاز عامتهم وبقى ضعفاؤهم قال (تالله لأكيدن أصنامكم) فسمعه أولئك : وقال ابن إسحق عن أبى الأحوص عن عبد الله قال : لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه فقالوا يا إبراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال إنى سقيم وقد كان بالأمس قال (تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) فسمعه ناس منهم وقوله (فجعلهم جذاذا) أى حطاما كسرها كلها إلا كبيرا لهم يعنى إلا الصنم الكبير عندهم كما قال (فراغ عليهم ضربا باليمين) وقوله (لعلهم إليه يرجعون) ذكروا أنه وضع القدوم فى يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذى غار لنفسه وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) أى حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والاذلال الدال على عدم إلهيتها وعلى سخافة عقول عابديها (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) أى فى صنيعه هذا (قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) أى قال من سمعه يحلف إنه ليكيدنهم سمعنا فتى أى شاباً يذكرهم يقال له إبراهيم ، قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عوف حدثنا سعيد بن منصور حدثنا جرير بن عبد الحميد عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس قال : ما بعث الله نبيا إلا شاباً ولا أوتى العلم عالم إلا وهو شاب وتلا هذه الآية (قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) . وقوله (قالوا فأتوا به على أعين الناس) أى على رءوس الأشهاد فى الملإ الأكبر بحضرة الناس كلهم وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام أن يبين فى هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم فى عبادة هذه الأصنام التى لا تدفع عن نفسها ضرا ولا تملك لها نصرا فكيف يطلب منها شىء من

ذلك ؟ (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا) يعنى الذى تركه لم يكسره (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد . وفى الصحيحين من حديث هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث : ثنتين فى ذات الله قوله (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله (إنى سقيم) ـ قال ـ وبينا هو يسير فى أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة إذ نزل منزلا فأتى الجبار رجل فقال إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس فأرسل إليه فجاء فقال ما هذه المرأة منك قال أختى قال فاذهب فأرسل بها إلى ، فانطلق إلى سارة فقال إن هذا الجبار قد سألنى عنك فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى عنده فانك أختى فى كتاب الله وإنه ليس فى الأرض مسلم غيرى وغيرك ، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلى ، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها فأخذ أخذ شديدا فقال ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت له فارسل فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد ففعل ذلك الثالثة فأخذ فذكر مثل المرتين الأوليين فقال ادعى الله فلا أضرك فدعت له فأرسل ثم دعا أدنى حجابه فقال إنك لم تأتنى بإنسان ولكنك أتيتنى بشيطان أخرجها وأعطها هاجر . فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت ، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته وقال مهيم قالت كفى الله كيد الكافر الفاجر وأخدمنى هاجر » قال محمد بن سيرين فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال تلك أمكم يا بنى ماء السماء

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال (فرجعوا إلى أنفسهم) أى بالملامة فى عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم فقالوا (إنكم أنتم الظالمون) أى فى ترككم لها مهملة لا حافظ عندها (ثم نكسوا على رءوسهم) أى ثم أطرقوا فى الأرض فقالوا (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) قال قتادة أدركت القوم حيرة سوء فقالوا (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) وقال السدى (ثم نكسوا على رءوسهم) أى فى الفتنة وقال ابن زيد أى فى الرأى وقول قتادة أظهر فى المعنى لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزا ولهذا قالوا له (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) فكيف تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون وأنت تعلم أنها لا تنطق فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك (أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم) أى إذا كانت لا تنطق وهى لا تنفع ولا تضر فلم تعبدونها من دون الله (أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) أى أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذى لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر . فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها ولهذا قال تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) الآية

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾

لما دحضت حجتهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم فقالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين فجمعوا حطبا كثيرا جدا ، قال السدى حتى إن كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم ثم جعلوه فى جوبة من الأرض وأضرموها نارا فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها وجعلوا إبراهيم عليه السلام فى كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد ، قال شعيب الجبائى

اسمه هيزن فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة فلما ألقوه قال: حسبي الله ونعم الوكيل كما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار وقالها محمد عليهما السلام حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل وروى الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو هشام حدثنا إسحق بن سليمان عن أبي جعفر عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « لما ألقي إبراهيم عليه السلام في النار قال اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك » ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ، وقال شعيب الجبائي كان عمره إذ ذاك ست عشرة سنة فالله أعلم وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء فقال ألك حاجة فقال أما إليك فلا وأما من الله فبلى ، وقال سعيد بن جبير ويروى عن ابن عباس أيضا قال لما ألقي إبراهيم جعل خازن المطر يقول متى أومر بالمطر فأرسله قال فكان أمر الله أسرع من أمره قال الله (يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم) قال لم يبق نار في الأرض إلا طفئت وقال كعب الأحبار لم ينتفع أحد يومئذ بنار ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه وقال الثوري عن الأعمش عن شيخ عن علي بن أبي طالب (قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم) قال لا تضره وقال ابن عباس وأبو العالية لولا أن الله عز وجل قال وسلاما لأذى إبراهيم بردها ، وقال جويبر عن الضحاك كوني بردا وسلاما على إبراهيم قالوا صنعوا له حظيرة من حطب جزل وأشعلوا فيه النار من كل جانب فأصبح ولم يصبه منها شيء حتى أخمدها الله قال ويذكرون أن جبريل كان معه يمسح وجهه من العرق فلم يصبه منها شيء غير ذلك وقال السدي كان معه فيها ملك الظل

وقال علي بن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا يوسف بن موسى حدثنا مهران حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن المنهال بن عمرو قال أخبرت أن إبراهيم ألقي في النار قال فكان فيها إما خمسين وإما أربعين قال ما كنت أياما وليالي قط أطيب عيشا إذ كنت فيها وددت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها ، وقال أبو زرعة بن عمرو ابن جرير عن أبي هريرة قال إن أحسن شيء قال أبو إبراهيم لما رفع عنه الطبق وهو في النار وجده يرشح جبينه قال عند ذلك نعم الرب ربك يا إبراهيم وقال قتادة لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار ، إلا الوزغ وقال الزهري أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله وسماه فويسقا . وقال ابن أبي حاتم حدثنا عبيدالله ابن أخي ابن وهب حدثني عمي حدثنا جرير بن حازم أن نافعا حدثه قال حدثتني مولاة الفاكه بن المغيرة المخزومي قالت دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحا فقلت يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح ؟ فقالت نقتل به هذه الأوزاغ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن إبراهيم حين ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفىء النار غير الوزغ فانه كان ينفخ على إبراهيم» فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله ، وقوله (وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين) أي المغلوبين الأسفلين لأنهم أرادوا بنبي الله كيدا فكادهم الله ونجاه من النار فغلبوا هنالك ، وقال عطية العوفي لما ألقي إبراهيم في النار جاء ملكهم لينظر إليه فطارت شرارة فوقعت على إبهامه فأحرقته مثل الصوفة

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ * وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ * وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن إبراهيم أنه سلمه الله من نار قومه وأخرجه من بين أظهرهم مهاجرا إلى بلاد الشام إلى الأرض

المقدسة منها . قال الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله (إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) قال الشام وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة وكذا قال أبو العالية أيضاً وقال قتادة كان بأرض العراق فأنجاه الله إلى الشام وكان يقال للشام أعقار دار الهجرة وما نقص من الأرض زيد في الشام وما نقص من الشام زيد في فلسطين ، وكان يقال هي أرض المحشر والمنشر وبها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام وبها يهلك المسيح الدجال ، وقال كعب الأحبار في قوله (إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) إلى حران وقال السدي انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام فلقي إبراهيم سارة وهي ابنة ملك حران وقد طعنت على قومها في دينهم فتزوجها على أن يفرّ بها ، رواه ابن جرير وهو غريب والمشهور أنها ابنة عمه وأنه خرج بها مهاجراً من بلاده ، وقال العوفي عن ابن عباس إلى مكة ألا تسمع إلى قوله (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا) وقوله (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة) قال عطاء ومجاهد عطية ، وقال ابن عباس وقتادة والحكم بن عيينة النافلة ولد الولد يعني أن يعقوب ولد إسحاق كما قال (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب) وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سأل واحدا فقال (رب هب لي من الصالحين) فأعطاه الله إسحق وزاده يعقوب نافلة (وكلا جعلنا صالحين) أي الجميع أهل خير وصلاح (وجعلناهم أئمة) أي يقتدى بهم (يهدون بأمرنا) أي يدعون إلى الله بإذنه ولهذا قال (وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) من باب عطف الخاص على العام (وكانوا لنا عابدين) أي فاعلين لما يأمرون الناس به ثم عطف بذكر لوط وهو لوط بن هاران بن آزر كان قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه وهاجر معه كما قال تعالى (فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي) فآتاه الله حكما وعلما وأوحى إليه وجعله نبيا وبعثه إلى سدوم وأعمالها فخالفوه وكذبوه فأهلكهم الله ودمر عليهم كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز ولهذا قال (ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين * وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين)

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه (فدعا ربه أني مغلوب فانتصر) وقال نوح (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) ولهذا قال ههنا (إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله) أي الذين آمنوا به كما قال (وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل) وقوله (من الكرب العظيم) أي من الشدة والتكذيب والأذى فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل وكانوا يتصدون لأذاه ويتواصون قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل على خلافه ، وقوله (ونصرناه من القوم) أي ونجيناه وخلصناه منتصرا من القوم (الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) أي أهلكهم الله بعامة ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد كما دعا عليهم نبيهم

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ * فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ * وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ * وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى

بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾

قال ابن إسحاق عن مرة عن ابن مسعود كان ذلك الحرث كرما قد تدلت عناقيده ، وكذا قال شريح وقال ابن عباس النفش الرعى ، وقال شريح والزهرى وقتادة ، النفش لا يكون إلا بالليل زاد قتادة والهمل بالنهار وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب وهارون بن إدريس الاصم قالا حدثنا المحاربى عن أشعث عن أبى إسحق عن مرة عن ابن مسعود فى قوله (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم) قال كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته قال فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان غير هذا يانبى الله قال وماذاك قال تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ودفعت الغنم إلى صاحبها فذلك قوله (ففهمناها سليمان) وكذا روى العوفى عن ابن عباس وقال حماد بن سلمة عن على بن زيد حدثنا خليفة عن ابن عباس قال قضى داود بالغنم لأصحاب الحرث فخرج الرعاء معهم الكلاب فقال لهم سليمان كيف قضى بينكم فأخبروه فقال لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا فأخبر بذلك داود فدعاه فقال كيف تقضى بينهم ؟ قال أدفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم فإذا بلغ الحرث الذى كان عليه أخذه أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا خديج عن أبى إسحاق عن مرة عن مسروق قال الحرث الذى نفشت فيه الغنم إنما كان كرماً فلم تدع فيه ورقة ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته فأتوا داود فأعطاهم رقابها فقال سليمان لا بل تؤخذ الغنم فيعطاها أهل الكرم فيكون لهم لبنها ونفعها ويعطى أهل الغنم الكرم فيعمروه ويصلحوه حتى يعود كالذى كان ليلة نفشت فيه الغنم ثم يعطى أهل الغنم غنمهم وأهل الكرم كرمهم وهكذا قال شريح ومرة ومجاهد وقتادة وابن زيد وغير واحد وقال ابن جرير حدثنا ابن أبى زياد حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا إسماعيل عن عامر قال جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما إن شياه هذا قطعت غزلا لى فقال شريح نهاراً أم ليلا فان كان نهاراً فقد برىء صاحب الشياه وإن كان ليلا فقد ضمن ثم قرأ (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث) الآية وهذا الذى قاله شريح شبيه بما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث الليث بن سعد عن الزهرى عن حرام بن سعد بن محيصة أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً فأفسدت فيه فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار وما أفسدت المواشى بالليل ضامن على أهلها ، وقد علل هذا الحديث وقد بسطنا الكلام عليه فى كتاب الأحكام وبالله التوفيق ، وقوله (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن حميد أن إياس بن معاوية لما استقضى أتاه الحسن فبكى فقال مايبكيك ؟ قال يا أبا سعيد بلغنى أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو فى النار ورجل مال به الهوى فهو فى النار ورجل اجتهد فأصاب فهو فى الجنة فقال الحسن البصرى إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكما يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم قال الله تعالى (وداود وسليمان إذا يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين) فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود ثم قال يعنى الحسن إن الله اتخذ على الحكام ثلاثا لا يشتروا به ثمنا قليلا ولا يتبعوا فيه الهوى ولا يخشوا فيه أحدا ثم تلا (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) وقال (فلا تخشوا الناس واخشونى) وقال (ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا) قلت أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون مؤيدون من الله عزوجل وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف وأما من سواهم فقد ثبت فى صحيح البخارى عن عمرو بن العاص أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد

فأخطأ فله أجر » فهذا الحديث يرد نصا ماتوهمه إياس من أن القاضى إذا اجتهد فأخطأ فهو فى النار والله أعلم ، وفى السنن : القضاة ثلاثة قاض فى الجنة وقاضيان فى النار ، رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة ورجل حكم بين الناس على جهل فهو فى النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو فى النار وقريب من هذه القصة المذكورة فى القرآن مارواه الإمام أحمد فى مسنده حيث قال حدثنا على بن حفص أخبرنا ورقاء عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحا كمتا إلى داود فقضى به للكبرى فخرجتا فدعاهما سليمان فقال هاتوا السكين أشقه بينكما فقالت الصغرى يرحمك الله هو ابنها لا تشقه فقضى به للصغرى » وأخرجه البخارى ومسلم فى صحيحهما وبوب عليه النسائى فى كتاب القضاء ﴿ باب الحاكم يوهم خلاف الحكم ليستعلم الحق ﴾ وهكذا القصة التى أوردها الحافظ أبو القاسم ابن عساكر فى ترجمة سليمان عليه السلام من تاريخه من طريق الحسن بن سفيان عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن سعيد بن بشير عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس فذكر قصة مطولة ملخصها أن امرأة حسناء فى زمان بنى إسرائيل راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم فامتنعت على كل منهم فاتفقوا فيما بينهم عليها فشهدوا عند داود عليه السلام أنها مكنت من نفسها كلباً لها قد عودته ذلك منها فأمر برجمها فلما كان عشية ذلك اليوم جلس سليمان واجتمع معه ولدان مثله فانتصب حاكما وتزيا أربعة منهم بزى أولئك وآخر بزى المرأة وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلبا فقال سليمان فرقوا بينهم فسأل أولهم ما كان لون الكلب فقال أسود فعزله واستدعى الآخر فسأله عن لونه فقال أحمر وقال الآخر أغبش وقال الآخر أبيض فأمر عند ذلك بقتلهم فحكى ذلك لداود عليه السلام فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب فاختلفوا عليه فأمر بقتلهم وقوله (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير) الآية وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور وكان إذا ترنم به تقف الطير فى الهواء فتجاوبه وترد عليه الجبال تأويبا ولهذا لما مر النبى صلى الله عليه وسلم على أبى موسى الأشعرى وهو يتلو القرآن من الليل وكان له صوت طيب جدا فوقف واستمع لقراءته وقال « لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود » قال يارسول الله لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيرا . وقال أبو عثمان النهدى ماسمعت صوت صنج ولا بربط ولا مزمار مثل صوت أبى موسى رضى الله عنه ، ومع هذا قال عليه الصلاة والسلام « لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود » وقوله (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم) يعنى صنعة الدروع قال قتادة إنما كانت الدروع قبله صفائح وهو أول من سردها حلقا كما قال تعالى (وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد) أى لاتوسع الحلقة فتقلق المسمارة ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة ولهذا قال (لتحصنكم من بأسكم) يعنى فى القتال (فهل أنتم شاكرون) أى نعم الله عليكم لما ألهم به عبده داود فعلمه ذلك من أجلكم وقوله . (ولسليمان الريح عاصفة) أى وسخرنا لسليمان الريح العاصفة (تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها) يعنى أرض الشام (وكنا بكل شىء عالمين) وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض فينزل وتوضع آلاته وحشمه قال الله تعالى (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب) وقال تعالى (غدوها شهر ورواحها شهر) قال ابن أبى حاتم ذكر عن سفيان بن عيينة عن أبى سنان عن سعيد بن جبير قال كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسى فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن ثم يأمر الطير فتظلهم ثم يأمر الريح فتحملهم صلى الله عليه وسلم وقال عبدالله بن عبيد بن عمير كان سليمان يأمر الريح فتجتمع كالطود العظيم كالجبل ثم يامر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها ثم يدعو بفرس من ذوات الأجنحة فيرتفع حتى يصعد على فراشه ثم يأمر الريح فترتفع به كل شرف دون السماء وهو مطأطئ رأسه مايلتفت يمينا ولا شمالا تعظيما لله عز وجل وشكرا لما يعلم من صغر ماهو فيه فى ملك الله عز وجل حتى تضعه الريح حيث شاء أن تضعه وقوله (ومن الشياطين من يغوصون له) أى فى الماء يستخرجون اللآلئ والجواهر وغير ذلك (ويعملون عملا دون ذلك) أى غير ذلك كما قال تعالى (والشياطين كل بناء وغواص وآخرين

مقرنين فى الأصفاد) وقوله (وكنالهم حافظين) أى يحرسه الله أن يناله أحدمن الشياطين بسوء بل كل فى قبضته وتحت قهره لايتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق وإن شاء حبس منهم من يشاء ولهذا قال (وآخرين مقرنين فى الأصفاد)

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء فى ماله وولده وجسده وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شىء كثير وأولاد كثيرة ومنازل مرضية فابتلى فى ذلك كله وذهب عن آخره ثم ابتلى فى جسده يقال بالجذام فى سائر بدنه ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله عز وجل حتى عافه الجليس وأفرد فى ناحية من البلد ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره ويقال إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله وقد قال النبى ﷺ « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل » وفى الحديث الآخر « يبتلى الرجل على قدر دينه فان كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه » وقد كان نبى الله أيوب عليه السلام غاية فى الصبر وبه يضرب المثل فى ذلك وقال يزيد بن ميسرة لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد ولم يبق شىء له أحسن الذكر ثم قال : أحمدك رب الأرباب الذى أحسنت إلى أعطيتنى المال والولد فلم يبق من قلبى شعبة إلا قد دخله ذلك فأخذت ذلك كله منى وفرغت قلبى فليس يحول بينى وبينك شىء لو يعلم عدوى إبليس بالذى صنعت حسدنى . قال فلقى إبليس من ذلك منكراً قال . وقال أيوب عليه السلام يا رب إنك أعطيتنى المال والولد فلم يقم على بابى أحد يشكونى لظلم ظلمته وأنت تعلم ذلك وإنه كان يوطأ لى الفراش فأتركها وأقول لنفسى يانفس إنك لم تخلقى لوطء الفراش ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك . رواه ابن أبى حاتم وقد روى عن وهب بن منبه فى خبره قصة طويلة ساقها ابن جرير وابن أبى حاتم بالسند عنه وذكرها غير واحد من متأخرى المفسرين وفيها غرابة تركناها لحال الطول ، وقد روى أنه مكث فى البلاء مدة طويلة ثم اختلفوا فى السبب المهيج له على هذا الدعاء فقال الحسن وقتادة ابتلى أيوب عليه السلام سبع سنين وأشهراً ملقى على كناسة بنى إسرائيل تختلف الدواب فى جسده ففرج الله عنه وأعظم له الأجر وأحسن عليه الثناء . وقال وهب بن منبه مكث فى البلاء ثلاث سنين لايزيد ولا ينقص وقال السدى تساقط لحم أيوب حتى لم يبق إلا العصب والعظام فكانت امرأته تقوم عليه وتأتيه بالرماد يكون فيه فقالت له امرأته لما طال وجعه ياأيوب لودعوت ربك يفرج عنك فقال قد عشت سبعين سنة صحيحا فهو قليل لله أن أصبر له سبعين سنة فجزعت من ذلك فخرجت فكانت تعمل للناس بالأجر وتأتيه بما تصيب فتطعمه وإن إبليس انطلق إلى رجلين من أهل فلسطين كانا صديقين له وأخوين فأتاهما فقال أخوكما أيوب أصابه من البلاء كذا وكذا فأتياه وزوراه واحملا معكما فانه من خمر أرضكما فانه إن شرب منه برىء فأتياه فلما نظرا إليه بكيا فقال من أنتما فقالا نحن فلان وفلان فرحب بهما وقال مرحبا بمن لايجفونى عند البلاء ، فقالا يا أيوب لعلك كنت تسر شيئا وتظهر غيره فلذلك ابتلاك الله فرفع رأسه إلى السماء فقال : هو يعلم ، ما أسررت شيئا أظهرت غيره ولكن ربى ابتلانى لينظر أأصبر أم أجزع فقالا له يا أيوب اشرب من خمرنا فانك إن شربت منه برأت قال فغضب وقال جاءكما الخبيث فأمركما بهذا ؟ كلامكما وطعامكما وشرابكما على حرام فقاما من عنده وخرجت امرأته تعمل للناس فخبزت لأهل بيت لهم صبى فجعلت لهم قرصا وكان ابنهم نائما فكرهوا أن يوقظوه فوهبوه لها فأتت به إلى أيوب فأنكره وقال ما كنت تاتينى بهذا فما بالك اليوم فأخبرته الخبر قال فلعل الصبى قد استيقظ فطلب القرص فلم يجده فهو يبكى على أهله فانطلقى به إليه فاقبلت حتى بلغت درجة القوم فنطحتها شاة لهم فقالت تعس أيوب الخطاء فلما صعدت وجدت الصبى قد استيقظ وهو يطلب القرص ويبكى على أهله لايقبل منهم شيئا غيره فقالت رحمه الله يعنى أيوب فدفعت اليه

القرص ورجعت ثم إن إبليس أتاها في صورة طبيب فقال لها إن زوجك قد طال سقمه فان أراد أن يبرأ فليأخذ ذبابا فليذبحه باسم صنم بني فلان فانه يبرأ ويتوب بعد ذلك فقالت ذلك لأيوب فقال قد أتاك الخبيث لله على إن برأت أن أجلدك مائة جلدة فخرجت تسعى عليه فحظر عنها الرزق فجعلت لا تأتي أهل بيت فيريدونها فلما اشتد عليها ذلك وخافت على أيوب الجوع حلقت من شعرها قرنا فباعته من صبية من بنات الأشراف فأعطوها طعاما طيبا كثيرا فأتت به أيوب فلما رآه أنكره وقال من أين لك هذا قالت عملت لأناس فأطعموني فأكل منه فلما كان الغد خرجت فطلبت أن تعمل فلم تجد فحلقت أيضاً قرنا فباعته من تلك الجارية فأعطوها أيضا من ذلك الطعام فأتت به أيوب فقال والله لا أطعمه حتى أعلم من أين هو فوضعت خمارها فلما رأى رأسها محلوقا جزع جزعا شديداً فعند ذلك دعا الله عز وجل فقال (رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد حدثنا أبو عمران الجوني عن نوف البكالي أن الشيطان الذي عرج في أيوب كان يقال له مبسوط قال وكانت امرأة أيوب تقول ادع الله فيشفيك فجعل لا يدعو حتى مر به نفر من بني إسرائيل فقال بعضهم لبعض: ما أصابه، ما أصابه إلا بذنب عظيم أصابه فعند ذلك قال (رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) وحدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا جرير بن حازم عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال كان لأيوب عليه السلام أخوان فجاآ يوما فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه فقاما من بعيد فقال أحدهما للآخر لو كان الله علم من أيوب خيرا ما ابتلاه بهذا فجزع أيوب من قولهما جزعا لم يجزع من شيء قط فقال : اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصدقني فصدق من السماء وهما يسمعان ثم قال : اللهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قميصان قط وأنا أعلم مكان عار فصدقني فصدق من السماء وهما يسمعان ثم قال : اللهم بعزتك ثم خر ساجدا فقال اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبدا حتى تكشف عني فما رفع رأسه حتى كشف عنه ، وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر مرفوعا بنحو هذا فقال أخبرنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهري عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له كانا يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين فقال له صاحبه وما ذاك قال منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له فقال أيوب عليه السلام ما أدري ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا في حق ، قال وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ فلما كان ذات يوم أبطأت عليه فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب » رفع هذا الحديث غريب جدا . وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد أخبرنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال وألبسه الله حلة من الجنة فتنحى أيوب فجلس في ناحية وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت يا عبد الله أين ذهب هذا المبتلى الذي كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب فجعلت تكلمه ساعة . فقال ويحك أنا أيوب قالت أتسخر مني يا عبد الله فقال ويحك أنا أيوب قد رد الله على جسدي ، وبه قال ابن عباس ورد عليه ماله وولده عيانا ومثلهم معهم ، وقال وهب بن منبه أوحى الله إلى أيوب قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قربانا واستغفر لهم فانهم قد عصوني فيك . رواه ابن أبي حاتم . وقال أيضا حدثنا أبو زرعة حدثنا عمرو بن مرزوق حدثنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لما عافى الله أيوب أمطر عليه جرادا من ذهب فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه قال فقيل له يا أيوب أما تشبع قال يارب ومن يشبع من رحمتك » أصله في الصحيحين وسيأتي في موضع آخر . وقوله (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) قد تقدم عن ابن عباس أنه قال ردوا عليه بأعيانهم وكذا رواه العوفي عن ابن عباس أيضاً وروي مثله عن ابن مسعود ومجاهد وبه قال الحسن وقتادة ، وقد زعم بعضهم أن اسم زوجته رحمة فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد النجعة ، وإن كان

أخذه من نقل أهل الكتاب وصح ذلك عنهم فهو مما لا يصدق ولا يكذب ، وقد سماها ابن عساكر في تاريخه: رحمة الله تعالى قال ويقال اسمها ليا بنت ميشا بن يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، قال ويقال ليا بنت يعقوب عليه السلام زوجة أيوب كانت معه بأرض الثنية ، وقال مجاهد قيل له يا أيوب إن أهلك لك في الجنة فان شئت أتيناك بهم وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم قال لا بل أتركهم في الجنة فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا ، وقال حماد بن زيد عن أبي عمران الجوني عن نوف البكالي قال أوتي أجرهم في الآخرة وأعطي مثلهم في الدنيا ، قال فحدثت به مطرفا فقال ماعرفت وجهها قبل اليوم وهكذا روى عن قتادة والسدي وغير واحد من السلف والله أعلم وقوله (رحمة من عندنا) أي فعلنا به ذلك رحمة من الله به (وذكرى للعابدين) أي وجعلناه في ذلك قدوة لئلا يظن أهل البلاء أنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا ، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء وله الحكمة البالغة في ذلك .

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

وأما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام وقد تقدم ذكره في سورة مريم وكذا إدريس عليه السلام وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ماقرن مع الأنبياء إلا وهو نبي وقال آخرون إنما كان رجلا صالحاً وكان ملكا عادلا وحكما مقسطا وتوقف ابن جرير في ذلك فالله أعلم. قال ابن جريج عن مجاهد في قوله (وذا الكفل) قال رجل صالح غير نبي تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضي بينهم بالعدل ففعل ذلك فسمي ذا الكفل وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد أيضا ، وروى ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا داود عن مجاهد قال لما كبر اليسع قال لو أني استخلفت رجلا على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يفعل فجمع الناس فقال من يتقبل مني بثلاث أستخلفه فيصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب قال فقام رجل تزدريه الأعين فقال أنا ، فقال أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب قال نعم قال فرده ذلك اليوم وقال مثلها في اليوم الآخر فسكت الناس : وقام ذلك الرجل فقال أنا فاستخلفه قال فجعل إبليس يقول للشياطين عليكم بفلان فأعياهم ذلك فقال دعوني وإياه فأتاه في صورة شيخ كبير فقير فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة ـ وكان لاينام الليل والنهار إلا تلك النومة فدق الباب فقال من هذا قال شيخ كبير مظلوم ، قال فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه فقال إن بيني وبين قومي خصومة وإنهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا ، وجعل يطول عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة فقال إذا رحت فأتني آخذ لك بحقك فانطلق وراح فكان في مجلسه فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه فلما كان الغد جعل يقضي بين الناس وينتظره فلا يراه ، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال من هذا قال الشيخ الكبير المظلوم ففتح له فقال ألم أقل لك إذا قعدت فأتني قال إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك وإذا قمت جحدوني قال فانطلق فاذا رحت فأتني قال ففاتته القائلة فراح فجعل ينتظره ولا يراه وشق عليه النعاس فقال لبعض أهله لاتدع أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فإني قد شق علي النوم فلما كان تلك الساعة جاء فقال له الرجل: وراءك، وراءك قال إني قد أتيته أمس وذكرت له أمري فقال لا والله لقد أمرنا أن لا ندع أحدا يقربه فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها فإذا هو في البيت وإذا هو يدق الباب من داخل قال واستيقظ الرجل فقال يافلان ألم آمرك قال أما من قبلي والله فلم تؤت فانظر من أين أتيت قال فقام إلى الباب فاذا هو مغلق كما أغلقه وإذا الرجل معه في البيت فعرفه فقال أعدو الله قال نعم أعييتني في كل شيء ففعلت ما ترى لأغضبك فسماه الله ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به . وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث زهير بن إسحق عن داود عن مجاهد بمثله ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن يونس حدثنا أبوبكر بن عياش عن الأعمش عن مسلم قال : قال ابن عباس كان قاض في بني إسرائيل فحضره الموت فقال من يقوم مقامي على أن لا يغضب قال : فقال رجل: أنا فسمي ذا الكفل

قال فكان ليله جميعاً يصلى ثم يصبح صائماً فيقضي بين الناس قال وله ساعة يقيلها قال فكان كذلك فأتاه الشيطان عند نومته فقال له أصحابه مالك ؟ قال إنسان مسكين له على رجل حق وقد غلبني عليه قالوا كما أنت حتى يستيقظ قال وهو فوق نائم قال فجعل يصيح عمدا حتى يوقظه قال فسمع فقال مالك قال إنسان مسكين له على رجل حق قال فاذهب فقل له يعطيك قال قد أبى قال اذهب أنت اليه قال فذهب ثم جاء من الغد فقال مالك قال ذهبت إليه فلم يرفع بكلامك رأساً قال اذهب إليه فقل له يعطيك حقك فذهب ثم جاء من الغد حين قال : قال فقال له أصحابه اخرج فعل الله بك تجيء كل يوم حين ينام لا تدعه ينام قال فجعل يصيح من أجل أني إنسان مسكين لو كنت غنيا ، قال فسمع أيضاً فقال مالك قال ذهبت إليه فضربني ، قال امش حتى أجيء معك قال فهو ممسك بيده فلما رآه ذهب معه نثر يده منه ففر . وهكذا روى عن عبد الله بن الحارث ومحمد بن قيس وأبي حجيرة الأكبر وغيرهم من السلف نحو هذه القصة والله أعلم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الجماهر أخبرنا سعيد بن بشير حدثنا قتادة عن كنانة بن الأخنس قال سمعت الأشعري وهو يقول على هذا المنبر : ما كان ذو الكفل بنبي ولكن كان — يعني في بني إسرائيل — رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة فتكفل له ذو الكفل من بعده فكان يصلي كل يوم مائة صلاة فسمي ذا الكفل ، وقد رواه ابن جرير من حديث عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : قال أبو موسى الأشعري فذكره منقطعاً والله أعلم ، وقد روى الإمام أحمد حديثاً غريباً فقال حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الأعمش عن عبد الله بن عبد الله عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر قال : سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عدّ سبع مرات ولكن قد سمعته أكثر من ذلك قال « كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت فقال ما يبكيك أكرهتك ؟ قالت لا ولكن هذا عمل لم أعمله قط وإنما حملني عليه الحاجة قال فتفعلين هذا ولم تفعليه قط !! ثم نزل فقال اذهبي بالدنانير لك ثم قال والله لا يعصى الله الكفل أبداً فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه قد غفر الله للكفل » هكذا وقع في هذه الرواية الكفل من غير إضافة والله أعلم وهذا الحديث لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة وإسناده غريب ، وعلى كل تقدير فلفظ الحديث إن كان الكفل ولم يقل ذو الكفل فلعله رجل آخر والله أعلم

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

هذه القصة مذكورة هنا وفي سورة الصافات وفي سورة نّ ، وذلك أن يونس بن متى عليه السلام بعثه الله إلى أهل قرية نينوى وهي قرية من أرض الموصل فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم فخرج من بين أظهرهم مغاضبا لهم ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث فلما تحققوا منه ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم وفرقوا بين الأمهات وأولادها ثم تضرعوا إلى الله عز وجل وجأروا إليه ورغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وسخالها ، فرفع الله عنهم العذاب قال الله تعالى (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين)

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم وخافوا أن يغرقوا فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً فأبوا ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً قال الله تعالى (فساهم فكان من المدحضين) أي وقعت عليه القرعة فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه ثم ألقى نفسه في البحر وقد أرسل الله سبحانه من البحر الأخضر — فيما قاله ابن مسعود —

حوتاً يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظما فان يونس ليس لك رزقا وإنما بطنك تكون له سجناً ، وقوله (وذا النون) يعنى الحوت صحت الإضافة إليه بهذه النسبة . وقوله (إذ ذهب مغاضبا) قال الضحاك لقومه (فظن أن لن نقدر عليه) أى نضيق عليه فى بطن الحوت يروى نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم واختاره ابن جرير واستشهد عليه بقوله تعالى (ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها * سيجعل الله بعد عسر يسرا) وقال عطية العوفى أى فظن أن لن نقدر عليه أى نقضى عليه كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير فان العرب تقول قدر وقدّر بمعنى واحد ، وقال الشاعر

فلا عائد ذاك الزمان الذى مضى * تباركت ما تقدر يكن ذلك الأمر

ومنه قوله تعالى (فالتقى الماء على أمر قد قدر) أى قدر وقوله (فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) قال ابن مسعود ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل وكذا روى عن ابن عباس وعمرو ابن ميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والضحاك والحسن وقتادة وقال سالم بن أبى الجعد: ظلمة حوت فى بطن حوت آخر فى ظلمة البحر قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما وذلك أنه ذهب به الحوت فى البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر فسمع يونس تسبيح الحصى فى قراره فعند ذلك وهنالك قال (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) وقال عوف الأعرابى لما صار يونس فى بطن الحوت ظن أنه قد مات ثم حرك رجليه فلما تحركت سجد مكانه ثم نادى يا رب اتخذت لك مسجدا فى موضع لم يبلغه أحد من الناس وقال سعيد بن أبى الحسن البصرى مكث فى بطن الحوت أربعين يوما رواهما ابن جبير وقال محمد بن إسحق بن يسار عمن حدثه عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لما أراد الله حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال فى نفسه ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو فى بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر قال وسبح وهو فى بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا يا ربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة قال ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر قالوا العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح ، قال نعم قال فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه فى الساحل كما قال الله تعالى (وهو سقيم)» رواه ابن جرير ورواه البزار فى مسنده من طريق محمد بن إسحق عن عبد الله بن رافع عن أبى هريرة فذكر بنحوه ثم قال لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد . وروى ابن أبى حاتم حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن أخى ابن وهب ثنا عمى حدثنى أبو صخر أن يزيد الرقاشى قال سمعت أنس بن مالك ولا أعلم إلا أن أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ أن يونس النبى عليه السلام حين بدأ له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت قال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش فقالت الملائكة يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة فقال أما تعرفون ذاك ؟ قالوا لا يا رب ومن هو ؟ قال عبدى يونس قالوا عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة قالوا يارب أولا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجيه من البلاء قال بلى فأمر الحوت فطرحه فى العراء ، وقوله (فاستجبنا له ونجيناه من الغم) أى أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات (وكذلك ننجى المؤمنين) أى إذا كانوا فى الشدائد ودعونا منيبين الينا ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء فى حال البلاء فقد جاء الترغيب فى الدعاء به عن سيد الأنبياء . قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن عمير حدثنا يونس بن أبى إسحق الهمدانى حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد حدثنى والدى محمد عن أبيه سعد هو ابن أبى وقاص رضى الله عنه قال مررت بعثمان ابن عفان رضى الله عنه فى المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه منى ثم لم يرد على السلام فأتيت عمر بن الخطاب فقلت يا أمير المؤمنين هل حدث فى الإسلام شىء مرتين قال لا وما ذاك قلت لا إلا أنى مررت بعثمان آنفا فى المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه منى ثم لم يرد على السلام قال فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه فقال ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك

السلام قال مافعلت قال سعد قلت بلى حتى حلف وحلفت قال ثم إن عثمان ذكر فقال بلى وأستغفر الله وأتوب إليه إنك مررت بى آنفا وأنا أحدث نفسى بكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا والله ماذكرتها قط إلا تغشى بصرى وقلبى غشاوة قال سعد فأنا أنبئك بها إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابى فشغله حتى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعته فلما أشفقت أن يسبقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « من هذا أبوا إسحاق؟ » قال قلت نعم يارسول الله قال « فمه » قلت لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ثم جاء هذا الأعرابى فشغلك قال « نعم دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) فانه لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له » ورواه الترمذى والنسائى فى اليوم والليلة من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه سعد به وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن كثير ابن زيد عن المطلب بن حنطب قال أبو خالد أحسبه عن مصعب يعنى ابن سعد عن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دعا بدعاء يونس استجيب له » قال أبو سعيد يريد به (وكذلك ننجى المؤمنين) وقال ابن جرير حدثنى عمران ابن بكار الكلاعى حدثنا يحيى بن صالح حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن حدثنى بشر بن منصور عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال سمعت سعد بن أبى وقاص يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اسم الله الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى » قال قلت يارسول الله هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين قال « هى ليونس بن متى خاصة وللجماعة المؤمنين عامة إذا دعوا بها ألم تسمع قول الله عزوجل (فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) فهو شرط من الله لمن دعاه به » وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن أبى شريح حدثنا داود بن المحبر بن محذم المقدسى عن كثير بن معبد قال سألت الحسن فقلت يا أبا سعيد: اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى ؟ قال ابن أخى أما تقرأ القرآن قول الله تعالى (وذا النون إذ ذهب مغاضبا — إلى قوله — وكذلك ننجى المؤمنين) ابن أخى هذ اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولدا يكون من بعده نبيا وقد تقدمت القصة مبسوطة فى أول سورة مريم وفى سورة آل عمران أيضاً وههنا أخصر منها (إذ نادى ربه) أى خفيه عن قومه (رب لاتذرنى فردا) أى لا ولدلى ولا وارث يقوم بعدى فى الناس (وأنت خير الوارثين) دعاء وثناء مناسب للمسئلة قال الله تعالى (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه) أى امرأته قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : كانت عاقراً لا تلد فولدت وقال عبد الرحمن بن مهدى عن طلحة بن عمرو عن عطاء كان فى لسانها طول فأصلحها الله وفى رواية كان فى خلقها شىء فأصلحها الله وهكذا قال محمد بن كعب والسدى والأظهر من السياق الأول . وقوله (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات) أى فى عمل القربات وفعل الطاعات (ويدعوننا رغبا ورهبا) قال الثورى رغبا فيما عندنا ورهبا مما عندنا (وكانوا لنا خاشعين) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أى مصدقين بما أنزل الله وقال مجاهد: مؤمنين حقا وقال أبو العالية خائفين وقال أبو سنان الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لايفارقه أبداً وعن مجاهد أيضا خاشعين أى متواضعين وقال الحسن وقتادة والضحاك خاشعين أى متذللين لله عزوجل وكل هذه الأقوال متقاربة ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا محمد بن فضيل حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن عبد الله القرشى عن عبد الله بن حكيم قال خطبنا أبو بكر رضى الله عنه ثم قال: أما بعد فانى أوصيكم بتقوى الله وتثنوا عليه بما هو له أهل وتخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا

الإلحاف بالمسئلة فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين)

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام فيذكر أولا قصة زكريا ثم يتبعها بقصة مريم لأن تلك مربوطة بهذه فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن فى السن ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد فى حال شبابها ثم يذكر قصة مريم وهى أعجب فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر هكذا وقع فى سورة آل عمران وفى سورة مريم وههنا ذكر قصة زكريا ثم أتبعها بقصة مريم بقوله (والتى أحصنت فرجها) يعنى مريم عليها السلام كما قال فى سورة التحريم (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) وقوله (وجعلناها وابنها آية للعالمين) أى دلالة على أن الله على كل شيء قدير وأنه يخلق ما يشاء وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون وهذا كقوله (ولنجعله آية للناس) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عمر بن على حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد عن شعيب يعنى ابن بشير عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله (للعالمين) قال العالمين الجن والإنس

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ * فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله (إن هذه أمتكم أمة واحدة) يقول دينكم دين واحد وقال الحسن البصرى فى هذه الآية يبين لهم ما يتقون وما يأتون ثم قال(إن هذه أمتكم أمة واحدة) أى سنتكم سنة واحدة فقوله إن هذه إن واسمها وأمتكم خبر إن أى هذه شريعتكم التى بينت لكم ووضحت لكم وقوله أمة واحدة نصب على الحال ولهذا قال (وأنا ربكم فاعبدون) كما قال (يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا -إلى قوله - وأنا ربكم فاتقون) وقال رسول الله ﷺ « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » يعنى أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله كما قال تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) وقوله (وتقطعوا أمرهم بينهم) أى اختلفت الأمم على رسلها فمن بين مصدق لهم ومكذب ولهذا قال (كل إلينا راجعون) أى يوم القيامة فيجازى كل بحسب عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ولهذا قال (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن) أى قلبه مصدق وعمل عملا صالحا (فلا كفران لسعيه) كقوله (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) أى لا يكفر سعيه وهو عمله بل يشكر فلا يظلم مثقال ذرة ولهذا قال (وإنا له كاتبون) أى يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه منه شيء

﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

يقول تعالى (وحرام على قرية) قال ابن عباس وجب يعنى قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة هكذا صرح به ابن عباس وأبو جعفر الباقر وقتادة وغير واحد وفى رواية عن ابن عباس أنهم لا يرجعون أى لا يتوبون والقول الأول أظهر والله أعلم ، وقوله (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج) قد قدمنا أنهم من سلالة

آدم عليه السلام بل هم من نسل نوح أيضا من أولاد يافث أى أبى الترك والترك شرذمة منهم تركوا من وراء السد الذى بناه ذوالقرنين وقال (هـذا رحمة من ربى فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقاً * وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض) الآية وقال فى هـذه الآية الكريمة (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) أى يسرعون فى المشى إلى الفساد ، والحدب هوالمرتفع من الأرض قاله ابن عباس وعكرمة وأبوصالح والثورى وغيرهم وهذه صفتهم فى حال خروجهم كأن السامع مشاهد لذلك (ولا ينبئك مثل خبير) هذا إخبار عالم ما كان وما يكون الذى يعلم غيب السموات والأرض لاإله إلا هو . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن مثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عبد الله بن أبى يزيد قال : رأى ابن عباس صبيانا ينزو بعضهم على بعض يلعبون فقال ابن عباس هكذا يخرج يأجوج ومأجوج وقد ورد ذكر خروجهم فى أحاديث متعددة من السنة النبوية ﴿ فالحديث الأول ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبى عن ابن إسحق عن عاصم بن عمرو بن قتادة عن محمود بن لبيد عن أبى سعيد الخدرى قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس كما قال الله عز وجل (وهم من كل حدب ينسلون) فيغشون الناس وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ويضمون اليهم مواشيهم ويشربون مياه الأرض حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون مافيه حتى يتركوه يابسا حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول قد كان ههنا ماء مرة حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد فى حصن أومدينة قال قائلهم هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقى أهل السماء قال ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمى بها إلى السماء فترجع اليه مخضبة دما للبلاء والفتنة فبينماهم على ذلك بعث الله عز وجل دودا فى أعناقهم كنغف الجراد الذى يخرج فى أعناقه فيصبحون موتى لايسمع لهم حس فيقول المسلمون ألا رجل يشرى لنا نفسه فينظر مافعل هذا العدو ، قال فينحدر رجل منهم محتسبا نفسه قد أوطنها على أنه مقتول فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض فينادى يامعشر المسلمين ألا أبشروا إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم فما يكون لهم رعى إلا لحومهم فتشكر عنهم كأحسن ماشكرت عن شىء من النبات أصابته قط » ورواه ابن ماجه من حديث يونس بن بكير عن ابن إسحق به . ﴿ الحديث الثانى ﴾ قال الإمام أحمد أيضا حدثنا الوليد بن مسلم أبوالعباس الدمشقى حدثنا عبدالرحمن بن يزيد بن جابر حدثنى يحيى بن جابر الطائى قاضى حمص حدثنى عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمى عن أبيه أنه سمع النواس بن سمعان الكلابى قال ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيـه ورفع حتى ظنناه فى ناحية النخل فقال « غير الدجال أخوفنى عليكم فان يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فكل امرىء حجيج نفسه والله خليفتى على كل مسلم وإنه شاب جعد قطط عينه طافية وإنه يخرج خلة بين الشام والعراق فعاث يمينا وشمالا ياعباد الله اثبتوا - قلنا يارسول الله مالبثه فى الأرض ؟ - قال أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم » قلنا يارسول الله فذاك اليوم الذى هو كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم وليلة قال « لا . اقدروا له قدره » قلنا يارسول الله فما إسراعه فى الأرض قال « كالغيث استدبرته الريح قال فيمر بالحى فيدعوهم فيستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت وتروح عليهم سارحتهم وهى أطول ما كانت ذرى وأمده خواصر وأسبغه ضروعا ويمر بالحى فيدعوهم فيردون عليه قوله فتتبعه أموالهم فيصبحون ممحلين ليس لهم من أموالهم شىء ويمر بالخربة فيقول لها أخرجى كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل - قال - ويأمر برجل فيقتل فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل اليه فبينماهم على ذلك إذ بعث الله عزوجل المسيح عيسى بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين واضعا يديه على أجنحة ملكين فيتبعه فيدركه فيقتله عند باب لد الشرقى - قال - فبينماهم كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى بن مريم عليه السلام أنى قد أخرجت عبادا من عبادى لايدان لك بقتالهم فحرز عبادى إلى الطور فيبعث الله عزوجل يأجوج ومأجوج كما قال تعالى (وهم من كل حدب ينسلون) فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عزوجل فيرسل عليهم نغفا فى رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة فيهبط عيسى وأصحابه فلا يجدون فى الأرض بيتا إلا قد ملأه

زهمهم ونتنهم فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله » قال ابن جابر فحدثني عطاء بن يزيد السكسكي عن كعب أو غيره قال فتطرحهم بالمهيل : قال ابن جابر فقلت ياأبا يزيد وأين المهيل قال مطلع الشمس قال « ويرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوما فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ويقال للأرض انبتي ثمرك ودري بركتك قال فيومئذ يأكل النفر من الرمانة فيستظلون بقحفها ويبارك في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس واللقحة من البقر تكفي الفخذ . والشاة من الغنم تكفي أهل البيت قال فبيناهم على ذلك إذ بعث الله عز وجل ريحاطيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم — أوقال مؤمن — ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة » انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري ورواه مع بقية أهل السنن من طرق عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر به وقال الترمذي حسن صحيح

﴿ الحديث الثالث ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن بشر حدثنا محمد بن عمرو عن ابن حرملة عن خالته قالت : خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصبعه من لدغة عقرب فقال « إنكم تقولون لاعدو لكم وإنكم لاتزالون تقاتلون عدواً حتى يأتي يأجوج ومأجوج عراض الوجوه صغار العيون صهب الشعاف من كل حدب ينسلون كأن وجوههم المجان المطرقة » وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث محمد بن عمرو عن خالد بن عبدالله بن حرملة المدلجي عن خالة له عن النبي ﷺ فذكره مثله سواء .

﴿ الحديث الرابع ﴾ قد تقدم في آخر تفسير سورة الأعراف من رواية الإمام أحمد عن هشيم عن العوام عن جبلة ابن سحيم عن مرثد بن عمارة عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « لقيت ليلة أسرى بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام — قال — فتذاكروا أمر الساعة فردوا أمرهم إلى إبراهيم فقال لا علم لي بها ، فردوا أمرهم إلى موسى فقال لاعلم لي بها فردوا أمرهم إلى عيسى فقال أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله وفيما عهد إلى ربي أن الدجال خارج ومعي قضيبان فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص قال فيهلكه الله إذا رآني حتى إن الحجر والشجر يقول يامسلم إن تحتي كافرا فتعال فاقتله قال فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم —قال— فعندذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطئون بلادهم ولا يأتون على شيء إلا أهلكوه ولايمرون على ماء إلا شربوه —قال— ثم يرجع الناس إلى أوطانهم يشكونهم فأدعوا الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر ففيما عهد إلى ربي أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم لايدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلا أو نهارا » ورواه ابن ماجه عن محمد بن بشار عن يزيد بن هرون عن العوام بن حوشب به نحوه وزاد قال العوام ووجد تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ﴾ ورواه ابن جرير ههنا من حديث جبلة به والأحاديث في هذا كثيرة جدا والآثار عن السلف كذلك ، وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث معمر عن غير واحد عن حميد بن هلال عن أبي الصيف قال : قال كعب إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فئوسهم فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول نجيء غدا فنخرج فيعيده الله كما كان فيجيئون من الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان فيحفرونه حتى يسمع الذين يلونهم قرع فئوسهم فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول نجيء غدا فنخرج إن شاء الله فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه فيحفرون حتى يخرجوا فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة فيشربون ماءها ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون قد كان ههنا مرة ماء فيفر الناس منهم فلا يقوم لهم شيء ثم يرمون بسهامهم إلى السماء فترجع إليهم مخضبة بالدماء فيقولون غلبنا أهل الأرض وأهل السماء فيدعو عليهم عيسى بن مريم عليه السلام فيقول اللهم لاطاقة ولايدى لنا بهم فاكفناهم بما شئت فيسلط الله عليهم دوداً يقال له النغف فيفرس رقابهم ويبعث الله عليهم طيرا تأخذهم بمناقيرها فتلقيهم في البحر ويبعث الله عينا يقال لها الحياة يطهر الله الأرض وينبتها حتى إن الرمانة ليشبع منها السكن قيل وما السكن يا كعب قال أهل

البيت قال فبينما الناس كذلك إذا أتاهم الصريخ أن ذا السويقتين يريده قال فيبعث عيسى بن مريم طليعة سبعمائة أو بين السبعمائة والثمانمائة حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحاً يمانية طيبة فيقبض فيها روح كل مؤمن ثم يبقى عجاج الناس فيتسافدون كما تتسافد البهائم فمثل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه متى تضع قال كعب فمن قال بعد قولي هذا شيئاً أو بعد علمي هذا شيئاً فهو المتكلف ، وهذا من أحسن سياقات كعب الأحبار لما شهد له من صحيح الأخبار ، وقد ثبت في الحديث أن عيسى بن مريم يحج البيت العتيق ، وقال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن داود حدثنا عمران عن قتادة عن عبد الله بن أبي عتبة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج » انفرد بإخراجه البخاري وقوله (واقترب الوعد الحق) يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل والبلابل أزفت الساعة واقتربت فإذا كانت ووقعت قال الكافرون هذا يوم عسر ، ولهذا قال تعالى (فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا) أي من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام (ياويلنا) أي يقولون ياويلنا (قد كنا في غفلة من هذا) أي في الدنيا (بل كنا ظالمين) يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

يقول تعالى مخاطبا لأهل مكة من مشركي قريش ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) قال ابن عباس أي وقودها يعني كقوله (وقودها الناس والحجارة) وقال ابن عباس أيضا حصب جهنم يعني شجر جهنم ، وفي رواية قال (حصب جهنم) يعني حطب جهنم بالزنجية وقال مجاهد وعكرمة وقتادة حطبها وهي كذلك في قراءة علي وعائشة رضي الله عنهما وقال الضحاك حصب جهنم أي ما يرمى به فيها وكذا قال غيره والجميع قريب وقوله (أنتم لها واردون) أي داخلون (لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) يعني لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار وما دخلوها (وكل فيها خالدون) أي العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون (لهم فيها زفير) كما قال تعالى (لهم فيها زفير وشهيق) والزفير خروج أنفاسهم والشهيق ولوج أنفاسهم (وهم فيها لا يسمعون)

قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا ابن فضيل حدثنا عبد الرحمن يعني المسعودي عن أبيه قال : قال ابن مسعود إذا بقي من يخلد في النار جعلوا في توابيت من نار فيها مسامير من نار فلا يرى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره ثم تلا عبد الله (لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون) ورواه ابن جرير من حديث حجاج بن محمد عن المسعودي عن يونس بن حبان عن ابن مسعود فذكره ، وقوله (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) قال عكرمة الرحمة وقال غيره السعادة (أولئك عنها مبعدون) لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا كما قال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقال (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) فكما أحسنوا العمل في الدنيا أحسن الله مآبهم وثوابهم ونجاهم من العذاب وحصل لهم جزيل الثواب فقال (أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها) أي حريقها في الأجساد ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن عمار حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن أبيه عن أبي عثمان الحريري عن أبي عثمان (لا يسمعون حسيسها) قال حيات على الصراط تلسعهم فإذا لسعتهم

قال حس حس وقوله (وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) فسلمهم من المحذور والمرهوب وحصل لهم المطلوب والمحبوب قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن أبي شريح حدثنا محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني عن ليث بن أبي سليم عن ابن عم النعمان بن بشير عن النعمان بن بشير قال وسمر مع علي ذات ليلة فقرأ (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) قال أنا منهم وعمر منهم وعثمان منهم والزبير منهم وطلحة منهم وعبد الرحمن منهم أو قال سعد منهم قال وأقيمت الصلاة فقام وأظنه يجر ثوبه وهو يقول (لا يسمعون حسيسها) وقال شعبة عن أبي بشر عن يوسف المكي عن محمد بن حاطب قال سمعت عليا يقول في قوله (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) قال عثمان وأصحابه ، ورواه ابن أبي حاتم أيضا ورواه ابن جرير من حديث يوسف بن سعد وليس بابن ماهك عن محمد بن حاطب عن علي فذكره ولفظه عثمان منهم ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) فأولئك أولياء الله يمرون على الصراط مرا هو أسرع من البرق ويبقى الكفار فيها جثيا فهذا مطابق لما ذكرناه ، وقال آخرون بل نزلت استثناء من المعبودين وخرج منهم عزير والمسيح كما قال حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج وعثمان عن عطاء عن ابن عباس (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) ثم استثنى فقال (إن الذين سبقت لهم منه الحسنى) فيقال هم الملائكة وعيسى ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل وكذا قال عكرمة والحسن وابن جريج وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) قال نزلت في عيسى بن مريم وعزير عليهما السلام ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا الحسين بن عيسى بن ميسرة حدثنا أبو زهير حدثنا سعد بن طريف عن الأصبغ عن علي في قوله (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) قال كل شيء يعبد من دون الله في النار إلا الشمس والقمر وعيسى بن مريم إسناده ضعيف وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد (أولئك عنها مبعدون) قال عيسى وعزير والملائكة وقال الضحاك عيسى ومريم والملائكة والشمس والقمر وكذا روى عن سعيد بن جبير وأبي صالح وغير واحد وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثاً غريباً جدا فقال حدثنا الفضل بن يعقوب الرخاني حدثنا سعيد بن مسلمة بن عبد الملك حدثنا الليث بن أبي سليم عن مغيث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) قال عيسى وعزير والملائكة وذكر بعضهم قصة ابن الزبعرى ومناظرة المشركين قال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن علي بن سهل حدثنا محمد بن حسن الأنماطي حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة حدثنا يزيد بن أبي حكيم حدثنا الحكم يعني ابن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال جاء عبد الله بن الزبعرى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) فقال ابن الزبعرى قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى بن مريم كل هؤلاء في النار مع آلهتنا ؟ فنزلت (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) ثم نزلت (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) رواه الحافظ أبو عبد الله في كتابه الأحاديث المختارة ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا قبيصة بن عقبة حدثنا سفيان يعني الثوري عن الأعمش عن أصحابه عن ابن عباس قال لما نزلت (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) قال المشركون فالملائكة وعزير وعيسى يعبدون من دون الله فنزلت (لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) الآلهة التي يعبدون (وكل فيها خالدون) وروى عن أبي كدينة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل ذلك وقال فنزلت (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله في كتاب السيرة وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم وفي المسجد غير واحد من رجال قريش فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه وتلا عليه وعليهم (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون — إلى قوله — هم

فيها لا يسمعون) ثم قام رسـول الله ﷺ وأقبل عبـد الله بن الزبعرى السهمى حتى جلس معهم فقال الوليـد ابن المغيرة لعبد الله بن الزبعرى والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبـد المطلب آنفاً ولا قعد وقد زعم محمـد أنا وما نعبد من آلهتنا هـذه حصب جهنم . فقال عبـد الله بن الزبعرى أما والله لو وجـدته لخصمته فسلوا محمـداً كل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيراً والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبـد الله بن الزبعرى ورأوا أنه قد احتج وخاصم فذكر ذلك لرسـول الله ﷺ فقال : « كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده إنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته » وأنزل الله (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) أى عيسى وعزير ومن عبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون — إلى قوله — ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) ونزل فيما ذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون * وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون * إن هو إلا عبـد أنعمنا عليـه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل * ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون * وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها) أى ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام فكفى به دليلا على علم الساعة يقول « فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم) وهذا الذى قاله ابن الزبعرى خطأ كبير لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة فى عبادتهم الأصنام التى هى جماد لا تعقل ليكون ذلك تقريعا وتوبيخا لعابديها ولهذا قال (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) فكيف يورد على هذا المسيح والعزير ونحوهما ممن له عمل صالح ولم يرض بعبادة من عبده وعول ابن جرير فى تفسيره فى الجواب على أن ما لما لا يعقل عند العرب وقد أسلم عبـد الله بن الزبعرى بعـد ذلك وكان من الشعراء المشهورين ، وقد كان يهاجى المسلمين أولا ثم قال معتذراً

يا رسول المليك إن لسانى * راتق ما فتقت إذ أنا بور

إذ أجارى الشيطان فى سنن الغى * ومن مال ميله مثبور

وقوله (لا يحزنهم الفزع الأكبر) قيل المراد بذلك الموت رواه عبد الرزاق عن يحيى بن ربيعة عن عطاء وقيل المراد بالفزع الأكبر النفخة فى الصور قاله العوفى عن ابن عباس وأبو سنان سعيد بن سنان الشيبانى واختاره ابن جرير فى تفسيره وقيل حين يؤمر بالعبد إلى النار قاله الحسن البصرى وقيل حين تطبق النار على أهلها قاله سعيد بن جبير وابن جريج وقيـل حين يذبح الموت بين الجنة والنار قاله أبو بكر الهـذلى فيما رواه ابن أبى حاتم عنه ، وقوله (وتتلقاهم الملائكة هـذا يومكم الذى كنتم توعدون) يعنى تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم (هذا يومكم الذى كنتم توعدون) أى فأملوا ما يسركم .

﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾

يقول تعالى هذا كائن يوم القيامة (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) كما قال تعالى (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) وقـد قال البخارى حدثنا مقدم بن محمـد حدثنى عمى القاسم بن يحيى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السموات بيمينه » انفرد به من هـذا الوجه البخارى رحمه الله : وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حـدثنا محمـد بن أحمـد بن الحجاج الرقى حـدثنا محمد بن سلمة عن أبى الواصل عن أبى المليح الأزدى عن أبى الجوزاء الأزدى عن ابن عباس قال : يطوى الله السموات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من

الخليقة يطوى ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله فى يده بمنزلة خردلة ، وقوله (كطى السجل للكتب) قيل المراد بالسجل الكتاب ، وقيل المراد بالسجل ههنا ملك من الملائكة ، قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا محمد بن العلاء حدثنا يحيى بن يمان حدثنا أبو الوفاء الأشجعى عن أبيه عن ابن عمر فى قوله تعالى (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب) ، قال السجل ملك فإذا صعد بالاستغفار قال اكتبها نورا وهكذا رواه ابن جرير عن أبى كريب عن ابن يمان به ، قال ابن أبى حاتم وروى عن أبى جعفر محمد بن على بن الحسين أن السجل ملك ، وقال السدى فى هذه الآية السجل ملك موكل بالصحف فإذا مات الإنسان رفع كتابه إلى السجل فطواه ورفعه إلى يوم القيامة ، وقيل المراد به اسم رجل صحابى كان يكتب للنبى ﷺ الوحى ، قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا نصر بن على الجهضمى حدثنا نوح بن قيس عن عمرو بن مالك عن أبى الجوزاء عن ابن عباس (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب) قال السجل هو الرجل ، قال نوح وأخبرنى يزيد بن كعب هو العوذى عن عمرو بن مالك عن أبى الجوزاء عن ابن عباس قال : السجل كاتب للنبى ﷺ وهكذا رواه أبو داود والنسائى كلاهما عن قتيبة بن سعيد عن نوح بن قيس عن يزيد بن كعب عن عمرو بن مالك عن أبى الجوزاء عن ابن عباس قال : السجل كاتب للنبى صلى الله عليه وسلم ورواه ابن جرير عن نصر بن على الجهضمى كما تقدم ورواه ابن عدى من رواية يحيى ابن عمرو بن مالك النكرى عن أبيه عن أبى الجوزاء عن ابن عباس قال كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم كاتب يسمى السجل وهو قوله (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) قال كما يطوى السجل الكتاب كذلك تطوى السماء ثم قال وهو غير محفوظ . وقال الخطيب البغدادى فى تاريخه أنبأنا أبو بكر البرقانى أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجى أنبأنا أحمد بن الحسين الكرخى أن حمدان بن سعيد حدثهم عن عبد الله بن نمير عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال السجل كاتب للنبى ﷺ وهذا منكر جدا من حديث نافع عن ابن عمر لا يصح أصلا وكذلك ما تقدم عن ابن عباس من رواية أبى داود وغيره لا يصح أيضا ، وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه وإن كان فى سنن أبى داود منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزى فسح الله فى عمره ونسأ فى أجله ، وختم له بصالح عمله ، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حدته ولله الحمد . وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير للانكار على هذا الحديث ورده أتم رد وقال : لا يعرف فى الصحابة أحد اسمه السجل وكتاب النبى صلى الله عليه وسلم معروفون وليس فيهم أحد اسمه السجل ، وصدق رحمه الله فى ذلك وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث ، وأما من ذكره فى أسماء الصحابة فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره والله أعلم ، والصحيح عن ابن عباس أن السجل هى الصحيفة قاله على بن أبى طلحة والعوفى عنه ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير لأنه المعروف فى اللغة فعلى هذا يكون معنى الكلام يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب أى على الكتاب بمعنى المكتوب كقوله (فلما أسلما وتله للجبين) أى على الجبين ، وله نظائر فى اللغة والله أعلم . وقوله (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) يعنى هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً كما بدأهم هو القادر على إعادتهم وذلك واجب الوقوع لأنه من جملة وعد الله الذى لا يخلف ولا يبدل وهو القادر على ذلك ولهذا قال (إنا كنا فاعلين) وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع أبو جعفر وعبيدة العمى قالوا حدثنا شعبة عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال « إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » وذكر تمام الحديث أخرجاه فى الصحيحين من حديث شعبة ذكره البخارى عند هذه الآية فى كتابه ، وقد روى ليث بن أبى سليم عن مجاهد عن عائشة عن رسول الله ﷺ نحو ذلك ، وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله (كما بدأنا أول خلق نعيده) قال : يهلك كل شىء كما كان أول مرة

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِن بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ * إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ

﴿عَٰبِدِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

يقول تعالى مخبرا عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة فى الدنيا والآخرة ووراثة الأرض فى الدنيا والآخرة كقوله تعالى (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) وقال (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) وقال (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم) وأخبر تعالى أن هذا مسطور فى الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة ولهذا قال تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر) قال الأعمش : سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر) فقال الزبور: التوراة والإنجيل ، والقرآن ، وقال مجاهد: الزبور الكتاب ، وقال ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد : الزبور الذى أنزل على داود والذكر التوراة وعن ابن عباس الذكر القرآن ، وقال سعيد بن جبير الذكر الذى فى السماء ، وقال مجاهد الزبور الكتب بعد الذكر والذكر أم الكتاب عند الله واختار ذلك ابن جرير رحمه الله وكذا قال زيد بن أسلم هو الكتاب الأول، وقال الثورى هو اللوح المحفوظ ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الزبور الكتب التى أنزلت على الأنبياء والذكر أم الكتاب الذى يكتب فيه الأشياء قبل ذلك ، وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس : أخبر الله سبحانه وتعالى فى التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد صلى الله عليه وسلم الأرض ، ويدخلهم الجنة وهم الصالحون . وقال مجاهد عن ابن عباس (إن الأرض يرثها عبادى الصالحون) قال أرض الجنة وكذا قال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدى وأبو صالح والربيع بن أنس والثوري ، وقال أبو الدرداء نحن الصالحون وقال السدى هم المؤمنون ، وقوله (إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين) أى إن فى هذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغا لمنفعة وكفاية لقوم عابدين وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم وقوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين أى أرسله رحمة لهم كلهم فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد فى الدنيا والآخرة ومن ردها وجحدها خسر الدنيا والآخرة كما قال تعالى (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار) وقال تعالى فى صفة القرآن (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) .وقال مسلم فى صحيحه حدثنا ابن أبي عمر حدثنا مروان الفزارى عن يزيد بن كيسان عن ابن أبي حازم عن أبي هريرة قال قيل يا رسول الله ادع على المشركين قال « إنى لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة» انفرد بإخراجه مسلم وفى الحديث الآخر « إنما أنا رحمة مهداة » رواه عبد الله بن أبي عوانة وغيره عن وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعا قال إبراهيم الحربى وقد رواه غيره عن وكيع فلم يذكر أبا هريرة . وكذا قال البخارى وقد سئل عن هذا الحديث فقال كان عند حفص بن غياث مرسلا . قال الحافظ ابن عساكر وقد رواه مالك بن سعيد بن الخمس عن الأعمش عن أبي صالح عن أبى هريرة مرفوعا ثم ساقه من طريق أبى بكر ابن المقرى وأبى أحمد الحاكم كلاهما عن بكر بن محمد بن إبراهيم الصوفى حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى عن أبى أسامة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما أنا رحمة مهداة » ثم أورده من طريق الصلت بن مسعود عن سفيان بن عيينة عن مسعر عن سعيد بن خالد عن رجل عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله بعثنى رحمة مهداة بعثت برفع قوم وخفض آخرين » . قال أبو القاسم الطبرانى حدثنا أحمد بن محمد بن نافع الطحان حدثنا أحمد بن صالح قال وجدت كتاباً بالمدينة عن عبد العزيز الدراوردى وإبراهيم بن محمد بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد العزيز بن عمرو بن عوف عن محمد بن صالح التمار عن ابن شهاب عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن حمزه يا معشر قريش إن محمداً

نزل يثرب وأرسل طلائعه وإنما يريد أن يصيب منكم شيئا فاحذروا أن تمروا طريقه أو تقاربوه فانه كالأسد الضارى إنه حنق عليكم لأنكم نفيتموه نفى القردان عن المناسم والله إن له لسحرة ما رأيته قطولا أحداً من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين وإنكم قد عرفتم عداوة ابنى قيلة يعنى الأوس والخزرج فهو عدو استعان بعدو فقال له مطعم بن عدى يا أبا الحكم والله ما رأيت أحداً أصدق لسانا ولا أصدق موعدا من أخيكم الذى طردتم وإذ فعلتم الذى فعلتم فكونوا أكف الناس عنه قال أبو سفيان بن الحارث كونوا أشد ما كنتم عليه إن ابنى قيلة إن ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة وإن أطعتمونى ألجأتموهم حير كنانة أو تخرجوا محمداً من بين ظهرانيهم فيكون وحيدا مطرودا ، وأما ابنا قيلة فوالله ما هما وأهل دهلك فى المذلة إلا سواء وسأكفيكم حدهم وقال

سأمنح جانباً منى غليظا * على ما كان من قرب وبعد * رجال الخزرجية أهل ذل * إذا ما كان هزل بعد جد

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « والذى نفسى بيده لأقتلنهم ولأصلبنهم ولأهدينهم وهم كارهون إنى رحمة بعثنى الله ولا يتوفانى حتى يظهر الله دينه، لى خمسة أسماء أنا محمد وأحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب » وقال أحمد بن صالح أرجو أن يكون الحديث صحيحاً . وقال الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة حدثنى عمرو بن قيس عن عمرو بن أبى قرة الكندى قال كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حذيفة إلى سلمان فقال سلمان يا حذيفة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال « أيما رجل سببته فى غضبى أو لعنته لعنة فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون وإنما بعثنى الله رحمة للعالمين فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة » ورواه أبو داود عن أحمد بن يونس عن زائدة فان قيل فأى رحمة حصلت لمن كفر به ؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير حدثنا إسحق بن شاهين حدثنا إسحق الأزرق عن المسعودى عن رجل يقال له سعيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) قال من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة فى الدنيا والآخرة ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفى مما أصاب الأمم من الخسف والقذف وهكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث المسعودى عن أبى سعد وهو سعيد بن المرزبان البقال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره نحوه والله أعلم وقد رواه أبو القاسم الطبرانى عن عبدان ابن أحمد عن عيسى بن يونس الرملى عن أيوب بن سويد عن المسعودى عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وما أرسلناك إلى رحمة للعالمين) قال من تبعه كان له رحمة فى الدنيا والآخرة ومن لم يتبعه عوفى مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ * إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلوات وسلامه عليه أن يقول للمشركين (إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون) أى متبعون على ذلك مستسلمون منقادون له (فان تولوا) أى تركوا ما دعوتهم إليه (فقل آذنتكم على سواء) أى أعلمتكم أنى حرب لكم كما أنكم حرب لى برىء منكم كما أنتم برآء منى كقوله (وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) وقال (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء) أى ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء وهكذا ههنا (فان تولوا فقل آذنتكم على سواء) أى أعلمتكم ببراءتى منكم وبراءتكم منى لعلمى بذلك . وقوله (وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون) أى هو واقع لا محالة ولكن لا علم لى بقربه ولا ببعده (إنه يعلم الجهر من القول

ويعلم ما تكتمون) أى إن الله يعلم الغيب جميعه ويعلم مايظهره العباد ومايسرون ، يعلم الظواهر والضمائر ويعلم السر وأخفى ويعلم ما العباد عاملون فى أجهارهم وأسرارهم .وسيجزيهم على ذلك القليل والجليل . وقوله (وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) أى وما أدرى لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين قال ابن جرير لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى أجل مسمى وحكاه عون عن ابن عباس فالله أعلم (قال رب احكم بالحق) أى افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق . قال قتادة كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك ، وعن مالك عن زيد بن أسلم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا شهد غزاة قال (رب احكم بالحق) وقوله (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) أى على مايقولون ويفترون من الكذب ويتنوعون فى مقامات التكذيب والإفك والله المستعان عليكم فى ذلك . آخر تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام ولله الحمد والمنة .

﴿ تفسير سورة الحج ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

يقول تعالى آمرا عباده بتقواه ومخبرا لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها ، وقد اختلف المفسرون فى زلزلة الساعة ، هل هى بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم كما قال تعالى (إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها) وقال تعالى (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة) الآية ، وقال تعالى (إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا) الآية فقال قائلون هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة ، وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا يحيى حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة فى قوله (إن زلزلة الساعة شىء عظيم) قال قبل الساعة ، ورواه ابن أبى حاتم من حديث الثورى عن منصور والأعمش عن إبراهيم عن علقمة فذكره ، قال وروى عن الشعبى وإبراهيم وعبيد بن عمير نحو ذلك وقال أبو كدينة عن عطاء عن عامر الشعبى (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم) قال هذا فى الدنيا قبل يوم القيامة ، وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مستند من قال ذلك فى حديث الصور من رواية إسماعيل بن رافع قاضى أهل المدينة عن يزيد بن أبى زياد عن رجل من الأنصار عن محمد بن كعب القرظى عن رجل عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر » قال أبو هريرة يارسول الله وما الصور ؟ قال قرن قال فكيف هو ؟ قال « قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة القيام لرب العالمين يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول انفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر وهى التى يقول الله تعالى (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق) فتسير الجبال فتكون ترابا وترج الأرض بأهلها رجا وهى التى يقول الله تعالى (يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، قلوب يومئذ واجفة) فتكون الأرض كالسفينة الموبقة فى البحر تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح فيمتد الناس على ظهرها فتذهل المراضع وتضع الحوامل ويشيب الولدان وتطير الشياطين هاربة حتى تأتى الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ويولى الناس مدبرين ينادى بعضهم بعضا وهى التى يقول الله تعالى (يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من

الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد) فبينما هم على ذلك إذا نصدعت الأرض من قطر إلى قطر ورأوا أمرا عظيما فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل ، ثم خسف شمسها وقمرها وانتثرت نجومها ثم كشطت عنهم — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك » قال أبو هريرة فمن استثنى الله حين يقول (ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) قال « أولئك الشهداء وإنما يصل الفزع إلى الأحياء أولئك أحياء عند ربهم يرزقون ووقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه وهو الذي يقول الله (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) » وهذا الحديث قد رواه الطبراني وابن جرير وابن أبي حاتم وغير واحد مطولا جدا والغرض منه أنه دل على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة أضيفت إلى الساعة لقربها منها كما يقال أشراط الساعة ونحو ذلك والله أعلم ، وقال آخرون بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور واختار ذلك ابن جرير واحتجوا بأحاديث : ﴿ الأول ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا يحيى عن هشام حدثنا قتادة عن الحسن عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره وقد تقارب من أصحابه السير رفع بهاتين الآيتين صوته : (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي وعرفوا أنه عند قول يقوله فلما دنوا حوله قال « أتدرون أي يوم ذاك، ذاك يوم ينادي آدم عليه السلام فيناديه ربه عز وجل فيقول يا آدم ابعث بعثك إلى النار فيقول يارب وما بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة » قال فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا أيضا حكمه فلما رأى ذلك قال « أبشروا واعملوا فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج ومن هلك من بني آدم وبني إبليس » قال فسرى عنهم ثم قال « اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو الرقمة في ذراع الدابة » وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننهما عن محمد بن بشار عن يحيى وهو القطان عن هشام وهو الدستوائي عن قتادة به بنحوه وقال الترمذي حسن صحيح

(طريق آخر) لهذا الحديث : قال الترمذي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا ابن جدعان عن الحسن عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال لما نزلت (يا أيها الناس اتقوا ربكم — إلى قوله — ولكن عذاب الله شديد) قال نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر فقال « أتدرون أي يوم ذلك ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال — ذلك يوم يقول الله لآدم ابعث بعث النار قال يارب وما بعث النار قال تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة » فأنشأ المسلمون يبكون فقال رسول الله ﷺ « قاربوا وسددوا فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية قال فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تمت وإلا كملت من المنافقين ، وما مثلكم ومثل الأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير — ثم قال — إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة — فكبروا ثم قال — إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة — فكبروا ثم قال — إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » فكبروا ثم قال ولا أدري أقال الثلثين أم لا وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة به ثم قال الترمذي أيضا هذا حديث صحيح وقد روي عن عروة عن الحسن عن عمران بن الحصين وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن والعلاء بن زياد العدوي عن عمران بن الحصين فذكره وهكذا روى ابن جرير عن بندار عن غندر عن عوف عن الحسن قال بلغني أن رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة العسرة ومعه أصحابه بعد ما شارف المدينة قرأ (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم) وذكر الحديث فذكر نحو سياق ابن جدعان والله أعلم ، ﴿ الحديث الثاني ﴾ قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن الطباع حدثنا أبو سفيان يعني المعمري عن معمر عن قتادة عن أنس قال نزلت (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) وذكر يعني نحو سياق الحسن عن عمران غير أنه قال ومن هلك من كثرة الجن والإنس ،

ورواه ابن جرير بطوله من حديث معمر ﴿ الحديث الثالث ﴾ قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد يعني ابن العوام حدثنا هلال بن حباب عن عكرمة عن ابن عباس قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية فذكر نحوه ، وقال فيه « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ـ ثم قال ـ إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة — ثم قال — إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة » ففرحوا وزاد أيضاً « وإنما أنتم جزء من ألف جزء »

﴿ الحديث الرابع ﴾ قال البخاري عند تفسير هذه الآية : حدثنا عمر بن حفص حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثنا أبو صالح عن أبي سعيد قال : قال النبي ﷺ « يقول الله تعالى يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك ربنا وسعديك فينادى بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار قال يا رب وما بعث النار قال من كل ألف ـ أراه قال ـ تسعمائة وتسعة وتسعون فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد (وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) » فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم. قال النبي ﷺ « من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ـ فكبرنا ثم قال ـ ثلث أهل الجنة ـ فكبرنا ثم قال ـ شطر أهل الجنة » فكبرنا وقد رواه البخاري أيضا في غير هذا الموضع ومسلم والنسائي في تفسيره من طرق عن الأعمش به .

﴿ الحديث الخامس ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا عمارة بن محمد ابن أخت سفيان الثوري وعبيدة العمي كلاهما عن إبراهيم ابن مسلم عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يبعث يوم القيامة مناديا يا آدم إن الله يأمرك أن تبعث بعثاً من ذريتك إلى النار فيقول آدم يارب من هم فيقال له من كل مائة تسعة وتسعون » فقال رجل من القوم من هذا الناجي منا بعد هذا يارسول الله قال « هل تدرون ما أنتم في الناس إلا كالشامة في صدر البعير » انفرد بهذا السند وهذا السياق الإمام أحمد

﴿ الحديث السادس ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا يحيى عن حاتم بن أبي صفيرة حدثنا ابن أبي مليكة أن القاسم بن محمد أخبره عن عائشة عن النبي ﷺ قال « إنكم تحشرون إلى الله يوم القيامة حفاة عراة غرلا » قالت عائشة يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض قال ياعائشة إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك » أخرجاه في الصحيحين ﴿ الحديث السابع ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحق حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال « يا عائشة أما عند ثلاث فلا أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا ، وأما عند تطاير الكتب إما يعطى بيمينه وإما يعطى بشماله فلا ، وحين يخرج عنق من النار فينطوي عليهم ويتغيظ عليهم ويقول ذلك العنق : وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة ، وكلت بمن ادعى مع الله إلها آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عنيد ـ قال ـ فينطوي عليهم ويرميهم في غمرات جهنم ولجهنم جسر أرق من الشعر وأحد من السيف عليه كلاليب وحسك يأخذان من شاء الله ، والناس عليه كالبرق وكالطرف وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب والملائكة يقولون : يا رب سلم ، سلم . فناج مسلم ومخدوش مسلم ، ومكور في النار على وجهه » والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جداً لها موضع آخر ولهذا قال تعالى (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) أي أمر عظيم ، وخطب جليل ، وطارق مفظع ، وحادث هائل ، وكائن عجيب ، والزلزال هو ما يحصل للنفوس من الرعب والفزع كما قال تعالى (هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) ثم قال تعالى (يوم ترونها) هذا من باب ضمير الشأن ولهذا قال مفسراً له (تذهل كل مرضعة عما أرضعت) أي فتشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها والتي هي أشفق الناس عليه تدهش عنه في حال إرضاعها له ولهذا قال (كل مرضعة) ولم يقل مرضع وقال (عما أرضعت) أي عن رضيعها قبل فطامه ، وقوله (وتضع كل ذات حمل حملها) أي قبل تمامه لشدة الهول (وترى الناس سكارى) وقرئ (سكرى) أي من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم ، وغابت أذهانهم فمن رآهم حسب أنهم سكارى (وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى معرضا عما أنزل الله على أنبيائه متبعاً فى قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد من الإنس والجن وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين ، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء ولهذا قال فى شأنهم وأشباههم (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) أى علم صحيح (ويتبع كل شيطان مريد ، كتب عليه) قال مجاهد يعنى الشيطان يعنى كتب عليه كتابة قدرية (أنه من تولاه) أى اتبعه وقلده (فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) أى يضله فى الدنيا ويقوده فى الآخرة إلى عذاب السعير وهو الحار المؤلم القلق المزعج وقد قال السدى عن أبى مالك نزلت هذه الآية فى النضر بن الحارث وكذلك قال ابن جريج . وقال ابن أبى حاتم حدثنا عمرو بن مسلم البصرى حدثنا عمرو بن البخترى أبو قتادة حدثنا المعتمر حدثنا أبو كعب المكى قال: قال خبيث من خبثاء قريش أخبرنا عن ربكم من ذهب هو أو من فضة هو أو من نحاس هو ؟ فتقعقعت السماء قعقعة ــ والقعقعة فى كلام العرب الرعد ــ فإذا قحف رأسه ساقط بين يديه ، وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد : جاء يهودى فقال يا محمد أخبرنى عن ربك من أى شىء هو من در أم من يا قوت ؟ قال فجاءت صاعقة فأخذته

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد بما يشاهد من بدئه للخلق فقال (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب) أى فى شك (من البعث) وهو المعاد، وقيام الارواح والاجساد ، يوم القيامة (فانا خلقناكم من تراب) أى أصل برئه لكم من تراب وهو الذى خلق منه آدم عليه السلام (ثم من نطفة) أى ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين (ثم من علقة ثم مضغة) وذلك أنه إذا استقرت النطفة فى رحم المرأة مكثت أربعين يوما كذلك يضاف إليه ما يجتمع إليها ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله فتمكث كذلك أربعين يوما ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ثم يشرع فى التشكيل والتخطيط فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ورجلان وسائر الأعضاء ، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط ولهذا قال تعالى (ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة) أى كما تشاهدونها (لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى) أى وتارة تستقر فى الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها كما قال مجاهد فى قوله تعالى (مخلقة وغير مخلقة) قال هو السقط مخلوق وغير مخلوق فإذا مضى عليها أربعون يوما وهى مضغة أرسل الله تعالى ملكا إليها فنفخ فيها الروح وسواها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبح وذكر وأنثى وكتب رزقها وأجلها وشقى أو سعيد كما ثبت فى الصحيحين من حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق

« إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين ليلة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله اليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أوسعيد ثم ينفخ فيه الروح »

وروى ابن أبى حاتم وابن جرير من حديث داود بن أبى هند عن الشعبى عن علقمة عن عبد الله قال : النطفة إذا استقرت فى الرحم جاءها ملك بكفه فقال يارب مخلقة أو غير مخلقة فإن قيل غير مخلقة لم تكن نسمة وقذفتها الأرحام دما وإن قيل مخلقة قال أى رب ذكر أو أنثى شقى أو سعيد ما الأجل وما الأثر وبأى أرض يموت . قال فيقال للنطفة من ربك ؟ فتقول الله فيقال من رازقك ؟ فتقول الله فيقال له اذهب إلى الكتاب فانك ستجد فيه قصة هذه النطفة قال فتخلق فتعيش فى أجلها وتأكل رزقها وتطأ أثرها حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت فى ذلك ثم تلا عامر الشعبى (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة) فإذا بلغت مضغة نكست فى الخلق الرابع فكانت نسمة وإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دما وإن كانت مخلقة نكست نسمة . وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم قال « يدخل الملك على النطفة بعد ماتستقر فى الرحم بأربعين يوما أو خمس وأربعين فيقول أى رب أشقى أم سعيد فيقول الله ويكتبان فيقول أذكر أم أنثى فيقول الله ويكتبان ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله ثم تطوى الصحف فلا يزاد على مافيها ولا ينتقص » ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة ومن طريق آخر عن أبى الطفيل بنحو معناه . وقوله (ثم نخرجكم طفلا) أى ضعيفا فى بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا ويلطف به ويحنن عليه والديه فى آناء الليل وأطراف النهار ولهذا قال (ثم لتبلغوا أشدكم) أى يتكامل القوى ويتزايد ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن النظر (ومنكم من يتوفى) أى فى حال شبابه وقواه (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) وهو الشيخوخة والهرم وضعف القوة والعقل والفهم وتناقص الأحوال من الخرف وضعف الفكر ولهذا قال (لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) كما قال تعالى (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق مايشاء وهو العليم القدير) وقد قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده حدثنا منصور بن أبى مزاحم حدثنا خالد الزيات حدثنى داود أبو سليمان عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم الأنصارى عن أنس بن مالك رفع الحديث قال « المولود حتى يبلغ الحنث ماعمل من حسنة كتبت لوالده أولوالديه وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه فاذا بلغ الحنث أجرى الله عليه القلم أمر الملكان اللذان كانا معه أن يحفظا وأن يشددا فاذا بلغ أربعين سنة فى الإسلام أمنه الله من البلايا الثلاث : الجنون والجذام والبرص فاذا بلغ الخمسين خفف الله حسابه فاذا بلغ ستين رزقه الله الانابة إليه بما يحب فاذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء فاذا بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته فاذا بلغ التسعين غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر وشفعه فى أهل بيته وكتب أمين الله وكان أسير الله فى أرضه فاذا بلغ أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا كتب الله له مثل ما كان يعمل فى صحته من الخير فاذا عمل سيئة لم تكتب عليه » هذا حديث غريب جدا وفيه نكارة شديدة ومع هذا قد رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده موقوفا ومرفوعا فقال : حدثنا أبو النضر حدثنا الفرج حدثنا محمد بن عامر عن محمد بن عبد الله العاملى عن عمرو ابن جعفر عن أنس قال : إذا بلغ الرجل المسلم أربعين سنة أمنه الله من أنواع البلايا من الجنون والبرص والجذام . فاذا بلغ الخمسين لين الله حسابه ، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنابة يحبه عليها . وإذا بلغ السبعين أحبه الله وأحبه أهل السماء ، وإذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته ومحا عنه سيئاته وإذا بلغ التسعين غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر وسمى أسير الله فى أرضه وشفع فى أهله » ثم قال حدثنا هشام حدثنا الفرج حدثنى محمد بن عبد الله العامرى عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان عن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن النبى صلى الله عليه وسلم مثله ، ورواه الإمام أحمد أيضا حدثنا أنس بن عياض حدثنى يوسف بن أبى بردة الأنصارى عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمرى عن

أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامن معمر يعمر فى الإسلام أربعين سنة إلا صرف اللهعنه ثلاثة أنواع من البلاء : الجنون والبرص والجذام » وذكر تمام الحديث كما تقدم سواء ورواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الله بن شبيب عن أبى شيبة عن عبد الله بن عبد الملك عن أبى قتادة العدوى عن ابن أخى الزهرى عن عمه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن عبد يعمر فى الإسلام أربعين سنة إلا صرف الله عنه أنواعا من البلاء : الجنون والجذام والبرص فإذا بلغ خمسين سنة لين الله له الحساب فإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الانابة إليه بما يحب فاذا بلغ سبعين سنة غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر وسمى أسير الله وأحبه أهل السماء فاذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته وتجاوز عن سيئاته فاذا بلغ التسعين غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر وسمى أسير الله فى أرضه وشفع فى أهل بيته »

وقوله (وترى الأرض هامدة) هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيى الأرض الميتة الهامدة وهى المقحلة التى لاينبت فيها شىء . وقال قتادة غبراء متهشمة . وقال السدى ميتة (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) أى فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أى تحركت بالنبات وحييت بعد موتها وربت أى ارتفعت لما سكن فيها الثرى ثم أنبتت مافيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النبات فى اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ولهذا قال تعالى (وأنبتت من كل زوج بهيج) أى حسن المنظر طيب الريح . وقوله (ذلك بأن الله هو الحق) أى الخالق المدبر الفعال لما يشاء (وأنه يحيى الموتى) أى كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع (إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير) (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) (وأن الساعة آتية لاريب فيها) أى كائنة لا شك فيها ولامرية (وأن الله يبعث من فى القبور) أى يعيدهم بعد ماصاروا فى قبورهم رمما ويوجدهم بعد العدم كما قال تعالى (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل شىء عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون) والآيات فى هذا كثيرة . وقال الإمام أحمد حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة قال أنبأنا يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدى عن عمه أبى رزين العقيلى واسمه لقيط بن عامر أنه قال يارسول الله أ كلنا يرى ربه عزوجل يوم القيامة وما آية ذلك فى خلقه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أليس كلكم ينظر إلى القمر مخليابه ؟ » قلنا بلى ، قال « فالله أعظم » قال : قلت يارسول الله كيف يحيى الله الموتى وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال « أما مررت بوادى أهلك ممحلا ؟ » قال بلى قال « ثم مررت به يهتز خضراً » قال بلى قال « فكذلك يحيى الله الموتى وذلك آيته فى خلقه» ورواه أبوداود وابن ماجه من حديث حماد بن سلمة به ثم رواه الإمام أحمد أيضا حدثنا على بن إسحق أنبأنا ابن المبارك أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سليمان بن موسى عن أبى رزين العقيلى قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله كيف يحيى الله الموتى ؟ قال « أمررت بأرض من أرض قومك مجدبة ثم مررت بها مخصبة ؟ » قال نعم قال « كذلك النشور » والله أعلم . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عيسى بن مرحوم حدثنا بكير بن السميط عن قتادة عن أبى الحجاج عن معاذ بن جبل قال : من علم أن الله هو الحق المبين ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور دخل الجنة

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ * ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين فى قوله (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم و يتبع كل شيطان مريد) ذكر فى هذه حال الدعاة إلى الضلالة من رءوس الكفر والبدع فقال (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) أى بلاعقل صحيح ، ولانقل صريح ، بل بمجرد الرأى والهوى ، وقوله (ثانى عطفه) قال ابن عباس

وغيره مستكبر عن الحق إذا دعى إليه ، وقال مجاهد وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم (ثانى عطفه) أى لاوى عطفه وهى رقبته يعنى يعرض عما يدعى إليه من الحق ويثنى رقبته استكباراً كقوله تعالى (وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين فتولى بركنه) الآية وقال تعالى (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) وقال تعالى (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون) وقال لقمان لابنه (ولا تصعر خدك للناس) أى تميله عنهم استكباراً عليهم ، وقال تعالى (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً) الآية . وقوله (ليضل عن سبيل الله) قال بعضهم هذه لام العاقبة لأنه قد لا يقصد ذلك ، ويحتمل أن تكون لام التعليل . ثم إما أن يكون المراد بها المعاندون أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الدنىء لنجعله ممن يضل عن سبيل الله . ثم قال تعالى (له فى الدنيا خزى) وهو الاهانة والذل كما أنه لما استكبر عن آيات الله لقاه الله المذلة فى الدنيا وعاقبه فيها قبل الآخرة لأنها أكبر همه ومبلغ علمه (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق. ذلك بما قدمت يداك) أى يقال له هذا تقريعاً وتوبيخاً (وأن الله ليس بظلام للعبيد) كقوله تعالى (خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم * إن هذا ما كنتم به تمترون). وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن الصباح حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا هشام عن الحسن قال بلغنى أن أحدهم يحرق فى اليوم سبعين ألف مرة

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ * يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ * يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾

قال مجاهد وقتادة وغيرهما (على حرف) على شك وقال غيرهم على طرف ومنه حرف الجبل أى طرفه أى دخل فى الدين على طرف فان وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر . وقال البخارى حدثنا إبراهيم بن الحارث حدثنا يحيى بن أبى بكير حدثنا إسرائيل عن أبى الحصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (ومن الناس من يعبد الله على حرف) قال كان الرجل يقدم المدينة فان ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله قال هذا دين صالح . وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال هذا دين سوء وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنى أبى عن أبيه عن أشعث بن إسحاق القمى عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبى صلى الله عليه وسلم فيسلمون فإذا رجعوا إلى بلادهم فان وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا مافى ديننا هذا خير فأنزل الله على نبيه (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به) الآية . وقال العوفى عن ابن عباس : كان أحدهم إذا قدم المدينة وهم أرض دونه فان صح بها جسمه ونتجت فرسه مهراً حسنا وولدت امرأته غلاماً رضى به واطمأن إليه وقال ما أصبت منذ كنت على دينى هذا إلا خيرا وإن أصابته فتنة والفتنة البلاء أى وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان فقال والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً ، وذلك الفتنة ، وهكذا ذكر قتادة والضحاك وابن جريج وغير واحد من السلف فى تفسير هذه الآية وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه فان أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر ، وقال مجاهد فى قوله (انقلب على وجهه) أى ارتد كافراً وقوله (خسر الدنيا والآخرة) أى فلا هو حصل من الدنيا على شىء وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم فهو فيها فى غاية الشقاء والاهانه ، ولهذا قال تعالى (ذلك هو الخسران المبين) أى هذه هى الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة وقوله

(يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه) أى من الأصنام والأنداد يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها وهى لاتنفعه ولا تضره (ذلك هو الضلال البعيد) ، وقوله (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه) أى ضرره فى الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها وأما فى الآخرة فضرره محقق متيقن وقوله (لبئس المولى ولبئس العشير) قال مجاهد يعنى الوثن يعنى بئس هـذا الذى دعاه من دون الله مولى يعنى ولياً وناصراً (وبئس العشير) وهو المخالط والمعاشر واختار ابن جرير أن المراد لبئس ابن العم والصاحب (من يعبد على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) وقول مجاهد إن المراد به الوثن أولى وأقرب إلى سياق الكلام والله أعلم

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا إيمانهم بأفعالهم فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات وتركوا المنكرات فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات فى روضات الجنات ، ولما ذكر تعالى أنه أضل أولئك وهدى هؤلاء قال (إن الله يفعل مايريد)

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ * وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾

قال ابن عباس من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب أى بحبل (إلى السماء) أى سماء بيته (ثم ليقطع) يقول ثم ليختنق به وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقتادة وغيرهم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (فليمدد بسبب إلى السماء) أى ليتوصل إلى بلوغ السماء فان النصر إنما يأتى محمداً من السماء (ثم ليقطع) ذلك عنه إن قدر على ذلك وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر فى المعنى وأبلغ فى التهكم فان المعنى من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه فان الله ناصره لامحالة قال الله تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) الآية ولهذا قال (فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ) قال السدى يعنى من شأن محمد صلى الله عليه وسلم وقال عطاء الخراسانى فلينظر هل يشفى ذلك مايجد فى صدره من الغيظ . وقوله (وكذلك أنزلناه) أى القرآن (آيات بينات) أى واضحات فى لفظها ومعناها حجة من الله على الناس (وأن الله يهدى من يريد) أى يضل من يشاء ويهدى من يشاء وله الحكمة التامة والحجة القاطعة فى ذلك (لايسئل عما يفعل وهم يسئلون) أما هو فلحكمته ورحمته وعدله وعلمه وقهره وعظمته لامعقب لحكمه وهو سريع الحساب

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين ومن سواهم من اليهود والصابئين وقد قدمنا فى سورة البقرة التعريف بهم واختلاف الناس فيهم والنصارى والمجوس والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره فانه تعالى (يفصل بينهم يوم القيامة) ويحكم بينهم بالعدل فيدخل من آمن به الجنة ومن كفر به النار فانه تعالى شهيد على أفعالهم حفيظ لأقوالهم عليم بسرائرهم وما تكن ضمائرهم

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ

وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لاشريك له فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعا وكرها وسجود كل شيء مما يختص به كماقال تعالى (أولم يروا إلى ماخلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون) وقال ههنا (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض) أي من الملائكة في أقطار السموات والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن والدواب والطير (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) وقوله (والشمس والقمر والنجوم) إنما ذكر هذه على التنصيص لأنها قدعبدت من دون الله فبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة (لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن) الآية وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال لي : قال رسول الله ﷺ « أتدري أين تذهب هذه الشمس ؟ » قلت الله ورسوله أعلم قال « فانها تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت » وفي المسند وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجه في حديث الكسوف « إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله وإنهما لاينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله عزوجل إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له » وقال أبو العالية مافي السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع لله ساجداً حين يغيب ثم لاينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه . وأما الجبال والشجر فسجودها بفيء ظلالها عن اليمين والشمائل وعن ابن عباس قال جاء رجل فقال يارسول الله إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي فسمعتها وهي تقول : اللهم اكتب لي بها عندك أجراً وضع عني بها وزراً واجعلها لي عندك ذخراً وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود قال ابن عباس فقرأ رسول الله ﷺ سجدة ثم سجد فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة . رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه ، وقوله (والدواب) أي الحيوانات كلها وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر ، فرب مركوبة خير أو أكثر ذكرا لله تعالى من راكبها وقوله (وكثير من الناس) أي يسجد لله طوعا مختاراً متعبداً بذلك (وكثير حق عليه العذاب) أي ممن امتنع وأبى واستكبر (ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل مايشاء) .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن شيبان الرملي حدثنا القداح عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي قال قيل لعلي إن ههنا رجلا يتكلم في المشيئة فقال له علي ياعبدالله خلقك الله كما يشاء أو كما شئت قال بل كما شاء قال فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت قال بل إذا شاء قال فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت قال بل إذا شاء قال فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء قال بل حيث يشاء قال والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي يقول ياويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار » رواه مسلم. وقال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم وأبو عبد الرحمن المقرى قالا: حدثنا ابن لهيعة، قال حدثنا مشرح بن هاعان أبو مصعب المعافري قال سمعت عقبة بن عامر قال : قلت يارسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين قال « نعم فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما » ورواه أبو داود والترمذي من حديث عبدالله بن لهيعة به وقال الترمذي ليس بقوي وفي هذا نظر فان ابن لهيعة قدصرح فيه بالسماع وأكثر مانقموا عليه تدليسه وقد قال أبو داود في المراسيل حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح أنبأنا ابن وهب أخبرني معاوية بن صالح عن عامر بن جشب عن خالد بن معدان رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال « فضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين » ثم قال أبو داود وقد أسند هذا يعني من غير هذا الوجه ولا يصح ، وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي حدثني ابن أبي داود حدثنا يزيد بن عبدالله حدثنا الوليد حدثنا أبو عمرو حدثنا حفص بن غياث حدثني نافع قال : حدثني أبو الجهم أن عمر سجد سجدتين في الحج وهو بالجابية وقال إن هذه فضلت بسجدتين ، وروى أبو داود وابن ماجه من حديث الحارث بن سعيد العتقي عن عبدالله بن منين عن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأه خمس عشرة

سجدة فى القرآن منها ثلاث فى المفصل وفى سورة الحج سجدتان ، فهذه شواهد يشد بعضها بعضا

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾

ثبت الصحيحين من حديث أبى مجلز عن قيس بن عباد عن أبى ذر أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) نزلت فى حمزة وصاحبيه وعتبة وصاحبيه يوم برزوا فى بدر . لفظ البخارى عند تفسيرها ، ثم قال البخارى حدثنا حجاج بن المنهال حدثنا المعتمر بن سليمان سمعت أبى حدثنا أبو مجلز عن قيس بن عباد عن على بن أبى طالب أنه قال : أنا أول من يجثو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة قال قيس : وفيهم نزلت (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) قال هم الذين بارزوا يوم بدر على وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة . انفرد به البخارى

وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى قوله (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) قال اختصم المسلمون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون كتابنا يقضى على الكتب كلها ونبينا خاتم الأنبياء فنحن أولى بالله منكم فأفلج الله الإسلام على من ناوأه وأنزل (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) وكذا روى العوفى عن ابن عباس ، وقال شعبة عن قتادة فى قوله (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) قال مصدق ومكذب ، وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى هذه الآية مثل الكافر والمؤمن اختصما فى البعث ، وقال فى رواية هو وعطاء فى هذه الآية هم المؤمنون والكافرون ، وقال عكرمة (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) قال هى الجنة والنار قالت النار اجعلنى للعقوبة وقالت الجنة اجعلنى للرحمة ، وقول مجاهد وعطاء إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون يشمل الأقوال كلها وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها فان المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل وهذا اختيار ابن جرير وهو حسن ولهذا قال (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) أى فصلت لهم مقطعات من النار ، قال سعيد بن جبير من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمى (يصب من فوق رءوسهم الحميم * يصهر به ما فى بطونهم والجلود) أى إذا صب على رءوسهم الحميم وهو الماء الحار فى غاية الحرارة ، وقال سعيد بن جبير هو النحاس المذاب أذاب ما فى بطونهم من الشحم والأمعاء قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم وكذلك تذوب جلودهم وقال ابن عباس وسعيد تساقط

وقال ابن جرير حدثنى محمد بن المثنى حدثنى إبراهيم أبو إسحق الطالقانى حدثنا ابن المبارك عن سعيد بن يزيد عن أبى السمح عن ابن حجيرة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما فى جوفه حتى يبلغ قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان » ورواه الترمذى من حديث ابن المبارك وقال حسن صحيح وهكذا رواه ابن أبى حاتم عن أبيه عن أبى نعيم عن ابن المبارك به ثم قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا أحمد بن أبى الحوارى قال سمعت عبدالله بن السرى قال : يأتيه الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته فإذا أدناه من وجهه تكرهه قال فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه فيفرغ دماغه ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه فذلك قوله (يصهر به ما فى بطونهم والجلود) ، وقوله (ولهم مقامع من حديد) قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ قال « لو أن مقمعا من حديد وضع فى الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض » وقال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان ، ولو أن دلوا من غساق يهراق فى الدنيا

لأنتن أهل الدنيا » وقال ابن عباس فى قوله (ولهم مقامع من حديد) قال يضربون بها فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور ، وقوله (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) قال الأعمش عن أبى ظبيان عن سلمان قال : النار سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا جمرها ثم قرأ (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) وقال زيد بن أسلم فى هذه الآية (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) قال بلغنى أن أهل النار فى النار لا يتنفسون ، وقال الفضيل ابن عياض : والله ما طمعوا فى الخروج إن الأرجل لمقيدة وإن الأيدى لموثقة ولكن يرفعهم لهبها وتردهم مقامعها ، وقوله (وذوقوا عذاب الحريق) كقوله (وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولا وفعلا

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار عياذا بالله من حالهم وما هم فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال وما أعد لهم من الثياب من النار ذكر حال أهل الجنة نسأل الله من فضله وكرمه فقال (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار) أى تتخرق فى أكنافها وأرجائها وجوانبها وتحت أشجارها وقصورها يصرفونها حيث شاءوا وأين أرادوا (يحلون فيها) من الحلية (من أساور من ذهب ولؤلؤا) أى فى أيديهم كما قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » وقال كعب الأحبار : إن فى الجنة ملكا لو شئت أن أسميه لسميته يصوغ لأهل الجنة الحلى منذ خلقه الله إلى يوم القيامة لو أبرز قلب منها — أى سوار منها — لرد شعاع الشمس كما ترد الشمس نور القمر ، وقوله (ولباسهم فيها حرير) فى مقابلة ثياب أهل النار التى فصلت لهم ، لباس هؤلاء من الحرير استبرقه وسندسه كما قال (عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا فى الدنيا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا * إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) وفى الصحيح « لا تلبسوا الحرير ولا الديباج فى الدنيا فانه من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة » قال عبد الله بن الزبير : من لم يلبس الحرير فى الآخرة لم يدخل الجنة قال الله تعالى (ولباسهم فيها حرير) وقوله (وهدوا إلى الطيب من القول) كقوله تعالى (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام) وقوله (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) وقوله (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما) فهدوا إلى المكان الذى يسمعون فيه الكلام الطيب وقوله (ويلقون فيها تحية وسلاما) لا كما يهان أهل النار بالكلام الذى يوبخون به ويقرعون به يقال لهم (ذوقوا عذاب الحريق) وقوله (وهدوا إلى صراط الحميد) أى إلى المكان الذى يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم كما جاء فى الحديث الصحيح « أنهم يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس » وقد قال بعض المفسرين فى قوله (وهدوا إلى الطيب من القول) أى القرآن وقيل لا إله إلا الله وقيل الأذكار المشروعة (وهدوا إلى صراط الحميد) أى الطريق المستقيم فى الدنيا وكل هذا لا ينافى ما ذكرناه والله أعلم

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

يقول تعالى منكراً على الكفار فى صدهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام وقضاء مناسكهم فيه ودعواهم أنهم أولياؤه (وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون) الآية وفى هذه الآية دليل على أنها مدنية كما قال فى سورة البقرة (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله

منه أكبر عند الله) وقال ههنا (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام) أى ومن صفتهم أنهم مع كفرهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام أى ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به فى نفس الأمر وهذا الترتيب فى هذه الآية كقوله تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) أى ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله وقوله (الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد) أى يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام وقد جعله الله شرعا سواء لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائى عنه البعيد الدار منه (سواء العاكف فيه والباد) ومن ذلك استواء الناس فى رباع مكة وسكناها كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (سواء العاكف فيه والباد) قال ينزل أهل مكة وغيرهم فى المسجد الحرام وقال مجاهد (سواء العاكف فيه والباد) أهل مكة وغيرهم فيه سواء فى المنازل وكذا قال أبو صالح وعبد الرحمن بن سابط وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة سواء فيه أهله وغير أهله وهذه المسألة هى التى اختلف فيها الشافعى وإسحق بن راهويه بمسجد الخيف وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً فذهب الشافعى رحمه الله إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر واحتج بحديث الزهرى عن على بن الحسن عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد قال قلت يا رسول الله أتنزل غداً فى دارك بمكة ؟ فقال « وهل ترك لنا عقيل من رباع » ثم قال « لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر » وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية دارا بمكة فجعلها سجنا بأربعة آلاف درهم وبه قال طاوس وعمرو بن دينار وذهب إسحق ابن راهويه إلى أنها لا تورث ولا تؤجر وهو مذهب طائفة من السلف ونص عليه مجاهد وعطاء واحتج إسحق بن راهويه بما رواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عيسى بن يونس عن عمر بن سعيد بن أبى حيوة عن عثمان بن أبى سليمان عن علقمة بن نضلة قال : توفى رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى أسكن ، وقال عبد الرزاق بن مجاهد عن أبيه عن عبد الله بن عمرو أنه قال لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها وقال أيضا عن ابن جريج كان عطاء ينهى عن الكراء فى الحرم وأخبرنى أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن تبويب دور مكة لأن ينزل الحاج فى عرصاتها فكان أول من بوب داره سهيل بن عمرو فأرسل إليه عمر بن الخطاب فى ذلك فقال أنظرنى يا أمير المؤمنين إنى كنت امرأ تاجرا فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لى ظهرى قال فلك ذلك إذاً . وقال عبد الرزاق عن معمر عن منصور عن مجاهد أن عمر بن الخطاب قال يا أهل مكة لا تتخذوا لدوركم أبوابا لينزل البادى حيث يشاء قال وأخبرنا معمر عمن سمع عطاء يقول (سواء العاكف فيه والباد) قال ينزلون حيث شاءوا ، وروى الدارقطنى من حديث ابن أبى نجيح عن عبد الله بن عمرو موقوفا « من أكل كراء بيوت مكة أكل نارا » وتوسط الإمام أحمد فقال تملك وتورث ولا تؤجر جمعا بين الأدلة والله أعلم ، وقوله (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) قال بعض المفسرين من أهل العربية الباء ههنا زائدة ، كقوله (تنبت بالدهن) أى تنبت الدهن وكذا قوله (ومن يرد فيه بإلحاد) تقديره إلحاداً وكما قال الأعشى :

ضمنت برزق عيالنا أرماحنا ٭ بين المراجل والصريح الأجرد

وقال الآخر : بواد يمان ينبت العشب صدره ٭ وأسفله بالمرخ والشبهان

والأجود أنه ضمن الفعل ههنا معنى يهم ولهذا عداه بالباء فقال (ومن يرد فيه بإلحاد) أى يهم فيه بأمر فظيع من المعاصى الكبار وقوله (بظلم) أى عامدا قاصدا أنه ظلم ليس بمتأول كما قال ابن جريج عن ابن عباس هو التعمد

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: بظلم بشرك ، وقال مجاهد أن يعبد فيه غير الله ، وكذا قال قتادة وغير واحد وقال العوفى عن ابن عباس بظلم هو أن تستحل من الحرم ما حرم الله عليك من إساءة أو قتل فتظلم من لا يظلمك وتقتل من لا يقتلك فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم وقال مجاهد بظلم يعمل فيه عملا سيئا وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادى فيه الشر إذا كان عازماً عليه وإن لم يوقعه كما قال ابن أبى حاتم فى تفسيره حدثنا أحمد بن سنان حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا شعبة عن السدى أنه سمع مرة يحدث عن عبد الله يعنى ابن مسعود فى قوله (ومن يرد فيه

بإلحاد بظلم) قال لو أن رجلا أراد فيه بالحاد بظلم وهو بعدن أبين لأذاقه الله من العذاب الأليم قال شعبةهو رفعه لنا وأنا لا أرفعه لكم ، قال يزيد هو قد رفعه ، ورواه أحمد عن يزيد بن هارون به ، قلت هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري ووقفه أشبه من رفعه ، ولهذا صمم شعبة على وقفه من كلام ابن مسعود ، وكذلك رواه أسباط وسفيان الثوري عن السدى عن مرة عن ابن مسعود موقوفا والله أعلم ، وقال الثوري عن السدى عن مرةعن عبدالله قال مامن رجل يهم بسيئة فتكتب عليه ولو أن رجلا بعدن أبين هم أن يقتل رجلا بهذا البيت لأذاقه الله من العذاب الأليم ، وكذا قال الضحاك بن مزاحم ، وقال سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد الحاد فيه لا والله وبلى والله ، وروى عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو مثله ، وقال سعيد بن جبير شتم الخادم ظلم فما فوقه ، وقال سفيان الثوري عن عبدالله بن عطاء عن ميمون بن مهران عن ابن عباس فى قوله (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم) قال تجارة الأمير فيه وعن ابن عمر بيع الطعام بمكة إلحاد وقال حبيب بن أبي ثابت (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم) قال المحتكر بمكة وكذا قال غير واحد وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن إسحاق الجوهري أنبأنا أبو عاصم عن جعفر بن يحيى عن عمه عمارة ابن ثوبان حدثني موسى بن باذان عن يعلى بن أمية أن رسول الله ﷺ قال « احتكار الطعام بمكة إلحاد » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثنا ابن لهيعة حدثنا عطاء بن دينار حدثني سعيد ابن جبير قال : قال ابن عباس فى قول الله (ومن يرد فيه بالحاد بظلم) قال نزلت فى عبد الله بن أنيس أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار فافتخروا فى الأنساب فغضب عبد الله بن أنيس فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الاسلام ثم هرب إلى مكة فنزلت فيه (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم) يعنى من لجأ إلى الحرم بالحاد يعنى بميل عن الإسلام وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد ولكن هو أعم من ذلك بل فيها تنبيه على ماهو أغلظ منها ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ، أى دمرهم وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراده بسوء ولذلك ثبت فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال « يغزو هذا البيت جيش حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم » الحديث وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن كناسة حدثنا إسحاق بن سعيد عن أبيه قال أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير فقال يا ابن الزبير إياك والإلحاد فى حرم الله فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنه سيلحد فيه رجل من قريش لو توزن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت » فانظر لا تكن هو ، وقال أيضا فى مسند عبد الله بن عمرو بن العاص حدثنا هاشم حدثنا إسحق بن سعيد حدثنا سعيد بن عمرو قال أتى عبد الله بن عمر : عبد الله بن الزبير وهو جالس فى الحجر فقال يا ابن الزبير إياك والإلحاد فى الحرم فانى أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحلها ويحل به رجل من قريش لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها » قال فانظر لا تكن هو » لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذين الوجهين

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش فى البقعة التى أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لاشريك له فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت أى أرشده إليه وسلمه له وأذن له فى بنائه، واستدل به كثير ممن قال إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق وأنه لم يبن قبله كما ثبت فى الصحيحين عن أبى ذر قلت يا رسول الله أى مسجد وضع أول ؟ قال « المسجد الحرام » قلت ثم أى ؟ قال « بيت المقدس » قلت كم بينهما ؟ قال « أربعون سنة » وقد قال الله تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا) الآيتين وقال تعالى

(وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود) وقد قدمنا ذكر ما ورد فى بناء البيت من الصحاح والآثار بما أغنى عن إعادته ههنا وقال تعالى ههنا (أن لاتشرك بى شيئا) أى ابنه على اسمى وحدى (وطهر بيتى) قال قتادة ومجاهد من الشرك (للطائفين والقائمين والركع السجود) أى اجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لاشريك له فالطائف به معروف وهو أخص العبادات عند البيت فانه لايفعل ببقعة من الأرض سواها (والقائمين) أى فى الصلاة ولهذا قال (والركع السجود) فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لايشرعان إلا مختصين بالبيت فالطواف عنده والصلاة إليه فى غالب الأحوال إلا ما استثنى من الصلاة عنداشتباه القبلة وفى الحرب وفى النافلة فى السفر والله أعلم ، وقوله (وأذن فى الناس بالحج) أى ناد فى الناس بالحج داعيا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه فذكر أنه قال يارب كيف أبلغ الناس وصوتى لاينفذهم فقال ناد وعلينا البلاغ فقام على مقامه وقيل على الحجر وقيل على الصفا وقيل على أبى قبيس وقال يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه فيقال إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض وأسمع من فى الأرحام والأصلاب وأجابه كل شىء سمعه من حجر ومدر وشجر ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة لبيك اللهم لبيك هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف والله أعلم وأوردها ابن جرير وابن أبى حاتم مطولة ، وقوله (يأتوك رجالا وعلى كل ضامر) الآية قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيا لمن قدر عليه أفضل من الحج راكبا لأنه قدمهم فى الذكر فدل على الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم وقال وكيع عن أبى العميس عن أبى حلحلة عن محمد بن كعب عن ابن عباس قال ما أساء على شىء إلا إنى وددت أنى كنت حججت ما شيا لأن الله يقول (يأتوك رجالا) والذى عليه الأكثرون أن الحج راكبا أفضل اقتداء برسول الله ﷺ فانه حج راكبا مع كمال قوته عليه السلام ، وقوله (يأتين من كل فج) يعنى طريق كما قال (وجعلنا فيها فجاجا سبلا) وقوله (عميق) أى بعيد قاله مجاهد وعطاء والسدى وقتادة ومقاتل ابن حيان والثورى وغير واحد وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبراهيم حيث قال فى دعائه (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار

﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾

قال ابن عباس (ليشهدوا منافع لهم) قال منافع الدنيا والآخرة : أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات ، وكذا قال مجاهد وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة كقوله (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) وقوله (ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) قال شعبة وهشيم عن أبى بشر عن سعيد عن ابن عباس رضى الله عنهما : الأيام المعلومات أيام العشر وعلقه البخارى عنه بصيغة الجزم به وروى مثله عن أبى موسى الأشعرى ومجاهد وقتادة وعطاء وسعيد بن جبير والحسن والضحاك وعطاء الخراسانى وإبراهيم النخعى وهو مذهب الشافعى والمشهور عن أحمد بن حنبل ، وقال البخارى حدثنا محمد بن عرعرة حدثنا شعبة عن سليمان عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « ما العمل فى أيام أفضل منها فى هذه » قالوا ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال « ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشىء » رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه بنحوه وقال الترمذى حديث حسن غريب صحيح ، وفى الباب عن ابن عمر وأبى هريرة وعبد الله بن عمرو وجابر ، قلت وقد تقصيت هذه الطرق وأفردت لها جزأ على حدة فمن ذلك ما قال الإمام أحمد حدثنا عثمان أنبأنا أبو عوانة عن يزيد بن أبى زياد عن مجاهد عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام

العشر فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد » وروى من وجه آخر عن مجاهد عن ابن عمر بنحوه ، وقال البخارى وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق فى أيام العشر فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما وقد روى أحمدعن جابر مرفوعا أن هذاهوالعشر الذى أقسم الله به فى قوله (والفجر وليال عشر) وقال بعض السلف إنه المراد بقوله (وأتممناها بعشر) وفى سنن أبى داود أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر ، وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذى ثبت فيه صحيح مسلم عن أبى قتادة قال سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة فقال أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية ويشتمل على يوم النحر الذى هو يوم الحج الأكبر ، وقد ورد فى حديث أنه أفضل الأيام عند الله وبالجملة فهذا العشر قد قيل إنه أفضل أيام السنة كما نطق به الحديث ، وفضله كثير على عشر رمضان الأخير لأن هذا يشرع فيه ما يشرع فى ذلك من صلاة وصيام وصدقة وغيره ، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه وقيل ذلك أفضل لاشتماله على ليلة القدر التى خير من ألف شهر وتوسط آخرون فقالوا أيام هذا أفضل وليالى ذاك أفضل وبهذا يجتمع شمل الأدلة والله أعلم ﴿قول ثان﴾ فى الأيام المعلومات قال الحكم عن مقسم عن ابن عباس الأيام المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده ، ويروى هذا عن ابن عمر وإبراهيم النخعى وإليه ذهب أحمد بن حنبل فى رواية عنه ﴿قول ثالث﴾ قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا على بن المدينى حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا ابن عجلان حدثنى نافع أن ابن عمر كان يقول : الأيام المعلومات المعدودات هن جميعهن أربعة أيام فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده ، والأيام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر هذا إسناد صحيح إليه ، وقاله السدى وهو مذهب الإمام مالك بن أنس ويعضد هذا القول والذى قبله قوله تعالى (على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) يعنى به ذكر الله عند ذبحها ﴿قول رابع﴾ إنها يوم عرفة ويوم النحر ويوم آخر بعده وهو مذهب أبى حنيفة ، وقال ابن وهب حدثنى ابن زيد بن أسلم عن أبيه أنه قال المعلومات يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق وقوله (على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) يعنى الإبل والبقر والغنم كما فصلها تعالى فى سورة الأنعام (ثمانية أزواج) الآية وقوله (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحى وهو قول غريب والذى عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ فأكل من لحمها وحسا من مرقها قال عبد الله بن وهب قال لى مالك أحب أن يأكل من أضحيته لأن الله يقول (فكلوا منها) قال ابن وهب وسألت الليث فقال لى مثل ذلك وقال سفيان الثورى عن منصور عن إبراهيم (فكلوا منها) قال كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل ، وروى عن مجاهد وعطاء نحو ذلك . قال هشيم عن حصين عن مجاهد فى قوله (فكلوا منها) قال هى كقوله (فإذا حللتم فاصطادوا) (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض) وهذا اختيار ابن جرير فى تفسيره ، واستدل من نصر القول بأن الأضاحى يتصدق منها بالنصف بقوله فى هذه الآية (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) فجزأها نصفين نصف للمضحى ونصف للفقراء ، والقول الآخر أنها تجزأ ثلاثة أجزاء ثلث له وثلث يهديه وثلث يتصدق به لقوله تعالى فى الآية الأخرى (فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر) وسيأتى الكلام عليها عندها إن شاء الله وبه الثقة ، وقوله (البائس الفقير) قال عكرمة هو المضطر الذى يظهر عليه البؤس وهو الفقير المتعفف : وقال مجاهد هو الذى لا يبسط يده ، وقال قتادة هو الزمن . وقال مقاتل بن حيان هو الضرير وقوله (ثم ليقضوا تفثهم) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس هو وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر ونحو ذلك وهكذا روى عطاء ومجاهد عنه وكذا قال عكرمة ومحمد بن كعب القرظى وقال عكرمة عن ابن عباس (ثم ليقضوا تفثهم) قال التفث المناسك وقوله (وليوفوا نذورهم) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى نحر ما نذر من أمر البدن . وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد(وليوفوا نذورهم) نذر الحج والهدى وما نذر الإنسان من شىء يكون فى الحج ، وقال إبراهيم بن ميسرة عن مجاهد (وليوفوا نذورهم) قال الذبائح . وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد (وليوفوا نذورهم) كل نذر إلى أجل . وقال عكرمة (وليوفوا نذورهم) قال حجهم . وكذا روى الإمام أحمد وابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن أبى عمر حدثنا سفيان فى قوله (وليوفوا نذورهم) قال نذور الحج فكل من

دخل الحج فعليه من العمل فيه الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة وعرفة ومزدلفة ورمى الجمار على ما أمروا به ، وروى عن مالك نحوهذا وقوله (وليطوفوا بالبيت العتيق) قال مجاهد يعنى الطواف الواجب يوم النحر : وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن أبى حمزة قال : قال لى ابن عباس أتقرأ سورة الحج يقول الله تعالى (وليطوفوا (بالبيت العتيق) فان آخر المناسك الطواف بالبيت العتيق : قلت وهكذا صنع رسول الله ﷺ فانه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ برمى الجمرة فرماها بسبع حصيات ثم نحر هديه وحلق رأسه ثم أفاض فطاف بالبيت ، وفى الصحيحين عن ابن عباس أنه قال أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف إلا أنه خفف عن المرأة الحائض ، وقوله (بالبيت العتيق) فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر لأنه من أصل البيت الذى بناه إبراهيم وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت حين قصرت بهم النفقة ، ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر وأخبر أن الحجر من البيت ولم يستلم الركنين الشاميين لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة ، ولهذا قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن أبى عمر العدنى حدثنا سفيان عن هشام بن حجر عن رجل عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية (وليطوفوا بالبيت العتيق) طاف رسول الله ﷺ من ورائه ، وقال قتادة عن الحسن البصرى فى قوله (وليطوفوا بالبيت العتيق) قال لأنه أول بيت وضع للناس وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وعن عكرمة أنه قال إنما سمى البيت العتيق لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح ، وقال خصيف إنما سمى البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار قط ، وقال ابن أبى نجيح وليث عن مجاهد أعتق من الجبارة أن يسلطوا عليه وكذا قال قتادة وقال حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن بن مسلم عن مجاهد لأنه لم يرده أحد بسوء إلا هلك ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن ابن الزبير قال إنما سمى البيت العتيق لأن الله أعتقه من الجبابرة ، وقال الترمذى حدثنا محمد بن إسماعيل وغير واحد حدثنا عبد الله بن صالح أخبرنى الليث عن عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب عن محمد بن عروة عن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله ﷺ « إنما سمى البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار » وكذا رواه ابن جرير عن محمد بن سهل المحاربى عن عبد الله بن صالح به وقال إن كان صحيحا ، وقال الترمذى هذا حديث حسن غريب ثم رواه من وجه آخر عن الزهرى مرسلا

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ * حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾

يقول تعالى هذا الذى أمرنا به من الطاعات فى أداء المناسك وما يلقى عليها من الثواب الجزيل (ومن يعظم حرمات الله) أى ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيما فى نفسه (فهو خير له عند ربه) أى فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل فكما على فعل الطاعات ثواب كثير وأجر جزيل. كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات قال ابن جريج قال مجاهد فى قوله (ذلك ومن يعظم حرمات الله)قال الحرمة مكة والحج والعمرة وما نهى الله عنه من معاصيه كلها وكذ قال ابن زيد . وقوله (وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم) أى أحللنا لكم جميع الانعام وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، وقوله (إلا ما يتلى عليكم) أى من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة الآية قال ذلك ابن جرير وحكاه عن قتادة ، وقوله (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور) من ههنا لبيان الجنس أى اجتنبوا الرجس الذى هو الاوثان وقرن الشرك بالله بقول الزور كقوله (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به

سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) ومنه شهادة الزور، وفي الصحيحين عن أبي بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » قلنا بلى يا رسول الله قال «الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئا فجلس فقال - ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت ، وقال الإمام أحمد حدثنا مروان بن معاوية الفزاري أنبأنا سفيان بن زياد عن فاتك بن فضالة عن أيمن بن خريم قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال « يا أيها الناس عدلت شهادة الزور إشراكا بالله » ثلاثا ثم قرأ (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور) وهكذا رواه الترمذي عن أحمد بن منيع عن مروان بن معاوية به ثم قال غريب إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد وقد اختلف عنه في رواية هذا الحديث ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعا من النبي ﷺ وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا محمد بن عبيد حدثنا سفيان العصفري عن أبيه عن حبيب بن النعمان الأسدي عن خريم بن فاتك الأسدي قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح فلما انصرف قام قائما فقال « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عز وجل » ثم تلا هذه الآية (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به) وقال سفيان الثوري عن عاصم بن أبي النجود عن وائل بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال: تعدل شهادة الزور الإشراك بالله ثم قرأ هذه الآية ، وقوله (حنفاء لله) أي مخلصين له الدين منحرفين عن الباطل قصدا إلى الحق ولهذا قال (غير مشركين به) ثم ضرب للمشرك مثلا في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء) أي سقط منها (فتخطفه الطير) أي تقطعه الطيور في الهوء (أو تهوى به الريح في مكان سحيق) أي بعيد مهلك لمن هوى فيه ولهذا جاء في حديث البراء: أن الكافر إذا توفته ملائكة الموت وصعدوا بروحه إلى السماء فلا تفتح له أبواب السماء بل تطرح روحه طرحا من هناك ثم قرأ هذه الآية وقد تقدم الحديث في سورة إبراهيم بحروفه وألفاظه وطرقه . وقد ضرب تعالى للمشركين مثلا آخر في سورة الأنعام وهو قوله (قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى) الآية

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾

يقول تعالى هذا (ومن يعظم شعائر الله) أي أوامره (فإنها من تقوى القلوب) ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن كما قال الحكم عن مقسم عن ابن عباس تعظيمها استسمانها واستحسانها . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن ابن أبي ليلى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس (ذلك ومن يعظم شعائر الله) قال: الاستسمان والاستحسان والاستعظام ، وقال أبو أمامة عن سهل : كنا نسمن الأضحية بالمدينة وكان المسلمون يسمنون . رواه البخاري وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « دم عفراء أحب إلى الله من دم سوداوين » رواه أحمد وابن ماجه قالوا: والعفراء هي البيضاء بياضا ليس بناصع فالبيضاء أفضل من غيرها وغيرها يجزىء أيضا لما ثبت في صحيح البخاري عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين أقرنين وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن كحيل يأكل في سواد وينظر في سواد ويمشي في سواد رواه أهل السنن وصححه الترمذي - أي فيه نكتة سوداء في هذه الأماكن ، وفي سنن ابن ماجه عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوءين وكذا روى أبو داود وابن ماجه عن جابر ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أقرنين أملحين موجوءين : قيل هما الخصيان وقيل اللذان رض خصياهما ولم يقطعهما والله أعلم . وعن علي رضي الله عنه قال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستشرف العين والأذن

وأن لانضحي بمقابلة ولا مدابرة ولاشرقاء ولا خرقاء ،رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى ولهم عنه ، قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نضحى بأعضب القرن والأذن ، قال سعيد بن المسيب : العضب النصف فأكثر وقال بعض أهل اللغة : إن كسر قرنها الأعلى فهى قصماء فأما العضب فهو كسر الأسفل وعضب الأذن قطع بعضها ، وعند الشافعي أن الأضحية بذلك مجزئة لكن تكره ، وقال أحمد لاتجزىء الأضحية بأعضب القرن والأذن لهذا الحديث ، وقال مالك إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزىء والا أجزأ والله أعلم . وأما المقابلة فهى التى قطع مقدم أذنها والمدابرة من مؤخر أذنها ، والشرقاء هي التى قطعت أذنها طولا . قاله الشافعى والأصمعى وأما الخرقاء فهى التى خرقت السمة أذنها خرقا مدورا والله أعلم ، وعن البراء قال : قال رسول الله ﷺ « أربع لاتجوز فى الأضاحى : العوراء البين عورها والمريضة البين مرضها والعرجاء البين ضلعها والكسيرة التى لا تنقى » رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى وهذه العيوب تنقص اللحم لضعفها وعجزها عن استكمال الرعى لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى فلهذا لاتجزىء التضحية بها عند الشافعى وغيره من الأئمة كما هو ظاهر الحديث ، واختلف قول الشافعى فى المريضة مرضا يسيرا على قولين وروى أبو داود عن عتبة بن عبد السلمى أن رسول الله ﷺ نهى عن المصفرة والمستأصلة والبخقاء والمشيعة والكسيرة ، فالمصفرة قيل الهزيلة وقيل المستأصلة الأذن والمستأصلة مكسورة القرن والبخقاء هى العوراء والمشيعة هى التى لاتزال تشيع خلف الغنم ولاتتبع لضعفها والكسيرة العرجاء فهذه العيوب كلها مانعة من الإجزاء فإن طرأ العيب بعد تعيين الاضحية فانه لا يضر عند الشافعى خلافا لأبى حنيفة وقد روى الإمام أحمد عن أبى سعيد قال : اشتريت كبشا أضحى به فعدا الذئب فأخذ الألية فسألت النبى ﷺ فقال « ضح به » ولهذا جاء فى الحديث أمرنا النبى ﷺ أن نستشرف العين والأذن أى أن تكون الهدية أو الأضحية سمينة حسنة ثمينة كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عمر قال أهدى عمر نجيبا فأعطى بها ثلثمائة دينار فأتى النبى ﷺ فقال يا رسول الله إنى أهديت نجيبا فأعطيت بها ثلثمائة دينار أفأبيعها وأشترى بثمنها بدنا قال لا « انحرها إياها » وقال الضحاك عن ابن عباس البدن من شعائر الله وقال محمد بن أبى موسى الوقوف ومزدلفة والجمار والرمى والحلق والبدن من شعائر الله وقال ابن عمر أعظم الشعائر البيت وقوله (لكم فيها منافع) أى لكم فى البدن منافع من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها إلى أجل مسمى قال مقسم عن ابن عباس فى قوله (لكم فيها منافع إلى أجل مسمى) قال ما لم تسم بدنا وقال مجاهد فى قوله (لكم فيها منافع إلى أجل مسمى) قال الركوب واللبن والولد فإذا سميت بدنة أوهديا ذهب ذلك كله وكذا قال عطاء والضحاك وقتادة وعطاء الخراسانى وغيرهم ، وقال آخرون بل له أن ينتفع بها وإن كانت هديا إذا احتاج إلى ذلك كما ثبت فى الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يسوق بدنة قال « اركبها » قال إنها بدنة قال « اركبها ويحك » فى الثانية أو الثالثة وفى روية لمسلم عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال « اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها » وقال شعبة بن زهير عن أبى ثابت الأعمى عن المغيرة بن أبى الحر عن على أنه رأى رجلا يسوق بدنة ومعها ولدها فقال لاتشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها وقوله (ثم محلها إلى البيت العتيق) أى محل الهدى وانتهاؤه إلى البيت العتيق وهو الكعبة كما قال تعالى (هديا بالغ الكعبة) وقال (والهدى معكوفا أن يبلغ محله) وقد تقدم الكلام على معنى البيت العتيق قريبا ولله الحمد وقال ابن جريج عن عطاء قال: كان ابن عباس يقول : كل من طاف بالبيت فقد حل قال الله تعالى (ثم محلها إلى البيت العتيق)

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

يخبر تعالى انه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعا فى جميع الملل وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (ولكل أمة جعلنا منسكا) قال عيداً وقال عكرمة ذبحا ، وقال زيد بن أسلم فى قوله (ولكل أمة جعلنا منسكا) إنها مكة لم يجعل الله لأمة قط منسكا غيرها . وقوله (ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام) كما ثبت فى الصحيحين عن أنس قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين فسمى وكبر ووضع رجله على صفاحهما ، وقال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا سلام بن مسكين عن عائذ الله المجاشعى عن أبى داود -وهو نفيع بن الحارث- عن زيد بن أرقم قال : قلت أو قالوا يارسول الله ماهذه الأضاحى ؟ قال « سنة أبيكم إبراهيم » قالوا ما لنا منها ؟ قال « بكل شعرة حسنة » قال فالصوف ؟ قال « بكل شعرة من الصوف حسنة » وأخرجه الإمام أبو عبدالله محمد بن يزيد بن ماجه فى سننه من حديث سلام بن مسكين به

وقوله (فإلهكم إله واحد فله أسلموا) أى معبودكم واحد وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضا فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لاشريك له (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لاإله إلاأنا فاعبدون) ولهذا قال (فله أسلموا) أى أخلصوا واستسلموا لحكمه وطاعته (وبشر المخبتين) قال مجاهد المطمئنين وقال الضحاك وقتادة المتواضعين وقال السدى الوجلين وقال عمرو بن أوس : المخبتين الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا ، وقال الثورى (وبشر المخبتين) قال المطمئنين الراضين بقضاء الله المستسلمين له وأحسن مايفسر بمابعده وهو قوله (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أى خافت منه قلوبهم (والصابرين على ما أصابهم) أى من المصائب ، قال الحسن البصرى والله لنصبرن أو لنهلكن (والمقيمى الصلاة) قرأ الجمهور بالإضافة السبعة وبقية العشرة أيضا ، وقرأ ابن السميفع (والمقيمين الصلاة) بالنصب وعن الحسن البصرى (والمقيمى الصلاة) وإنما حذفت النون ههنا تخفيفا ولو حذفت للاضافة لوجب خفض الصلاة ولكن على سبيل التخفيف فنصبت أى المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه (ومما رزقناهم ينفقون) أى وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاويجهم ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله ، وهذه بخلاف صفات المنافقين فإنهم بالعكس من هذا كله كما تقدم تفسيره فى سورة براءة

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى ممتنا على عبيده فيما خلق لهم من البدن وجعلها من شعائره وهو أنه جعلها تهدى إلى بيته الحرام بل هى أفضل مايهدى اليه كما قال تعالى (لاتحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام) الآية ، قال ابن جريج قال عطاء فى قوله (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله) قال البقرة والبعير وكذا روى عن ابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن البصرى ، وقال مجاهد إنما البدن من الإبل (قلت) أما إطلاق البدنة على البعير فمتفق عليه واختلفوا فى صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعا كما صح الحديث ، ثم جمهور العلماء على أنه تجزىء البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة كما ثبت به الحديث عند مسلم من رواية جابر بن عبدالله قال أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك فى الأضاحى البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة ، وقال إسحق بن راهويه وغيره بل تجزىء البقرة والبعير عن عشرة وقد ورد به حديث فى مسند الإمام أحمد وسنن النسائى وغيرهما فالله أعلم . وقوله (لكم فيها خير) أى ثواب فى الدار الآخرة ، وعن سليمان بن يزيد الكعبى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال « ماعمل ابن آدم يوم النحر عملا أحب إلى الله من إهراق دم وإنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض فطيبوا بها نفسا » رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه . وقال سفيان الثورى كان أبو حازم يستدين ويسوق البدن فقيل له تستدين

وتسوق البدن ؟ فقال إني سمعت الله يقول (لكم فيها خير) وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما أنفقت الورق فى شيء أفضل من نحيرة فى يوم عيد» رواه الدارقطنى فى سننه ، وقال مجاهد (لكم فيها خير) قال أجر ومنافع ، وقال إبراهيم النخعى يركبها ويحلبها إذا احتاج اليها . وقوله (فاذكروا اسم الله عليها صواف) وعن المطلب بن عبدالله بن حنطب عن جابر بن عبدالله قال صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى فلما انصرف أتى بكبش فذبحه فقال « باسم الله والله أكبر اللهم هذا عنى وعمن لم يضح من أمتى » رواه أحمد وأبو داود والترمذى . وقال محمد بن إسحق عن يزيد بن أبى حبيب عن ابن عباس عن جابر قال ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين فى يوم عيد فقال حين وجههما « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين اللهم منك ولك عن محمد وأمته » ثم سمى الله وكبر وذبح وعن على بن الحسين عن أبى رافع أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين فإذا صلى وخطب الناس أتى بأحدهما وهو قائم فى مصلاه فذبحه بنفسه بالمدية ثم يقول « اللهم هذا عن أمتى جميعها من شهد لك بالتوحيد وشهد لى بالبلاغ » ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ثم يقول « هذا عن محمد وآل محمد » فيطعمهما جميعاً للمساكين ويأكل هو وأهله منهما رواه أحمد وابن ماجه . وقال الأعمش عن أبى ظبيان عن ابن عباس فى قوله (فاذكروا اسم الله عليها صواف) قال قياما على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى يقول باسم الله والله أكبر لا إله إلا الله اللهم منك ولك : وكذلك روى عن مجاهد وعلى بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس نحو هذا . وقال ليث عن مجاهد إذا عقلت رجلها اليسرى قامت على ثلاث ، وروى ابن أبى نجيح عنه نحوه . وقال الضحاك يعقل رجلا فتكون على ثلاث. وفى الصحيحين عن ابن عمر أنه أتى على رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها فقال ابعثها قياما مقيدة سنة أبى القاسم ﷺ وعن جابر أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى قائمة على مابقى من قوائمها رواه أبوداود وقال ابن لهيعة حدثنى عطاء بن دينار أن سالم بن عبدالله قال لسليمان بن عبدالملك قف من شقها الأيمن وانحر من شقها الأيسر ، وفى صحيح مسلم عن جابر فى صفة حجة الوداع قال فيه فنحر رسول الله ﷺ بيده ثلاثا وستين بدنة جعل يطعنها بحربة فى يده . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة قال فى حرف ابن مسعود (صوافن) أى معقلة قياما وقال سفيان الثورى عن منصور عن مجاهد من قرأها صوافن قال معقولة من قرأها صواف قال تصف بين يديها وقال طاوس والحسن وغيرهما (فاذكروا اسم الله عليها صوافى) يعنى خالصة لله عز وجل وكذا رواه مالك عن الزهرى . وقال عبد الرحمن بن زيد صوافى ليس فيها شرك كشرك الجاهلية لأصنامهم وقوله (فإذا وجبت جنوبها) قال ابن أبى نجيح عن مجاهد يعنى سقطت إلى الأرض وهو رواية عن ابن عباس وكذا قال مقاتل بن حيان . وقال العوفى عن ابن عباس فإذا وجبت جنوبها يعنى نحرت . وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم فإذا وجبت جنوبها يعنى ماتت وهذا القول هو مراد ابن عباس ومجاهد فانه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرت حتى تموت وتبرد حركتها ، وقد جاء فى حديث مرفوع « لا تعجلوا النفوس أن تزهق » وقد رواه الثورى فى جامعه عن أيوب عن يحيى بن أبى كثير عن فرافصة الحنفى عن عمر بن الخطاب أنه قال ذلك ويؤيده حديث شداد بن أوس فى صحيح مسلم « إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته » وعن أبى واقد الليثى قال : قال رسول الله ﷺ « ماقطع من البهيمة وهى حية فهو ميتة » رواه أحمد وأبوداود والترمذى وصححه . وقوله (فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر) قال بعض السلف قوله (فكلوا منها) أمر إباحة . وقال مالك يستحب ذلك وقال غيره يجب وهو وجه لبعض الشافعية . واختلفوا فى المراد بالقانع والمعتر فقال العوفى عن ابن عباس القانع المستغنى بما أعطيته وهو فى بيته والمعتر الذى يتعرض لك ويلم بك أن تعطيه من اللحم ولا يسأل وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب القرظى . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس القانع المتعفف والمعتر السائل وهذا

قول قتادة وإبراهيم النخعي ومجاهد في رواية عنه ،وقال ابن عباس وعكرمة وزيد بن أسلم والكلبي والحسن البصري ومقاتل بن حيان ومالك بن أنس القانع هوالذي يقنع إليك ويسألك والمعتر الذي يعتريك يتضرع ولا يسألك وهذا لفظ الحسن وقال سعيد بن جبير القانع هو السائل قال أما سمعت قول الشماخ

لمال المرء يصلحه فيغني * مفاقره أعف من القنوع

قال يغني من السؤال وبه قال ابن زيد وقال زيد بن أسلم القانع المسكين الذي يطوف والمعتر الصديق والضعيف الذي يزور وهو رواية عن ابنه عبد الرحمن بن زيد أيضا ، وعن مجاهد أيضا القانع جارك الغني الذي يبصر ما يدخل بيتك والمعتر الذي يعتزل من الناس ، وعنه أن القانع هو الطامع والمعتر هو الذي يعتر بالبدن من غني أو فقير وعن عكرمة نحوه وعنه القانع أهل مكة ، واختار ابن جرير أن القانع هو السائل لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال والمعتر من الاعتراء وهو الذي يتعرض لأكل اللحم،وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء فثلث لصاحبها يأكله وثلث يهديه لأصحابه وثلث يتصدق به على الفقراء لأنه تعالى قال (فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر) وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس « إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث فكلوا وادخروا ما بدا لكم » وفي رواية « فكلوا وادخروا وتصدقوا » وفي رواية « فكلوا وأطعموا وتصدقوا » : والقول الثاني : أن المضحي يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله في الآية المتقدمة (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) ولقوله في الحديث « فكلوا وادخروا وتصدقوا » فان أكل الكل فقيل لا يضمن شيئا وبه قال ابن سريج من الشافعية وقال بعضهم يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها وقيل يضمن نصفها وقيل ثلثها وقيل أدنى جزء منها وهو المشهور من مذهب الشافعي ، وأما الجلود ففي مسند أحمد عن قتادة بن النعمان في حديث الأضاحي « فكلوا وتصدقوا واستمتعوا بجلودها ولا تبيعوها » ومن العلماء من رخص في بيعها ومنهم من قال يقاسم الفقراء فيها والله أعلم

﴿ مسئلة ﴾ عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر فمن فعل فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك في شيء » أخرجاه فلهذا قال الشافعي وجماعة من العلماء : إن أول وقت ذبح الأضاحي إذ طلعت الشمس يوم النحر ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين زاد أحمد وأن يذبح الإمام بعد ذلك لما جاء في صحيح مسلم وأن لا تذبحوا حتى يذبح الإمام ، وقال أبو حنيفة أما أهل السواد من القرى ونحوها فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر إذ لا صلاة عيد تشرع عنده لهم ، وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلي الإمام والله أعلم، ثم قيل لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده وقيل يوم النحر لأهل الأمصار لتيسر الأضاحي عندهم وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده وبه قال سعيد بن جبير وقيل يوم النحر ويوم بعده للجميع وقيل ويومان بعده وبه قال الإمام أحمد ، وقيل يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده وبه قال الشافعي لحديث جبير بن مطعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أيام التشريق كلها ذبح » رواه أحمد وابن حبان وقيل إن وقت الذبح يمتد إلى آخر ذي الحجه ، وبه قال إبراهيم النخعي وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وهو قول غريب وقوله (كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون) يقول تعالى من أجل هذا (سخرناها لكم) أي ذللناها لكم وجعلناها منقادة لكم خاضعة إن شئتم ركبتم وإن شئتم حلبتم وإن شئتم ذبحتم كما قال تعالى (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون — إلى قوله — أفلا يشكرون) وقال في هذه الآية الكريمة (كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون)

﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾

يقول تعالى إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا الضحايا لتذكروه عند ذبحها فانه الخالق الرازق لا يناله شيء من لحومها ولا دمائها فانه تعالى هو الغني عما سواه وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم

ونضحوا عليها من دمائها فقال تعالى (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها) وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن أبي حماد حدثنا إبراهيم بن المختار عن ابن جريج قال كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها فقال أصحاب رسول الله ﷺ فنحن أحق أن ننضح فأنزل الله (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) أي يتقبل ذلك ويجزي عليه كما جاء في الصحيح «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» وجاء في الحديث «إن الصدقة لتقع في يد الرحمن قبل أن تقع في يد السائل وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع إلى الأرض» كما تقدم في الحديث رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه عن عائشة مرفوعا فمعناه أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص في عمله وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا والله أعلم وقال وكيع عن يحيى بن مسلم ابن الضحاك سألت عامراً الشعبي عن جلود الأضاحي فقال (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها) إن شئت فبع وإن شئت فأمسك وإن شئت فتصدق وقوله (كذلك سخرها لكم) أي من أجل ذلك سخر لكم البدن (لتكبروا الله على ما هداكم) أي لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه ويرضاه ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه وقوله (وبشر المحسنين) أي وبشر يا محمد المحسنين أي في عملهم القائمين بحدود الله المتبعين ما شرع لهم المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل

﴿ مسألة ﴾ وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثوري إلى القول بوجوب الأضحية على من ملك نصابا وزاد أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضاً واحتج لهم بما رواه أحمد وابن ماجه بإسناد رجاله كلهم ثقات عن أبي هريرة مرفوعا « من وجد سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا» على أن فيه غرابة واستنكره أحمد بن حنبل وقال ابن عمر : أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين يضحي رواه الترمذي وقال الشافعي وأحمد: لا تجب الأضحية بل هي مستحبة لما جاء في الحديث «ليس في المال حق سوى الزكاة» وقد تقدم أنه عليه الصلاة والسلام ضحى عن أمته فأسقط ذلك وجوبها عنهم، وقال أبو سريحة كنت جاراً لأبي بكر وعمر فكانا لا يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما ، وقال بعض الناس الأضحية سنة كفاية إذا قام بها واحد من أهل دار أو محلة أو بيت سقطت عن الباقين لأن المقصود إظهار الشعار : وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن وحسنه الترمذي عن مخنف بن سليم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعرفات « على كل أهل بيت في كل عام أضحاة وعتيرة ، هل تدرون ما العتيرة؟ هي التي تدعونها الرجبية» وقد تكلم في إسناده، وقال أبو أيوب كان الرجل في عهد رسول الله ﷺ يضحي بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته فيأكلون ويطعمون حتى تباهي الناس فصار كما ترى رواه الترمذي وصححه وابن ماجه ، وكان عبد الله بن هشام يضحي بالشاة الواحدة عن جميع أهله رواه البخاري ، وأما مقدار سن الأضحية فقد روى مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال «لا تذبحوا إلا مسنة إلا أن تعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن» ومن ههنا ذهب الزهري إلى أن الجذع لا يجزئ وقابله الأوزاعي فذهب إلى أن الجذع يجزئ من كل جنس وهما غريبان ، والذي عليه الجمهور إنما يجزئ الثني من الإبل والبقر والمعز أو الجذع من الضأن، فأما الثني من الإبل فهو الذي له خمس سنين ودخل في السادسة ، ومن البقر ما له سنتان ودخل في الثالثة ، وقيل ما له ثلاث ودخل في الرابعة ومن المعز ما له سنتان ، وأما الجذع من الضأن فقيل ما له سنة وقيل عشرة أشهر. وقيل ثمانية ، وقيل ستة أشهر وهو أقل ما قيل في سنه وما دونه فهو حمل والفرق بينهما أن الحمل شعر ظهره قائم، والجذع شعر ظهره نائم، قد انفرق صدعين والله أعلم

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم كما قال تعالى (أليس الله بكاف عبده) وقال (ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدراً) وقوله (إن الله لا يحب كل خوان كفور) أي لا يحب من عباده من اتصف بهذا وهو الخيانة في العهود والمواثيق لا يفي بما قال ، والكفر الجحد للنعم فلا يعترف بها

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ

أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

قال العوفي عن ابن عباس نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة ، وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف كابن عباس وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم هذه أول آية نزلت في الجهاد واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية ، وقال ابن جرير حدثني يحيى بن داود الواسطي حدثنا إسحاق بن يوسف عن سفيان عن الأعمش عن مسلم هو البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن ، قال ابن عباس فأنزل الله عز وجل (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه فعرفت أنه سيكون قتال . ورواه الإمام أحمد عن إسحاق بن يوسف الأزرق به ، وزاد قال ابن عباس وهي أول آية نزلت في القتال . ورواه الترمذي والنسائي في التفسير من سننهما وابن أبي حاتم من حديث إسحاق بن يوسف زاد الترمذي ووكيع كلاهما عن سفيان الثوري به وقال الترمذي حديث حسن وقد رواه غير واحد عن الثوري وليس فيه ابن عباس وقوله (وإن الله على نصرهم لقدير) أي هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته كما قال (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم) وقال تعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم) وقال (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون) وقال (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) وقال (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) والآيات في هذا كثيرة ، ولهذا قال ابن عباس في قوله (وإن الله على نصرهم لقدير) وقد فعل ، وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق به لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً فلو أمر المسلمون وهم أقل من العشر بقتال الباقين لشق عليهم ، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا نيفا وثمانين قالوا يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي يعنون أهل منى ليالي منى فنقتلهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني لم أومر بهذا » فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم وهموا بقتله وشردوا أصحابه شذر مذر فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة ، فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمعوا عليه وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومعقلا يلجئون إليه شرع الله جهاد الأعداء فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك فقال تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق) قال العوفي عن ابن عباس أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق يعني محمداً وأصحابه (إلا أن يقولوا ربنا الله) أي ما كان لهم إلى قومهم إساءة ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر ، وأما عند المشركين فإنه أكبر الذنوب كما قال تعالى (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود (وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) ولهذا لما كان المسلمون يرتجزون في بناء الخندق ويقولون

لاهمّ لولا أنت ما اهتدينا * ولا تصدقنا ولا صلينا * فأنزلن سكينة علينا

وثبت الأقدام أن لاقينا * أن الألى قد بغوا علينا * اذا أرادوا فتنة أبينا

فيوافقهم رسول الله ﷺ ويقول معهم آخر كل قافية فاذا قالوا : اذا أرادوا فتنة أبينا يقول أبينا يمد بها صوته ثم قال تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) أى لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض ولأهلك القوى الضعيف (لهدمت صوامع) وهى المعابد الصغار للرهبان قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والضحاك وغيرهم وقال قتادة هى معابد الصابئين وفى رواية عنه صوامع المجوس وقال مقاتل بن حيان هى البيوت التى على الطرق (وبيع) وهى أوسع منها وأكثر عابدين فيها وهى للنصارى أيضاً قاله أبو العالية وقتادة والضحاك وابن صخر ومقاتل بن حيان وخصيف وغيرهم ، وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره أنها كنائس اليهود وحكى السدى عمن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس اليهود ومجاهد إنما قال هى الكنائس والله أعلم ، وقوله (وصلوات) قال العوفى عن ابن عباس الصلوات الكنائس وكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة : إنها كنائس اليهود وهم يسمونها صلوات ، وحكى السدى عمن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس النصارى وقال أبو العالية وغيره الصلوات معابد الصابئين وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد الصلوات مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق وأما المساجد فهى للمسلمين ، وقوله (يذكر فيها اسم الله كثيرا) فقد قيل الضمير فى قوله يذكر فيها عائد إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات وقال الضحاك الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا ، وقال ابن جرير الصواب لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود وهى كنائسهم ومساجد المسلمين التى يذكر فيها اسم الله كثيرا لأن هذا هو المستعمل المعروف فى كلام العرب . وقال بعض العلماء هذا ترق من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد وهى أكثر عمارا وأكثر عبادا وهم ذوو القصد الصحيح ، وقوله (ولينصرن الله من ينصره) كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم) وقوله (إن الله لقوى عزيز) وصف نفسه بالقوة والعزة فبقوته خلق كل شىء فقدره تقديرا وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب بل كل شىء ذليل لديه فقير إليه ومن كان القوى العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المقهور قال الله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) وقال تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز)

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾

قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو الربيع الزهرانى حدثنا حماد بن زيد عن أيوب وهشام عن محمد قال : قال عثمان بن عفان فينا نزلت (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا ربنا الله ثم مكنا فى الأرض فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر ولله عاقبة الأمور فهى لى ولأصحابى وقال أبو العالية هم أصحاب محمد ﷺ وقال الصباح بن سوادة الكندى سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول (الذين إن مكناهم فى الأرض) الآية ثم قال ألا إنها ليست على الوالى وحده ولكنها على الوالى والمولى عليه : ألا أنبئكم بما لكم على الوالى من ذلكم وبما للوالى عليكم منه إن لكم على الوالى من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم وأن يأخذ لبعضكم من بعض وأن يهديكم للتى هى أقوم ما استطاع وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكره بها ولا المخالف سرها علانيتها ، وقال عطية العوفى هذه الآية كقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض) وقوله (ولله عاقبة الأمور) كقوله تعالى (والعاقبة للمتقين) وقال زيد بن أسلم (ولله عاقبة الأمور) وعند الله ثواب ما صنعوا

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۞ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۞ وَأَصْحَابُ

مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

يقول تعالى مسليا لنبيه محمد ﷺ فى تكذيب من خالفه من قومه (وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح — إلى أن قال — وكذب موسى) أى مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات (فأمليت للكافرين) أى أنظرتهم وأخرتهم (ثم أخذتهم فكيف كان نكير) أى فكيف كان إنكارى عليهم ومعاقبتى لهم؟! وذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه أنا ربكم الأعلى وبين إهلاك الله له أربعون سنة وفى الصحيحين عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) ثم قال تعالى (فكأين من قرية أهلكناها) أى كم من قرية أهلكتها (وهى ظالمة) أى مكذبة لرسلها (فهى خاوية على عروشها) قال الضحاك سقوفها أى قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها (وبئر معطلة) أى لا يستقى منها ولا يردها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها (وقصر مشيد) قال عكرمة يعنى المبيض بالجص وروى عن على بن أبى طالب ومجاهد وعطاء وسعيد ابن جبير وأبى المليح والضحاك نحو ذلك ، وقال آخرون هو المنيف المرتفع وقال آخرون الشيد المنيع الحصين وكل هذه الأقوال متقاربة ، ولا منافاة بينها فانه لم يحم أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه ولا إحكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم كما قال تعالى (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) وقوله (أفلم يسيروا فى الأرض) أى بأبدانهم وبفكرهم أيضا وذلك كاف كما قال ابن أبى الدنيا فى كتاب التفكر والاعتبار حدثنا هارون بن عبد الله حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا مالك بن دينار قال أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام أن : يا موسى اتخذ نعلين من حديد وعصا ثم سح فى الأرض ثم اطلب الآثار والعبر حتى يتخرق النعلان وتنكسر العصا . وقال ابن أبى الدنيا قال بعض الحكماء أحى قلبك بالمواعظ ونوره بالتفكر وموته بالزهد وقوه باليقين وذلله بالموت وقدره بالفناء وبصره فجائع الدنيا وحذره صولة الدهر وفحش تقلب الأيام واعرض عليه أخبار الماضين وذكره ما أصاب من كان قبله وسيره فى ديارهم وآثارهم وانظر ما فعلوا وأين حلوا وعم انقلبوا . أى فانظروا ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنكال (فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها) أى فيعتبرون بها (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) أى ليس العمى عمى البصر وإنما العمى عمى البصيرة وإن كانت القوة الباصرة سليمة فانها لا تنفذ إلى العبر ولا تدرى ما الخبر وما أحسن ما قاله بعض الشعراء فى هذا المعنى وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن حيان الأندلسى الشنتريني وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة

يا من يصيخ إلى داعى الشقاء وقد * نادى به الناعيان الشيب والكبر
إن كنت لا تسمع الذكرى ففيم ترى * فى رأسك الواعيان السمع والبصر
ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل * لم يهده الهاديان العين والأثر
لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفلك الـ * أعلى ولا النيران الشمس والقمر
ليرحلن عن الدنيا وإن كرها * فراقها الثاويان البدن والحضر

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه (ويستعجلونك بالعذاب) أى هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر كما قال تعالى (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة

من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) وقوله (ولن يخلف الله وعده) أى الذى قد وعد من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه ، والاكرام لأوليائه ، قال الأصمعى كنت عند أبى عمرو بن العلاء فجاءه عمرو بن عبيد فقال يا أبا عمرو هل يخلف الله الميعاد ؟ فقال لا ، فذكر آية وعيد فقال له أمن العجم أنت؟ إن العرب تعد الرجوع عن الوعد لؤما وعن الإيعاد كرما أما سمعت قول الشاعر :

ليرهب ابن العم والجار سطوتى * ولا أنثنى عن سطوة المتهدد
فانى وإن أوعدته أو وعدته * لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

وقوله (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) أى هو تعالى لا يعجل فان مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه لعلمه بأنه على الانتقام قادر وأنه لا يفوته شىء وإن أجل وأنظر وأملى ولهذا قال بعد هذا (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير) قال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنى عبدة ابن سليمان عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام » ورواه الترمذى والنسائى من حديث الثورى عن محمد بن عمرو به وقال الترمذى حسن صحيح ، وقد رواه ابن جرير عن أبى هريرة موقوفا فقال : حدثنى يعقوب ثنا ابن علية ثنا سعيد الجريرى عن أبى نضرة عن سمير بن نهار قال : قال أبو هريرة : يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم ، قلت وما مقدار نصف يوم ؟ قال أو ما تقرأ القرآن ، قلت بلى ، قال (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) وقال أبو داود فى آخر كتاب الملاحم من سننه حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد عن سعد بن أبى وقاص عن النبى ﷺ أنه قال « إنى لأرجو أن لا تعجز أمتى عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم » قيل لسعد وما نصف يوم ؟ قال خمسمائة سنة وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) قال من الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض . ورواه ابن جرير عن ابن بشار عن ابن المهدى ، وبه قال مجاهد وعكرمة ونص عليه أحمد بن حنبل فى كتاب الرد على الجهمية وقال مجاهد هذه الآية كقوله (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا عارم بن محمد بن الفضل حدثنا حماد بن زيد عن يحيى بن عتيق عن محمد بن سيرين عن رجل من أهل الكتاب أسلم قال: إن الله تعالى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) وجعل أجل الدنيا ستة أيام وجعل الساعة فى اليوم السابع (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) فقد مضت الستة الأيام وأنتم فى اليوم السابع فمثل ذلك كمثل الحامل إذا دخلت شهرها ففى أية لحظة ولدت كان تماما

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به (قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين) أى إنما أرسلنى الله إليكم نذيراً لكم بين يدى عذاب شديد وليس إلى من حسابكم من شىء أمركم إلى الله إن شاء عجل لكم العذاب وإن شاء أخره عنكم ، وإن شاء تاب على من يتوب إليه ، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار (لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب) (وإنما أنا لكم نذير مبين * فالذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم (لهم مغفرة ورزق كريم) أى مغفرة لما سلف من سيئاتهم ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم ، قال محمد بن كعب القرظى إذا سمعت الله تعالى يقول (ورزق كريم) فهو الجنة . وقوله (والذين سعوا فى آياتنا معاجزين) قال مجاهد يثبطون الناس عن متابعة النبى صلى الله عليه وسلم وكذا قال عبد الله بن الزبير مثبطين ، وقال ابن عباس معاجزين مراغمين (أولئك أصحاب الجحيم)

وهى النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها أجارنا الله منها قال الله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظنا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله أعلم قال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبوداود حدثنا شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم فلما بلغ هذا الموضع (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) قال فألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن ترتجى ، قالوا ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا فأنزل الله عز وجل هذه الآية (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) ورواه ابن جرير عن بندار عن غندر عن شعبة به بنحوه وهو مرسل وقد رواه البزار فى مسنده عن يوسف بن حماد عن أمية بن خالد عن شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب الشك فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ بمكة سورة النجم حتى انتهى إلى (أفرأيتم اللات والعزى) وذكر بقيته ، ثم قال البزار لانعلمه يروى متصلا إلا بهذا الإسناد تفرد بوصله أمية بن خالد وهو ثقة مشهور وإنما يروى هذا من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ، ثم رواه ابن أبى حاتم عن أبى العالية وعن السدى مرسلا وكذا رواه ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى ومحمد بن قيس مرسلا أيضا وقال قتادة كان النبى ﷺ يصلى عند المقام إذ نعس فألقى الشيطان على لسانه وإن شفاعتها لترتجى ، وإنها لمع الغرانيق العلى فحفظها المشركون واجرى الشيطان أن النبى صلى الله عليه وسلم قد قرأها فذلت بها ألسنتهم فأنزل الله (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) الآية فدحر الله الشيطان ، ثم قال ابن أبى حاتم حدثنا موسى بن أبى موسى الكوفى حدثنا محمد بن إسحق الشيبى حدثنا محمد بن فليح عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال : أنزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون لوكان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ولكنه لايذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذى يذكر آلهتنا من الشتم والشر وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه مانالة وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم وأحزنه ضلالهم فكان يتمنى هداهم فلما أنزل الله سورة النجم قال (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى) ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال وإنهن لهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك بمكة وذلت بها ألسنتهم وتباشروا بها وقالوا إن محمدا قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر النجم سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلا كبيراً فرفع ملء كفه ترابا فسجد عليه فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم فى السجود لسجود رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين ولم يكن المسلمون سمعوا الذى ألقى الشيطان فى مسامع المشركين فاطمأنت أنفسهم لما ألقى الشيطان فى أمنية رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثهم به الشيطان

أن رسول الله ﷺ قد قرأها فى السورة فسجدوا لتعظيم آلهتهم ففشت تلك الكلمة فى الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين عثمان بن مظعون وأصحابه وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم وصلوا مع رسول الله ﷺ وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه وحدثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة فأقبلوا سراعا وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته وحفظه من الفرية ، وقال الله (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم* ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد) فلما بين الله قضاءه وبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم المسلمين واشتدوا عليهم وهذا أيضاً مرسل ، وفى تفسير ابن جرير عن الزهرى عن أبى بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام نحوه وقد رواه الحافظ أبوبكر البيهقى فى كتابه دلائل النبوة فلم يجزبه موسى بن عقبة ساقه من مغازيه بنحوه قال وقد روينا عن أبى إسحق هذه القصة (قلت) وقد ذكرها محمد بن إسحق فى السيرة بنحو من هذا وكلها مرسلات ومنقطعات والله أعلم ، وقد ساقها البغوى فى تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى وغيرهما بنحو من ذلك ثم سأل ههنا سؤالا كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله صلاة الله وسلامه عليه ، ثم حكى أجوبة عن الناس من ألطفها أن الشيطان أوقع فى مسامع المشركين ذلك فتوهموا أنه صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس كذلك فى نفس الأمر بل إنما كان من صنيع الشيطان لاعن رسول الرحمن ﷺ والله أعلم

وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين عن هذا بتقدير صحته ، وقد تعرض القاضى عياض رحمه الله فى كتاب الشفاء لهذا وأجاب بما حاصله أنها كذلك لثبوتها وقوله (إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) هذا فيه تسلية من الله لرسوله صلاة الله وسلامه عليه أى لايهيدنك ،فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء، قال البخارى: قال ابن عباس (فى أمنيته) إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه فيبطل الله مايلقى الشيطان (ثم يحكم الله آياته) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته) يقول إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه ، وقال مجاهد (إذا تمنى) يعنى إذا قال ويقال أمنيته قراءته (إلا أمانى) يقرءون ولا يكتبون قال البغوى وأكثر المفسرين قالوا معنى قوله (تمنى) أى تلا وقرأ كتاب الله (ألقى الشيطان فى أمنيته) أى فى تلاوته قال الشاعر فى عثمان حين قتل :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

وقال الضحاك (إذا تمنى) إذا تلا قال ابن جرير هذا القول أشبه بتأويل الكلام ، وقوله (فينسخ الله مايلقى الشيطان) حقيقة النسخ لغة الازالة والرفع ، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أى فيبطل الله سبحانه وتعالى ما ألقى الشيطان وقال الضحاك نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته ، وقوله (والله عليم) أى بما يكون من الأمور والحوادث لاتخفى عليه خافية (حكيم) أى فى تقديره وخلقه وأمره له . الحكمة التامة والحجة البالغة ولهذا قال (ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض) أى شك وشرك وكفر ونفاق كالمشركين حين فرحوا بذلك واعتقدوا أنه صحيح من عند الله وإنما كان من الشيطان : قال ابن جريج (الذين فى قلوبهم مرض) هم المنافقون (والقاسية قلوبهم) هم المشركون . وقال مقاتل بن حيان هم اليهود (وإن الظالمين لفى شقاق بعيد) أى فى ضلال ومخالفة وعناد بعيد أى من الحق والصواب (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به) أى وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذى يفرقون به بين الحق والباطل والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحيناه اليك هو الحق من ربك الذى أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره بل هو كتاب عزيز (لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد) وقوله (فيؤمنوا به) أى يصدقوه وينقادوا له (فتخبت له قلوبهم) أى تخضع وتذل له قلوبهم (وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) أى فى الدنيا والآخرة . أما فى الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه وفى الآخرة يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم لايزالون فى مرية أى فى شك وريب من هذا القرآن قاله ابن جريج واختاره ابن جرير ، وقال سعيد بن جبير وابن زيد منه أى مما ألقى الشيطان (حتى تأتيهم الساعة بغتة) قال مجاهد فجأة، وقال قتادة (بغتة) بغت القوم أمر الله وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم فلا تغتروا بالله إنه لايغتر بالله إلا القوم الفاسقون وقوله (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) قال مجاهد قال أبى بن كعب هو يوم بدر ، وكذا قال مجاهد وعكرمه وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير ، قال عكرمة ومجاهد فى رواية عنهما هو يوم القيامة لاليل له وكذا قال الضحاك والحسن البصرى وهذا القول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به لكن هذا هو المراد ولهذا قال (الملك يومئذ لله يحكم بينهم) كقوله (مالك يوم الدين) وقوله (الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيرا) (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى آمنت قلوبهم وصدقوا بالله ورسوله وعملوا بمقتضى ما علموا وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم (فى جنات النعيم) أى لهم النعيم المقيم الذى لايحول ولا يزول ولا يبيد (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) أى كفرت قلوبهم بالحق وجحدته وكذبوا به وخالفوا الرسل واستكبروا عن اتباعهم (فأولئك لهم عذاب مهين) أى مقابلة استكبارهم وإبائهم عن الحق كقوله تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) أى صاغرين

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ * ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾

يخبر تعالى عمن خرج مهاجراً فى سبيل الله ابتغاء مرضاته وطلبا لما عنده وترك الأوطان والأهلين والخلان وفارق بلاده فى الله ورسوله ونصرة لدين الله ثم قتلوا أى فى الجهاد أو ماتوا أى حتف أنفهم من غير قتال على فرشهم فقد حصلوا على الأجر الجزيل والثناء الجميل كما قال تعالى (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) وقوله (ليرزقنهم الله رزقا حسنا) أى ليجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ماتقر به أعينهم (وإن الله لهو خير الرازقين * ليدخلنهم مدخلا يرضونه) أى الجنة كما قال تعالى (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة ونعيم) فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة النعيم كما قال ههنا (ليرزقنهم الله رزقا حسنا) ثم قال (ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم) أى بمن يهاجر ويجاهد فى سبيله وبمن يستحق ذلك (حليم)أى يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه وتوكلهم عليه . فأما من قتل فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر فانه حى عند ربه يرزق كما قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) والأحاديث فى هذا كثيرة كما تقدم وأما من توفى فى سبيل الله من مهاجر أوغير مهاجر فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه وعظيم إحسان الله إليه قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا المسيب بن واضح حدثنا ابن المبارك عن عبد الرحمن بن شريح عن ابن الحارث يعنى عبد الكريم عن ابن عقبة يعنى أبا عبيدة بن عقبة قال: قال شرحبيل ابن السمط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم فمر بى سلمان يعنى الفارسى رضى الله عنه فقال إنى سمعت رسول الله

يقول « من مات مرابطا أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر وأجرى عليه الرزق وأمن من الفتانين واقرءوا إن شئتم (والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أوماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم) » وقال أيضا حدثنا أبو زرعة حدثنا زيد بن بشر أخبرني همام أنه سمع أبا قبيل وربيعة ابن سيف المعافري يقولان كنا برودس ومعنا فضالة بن عبيد الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ فمر بجنازتين إحداهما قتيل والأخرى متوفى فمال الناس على القتيل فقال فضالة مالي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا هذا القتيل في سبيل الله فقال والله ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت اسمعوا كتاب الله (والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أوماتوا) حتى بلغ آخر الآية وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا عبدة بن سليمان أنبأنا ابن المبارك أنبأنا ابن لهيعة حدثنا سلامان بن عامر الشيباني أن عبد الرحمن بن جحدم الخولاني حدثه أنه حضر فضالة بن عبيد في البحر مع جنازتين أحدهما أصيب بمنجنيق والآخر توفي فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى فقيل له تركت الشهيد فلم تجلس عنده فقال ما أبالي من أي حفرتيهما بعثت إن الله يقول (والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أوماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا) الآيتين فما تبتغي أيها العبد إذا أدخلت مدخلا ترضاه ورزقت رزقا حسنا والله ما إبالي من أي حفرتيهما بعثت . ورواه ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب أخبرني عبد الرحمن بن شريح عن سلامان ابن عامر قال كان فضالة برودس أميراً على الأرباع فخرج بجنازتي رجلين أحدهما قتيل والآخر متوفى فذكر نحو ما تقدم وقوله (ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به) الآية ذكر مقاتل بن حيان وابن جرير أنها نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعا من المشركين في شهر محرم فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم في الشهر الحرام فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم فقاتلهم المسلمون فنصرهم الله عليهم (إن الله لعفو غفور)

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

يقول تعالى منبها على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء كما قال (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير * تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب) ومعنى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل إدخاله من هذا في هذا ومن هذا في هذا فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف وقوله (وأن الله سميع بصير) أي سميع بأقوال عباده بصير بهم لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم ولما تبين أنه المتصرف في الوجود الحاكم الذي لا معقب لحكمه قال (ذلك بأن الله هو الحق) أي الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له لأنه ذو السلطان العظيم الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وكل شيء فقير إليه ذليل لديه (وأن ما يدعون من دونه هو الباطل) أي من الأصنام والأنداد والأوثان وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل لأنه لا يملك ضراً ولا نفعا وقوله (وأن الله هو العلي الكبير) كما قال (وهو العلي العظيم) وقال (وهو الكبير المتعال) فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته لا إله إلا هو ولا رب سواه لأنه العظيم الذي لا أعظم منه العلي الذي لا أعلى منه ، الكبير الذي لا أكبر منه ، تعالى وتقدس وتنزه عزوجل عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيرا

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ

بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾

وهذا أيضا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه وأنه يرسل الرياح فتثير سحابا فيمطر على الأرض الجرز التى لا نبات فيها وهى هامدة يابسة سوداء ممحلة (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) وقوله (فتصبح الأرض مخضرة) الفاء ههنا للتعقيب ، وتعقيب كل شىء بحسبه كما قال تعالى (فجعلنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة) الآية وقد ثبت فى الصحيحين أن بين كل شيئين أربعين يوما ومع هذا هو معقب بالفاء وهكذا ههنا قال (فتصبح الارض مخضرة) أى خضراء بعد يباسها[1] ومحولها . وقد ذكر عن بعض أهل الحجاز أنها تصبح عقب المطر خضراء فالله أعلم وقوله (إن الله لطيف خبير) أى عليم بما فى أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر لا يخفى عليه خافية فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به كما قال لقمان (يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) وقال (ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض) وقال تعالى (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) وقال (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) ولهذا قال أمية بن أبى الصلت أو زيد بن عمرو بن نفيل فى قصيدته

وقولا له من ينبت الحب فى الثرى * فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه فى رءوسه * ففى ذاك آيات لمن كان واعيا

وقوله (له ما فى السموات وما فى الأرض) أى ملكه جميع الأشياء وهو غنى عما سواه وكل شىء فقير إليه عبد لديه وقوله (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض) أى من حيوان وجماد وزروع وثمار كما قال (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه) أى من إحسانه وفضله وامتنانه (والفلك تجرى فى البحر بأمره) أى بتسخيره وتسييره أى فى البحر العجاج وتلاطم الأمواج تجرى الفلك بأهلها بريح طيبة ورفق وتؤدة فيحملون فيها ما شاءوا من تجائر وبضائع ومنافع من بلد إلى بلد وقطر إلى قطر ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك مما يحتاجون إليه ويطلبونه ويريدونه (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) أى لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الارض فهلك من فيها ، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ولهذا قال (إن الله بالناس لرءوف رحيم) أى مع ظلمهم كما قال فى الآية الأخرى (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب) ، وقوله (وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور) كقوله (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون) وقوله (قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه) وقوله (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) ومعنى الكلام كيف تجعلون لله أندادا وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف (وهو الذى أحياكم) أى خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئا يذكر فأوجدكم (ثم يميتكم ثم يحييكم) أى يوم القيامة (إن الإنسان لكفور) أى جحود

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ * وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكا ، قال ابن جرير يعنى لكل أمة نبى منسكا قال : وأصل المنسك فى كلام العرب هو الموضع الذى يعتاده الإنسان ويتردد إليه إما لخير أو شر قال ولهذا سميت مناسك الحج بذلك لتردد الناس إليها

(١) المناسب يبسها لأنه يقال أرض يباس أى يابسة

وعكفوهم عليها ، فان كان كما قال من أن المراد لكل أمة نبي جعلنا منسكا فيكون المراد بقوله فلا ينازعنك في الامر أى هؤلاء المشركون وإن كان المراد لكل أمة جعلنا منسكا جعلا قدريا كما قال (ولكل وجهة هو موليها) ولهذا قال ههنا (هم ناسكوه) أى فاعلوه فالضمير ههنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق أى هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته فلا تتأثر بمنازعتهم لك ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق ولهذا قال (وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم) أى طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود وهذه كقوله (ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك) . وقوله (وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون) كقوله (وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) وقوله (الله أعلم بما تعملون) تهديد شديد ووعيد أكيد كقوله (هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم) ولهذا قال (الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) وهذه كقوله تعالى (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب) الآية

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه وأنه محيط بما في السموات وما في الارض فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء » وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال « أول ما خلق الله القلم قال له اكتب قال وما أكتب ؟ قال اكتب ما هو كائن فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا ابن بكير حدثني ابن لهيعة حدثني عطاء بن دينار حدثني سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام ، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش تبارك وتعالى اكتب فقال القلم وما أكتب قال علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة فذلك قوله للنبي ﷺ (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض) وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها وقدرها وكتبها أيضاً فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك على الوجه الذي يفعلونه فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره وهذا يعصى باختياره وكتب ذلك عنده وأحاط بكل شىء علما وهو سهل عليه يسير لديه ولهذا قال تعالى (إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير)

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطانا يعني حجة وبرهانا كقوله (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون) ولهذا قال ههنا (ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم) أى ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم ولهذا توعدهم تعالى بقوله (وما للظالمين من نصير) أى من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال ثم قال (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) أى وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله وأنه لا إله إلا هو وأن رسله الكرام حق وصدق (يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) أى يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل

الصحيحة من القرآن ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء (قل) أي يا محمد لهؤلاء (أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا) أي النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا ، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم إن نلتم بزعمكم وإرادتكم . وقوله (وبئس المصير) أي وبئس النار مقيلا ومنزلا ومرجعا وموئلا ومقاما (إنها ساءت مستقراً ومقاما)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

يقول تعالى منبها على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها (يا أيها الناس ضرب مثل) أي لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به (فاستمعوا له) أي أنصتوا وتفهموا (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له) أي لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك كما قال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا شريك عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة مرفوعاً قال « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا مثل خلقي ذرة أو ذبابة أو حبة » وأخرجه صاحبا الصحيح من طريق عمارة عن أبي زرعة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « قال الله عزوجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة) ثم قال تعالى أيضا (وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه) أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئا من الذي عليها من الطيب ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك ، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا قال (ضعف الطالب والمطلوب) قال ابن عباس : الطالب الصنم والمطلوب الذباب واختاره ابن جرير وهو ظاهر السياق وقال السدي وغيره: الطالب العابد والمطلوب الصنم ثم قال (ما قدروا الله حق قدره) أي ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لاتقاوم الذباب لضعفها وعجزها (إن الله لقوي عزيز) أي هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) (إن بطش ربك لشديد إنه هو يبدىء ويعيد) (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) وقوله (عزيز) أي قد عز كل شيء فقهره وغلبه فلا ممانع ولا يغالب لعظمته وسلطانه وهو الواحد القهار .

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلا فيما يشاء من شرعه وقدره ومن الناس لإبلاغ رسالته (إن الله سميع بصير) أي سميع لأقوال عباده بصير بهم عليم بمن يستحق ذلك منهم كما قال (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقوله (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور) أي يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به فلا يخفى عليه شيء من أمورهم كما قال (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا — إلى قوله — وأحصى كل شيء عددا) فهو سبحانه رقيب عليهم شهيد على ما يقال لهم حافظ لهم ناصر لجنابهم (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) الآية

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي

ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾

اختلف الأئمة رحمهم الله فى هذه السجدة الثانية من سورة الحج هل هى مشروع السجود فيها أم لا ؟ على قولين وقد قدمنا عند الأولى حديث عقبة بن عامر عن النبى ﷺ « فضلت سورة الحج بسجدتين فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما » وقوله (وجاهدوا فى الله حق جهاده) أى بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم كما قال تعالى (اتقوا الله حق تقاته) وقوله (هو اجتباكم) أى يا هذه الأمة الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول وأكمل شرع (وماجعل عليكم فى الدين من حرج) أى ما كلفكم مالا تطيقون وماألزمكم بشىء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجا ومخرجا ، فالصلاة التى هى أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب فى الحضر أربعاً وفى السفر تقصر إلى اثنتين وفى الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة كما ورد به الحديث وتصلى رجالا وركبانا مستقبلى القبلة وغير مستقبليها وكذا فى النافلة فى السفر إلى القبلة وغيرها والقيام فيها يسقط لعذر المرض فيصليها المريض جالسا فان لم يستطع فعلى جنبه إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات فى سائر الفرائض والواجبات ولهذا قال عليه السلام « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال لمعاذ وأبى موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن « بشرا ولاتنفرا ويسرا ولا تعسرا » والأحاديث فى هذا كثيرة ولهذا قال ابن عباس فى قوله (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) يعنى من ضيق وقوله (ملة أبيكم إبراهيم) قال ابن جرير نصب على تقدير (ما جعل عليكم فى الدين من حرج) أى من ضيق بل وسعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم ، قال ويحتمل أنه منصوب على تقدير الزموا ملة أبيكم إبراهيم ﴿ قلت ﴾ وهذا المعنى فى هذه الآية كقوله (قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا) الآية وقوله (هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا) قال الإمام عبد الله بن المبارك عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس فى قوله (هو سماكم المسلمين من قبل) قال الله عزوجل. وكذا قال مجاهد وعطاء والضحاك والسدى ومقاتل بن حيان وقتادة وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم (هو سماكم المسلمين من قبل) يعنى إبراهيم وذلك لقوله (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) قال ابن جرير وهذا لاوجه له لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسم هذه الأمة فى القرآن مسلمين وقد قال الله تعالى (هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا) قال مجاهد : الله سماكم المسلمين من قبل فى الكتب المتقدمة وفى الذكر (وفى هذا) يعنى القرآن وكذا قال غيره ﴿ قلت ﴾ وهذا هو الصواب لأنه تعالى قال (هو اجتباكم وماجعل عليكم فى الدين من حرج) ثم حثهم وأغراهم على ماجاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوه به من ذكرها والثناء عليها فى سالف الدهر وقديم الزمان فى كتب الأنبياء يتلى على الأحبار والرهبان فقال (هو سماكم المسلمين من قبل) أى من قبل هذا القرآن (وفى هذا) روى النسائى عند تفسير هذه الآية أنبأنا هشام بن عمار حدثنا محمد بن شعيب أنبأنا معاوية بن سلام أن أخاه زيد بن سلام أخبره عن أبى سلام أنه أخبره قال أخبرنى الحارث الأشعرى عن رسول الله ﷺ قال « من دعا بدعوى الجاهلية فانه من جثى جهنم » قال رجل يا رسول الله وإن صام وصلى قال « نعم وإن صام وصلى » فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله ، وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) من سورة البقرة ولهذا قال (ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس) أى إنما جعلناكم هكذا أمة وسطا عدولا خيارا مشهودا بعدالتكم عند جميع الأمم لتكونوا يوم القيامه (شهداء على الناس) لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة فى أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم

والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك وقد تقدم الكلام على هذا عندقوله (وكذلك جعلنا كم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) وذكرنا حديث نوح وأمته بما أغنى عن إعادته ، وقوله (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) أى قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها فأدوا حق الله عليكم فى أداء ما افترض وطاعة ما أوجب وترك ماحرم ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغنى من إخراج جزء نزر من ماله فى السنة للضعفاء والمحاويج كما تقدم بيانه وتفصيله فى آية الزكاة من سورة التوبة وقوله (واعتصموا بالله) أى اعتضدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأيدوا به (هو مولاكم) أى حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم (فنعم المولى ونعم النصير) يعنى نعم الولى ونعم الناصر من الأعداء، قال وهيب بن الورد يقول الله تعالى : ابن آدم اذكرنى إذا غضبت أذكرك إذا غضبت فلا أمحقك فيمن أمحق ، وإذا ظلمت فاصبر وارض بنصرتى فان نصرتى لك خير من نصرتك لنفسك . رواه ابن أبى حاتم والله أعلم. آخر تفسير سورة الحج ولله الحمد والمنة

﴿ تفسير سورة المؤمنون مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنى يونس بن سليم قال أملى على يونس بن يزيد الأيلى عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عبد القارى قال سمعت عمر بن الخطاب يقول كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال « اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وأرضنا — ثم قال — لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة » ثم قرأ (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العشر ، ورواه الترمذى فى تفسيره والنسائى فى الصلاة من حديث عبد الرزاق به ، وقال الترمذى منكر لانعرف أحدا رواه غير يونس بن سليم ويونس لانعرفه ، وقال النسائى فى تفسيره أنبأنا قتيبة بن سعيد حدثنا جعفر عن أبى عمران عن يزيد بن بابنوس قال قلنا لعائشة أم المؤمنين كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن فقرأت (قد أفلح المؤمنون — حتى انتهت إلى — والذين هم على صلواتهم يحافظون) قالت هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وأبى العالية وغيرهم لما خلق الله جنة عدن وغرسها بيده نظر اليها وقال لها تكلمى فقالت (قد أفلح المؤمنون) قال كعب الأحبار لما أعدلهم من الكرامة فيها وقال أبو العالية فأنزل الله ذلك فى كتابه ، وقد روى ذلك عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا فقال أبوبكر البزار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا المغيرة بن مسلمة حدثنا وهيب عن الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد قال خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وغرسها وقال لها تكلمى فقالت (قد أفلح المؤمنون) فدخلتها الملائكة فقالت طوبى لك منزل الملوك ، ثم قال وحدثنا بشر بن آدم وحدثنا يونس بن عبيد الله العمرى حدثنا عدى بن الفضل حدثنا الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال « خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك — قال البزار ورأيت فى موضع آخر فى هذا الحديث —

حائط الجنـــة لبنة ذهب ولبنة فضه وملاطها المسك . فقال لها تـكلمى فقالت (قـــد أفلح المؤمنون) فقالت الملائـكة طوبى لك منزل الملوك » ثم قال البزار لانعلـم أحـداً رفعه إلا عدى بن الفضل وليس هو بالحافظ وهو شيخ متقدم الموت ، وقال الحافظ أبوالقاسم الطبرانى حدثنا أحمدبن على حدثنا هشام بن خالد حدثنا بقية عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم « لمـا خلق الله جنة عدن خلق فيها مالا عين رأت ولاأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم قال لهـا تـكلمى فقالت (قد أفلح المؤمنون) » بقية عن الحجازيين ضعيف ، وقال الطبرانى حدثنا محمدبن عثمان بن أبى شيبة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا حماد بن عيسى العبسى عن إسماعيل السـدى عن أبى صالح عن ابن عباس يرفعه « لما خلق الله جنة عدن بيده ودلى فيها ثمارها وشق فيها أنهارها ثم نظر اليها فقال (قد أفلح المؤمنون) قال وعزتى وجلالى لايجاورنى فيك بخيل » وقال أبوبكر بن أبى الدنيا حدثنا محمدبن المثنى البزار حدثنا محمد بن زياد الـكلبى حدثنا يعيش بن حسين عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسـول الله ﷺ « خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجدة خضراء ملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ وحشيشها الزعفران ثم قال لهـا انطقى قالت (قد أفلح المؤمنون) فقال الله وعزتى وجلالى لايجاورنى فيك بخيل » ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسـلم (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)

وقوله تعالى (قد أفلح المؤمنون) أى قد فازوا وسعدوا وحصـلوا على الفلاح وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف (الذين هم فى صـلاتهم خاشعون) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (خاشـعون) خائفون ساكنون وكذا روى عن مجاهـد والحسن وقتادة والزهرى ، وعن على بن أبى طالب رضى الله عنـه الخشوع خشوع القلب وكذا قال إبراهـيم النخعى ، وقال الحسن البصرى كان خشوعهم فى قلوبهـم فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجناح ، وقال محمد بن سيرين كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة فلما نزلت هذه الآية (قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون) خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم ، قال محمد بن سيرين وكانوا يقولون لايجاوز بصره مصـلاه فإن كان قد اعتاد النظر فليغمض ، رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، ثم روى ابن جرير عنـه وعن عطاء بن أبى رباح أيضا مرسـلا أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم كان يفعل ذلك حتى نزلت هذه الآية ، والخشوع فى الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لهـا واشتغل بها عما عداها وآثرها على غـيرها وحينئذ تـكون راحة له وقرة عـين كما قال النبى ﷺ فى الحديث الذى رواه الإمام أحمـد والنسائى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « حبب إلىّ الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصـلاة » وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا مسعر عن عمرو بن مرة عن سالم بن أبى الجعد عن رجل من أسلم أن رسول الله ﷺ قال يابلال « أرحنا بالصـلاة » وقال الإمام أحمد أيضاً ثنا عبد الرحمن بن مهدى ثنا إسرائيل عن عثمان بن المغـيرة عن سالم بن أبى الجعد أن محمد بن الحنفية قال دخلت مع أبى على صهر لنا من الأنصار فحضرت الصلاة فقال ياجارية ائتنى بوضوء لعلى أصـلى فأسـتريح ، فرآنا أنـكرنا عليه ذلك فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « قم يابلال فأرحنا بالصـلاة » ، وقوله (والذين هم عن اللغو معرضون) أى عن الباطل وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم والمعاصى كما قاله آخرون ومالا فائدة فيـه من الأقوال والأفعال كما قال تعالى (وإذا مروا باللغو مروا كراما) قال قتادة : أتاهم والله من أمر الله ماوقفهم عن ذلك . وقوله (والذين هم للزكاة فاعلون) الأكثرون على أن المراد بالزكاة ههنا زكاة الأموال مع أن هذه الآية مكية وإنما فرضت الزكاة بالمدينة فى سـنة اثنتين من الهجرة ، والظاهر أن التى

فرضت بالمدينة إنما هى ذات النصب والمقادير الخاصة وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة قال تعالى فى سورة الأنعام وهى مكية (وآتوا حقه يوم حصاده) وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا زكاة النفس من الشرك والدنس كقوله (قد أفلح من زكاها* وقد خاب من دساها) وكقوله (وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة) على أحد القولين فى تفسيرها وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال فانه من جملة زكاة النفوس والمؤمن الكامل هو الذى يفعل هذا وهذا والله أعلم . وقوله (والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أوماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) أى والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلايقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط ، لايقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم أو ماملكت أيمانهم من السرارى ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج ولهذا قال (فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك) أى غير الأزواج والإماء (فأولئك هم العادون) أى المعتدون . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الأعلى حدثنا سعيد عن قتادة أن امرأة اتخذت مملوكها وقالت تأولت آية من كتاب الله (أوماملكت أيمانهم) فأتى بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال له ناس من أصحاب النبى ﷺ : تأولت آية من كتاب الله عزوجل على غير وجهها قال فضرب العبد وجز رأسه وقال أنت بعده حرام على كل مسلم . هذا أثر غريب منقطع ذكره ابن جرير فى تفسير أول سورة المائدة وهو ههنا أليق ، وإنما حرمها على الرجال معاملة لها بنقيض قصدها والله أعلم . وقد استدل الإمام الشافعى رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة (والذين هم لفروجهم حافظون* إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم) قال فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين وقد قال الله تعالى (فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عرفة فى جزئه المشهور حيث قال : حدثنى على بن ثابت الجزرى عن مسلمة بن جعفر عن حسان بن حميد عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال « سبعة لاينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع العاملين ويدخلهم النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا ومن تاب تاب الله عليه : الناكح يده ، والفاعل والمفعول به ، ومدمن الخمر ، والضارب والديه حتى يستغيثا ، والمؤذى جيرانه حتى يلعنوه ، والناكح حليلة جاره » هذا حديث غريب وإسناده فيه من لا يعرف لجهالته والله أعلم . وقوله (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) أى إذا اؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها . وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » وقوله (والذين هم على صلواتهم يحافظون) أى يواظبون عليها فى مواقيتها كما قال ابن مسعود سألت رسول الله ﷺ فقلت يارسول الله أى العمل أحب إلى الله ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت ثم أى ؟ قال « بر الوالدين » قلت ثم أى ؟ قال « الجهاد فى سبيل الله » أخرجاه فى الصحيحين . وفى مستدرك الحاكم قال « الصلاة فى أول وقتها » وقال ابن مسعود ومسروق فى قوله (والذين هم على صلواتهم يحافظون) يعنى مواقيت الصلاة ، وكذا قال أبو الضحى وعلقمة بن قيس وسعيد بن جبير وعكرمة ، وقال قتادة على مواقيتها وركوعها وسجودها وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها كما قال رسول الله ﷺ « استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) وثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فانه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة . وفوقه عرش الرحمن » ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « مامنكم من أحد إلا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار ، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله (أولئك هم الوارثون) » وقال ابن جريج عن الليث عن مجاهد (أولئك هم الوارثون) قال مامن عبد إلا وله منزلان منزل فى الجنة ومنزل فى النار ،

فأما المؤمن فيبنى بيته الذى فى الجنة ويهدم بيته الذى فى النار ، وأما الكافر فيهدم بيته الذى فى الجنة ويبنى بيته الذى فى النار . وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لاشريك له ، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل بل أبلغ من هذا أيضاً وهو ماثبت فى صحيح مسلم عن أبى بردة عن أبى موسى عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم ﷺ قال : « يجىء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى » وفى لفظ له قال رسول الله ﷺ « إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقال هذا فكاكك من النار» فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبابردة بالله الذى لا إله إلاهو ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قال فحلف له ، قلت وهذه الآية كقوله تعالى (تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا) وكقوله (وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون) وقد قال مجاهد وسعيد بن جبير الجنة بالرومية هى الفردوس ، وقال بعض السلف لا يسمى البستان الفردوس إلا إذا كان فيه عنب فالله أعلم

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَٰماً فَكَسَوْنَا الْعِظَٰمَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقاً ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَٰلِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون وقال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن أبى يحيى عن ابن عباس (من سلالة من طين) قال من صفوة الماء وقال مجاهد: من سلالة أى من منى بنى آدم ، وقال ابن جرير إنما سمى آدم طيناً لأنه مخلوق منه . وقال قتادة استل آدم من الطين وهذا أظهر فى المعنى وأقرب إلى السياق فان آدم عليه السلام خلق من طين لازب وهو الصلصال من الحمإ المسنون وذلك مخلوق من التراب كما قال تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) وقال الإمام أحمد حدثنا يحى بن سعيد حدثنا عوف حدثنا أسامة بن زهير عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب وبين ذلك » وقد رواه أبو داود والترمذى من طرق عن عوف الأعرابى به نحوه وقال الترمذى حسن صحيح (ثم جعلناه نطفة) هذا الضمير عائد على جنس الإنسان كما قال فى الآية الأخرى (وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) أى ضعيف كما قال (ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين) يعنى الرحم معد لذلك مهيأ له (إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون) أى مدة معلومة وأجل معين حتى استحكم وتنقل من حال إلى حال وصفة إلى صفة ولهذا قال ههنا (ثم خلقنا النطفة علقة) أى ثم صيرنا النطفة وهى الماء الدافق الذى يخرج من صلب الرجل وهو ظهره وترائب المرأة وهى عظام صدرها مابين الترقوة إلى السرة فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة قال عكرمة وهى دم (فخلقنا العلقة مضغة) وهى قطعة كالبضعة من اللحم لاشكل فيها ولا تخطيط (فخلقنا المضغة عظاما) يعنى شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها . وقرأ آخرون (فخلقنا المضغة عظما) قال ابن عباس وهو عظم الصلب وفى الصحيح من حديث أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل جسد ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب » (فكسونا العظام لحماً) أى جعلنا على ذلك مايستره ويشده ويقويه (ثم أنشأناه خلقا آخر) أى ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقا آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة

واضطراب (فتبارك الله أحسن الخالقين) ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا جعفر بن مسافر حدثنا يحيي بن حسان حدثنا النضر يعنى ابن كثير مولى بنى هاشم حدثنا زيد بن على عن أبيه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : إذا أتت على النطفة أربعة أشهر بعث الله إليها ملكا فنفخ فيها الروح فى ظلمات ثلاث فذلك قوله (ثم أنشأناه خلقاً آخر) يعنى نفخنا فيه الروح ، وروى عن أبى سعيد الخدرى أنه نفخ الروح قال ابن عباس (ثم أنشأناه خلقاً آخر) يعنى فنفخنا فيه الروح ، وكذا قال مجاهد وعكرمة والشعبي والحسن وأبو العالية والضحاك والربيع بن أنس والسدى وابن زيد واختاره ابن جرير ، وقال العوفى عن ابن عباس (ثم أنشأناه خلقا آخر) يعنى ننقله من حال إلى حال إلى أن خرج طفلا ثم نشأ صغيرا ثم احتلم ثم صار شابا ثم كهلا ثم شيخا ثم هرما . وعن قتادة والضحاك نحو ذلك ولا منافاة فانه من ابتداء نفخ الروح فيه شرع فى هذه التنقلات والأحوال والله أعلم ، قال الإمام أحمد فى مسنده حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله - هو ابن مسعود رضى الله عنه - قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق « إن أحدكم ليجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما[1] ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : رزقه أجله وعمله وهل هو شقى أو سعيد ، فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها » أخرجاه من حديث سليمان بن مهران الأعمش وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى خيثمة قال : قال عبد الله - يعنى ابن مسعود - إن النطفة إذا وقعت فى الرحم طارت فى كل شعر وظفر فتمكث أربعين يوما ثم تنحدر فى الرحم فتكون علقة . وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا حسين بن الحسن حدثنا أبو كدينة عن عطاء بن السائب عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله قال : مر يهودى برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه فقالت قريش يا يهودى إن هذا يزعم أنه نبى فقال لأسألنه عن شىء لا يعلمه إلا نبى قال فجاءه حتى جلس فقال يا محمد مم يخلق الإنسان ؟ فقال « يا يهودى من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة ، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب ، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم » فقال هكذا كان يقول من قبلك. وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان بن عمرو عن أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين ليلة فيقول يا رب ماذا ؟ شقى أم سعيد أذكر أم أنثى ؟ فيقول الله فيكتبان ويكتب عمله وأثره ومصيبته ورزقه ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد على ما فيها ولا ينقص» وقد رواه مسلم فى صحيحه من حديث سفيان بن عيينة عن عمرو هو ابن دينار به نحوه، ومن طريق أخرى عن أبى الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد عن أبى شريحة الغفارى بنحوه والله أعلم : وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد بن عبدة حدثنا حماد بن زيد حدثنا عبيد الله بن أبى بكر عن أنس أن رسول الله ﷺ قال « إن الله وكل بالرحم ملكا فيقول :أى رب نطفة أى رب علقة أى رب مضغة فإذا أراد الله خلقها قال أى رب ذكر أو أنثى ؟ شقى أو سعيد؟ فما الرزق والأجل ؟ قال فذلك يكتب فى بطن أمه » أخرجاه فى الصحيحين من حديث حماد بن زيد به وقوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) يعنى حين ذكر قدرته ولطفه فى خلق هذه النطفة من حال إلى حال وشكل إلى شكل حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوى الكامل الخلق قال (فتبارك الله أحسن الخالقين) قال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود حدثنا حماد بن سلمة حدثنا على بن زيد عن أنس قال: قال عمر يعنى ابن الخطاب رضى الله عنه وافقت ربى فى أربع نزلت هذه الآية (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) الآية قلت أنا فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت (فتبارك الله أحسن الخالقين) وقال أيضاً حدثنا أبى حدثنا آدم ابن أبى إياس حدثنا شيبان عن جابر الجعفى عن عامر الشعبى عن زيد بن ثابت الأنصارى قال أملى على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة

(١) زاد فى بعض الروايات : نطفة

من طين — إلى قوله — خلقنا آخر) فقال معاذ (فتبارك الله أحسن الخالقين) فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له معاذ مم تضحك يا رسول الله ؟ فقال « بها ختمت فتبارك الله أحسن الخالقين » وفي إسناده جابر بن زيد الجعفي ضعيف جدا وفي خبره هذا نكارة شديدة وذلك أن هذه السورة مكية وزيد بن ثابت إنما كتب الوحي بالمدينة وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً فالله أعلم . وقوله (ثم إنكم بعد ذلك لميتون) يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) يعني النشأة الآخرة (ثم الله ينشيء النشأة الآخرة) يعني يوم المعاد . وقيام الأرواح إلى الأجساد ، فيحاسب الخلائق ويوفى كل عامل عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾

لما ذكر تعالى خلق الإنسان عطف بذكر خلق السموات السبع ، وكثير ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان كما قال تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وهكذا في أول الم السجدة التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة في أولها خلق السموات والأرض ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين وفيها أمر المعاد والجزاء وغير ذلك من المقاصد . وقوله (سبع طرائق) قال مجاهد يعني السموات السبع وهذه كقوله تعالى (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا) (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) وهكذا قال ههنا (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين) أي ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ، وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ولا أرض أرضا ، ولا جبل إلا يعلم ما في وعره ، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره ، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ * فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء بقدر أي بحسب الحاجة لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ولا قليلا فلا يكفي الزروع والثمار بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتمل دمنتها إنزال المطر عليها يسوق إليها الماء من بلاد أخرى كما في أرض مصر ويقال لها الارض الجرز يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها فيأتي الماء يحمل طينا أحمر فيسقي أرض مصر ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه لان أرضهم سباخ يغلب عليها الرمال فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور ، وقوله (فأسكناه في الارض) أي جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الارض ، وجعلنا في الارض قابلية له وتشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى . وقوله (وإنا على ذهاب به لقادرون) أي لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا ولو شئنا أذى لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري والقفار لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه أجاجا لا ينتفع به لشرب ولا لسقي لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض بل ينجر على

وجهها لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالا فيسكنه فى الأرض ويسلكه ينابيع فى الأرض فيفتح العيون والأنهار ويسقى به الزروع والثمار تشربون منه ودوابكم وأنعامكم وتغتسلون منه وتتطهرون منه وتتنظفون فله الحمد والمنة . وقوله (فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب) يعنى فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أى بساتين وحدائق (ذات بهجة) أى ذات منظر حسن وقوله (من نخيل وأعناب) أى فيها نخيل وأعناب وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ولا فرق بين الشىء بين نظيره وكذلك فى حق كل أهل إقليم عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره ، وقوله (لكم فيها فواكه كثيرة) أى من جميع الثمار كما قال (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) وقوله (ومنها تأكلون) كأنه معطوف على شىء مقدر تقديره تنظرون إلى حسنه ونضجه ومنه تأكلون ، وقوله (وشجرة تخرج من طور سيناء) يعنى الزيتونة ، والطور هو الجبل وقال بعضهم إنما يسمى طورا إذا كان فيه شجر فان عرى عنها سمى جبلا لا طورا والله أعلم ، وطور سيناء هو طور سينين وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وما حوله من الجبال التى فيها شجر الزيتون ، وقوله (تنبت بالدهن) قال بعضهم الباء زائدة وتقديره تنبت الدهن كما فى قول العرب ألقى فلان بيده أى يده وأما على قول من يضمن الفعل فتقديره تخرج بالدهن أو تأتى بالدهن ولهذا قال (وصبغ) أى أدم قاله قتادة (للآكلين) أى فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ كما قال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن عبد الله بن عيسى عن عطاء الشامى عن أبى أسيد واسمه مالك ابن ربيعة الساعدى الأنصارى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كلوا الزيت وادهنوا به فانه من شجرة مباركة » وقال عبد بن حميد فى مسنده وتفسيره حدثنا عبد الرزاق أنا معمر عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ائتدموا بالزيت وادهنوا به فانه يخرج من شجرة مباركة » ورواه الترمذى وابن ماجه من غير وجه عن عبد الرزاق . قال الترمذى ولا يعرف إلا من حديثه وكان يضطرب فيه فربما ذكر فيه عمر وربما لم يذكره . قال أبو القاسم الطبرانى حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا أبى حدثنا سفيان بن عيينة حدثنى الصعب بن حكيم بن شريك بن نميلة عن أبيه عن جده قال ضفت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليلة عاشوراء فأطعمنى من رأس بعير بارد وأطعمنا زيتاً وقال هذا الزيت المبارك الذى قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وقوله (وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون) يذكر تعالى ما جعل لخلقه فى الأنعام من المنافع وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم ويأكلون من حملانها ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ويركبون ظهورها ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم كما قال تعالى (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم) وقال تعالى (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَآئِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله (فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون) أى ألا تخافون من الله فى إشراككم به ؟ فقال الملأ وهم السادة والأكابر منهم (ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم) يعنون يترفع عليكم ويتعاظم

بدعوى النبوة وهو بشر مثلكم فكيف أوحي إليه دونكم (ولو شاء الله لأنزل ملائكة) أي لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملكا من عنده ولم يكن بشراً ما سمعنا بهذا أي ببعثة البشر في آبائنا الأولين يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية ، وقوله (إن هو إلا رجل به جنة) أي مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم بالوحي (فتربصوا به حتى حين) أي انتظروا به ريب المنون واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه ليستنصره على قومه كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى (فدعا ربه أني مغلوب فانتصر) وقال ههنا (رب انصرني بما كذبون) فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها وأن يحمل فيهما من كل زوجين اثنين أي ذكرا وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك وأن يحمل فيها أهله (إلا من سبق عليه القول منهم) أي من سبق عليه القول من الله بالهلاك وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته والله أعلم ، وقوله (ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون) أي عند معاينة إنزال المطر العظيم لا تأخذنك رأفة بقومك وشفقة عليهم وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون فاني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان وقد تقدمت القصة مبسوطة في سورة هود بما يغني عن إعادة ذلك ههنا وقوله (فإذ استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين) كما قال (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون) وقد امتثل نوح عليه السلام هذا كما قال تعالى (وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها) فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه وقال تعالى (وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) وقوله (إن في ذلك لآيات) أي إن في هذا الصنيع وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين لآيات أي لحججا ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاءوا به عن الله تعالى وأنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شيء عليم بكل شيء وقوله (وإن كنا لمبتلين) أي لمختبرين للعباد بارسال المرسلين

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ

غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرنا آخرين قيل المراد بهم عاد فانهم كانوا مستخلفين بعدهم ، وقيل المراد بهؤلاء ثمود لقوله (فأخذتهم الصيحة بالحق) وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له فكذبوه وخالفوه وأبوا عن اتباعه لكونه بشراً مثلهم واستنكفوا عن اتباع رسول بشرى وكذبوا بلقاء الله فى القيامة وأنكروا المعاد الجثمانى وقالوا (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون) أى بعد بعد ذلك (إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا) أى فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والاخبار بالمعاد (وما نحن له بمؤمنين * قال رب انصرنى بما كذبون) أى استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم فأجاب دعاءه (قال عما قليل ليصبحن نادمين) أى بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به (فأخذتهم الصيحة بالحق) أى وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوى الباردة (تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) وقوله (فجعلناهم غثاء) أى صرعى هلكى كغثاء السيل وهو الشىء الحقير التافه الهالك الذى لا ينتفع بشىء منه (فبعداً للقوم الظالمين) كقوله (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) أى بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله ، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّمَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى (ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) أى أمما وخلائق (ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) يعنى بل يؤخذون على حسب ما قدر لهم تعالى فى كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل وخلفاً بعد سلف (ثم أرسلنا رسلنا تترى) قال ابن عباس يعنى يتبع بعضهم بعضا وهذا كقوله تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) وقوله (كلما جاء أمة رسولها كذبوه) يعنى جمهورهم وأكثرهم كقوله تعالى (يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) وقوله (فأتبعنا بعضهم بعضاً) أى أهلكناهم كقوله (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) وقوله (وجعلناهم أحاديث) أى أخباراً وأحاديث للناس كقوله (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق)

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام وأخاه هرون إلى فرعون وملائه بالآيات والحجج الدامغات والبراهين القاطعات وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والانقياد لأمرهما لكونهما بشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر تشابهت قلوبهم فأهلك الله فرعون وملأه وأغرقهم فى يوم واحد أجمعين وأنزل على موسى الكتاب وهو التوراة فيها أحكامه وأوامره ونواهيه وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقبط وأخذهم أخذ عزيز مقتدر وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين كما قال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) .

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله عيسى بن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء فانه خلق آدم من غير أب ولا أم وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى ، وقوله (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار معين) قال الضحاك عن ابن عباس :الربوة المكان المرتفع من الأرض وهو أحسن ما يكون فيه النبات وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة ، قال ابن عباس وقوله (ذات قرار) يقول ذات خصب (ومعين) يعني ماء ظاهراً وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وقال مجاهد ربوة مستوية ، وقال سعيد بن جبير (ذات قرار ومعين) استوى الماء فيها وقال مجاهد وقتادة (ومعين) الماء الجاري . ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة من أي أرض هي ؟ فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ليس الربى إلا بمصر والماء حين يسيل يكون الربى عليها القرى ولولا الربى غرقت القرى وروى عن وهب بن منبه نحو هذا وهو بعيد جدا وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب في قوله (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) قال هي دمشق قال وروى عن عبد الله بن سلام والحسن وزيد بن أسلم وخالد بن معدان نحو ذلك وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع عن إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس (ذات قرار ومعين) قال: أنهار دمشق وقال ليث ابن أبي سليم عن مجاهد وآويناهما إلى ربوة قال عيسى بن مريم وأمه حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها وقال عبد الرزاق عن بشر بن رافع عن أبي عبد الله بن عم أبي هريرة قال سمعت أبا هريرة يقول : في قول الله تعالى (إلى ربوة ذات قرار معين) قال هي الرملة من فلسطين ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابي حدثنا رواد بن الجراح حدثنا عباد بن عباد الخواص أبو عتبة حدثنا الشيباني عن ابن وعلة عن كريب السحولي عن مرة البهزي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لرجل « إنك تموت بالربوة » فمات بالرملة وهذا حديث غريب جداً وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله (وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) قال المعين الماء الجاري وهو النهر الذي قال الله تعالى (قد جعل ربك تحتك سريا) وكذا قال الضحاك وقتادة إلى ربوة ذات قرار ومعين هو بيت القدس فهذا والله أعلم هو الأظهر لأنه المذكور في الآية الأخرى والقرآن يفسر بعضه بعضاً وهذا أولى ما يفسر به ثم الأحاديث الصحيحة ثم الآثار

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۞ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۞ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۞ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۞ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال والقيام بالصالح من الأعمال فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام وجمعوا بين كل خير قولا وعملا ودلالة ونصحا فجزاهم الله عن العباد خيراً . قال الحسن البصري في قوله (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) قال أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم ولكن قال انتهوا إلى الحلال منه ، وقال سعيد بن جبير والضحاك (كلوا من الطيبات) يعني الحلال ، وقال أبو إسحق السبيعي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل كان عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه ، وفي الصحيح « وما من نبي إلا رعى الغنم » قالوا وأنت يا رسول الله ؟ قال « نعم وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » وفي الصحيح « إن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده » وفي الصحيحين « إن أحب الصيام إلى الله صيام داود وأحب القيام إلى الله قيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه

وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو اليمان الحكم ابن نافع حدثنا أبو بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب أن أم عبدالله بنت شداد بن أوس قال بعثت إلى النبي ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم وذلك في أول النهار وشدة الحر فرد إليها رسولها أنى كانت لك الشاة ؟ فقالت اشتريتها من مالي ، فشرب منه فلما كان من الغد أتته أم عبد الله بنت شداد فقالت يارسول الله بعثت إليك بلبن مرثية لك من طول النهار وشدة الحر فرددت إلى الرسول فيه ، فقال لها « بذلك أمرت الرسل أن لا تأكل إلا طيبا ولا تعمل إلا صالحا » وقد ثبت في صحيح مسلم وجامع الترمذي ومسند الإمام أحمد واللفظ له من حديث فضيل بن مرزوق عن عدي بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم) وقال (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام يمد يديه إلى السماء يارب يارب فأنى يستجاب لذلك » وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث فضيل بن مرزوق . وقوله (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) أي دينكم يامعشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ولهذا قال (وأنا ربكم فاتقون) وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأنبياء وأن قوله (أمة واحدة) منصوب على الحال وقوله (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا) أي الأمم الذين بعثت إليهم الأنبياء (كل حزب بما لديهم فرحون) أي يفرحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون ولهذا قال متهددا لهم ومتواعدا (فذرهم في غمرتهم) أي في غيهم وضلالهم (حتى حين) أي إلى حين حينهم وهلاكهم كما قال تعالى (فمهل الكافرين أمهلهم رويدا) وقال تعالى (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) وقوله (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) يعني أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا كلا ليس الأمر كما يزعمون في قولهم (نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجا وإنظارا وإملاء ولهذا قال (بل لا يشعرون) كما قال تعالى (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا) الآية . وقال تعالى (إنما نملي لهم ليزدادوا إثما) وقال تعالى (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملي لهم) الآية وقال ذرني ومن خلقت وحيدا — إلى قوله — عنيدا) وقال تعالى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا) الآية والآيات في هذا كثيرة ، قال قتادة في قوله (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) قال مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم ، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا أبان بن إسحق عن الصباح ابن محمد عن مرة الهمداني حدثنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه والذي نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه » قالوا وما بوائقه يارسول الله ؟ قال « غشمه وظلمه ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق به فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار إن الله لا يمحوا السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن إن الخبيث لا يمحو الخبيث »

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ * أُولَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾

يقول تعالى (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) أى هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكره بهم كما قال الحسن البصرى : إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة وإن المنافق جمع إساءة وأمناً (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) أى يؤمنون بآياته الكونية والشرعية كقوله تعالى إخبارا عن مريم عليها السلام (وصدقت بكلمات ربها وكتبه) أى أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه وإن كان نهيا فهو مما يكرهه ويأباه ، وإن كان خيرا فهو حق كما قال الله (والذين هم بربهم لا يشركون) أى لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأنه لا نظير له ولا كفء له : وقوله (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) أى يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشروط الاعطاء وهذا من باب الاشفاق والاحتياط كما قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم حدثنا مالك بن مغول حدثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة أنها قالت يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال « لا يا بنت أبى بكر يا بنت الصديق ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل » وهكذا رواه الترمذى وابن أبى حاتم من حديث مالك بن مغول به بنحوه ، وقال « لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم (أولئك يسارعون فى الخيرات) » وقال الترمذى : وروى هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد عن أبى حازم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحو هذا وهكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظى والحسن البصرى فى تفسير هذه الآية وقد قرأ آخرون هذه الآية (والذين يأتون ما أتوا وقلوبهم وجلة) أى يفعلون ما يفعلون وهم خائفون . وروى هذا مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قرأها كذلك . قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا صخر بن جويرية حدثنا إسماعيل المكى حدثنا أبو خلف مولى بنى جمح أنه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة رضى الله عنها فقالت مرحباً بأبى عاصم ما يمنعك أن تزورنا أو تلم بنا ؟ فقال أخشى أن أملك فقالت : ما كنت لتفعل ؟ قال جئت لأسألك عن آية من كتاب الله عز وجل كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ؟ قالت أية آية ؟ قال (الذين يؤتون ما آتوا) (والذين يأتون ما أتوا) فقالت أيتهما أحب إليك ؟ فقلت والذى نفسى بيده لأحدهما أحب إلى من الدنيا جميعاً أو الدنيا وما فيها قالت وما هى ؟ فقلت (الذين يأتون ما أتوا) فقالت أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها وكذلك أنزلت ولكن الهجاء حرف . فيه إسماعيل بن مسلم المكى وهو ضعيف ، والمعنى على القراءة الأولى وهى قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر ، لأنه قال (أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) فجعلهم من السابقين ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك أن لا يكونوا من السابقين بل من المقتصدين أو المقصرين والله أعلم

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله فى شرعه على عباده فى الدنيا أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها أى إلا ما تطيق حمله والقيام به وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التى كتبها عليهم فى كتاب مسطور لا يضيع منه شىء ولهذا قال (ولدينا كتاب ينطق بالحق) يعنى كتاب الأعمال (وهم لا يظلمون) أى لا يبخسون من الخير شيئاً ، وأما السيئات فيعفو

ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين ثم قال منكرا على الكفار والمشركين من قريش (بل قلوبهم فى غمرة) أى فى غفلة وضلالة من هذا أى القرآن الذى أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وقوله (ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون) قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس (ولهم أعمال) أى سيئة من دون ذلك يعنى الشرك (هم لها عاملون) قال لابد أن يعملوها كذا روى عن مجاهد والحسن وغير واحد، وقال آخرون (ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون) أى قد كتبت عليهم أعمال سيئة لابد أن يعملوها قبل موتهم لامحالة لتحق عليهم كلمة العذاب، وروى نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ظاهر قوى حسن، وقد قدمنا فى حديث ابن مسعود «فوالذى لا إله غيره إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» وقوله (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذاهم يجأرون) يعنى حتى إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون فى الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم (إذاهم يجأرون) أى يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى (ذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا إن لدينا أنكالا وجحيما) الآية وقال تعالى (وكم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص) وقوله (لاتجأروا اليوم إنكم منا لاتنصرون) أى لايجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتم أو سكتم لا محيد ولا مناص ولا وزر لزم الأمر ووجب العذاب ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال (قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون) أى إذا دعيتم أبيتم وإن طلبتم امتنعتم (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير) وقوله (مستكبرين به سامراً تهجرون) فى تفسيره قولان (أحدهما) أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه استكبارا عليه واحتقارا له ولأهله فعلى هذا الضمير فى به فيه ثلاثة أقوال (أحدها) أنه الحرم أى مكة ذموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام. (والثانى) أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: إنه سحر إنه شعر إنه كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة (والثالث) أنه محمد ﷺ كانوا يذكرونه فى سمرهم بالأقوال الفاسدة ويضربون له الأمثال الباطلة من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون فكل ذلك باطل بل هو عبد الله ورسوله الذى أظهره الله عليهم وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء وقيل المراد بقوله (مستكبرين به) أى بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به كما قال النسائى فى التفسير من سننه أخبرنا أحمد بن سليمان أخبرنا عبيدالله عن إسرائيل عن عبد الأعلى أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية (مستكبرين به سامراً تهجرون) فقال مستكبرين بالبيت يقولون نحن أهله سامرا قال كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولايعمرونه ويهجرونه وقد أطنب ابن أبى حاتم ههنا بماهذا حاصله

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

يقول تعالى منكرا على المشركين فى عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له وإعراضهم عنه مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذى لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف لا سيما آباؤهم الذين ماتوا فى الجاهلية حيث لم يبلغهم

كتاب ولا أتاهم نذير ، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم . وقال قتادة (أفلم يدبروا القول) إذاً والله يجدون في القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ولكنهم أخذوا بما تشابه فهلكوا عند ذلك . ثم قال منكرا على الكافرين من قريش (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) أي أنهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التي نشأ بها فيهم أي أفيقدرون على إنكار ذلك والمباهتة فيه ، ولهذا قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة : أيها الملك إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته ، وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته ، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا ، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك . وقوله (أم يقولون به جنة) يحكي قول المشركين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تقول القرآن أي افتراه من عنده أو أن به جنوناً لا يدري مايقول ، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن فإنه قد أتاهم من كلام الله مالا يطاق ولا يدافع وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين ولهذا قال (بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) يحتمل أن تكون هذه جملة حالية أي في حالة كراهة أكثرهم للحق ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة والله أعلم

وقال قتادة ذكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلا فقال له « أسلم » فقال الرجل إنك لتدعوني إلى امر أنا له كاره فقال نبي الله ﷺ « وإن كنت كارها » وذكر لنا أنه لقي رجلا فقال له « أسلم » فتصعده ذلك وكبر عليه فقال له نبي الله ﷺ « أرأيت لو كنت في طريق وعر وعث فلقيت رجلا تعرف وجهه وتعرف نسبه فدعاك إلى طريق واسع سهل أكنت تتبعه ؟ » قال نعم : قال « فو الذي نفس محمد بيده إنك لفي أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه وإني لأدعوك لأسهل من ذلك لو دعيت اليه » وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم لقي رجلا فقال له « أسلم » فتصعده ذلك فقال له نبي الله ﷺ « أرأيت لو كان لك فتيان أحدهما إذا حدثك صدقك ، وإذا ائتمنته أدى اليك أهو أحب اليك أم فتاك الذي إذا حدثك كذبك وإذا ائتمنته خانك ؟ » قال بل فتاي الذي إذا حدثني صدقني وإذا ائتمنته أدى إلي فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم « كذا كم أنتم عند ربكم » . وقوله (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) قال مجاهد وأبو صالح والسدي الحق هو الله عزوجل والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ومن فيهن أي لفساد أهوائهم واختلافها كما أخبر عنهم في قولهم (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ثم قال (أهم يقسمون رحمة ربك) وقال تعالى (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق) الآية ، وقال (أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا) ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم ، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدبيره لخلقه تعالى وتقدس فلا إله غيره ولا رب سواه ، ولهذا قال (بل أتيناهم بذكرهم) أي القرآن (فهم عن ذكرهم معرضون) وقوله (أم تسألهم خرجا) قال الحسن أجرا ، وقال قتادة جعلا (فخراج ربك خير) أي أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلا ولا شيئا على دعوتك إياهم إلى الهدى بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه كما قال (قل ماسألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله) وقال (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) وقال (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) وقال (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا) وقوله (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم * وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف ابن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه : اضرب مثل هذا ومثل أمته ، فقال : إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم

سفر انتهوا إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال أرأيتم إن أوردتكم رياضا معشبة وحياضا رواء تتبعوني ؟ فقالوا نعم ، قال فانطلق بهم وأوردهم رياضا معشبة وحياضا رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم ألم ألفكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعوني ؟ قالوا بلى ، قال فان بين أيديكم رياضا أعشب من هذه وحياضا هي أروى من هذه فاتبعوني قال فقالت طائفة صدق والله لنتبعنه وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا زهير حدثنا يونس بن محمد حدثنا يعقوب بن عبدالله الأشعري حدثنا حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «إني ممسك بحجزكم هلم عن النار هلم عن النار وتغلبوني تتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب فأوشك أن أرسل حجزكم وأنا فرطكم على الحوض فتردون على معا وأشتاتا أعرفكم بسيماكم وأسمائكم كما يعرف الرجل الغريب من الإبل في إبله فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال فأناشدفيكم رب العالمين أي رب قومي أي رب أمتي، فيقال يا محمد إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك إنهم كانوا يمشون بعدك القهقري على أعقابهم ، فلأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغت ، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعيرا له رغاء ينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت ، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرسا لها حمحمة فينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل سقاء من أدم ينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت » وقال علي بن المديني هذا حديث حسن الإسناد إلا أن حفص بن حميد مجهول لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الأشعري القمي (قلت) بل قد روى عنه أيضا أشعث بن إسحق ، وقال فيه يحيى بن معين : صالح ووثقه النسائي وابن حبان وقوله (وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون) أي لعادلون جائرون منحرفون تقول العرب نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها وقوله (ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون) يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم بأنه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انقادوا له ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم كما قال تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) وقال (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لما نهوا عنه — إلى قوله — بمبعوثين) فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون ، قال الضحاك عن ابن عباس : كل ما فيه (لو) فهو مما لا يكون أبدا

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ * قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

يقول تعالى (ولقد أخذناهم بالعذاب) أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد (فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) أي فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة بل استمروا على غيهم وضلالهم ما استكانوا أي ما خشعوا (وما يتضرعون) أي ما دعوا كما قال تعالى (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم) الآية ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن حمزة المروزي حدثنا علي بن الحسين حدثنا أبي عن يزيد — يعني النحوي — عن عكرمة

عن ابن عباس أنه قال جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز — يعنى الوبر والدم — فأنزل الله (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا) الآية ، وكذا رواه النسائى عن محمد ابن عقيل عن على بن الحسين عن أبيه به ، وأصله فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال « اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف » . وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا عبد الله بن إبراهيم عن عمر بن كيسان حدثنى وهب بن عمر بن كيسان قال : حبس وهب بن منبه فقال له رجل من الأبناء ألا أنشدك بيتا من شعر يا أبا عبد الله ؟ فقال وهب نحن فى طرف من عذاب الله والله يقول (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) قال وصام وهب ثلاثا متواصلة فقيل له ماهذا الصوم يا أبا عبد الله ؟ قال أحدث لنا فأحدثنا : يعنى أحدث لنا الحبس فأحدثنا زيادة عبادة : وقوله (حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون) أى حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون فعند ذلك أبلسوا من كل خير وأيسوا من كل راحة وانقطعت آمالهم ورجاؤهم : ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة وهى العقول والفهوم التى يذكرون بها الأشياء ويعتبرون بما فى الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله وأنه الفاعل المختار لما يشاء . وقوله (قليلا ما تشكرون) أى ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم كقوله (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر فى برئه الخليقة وذرئه لهم فى سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم ثم يوم القيامه يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم فلا يترك منهم صغيرا ولا كبيرا ولا ذكرا ولا أنثى ولا جليلا ولا حقيرا إلا أعاده كما بدأه ، ولهذا قال (وهو الذى يحيى ويميت أى يحيى الرمم ويميت الأمم (وله اختلاف الليل والنهار) أى وعن أمره تسخير الليل والنهار كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان بزمان غيرهما كقوله (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار) الآية . وقوله (أفلا تعقلون) أى أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذى قد قهر كل شىء وعز كل شىء ، وخضع له كل شىء ، ثم قال مخبرا عن منكرى البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين (بل قالوا مثل ما قال الأولون * قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) يعنى يستبعدون وقوع ذلك بعد صيروتهم إلى البلى (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ، إن هذا إلا أساطير الأولين) يعنون الاعادة محال إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلافهم وهذا الانكار والتكذيب منهم كقوله إخبارا عنهم (أئذا كنا عظاما نخرة * قالوا تلك إذا كرة خاسرة * فإنما هى زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة) وقال تعالى (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) الآيات

﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذى لا إله إلا هو ولا تنبغى العبادة إلا له وحده لاشريك له ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية وأنه لاشريك له فيها ومع هذا فقد أشركوا معه فى الإلهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئا ولا يملكون شيئا ولا يستبدون بشىء بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فقال (قل لمن الأرض ومن فيها ؟) أى من مالكها الذى خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات (إن كنتم تعلمون ؟

سيقولون لله) أى فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لاشريك له ، فاذا كان ذلك (قل أفلا تذكرون) أنه لاتنبغى العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟) أى من هو خالق العالم العلوى بما فيه من الكواكب النيرات والملائكة الخاضعين له فى سائر الأقطار منها والجهات ، ومن هو رب العرش العظيم يعنى الذى هو سقف المخلوقات كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على سمواته هكذا » وأشار بيده مثل القبة ، وفى الحديث الآخر « ما السموات السبع والأرضون السبع وما بينهن وما فيهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن الكرسى بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة فى تلك الفلاة » ولهذا قال بعض السلف : إن مسافة ما بين قطرى العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين ألف سنة ، وارتفاعها عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة ، وقال الضحاك عن ابن عباس : إنما سمى عرشاً لارتفاعه . وقال الأعمش عن كعب الأحبار : إن السموات والأرض فى العرش كالقنديل المعلق بين السماء والأرض ، وقال مجاهد : ما السموات والأرض فى العرش إلا كحلقة فى أرض فلاة . وقال ابن أبى حاتم حدثنا العلاء بن سالم حدثنا وكيع حدثنا سفيان الثورى عن عمار الدهنى عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : العرش لا يقدر قدره أحد : وفى رواية : إلا الله عز وجل ، وقال بعض السلف : العرش من ياقوتة حمراء ولهذا قال ههنا (ورب العرش العظيم) أى الكبير وقال فى آخر السورة (رب العرش الكريم) أى الحسن البهى فقد جمع العرش بين العظمة فى الاتساع والعلو والحسن الباهر ولهذا قال من قال إنه من ياقوتة حمراء ، وقال ابن مسعود . إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه . وقوله (سيقولون لله قل أفلا تتقون) أى إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه فى عبادتكم معه غيره وإشراككم به . قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا القرشى فى كتاب التفكر والاعتبار . حدثنا إسحق بن إبراهيم أنا عبيد الله بن جعفر أخبرنى عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدث عن امرأة كانت فى الجاهلية على رأس جبل معها ابن لها يرعى غنما فقال لها ابنها يا أمه من خلقك ؟ قالت الله قال فمن خلق أبى ؟ قالت الله قال فمن خلقنى ؟ قالت الله قال فمن خلق السموات ؟ قالت الله قال فمن خلق الأرض ؟ قالت الله قال فمن خلق الجبل ؟ قالت الله قال فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت الله قال فانى أسمع لله شأنا ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع . قال ابن عمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يحدثنا هذا الحديث ، قال عبد الله بن دينار كان ابن عمر كثيرا ما يحدثنا بهذا الحديث قلت فى إسناده عبيد الله ابن جعفر المدينى والد الإمام على بن المدينى وقد تكلموا فيه فالله أعلم . (قل من بيده ملكوت كل شىء) أى بيده الملك (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) أى متصرف فيها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا والذى نفسى بيده » وكان إذا اجتهد فى اليمين قال « لا ومقلب القلوب » فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف (وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون) كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يخفر فى جواره وليس لمن دونه أن يجير عليه لئلا يفتات عليه ولهذا قال الله (وهو يجير ولا يجار عليه) أى وهو السيد العظيم الذى لا أعظم منه الذى له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه الذى لا يمانع ولا يخالف وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن : وقال الله (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) أى لا يسئل عما يفعل لعظمته وكبريائه وغلبته وقهره وعزته وحكمته وعدله فالخلق كلهم يسئلون عن أعمالهم كما قال تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقوله (سيقولون لله) أى سيعترفون أن السيد العظيم الذى يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لاشريك له (قل فأنى تسحرون) أى فكيف تذهب عقولكم فى عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك ثم قال تعالى (بل أتيناهم بالحق) وهو الاعلام بأنه لا إله إلا الله وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك (وإنهم لكاذبون) أى فى عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك كما قال فى آخر السورة (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون) فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال ، وإنما يفعلون ذلك اتباعا لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال كما قال

الله عنهم (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون)

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك فى الملك والتصرف والعبادة فقال تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) أى لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود ، والشاهد أن الوجود منتظم متسق كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط بعضه ببعض فى غاية الكمال (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع وهو أنه لوفرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه فان لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين والواجب لا يكون عاجزاً ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالا فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكناً لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورا ، ولهذا قال تعالى (ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) أى عما يقول الظالمون المعتدون فى دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً (عالم الغيب والشهادة) أى يعلم مايغيب عن المخلوقات ومايشاهدونه (فتعالى عمايشركون) أى تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ * ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾

يقول تعالى آمرا نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم (رب إما تريني ما يوعدون) أى إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك فلا تجعلنى فيهم كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والترمذى وصححه « وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون » وقوله تعالى (وإنا على أن نريك مانعدهم لقادرون) أى لو شئنا لأريناك مانحل بهم من النقم والبلاء والمحن . ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع فى مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسىء إليه ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة فقال تعالى (ادفع بالتى هى أحسن السيئة) وهذا كما قال فى الآية الأخرى (ادفع بالتى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا) الآية أى وما يلهم هذه الوصية أو هذه الخصلة أو الصفة (إلا الذين صبروا) أى على أذى الناس فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيح (وما يلقاها إلا ذوحظ عظيم) أى فى الدنيا والآخرة وقوله تعالى (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين) أمره الله أن يستعيذ من الشياطين لأنهم لاتنفع معهم الحيل ولا ينقادون بالمعروف ، وقدقدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » وقوله تعالى (وأعوذ بك رب أن يحضرون) أى فى شىء من أمرى ولهذا أمر بذكر الله فى ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور ، ولهذا روى أبوداود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « اللهم إنى أعوذ بك من الهرم ، وأعوذ بك من الهدم ومن الغرق ، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت » وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن إسحق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان

رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع « باسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » قال فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها فى عنقه . ورواه أبو داود والترمذى والنسائى من حديث محمد بن إسحق وقال الترمذى حسن غريب

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين فى أمر الله تعالى وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده فى مدة حياته ولهذا قال (رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا) كما قال تعالى (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت - إلى قوله - والله خبير بما تعملون) وقال تعالى (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب — إلى قوله — مالكم من زوال) وقال تعالى (يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل) وقال تعالى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون) وقال تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا — إلى قوله — وإنهم لكاذبون) وقال تعالى (وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل) وقال تعالى (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) والآية بعدها . وقال تعالى (وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير) فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار ويوم النشور ووقت العرض على الجبار وحين يعرضون على النار وهم فى غمرات عذاب الجحيم . وقوله ههنا (كلا إنها كلمة هو قائلها) كلا حرف ردع وزجر أى لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه وقوله تعالى (إنها كلمة هو قائلها) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أى لابد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم ، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله كلا أى لأنها كلمة أى سؤاله الرجوع ليعمل صالحا هو كلام منه وقول لا عمل معه ولو رد لما عمل صالحا ولكان يكذب فى مقالته هذه كما قال تعالى (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) قال قتادة : والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ولا بأن يجمع الدنيا ويقضى الشهوات ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار ، وقال محمد بن كعب القرظى (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت) قال فيقول الجبار (كلا إنها كلمة هو قائلها) وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة : إذا قال الكافر رب ارجعون لعلى أعمل صالحا يقول الله تعالى : كلا كذبت ، وقال قتادة فى قوله تعالى (حتى إذا جاء أحدهم الموت) قال كان العلاء بن زياد يقول : لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى وقال قتادة : والله ما تمنى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله وعن محمد بن كعب القرظى نحوه وقال محمد بن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن يوسف حدثنا فضيل - يعنى ابن عياض - عن ليث عن طلحة بن مصرف عن أبى حازم عن أبى هريرة قال : إذا وضع - يعنى الكافر - فى قبره فيرى مقعده من النار قال : فيقول رب ارجعون أتوب وأعمل صالحا قال : فيقال قد عمرت ما كنت معمرا ، قال فيضيق عليه قبره ويلتئم فهو كالمنهوش ينام ويفزع تهوى إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها

وقال أيضاً حدثنا أبى حدثنا عمر بن على حدثنى سلمة بن تمام حدثنا على بن زيد عن سعيد بن المسيب عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ويل لأهل المعاصى من أهل القبور تدخل عليهم فى قبورهم حيات سود أودهم، حية عند رأسه

وحية عند رجليه يقرصانه حتى يلتقيا فى وسطه فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال الله تعالى (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) . وقال أبو صالح وغيره فى قوله تعالى (ومن ورائهم) يعنى أمامهم . وقال مجاهد : البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة . وقال محمد بن كعب : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم . وقال أبو صخر : البرزخ المقابر لا هم فى الدنيا ولا هم فى الآخرة فهم مقيمون إلى يوم يبعثون وفى قوله تعالى (ومن ورائهم برزخ) تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ كما قال تعالى (من ورائهم جهنم) وقال تعالى (ومن ورائه عذاب غليظ) وقوله تعالى (إلى يوم يبعثون) أى يستمر به العذاب إلى يوم البعث كما جاء فى الحديث «فلا يزال معذبا فيها» أى فى الأرض

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ * فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه إذا نفخ فى الصور نفخة النشور ، وقام الناس من القبور (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) أى لا تنفع الانسان يومئذ ولا يرثى والد لولده ولا يلوى عليه ، قال الله تعالى (ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم) أى لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره وهو كان أعز الناس عليه فى الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة قال الله تعالى (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه) الآية وقال ابن مسعود : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد : ألا من كان له مظلمة فليجئ فليأخذ حقه - قال فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا ، ومصداق ذلك فى كتاب الله قال الله تعالى فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) رواه ابن أبى حاتم

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا عبد الله بن جعفر حدثتنا أم بكر بنت المسور بن مخرمة عن عبيد الله بن أبى رافع عن المسور - هو ابن مخرمة - رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «فاطمة بضعة منى يغيظنى ما يغيظها وينشطنى ما ينشطها ، وإن الانساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبى وسببى وصهرى» وهذا الحديث له أصل فى الصحيحين عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال «فاطمة بضعة منى يريبنى ما يريبها ويؤذينى ما آذاها» وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عامر حدثنا زهير عن عبد الله بن محمد عن حمزة بن أبى سعيد الخدرى عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على هذا المنبر «ما بال رجال يقولون إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه ؟ بلى والله إن رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة وإنى أيها الناس فرط لكم إذا جئتم» قال رجل يا رسول الله أنا فلان بن فلان فأقول لهم : أما النسب فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدى وارتددتم القهقرى» وقد ذكرنا فى مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من طرق متعددة عنه رضى الله عنه أنه لما تزوج أم كلثوم بنت على بن أبى طالب رضى الله عنهما قال : أما والله ما بى إلا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «كل سبب ونسب فانه منقطع يوم القيامة إلا سببى ونسبى» رواه الطبرانى والبزار والهيثم بن كليب والبيهقى والحافظ الضياء فى المختارة وذكر أنه أصدقها أربعين ألفا عظاما وإكراما رضى الله عنه ، فقد روى الحافظ بن عساكر فى ترجمة أبى العاص ابن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ من طريق أبى القاسم البغوى حدثنا سليمان بن عمر بن الأقطع حدثنا إبراهيم بن عبد السلام عن إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عباد بن جعفر سمعت ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ «كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى» وروى فيها من طريق عمار بن سيف عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو مرفوعا «سألت ربى عز وجل أن لا أتزوج إلى أحد من أمتى ولا يتزوج

إلى أحد منهم إلا كان معى فى الجنة فأعطانى ذلك » ومن حديث عمار بن سيف عن إسماعيل عن عبد الله بن عمرو ، وقوله تعالى (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) أى من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة ، قاله ابن عباس (فأولئك هم المفلحون) أى الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة ، وقال ابن عباس : أولئك الذين فازوا بما طلبوا ، ونجوا من شر ما منه هربوا (ومن خفت موازينه) أى ثقلت سيئاته على حسناته (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) أى خابوا وهلكوا وباءوا بالصفقة الخاسرة ، وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا إسماعيل بن أبى الحارث حدثنا داود بن المحبر حدثنا صالح المرى عن ثابت البنانى وجعفر بن زيد ومنصور بن زاذان عن أنس بن مالك يرفعه قال : إن لله ملكا موكلا بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتى الميزان فان ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمعه الخلائق سعد فلان سعادة لايشقى بعدها أبداً ، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً : إسناده ضعيف فان داود بن المحبر ضعيف متروك ولهذا قال تعالى (فى جهنم خالدون) أى ماكثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون (تلفح وجوههم النار) كما قال تعالى (وتغشى وجوههم النار) وقال تعالى (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) الآية وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا فروة ابن أبى المغراء حدثنا محمد بن سليمان الأصبهانى عن أبى سنان ضرار بن مرة عن عبد الله بن أبى الهذيل عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « إن جهنم لما سيق لها أهلها تلقاهم لهبها ثم تلفحهم لفحة فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب » وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى القزاز حدثنا الخضر بن على بن يونس القطان حدثنا عمرو بن أبى الحارث بن الخضر القطان حدثنا سعيد بن سعيد المقبرى عن أخيه عن أبيه عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ فى قول الله تعالى (تلفح وجوههم النار) قال تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم ، وقوله تعالى (وهم فيها كالحون) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى عابسون ، وقال الثورى عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود (وهم فيها كالحون) قال ألم تر إلى الرأس المشيط الذى قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه . وقال الإمام أحمد رحمه الله أخبرنا على بن إسحاق أخبرنا عبد الله هو ابن المبارك رحمه الله أخبرنا سعيد بن يزيد عن أبى السمح عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال « (وهم فيها كالحون) - قال - تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه . وتسترخى شفته السفلى حتى تبلغ سرته » ورواه الترمذى عن سويد ابن نصر عن عبد الله بن المبارك به وقال حسن غريب

﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾

هذا تقريع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التى أوبقتهم فى ذلك فقال تعالى (ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون) أى قد أرسلت إليكم الرسل وأنزلت إليكم الكتب وأزلت شبهكم ولم يبق لكم حجة كما قال تعالى (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقال (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير — إلى قوله — فسحقاً لأصحاب السعير) ولهذا قالوا (ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين) أى قد قامت علينا الحجة ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها فضللنا عنها ولم نرزقها . ثم قالوا (ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون) أى اردنا إلى الدنيا فان عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة كما قال (فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل * — إلى قوله — فالحكم لله العلى الكبير) أى لاسبيل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون

﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ

خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾

هـذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار . يقول (اخسئوا فيها) أى امكثوا فيها ساغرين مهانين أذلاء (ولاتكلمون) أى لاتعودوا إلى سؤالكم هـذا فانه لاجواب لكم عندى قال العوفى عن ابن عباس (اخسئوا فيها ولا تكلمون) قال هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه :وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبدة بن سليمان المروزى حدثنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن أبى أيوب عن عبد الله بن عمرو قال : إن أهل جهنم يدعون مالكا فلايجيبهم أربعين عاما ثم يرد عليهم إنكم ماكثون قال هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك ، ثم يدعون ربهم فيقولون (ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون) قال فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم (اخسئوا فيها ولا تكلمون)قال فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة ، وما هو إلا الزفير والشهيق فى نارجهنم قال فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أو لها زفير وآخرها شهيق ، وقال ابن أبى حاتم أيضا حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل حدثنا أبو الزعراء قال : قال عبد الله بن مسعود إذا أراد الله تعالى أن لايخرج منهم أحدا يعنى من جهنم غير وجوههم وألوانهم فيجىء الرجل من المؤمنين فيشفع فيقول يا رب فيقول الله من عرف أحـداً فليخرجه فيجىء الرجل من المؤمنين فينظر فلا يعرف أحداً فيناديه الرجل يا فلان أنا فلان فيقول ماأعرفك قال فعندذلك يقولون (ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون) فعند ذلك يقول الله تعالى (اخسئوا فيها ولاتكلمون)فاذاقال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحد ، ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم فى الدنيا وماكانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه فقال تعالى (إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخريا) أى فسخرتم منهم فى دعائهم إياى وتضرعهم إلى (حتى أنسوكم ذكرى) أى حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتى وكنتم منهم تضحكون) أى من صنيعهم وعبادتهم كما قال تعالى (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون) أى يلمزونهم استهزاء ثم أخبر تعالى عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين فقال تعالى (إنى جزيتهم اليوم بمـا صبروا) أى على أذاكم لهم واستهزائكم بهم (أنهم هم الفائزون) أى جعلتهـم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْأَلِ الْعَادِّينَ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾

يقول تعالى منبها لهم على ما أضاعوه فى عمرهم القصير فى الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده ولو صبروا فى مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون (قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين) أى كم كانت إقامتكم فى الدنيا(قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين) أى الحاسبين (قال إن لبثتم إلا قليلا) أى مدة يسيرة على كل تقدير(لو أنكم كنتم تعلمون) أى لمـا آثرتم الفانى على الباقى ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السىء ولا استحققتم من الله سخطه فى تلك المدة اليسيرة فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا ، قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن الوزير حدثنا الوليد حدثنا صفوان عن أيفع بن عبد الكلاعى أنه سمعه يخطب الناس فقال : قال رسـول الله ﷺ « إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال يا أهل الجنة كم لبثتم فى الأرض

عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ـ قال ـ لنعم ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم رحمتي ورضواني وجنتي امكثوا فيها خالدين مخلدين ؟ ثم قال ياأهل النار كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فيقول بئس ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم ناري وسخطي امكثوا فيها خالدين مخلدين » وقوله تعالى: (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا) أي أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا ، وقيل للعبث أي لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل (وأنكم إلينا لا ترجعون) أي لا تعودون في الدار الآخرة كما قال تعالى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) يعني هملا ، وقوله (فتعالى الله الملك الحق) أي تقدس أن يخلق شيئا عبثا فانه الملك الحق المنزه عن ذلك (لا إله إلا هو رب العرش الكريم) فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ووصفه بأنه كريم أي حسن المنظر بهي الشكل كما قال تعالى (وأنبتنا فيها من كل زوج كريم) : قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا إسحق بن سليمان شيخ من أهل العراق أنبأنا شعيب ابن صفوان عن رجل من آل سعيد بن العاص قال : كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معادا ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر وشقي عبد أخرجه الله من رحمته وحرم جنة عرضها السموات والأرض ألم تعلموا أنه لا يؤمن عذاب الله غدا إلا من حذر هذا اليوم وخافه وباع نافدا بباق وقليلا بكثير وخوفا بأمان ، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين وسيكون من بعدكم الباقين حتى تردون إلى خير الوارثين ؟ ثم إنكم في كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل قد قضى نحبه وانقضى أجله حتى تغيبوه في صدع من الأرض في بطن صدع غير ممهد ولا موسد قد فارق الأحباب وباشر التراب ، ووجه الحساب ، مرتهن بعمله غني عما ترك فقير إلى ما قدم. فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواثيقه ونزول الموت بكم ، ثم جعل طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكى من حوله . وقال ابن أبي حاتم حدثنا يحيى بن نصير الخولاني ثنا ابن وهب أخبرني ابن لهيعة عن أبي هبيرة عن حسن بن عبد الله أن رجلا مصابا مر به عبد الله بن مسعود فقرأ في أذنه هذه الآية (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق) حتى ختم السورة فبرأ فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بماذا قرأت في أذنه ؟ » فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده لو أن رجلا موقنا قرأها على جبل لزال » وروى أبو نعيم من طريق خالد بن نزار عن سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبيه قال بعثنا رسول الله ﷺ في سرية وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) قال فقرأناها فغنمنا وسلمنا ، وقال ابن أبي حاتم أيضاً حدثنا إسحق بن وهب العلاف الواسطي حدثنا أبو المسيب سالم بن سلام حدثنا بكر بن حبيش عن نهشل بن سعيد عن الضحاك بن مزاحم عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا السفينة باسم الله الملك الحق ، وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ، باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم »

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ * وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

يقول تعالى متوعدا من أشرك به غيره وعبد معه سواه ومخبراً أن من أشرك بالله لا برهان له أي لا دليل له على قوله فقال تعالى (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به) وهذه جملة معترضة وجواب الشرط في قوله (فإنما حسابه عند ربه) أي الله يحاسبه على ذلك ، ثم أخبر (إنه لا يفلح الكافرون) أي لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاة. قال قتادة: ذكر

لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل « ما تعبد ؟ » قال أعبد الله وكذا وكذا حتى عد أصناما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فأيهم إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك ؟ » قال : الله عز وجل. قال «فأيهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها ؟ » قال الله عز وجل قال « فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه أم حسبت أن تغلب عليه » قال : أردت شكره بعبادة هؤلاء معه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعلمون ولا يعلمون » فقال الرجل بعد ما أسلم لقيت رجلا خصمني . هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى أبو عيسى الترمذى فى جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو ذلك . وقوله تعالى (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء ، فالغفر إذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس والرحمة معناها أن يسدده ويوفقه فى الأقوال والأفعال . آخر تفسير سورة المؤمنون .

﴿ تفسير سورة النور وهى مدنية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى هذه السورة أنزلناه ، فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفى مع ماعداها (وفرضناها) قال مجاهد وقتادة : أى بينا الحلال والحرام والأمر والنهى والحدود . وقال البخارى : ومن قرأ فرضناها يقول فرضناها عليكم وعلى من بعدكم (وأنزلنا فيها آيات بينات) أى مفسرات واضحات (لعلكم تذكرون) ثم قال تعالى (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) يعنى هذه الآية الكريمة فيها حكم الزانى فى الحد ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ، فإن الزانى لا يخلو إما أن يكون بكراً وهو الذى لم يتزوج ، أو محصنا وهو الذى قد وطىء فى نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل ، فأما إذا كان بكرا لم يتزوج فإن حده مائة جلدة كما فى الآية ويزاد على ذلك أن يغرب عاما عن بلده عند جمهور العلماء خلافا لأبى حنيفة رحمه الله فان عنده أن التغريب إلى رأى الإمام إن شاء غرب وإن شاء لم يغرب ، وحجة الجمهور فى ذلك ماثبت فى الصحيحين من رواية الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى فى الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما : يا رسول الله إن ابنى هذا كان عسيفا — يعنى أجيرا — على هذا فزنى بامرأته فافتديت ابنى منه بمائة شاة ووليدة فسألت أهل العلم فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا : الرجم . فقال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى . الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام. واغد يا أنيس — لرجل من أسلم — إلى امرأة هذا فان اعترفت فارجمها » فغدا عليها فاعترفت فرجمها : وفى هذا دلالة على تغريب الزانى مع جلد مائة إذا كان بكرا لم يتزوج ، فأما إذا كان محصنا وهو الذى قد وطىء فى نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل فانه يرجم كما قال الإمام مالك حدثنى ابن شهاب أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود أن ابن عباس أخبره أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس فان الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل لا نجد آية الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله . فالرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال ومن النساء ، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف . أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك مطولا ، وهذه قطعة منه فيها مقصودنا ههنا وروى الإمام أحمد عن هشيم عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس حدثنى عبد الرحمن بن عوف أن عمر

ابن الخطاب خطب الناس فسمعته يقول : ألا وإن ناسا يقولون ما الرجم فى كتاب الله وإنما فيه الجلد وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ولولا أن يقول قائل أو يتكلم متكلم أن عمر زاد فى كتاب الله ما ليس منه لأثبتها كما نزلت . وأخرجه النسائى من حديث عبيد الله بن عبدالله به ، وقد روى الإمام أحمد أيضا عن هشيم عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال خطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فذكر الرجم فقال إنا لانجد من الرجم بداً فإنه حد من حدود الله تعالى ، ألا وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رجم ورجمنا بعده ، ولولا أن يقول قائلون إن عمر زاد فى كتاب الله ما ليس فيه لكتبت فى ناحية من المصحف ، وشهد عمر بن الخطاب وعبد الرحمن ابن عوف وفلان وفلان أن رسول الله ﷺ قد رجم ورجمنا بعده ، ألا إنه سيكون قوم من بعدكم يكذبون بالرجم وبالشفاعة وبعذاب القبر وبقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا . وروى أحمد أيضا عن يحيى القطان عن يحيى الأنصارى عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب « إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم » الحديث رواه الترمذى من حديث سعيد عن عمر وقال صحيح وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا عبيد الله بن عمر القواريرى حدثنا يزيد بن زريع حدثنا أبو عون عن محمد هو ابن سيرين قال ابن عمر نبئت عن كثير بن الصلت قال كنا عند مروان وفينا زيد فقال زيد بن ثابت كنا نقرأ : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، قال مروان ألا كتبتها فى المصحف ؟ قال ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب فقال أنا أشفيكم من ذلك قال قلنا فكيف ؟ قال جاء رجل إلى النبى ﷺ قال فذكر كذا وكذا وذكر الرجم فقال يا رسول الله اكتب لى آية الرجم قال « لا أستطيع الآن » هذا أو نحو ذلك . وقد رواه النسائى من حديث محمد بن المثنى عن غندر عن شعبة عن قتادة عن يونس بن جبير عن كثير بن الصلت عن زيد بن ثابت به ، وهذه طرق كلها متعددة متعاضدة ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة فنسخ تلاوتها وبقى حكمها معمولا به والله أعلم

وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة وهى زوجة الرجل الذى استأجر الأجير لما زنت مع الأجير ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعزا والغامدية وكل هؤلاء لم ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جلدهم قبل الرجم وإنما وردت الأحاديث الصحيحة المتعاضدة المتعددة الطرق والألفاظ بالاقتصار على رجمهم وليس فيها ذكر الجلد ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعى رحمهم الله وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أنه يجب أن يجمع على الزانى المحصن بين الجلد للآية والرجم للسنة كما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه لما أتى بسراجة وكانت قد زنت وهى محصنة فجلدها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة فقال جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن الأربعة ومسلم من حديث قتادة عن الحسن عن حطان بن عبد الله الرقاشى عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » وقوله تعالى (ولاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله) أى فى حكم الله أى لاترأفوا بهما فى شرع الله وليس المنهى عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد وإنما هى الرأفة التى تحمل الحاكم على ترك الحد فلا يجوز ذلك قال مجاهد (ولاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله) قال إقامة الحدود إذا رفعت إلى السلطان فتقام ولاتعطل وكذا روى عن سعيد بن جبير وعطاء ابن أبى رباح وقد جاء فى الحديث « تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغنى من حد فقد وجب » وفى الحديث الآخر « لحد يقام فى الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحا » وقيل المراد (ولاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله) فلا تقيموا الحد كما ينبغى من شدة الضرب الزاجر عن المأثم وليس المراد الضرب المبرح . قال عامر الشعبى (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) قال رحمة فى شدة الضرب وقال عطاء ضرب ليس بالمبرح ، وقال سعيد بن أبى عروبة عن حماد بن أبى سليمان يجلد القاذف وعليه ثيابه والزانى تخلع ثيابه ثم تلا (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) فقلت هذا فى الحكم قال هذا فى الحكم والجلد يعنى فى إقامة الحد وفى شدة الضرب وقال ابن أبى حاتم حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى حدثنا

وكيع عن نافع عن ابن عمرو عن ابن أبي مليكة عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجليها قال نافع أراه قال وظهرها قال قلت (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) قال يابني ورأيتني أخذتني بها رأفة إن الله لم يأمرني أن أقتلها ولا أن أجعل جلدها في رأسها وقد أوجعت حين ضربتها ، وقوله تعالى (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أي فافعلوا ذلك وأقيموا الحدود على من زنى وشددوا عليه الضرب ولكن ليس مبرحا ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك ، وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة أنه قال : يارسول الله إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها فقال « ولك في ذلك أجر » .

وقوله تعالى (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدا بحضرة الناس فان ذلك يكون أبلغ في زجرهما وأنجع في ردعهما فان في ذلك تقريعاً وتوبيخا وفضيحة إذا كان الناس حضورا . قال الحسن البصري في قوله (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) يعني علانية ثم قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) الطائفة الرجل فما فوقه وقال مجاهد : الطائفة الرجل الواحد إلى الألف ، وكذا قال عكرمة ولهذا قال أحمد إن الطائفة تصدق على واحد ، وقال عطاء بن أبي رباح اثنان ، وبه قال إسحق بن راهويه وكذا قال سعيد بن جبير (طائفة من المؤمنين) قال : يعني رجلين فصاعدا ، وقال الزهري ثلاثة نفر فصاعدا وقال عبد الرزاق حدثني ابن وهب عن الإمام مالك في قوله (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) قال الطائفة أربعة نفر فصاعدا لأنه لا يكفي شهادة في الزنا إلا أربعة شهداء فصاعداً وبه قال الشافعي وقال ربيعة : خمسة ، وقال الحسن البصري : عشرة وقال قتادة أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين أي نفر من المسلمين ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يحي بن عثمان حدثنا بقية قال سمعت نصر بن علقمة يقول في قوله تعالى (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) قال ليس ذلك للفضيحة إنما ذلك ليدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة .

﴿ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة أي لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة لا ترى حرمة ذلك وكذلك (الزانية لا ينكحها إلا زان) أي عاص بزناه (أو مشرك) لا يعتقد تحريمه قال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة) قال ليس هذا بالنكاح إنما هو الجماع لا يزني بها إلا زان أو مشرك وهذا إسناد صحيح عنه وقد روي عنه من غير وجه أيضا ، وقد روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير والضحاك ومكحول ومقاتل بن حيان وغير واحد نحو ذلك . وقوله تعالى (وحرم ذلك على المؤمنين) أي تعاطيه والتزوج بالبغايا أو تزويج العفائف بالرجال الفجار وقال أبو داود الطيالسي حدثنا قيس عن أبي حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وحرم ذلك على المؤمنين) قال حرم الله الزنا على المؤمنين وقال قتادة ومقاتل بن حيان : حرم الله على المؤمنين نكاح البغايا وتقدم ذلك فقال (وحرم ذلك على المؤمنين) وهذه الآية كقوله تعالى (محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) وقوله (محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان) الآية ومن ههنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي مادامت كذلك حتى تستتاب فان تابت صح العقد عليها وإلا فلا وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة لقوله تعالى (وحرم ذلك على المؤمنين) وقال الإمام أحمد حدثنا عارم حدثنا معتمر بن سليمان قال : قال أبي حدثنا الحضرمي عن القاسم بن محمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلا من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح وتشترط له أن

تنفق عليه قال فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ذكر له أمرها قال فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة والزانيه لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) وقال النسائى أخبرنا عمرو بن على حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن الحضرمى عن القاسم بن محمد عن عبدالله بن عمرو: قال كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوجها فأنزل الله عز وجل (الزانى لاينكح إلا زانيه أو مشركة والزانية لاينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) قال الترمذى حدثنا عبد بن حميد حدثنا روح بن عبادة عن عبيد الله بن الأخنس أخبرنى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كان رجل يقال له مرثد بن أبى مرثد وكان رجلا يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة قال وكانت امرأة بغى بمكة يقال لها عناق وكانت صديقة له وأنه واعد رجلا من أسارى مكة يحمله قال فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة فى ليلة مقمرة قال فجاءت عناق فأبصرت سواد ظل تحت الحائط فلما انتهت إلى عرفتنى فقالت: مرثد؟ فقلت مرثد فقالت مرحباً وأهلا هلم فبت عندنا الليلة : قال فقلت يا عناق حرم الله الزنا فقالت يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم قال فتبعنى ثمانيــة ودخلت الحديقة فانتهيت إلى غار أو كهف فدخلت فيه فجاءوا حتى قاموا على رأسى فبالوا فظل بولهم على رأسى فأعماهم الله عنى قال ثم رجعوا فرجعت إلى صــاحبى فحملته وكان رجلا ثقيلا حتى انتهيت إلى الاذخر ففككت عنــه أحبله فجعلت أحمله ويعيننى حتى أتيت به المدينــة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أنكح عناقا أنكح عناقا - مرتين ؟ - فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد على شيئا حتى نزلت (الزانى لا ينــكح إلا زانيــة أو مشركة والزانية لاينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) فقال رســول الله ﷺ « يا مرثد : الزانى لاينــكح إلا زانية أو مشركة فلا تنــكحها » ثم قال الترمذى هــذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من هــذا الوجه ، وقد رواه أبو داود والنسائى فى كتاب النكاح من سننهما من حديث عبيد الله بن الأخنس به ، وقال ابن حاتم حدثنا أبى حدثنا مسدد أبو الحسن حدثنا عبد الوارث عن حبيب المعلم حدثنى عمرو بن شعيب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صــلى الله عليه وسلم « لاينكح الزانى المجلود إلا مثله » وهــكذا أخرجه أبو داود فى سننه عن مسدد وأبى معمر عن عبدالله بن عمرو كلاهما عن عبد الوارث به وقال الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا عاصم بن محمد عن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أخيه عمر بن محمد عن عبد الله بن يسار مولى ابن عمر قال أشهد لسمعت سالماً يقول : قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لايدخلون الجنة ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة ، العاق لوالدية والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال والديوث . وثلاث لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لو الدية . ومدمن الخمر ، والمنان بما أعطى» ورواه النسائى عن عمرو بن على الفلاس عن يزيد بن زريع عن عمر بن محمد العمرى عن عبد الله بن يسار به . وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا يعقوب حدثنا أبى حدثنا الوليد بن كثير عن قطن بن وهب عن عويمر بن الأجدع عمن حدثه عن سالم بن عبد الله بن عمر قال حدثنى عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ: قال « ثلاثة حرم الله عليهم الجنة، مدمن الخمر، والعاق لوالدية، والذى يقر فى أهله الخبث» وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده حدثنى شعبة حدثنى رجل من آل سهل بن حنيف عن محمد بن عمار عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايدخل الجنة ديوث » يستشهد به لما قبله من الأحاديث وقال ابن ماجه حدثنا هشام بن عمار حدثنا سلام بن سوار حدثنا كثير بن سليم عن الضحاك بن مزاحم سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أراد أن يلقى الله وهو طاهر متطهر فليتزوج الحرائر » فى إسناده ضعف . وقال الإمام أبو نصر إسمعيل بن حماد الجوهرى فى كتابه الصحاح فى اللغة: الديوث القنزع وهو الذى لاغيرة له ، فأما الحديث الذى رواه الإمام أبو عبد الرحمن النسائى فى كتاب النكاح من سننه أخبرنا محمد بن إسمعيل بن علية عن يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة وغيره عن هارون بن رياب عن عبد الله بن عبيد بن عمير وعبد الكريم عن عبدالله ابن عبيد بن عمير عن ابن عباس. عبد الكريم رفعه إلى ابن عباس وهارون لم يرفعه قالا جاء رجل إلى رسول الله ﷺ

فقال إن عندى امرأة من أحب الناس إلى وهى لا تمنع يد لامس قال « طلقها » قال لاصبر لى عنها قال « استمتع بها » ثم قال النسائى هذا الحديث غير ثابت وعبد الكريم ليس بالقوى وهارون أثبت منه وقد أرسل الحديث وهو ثقة وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم قلت وهو ابن أبى المخارق البصرى المؤدب تابعى ضعيف الحديث وقد خالفه هارون بن رياب وهو تابعى ثقة من رجال مسلم فحديثه المرسل أولى كما قال النسائى لكن قد رواه النسائى فى كتاب الطلاق عن إسحاق بن راهويه عن النضر بن شميل عن حماد بن سلمة عن هارون بن رياب عن عبدالله بن عبيد بن عمير عن ابن عباس مسندا فذكره بهذا الإسناد فرجاله على شرط مسلم إلا أن النسائى بعد روايته له قال هذا خطأ والصواب مرسل : ورواه غير النضر على الصواب وقد رواه النسائى أيضا وأبو داود عن الحسين بن حريث أخبرنا الفضل بن موسى أخبرنا الحسين بن واقد عن عمارة بن أبى حفصة عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى ﷺ فذكره وهذا الإسناد جيد . وقد اختلف الناس فى هذا الحديث ما بين مضعف له كما تقدم عن النسائى ومنكر كما قال الإمام أحمد هو حديث منكر ، وقال ابن قتيبة : إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلا وحكاه النسائى فى سننه عن بعضهم فقال وقيل سخية تعطى ، ورد هذا بأنه لو كان المراد لقال لاترد يد ملتمس ، وقيل المراد إن سجيتها لاترد يد لامس لا أن المراد أن هذا واقع منها وأنها تفعل الفاحشة فان رسول الله ﷺ لا يأذن فى مصاحبة من هذه صفتها فان زوجها والحالة هذه يكون ديوثا وقد تقدم الوعيد على ذلك ، ولكن لما كانت سجيتها هكذا ليس فيها ممانعة ولا مخالفة لمن أرادها لوخلا بها أحد أمره رسول الله ﷺ بفراقها فلما ذكر أنه يحبها أباح له البقاء معها لأن محبته لها محققة ووقوع الفاحشة منها متوهم فلا يصار إلى الضرر العاجل لتوهم الآجل والله سبحانه وتعالى أعلم ، قالوا فأما إذا حصلت توبة فانه يحل التزويج كما قال الإمام أبو محمد بن أبى حاتم رحمه الله حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد عن ابن أبى ذئب قال سمعت شعبة مولى ابن عباس رضى الله عنه قال سمعت ابن عباس وسأله رجل فقال إنى كنت ألم بامرأة آتى منها ما حرم الله عزوجل على فرزق الله عزوجل من ذلك توبة فأردت أن أتزوجها فقال أناس إن الزانى لاينكح إلا زانية أومشركة فقال ابن عباس ليس هذا فى هذا انكحها فما كان من إثم فعلى وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال ذكر عنده (الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لاينكحها إلا زان أو مشرك) قال كان يقال نسختها التى بعدها (وأنكحوا الأيامى منكم) قال كان يقال الأيامى من المسلمين وهكذا رواه أبو عبيد القاسم ابن سلام فى كتاب الناسخ والمنسوخ له عن سعيد بن المسيب ونص على ذلك أيضا الإمام أبو عبدالله محمد إدريس الشافعى

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۞ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة وهى الحرة البالغة العفيفة فاذا كان المقذوف رجلا فكذلك يجلد قاذفه أيضاً وليس فيه نزاع بين العلماء فان أقام القاذف بينة على صحة ماقاله درأ عنه الحد ولهذا قال تعالى (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون) فأوجب على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام (أحدها) أن يجلد ثمانين جلدة (الثانى) أنه ترد شهادته أبداً (الثالث) أن يكون فاسقاً ليس بعدل لا عندالله ولا عند الناس، ثم قال تعالى (الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) الآية . واختلف العلماء فى هذا الاستثناء هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط ويبقى مردود الشهادة دائما وإن تاب أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ وأما الجلد فقد ذهب وانقضى سواء تاب أو أصر ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف فذهب الإمام مالك وأحمد الشافعى إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته وارتفع عنه حكم الفسق ونص عليه سعيد بن

المسيب سيد التابعين وجماعة من السلف أيضاً ، وقال الإمام أبو حنيفة إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط فيرتفع الفسق بالتوبة ويبقى مردود الشهادة أبداً وممن ذهب إليه من السلف القاضي شريح وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومكحول وعبد الرحمن بن زيد بن جابر . وقال الشعبي والضحاك لا تقبل شهادته وإن تاب إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان فحينئذ تقبل شهادته والله أعلم

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل وهو أن يحضرها إلى الإمام فيدعي عليها بما رماها به فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين أي فيما رماها به من الزنا (والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين) فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء وحرمت عليه أبداً ويعطيها مهرها ويتوجه عليها حد الزنا ، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين أي فيما رماها به (والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) ولهذا قال (ويدرأ عنها العذاب) يعني الحد (أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين * والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) فخصها بالغضب كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور وهي تعلم صدقه فيما رماها به ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه ، ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون بهم من الضيق فقال تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) أي لحرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم (وأن الله تواب) أي على عباده ، وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة (حكيم) فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه ، وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية وذكر سبب نزولها وفيمن نزلت فيه من الصحابة . قال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً) قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار رضي الله عنه أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم ؟ » فقالوا يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته . فقال سعد والله يا رسول الله إني لأعلم إنها لحق وأنها من الله ولكني قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته — قال فما لبثوا إلا يسيراً — حتى جاء هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم فجاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلا فرأى بعينيه وسمع بأذنيه فلم يهيجه حتى أصبح فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلا فرأيت بعيني وسمعت بأذني فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه واجتمعت عليه الأنصار وقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة الآن يضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم هلال بن أمية ويبطل شهادته في الناس . فقال هلال والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً . وقال هلال يا رسول الله فإني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به والله

يعلم إنى لصادق . فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم الوحى ، وكان إذا أنزل عليه الوحى عرفوا ذلك فى تربد وجهه يعنى فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحى فنزلت (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله) الآية فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً » فقال هلال قد كنت أرجو ذلك من ربى عز وجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أرسلوا إليها» فأرسلوا إليها فجاءت فتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما فذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا فقال هلال والله يا رسول الله لقد صدقت عليها فقالت كذب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاعنوا بينهما » فقيل لهلال اشهد فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فلما كانت الخامسة قيل له يا هلال اتق الله فان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وإن هذه الموجبة التى توجب عليك العذاب فقال والله لا يعذبنى الله عليها كما لم يجلدنى عليها فشهد فى الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، ثم قيل للمرأة اشهدى أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين وقيل لها عند الخامسة اتقى الله فان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التى توجب عليك العذاب فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت والله لا أفضح قومى فشهدت فى الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وقضى أن لا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد ، وقضى أن لا بيت لها عليه ولا قوت لها من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها وقال « إن جاءت به أصيهب أريشح حمش الساقين فهو لهلال وإن جاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين سابغ الأليتين فهو الذى رميت به » فجاءت به أورق جعدا جماليا خدلج الساقين سابغ الأليتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا الأيمان لكان لى ولها شأن » قال عكرمة فكان بعد ذلك أميراً على مصر وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب ، ورواه أبو داود عن الحسن بن على عن يزيد بن هارون به نحوه مختصراً ، ولهذا الحديث شواهد كثيرة فى الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة ، فمنها ما قال البخارى: حدثنى محمد بن بشار حدثنا ابن أبى عدى عن هشام بن حسان حدثنى عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال النبى صلى الله عليه وسلم « البينة أو حد فى ظهرك » فقال يارسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول « البينة وإلا حد فى ظهرك » فقال هلال والذى بعثك بالحق إنى لصادق ولينزلن الله ما يبرىء ظهرى من الحد فنزل جبريل وأنزل عليه (والذين يرمون أزواجهم — فقرأ حتى بلغ — إن كان من الصادقين) فانصرف النبى صلى الله عليه وسلم فأرسل إليهما فجاء هلال فشهد والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب» ثم قامت فشهدت ، فلما كان فى الخامسة وقفوها وقالوا إنها موجبة قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت لا أفضح قومى سائر اليوم فمضت فقال النبى صلى الله عليه وسلم « أبصروها فان جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء » فجاءت به كذلك فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لولا ما مضى من كتاب الله لكان لى ولها شأن » انفرد به البخارى من هذا الوجه، وقد رواه من غير وجه عن ابن عباس وغيره ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن منصور الزيادى حدثنا يونس بن محمد حدثنا صالح وهو ابن عمر حدثنا عاصم يعنى ابن كليب عن أبيه حدثنى ابن عباس قال جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرمى امرأته برجل فكره ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يردده حتى أنزل الله تعالى (والذين يرمون أزواجهم) فقرأ حتى فرغ من الآيتين فأرسل إليهما فدعاهما فقال : « إن الله تعالى قد أنزل فيكما » فدعا الرجل فقرأ عليه فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ثم أمر به فأمسك على فيه فوعظه فقال له «كل شىء أهون عليه من لعنة الله» ثم أرسله فقال «لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين» ثم دعاها فقرأ عليها فشهدت أربع شهادات بالله إنه من الكاذبين ثم أمر بها فأمسك على فيها فوعظها وقال : «ويحك كل شىء أهون من غضب الله» ثم أرسلها فقالت : غضب الله عليها إن كان من الصادقين . فقال رسول الله

ﷺ « أما والله لأقضين بينكما قضاء فصلا » قال فولدت فما رأيت مولوداً بالمدينة أكثر منه فقال « إن جاءت به لكذا وكذا فهو كذا ، وإن جاءت به لكذا وكذا فهو لكذا » فجاءت به يشبه الذي قذفت به : وقال الإمام أحمد حدثنا يحي بن سعيد حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان قال : سمعت سعيد بن جبير قال سئلت عن المتلاعنين أيفرق بينهما في إمارة ابن الزبير فما دريت ما أقول فقمت من مكاني إلى منزل ابن عمر فقلت يا أبا عبد الرحمن المتلاعنان أيفرق بينهما ؟ فقال سبحان الله إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان فقال يارسول الله أرأيت الرجل يرى امرأته على فاحشة فإن تكلم تكلم بأمر عظيم وإن سكت سكت على مثل ذلك فسكت فلم يجبه فلما كان بعد ذلك أتاه فقال الذي سألتك عنه قد ابتليت به فأنزل الله تعالى هذه الآيات في سورة النور (والذين يرمون أزواجهم) حتى بلغ (أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) فبدأ بالرجل فوعظه وذكره وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فقال: والذي بعثك بالحق ما كذبت ثم ثنى بالمرأة فوعظها وذكرها وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فقالت المرأة : والذي بعثك بالحق إنه لكاذب. قال فبدأ بالرجل فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ثم ثنى بالمرأة فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ثم فرق بينهما. رواه النسائي في التفسير من حديث عبد الملك بن أبي سليمان به وأخرجاه في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وقال الإمام أحمد حدثنا يحي بن حماد حدثنا أبو عوانة عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله قال ، كنا جلوسا عشية الجمعة في المسجد فقال رجل من الأنصار : أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلا إن قتله قتلتموه وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت على غيظ ، والله لأن أصبحت صحيحا لأسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فسأله فقال يارسول الله إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلا إن قتله قتلتموه وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت على غيظ اللهم احكم ، قال فنزلت آية اللعان فكان ذلك الرجل أول من ابتلى به . انفرد باخراجه مسلم فرواه من طرق عن سليمان بن مهران الأعمش به وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا أبو كامل حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن سهل بن سعد قال جاء عويمر إلى عاصم بن عدى فقال له سل رسول الله ﷺ أرأيت رجلا وجد رجلا مع امرأته فقتله أيقتل به أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ فعاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل قال فلقيه عويمر فقال : ماصنعت ؟ قال ما صنعت انك لم تأتني بخير ، سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاب المسائل فقال عويمر والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأسألنه . فأتاه فوجده قد أنزل عليه فيها . قال: فدعاهما ولاعن بينهما . قال عويمر ان انطلقت بها يارسول الله لقد كذبت عليها . قال: ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ فصارت سنة المتلاعنين ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبصروها فان جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الأليتين فلا أراه الا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمر كانه وحرة فلا أراه إلا كاذبا » فجاءت به على النعت المكروه . أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذى ورواه البخارى أيضا من طرق عن الزهرى به فقال حدثنا سليمان بن داود أبو الربيع حدثنا فليح عن الزهرى عن سهل بن سعد أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله أرأيت رجلا رأى مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل ؟ فأنزل الله تعالى فيهما ما ذكر في القرآن من التلاعن فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « قد قضى فيك وفي امرأتك » قال فتلاعنا وأنا شاهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ففارقها فكانت سنة أن يفرق بين المتلاعنين ، وكانت حاملا فأنكر حملها وكان ابنها يدعى اليها . ثم جرت السنة في الميراث أن يرثها وترث منه مافرض الله لها . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا إسحق بن الضيف حدثنا النضر بن شميل حدثنا يونس بن أبي إسحق عن أبيه عن زيد بن بثيع عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر « لو رأيت مع أم رومان رجلا ما كنت فاعلا ؟ » قال كنت والله فاعلا به شرا ، قال « فأنت ياعمر ؟ » قال كنت والله فاعلا كنت أقول لعن الله الأعجز فإنه خبيث . قال فنزلت (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم) ثم قال لانعلم أحدا أسنده إلا النضر بن شميل عن يونس

ابن إسحق ثم رواه من حديث الثورى عن أبى إسحق عن زيد بن بتيع مرسلا فالله أعلم ، وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا مسلم بن أبى مسلم الجرمى حدثنا مخلد بن الحسين عن هشام عن ابن سيرين عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لأول لعان كان فى الإسلام أن شريك بن سحماء قذفه هلال بن أمية بامرأته فرفعته إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ « أربعة شهود وإلا فحد فى ظهرك » فقال يارسول الله إن الله يعلم إنى لصادق ولينزلن الله عليك ما يبرىء به ظهرى من الجلد فأنزل الله آية اللعان (والذين يرمون أزواجهم) إلى آخر الآية قال فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم فقال «اشهد بالله إنك لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا» فشهد بذلك أربع شهادات ثم قال له فى الخامسة « ولعنة الله عليك إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا » ففعل ثم دعاها رسول الله ﷺ فقال « قومى فاشهدى بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنا » فشهدت بذلك أربع شهادات ثم قال لها فى الخامسة « وغضب الله عليك إن كان من الصادقين فيما رماك به من الزنا » قال فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكتت سكتة حتى ظنوا أنها ستعترف ثم قالت لا أفضح قومى سائر اليوم فمضت على القول ففرق رسول الله ﷺ بينهما وقال « انظروا فان جاءت به جعدا حمش الساقين فهو لشريك بن سحماء وإن جاءت به أبيض سبطا قصير العينين فهو لهلال بن أمية » فجاءت به جعدا حمش الساقين فقال رسول الله ﷺ « لولا ما نزل فيهما من كتاب الله لكان لى ولها شأن »

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

هذه العشر الآيات كلها نزلت فى شأن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التى غار الله عز وجل لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض الرسول ﷺ فقال تعالى (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) أى جماعة منكم يعنى ماهو واحد ولا اثنان بل جماعة فكان المقدم فى هذه اللعنة عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك فى أذهان بعض المسلمين فتكلموا به وجوزه آخرون منهم وبقى الأمر كذلك قريبا من شهر حتى نزل القرآن ، وبيان ذلك فى الأحاديث الصحيحة . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى قال أخبرنى سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث[1] عائشة زوج النبى ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله تعالى ، وكلهم قد حدثنى بطائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصا ، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذى حدثنى عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضا : ذكروا أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه، قالت عائشة رضى الله عنها فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى وخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد ما نزل الحجاب فأنا أحمل فى هودجى وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فلمست صدرى فإذا عقدلى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوننى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعير الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه ، قالت وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلن ولم يغشهن اللحم إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فتيممت منزلى الذى كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدوننى

(١) كذا فى الأميرية ، وفى البغوى عن عائشة .

فيرجعون إلى ، فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عيناى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم فأتانى فعرفنى حين رآنى وقد كان رآنى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى والله ما كلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطىء على يدها فركبتها فانطلق يقودبى الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة ، فهلك من هلك فى شأنى وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى ابن سلول ، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمناها شهرا والناس يفضيون فى قول أهل الإفك ولا أشعر بشىء من ذلك وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم ثم يقول « كيف تيكم؟ » فذلك الذى يريبنى ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت وخرجت معى أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه فى البرية وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها فى بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهى بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب[1] فأقبلت أنا وابنة أبى رهم أم مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها بئسما قلت تسبين رجلا شهد بدرا ؟ فقالت أى هنتاه ألم تسمعى ما قال ؟ قلت وماذا قال ؟ قالت فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضى فلما رجعت إلى بيتى دخل على رسول الله ﷺ فسلم ثم قال « كيف تيكم ؟ » فقلت له أتأذن لى أن آتى أبوى ، قالت وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أبوى فقلت لأمى يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت أى بنية هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . قالت فقلت سبحان الله وقد تحدث الناس بها فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى ، قالت فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله قالت فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود ، فقال أسامة يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيرا . وأما على بن أبى طالب فقال يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر . قالت فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال « أى بريرة هل رأيت من شىء يريبك من عائشة » فقالت له بريرة : والذى بعثك بالحق إن رأيت منها أمرا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبى ابن سلول ، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر « يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلى إلا معى » فقام سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله عنه فقال أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافق ، فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول صلى الله عليه وسلم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى قالت فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى إذ استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس ، قالت ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل ، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنى شىء

(١) فى البغوى : ابن المطلب

قالت فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال « أما بعد يا عائشة فانه قد بلغنى عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه فان العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه » قالت فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبى أجب عنى رسول الله فقال والله ما أدرى ما أقول لرسول ﷺ فقلت لأمى أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالت فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن والله لقد علمت لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم أنى بريئة لاتصدقوننى ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى فوالله ما أجدلى ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) قالت ثم تحولت فاضطجعت على فراشى قالت وأنا والله أعلم حينئذ أنى بريئة وأن الله تعالى مبرئى ببراءتى ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها قالت فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولاخرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو فى يوم شاة من ثقل القول الذى أنزل عليه : قالت فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال « أبشرى يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك » قالت فقالت لى أمى قومى إليه فقلت والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل هو الذى أنزل براءتى وأنزل الله عز وجل (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) العشر الآيات كلها، فلما أنزل الله هذا فى براءتى قال أبو بكر رضى الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذى قال لعائشة فأنزل الله تعالى (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى — إلى قوله — ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) فقال أبو بكر : بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه . وقال والله لا أنزعها منه أبداً . قالت عائشة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش زوج النبى صلى الله عليه وسلم عن أمرى فقال « يا زينب ماذا علمت أورأيت ؟ » فقالت يارسول الله أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت إلا خيراً قالت عائشة وهى التى كانت تساميني من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فعصمها الله تعالى بالورع . وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها فهلكت فيمن هلك. قال ابن شهاب فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث الزهرى وهكذا رواه ابن إسحاق عن الزهرى كذلك قال : وحدثنى يحى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم الأنصارى عن عمرة أخبرنى أبى عن عائشة بنحو ما تقدم والله أعلم . ثم قال البخارى وقال أبو أسامة عن هشام بن عروة قال أخبرنى أبى عن عائشة رضى الله عنها قالت لما ذكر من شأنى الذى ذكر وما علمت به . قام رسول الله صلى الله عليه فى خطيبا فتشهد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله . ثم قال أما بعد أشيروا على فى أناس أبنوا أهلى وايم الله ماعلمت على أهلى إلا خيراً وما علمت على أهلى من سوء وأبنوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط ولا يدخل بيتى قط إلا وأنا حاضر ، ولا غبت فى سفر إلا غاب معى فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : يارسول الله ائذن لنا أن نضرب أعناقهم فقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل فقال كذبت أما والله لوكانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شر فى المسجد وما علمت فلما كان مساء ذلك اليوم خرجت لبعض حاجتى ومعى أم مسطح فعثرت فقالت تعس مسطح فقلت لها أى أم تسبين ابنك؟ فسكتت ثم عثرت الثانية فقالت تعس مسطح فقلت لها أى أم تسبين ابنك ؟ ثم عثرت الثالثة فقالت تعس مسطح فانتهرتها فقالت والله ما أسبه إلا فيك فقلت فى أى شأنى ؟ قالت فبقرت لى الحديث فقلت وقد كان هذا؟ قالت نعم والله فرجعت إلى بيتى كأن الذى خرجت له لا أجد منه قليلا ولا كثيراً ووعكت وقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم

أرسلني إلى بيت أبي فأرسل معي الغلام فدخلت الدار فوجدت أم رومان في السفل وأبا بكر فوق البيت يقرأ فقالت أم رومان ماجاء بك يابنية فأخبرتها وذكرت لها الحديث وإذا هو لم يبلغ منها مثل الذي بلغ مني فقالت يابنية خفني عليك الشأن فإنه والله لقل ما كانت امرأة قط حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا حسدنها ، وقيل فيها فقلت وقد علم به أبي ؟ قالت نعم قلت ورسول الله ﷺ ؟ قالت نعم ورسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعبرت وبكيت فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ فنزل فقال لأمي ما شأنها قالت بلغها الذي ذكر من شأنها ففاضت عيناه رضي الله عنه فقال أقسمت عليك يابنية إلا رجعت إلى بيتك فرجعت ، ولقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتي فسأل عني خادمتي فقالت يارسول الله لا والله ماعلمت عليها عيبا إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها ، وانتهرها بعض أصحابه فقال اصدقي رسول الله ﷺ حتى أسقطوا لها به فقالت سبحان الله والله ماعلمت عليها إلا مايعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر ، وبلغ الأمر ذلك الرجل الذي قيل له ، فقال سبحان الله والله ما كشفت كنف أنثى قط . قالت عائشة رضي الله عنها فقتل شهيدا في سبيل الله قالت وأصبح أبواي عندي فلم يزالا حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صلى العصر ثم دخل وقد اكتنفني أبواي عن يميني وعن شمالي فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال « أما بعد ياعائشة إن كنت قارفت سوءا أو ظلمت فتوبي إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده » قالت وقد جاءت امرأة من الأنصار فهي جالسة بالباب فقلت ألا تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئاً فوعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتفت إلى أبي فقلت له أجب رسول الله ﷺ قال فماذا أقول ؟ فالتفت إلى أمي فقلت أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ماذا أقول ؟ فلما لم يجيباه تشهدت فحمدت الله وأثنيت عليه بما هو أهله ثم قلت: أما بعد فو الله إن قلت لكم إني لم أفعل والله عز وجل يشهد إني لصادقة ماذاك بنافعي عندكم لقد تكلمتم به وأشربته قلوبكم ، وإن قلت لكم إني قد فعلت والله يعلم أني لم أفعل لتقولن قدباءت به على نفسها وإني والله ما أجدلي ولكم مثلا . والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه إلا أبايوسف حين قال (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من ساعته فسكتنا فرفع عنه وإني لأتبين السرور في وجهه وهو يمسح جبينه ويقول « أبشري ياعائشة فقد أنزل الله براءتك » قالت وكنت أشد ما كنت غضباً فقال لي أبواي قومي اليه فقلت لا والله لا أقوم اليه ولا أحمده ولا أحمدكما ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه ، وكانت عائشة تقول : أما زينب بنت جحش فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً ، وأما أختها حمنة بنت جحش فهلكت فيمن هلك ، وكان الذي يتكلم به مسطح وحسان بن ثابت والمنافق عبد الله بن أبي ابن سلول وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه وهو الذي تولى كبره منهم هو وحمنة ، قالت فحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحا بنافعة أبداً فأنزل الله تعالى (ولا يأتل أولو الفضل منكم) يعني أبا بكر (والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين) يعني مسطحا إلى قوله (ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) فقال أبو بكر بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا . وعاده بما كان يصنع . هكذا رواه البخاري من هذا الوجه معلقا بصيغة الجزم عن أبي أسامة حماد بن أسامة أحد الأئمة الثقات . وقد رواه ابن جرير في تفسيره عن سفيان بن وكيع عن أبي أسامة مطولا به مثله أو نحوه . ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج عن أبي أسامة ببعضه وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم أخبرنا عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت لما نزل عذري من السماء جاءني النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرني بذلك فقلت : بحمد الله لابحمدك . وقال الإمام أحمد حدثنا ابن أبي عدي عن محمد بن إسحق عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة أيضاً عن عائشة قالت: لما نزل عذري قام رسول الله ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدهم ورواه أهل السنن الأربعة . وقال الترمذي هذا حديث حسن ووقع عند أبي داود تسميتهم حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش . فهذه طرق متعددة عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في المسانيد والصحاح والسنن وغيرها . وقد روي من حديث أمها أم رومان رضي الله

عنها فقال الإمام أحمد حدثنا على بن عاصم أخبرنا حصين عن أبى وائل عن مسروق عن أم رومان قالت بينا أنا عند عائشة إذ دخلت عليها امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله بابنها وفعل، فقالت عائشة ولم ؟ قالت إنه كان فيمن حدث الحديث قالت وأى الحديث قالت كذا وكذا قالت وقد بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت نعم قالت وبلغ أبا بكر ؟ قالت نعم فخرت عائشة رضى الله مغشيا عليها فما أفاقت إلا وعليها حمى بنافض قالت فقمت فدثرتها قالت فجاء النبى صلى الله عليه وسلم قال « فما شأن هذه ؟» فقلت يارسول الله أخذتها حمى بنافض قال « فلعله فى حديث تحدث به » قالت فاستوت عائشة قاعدة فقالت والله لئن حلفت لكم لاتصدقونى ولئن اعتذرت اليكم لاتعذرونى فثلى ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه حين قال (فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون) قالت فخرج رسول الله ﷺ وأنزل الله عذرها فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر فدخل فقال ياعائشة « إن الله تعالى قد أنزل عذرك » فقالت بحمد الله لا بحمدك فقال لها أبو بكر تقولين هذا لرسول الله ﷺ قالت نعم قالت وكان فيمن حدث هذا الحديث رجل كان يعوله أبو بكر فحلف أن لا يصله فأنزل الله (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة) إلى آخر الآية فقال أبو بكر بلى فوصله . تفرد به البخارى دون مسلم من طريق حصين ، وقدرواه البخارى عن موسى بن إسماعيل عن أبى عوانة وعن محمد بن سلام عن محمد بن فضيل كلاهما عن حصين به وفى لفظ أبى عوانة حدثتنى أم رومان وهذا صريح فى سماع مسروق منها وقد أنكر ذلك جماعة من الحفاظ منهم الخطيب البغدادى وذلك لما ذكره أهل التاريخ أنها ماتت فى زمن النبى ﷺ قال الخطيب وقد كان مسروق يرسله فيقول سئلت أم رومان ويسوقه فلعل بعضهم كتب سئلت بألف اعتقد الراوى أنها سألت فظنه متصلا قال الخطيب وقد رواه البخارى كذلك ولم تظهر له علته كذا قال والله أعلم . ورواه بعضهم عن مسروق عن عبد الله ابن مسعود عن أم رومان فالله أعلم ، فقوله تعالى (إن الذين جاءوا بالإفك) أى الكذب والبهت والافتراء (عصبة) أى جماعة منكم (لاتحسبوه شرا لكم) أى يا آل أبى بكر (بل هو خير لكم) أى فى الدنيا والآخرة لسان صدق فى الدنيا ورفعة منازل فى الآخرة وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها حيث أنزل الله براءتها فى القرآن العظيم (الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) الآية ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضى الله عنه وعنها وهى فى سياق الموت قال لها أبشرى فإنك زوجة رسول الله ﷺ وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرك ونزلت براءتك من السماء . وقال ابن جرير فى تفسيره حدثنى محمد بن عثمان الواسطى حدثنا جعفر ابن عون عن المعلى بن عرفان عن محمد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت عائشة وزينب رضى الله عنهما فقالت زينب أنا التى نزل تزويجى من السماء وقالت عائشة أنا التى نزل عذرى فى كتاب الله حين حملنى صفوان بن المعطل على الراحلة فقالت لها زينب ياعائشة ماقلت حين ركبتها ؟ قالت : قلت حسبى الله ونعم الوكيل قالت قلت كلمة المؤمنين وقوله تعالى (لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم) أى لكل من تكلم فى هذه القضية ورمى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بشىء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب (والذى تولى كبره منهم) قيل ابتدأ به وقيل الذى كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه (له عذاب عظيم) أى على ذلك ، ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبى ابن سلول قبحه الله تعالى ولعنه وهو الذى تقدم النص عليه فى الحديث وقال ذلك مجاهد وغير واحد ، وقيل بل المراد به حسان بن ثابت وهو قول غريب ولولا أنه وقع فى صحيح البخارى ماقد يدل على إيراد ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ومآثر وأحسن مآثره أنه كان يذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعره وهو الذى قال له رسول الله ﷺ « هاجهم وجبريل معك » وقال الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق قال كنت عند عائشة رضى الله عنها فدخل حسان بن ثابت فأمرت فألقى له وسادة فلما خرج قلت لعائشة ماتصنعين بهذا ؟ يعنى يدخل عليك وفى رواية قيل لها أتأذنين لهذا يدخل عليك وقد قال الله (والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) ؟ قالت وأى عذاب أشد من العمى وكان قد ذهب بصره لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب

العظيم ثم قالت إنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ وفى رواية أنه أنشدها عند ما دخل عليها شعرا يمتدحها به فقال

حصان رزان ما تزن بريبه * وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقال أما أنت فلست كذلك ، وفى رواية : لكنك لست كذلك وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن قزعة حدثنا سلمة بن علقمة حدثنا داود عن عامر عن عائشة أنها قالت ما سمعت بشعر أحسن من شعر حسان ولا تمثلت به إلا رجوت له الجنة قوله لأبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب

هجوت محمدا فأجبت عنه * وعند الله فى ذاك الجزاء

فان أبى ووالده وعرضى * لعرض محمد منكم وقاء

أتشتمه ولست له بكفء ؟ * فشركما لخيركما الفداء

لسانى صارم لا عيب فيه * وبحرى لا تكدره الدلاء

فقيل يا أم المؤمنين أليس هذا لغوا ؟ قالت لا إنما اللغوا ما قيل عند النساء ، قيل أليس الله يقول (والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) قالت أليس قد ذهب بصره وكنع بالسيف ؟ تعنى الضربة التى ضربه إياها صفوان بن المعطل السلمى حين بلغه عنه أنه يتكلم فى ذلك فعلاه بالسيف وكاد أن يقتله

﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين فى قصة عائشة رضى الله عنها حين أفاض بعضهم فى ذلك الكلام السوء وماذكر من شأن الافك فقال تعالى (لولا) يعنى هلا (إذ سمعتموه) أى ذلك الكلام الذى رميت به أم المؤمنين رضى الله عنها (ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا) أى قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فان كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى . وقد قيل إنها نزلت فى أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى وامرأته رضى الله عنهما كما قال الإمام محمد بن إسحق بن يسار عن أبيه عن بعض رجال بنى النجار أن أبا أيوب خالد بن زيد الأنصارى قالت له امرأته أم أيوب يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة رضى الله عنها ؟ قال نعم وذلك الكذب أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت لا والله ما كنت لأفعله قال فعائشة والله خير منك ، قال فلما نزل القرآن ذكر الله عز وجل من قال فى الفاحشة ما قال من أهل الافك (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) وذلك حسان وأصحابه الذين قالوا ما قالوا ، ثم قال تعالى (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون) الآية أى كما قال أبو أيوب وصاحبته ، وقال محمد بن عمر الواقدى حدثنى ابن أبى حبيب عن داود بن الحصين عن أبى سفيان عن أفلح مولى أبى أيوب أن أم أيوب قالت لأبى أيوب : ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة ؟ قال بلى وذلك الكذب أفكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك ، قالت لا والله قال فعائشة والله خير منك : فلما نزل القرآن وذكر أهل الافك قال الله عز وجل (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين) يعنى أبا أيوب حين قال لأم أيوب ما قال ويقال إنما قالها أبى بن كعب ، وقوله تعالى (ظن المؤمنون) الخ أى هلا ظنوا الخير فان أم المؤمنين أهله وأولى به . هذا ما يتعلق بالباطن ، وقوله (وقالوا) أى بألسنتهم هذا إفك مبين) أى كذب ظاهر على أم المؤمنين رضى الله عنها فان الذى وقع لم يكن ريبة وذلك أن مجىء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل فى وقت الظهيرة والجيش بكماله يشاهدون ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رءوس الأشهاد بل كان هذا يكون لو قدر خفية مستورا ، فتعين أن ما جاء به أهل الافك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت والقول الزور والرعونة الفاحشة الفاجرة ، والصفقة الخاسرة ، قال الله تعالى (لولا) أى هلا (جاءوا عليه) أى على ما قالوه (بأربعة شهداء)

يشهدون على صحة ما جاءوا به (فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) أى فى حكم الله كاذبون فاجرون

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾

يقول تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة) أيها الخائضون فى شأن عائشة بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه فى الدنيا وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة (لمسكم فيما أفضتم فيه) من قضية الافك (عذاب عظيم) وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش ، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبى ابن سلول وأضرابه فليس أولئك مرادين فى هذه الآية لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه ، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه : ثم قال تعالى (إذ تلقونه بألسنتكم) قال مجاهد وسعيد بن جبير أى يرويه بعضكم عن بعض يقول هذا سمعته من فلان وقال فلان كذا وذكر بعضهم كذا ، وقرأ آخرون (إذ تلقونه بألسنتكم) وفى صحيح البخارى عن عائشة أنها كانت تقرؤها كذلك وتقول هو من ولق اللسان يعنى الكذب الذى يستمر صاحبه عليه، تقول العرب: ولق فلان فى السير إذا استمر فيه والقراءة الأولى أشهر وعليها الجمهور ولكن الثانية مروية عن أم المؤمنين عائشة ، قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة عن نافع عن ابن عمر عن عائشة أنها كانت تقرأ (إذ تلقونه) وتقول هى ولق القول قال ابن أبى مليكة : هى أعلم به من غيرها، وقوله تعالى (وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) أى تقولون مالا تعلمون ، ثم قال تعالى (وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم) أى تقولون ما تقولون فى شأن أم المؤمنين وتحسبون ذلك يسيرا سهلا ولو لم تكن زوجة النبى ﷺ لما كان هينا فكيف وهى زوجة النبى الأمى خاتم الأنبياء وسيد المرسلين فعظيم عند الله أن يقال فى زوجة نبيه ورسوله ما قيل ، فان الله سبحانه وتعالى يغار لهذا وهو سبحانه وتعالى لا يقدر على زوجة نبى من الأنبياء ذلك حاشا وكلا ، ولما لم يكن ذلك فكيف يكون هذا فى سيدة نساء الأنبياء وزوجة سيد ولد آدم على الاطلاق فى الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى (وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) وفى الصحيحين « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدرى ما تبلغ يهوى بها فى النار أبعد مما بين السماء والأرض » وفى رواية « لا يلقى لها بالا »

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

هذا تأديب آخر بعد الأول الآمر بظن الخير أى إذا ذكر مالا يليق من القول فى شأن الخيرة فأولى ينبغى الظن بهم خيرا ، وأن لا يشعر نفسه سوى ذلك ثم إن علق بنفسه شىء من ذلك وسوسة أو خيالا فلا ينبغى أن يتكلم به فان رسول الله ﷺ قال « إن الله تعالى تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » أخرجاه فى الصحيحين ، وقال الله تعالى (ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا) أى ما ينبغى لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد (سبحانك هذا بهتان عظيم) أى سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله ، ثم قال تعالى (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً) أى ينها كم الله متوعدا أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً أى فيما يستقبل ولهذا قال (إن كنتم مؤمنين) أى إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه وتعظمون رسوله صلى الله عليه وسلم فأما من كان متصفاً بالكفر فله حكم آخر ، ثم قال تعالى (ويبين الله لكم الآيات) أى يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدرية (والله عليم حكيم) أى عليم بما يصلح عباده حكيم فى شرعه وقدره

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئا من الكلام السيء فقام بذهنه شيء منه وتكلم به فلا يكثر منه ولا يشيعه ويذيعه فقد قال تعالى (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم) أى يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح (لهم عذاب أليم فى الدنيا) أى بالحد ، وفى الآخرة بالعذاب (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) أى فردوا الأمور إليه ترشدوا وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن بكير حدثنا ميمون بن موسى المرئى حدثنا محمد بن عباد المخزومى عن ثوبان عن النبى ﷺ قال « لاتؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ، ولا تطلبوا عوراتهم فانه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه فى بيته

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول الله تعالى (ولو لا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم) أى لولا هذا لكان أمر آخر ولكنه تعالى رءوف بعباده رحيم بهم فتاب على من تاب إليه من هذه القضية وطهر من طهر منهم بالحد الذى أقيم عليهم ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان) يعنى طرائقه ومسالكه وما يأمر به (ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر) هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها ، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (خطوات الشيطان) عمله وقال عكرمة نزغاته وقال قتادة كل معصية فهى من خطوات الشيطان ، وقال أبو مجلز : النذور فى المعاصى من خطوات الشيطان ، وقال مسروق سأل رجل ابن مسعود فقال : إنى حرمت أن آكل طعاماً وسماه فقال هذا من نزغات الشيطان كفر عن يمينك وكل ، وقال الشعبى فى رجل نذر ذبح ولده هذا من نزغات الشيطان وأفتاه أن يذبح كبشاً وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا حسان بن عبدالله المصرى حدثنا السرى بن يحيى عن سليمان التيمى عن أبى رافع قال غضبت على امرأتى فقالت هى يوما يهودية ويوما نصرانية وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك ، فأتيت عبد الله بن عمر فقال : إنما هذه من نزغات الشيطان وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة وهى يومئذ أفقه امرأة بالمدينة وأتيت عاصم بن عمر فقال مثل ذلك . ثم قال تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا) أى لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ويزكى النفوس من شركها وفجورها ودنسها وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيرا (ولكن الله يزكى من يشاء) أى من خلقه ويضل من يشاء ويرديه فى مهالك الضلال والغى ، وقوله (والله سميع) أى سميع لأقوال عباده (عليم) بمن يستحق منهم الهدى والضلال

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى (ولا يأتل) من الألية وهى الحلف أى لا يحلف (أولو الفضل منكم) أى الطول والصدقة والإحسان (والسعة) أى الجدة (أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله) أى لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم

المساكين والمهاجرين . وهذا فى غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام ولهذا قال تعالى (و ليعفوا وليصفحوا) أى عما تقدم منهم من الاساءة والأذى ؟ وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم ، وهذه الآية نزلت فى الصديق رضى الله عنه حين حلف أن لاينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبداً بعد ما قال فى عائشة ما قال كما تقدم فى الحديث فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة وطابت النفوس المؤمنة واستقرت وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين فى ذلك وأقيم الحد على من أقيم عليه ـ شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة يعطف الصديق على قريبة ونسيبه وهو مسطح بن أثاثة فانه كان ابن خالة الصديق وكان مسكينا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضى الله عنه ، وكان من المهاجرين فى سبيل الله وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها ، وضرب الحد عليها . وكان الصديق رضى الله عنه معروفا بالمعروف ، له الفضل والأيادى على الأقارب والأجانب فلما نزلت هذه الآية إلى قوله (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) الآية فان الجزاء من جنس العمل فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك وكما تصفح يصفح عنك ، فعند ذلك قال الصديق : بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال والله لا أنزعها منه أبداً فى مقابلة ما كان قال : والله لا أنفعه بنافعة أبداً . فلهذا كان الصديق هو الصديق رضى الله عنه وعن بنته

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات خرج مخرج الغالب المؤمنات فأمهات المؤمنين أولى بالدخول فى هذا من كل محصنة ولا سيما التى كانت سبب النزول وهى عائشة بنت الصديق رضى الله عنهما وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذى ذكر فى هذه الآية فانه كافر لأنه معاند للقرآن ، وفى بقية أمهات المؤمنين قولان : أصحهما أنهن كهى والله أعلم وقوله تعالى (لعنوا فى الدنيا والآخرة) الآية كقوله (إن الذين يؤذون الله ورسوله) الآية . وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة رضى الله عنها فقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبد الله بن خراش عن العوام عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى الآية (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات) قال نزلت فى عائشة خاصة وكذا قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال حدثنا أحمد بن عبدة الضبى حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبى سلمة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : رميت بما رميت به وأنا غافلة فبلغنى بعد ذلك ، قالت فبينا رسول الله ﷺ جالس عندى إذ أوحى إليه قالت وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السبات وإنه أوحى إليه وهو جالس عندى ثم استوى جالسا يمسح على وجهه وقال « يا عائشة أبشرى » قالت فقلت بحمد الله لا بحمدك فقرأ (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ـ حتى بلغ ـ أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) هكذا أورده وليس فيه أن الحكم خاص بها وإنما فيه أنها سبب النزول دون غيرها وإن كان الحكم يعمها كغيرها ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله والله أعلم وقال الضحاك وأبو الجوزاء وسلمة بن نبيط : المراد بها أزواج النبى خاصة دون غيرهن من النساء وقال العوفى عن ابن عباس فى الآية (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات) الآية يعنى أزواج النبى ﷺ رماهن أهل النفاق فأوجب الله لهم اللعنة والغضب وباءوا بسخط من الله فكان ذلك فى أزواج النبى ﷺ ثم نزل بعد ذلك (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ـ إلى قوله ـ فان الله غفور رحيم) فأنزل الله الجلد والتوبة فالتوبة تقبل والشهادة ترد . وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا هشيم

أخبرنا العوام بن حوشب عن شيخ من بني أسد عن ابن عباس قال فسر سورة النور فلما أتى على هذه الآية (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات) الآية قال في شأن عائشة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وهي مبهمة وليست لهم توبة ثم قرأ (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء - إلى قوله - إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) الآية قال فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة قال فهم بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه من حسن ما فسر به سورة النور. فقوله وهي مبهمة أي عامة في تحريم قذف كل محصنة ولعنته في الدنيا والآخرة وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هذا في عائشة ومن صنع مثل هذا أيضا اليوم في المسلمات فله ما قال الله تعالى ولكن عائشة كانت أماً في ذلك . وقد اختار ابن جرير عمومها وهو الصحيح ويعضد العموم مارواه ابن أبي حاتم حدثنا أحمد ابن عبد الرحمن ابن أخي وهب حدثني عمي حدثنا سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن أبي الغيث عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اجتنبوا السبع الموبقات » قيل وما هن يا رسول الله ؟ قال « الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » أخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن بلال به ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن عمر أبو خالد الطائي الحرمي حدثني أبي ح وحدثنا أبو شعيب الحراني حدثنا جدي أحمد بن أبي شعيب حدثني موسى ابن أعين عن ليث عن أبي إسحق عن صلة بن زفر عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة » وقوله تعالى (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو يحيي الرازي عن عمرو بن أبي قيس عن مطرف عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال إنهم يعني المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا تعالوا حتى نجحد فيجحدون فيختم على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثاً وروى ابن أبي حاتم وابن جرير أيضاً حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فيجحد ويخاصم فيقال له هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول كذبوا فيقال أهلك وعشيرتك فيقول كذبوا فيقال احلفوا فيحلفون ثم يصمهم الله فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ثم يدخلهم النار » وقال ابن أبي حاتم أيضاً حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبي شيبة الكوفي حدثنا منجاب بن الحارث التميمي حدثنا أبو عامر الأسدي حدثنا سفيان بن عبيد المكتب عن فضيل بن عمرو الفقيمي عن الشعبي عن أنس بن مالك قال كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال : « أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم قال « من مجادلة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول بلى فيقول لا أجيز على شاهداً إلا من نفسي فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام عليك شهودا فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي فتنطق بعمله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل » وقد رواه مسلم والنسائي جميعا عن أبي بكر بن أبي النضر عن أبيه عن عبد الله الأشجعي عن سفيان الثوري به ثم قال النسائي لا أعلم أحدا روى هذا الحديث عن سفيان الثوري غير الأشجعي وهو حديث غريب والله أعلم هكذا قال : وقال قتادة: ابن آدم : والله إن عليك لشهودا غير متهمة من بدنك فراقبهم واتق الله في سرك وعلانيتك فانه لا يخفى عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء والسر عنده علانية فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل ولا قوة إلا بالله . وقوله تعالى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) قال ابن عباس (دينهم) أي حسابهم وكل ما في القرآن دينهم أي حسابهم ، وكذا قال غير واحد ، ثم إن قراءة الجمهور بنصب الحق على أنه صفة لدينهم، وقرأ مجاهد بالرفع على أنه نعت الجلالة ، وقرأها بعض السلف في مصحف أبي بن كعب : يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، وقوله (ويعلمون أن الله هو الحق المبين) أي وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

قال ابن عباس : الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول . والطيبات من القول للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من القول ـ قال ـ ونزلت فى عائشة وأهل الافك وهكذا روى عن مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والشعبى والحسن البصرى وحبيب بن أبى ثابت والضحاك واختاره ابن جرير ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة من كلام هم أولى به وهى أولى بالبراءة والنزاهة منهم ولهذا قال تعالى (أولئك مبرءون مما يقولون) وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء وهذا أيضاً يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم أى ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهى طيبة لأنه أطيب من كل طيب من البشر ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعاً ولا قدراً ولهذا قال تعالى (أولئك مبرءون مما يقولون) أى هم بعداء عما يقوله أهل الافك والعدوان (لهم مغفرة) أى بسبب ما قيل فيهم من الكذب (ورزق كريم) أى عند الله فى جنات النعيم ، وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنة . قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن مسلم حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد السلام بن حرب عن يزيد بن عبد الرحمن عن الحكم بإسناده إلى يحيى بن الجزار قال : جاء أسير بن جابر إلى عبد الله فقال لقد سمعت الوليد بن عقبة تكلم اليوم بكلام أعجبنى فقال عبد الله إن الرجل المؤمن يكون فى قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل فى صدره ما يستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل عنده يتلها فيضمها إليه وإن الرجل الفاجر يكون فى قلبه الكلمة الخبيثة تتجلجل فى صدره ما تستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل الذى عنده يتلها فيضمها إليها ثم قرأ عبد الله (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات و الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) الآية ويشبه هذا مارواه الإمام أحمد فى المسند مرفوعاً « مثل هذا الذى يسمع الحكمة ثم لا يحدث إلا بشر ما سمع كمثل رجل جاء إلى صاحب غنم فقال اجزر لى شاة فقال اذهب فخذ بأذن أيها شئت فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم » وفى الحديث الآخر « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها أخذها »

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾

هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين وذلك فى استئذان أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا أى يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده ، وينبغى أن يستأذن ثلاث مرات فان أذن له وإلا انصرف كما ثبت فى الصحيح أن أباموسى حين استأذن على عمر ثلاثاً فلم يؤذن له انصرف ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله ابن قيس يستأذن ؟ ائذنوا له فطلبوه فوجدوه قد ذهب فلما جاء بعد ذلك قال ما أرجعك ؟ قال إنى استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لى وإنى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فلينصرف » فقال عمر لتأتينى على هذا بينة وإلا أوجعتك ضربا ، فذهب إلى ملإ من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر فقالوا : لا يشهد لك إلا

أصغرنا فقام معه أبو سعيد الخدرى فأخبر عمر بذلك فقال ألهانى عنه الصفق بالأسواق . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ثابت عن أنس أو غيره أن النبي ﷺ استأذن على سعد بن عبادة فقال « السلام عليك ورحمة الله » فقال سعد : وعليك السلام ورحمة الله ولم يسمع النبي صلى الله عليه وسلم حتى سلم ثلاثا ورد عليه سعد ثلاثا ولم يسمعه فرجع النبي ﷺ فاتبعه سعد فقال : يارسول الله بأبى أنت وأمى ما سلمت تسليمة إلا وهى بأذنى ، ولقد رددت عليك ولم أسمعك وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة ثم أدخله البيت فقرب اليه زبيبا فأكل نبي الله فلما فرغ قال « أكل طعامكم الأبرار . وصلت عليكم الملائكة ، وأفطر عندكم الصائمون » وقد روى أبو داود والنسائى من حديث أبى عمرو الأوزاعى سمعت يحيى بن أبى كثير يقول : حدثنى محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن قيس بن سعد هو ابن عبادة قال : زارنا رسول الله ﷺ فى منزلنا فقال « السلام عليكم ورحمة » فرد سعد ردا خفيا قال قيس: فقلت ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال دعه يكثر علينا من السلام فقال رسول الله ﷺ « السلام عليكم ورحمة الله » فرد سعد ردا خفيا ثم قال رسول الله ﷺ « السلام عليكم ورحمة الله » ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعه سعد فقال يارسول الله إنى كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام . قال فانصرف معه رسول الله ﷺ وأمر له سعد بغسل فاغتسل ثم ناوله خميصة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وهو يقول « اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة » قال ثم أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطعام فلما أراد الانصراف قرب اليه سعد حمارا قد وطىء عليه بقطيفة فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سعد ياقيس اصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قيس: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اركب » فأبيت فقال « إما أن تركب وإما أن تنصرف » قال فانصرفت وقد روى هذا من وجوه أخر فهو حديث جيد قوى والله أعلم . ثم ليعلم أنه ينبغى للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره لما رواه أبو داود . حدثنا مؤمل بن الفضل الحرانى فى آخرين قالوا حدثنا بقية حدثنا محمد بن عبد الرحمن عن عبدالله بن بسر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول « السلام عليكم ، السلام عليكم » وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور ، انفرد به أبو داود . وقال أبو داود أيضا حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير حينئذ قال أبو داود حدثنا أبوبكر بن أبى شيبة حدثنا حفص عن الأعمش عن طلحة عن هزيل قال جاء رجل قال عثمان : سعد فوقف على باب النبي صلى الله عليه وسلم يستأذن فقام على الباب قال عثمان مستقبل الباب فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « هكذا عنك ـ أو هكذا ـ فإنما الاستئذان من النظر » وقد رواه أبو داود الطيالسى عن سفيان الثورى عن الأعمش عن طلحة بن مصرف عن رجل عن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم رواه أبوداود من حديثه ، وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فخذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح » وأخرج الجماعة من حديث شعبة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فى دين كان على أبى فدققت الباب فقال « من ذا ؟ » فقلت أنا قال « أنا أنا » كأنه كرهه وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لايعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التى هو مشهور بها وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بأنا فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذى هو الاستئناس المأمور به فى الآية وقال العوفى عن ابن عباس: الاستئناس الاستئذان ، وكذا قال غير واحد ، وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى هذه الآية (لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا) قال إنما هى خطأ من الكتاب حتى تستأذنوا وتسلموا وهكذا رواه هشيم عن أبى بشر وهو جعفر بن إياس عن سعيد عن ابن عباس بمثله ، وزاد وكان ابن عباس يقرأ (حتى تستأذنوا وتسلموا) وكان يقرأ على قراءة أبى بن كعب رضى الله عنه

وهذا غريب جدا عن ابن عباس وقال هشيم أخبرنا مغيرة عن إبراهيم قال في مصحف ابن مسعود حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا ، وهذا أيضاً رواية عن ابن عباس وهو اختيار ابن جرير ، وقد قال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا ابن جريج أخبرني عمرو بن أبي سفيان أن عمرو بن أبي صفوان أخبره أن كلدة بن الحنبل أخبره أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلبأ وجداية وضغابيس والنبي ﷺ بأعلى الوادي قال فدخلت على النبي ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن . فقال ﷺ « ارجع فقل السلام عليكم أأدخل » وذلك بعد ما أسلم صفوان ، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث ابن جريج به وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه ، وروى أبو داود حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو الأحوص عن منصور عن ربعي قال أتى رجل من بني عامر استأذن على رسول الله ﷺ وهو في بيته فقال أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه « اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له: قل السلام عليكم أأدخل » فسمعه الرجل فقال السلام عليكم أأدخل فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم فدخل وقال هشيم أخبرنا منصور عن ابن سيرين وأخبرنا يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد الثقفي أن رجلا استأذن على النبي ﷺ فقال أألج أو أنلج ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأمة له يقال لها روضة « قومي إلى هذا فعلميه فإنه لا يحسن يستأذن فقولي له يقول السلام عليكم أأدخل » فسمعها الرجل فقال : السلام عليكم أأدخل فقال « ادخل » وقال الترمذي حدثنا الفضل بن الصباح حدثنا سعيد بن زكريا عن عنبسة بن عبد الرحمن عن محمد بن زاذان عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « السلام قبل الكلام » ثم قال الترمذي عنبسة ضعيف الحديث ذاهب ومحمد بن زاذان في إسناده نكارة وضعف ، وقال هشيم قال مغيرة قال مجاهد جاء ابن عمر من حاجة وقد آذاه الرمضاء فأتى فسطاط امرأة من قريش فقال السلام عليكم أأدخل ؟ قالت ادخل بسلام فأعاد فأعادت وهو يراوح بين قدميه قال قولي ادخل قالت ادخل فدخل . ولابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو نعيم الأحول حدثني خالد بن إياس حدثتني جدتي أم إياس قالت : كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة فقلن ندخل ؟ فقالت لا ، قلن لصاحبتكن تستأذن فقالت السلام عليكم أندخل ؟ قالت ادخلوا ثم قالت (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها) الآية . وقال هشيم أخبرنا أشعث بن سوار عن كردوس عن ابن مسعود قال عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم ، وقال أشعث عن عدي بن ثابت ان امرأة من الأنصار قالت يارسول الله إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها لا والد ولا ولد وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال : قال فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا) الآية وقال ابن جريج سمعت عطاء بن أبي رباح يخبر عن ابن عباس رضي الله عنه قال : ثلاث آيات جحدهن الناس . قال الله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) قال ويقولون إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتا قال والأدب كله قد جحده الناس قال قلت أستأذن على أخواتي أيتام في حجري معي في بيت واحد ؟ قال نعم فرددت عليه ليرخص لي فأبى فقال تحب أن تراها عريانة ؟ قلت لا قال فاستأذن قال فراجعته أيضاً فقال : أتحب أن تطيع الله ؟ قال قلت نعم قال فاستأذن . قال ابن جريج وأخبرني ابن طاوس عن أبيه قال : ما من امرأة أكره إلي أن أرى عورتها من ذات محرم قال : وكان يشدد في ذلك ، وقال ابن جريج عن الزهري سمعت هزيل بن شرحبيل الأودي الأعمى انه سمع ابن مسعود يقول عليكم الاذن على أمهاتكم ، وقال ابن جريج قلت لعطاء أيستأذن الرجل على امرأته قال لا وهذا محمول على عدم الوجوب وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها . وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا محمد بن حازم عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن يحيى بن الجزار عن ابن أخي زينب امرأة عبد الله بن مسعود عن زينب رضي الله عنها قالت كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه ، إسناده صحيح وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان الواسطي حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي هبيرة قال كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس تكلم ورفع صوته ، وقال مجاهد حتى تستأنسوا قال تنحنحوا أو تنخموا

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال : إذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحنح أو يحرك نعليه ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا — وفي رواية — ليلا يتخونهم ، وفي الحديث الآخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة نهارا فأناخ بظاهرها وقال « انتظروا حتى ندخل عشاء — يعني آخر النهار — حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الرحمن بن سليمان عن واصل بن السائب حدثني أبو سورة ابن أخي أبي أيوب عن أبي أيوب قال قلت يا رسول الله هذا السلام فما الاستئناس ؟ قال « يتكلم الرجل بتسبيحة أو تكبيرة أو تحميدة ويتنحنح فيؤذن أهل البيت » هذا حديث غريب ، وقال قتادة في قوله (حتى تستأنسوا) هو الاستئذان ثلاثا فمن لم يؤذن له منهم فليرجع أما الأولى فليسمع الحي ، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم : وأما الثالثة فان شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم فان للناس حاجات ولهم أشغال والله أولى بالعذر . وقال مقاتل بن حيان في قوله (يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه ويقول حييت صباحا وحييت مساء وكان ذلك تحية القوم بينهم وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول قد دخلت ونحو ذلك فيشق ذلك على الرجل ولعله يكون مع أهله فغير الله ذلك كله في ستر وعفة وجعله نقياً نزها من الدنس والقذر والدرن فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) الآية وهذا الذي قاله مقاتل: حسن ولهذا قال تعالى (ذلكم خير لكم) يعني الاستئذان خير لكم بمعنى هو خير من الطرفين للمستأذن ولأهل البيت (لعلكم تذكرون) وقوله تعالى (فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه فان شاء أذن وإن شاء لم يأذن (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم) أي إذا ردوكم من الباب قبل الإذن أو بعده (فارجعوا هو أزكى لكم)أي رجوعكم أزكى لكم وأطهر (والله بما تعملون عليم) وقال قتادة قال بعض المهاجرين لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها أن أستأذن على بعض اخواني فيقول لي ارجع فأرجع وأنا مغتبط[1] (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم) وقال سعيد بن جبير في الآية أي لاتقفوا على أبواب الناس وقوله تعالى (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة) الآية هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له متاع فيها بغير إذن كالبيت المعد للضيف إذا أذن له فيه أول مرة كفى . قال ابن جريج قال ابن عباس (لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم) ثم نسخ واستثنى فقال تعالى (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم وكذا روي عن عكرمة والحسن البصري وقال آخرون: هي بيوت التجار كالخانات ومنازل الأسفار وبيوت مكة وغير ذلك واختار ذلك ابن جرير وحكاه عن جماعة والأول أظهر والله أعلم ، وقال مالك عن زيد ابن أسلم هي بيوت الشعر

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه وأن يغمضوا أبصارهم عن المحارم ، فان اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعا كما رواه مسلم في صحيحه من حديث يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن جده جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري . وكذا رواه الإمام أحمد عن هشيم عن يونس بن عبيد به ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديثه أيضا وقال الترمذي حسن صحيح وفي رواية لبعضهم فقال « أطرق بصرك » يعني انظر إلى الأرض ، والصرف أعم فانه قد يكون إلى الأرض وإلى جهة أخرى والله أعلم وقال أبو داود حدثنا إسماعيل بن موسى الفزاري حدثنا شريك عن أبي ربيعة الأيادي

(١) في النسخة المكية : متغبط .

عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى « يا على لاتتبع النظرة النظرة فان لك الأولى وليس لك الآخرة » ورواه الترمذى من حديث شريك وقال غريب لانعرفه إلا من حديثه ، وفى الصحيح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والجلوس على الطرقات » قالوا يارسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه » قالوا وما حق الطريق يارسول الله ؟ قال « غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » وقال أبو القاسم البغوى حدثنا طالوت بن عباد حدثنا فضيل بن حسين سمعت أبا أمامة يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « اكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة ، إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا اؤتمن فلا يخن وإذا وعد فلا يخلف وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم واحفظوا فروجكم » وفى صحيح البخارى « من يكفل لى ما بين لحييه وما بين رجليه أكفل له الجنة » وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أيوب عن ابن سيرين عن عبيدة قال كل ماعصى الله به فهو كبيرة وقد ذكر الطرفين فقال (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب كما قال بعض السلف : النظر سهم سم إلى القلب . ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التى هى بواعث إلى ذلك فقال تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا كما قال تعالى (والذين هم لفروجهم حافظون) الآية وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء فى الحديث فى مسند أحمد والسنن « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ماملكت يمينك » (ذلك أزكى لهم) أى أطهر لقلوبهم وأتقى لدينهم كما قيل من حفظ بصره أورثه الله نورا فى بصيرته، ويروى فى قلبه . وروى الإمام أحمد حدثنا عتاب . حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن على بن زيد عن القاسم عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها » وروى هذا مرفوعا عن ابن عمر وحذيفة وعائشة رضى الله عنهم ولكن فى أسانيدها ضعف إلا أنها فى الترغيب ومثله يتسامح فيه، وفى الطبرانى من طريق عبد الله بن يزيد عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة مرفوعا « لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم ولتقيمن وجوهكم أو لتكسفن وجوهكم » وقال الطبرانى حدثنا أحمد بن زهير التسترى قال : قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقرى حدثنا يحيى بن أبى بكير حدثنا هريم بن سفيان عن عبد الرحمن بن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم من تركه مخافتى أبدلته إيمانا يجد حلاوتها فى قلبه » وقوله تعالى (إن الله خبير بما يصنعون) كما قال تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) وفى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق وزنا الأذنين الاستماع وزنا اليدين البطش وزنا الرجلين الخطى والنفس تمنى وتشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » رواه البخارى تعليقا ومسلم مسندا من وجه آخر بنحو ما ذكر وقد قال كثير من السلف إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل نظره إلى الأمرد وقد شدد كثير من أئمة الصوفية فى ذلك وحرمه طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان وشدد آخرون فى ذلك كثيرا جدا وقال ابن أبى الدنيا حدثنا أبو سعيد المدنى حدثنا عمر بن سهل المازنى حدثنى عمر بن محمد بن صهبان عن صفوان بن سليم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « كل عين باكية يوم القيامة إلا عينا غضت عن محارم الله وعينا سهرت فى سبيل الله وعينا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله » عز وجل

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ

بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات وغيرة منه لأزواجهن عباده المؤمنين وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات وكان سبب نزول هذه الآية ماذكره مقاتل بن حيان قال : بلغنا والله أعلم أن جابر بن عبد الله الأنصارى حدث أن أسماء بنت مرثد كانت فى محل لها فى بنى حارثة فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات فيبدو مافى أرجلهن من الخلاخل وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء ماأقبح هذا فأنزل الله تعالى (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) الآية فقوله تعالى (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) أى عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن ، ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلا ، واحتج كثير منهم بما رواه أبوداود والترمذى من حديث الزهرى عن نبهان مولى أم سلمة أنه حدثه أن أم سلمة حدثته أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وميمونة قالت فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله ﷺ « احتجبا منه » فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أو عمياوان أنتما ؟ ألستما تبصرانه » ثم قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد فى المسجد وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملت ورجعت . وقوله (ويحفظن فروجهن) قال سعيد بن جبير :عن الفواحش وقال قتادة وسفيان عما لا يحل لهن وقال مقاتل عن الزنا ، وقال أبو العالية كل آية نزلت فى القرآن يذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنا إلا هذه الآية (ويحفظن فروجهن) أن لا يراها أحد ، وقوله تعالى (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) أى لا يظهرن شيئا من الزينة للاجانب إلا مالا يمكن إخفاؤه : قال ابن مسعود كالرداء والثياب يعنى على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التى تجلل ثيابها وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه لأن هذا لا يمكنها اخفاؤه ونظيره فى زى النساء مايظهر من إزارها وما لا يمكن اخفاؤه وقال بقول ابن مسعود ، الحسن وابن سيرين وأبو الجوزاء وإبراهيم النخعى وغيرهم ، وقال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) قال وجهها وكفيها والخاتم . وروى عن ابن عمر وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير وأبى الشعثاء والضحاك وإبراهيم النخعى وغيرهم نحو ذلك وهذا يحتمل أن يكون تفسيرا للزينة التى نهين عن ابدائها كما قال أبو إسحق السبيعى عن أبى الأحوص عن عبد الله قال فى قوله (ولا يبدين زينتهن) الزينة القرط والدملوج والخلخال والقلادة ، وفى رواية عنه بهذا الإسناد قال : الزينة زينتان فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار وزينة يراها الأجانب وهى الظاهر من الثياب وقال الزهرى لا يبدو لهؤلاء الذين سمى الله ممن لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير حسر وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم ، وقال مالك عن الزهرى (إلا ما ظهر منها) الخاتم والخلخال . ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين وهذا هو المشهور عند الجمهور ويستأنس له بالحديث الذى رواه أبو داود فى سننه حدثنا يعقوب بن كعب الانطاكى ومؤمل بن الفضل الحرانى قالا : حدثنا الوليد عن سعيد بن بشير عن قتادة عن خالد بن دريك عن عائشة رضى الله عنها أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا » وأشار إلى وجهه وكفيه لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازى هو مرسل . خالد بن دريك لم يسمع من عائشة رضى الله عنها والله أعلم وقوله تعالى (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) يعنى المقانع يعمل لها صفات

ضاربات على صدورهن لتوارى ما تحتها من صدرها وترائبها ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية فانهن لم يكن يفعلن ذلك بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحه بصدرها لايواريه شيء وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها فأمر الله المؤمنات أن يستترن فى هيئاتهن وأحوالهن كما قال تعالى (يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) وقال فى هذه الآية الكريمة (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) والخمر جمع خمار وهو مايخمر به أى يغطى به الرأس وهى التى تسميها الناس القانع . قال سعيد بن جبير (وليضربن) وليشددن (بخمرها على جيوبهن) يعنى على النحر والصدر فلا يرى منه شيء وقال البخارى حدثنا أحمد بن شبيب حدثنا أبى عن يونس عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) شققن مروطهن فاختمرن بها. وقال أيضاً حدثنا أبو نعيم حدثنا إبراهيم بن نافع عن الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة أن عائشة رضى الله عنها كانت تقول : لما نزلت هذه الآية (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشى فاختمرن بها وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن عبدالله بن يونس حدثنى الزنجى بن خالد حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن صفية بنت شيبة قالت : بينا نحن عند عائشة قالت فذكرنا نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة رضى الله عنها إن لنساء قريش لفضلا وإنى والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقا لكتاب الله ولا إيمانا بالتنزيل لقد أنزلت سورة النور (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذى قرابته فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتابه فأصبحن وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم معتجرات كأن على رءوسهن الغربان . ورواه أبو داود من غير وجه عن صفية بنت شيبة به ، وقال ابن جرير حدثنا يونس أخبرنا ابن وهب أن قرة بن عبد الرحمن أخبره عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة قالت يرحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) شققن أكثف مروطهن فاختمرن بها .

ورواه أبو داود من حديث ابن وهب به ، وقوله تعالى (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن) أى أزواجهن (أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن) كل هؤلاء محارم المرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ولكن من غير تبرج وقد روى ابن المنذر حدثنا موسى يعنى ابن هارون حدثنا أبو بكر يعنى ابن أبى شيبة حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا داود عن الشعبى وعكرمة فى هذه الآية (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن) حتى فرغ منها وقال لم يذكر العم ولا الخال لأنهما ينعتان لأبنائهما ولا تضع خمارها عند العم والخال ، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره . وقوله (أو نسائهن) يعنى تظهر بزينتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لئلا تصفهن لرجالهن وذلك وإن كان محذوراً فى جميع النساء إلا أنه فى نساء أهل الذمة أشد فانهن لا يمنعهن من ذلك مانع فأما المسلمة فانها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تباشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها » أخرجاه فى الصحيحين عن ابن مسعود وروى سعيد بن منصور فى سننه حدثنا إسماعيل بن عياش عن هشام بن الغازى عن عبادة بن نسى عن أبيه عن الحارث بن قيس أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبى عبيدة : أما بعد فانه بلغنى أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك فانه من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها . وقال مجاهد فى قوله (أو نسائهن) قال نساؤهن المسلمات ليس المشركات من نسائهن وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدى مشركة، وروى عبد الله فى تفسيره عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أو نسائهن قال هن المسلمات لا تبديه ليهودية ولا نصرانية وهو النحر والقرط والوشاح وما لا يحل أن يراه إلا محرم ، وروى سعيد حدثنا جرير عن ليث عن مجاهد قال لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة لأن الله تعالى يقول (أو نسائهن) فليست من نسائهن، وعن مكحول وعبادة بن نسى أنهما كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة ، فأما ما رواه ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا أبو عمير حدثنا

ضمرة قال : قال ابن عطاء عن أبيه قال : لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ بيت المقدس كان قوابل نسائهن اليهوديات والنصرانيات فهذا إن صح فمحمول على حال الضرورة أو أن ذلك من باب الامتهان ثم إنه ليس فيه كشف عورة ولابد والله أعلم . وقوله تعالى (أوما ملكت أيمانهن) قال ابن جرير يعنى من نساء المشركين فيجوز لها أن تظهر زينتها لها ، وإن كانت مشركة لأنها أمتها وإليه ذهب سعيد بن المسيب ، وقال الأكثرون بل يجوز أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء واستدلوا بالحديث الذى رواه أبو داود حدثنا محمد بن عيسى حدثنا أبو جميع سالم بن دينار عن ثابت عن أنس أن النبي صلى الله عليه سلم أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها قال وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ماتلقى قال « إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك » . وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخه فى ترجمة خديج الحمصى مولى معاوية أن عبد الله بن مسعدة الفزارى كان أسود شديد الأدمة وأنه قد كان النبي ﷺ وهبه لابنته فاطمة فربته ثم أعتقته ثم قد كان بعد ذلك كله برز مع معاوية أيام صفين وكان من أشد الناس على علىّ بن أبي طالب رضى الله عنه .
وروى الإمام أحمد حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهرى عن نبهان عن أم سلمة ذكرت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا كان لاحداكن مكاتب وكان له ما يؤدى فلتحتجب منه » ورواه أبو داود عن مسدد عن سفيان به وقوله تعالى (أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال) يعنى كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء وهم مع ذلك فى عقولهم وله وحوب ، ولاهمة لهم إلى النساء ولايشتهونهن قال ابن عباس هو المغفل الذى لا شهوة له . وقال مجاهد هو الأبله ، وقال عكرمة هو المخنث الذى لايقوم ذكره ، وكذلك قال غير واحد من السلف ، وفى الصحيح من حديث الزهرى عن عروة عن عائشة أن مخنثا كان يدخل على أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا يعدونه من غير أولى الاربة فدخل النبي صلى الله عليه وسلم وهو ينعت امرأة يقول إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أرى هذا يعلم ما ههنا لايدخلن عليكم » فأخرجه فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة ليستطعم . وروى الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أبى سلمة عن أم سلمة أنها قالت دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندها مخنث وعندها عبد الله بن أبى أمية يعنى أخاها والمخنث يقول : يا عبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غداً فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل باربع وتدبر بثمان قال فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأم سلمة « لايدخلن هذا عليك » أخرجاه فى الصحيحين من حديث هشام ابن عروة وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رجل يدخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مخنث وكانوا يعدونه من غير أولى الاربة فدخل النبي صلى الله عليه وسلم وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة ، فقال إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ألا أرى هذا يعلم ماههنا لايدخلن عليكم هذا» فحجبوه ورواه مسلم وأبو داود والنسائى من طريق عبد الرزاق به عن أم سلمة وقوله تعالى (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) يعنى لصغرهم لايفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم وتعطفهن فى المشية وحركاتهن وسكناتهن فإذا كان الطفل صغيرا لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء فأما إن كان مراهقا أو قريبا منه بحيث يعرف ذلك ويدريه ويفرق بين الشوهاء والحسناء فلا يمكن من الدخول على النساء ، وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «إياكم والدخول على النساء» قيل يا رسول الله أفرأيت الحمو ؟ قال « الحمو الموت » وقوله تعالى (ولا يضربن بأرجلهن) الآية كانت المرأة فى الجاهلية إذا كانت تمشى فى الطريق وفى رجلها خلخال صامت لايعلم صوتها ضربت برجلها الأرض فيسمع الرجال طنينه فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك ، وكذلك إذا كان شىء من زينتها مستوراً فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفى دخل فى هذا النهى لقوله تعالى (ولايضربن بأرجلهن) إلى آخره ومن ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها فقد قال أبو عيسى الترمذى حدثنا محمد بن بشار حدثنا

يحيى بن سعيد القطان عن ثابت بن عمارة الحنفي عن غنيم بن قيس عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « كل عين زانية والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا » يعني زانية ، وفي الباب عن أبي هريرة وهذا حسن صحيح رواه أبو داود والنسائي من حديث ثابت بن عمارة به . وقال أبو داود حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان عن عاصم بن عبيد الله عن عبيد مولى أبي رهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لقيته امرأة شم منها ريح الطيب ولذيلها إعصار فقال يا أمة الجبار جئت من المسجد ؟ قالت نعم . قال لها : تطيبت قالت نعم .قال إني سمعت حبي أبا القاسم ﷺ يقول « لا تقبل الله صلاة امرأة طيبت لهذا المسجد حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة » ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن سفيان هو ابن عيينة به . وروى الترمذي أيضاً من حديث موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد عن ميمونة بنت سعد أن رسول الله ﷺ قال « الرافلة في الزينة في غير أهلها كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها » ومن ذلك أيضا أنهن ينهين عن المشي في وسط الطريق لما فيه من التبرج . قال أبو داود حدثنا التغلبي حدثنا عبد العزيز يعني ابن محمد عن ابن أبي اليمان عن شداد بن أبي عمرو بن حماس عن أبيه عن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ وهو خارج من المسجد ، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق فقال رسول الله ﷺ للنساء « استأخرن فانه ليس لكن أن تحتضن الطريق ، عليكن بحافات الطريق » فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به وقوله تعالى (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) أي افعلوا ما أمركم به من هذا الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهيا عنه والله تعالى هو المستعان

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة والأوامر المبرمة فقوله تعالى (وأنكحوا الأيامى منكم) إلى آخره هذا أمر بالتزويج . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه واحتجوا بظاهر قوله عليه السلام « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن مسعود وقد جاء في السنن من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : «تزوجوا الولود تناسلوا فاني مباه بكم الأمم يوم القيامة » وفي رواية « حتى بالسقط » الأيامى جمع أيم ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها وللرجل الذي لا زوجة له وسواء كان قد تزوج ثم فارق أولم يتزوج واحد منهما حكاه الجوهري عن أهل اللغة ، يقال رجل أيم وامرأة أيم . وقوله تعالى (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) الآية قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رغبهم الله في التزويج وأمر به الاحرار والعبيد ووعدهم عليه الغنى فقال (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمود بن خالد الأزرق حدثنا عمر بن عبد الواحد عن سعيد — يعني ابن عبد العزيز — قال بلغني أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى قال تعالى (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) وعن ابن مسعود: التمسوا الغنى

فى النكاح . يقول الله تعالى (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) رواه ابن جرير وذكر البغوى عن عمر نحوه .
وعن الليث عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة حق على الله عونهم الناكح يريد العفاف والمكاتب يريد الأداء والغازى فى سبيل الله » رواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه ، وقد زوج النبى ﷺ ذلك الرجل الذى لم يجد عليه إلا إزاره ولم يقدر على خاتم من حديد ومع هذا فزوجه بتلك المرأة وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما معه من القرآن . والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه ما فيه كفاية لها وله ، وأما ما يورده كثير من الناس على أنه حديث « تزوجوا فقراء يغنكم الله » فلا أصل له ولم أره بإسناد قوى ولا ضعيف إلى الآن وفى القرآن غنية عنه وكذا هذه الأحاديث التى أوردناها ولله الحمد والمنة ، وقوله تعالى (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله) هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام كما قال صلى الله عليه وسلم « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » الحديث ، وهذه الآية مطلقة والتى فى سورة النساء أخص منها وهى قوله (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات — إلى قوله — وأن تصبروا خير لكم) أى صبركم عن تزوج الإماء خير لكم لأن الولد يجىء رقيقا (والله غفور رحيم) قال عكرمة فى قوله (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً) قال هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهى فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها ، وإن لم يكن له امرأة فلينظر فى ملكوت السموات والأرض حتى يغنيه الله
وقوله تعالى (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكاتبوهم بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدى إلى سيده المال الذى شارطه على أدائه ، وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب لا أمر تحتم وإيجاب بل السيد مخير إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكاتبه ، قال الثورى عن جابر عن الشعبى إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكاتبه ، وكذا روى ابن وهب عن إسماعيل بن عياش عن رجل عن عطاء بن أبى رباح إن يشأ كاتبه وإن يشأ لم يكاتبه وكذا قال مقاتل بن حيان والحسن البصرى ، وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك أن يجيبه إلى ما طلب أخذاً بظاهر هذا الأمر . وقال البخارى وقال روح عن ابن جريج قلت لعطاء أواجب على إذا علمت له مالا أن أكاتبه ، قال ما أراه إلا واجباً ، وقال عمرو بن دينار قلت لعطاء أتأثره عن أحد ، قال : لا ، ثم أخبرنى أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنساً المكاتبة وكان كثير المال فأبى فانطلق إلى عمر رضى الله عنه فقال كاتبه فأبى فضربه بالدرة ويتلو عمر رضى الله عنه (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) فكاتبه هكذا ذكره البخارى معلقاً ، ورواه عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج قال قلت لعطاء : أواجب على إذا علمت له مالا أن أكاتبه ؟ قال ما أراه إلا واجباً . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن بكر حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك أن سيرين أراد أن يكاتبه فتلكأ عليه فقال له عمر لتكاتبنه إسناد صحيح ، وروى سعيد بن منصور حدثنا هشيم بن جويبر عن الضحاك قال هى عزمة وهذا هو القول القديم من قولى الشافعى وذهب فى الجديد إلى أنه لا يجب لقوله عليه السلام « لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس » وقال ابن وهب قال مالك : الأمر عندنا أنه ليس على سيد العبد أن يكاتبه إذا سأله ذلك ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكاتب عبده . قال مالك وإنما ذلك أمر من الله تعالى وإذن منه للناس وليس بواجب ، وكذا قال الثورى وأبو حنيفة وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم وغيرهم واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية ، وقوله تعالى (إن علمتم فيهم خيراً) قال بعضهم أمانة وقال بعضهم صدقا ، وقال بعضهم مالا ، وقال بعضهم حيلة وكسبا ، وروى أبو داود فى المراسيل عن يحيى بن أبى كثير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) قال « إن علمتم فيهم حرفة ولا ترسلوهم كلا على الناس » : وقوله تعالى (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم معناه اطرحوا لهم من الكتابة بعضها ثم قال بعضهم مقدار الربع ، وقيل الثلث ، وقيل النصف ، وقيل جزء من الكتابة من غير حد ،

وقال آخرون بل المراد من قوله (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) هو النصيب الذى فرض الله لهم من أموال الزكاة وهذا قول الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبيه ومقاتل بن حيان واختاره ابن جرير وقال إبراهيم النخعى فى قوله (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) قال حث الناس عليه مولاه وغيره ، وكذا قال بريدة بن الحصيب الأسلمى وقتادة ، وقال ابن عباس أمر الله المؤمنين أن يعينوا فى الرقاب ، وقد تقدم فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاثة حق على الله عونهم» فذكر منهم المكاتب يريد الأداء والقول الأول أشهر ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا وكيع عن ابن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر أنه كاتب عبدا له يكنى أبا أمية فجاء بنجمه حين حل فقال يا أبا أمية اذهب فاستعن به فى مكاتبتك فقال يا أمير المؤمنين لو تركته حتى يكون من آخر نجم ؟ قال أخاف أن لا أدرك ذلك ثم قرأ (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) قال عكرمة فكان أول نجم أدى فى الإسلام ، وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا هارون بن المغيرة عن عنبسة عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قال : كان ابن عمر إذا كاتب مكاتبا لم يضع عنه شيئا من أول نجومه مخافة أن يعجز فترجع اليه صدقته ، ولكنه إذا كان فى آخر مكاتبته وضع عنه ما أحب ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) قال ضعوا عنهم من مكاتبتهم ، وكذا قال مجاهد وعطاء والقاسم بن أبى بزة وعبد الكريم ابن مالك الجزرى والسدى ، وقال محمد بن سيرين فى الآية كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته ، وقال ابن أبى حاتم أخبرنا الفضل بن شاذان المقرى أخبرنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام بن يوسف عن ابن جريج أخبرنى عطاء ابن السائب أن عبد الله بن جندب أخبره عن على رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « ربع الكتابة » وهذا حديث غريب ورفعه منكر والأشبه أنه موقوف على على رضى الله عنه كما رواه عنه أبو عبد الرحمن السلمى رحمه الله

وقوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) الآية كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزنى وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة فيما ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف فى شأن عبد الله بن أبى ابن سلول فإنه كان له إماء فكان يكرههن على البغاء طلبا لخراجهن ورغبة فى أولادهن ورياسة منه فيما يزعم .

﴿ ذكر الآثار الواردة فى ذلك ﴾

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار رحمه الله فى مسنده حدثنا أحمد بن داود الواسطى حدثنا أبو عمرو اللخمى يعنى محمد بن الحجاج حدثنا محمد بن إسحق عن الزهرى قال كانت جارية لعبد الله بن أبى ابن سلول يقال لها معاذة يكرهها على الزنا فلما جاء الإسلام نزلت (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) الآية ، وقال الأعمش عن أبى سفيان عن جابر فى هذه الآية قال نزلت فى أمة لعبد الله بن أبى ابن سلول يقال لها مسيكة كان يكرهها على الفجور وكانت لا بأس بها فتأبى فأنزل الله هذه الآية (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء — إلى قوله — ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) وروى النسائى من حديث ابن جريج عن أبى الزبير عن جابر نحوه ، وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عمرو بن على حدثنا على بن سعيد حدثنا الأعمش حدثنى أبو سفيان عن جابر قال كان لعبد الله بن أبى ابن سلول جارية يقال لها مسيكة وكان يكرهها على البغاء فأنزل الله (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء — إلى قوله — ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) صرح الأعمش بالسماع من أبى سفيان بن طلحة ابن نافع فدل على بطلان قول من قال لم يسمع منه إنما هو صحيفة حكاه البزار ، وروى أبو داود الطيالسى عن سليمان بن معاذ عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس أن جارية لعبد الله بن أبى كانت تزنى فى الجاهلية فولدت أولادا من الزنا فقال لها مالك لا تزنين قالت والله لا أزنى فضربها فأنزل الله عز وجل (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) ، وروى البزار أيضا حدثنا أحمد بن داود الواسطى حدثنا أبو عمرو اللخمى يعنى محمد بن الحجاج حدثنا محمد بن إسحق عن الزهرى عن أنس رضى الله عنه قال : كانت جارية لعبد الله بن أبى يقال لها معاذة يكرهها على الزنا فلما جاء الإسلام نزلت (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا — إلى قوله — ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم)

وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى أن رجلا من قريش أسر يوم بدر وكان عند عبد الله بن أبى أسيراً وكانت لعبد الله بن أبى جارية يقال لها معاذة وكان القرشى الأسير يريدها على نفسها وكانت مسلمة وكانت تمتنع منه لاسلامها وكان عبد الله بن أبى يكرهها على ذلك ويضربها رجاء أن تحمل من القرشى فيطلب فداء ولده، فقال تبارك وتعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا) . وقال السدى أنزلت هذه الآية الكريمة فى عبد الله ابن أبى ابن سلول رأس المنافقين وكانت له جارية تدعى معاذة وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها إرادة الثواب منه والكرامة له فأقبلت الجارية إلى أبى بكر رضى الله عنه فشكت إليه ذلك فذكره أبو بكر للنبى صلى الله عليه وسلم فأمره بقبضها فصاح عبد الله بن أبى من يعذرنا من محمد يغلبنا على مملوكتنا فأنزل الله فيهم هذا ، وقال مقاتل بن حيان بلغنى والله أعلم أن هذه الآية نزلت فى رجلين كانا يكرهان أمتين لهما إحداهما اسمها مسيكة وكانت للأنصار ، وكانت أميمة أم مسيكة لعبد الله بن أبى وكانت معاذة وأروى بتلك المنزلة فأتت مسيكة وأمها النبى صلى الله عليه وسلم فذكرتا ذلك له فأنزل الله فى ذلك (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) يعنى الزنا ، وقوله تعالى (إن أردن تحصنا) هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، وقوله تعالى (لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) أى من خراجهن ومهورهن وأولادهن وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسب الحجام ومهر البغى وحلوان الكاهن ، وفى رواية « مهر البغى خبيث وكسب الحجام خبيث ، وثمن الكلب خبيث » وقوله تعالى (ومن يكرههن فان الله من بعد إكراههن غفور رحيم) أى لهن كما تقدم فى الحديث عن جابر . وقال ابن أبى طلحة عن ابن عباس فان فعلتم فان الله لهن غفور رحيم وإثمهن على من أكرههن وكذا قال مجاهد وعطاء الخراسانى والأعمش وقتادة : وقال أبو عبيد حدثنى إسحق الأزرق عن عوف عن الحسن فى هذه الآية (فان الله من بعد إكراههن غفور رحيم) قال لهن والله لهن والله: وعن الزهرى قال غفور لهن ما أكرهن عليه وعن زيد بن أسلم قال غفور رحيم للمكرهات ، حكاهن ابن المنذر فى تفسيره بأسانيده ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله حدثنى ابن لهيعة حدثنى عطاء عن سعيد بن جبير قال فى قراءة عبد الله بن مسعود (فان الله من بعد إكراههن غفور رحيم) لهن وإثمهن على من أكرههن ، وفى الحديث المرفوع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

ولما فصل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبينها قال تعالى (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) يعنى القرآن فيه آيات واضحات مفسرات (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) أى خبرا عن الأمم الماضية وما حل بهم فى مخالفتهم أوامر الله تعالى كما قال تعالى (فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) أى زاجرا عن ارتكاب المآثم والمحارم (وموعظة للمتقين)أى لمن اتقى الله وخافه . قال على بن أبى طالب رضى الله عنه فى صفة القرآن : فيه حكم ما بينكم وخبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أظله الله

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (الله نور السموات والأرض) يقول هادى أهل السموات والأرض . قال ابن جريج قال مجاهد وابن عباس فى قوله (الله نور السموات والأرض) يدبر الأمر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما وقال ابن جرير حدثنا سليمان بن عمر بن خالد الرقى حدثنا وهب بن راشد عن فرقد عن أنس بن مالك قال : إن الله يقول نورى هدى واختار هذا القول ابن جرير وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى ابن كعب فى قوله تعالى (الله نور السموات والأرض مثل نوره) قال هو المؤمن الذى جعل الله الإيمان والقرآن

فى صدره فضرب الله مثله فقال (الله نور السموات والأرض) فبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن فقال : مثل نور من آمن به ، قال فكان أبى بن كعب يقرؤها (مثل نور من آمن به) فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن فى صدره وهكذا رواه سعيد بن جبير وقيس بن سعد عن ابن عباس أنه قرأها كذلك (مثل نور من آمن بالله) وقرأ بعضهم (الله منور السموات والأرض) وعن الضحاك (الله نوّر السموات والأرض) وقال السدى فى قوله (الله نور السموات والأرض) فبنوره أضاءت السموات والأرض وفى الحديث الذى رواه محمد بن إسحق فى السيرة عن رسول الله ﷺ أنه قال فى دعائه يوم آذاه أهل الطائف « اعوذ بنور وجهك الذى اشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بى غضبك أو ينزل بى سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله » وفى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يقول : « اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهم ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن » الحديث ، وعن ابن مسعود قال إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور العرش من نور وجهه وقوله تعالى (مثل نوره) فى هذا الضمير قولان (أحدهما) أنه عائد إلى الله عز وجل أى مثل هداه فى قلب المؤمن قاله ابن عباس (كمشكاة) (والثانى) أن الضمير عائد إلى المؤمن الذى دل عليه سياق الكلام تقديره مثل نور المؤمن الذى فى قلبه كمشكاة ، فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه كما قال تعالى (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) فشبه قلب المؤمن فى صفائه فى نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهرى وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافى المشرق المعتدل الذى لا كدر فيه ولا انحراف ، فقوله (كمشكاة) قال ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغير واحد : هو موضع الفتيلة من القنديل هذا هو المشهور ولهذا قال بعده (فيها مصباح) وهو الزبالة التى تضىء . وقال العوفى عن ابن عباس قوله (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) وذلك أن اليهود قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم كيف يخلص نور الله من دون السماء ؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره فقال تعالى (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة) والمشكاة كوة فى البيت ، قال وهو مثل ضربه الله لطاعته فسمى الله طاعته نورا ثم سماها أنواعا شتى ، وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد : هى الكوة بلغة الحبشة وزاد بعضهم فقال المشكاة الكوة التى لا منفذ لها وعن مجاهد المشكاة الحدائد التى يعلق بها القنديل والقول الأول أولى وهو أن المشكاة هو موضع الفتيلة من القنديل ولهذا قال (فيها مصباح) وهو النور الذى فى الزبالة ، قال أبى بن كعب المصباح النور وهو القرآن والإيمان الذى فى صدره وقال السدى هو السراج (المصباح فى زجاجة) أى هذا الضوء مشرق فى زجاجة صافية ، وقال أبى بن كعب وغير واحد وهى نظير قلب المؤمن (الزجاجة كأنها كوكب درى) قرأ بعضهم بضم الدال من غير همزة من الدر أى كأنها كوكب من در ، وقرأ آخرون درىء ودرىء بكسر الدال وضمها مع الهمزة من الدرء وهو الدفع ، وذلك أن النجم إذا رمى به يكون أشد استنارة من سائر الأحوال ، والعرب تسمى مالا يعرف من الكواكب درارى ، قال أبى بن كعب : كوكب مضىء ، وقال قتادة مضىء مبين ضخم (يوقد من شجرة مباركة) أى يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة (زيتونة) بدل أو عطف بيان (لا شرقية ولا غربية) أى ليست فى شرقى بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ولا فى غربيها فيقلص عنها الفىء قبل الغروب بل هى فى مكان وسط تعصرها الشمس من أول النهار إلى آخره فيجىء زيتها صافيا معتدلا مشرقا ، وروى ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عمار قال حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد أخبرنا عمرو بن أبى قيس عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله (زيتونة لا شرقية ولا غربية) قال هى شجرة بالصحراء لا يظلها شجر ولا جبل ولا كهف ولا يواريها شىء وهو أجود لزيتها وقال يحيى بن سعيد القطان عن عمران بن جرير عن عكرمة فى قوله تعالى (لا شرقية ولا غربية) قال هى بصحراء وذلك أصفى لزيتها وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو نعيم حدثنا عمرو بن فروخ عن حبيب بن الزبير عن عكرمة وسأله رجل عن قوله تعالى (زيتونة لا شرقية ولا غربية) قال تلك زيتونة بأرض فلاة إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها فإذا غربت غربت عليها فذلك أصفى ما يكون من الزيت وقال مجاهد فى قوله تعالى (لا شرقية ولا غربية) قال ليست بشرقية لا تصيبها

الشمس إذا غربت ولا غربية لاتصيبها الشمس إذا طلعت ولكنها شرقية وغربية تصيبها إذا طلعت وإذا غربت .

وعن سعيد بن جبير فى قوله (زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء) قال هو أجود الزيت قال إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب الشرق فإذا أخذت فى الغروب أصابتها الشمس ، فالشمس تصيبها بالغداة والعشى فتلك لاتعد شرقية ولا غربية . وقال السدى قوله (زيتونة لاشرقية ولا غربية) يقول ليست بشرقية يحوزها الشرق ولا غربية يحوزها المغرب دون الشرق ولكنها على رأس جبل أوفى صحراء تصيبها الشمس النهار كله . وقيل المراد بقوله تعالى (لاشرقية ولا غربية) أنها فى وسط الشجر ليست بادية للمشرق ولا للمغرب ، وقال أبوجعفر الرازى عن الربيع ابن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قول الله تعالى (زيتونة لاشرقية ولا غربية) قال هى خضراء ناعمة لاتصيبها الشمس على أى حال كانت لا إذا طلعت ولا إذا غربت قال فكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يصيبه شىء من الفتن وقد يبتلى بها فيثبته الله فيها فهو بين أربع خلال ، إن قال صدق ، وإن حكم عدل ، وإن ابتلى صبر ، وإن أعطى شكر فهو فى سائر الناس كالرجل الحى يمشى فى قبور الأموات ، قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا مسدد قال حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير فى قوله (زيتونة لاشرقية ولا غربية) قال هى وسط الشجر لاتصيبها الشمس شرقا ولا غربا ، وقال عطية العوفى (لاشرقية ولا غربية) قال هى شجرة فى موضع من الشجر يرى ظل ثمرها فى ورقها وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عمار حدثنا عبد الرحمن الدشتكى حدثنا عمرو بن أبى قيس عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (لاشرقية ولا غربية) ليست شرقية ليس فيها غرب ، ولا غربية ليس فيها شرق ولكنها شرقية غربية ، وقال محمد بن كعب القرظى (لاشرقية ولاغربية) قال هى القبلية ، وقال زيد بن أسلم (لاشرقية ولا غربية) قال الشام وقال الحسن البصرى لو كانت هذه الشجرة فى الأرض لكانت شرقية أوغربية ، ولكنه مثل ضربه الله تعالى لنوره ، وقال الضحاك عن ابن (توقد من شجرة مباركة) قال رجل صالح (زيتونة لاشرقية ولا غربية) قال لا يهودى ولا نصرانى ، وأولى هذه الأقوال القول الأول وهو أنها فى مستوى من الأرض فى مكان فسيح باد ظاهر ضاح للشمس تقرعه من أول النهار إلى آخره ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف كما قال غير واحد ممن تقدم ولهذا قال تعالى (يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار) قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم يعنى لضوء إشراق الزيت ، وقوله تعالى (نور على نور) قال العوفى عن ابن عباس يعنى بذلك إيمان العبد وعمله ، وقال مجاهد والسدى يعنى نور النار ونور الزيت ، وقال أبى بن كعب (نور على نور) فهو يتقلب فى خمسة من النور ، فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة وقال شمر بن عطية جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال حدثنى عن قول الله تعالى (يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار) قال يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبى كما يكاد ذلك الزيت أن يضىء . وقال السدى فى قوله تعالى (نور على نور) قال نور النار ونور الزيت حين اجتمعا أضاءا ولا يضىء واحد بغير صاحبه كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه . وقوله تعالى (يهدى الله لنوره من يشاء) أى يرشد الله إلى هدايته من يختاره كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا إبراهيم بن محمد الفزارى حدثنا الأوزاعى حدثنى ربيعة بن يزيد عن عبد الله الديلمى عن عبد الله بن عمرو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله تعالى خلق خلقه فى ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ فمن أصاب من نوره يومئذ اهتدى ومن أخطأ ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله عز وجل » ﴿طريق أخرى عنه﴾ قال البزار حدثنا أيوب عن سويد عن يحيى بن أبى عمرو السيبانى عن أبيه عن عبد الله بن عمرو سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله خلق خلقه فى ظلمة فألقى عليهم نوراً من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل » ورواه البزار عن عبدالله بن عمرو من طريق آخر بلفظه وحروفه . وقوله تعالى (ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم) لما ذكر تعالى هذا مثلا لنور هداه فى قلب المؤمن ختم الآية بقوله (ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم)

أى هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الاضلال . قال الإمام أحمد حدثنا أبوالنضر حدثنا أبومعاوية حدثنا شيبان عن ليث عن عمرو بن مرة عن أبى البحترى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق ، عرف ثم أنكر وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النافق فيه كمثل القرحة يمدها الدم والقيح فأى المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » إسناده جيد ولم يخرجوه

﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ * لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح فى الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب وذلك كالقنديل مثلا ذكر محلها وهى المساجد التى هى أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض وهى بيوته التى يعبد فيها ويوحد فقال تعالى (فى بيوت أذن الله أن ترفع) أى أمر الله تعالى بتعاهدها وتطهيرها من الدنس واللغو والأقوال والأفعال التى لاتليق فيها . كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية الكريمة (فى بيوت أذن الله أن ترفع) قال نهى الله سبحانه عن اللغو فيها وكذا قال عكرمة وأبوصالح والضحاك ونافع بن جبير وأبو بكر بن سليمان ابن أبى خيثمة وسفيان بن حسين وغيرهم من العلماء المفسرين . وقال قتادة هى هذه المساجد أمر الله سبحانه وتعالى ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها . وقد ذكر لنا أن كعبا كان يقول : مكتوب فى التوراة إن بيوتى فى الأرض المساجد وإنه من توضأ فأحسن وضوءه ثم زارنى فى بيتى أكرمته وحق على المزور كرامة الزائر رواه عبد الرحمن ابن أبى حاتم فى تفسيره : وقد وردت أحاديث كثيرة فى بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطييبها وتبخيرها وذلك له محل مفرد يذكر فيه وقد كتبت فى ذلك جزءاً على حدة ولله الحمد والمنة ونحن بعون الله تعالى نذكرها هنا طرفا من ذلك إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ، فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله فى الجنة » أخرجاه فى الصحيحين وروى ابن ماجه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من بنى مسجدا يذكر فيه اسم الله بنى الله له بيتا فى الجنة » وللنسائى عن عمرو بن عنبسة مثله والأحاديث فى هذا كثيرة جدا وعن عائشة رضى الله عنها قالت أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد فى الدور وأن تنظف وتطيب . رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائى ، ولأحمد وأبى داود عن سمرة بن جندب نحوه وقال البخارى قال عمر : ابن للناس ما يكنهم وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس ، وروى ابن ماجه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم » وفى إسناده ضعف . وروى أبوداود عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أمرت بتشييد المساجد » قال ابن عباس أزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى . وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لاتقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد » رواه أحمد وأهل السنن إلا الترمذى وعن بريدة أن رجلا أنشد فى المسجد فقال من دعا إلى الجمل الأحمر فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لا وجدت إنما بنيت المساجد لما بنيت له » رواه مسلم . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيع والابتياع وعن تناشد الأشعار فى المساجد . رواه أحمد وأهل السنن وقال الترمذى حسن . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد

فقولوا لاأربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد ضالة فى المسجد فقولوا لاردها الله عليك » رواه الترمذى وقال حسن غريب ، وقد روى ابن ماجه وغيره من حديث ابن عمر مرفوعا قال : خصال لاتنبغى فى المسجد : لايتخذ طريقاً ولايشهر فيه سلاح ولاينبض فيه بقوس ولاينثر فيه نبل ولايمر فيه بلحم نىء ولايضرب فيه حد ولايقتص فيه أحد ولايتخذ سوقا ، وعن واثلة بن الأسقع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « جنبوا المساجد صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيوفكم واتخذوا على أبوابها المطاهر وجمروها فى الجمع » ورواه ابن ماجه أيضا وفى إسنادهما ضعف ، أما أنه لايتخذ طريقا فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجة إذا وجد مندوحة عنه ، وفى الأثر إن الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لايصلى فيه ، وأما أنه لايشهر فيه السلاح ولاينبض فيه بقوس ولاينثر فيه نبل فلما يخشى من إصابة بعض الناس به لكثرة المصلين فيه ، ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مر رجل بسهام أن يقبض على نصالها لئلا يؤذى أحدا كما ثبت ذلك فى الصحيح وأما النهى عن المرور باللحم النىء فيه فلما يخشى من تقاطر الدم منه كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلويث ، وأما أنه لايضرب فيه حد ولا يقتص منه فلما يخشى من إيجاد النجاسة فيه من المضروب أو المقطوع ، وأما أنه لايتخذ سوقا فلما تقدم من النهى عن البيع والشراء فيه فانه إنما بنى لذكر الله والصلاة فيه كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لذلك الأعرابى الذى بال فى طائفة المسجد « إن المساجد لم تبن لهذا إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها » ثم أمر بسجل من ماء فأهريق على بوله وفى الحديث الثانى « جنبوا مساجدكم صبيانكم » وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم ، وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا رأى صبيانا يلعبون فى المسجد ضربهم بالمخفقة وهى الدرة وكان يفتش المسجد بعد العشاء فلا يترك فيه أحداً « ومجانينكم » يعنى لأجل ضعف عقولهم وسخر الناس بهم فيؤدى إلى اللعب فيها ولما يخشى من تقذيرهم المسجد ونحو ذلك « وبيعكم وشراءكم » كما تقدم « وخصوماتكم » يعنى التحاكم والحكم فيه ، ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لاينتصب لفصل الأقضية فى المسجد بل يكون فى موضع غيره لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والألفاظ التى لاتناسبه ، ولهذا قال بعده « ورفع أصواتكم »

وقال البخارى : حدثنا على بن عبد الله حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا الجعد بن عبد الرحمن قال : حدثنى يزيد بن خصيفة عن السائب بن يزيد الكندى قال : كنت قائما فى المسجد فحصبنى رجل فنظرت فاذا عمر بن الخطاب فقال : اذهب فائتنى بهذين فجئته بهما فقال من أنتما ؟ أو من أين أنتما ؟ قالا من أهل الطائف . قال لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما ترفعان أصواتكما فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال النسائى : حدثنا سويد بن نصر عن عبد الله ابن المبارك عن شعبة عن سعد بن إبراهيم عن أبيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : سمع عمر صوت رجل فى المسجد فقال ، أتدرى أين أنت ؟ وهذا أيضا صحيح وقوله « وإقامة حدودكم وسل سيوفكم » تقدما وقوله « واتخذوا على أبوابها المطاهر » يعنى المراحيض التى يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة . وقد كانت قريبا من مسجد رسول الله ﷺ آبار[1] يستقون منها فيشربون ويتطهرون ويتوضئون وغير ذلك . وقوله « وجمروها فى الجمع » يعنى بخروها فى أيام الجمع لكثرة اجتماع الناس يومئذ ، وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا عبيد الله حدثنا عبد الرحمن ابن مهدى عن عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن عمر كان يجمر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كل جمعة . إسناده حسن لابأس به والله أعلم وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « صلاة الرجل فى الجماعة تضعف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمساً وعشرين ضعفا » وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لايخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة . فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه . ولايزال فى صلاة ماانتظر الصلاة . وعند الدارقطنى مرفوعا « لاصلاة لجار المسجد إلافى المسجد » وفى السنن « بشر المشائين إلى المساجد فى الظلم بالنور التام يوم القيامة » ويستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى وأن يقول كما ثبت فى صحيح البخارى[2] عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول

(١) فى النسخة المكية : أباريق (٢) هو فى أبى داود .

الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا دخل المسجد يقول « أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم » قال فإذا قال ذلك قال الشيطان حفظ منى سائر اليوم . وروى مسلم بسنده عن أبى حميد أو أبى أسيد قال : قال رسول الله ﷺ « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح أبواب رحمتك . وإذا خرج فليقل: اللهم إنى أسألك من فضلك » ورواه النسائى عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبى صلى الله عليه وسلم وليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك وإذا خرج فليسلم على النبى ﷺ وليقل : اللهم اعصمنى من الشيطان الرجيم » ورواه ابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا ليث بن أبى سليم عن عبد الله بن حسين عن أمه فاطمة بنت حسين عن جدتها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال « اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك » وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال « اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك » ورواه الترمذى وابن ماجه وقال الترمذى هذا حديث حسن وإسناده ليس بمتصل لأن فاطمة بنت حسين الصغرى لم تدرك فاطمة الكبرى فهذا الذى ذكرناه مع ماتركناه من الأحاديث الواردة فى ذلك كله محاذرة الطول داخل فى قوله تعالى (فى بيوت أذن الله أن ترفع) وقوله (ويذكر فيها اسمه) أى اسم الله كقوله (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) وقوله (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) وقوله (وأن المساجد لله) الآية . وقوله تعالى (ويذكر فيها اسمه) قال ابن عباس يعنى يتلى كتابه ، وقوله تعالى (يسبح له فيها بالغدو والآصال) أى فى البكرات والعشيات . والآصال جمع أصيل وهو آخر النهار . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : كل تسبيح فى القرآن هو الصلاة وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : يعنى بالغدو صلاة الغداة ويعنى بالآصال صلاة العصر وهما أول ما افترض الله من الصلاة فأحب أن يذكرهما وأن يذكر بهما عباده . وكذا قال الحسن والضحاك (يسبح له فيها بالغدو والآصال) يعنى الصلاة ، ومن قرأ من القراء (يسبح له فيها بالغدو والآصال) بفتح الباء من (يسبح) على أنه مبنى لما لم يسم فاعله وقف على قوله (والآصال) وقفا تاما وابتدأ بقوله (رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) وكأنه مفسر للفاعل المحذوف كما قال الشاعر :

ليبك يزيد ضارع لخصومة ❋ ومختبط مما تطيح الطوائح

كأنه قال : من يبكيه قال هذا يبكيه ، وكأنه قيل من يسبح له فيها ، قال رجال . وأما على قراءة من قرأ (يسبح) بكسر الباء فجعله فعلا وفاعله (رجال) فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل لأنه تمام الكلام فقوله تعالى (رجال) فيه إشعار بهممهم السامية ونياتهم وعزائمهم العالية التى بها صاروا عمارا للمساجد التى هى بيوت الله فى أرضه ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه كما قال تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) الآية وأما النساء فصلاتهن فى بيوتهن أفضل لهن لما رواه أبو داود عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها ، وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها »

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين حدثنى عمرو عن أبى السمح عن السائب مولى أم سلمة عن أم سلمة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : « خير مساجد النساء قعر بيوتهن » وقال أحمد أيضا : حدثنا هرون أخبرنى عبد الله بن وهب حدثنا داود بن قيس عن عبد الله بن سويد الأنصارى عن عمته أم حميد امرأة أبى حميد الساعدى أنها جاءت النبى ﷺ فقالت يارسول الله إنى أحب الصلاة معك . قال « قد علمت أنك تحبين الصلاة معى ، وصلاتك فى بيتك خير من صلاتك فى حجرتك ، وصلاتك فى حجرتك خير من صلاتك فى دارك ، وصلاتك فى دارك خير من صلاتك فى مسجد قومك ، وصلاتك فى مسجد قومك خير من صلاتك فى مسجدى » قال فأمرت فبنى لها مسجد فى أقصى بيت من بيوتها فكانت والله تصلى فيه حتى لقيت الله تعالى ، لم يخرجوه . هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال بشرط أن لاتؤذى أحدا من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب كما ثبت فى الصحيح عن عبد الله بن عمر أنه

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتمنعوا إماء الله مساجد الله » رواه البخاري ومسلم ، ولأحمد وأبي داود « وبيوتهن خير لهن » وفي رواية « وليخرجن وهن تفلات » أي لاريح لهن . وقد ثبت في صحيح مسلم عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبا » وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس ، وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت : لو أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد كما منعت نساء بني إسرائيل . وقوله تعالى (رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) الآيه وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) الآية يقول تعالى لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وربحها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق ، ولهذا قال تعالى (لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) أي يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم ، قال هشيم عن شيبان قال حدثت عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق حيث نودي للصلاة المكتوبة تركوا بياعاتهم ونهضوا إلى الصلاة فقال عبد الله بن مسعود هؤلاء من الذين ذكر الله في كتابه (رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) الآية وهكذا روى عمرو بن دينار القهرماني عن سالم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد فقال ابن عمر فيهم نزلت (رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن عبد الله بن بكير الصنعاني حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا عبد الله بن بجير حدثنا أبو عبد ربه قال : قال أبو الدرداء رضي الله إني قمت على هذا الدرج أبايع عليه أربح كل يوم ثلثمائة دينار أشهد الصلاة في كل يوم في المسجد أما إني لا أقول إن ذلك ليس بحلال ولكني أحب أن أكون من الذين قال الله فيهم (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) وقال عمرو بن دينار الأعور كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة وخمروا متاعهم فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد فتلا سالم هذه الآية (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ثم قال هم هؤلاء ، وكذا قال سعيد ابن أبي الحسن والضحاك لاتلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها . وقال مطر الوراق كانوا يبيعون ويشترون ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه وأقبل إلى الصلاة ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) يقول عن الصلاة المكتوبة ، وكذا قال مقاتل بن حيان والربيع بن أنس وقال السدي عن الصلاة في جماعة . وقال مقاتل بن حيان لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة وأن يقيموها كما أمرهم الله وأن يحافظوا على مواقيتها وما استحفظهم الله فيها ، وقوله تعالى (يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار) أي يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار أي من شدة الفزع وعظمة الأهوال كقوله (وأنذرهم يوم الآزفة) الآية وقوله (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) وقال تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاءاً ولاشكورا * إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) وقوله تعالى ههنا (ليجزيهم الله أحسن ما عملوا) أي هؤلاء من الذين يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم وقوله (ويزيدهم من فضله) أي يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم كما قال تعالى (إن الله لايظلم مثقال ذرة) الآية وقال تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) الآية وقال (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسنا) الآية وقال (والله يضاعف لمن يشاء) وقال ههنا (والله يرزق من يشاء بغير حساب) وعن ابن مسعود أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحداً واحداً فكلهم لم يشربه لأنه كان صائما فتناوله ابن مسعود فشربه لأنه كان مفطراً ثم تلا قوله (يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) رواه النسائي

وابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عنه . وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا سويد بن سعيد حدثنا علي ابن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : قال رسول الله ﷺ « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ليقم الذين لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون وهم قليل ثم يحاسب سائر الخلائق » وروى الطبراني من حديث بقية عن إسماعيل بن عبد الله الكندي عن الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) قال أجورهم يدخلهم الجنة ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة لمن صنع لهم المعروف في الدنيا

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار كما ضرب للمنافقين في أول البقرة مثلين ناريا ومائيا وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدى والعلم في سورة الرعد مثلين مائيا وناريا ، وقد تكلمنا على كل منها في موضعه بما أغنى عن إعادته ولله الحمد والمنة . فأما الأول من هذين المثلين فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات وليسوا في نفس الأمر على شيء فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض من بعد كأنه بحر طام ، والقيعة جمع قاع كجار وجيرة ، والقاع أيضا واحد القيعان كما يقال جار وجيران وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب ، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار وأما الآل فإنما يكون أول النهار يرى كأنه ماء بين السماء والأرض فاذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء يحسبه ماء قصده ليشرب منه فلما انتهى إليه (لم يجده شيئا) فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملا وأنه قد حصل شيئا فاذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله لم يجد له شيئاً بالكلية قد قبل إما لعدم الإخلاص أو لعدم سلوك الشرع كما قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) وقال ههنا (ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) وهكذا روى عن أبي بن كعب وابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد . وفي الصحيحين أنه يقال يوم القيامة لليهود ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون كنا نعبد عزير بن الله . فيقال كذبتم ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون ؟ فيقولون يا رب عطشنا فاسقنا فيقال ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سرب يحطم بعضها بعضا فينطلقون فيتهافتون فيها ، وهذا المثال مثال لذوي الجهل المركب فأما أصحاب الجهل البسيط وهم الطاطم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالى (أو كظلمات في بحر لجي) قال قتادة (لجي) هو العميق (يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها) أي لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده ولا يدري أين يذهب بل كما يقال في المثل للجاهل أين تذهب ؟ قال معهم ، قيل فالى أين يذهبون ، قال لا أدري وقال . العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما (يغشاه موج) الآية يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر وهي كقوله (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم) الآية وكقوله (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) الآية وقال أبي بن كعب في قوله تعالى (ظلمات بعضها فوق بعض) فهو يتقلب في خمسة من الظلم فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار ، وقال السدي والربيع بن أنس نحو ذلك أيضا ، وقوله تعالى (ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور) أي من لم يهده الله فهو هالك

جاهل حائل بائر كافر كقوله (من يضلل الله فلا هادى له) وهذا فى مقابلة ما قال فى مثل المؤمنين (يهدى الله لنوره من يشاء) فنسأل الله العظيم أن يجعل فى قلوبنا نورا وعن أيماننا نورا وعن شمائلنا نورا وأن يعظم لنا نورا

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له من فى السموات والأرض أى من الملائكة والأناسى والجان والحيوان حتى الجماد كما قال تعالى (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) الآية : وقوله تعالى (والطير صافات) أى فى حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه وهو يعلم ما هى فاعلة ولهذا قال تعالى (كل قد علم صلاته وتسبيحه) أى كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه فى عبادة الله عز وجل . ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شىء ولهذا قال تعالى (والله عليم بما يفعلون) ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض فهو الحاكم المتصرف الإله المعبود الذى لا تنبغى العبادة إلا له ولا معقب لحكمه (وإلى الله المصير) أى يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا) الآية فهو الخالق المالك ألا له الحكم فى الدنيا والأخرى وله الحمد فى الأولى والآخرة

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾

يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهى ضعيفة وهو الازجاء (ثم يؤلف بينه) أى يجمعه بعد تفرقه (ثم يجعله ركاما) أى متراكما أى يركب بعضه بعضاً (فترى الودق) أى المطر (يخرج من خلاله) أى من خلله وكذا قرأها ابن عباس والضحاك ، قال عبيد بن عمير الليثى يبعث الله المثيرة فتقم الأرض قما ثم يبعث الله الناشئة فتنشىء السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه ثم يبعث الله اللواقح فتلقح السحاب . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير رحمهما الله ، وقوله (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) قال بعض النحاة (من) الأولى لابتداء الغاية والثانية للتبعيض والثالثة لبيان الجنس وهذا إنما يجىء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله (من جبال فيها من برد) معناه أن فى السماء جبال برد ينزل الله منها البرد ، وأما من جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب فان من الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضا لكنها بدل من الأولى والله أعلم ، وقوله تعالى (فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء) يحتمل أن يكون المراد بقوله (فيصيب به) أى بما ينزل من السماء من نوعى المطر والبرد فيكون قوله (فيصيب به من يشاء) رحمة لهم (ويصرفه عمن يشاء) أى يؤخر عنهم الغيث ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله (فيصيب به) أى بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم ، وقوله (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار) أى يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته . وقوله تعالى (يقلب الله الليل والنهار) أى يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا فى قصر هذا حتى يعتدلا ثم يأخذ من هذا فى هذا فيطول الذى كان قصيراً ويقصر الذى كان طويلا والله هو المتصرف فى ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه (إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) أى لدليلا على عظمته تعالى كما قال تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) وما بعدها من الآيات الكريمات

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي

عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم فى خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد (فمنهم من يمشى على بطنه) كالحية وما شاكلها (ومنهم من يمشى على رجلين) كالإنسان والطير (ومنهم من يمشى على أربع) كالأنعام وسائر الحيوانات ولهذا قال (يخلق الله ما يشاء) أى بقدرته لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولهذا قال (إن الله على كل شىء قدير)

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

يقرر تعالى أنه أنزل فى هذا القرآن من الحكم والحكم والأمثال البينة المحكمة كثيراً جداً وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولى الألباب والبصائر والنهى ولهذا قال (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم)

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾

يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون يقولون قولا بألسنتهم (آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك) أى يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون مالا يفعلون ولهذا قال تعالى (وما أولئك بالمؤمنين) وقوله تعالى (وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم) الآية أى إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا فى أنفسهم عن اتباعه وهذه كقوله تعالى (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك — إلى قوله — رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) وفى الطبرانى من حديث روح بن عطاء عن أبى ميمونة عن الحسن عن سمرة مرفوعا « من دعى إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له » وقوله تعالى (وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين) أى وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاءوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله (مذعنين) وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق وأحب أن يتحاكم إلى غير النبى صلى الله عليه وسلم ليروج باطله ثم . فاذعانه أولا لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق بل لأنه موافق لهواه ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه إلى غيره ولهذا قال تعالى (أفى قلوبهم مرض) الآية يعنى لا يخرج أمرهم عن أن يكون فى القلوب مرض لازم لها أو قد عرض لها شك فى الدين أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم فى الحكم ، وأياً ما كان فهو كفر محض والله عليم بكل منهم وما هو منطو عليه من هذه الصفات ، وقوله تعالى (بل أولئك هم الظالمون) أى بل هم الظالمون الفاجرون ، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور تعالى الله ورسوله عن ذلك . قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا مبارك حدثنا الحسن قال : كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة فدعى إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو محق أذعن وعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم سيقضى له بالحق ، وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبى صلى الله عليه وسلم أعرض وقال أنطلق إلى فلان فأنزل الله هذه الآية فقال النبى صلى الله عليه وسلم « من كان بينه وبين أخيه شىء فدعى

إلى حكم من حكام المسلمين فأبى أن يجيب فهو ظالم لاحق له » وهـذا حديث غريب وهو مرسل ، ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لايبغون دينا سوى كتاب الله وسنة رسوله فقال (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا) أى سمعا وطاعة . ولهـذا وصفهم تعالى بالفلاح وهو نيل المطلوب والسـلامة من الرهوب فقال تعالى (وأولئك هم المفلحون) وقال قتادة فى هـذه الآية (أن يقولوا سمعنا وأطعنا) ذكر لنا أن عبادة بن الصامت وكان عقبيا بدريا أحـد نقباء الأنصار أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبى أميـة : ألا أنبئك بماذا عليك وبمـاذا لك ؟ قال بلى قال فان عليك السمع والطاعة فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك ، وعليك أن تقيم لسانك بالعـدل ، وأن لاتنازع الأمر أهـله إلا أن يأمروك بمعصـية الله بواحا فما أمرت به من شيء يخـالف كتاب الله فاتبع كتاب الله . وقال قتادة : ذكر لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولاخـير إلا فى جماعة والنصيحة لله ولرسوله والخليفة وللمؤمنـين عامة ، قال وقـد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه كان يقول : عروة الإسـلام شهادة أن لاإله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين . رواه ابن أبى حاتم والأحاديث والآثار فى وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله وللخلفاء الراشدين والأئمة إذا أمروا بطاعة الله أكثر من أن تحصر فى هذا المكان

وقوله (ومن يطع الله ورسوله) قال قتادة : يطع الله ورسوله فيما أمره به وترك مانهياه عنـه ويخش الله فيما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل . وقوله (فأولئك هم الفائزون) يعنى الذين فازوا بكل خـير وأمنوا من كل شر فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَـٰغُ الْمُبِينُ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول صلى الله عليه وسـلم لئن أمرتهم بالخروج فى الغزو ليخرجن ، قال الله تعالى (قل لاتقسموا) أى لاتحلفوا ، وقوله (طاعة معروفة) قيل معناه طاعتكم طاعـة معروفة أى قد علم طاعتكم إنما هى قول لافعل معه وكلما حلفتم كذبتم كما قال تعالى (يحلفون لكم لترضوا عنهم) الآية . وقال تعالى (اتخذوا أيمانهم جنة) الآية ، فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه كما قال تعالى (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولانطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لايخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لاينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لاينصرون) وقيل المعنى فى قوله (طاعة معروفة) أى ليكن أمركم طاعة معروفة أى بالمعروف من غـير حلف ولا اقسام كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغـير حلف فكونوا أنتم مثلهم (إن الله خبـير بمـا تعملون) أى هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصى ، فالحلف واظهار الطاعة والباطن بخلافه وإن راج على المخلوق فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى لايروج عليه شيء من التدليس بل هو خبير بضمائر عباده وإن أظهروا خلافها ثم قال تعالى (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أى اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله . وقوله تعالى (فإن تولوا) أى تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به (فإنما عليه ماحمل) أى إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة (وعليكم ماحملتم) أى بقبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه (وإن تطيعوه تهتدوا) وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم (صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) الآية وقوله تعالى (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) كقوله تعالى (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وقوله (فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر) قال وهب بن منبه ، أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له شعياء

أن قم فى بنى إسرائيل فانى سأطلق لسانك بوحى فقام فقال : ياسماء اسمعى ويا أرض أنصتى فإن الله يريد أن يقضى شأناً ويدبر أمراً هو منفذه إنه يريد أن يحول الريف إلى الفلاة والآجام فى الغيطان والأنهار فى الصحارى والنعمة فى الفقراء والملك فى الرعاة ويريد أن يبعث أميا من الأميين ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق لو يمر على السراج لم يطفئه من سكينته ولو يمشى على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه ، أبعثه بشيرا ونذيراً لا يقول الخنى أفتح به أعينا عميا وآذاناً صما وقلوبا غلفا ، وأسدده بكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم به من الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأعرف به بعد النكرة ، وأكثر به القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأستنقذ به فئاما من الناس عظيما من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر موحدين مؤمنين مخلصين مصدقين بما جاءت به الرسل رواه ابن أبى حاتم .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أى أئمة الناس والولاة عليهم، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد. وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة : فانه صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها . وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر واسكندرية وهو المقوقس . وملوك عمان والنجاشى ملك الحبشة الذى تملك بعد أصحمة رحمه الله وأكرمه . ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق فلم شعث ما وهى بعد موته صلى الله عليه وسلم وأخذ جزيرة العرب ومهدها وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رضى الله عنه ففتحوا طرفا منها وقتلوا خلقا من أهلها . وجيشا آخر صحبة أبى عبيدة رضى الله عنه ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثا صحبة عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى بلاد مصر ، ففتح الله للجيش الشامى فى أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها وتوفاه الله عز وجل واختار له ماعنده من الكرامة . ومن على أهل الاسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق فقام بالأمر بعده قياما تاما لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله فى قوة سيرته وكمال عدله . وتم فى أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها وديار مصر إلى آخرها وأكثر أقليم فارس . وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان وتقهقر إلى أقصى مملكته وقصر قيصر ، وانتزع يده عن بلاد الشام وانحدر إلى القسطنطينية ، وأنفق أموالهما فى سبيل الله ، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة ، ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الاسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ماهنالك الأندلس وقبرص : وبلاد القيروان وبلاد سبتة مما يلى البحر المحيط ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية ، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا ، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان ، وجبى الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن ، ولهذا ثبت فى الصحيح

أن رسول الله ﷺ قال « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله فنسأل الله الإيمان به وبرسوله والقيام بشكره على الوجه الذى يرضيه عنا قال الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه : حدثنا ابن أبى عمر حدثنا سفيان عن عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يزال أمر الناس ماضيا ماولهم اثنا عشر رجلا » ثم تكلم النبى صلى الله عليه وسلم بكلمة خفيت عنى فسألت أبى ماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال قال « كلهم من قريش » ورواه البخارى من حديث شعبة عن عبد الملك بن عمير به ، وفى رواية لمسلم أنه قال ذلك عشية رجم ماعز ابن مالك وذكر معه أحاديث أخر وفى هذا الحديث دلالة على أنه لا بد من وجود اثنى عشر خليفة عادلا وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثنى عشر فان كثيرا من أولئك لم يكن لهم من الأمر شىء ، فأما هؤلاء فانهم يكونون من قريش يلون فيعدلون وقد وقعت البشارة بهم فى الكتب المتقدمة ، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين بل يكون وجودهم فى الأمة متتابعا ومتفرقا ، وقد وجد منهم أربعة على الولاء وهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم ثم كانت بعدهم فترة ثم وجد منهم من شاء الله ، ثم قد يوجد منهم من بقى فى الوقت الذى يعلمه الله تعالى . ومنهم المهدى الذى اسمه يطابق اسم رسول الله ﷺ وكنيته كنيته يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جوراً وظلما وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث سعيد بن جمهان عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله ﷺ قال « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضوضا » وقال الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) الآيه قال كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحوا من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته وحده لاشريك له سراً ، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموها فأمرهم الله بالقتال فكانوا بها خائفين يمسون فى السلاح ويصبحون فى السلاح فصبروا على ذلك ما شاء الله ثم إن رجلا من الصحابة قال يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليست فيه حديدة » وأنزل الله هذه الآية فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فآمنوا ووضعوا السلاح . ثم إن الله تعالى قبض نبيه صلى الله عليه وسلم فكانوا كذلك آمنين فى إمارة أبى بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فيه فأدخل عليهم الخوف فاتخذوا الحجزة والشرط وغيروا فغير بهم وقال بعض السلف خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما حق فى كتاب الله ثم تلا هذه الآية، وقال البراء بن عازب نزلت هذه الآية ونحن فى خوف شديد ، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى (واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون فى الأرض — إلى قوله — لعلكم تشكرون) وقوله تعالى (كما استخلف الذين من قبلهم) كما قال تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض) الآية وقال تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض) الآيتين . وقوله (وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم) الآية كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم حين وفد عليه « أتعرف الحيرة ؟ » قال لم أعرفها ولكن قد سمعت بها قال « فو الذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » قلت كسرى بن هرمز ؟ قال « نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد » قال عدى بن حاتم فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى ابن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قالها . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن أبى سلمة عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة والدين والنصر والتمكين فى الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة

للدنيا لم يكن له فى الآخرة نصيب » وقوله تعالى (يعبدوننى لا يشركون بى شيئا) قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام حدثنا قتادة عن أنس أن معاذ بن جبل حدثه قال : بينا أنا رديف النبى ﷺ على حمار ليس بينى وبينه إلا آخرة الرحل قال « يامعاذ » قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال : ثم سار ساعة ثم قال « يامعاذ بن جبل » قلت لبيك يارسول الله وسعديك ثم سار ساعة ثم قال « يا معاذ بن جبل » قلت لبيك يارسول الله وسعديك قال « هل تدرى ما حق الله على العباد ؟ » قلت الله ورسوله أعلم ، قال « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » قال ثم سار ساعة ثم قال « يا معاذ بن جبل » قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال « فهل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قال قلت الله ورسوله أعلم قال « فإن حق العباد على الله أن لا يعذبهم » أخرجاه فى الصحيحين من حديث قتادة وقوله تعالى (ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) أى فمن خرج عن طاعتى بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنبا عظيما ، فالصحابة رضى الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبى ﷺ بأوامر الله عزوجل وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم أظهروا كلمة الله فى المشارق والمغارب وأيدهم تأييدا عظيما وحكموا فى سائر العباد والبلاد ، ولما قصر الناس بعدهم فى بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم ، ولكن قد ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال « لاتزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة — وفى رواية حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك — وفى رواية — حتى يقاتلوا الدجال — وفى رواية — حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون » وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِى الْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين باقامة الصلاة وهى عبادة الله وحده لاشريك له وإيتاء الزكاة وهى الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا فى ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ أى سالكين وراءه فيما به أمرهم ، وترك ما عنه زجرهم ، لعل الله يرحمهم بذلك ، ولاشك أن من فعل هذا أن الله سيرحمهم كما قال تعالى فى الآية الأخرى (أولئك سيرحمهم الله) . وقوله تعالى (لا تحسبن) أى لا تظن يا محمد أن (الذين كفروا) أى خالفوك وكذبوك (معجزين فى الأرض) أى لايعجزون الله بل الله قادر عليهم وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ولهذا قال تعالى (ومأواهم) أى فى الدار الآخرة (النار ولبئس المصير) أى بئس المآل مآل الكافرين ، وبئس القرار وبئس المهاد

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوٰةِ الْعِشَآءِ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْأَيَـٰتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا كَمَا اسْتَـْٔذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَالْقَوَٰعِدُ مِنَ النِّسَآءِ الَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض وما تقدم فى أول السورة فهو استئذان

الأجانب بعضهم على بعض ، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم فى ثلاثة أحوال (الأول) من قبل صلاة الغداة لأن الناس إذ ذاك يكونون نياما فى فرشهم (وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة) أى فى وقت القيلولة لأن الانسان قد يضع ثيابه فى تلك الحال مع أهله (ومن بعد صلاة العشاء) لأنه وقت النوم فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت فى هذه الأحوال لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الأعمال ولهذا قال (ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) أى إذا دخلوا فى حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم فى تمكينكم إياهم ولا عليهم إن رأوا شيئا فى غير تلك الأحوال لأنه قد أذن لهم فى الهجوم ولأنهم طوافون عليكم أى فى الخدمة وغير ذلك . ويغتفر فى الطوافين مالا يغتفر فى غيرهم ولهذا روى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى الهرة « إنها ليست بنجسة إنها من الطوافين عليكم ـ أو والطوافات ـ » . ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشىء وكان عمل الناس بها قليلا جداً أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثنى عبد الله بن لهيعة حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) إلى آخر الآية ، والآية التى فى سورة النساء (وإذا حضر القسمة أولو القربى) الآية ، والآية التى فى الحجرات (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وفى لفظ له أيضاً من حديث إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف عن عمرو بن دينار عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال : غلب الشيطان الناس على ثلاث آيات فلم يعملوا بهن (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) إلى آخر الآية . وروى أبو داود حدثنا ابن الصباح وابن سفيان وابن عبدة وهذا حديثه أخبرنا سفيان عن عبيد الله بن أبى يزيد سمع ابن عباس يقول : لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن وإنى لآمر جاريتى هذه تستأذن على قال أبو داود وكذلك رواه عطاء عن ابن عباس يأمر به ، وقال الثورى عن موسى بن أبى عائشة سألت الشعبى (ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) قال : لم تنسخ قلت فان الناس لا يعملون بها فقال : الله المستعان وقال ابن أبى حاتم حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا ابن وهب أخبرنا سليمان بن بلال عن عمرو بن أبى عمرو عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلين سألاه عن الاستئذان فى ثلاث عورات التى أمر الله بها فى القرآن فقال ابن عباس : إن الله ستير يحب الستر ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجال فى بيوتهم فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمه فى حجره وهو على أهله فأمرهم الله أن يستأذنوا فى تلك العورات التى سمى الله . ثم جاء الله بعد بالستور فبسط الله عليهم الرزق فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذى أمروا به . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ، ورواه أبو داود عن القعنبى عن الدراوردى عن عمرو بن أبى عمر به : وقال السدى كان اناس من الصحابة رضى الله عنهم يحبون أن يواقعوا نساءهم فى هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذن ، وقال مقاتل بن حيان بلغنا والله أعلم أن رجلا من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرثد صنعا للنبى ﷺ طعاما فجعل الناس يدخلون بغير إذن : فقالت أسماء يارسول الله ما أقبح هذا إنه ليدخل على المرأة وزوجها وهما فى ثوب واحد غلامهما بغير إذن فأنزل الله فى ذلك (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم) إلى آخرها ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ قوله (كذلك يبين الله لكم الآيات والله حكيم عليم) ثم قال تعالى (وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم) يعنى إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون فى العورات الثلاث إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال يعنى بالنسبة إلى أجانبهم وإلى الأحوال التى يكون الرجل على امرأته ، وإن لم يكن فى الأحوال الثلاث .

قال الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير إذا كان الغلام رباعيا فانه يستأذن فى العورات الثلاث على أبويه ، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال . وهكذا قال سعيد بن جبير . وقال فى قوله (كما استأذن الذين من قبلهم) يعنى كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه ، وقوله (والقواعد من النساء) قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والضحاك وقتادة

هن اللواتى انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد (اللاتى لايرجون نكاحاً) أى لم يبق لهن تشوف إلى التزوج (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة) أى ليس عليها من الحجر فى التستر كما على غيرها من النساء قال أبو داود حدثنا أحمد بن محمد المروزى حدثنى على بن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) الآية فنسخ واستثنى من ذلك القواعد من النساء اللاتى لايرجون نكاحاً الآية . قال ابن مسعود فى قوله (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن) قال الجلباب أو الرداء وكذلك روى عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد وسعيد بن جبير وأبى الشعثاء وإبراهيم النخعى والحسن وقتادة والزهرى والأوزاعى وغيرهم ، وقال أبو صالح تضع الجلباب وتقوم بين يدى الرجل فى الدرع والخمار وقال سعيد بن جبير وغيره فى قراءة عبدالله بن مسعود (أن يضعن من ثيابهن) وهو الجلباب من فوق الخمار فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره بعد أن يكون عليها خمار صفيق . وقال سعيد بن جبير فى الآية (غير متبرجات بزينة) يقول لايتبرجن بوضع الجلباب ليرى ماعليهن من الزينة . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام بن عبد الله حدثنا ابن المبارك حدثنى سوار بن ميمون حدثنا طلحة بن عاصم عن أم المصاعن[1] أنها قالت دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت يا أم المؤمنين ما تقولين فى الخضاب والنفاض والصباغ والقرطين والخلخال وخاتم الذهب وثياب الرقاق فقالت : يامعشر النساء قصتكن كلها واحدة أحل الله لكن الزينة غير متبرجات ، أى لا يحل لكن أن يروا منكن محرما . وقال السدى كان شريك لى يقال له مسلم ، وكان مولى لامرأة حذيفة بن اليمان فجاء يوما إلى السوق وأثر الحناء فى يده فسألته عن ذلك فأخبرنى أنه خضب رأس مولاته وهى امرأة حذيفة فأنكرت ذلك فقال إن شئت أدخلتك عليها فقلت نعم فأدخلنى عليها فاذا هى امرأة جليلة فقلت لها إن مسلما حدثنى أنه خضب رأسك فقالت نعم يابنى إنى من القواعد اللاتى لايرجون نكاحاً وقد قال الله تعالى فى ذلك ماسمعت . وقوله (وأن يستعففن خير لهن) أى وترك وضعهن لثيابهن ، وإن كان جائزاً خير وأفضل لهن والله سميع عليم

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

اختلف المفسرون رحمهم الله فى المعنى الذى رفع لأجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ههنا فقال عطاء الخراسانى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقال إنها نزلت فى الجهاد وجعلوا هذه الآية ههنا كالتى فى سورة الفتح وتلك فى الجهاد لامحالة أى أنهم لا إثم عليهم فى ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم وكما قال تعالى فى سورة براءة (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم * ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه — إلى قوله — أن لايجدوا ما ينفقون) وقيل المراد ههنا أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى لأنه لايرى الطعام وما فيه من الطيبات فربما سبقه غيره إلى ذلك ولا مع الأعرج لأنه لايتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه والمريض لايستوفى من الطعام كغيره فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم فأنزل الله هذه الآية رخصة فى ذلك وهذا قول سعيد بن جبير ومقسم ، وقال الضحاك كانوا

(١) لم نر هذا الاسم فى كتب أسماء الرواة وفى النسخة الأميرية أم الضياء

قبل البعثة يتحرجون من الأكل مع هؤلاء تقذراً وتعززاً ولئلا يتفضلوا عليهم فأنزل الله هذه الآية . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى (ليس على الأعمى حرج) الآية قال كان الرجل يذهب بالأعمى أو بالأعرج أو بالمريض إلى بيت أبيه أو أخيه أو بيت أخته أو بيت عمته أو بيت خالته فكان الزمني يتحرجون من ذلك يقولون إنما يذهبون بنا إلى بيوت عشيرتهم فنزلت هذه الآية رخصة لهم، وقال السدى كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه فتتحفه المرأة بشيء من الطعام فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم فقال الله تعالى (ليس على الأعمى حرج) الآية وقوله تعالى (ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم) إنما ذكر هذا وهو معلوم ليعطف عليه غيره في اللفظ وليساوى به ما بعده في الحكم وتضمن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وقد جاء في المسند والسنن من غير وجه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أنت ومالك لأبيك » وقوله (أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم - إلى قوله - أو ما ملكتم مفاتحه) هذا ظاهر وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض كما هو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل في المشهور عنهما ، وأما قوله (أو ما ملكتم مفاتحه) فقال سعيد بن جبير والسدى :هو خادم الرجل من عبد وقهرمان فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف وقال الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت :كان المسلمون يذهبون في النفير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم ويقولون قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه فكانوا يقولون إنه لا يحل لنا أن نأكل انهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن أمناء فأنزل الله (أو ما ملكتم مفاتحه) وقوله (أو صديقكم) أى بيوت أصدقائكم وأصحابكم فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك ، وقال قتادة إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه وقوله (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً) قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية وذلك لما أنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) قال المسلمون إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام هو أفضل من الأموال فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد فكف الناس عن ذلك فأنزل الله (ليس على الأعمى حرج - إلى قوله - أو صديقكم) وكانوا أيضاً يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره فرخص الله لهم في ذلك فقال (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً)وقال قتادة :كان هذا الحى من بنى كنانة يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية حتى ان كان الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه فأنزل الله (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً) فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل كما رواه الإمام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد ابن مسلم عن وحشى بن حرب عن أبيه عن جده أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم إنا نأكل ولا نشبع . قال « لعلكم تأكلون متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه » ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث الوليد بن مسلم به ، وقد روى ابن ماجه أيضاً من حديث عمرو بن دينار القهرمانى عن سالم عن أبيه عن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال « كلوا جميعاً ولا تفرقوا فإن البركة مع الجماعة » وقوله (فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم) قال سعيد بن جبير والحسن البصرى وقتادة والزهرى يعنى فليسلم بعضكم على بعض ، وقال ابن جريج أخبرنى أبو الزبير سمعت جابر بن عبد الله يقول إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبه قال ما رأيته إلا يوجبه قال ابن جريج وأخبرنى زياد عن ابن طاوس أنه كان يقول : إذا دخل أحدكم بيته فليسلم قال ابن جريج قلت لعطاء أواجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم ؟ قال لا ولا أوثر وجوبه عن أحد ولكن هو أحب إلى وما أدعه إلا ناسياً . وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل السلام على رسول الله ، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وروى الثورى عن عبد الكريم الجزرى عن مجاهد إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل بسم الله والحمد لله السلام علينا من ربنا ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وقال

قتادة : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإنه كان يؤمر بذلك. وحدثنا أن الملائكة ترد عليه وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عويد بن أبي عمران الجونى عن أبيه عن أنس قال : أوصانى النبي ﷺ بخمس خصال قال « يا أنس أسبغ الوضوء يزد فى عمرك وسلم على من لقيك من أمتى تكثر حسناتك ، وإذا دخلت - يعنى بيتك - فسلم على أهلك يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك . يا أنس ارحم الصغير ووقر الكبير تكن من رفقائى يوم القيامة » . وقوله (تحية من عند الله مباركة طيبة) قال محمد بن إسحق حدثنى داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول : ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله سمعت الله يقول (فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة) فالتشهد فى الصلاة : التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله . أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، ثم يدعو لنفسه ويسلم . وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث ابن إسحق . والذى فى صحيح مسلم عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ يخالف هذا والله أعلم وقوله (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) لما ذكر تعالى مافى هذه السور الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة نبه تعالى عباده على أنه يبين لعباده الآيات بيانا شافيا ليتدبروها ويتعقلوها لعلهم يعقلون .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف لاسيما إذا كانوا فى أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع فى مشورة ونحو ذلك أمرهم الله تعالى أن لا يتفرقوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته ، وإن من يفعل ذلك فانه من المؤمنين الكاملين ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم فى ذلك أن يأذن له إن شاء ولهذا قال (فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم) الآية . وقد قال أبو داود حدثنا أحمد بن حنبل ومسدد قالا حدثنا بشر هو ابن المفضل عن عجلان عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم فإذا أراد أن يقوم فليسلم فليست الأولى بأحق من الآخرة» وهكذا رواه الترمذى والنسائى من حديث محمد بن عجلان به وقال الترمذى حديث حسن

﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قال الضحاك عن ابن عباس كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاما لنبيه صلى الله عليه وسلم قال فقولوا يا نبى الله يا رسول الله وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير . وقال قتادة : أمر الله أن يهاب نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يبجل وأن يعظم وأن يسود : وقال مقاتل فى قوله (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) يقول لا تسموه إذا دعوتموه يامحمد ولا تقولوا ياابن عبد الله ولكن شرفوه فقولوا يا نبى الله يارسول الله وقال مالك عن زيد بن أسلم فى قوله (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) قال أمرهم الله أن يشرفوه

هذا قول وهو الظاهر من السياق كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا) إلى آخر الآية وقوله (ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون — إلى قوله — إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم) الآية فهذا كله من باب الأدب فى مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم والكلام معه وعنده كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته . والقول الثاني فى ذلك أن المعنى فى (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) أى لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره فان دعاءه مستجاب فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا حكاه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن البصرى وعطية العوفى والله أعلم . وقوله (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً) قال مقاتل ابن حيان هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث فى يوم الجمعة ويعنى بالحديث الخطبة فيلوذون ببعض أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حتى يخرجوا من المسجد وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا باذن من النبي ﷺ فى يوم الجمعة بعد ما يأخذ فى الخطبة وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب بطلت جمعته وقال السدى : كانوا إذا كانوا معه فى جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم ، وقال قتادة فى قوله (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) يعنى لواذا عن نبي الله وعن كتابه . وقال سفيان (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) قال من الصف ، وقال مجاهد فى الآية (لواذا) خلافا . وقوله (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) أى عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله فما وافق ذلك قبل وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » أى فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطنا وظاهراً (أن تصيبهم فتنه) أى فى قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة (أو يصيبهم عذاب أليم) أى فى الدنيا بقتل أوحد أو حبس أو نحو ذلك كما روى الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللائى يقعن فى النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها — قال — فذلك مثلى ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبونى وتقتحمون فيها » أخرجاه من حديث عبد الرزاق

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنه عالم الغيب والشهادة وهو عالم بما العباد عاملون فى سرهم وجهرهم فقال (قد يعلم ما أنتم عليه) وقد للتحقيق كما قال قبلها (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) وقال تعالى (قد يعلم الله المعوقين منكم) الآية وقال تعالى (قد سمع الله قول التى تجادلك) الآية وقال (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فانهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)وقال(قد نرى تقلب وجهك فى السماء) الآية فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقد كقول المؤذن تحقيقا وثبوتاً : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة . فقوله تعالى (قد يعلم ما أنتم عليه) أى هو عالم به مشاهد له لا يعزب عنه مثقال ذرة كما قال تعالى (وتوكل على العزيز الرحيم — إلى قوله — إنه هو السميع العليم) وقوله (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين وقال تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أى هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر ، وقال

تعالى (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) وقال تعالى (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) الآية وقال تعالى (ومامن دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين) وقال (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً . وقوله (ويوم يرجعون إليه) أي ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة (فينبئهم بما عملوا) أي يخبرهم بما فعلوا في الدنيا من جليل وحقير وصغير وكبير كما قال تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) وقال (ووضع الكتب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا) ولهذا قال ههنا (ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم) والحمد لله رب العالمين ونسأله التمام . آخر تفسير سورة النور ولله الحمد والمنة.

﴿ تفسير سورة الفرقان مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيراً * الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾

يقول تعالى حامدا لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم كما قال تعالى (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) الآية وقال ههنا (تبارك) وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة (الذى نزل الفرقان) نزل فعل من التكرر والتكثر كقوله (والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل) لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة والقرآن نزل منجما مفرقا مفصلا آيات بعد آيات وأحكاما بعد أحكام وسوراً بعد سور وهذا أشد وأبلغ وأشد اعتناء بمن أنزل عليه كما قال في أثناء هذه السورة (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) ولهذا سماه ههنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال ، والغي والرشاد والحلال والحرام وقوله (على عبده) هذه صفة مدح وثناء لأنه أضافه إلى عبوديته كما وصفه بها في أشرف أحواله وهي ليلة الإسراء فقال (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا)وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه فقال (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) وقوله (ليكون للعالمين نذيرا) أي إنما خصه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) الذى جعله فرقانا عظيما ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ويستقل على الغبراء كما قال ﷺ « بعثت إلى الأحمر والأسود » وقال « إني أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي » فذكر منهن : أنه « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » كما قال تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) الآية أي الذي أرسلني هو مالك السموات والأرض الذى يقول للشيء كن فيكون وهو الذى يحيي ويميت ، وهكذا قال ههنا (الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك) ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك . ثم أخبر أنه (خلق كل شيء فقدره تقديراً) أي كل شيء مما سواه مخلوق مربوب وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُوراً ﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شىء المالك لأزمة الأمور الذى ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ومع هـذا عبدوا معه من الأصنام مالا يقـدر على خلق جناح بعوضة بل هم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا فكيف يملكون لعابديهم ؟ (ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) أى ليس لهم من ذلك شىء بل ذلك كله مرجعه إلى الله عز وجل الذى هو يحيي ويميت ، وهو الذى يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) كقوله (وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر) وقوله (فإنما هى زجرة واحدة فإذاهم بالساهرة) (فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون) (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميعا لدينا محضرون) فهو الله الذى لا إله غيره ولا رب سواه ولا تنبغى العبادة إلا له لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو الذى لا ولد له ولا والد ولا عديل ولا بديل ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن سخافة عقول الجهلة من الكفار فى قولهم عن القرآن (إن هذا إلا إفك) أى كذب (افتراه) يعنون النبى صلى الله عليه وسلم (وأعانه عليه قوم آخرون) أى واستعان على جمعه بقوم آخرين فقال الله تعـالى (فقد جاءوا ظلما وزورا) أى فقد افتروا هم قولا باطلا وهم يعلمون أنه باطل ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها) يعنون كتب الأوائل أى استنسخها (فهى تملى عليه) أى تقرأ عليه (بكرة وأصيلا) أى فى أول النهار وآخره وهـذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم كل أحد يعلم بطلانه فانه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يعانى شيئا من الكتابة لا فى أول عمره ولا فى آخره وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوا من أربعين سنة وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه ونزاهته وبره وأمانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة حتى إنهم كانوا يسمونه فى صغره ، وإلى أن بعث الأمين ، لما يعلمون من صدقه وبره فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة ورموه بهذه الأقوال التى يعلم كل عاقل براءته منها وحاروا فيما يقذفونه به فتارة من إفكهم يقولون ساحر وتارة يقولون شاعر وتارة يقولون مجنون وتارة يقولون كذاب، وقال الله تعـالى (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) وقال تعـالى فى جواب ماعاندوا ههنا وافتروا (قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض) الآية أى أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين اخبارا حقا صـدقا مطابقا للواقع فى الخارج ماضيا ومستقبلا (الذى يعلم السر) أى الله الذى يعلم غيب السموات والأرض ، ويعـلم السرائر كعلمه بالظواهر ، وقوله تعـالى (إنه كان غفورا رحيما) دعاء لهم إلى التوبة والانابة وإخبار لهم بأن رحمته واسعة وأن حلمه عظيم ، مع أن من تاب إليه تاب عليه، فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم وكفرهم وعنادهم وقولهم عن الرسول والقرآن ماقالوا يدعوهم إلى التوبة والاقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى كما قال تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ومامن إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) وقال تعالى (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) قال الحسن البصرى: انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا *

أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا * انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلاحجة ولادليل منهم وإنما تعللوا بقولهم (مالهذا الرسول يأكل الطعام) يعنون كما نأكله ويحتاج إليه كما نحتاج إليه (ويمشى فى الأسواق) أى يتردد فيها وإليها طلباللتكسب والتجارة (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا) يقولون هلاأنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه وهذا كما قال فرعون (فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم ولهذاقالوا (أويلقى إليه كنز) أى علم كنز ينفق منه (أو تكون له جنة يأكل منها)أى تسيرمعه حيث سار ، وهذا كله سهل يسير على الله ولكن له الحكمة فى ترك ذلك وله الحجة البالغة (وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) قال الله تعالى (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا) أى جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك من قولهم ساحرمسحور مجنون كذاب شاعر وكلها أقوال باطلة كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم فى ذلك ولهذا قال (فضلوا)عن طريق الهدى (فلا يستطيعون سبيلا) وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فانه ضال حيثما توجه لأن الحق واحد ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضا ثم قال تعالى مخبرا نبيه أنه إن شاء لآتاه خيرا مما يقولون فى الدنيا وأفضل وأحسن فقال (تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك) الآية ، قال مجاهد يعنى فى الدنيا قال وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصرا كبيرا كان أو صغيرا قال سفيان الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن خيثمة قيل للنبى صلى الله عليه وسلم إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبيا قبلك ، ولا نعطى أحدا من بعدك ولا ينقص ذلك مما لك عند الله فقال « اجمعوها لى فى الآخرة » فأنزل الله عز وجل فى ذلك (تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك) الآية وقوله (بل كذبوا بالساعة) أى إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيبا وعنادا لا أنهم يطلبون ذلك تبصرا واسترشادا بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال (وأعتدنا) أى أرصدنا (لمن كذب بالساعة سعيرا) أى عذابا أليما حارا لا يطاق فى نار جهنم قال الثورى عن سلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير (السعير) واد من قيح جهنم وقوله (إذا رأتهم) أى جهنم (من مكان بعيد) يعنى فى مقام المحشر . قال السدى من مسيرة مائة عام (سمعوا لها تغيظا وزفيرا) أى حنقا عليهم كما قال تعالى (إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور تكاد تميز من الغيظ) أى يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله، وروى ابن أبى حاتم حدثنا إدريس بن حاتم بن الأخنف الواسطى أنه سمع محمد بن الحسن الواسطى عن أصبغ بن زيد عن خالد بن كثير عن خالد بن دريك بإسناده عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يقل على مالم أقل أو ادعى إلى غير والديه أو انتمى إلى غير مواليه فليتبوأ مقعده من النار — وفى رواية — فليتبوأ بين عينى جهنم مقعدا » قيل يا رسول الله وهل لها من عينين ؟ قال أما سمعتم الله يقول (إذا رأتهم من مكان بعيد) » الآية ورواه ابن جرير عن محمد بن خداش عن محمد ابن يزيد الواسطى به وقال أيضا حدثنا أبى حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا أبو بكر بن عياش عن عيسى بن سليم عن أبى وائل قال خرجنا مع عبد الله يعنى ابن مسعود ومعنا الربيع بن خيثم فمروا على حداد فقام عبد الله ينظر إلى

حديدة فى النار ، وينظر الربيع بن خيثم اليها فتمايل الربيع ليسقط فمر عبد الله على أتون على شاطىء الفرات فلما رآه عبد الله والنار تلتهب فى جوفه قرأ هذه الآية (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيراً) فصعق يعنى الربيع وحملوه إلى أهل بيته فرابطه عبد الله إلى الظهر فلم يفق رضى الله عنه ، وحدثنا أبى حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا إسرائيل عن أبى يحيى عن مجاهد عن ابن عباس قال : إن العبد ليجر إلى النار فتشهق إليه شهقة البغلة إلى الشعير ثم تزفر زفرة لايبقى أحد إلا خاف ، هكذا رواه ابن أبى حاتم باسناده مختصرا ، وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا أحمد ابن إبراهيم الدورقى حدثنا عبيد الله بن موسى أخبرنا إسرائيل عن أبى يحيى عن مجاهد باسناده إلى ابن عباس قال: إن الرجل ليجر إلى النار فتنزوى وتنقبض بعضها إلى بعض فيقول لها الرحمن مالك ؟ قالت إنه يستجير منى فيقول أرسلوا عبدى وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول يارب ما كان هذا الظن بك فيقول فما كان ظنك ؟ فيقول أن تسعنى رحمتك ، فيقول أرسلوا عبدى وإن الرجل ليجر إلى النار فتشهق اليه النار شهقة البغلة إلى الشعير وتزفر زفرة لايبقى أحد إلا خاف وهذا إسناد صحيح : وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن منصور عن مجاهد عن عبيد بن عمير فى قوله (سمعوا لها تغيظا وزفيراً) قال إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا خر لوجهه ترتعد فرائصه حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول : رب لا أسألك اليوم إلا نفسى . وقوله (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين) قال قتادة عن أبى أيوب عن عبد الله بن عمرو قال : مثل الزج فى الرمح أى من ضيقه . وقال عبد الله بن وهب أخبرنى نافع بن يزيد عن يحيى بن أبى أسيد يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن قول الله (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين) قال « والذى نفسى بيده ! إنهم ليستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط » وقوله (مقرنين) قال أبو صالح يعنى مكتفين (دعوا هنالك ثبوراً) أى بالويل والحسرة والخيبة (لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً) الآية . روى الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن على بن يزيد عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده وهو ينادى ياثبوراه وينادون ياثبورهم حتى يقفوا على النار فيقول ياثبوراه ويقولون ياثبورهم فيقال لهم لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً ، وادعوا ثبوراً كثيراً » لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، ورواه ابن أبى حاتم عن أحمد بن سنان عن عفان به ، ورواه ابن جرير من حديث حماد بن سلمة به . وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله (لاتدعوا اليوم ثبوراً واحداً) الآية أى لاتدعوا اليوم ويلا واحداً وادعوا ويلا كثيرا ، وقال الضحاك الثبور: الهلاك والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار كما قال موسى لفرعون (وإنى لأظنك يافرعون مثبوراً) أى هالكا قال عبد الله بن الزبعرى

إذ أجارى الشيطان فى سنن الغـ ـى ومن مال ميله مثبور

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ۞ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾

يقول تعالى : يامحمد هذا الذى وصفناه لك من حال الأشقياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم فتلقاهم بوجه عبوس وتغيظ وزفير ويلقون فى أماكنها الضيق مقرنين لايستطيعون حراكا ولا استنصارا ولا فكاكا مما هم فيه أهذا خير أم جنة الخلد التى وعدها الله المتقين من عباده التى أعدها لهم وجعلها لهم جزاء ومصيرا على ما أطاعوه فى الدنيا وجعل مآلهم اليها (لهم فيها مايشاءون) من الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ومناظر وغير ذلك مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد وهم فى ذلك خالدون أبدا دائماً سرمدا بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ولا يبغون عنها حولا وهذا من وعد الله الذى تفضل به عليهم وأحسن به إليهم ولهذا قال (كان على ربك وعدا مسئولا) أى لابد أن يقع وأن يكون كما حكاه أبو جعفر بن جرير عن بعض علماء

العربية أن معنى قوله (وعدا مسئولا) أى وعدا واجبا . وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس (كان على ربك وعدا مسئولا) يقول فسألوا الذى وعدهم وتنجزوه ، وقال محمد بن كعب القرظى فى قوله (كان على ربك وعدا مسئولا) إن الملائكة تسأل لهم ذلك (ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم) . وقال أبو حازم إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون ربنا عملنا لك بالذى أمرتنا فأنجز لنا ماوعدتنا فذلك قوله (وعدا مسئولا) وهذا المقام فى هذه السورة من ذكر النار ثم التنبيه على حال أهل الجنة كما ذكر تعالى فى سورة الصافات حال أهل الجنة ومافيها من النضرة والحبور ثم قال (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم * إنا جعلناها فتنة للظالمين * إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم * طلعها كأنه رءوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم * ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم إنهم ألفوا آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون) .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار فى عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم فقال (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله) قال مجاهد هو عيسى والعزير والملائكة (فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء) الآية أى فيقول تبارك وتعالى للمعبودين أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دونى أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم كما قال الله تعالى (وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك إنك أنت علام الغيوب ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به) الآية ولهذا قال تعالى مخبراً عما يجيب به المعبودون يوم القيامة (قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) قرأ الأكثرون بفتح النون من قوله (نتخذ من دونك من أولياء) أى ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك لانحن ولاهم فنحن مادعوناهم إلى ذلك بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم كما قال تعالى (ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك) الآية وقرأ آخرون (ما كان ينبغى لنا أن نتخذ[1] من دونك من أولياء) أى ماينبغى لأحد أن يعبدنا فإنا عبيد لك فقراء إليك وهى قريبة المعنى من الأولى (ولكن متعتهم وآباءهم) أى طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر أى نسوا ما أنزلته اليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لاشريك لك (وكانوا قوما بوراً) قال ابن عباس أى هلكى ، وقال الحسن البصرى ومالك عن الزهرى أى لاخير فيهم . وقال ابن الزبعرى حين أسلم :

يارسول المليك إن لسانى راتق مافتقت إذ أنا بور
إذ أجارى الشيطان فى سنن الغى ومن مال ميله مثبور

قال الله تعالى (فقد كذبوكم بما تقولون) أى فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى كقوله تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقوله (فما تستطيعون صرفا ولا نصرا) أى لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم (ومن يظلم منكم) أى يشرك بالله (نذقه عذابا كبيراً)

(١) أى بضم النون وفتح الخاء .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين أنهم كانوا يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذى به ويمشون فى الأسواق للتكسب والتجارة وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم فان الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة والصفات الجميلة والأقوال الفاضلة والأعمال الكاملة والخوارق الباهرة والأدلة الظاهرة ما يستدل به كل ذى لب سليم وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاءوا به من الله ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) وقوله (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام) الآية وقوله تعالى (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون) أى اختبرنا بعضكم ببعض وبلونا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصى ولهذا قال (أتصبرون وكان ربك بصيرا) أى بمن يستحق أن يوحى إليه كما قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ومن لا يستحق ذلك ، وقال محمد بن إسحق فى قوله (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون) قال: يقول الله لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون لفعلت ولكنى قد أردت أن أبتلى العباد بهم وأبتليكم بهم وفى صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى إنى مبتليك ومبتلى بك » وفى المسند عن رسول الله ﷺ « لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة » وفى الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبياً ملكا أو عبداً رسولا فاختار أن يكون عبداً رسولا

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا * وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا * أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن تعنت الكفار فى كفرهم ، وعنادهم فى قولهم (لولا أنزل علينا الملائكة) أى بالرسالة كما تنزل على الأنبياء كما أخبر الله عنهم فى الآية الأخرى (قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) ويحتمل أن يكون مرادهم ههنا (لولا أنزل علينا الملائكة) فنراهم عيانا فيخبرونا أن محمداً رسول الله كقولهم (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) وقد تقدم تفسيرها فى سورة سبحان ولهذا قالوا (أو نرى ربنا) ولهذا قال الله تعالى (لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا) وقد قال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى) الآية وقوله تعالى (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا) أى هم لا يرون الملائكة فى يوم خير لهم بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار ، والغضب من الجبار فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : أخرجى أيتها النفس الخبيثة فى الجسد الخبيث ، أخرجى إلى سموم وحميم وظل من يحموم فتأبى الخروج وتتفرق فى البدن فيضربونه كما قال الله تعالى (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) الآية وقال تعالى (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم) أى بالضرب (أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) ولهذا قال فى هذه الآية الكريمة (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم فانهم يبشرون بالخيرات ، وحصول المسرات . قال الله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون نزلا من غفور رحيم) وفى الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : ان

الملائكة تقول لروح المؤمن اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب إن كنت تعمرينه ، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان . وقد تقدم الحديث في سورة إبراهيم عند قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) وقال آخرون : بل المراد بقوله (يوم يرون الملائكة لا بشرى) يعني يوم القيامة ، قاله مجاهد والضحاك وغيرهما ، ولا منافاة بين هـذا وما تقدم فان الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران فلا بشرى يومئذ للمجرمين (ويقولون حجرا محجورا) أي وتقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم . وأصل الحجر المنع ومنه يقال حجر القاضي على فلان إذا منعه التصرف إما لفلس أو سفه أو صغر أو نحو ذلك ، ومنه سمي الحجر عند البيت الحرام لأنه يمنع الطواف أن يطوفوا فيه وإنما يطاف من ورائه ومنه يقال للعقل حجر لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي مالا يليق والغرض أن الضمير في قوله (ويقولون) عائد على الملائكة هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وعطاء الخراساني وخصيف وغير واحد واختاره ابن جرير

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم حـدثنا موسى يعني ابن قيس عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري في الآية (ويقولون حجراً محجوراً) قال حراما محرما أن يبشر بما يبشر به المتقون ، وقد حكى ابن جرير عن ابن جريج أنه قال ذلك من كلام المشركين (يوم يرون الملائكة) أي يتعوذون من الملائكة ، وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحـدهم نازلة أو شـدة يقول (حجراً محجوراً) وهـذا القول وإن كان له مأخذ ووجه ولكنه بالنسبة إلى السياق بعيد لا سيما وقد نص الجمهور على خلافه ، ولكن قد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال في قوله (حجراً محجوراً) أي عوذاً معاذاً فيحتمل أنه أراد ما ذكره ابن جريج ولكن في رواية ابن أبي حاتم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال (حجراً محجوراً) عوذاً معاذاً الملائكة تقول ذلك فالله أعلم . وقوله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل) الآية هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء ، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي إما الإخلاص فيها وإما المتابعة لشرع الله . فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية فهو باطل ، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين وقد تجمعهما معا فتكون أبعد من القبول حينئذ ولهذا قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) قال مجاهد والثوري (وقدمنا) أي عمدنا وكذا قال السدي وبعضهم يقول أتينا عليه . وقوله تعالى (فجعلناه هباء منثورا) قال سفيان الثوري عن أبي إسحق عن الحارث عن علي رضي الله عنه في قوله (هباء منثورا) قال شعاع الشمس إذا دخل الكوة ، وكذا روى من غير هـذا الوجه عن علي ، وروى مثله عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي والضحاك وغيرهم ، وكذا قال الحسن البصري هو الشعاع في كوة أحدكم ولو ذهب يقبض عليـه لم يستطع . وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس (هباء منثورا) قال هو الماء المهراق ، وقال أبو الأحوص عن أبي إسحق عن الحارث عن علي (هباء منثورا) قال الهباء وهج الدواب ، وروى مثله عن ابن عباس أيضا والضحاك وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال قتادة في قوله (هباء منثورا) قال أما رأيت يبس الشجر إذا ذرته الريح ؟ فهو ذلك الورق ، وقال عبد الله ابن وهب أخبرني عاصم بن حكيم عن أبي سريع الطائي عن عبيد بن يعلى قال وإن الهباء الرماد إذا ذرته الريح وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها على شيء ، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحدا إذا إنها لا شيء بالكلية ، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية كما قال تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح) الآية وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى — إلى قوله تعالى — لا يقدرون على شيء مما كسبوا) وقال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) وتقدم الكلام على تفسير ذلك ولله الحمد والمنة . وقوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) أي يوم القيامة (لا يستوي

أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) وذلك أن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات والغرفات الآمنات فهم في مقام أمين حسن المنظر طيب المقام (خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما) وأهل النار يصيرون إلى الدركات السافلات والحسرات المتتابعات وأنواع العذاب والعقوبات (إنها ساءت مستقرا ومقاما) أي بئس المنزل منظرا وبئس المقيل مقاما ولهذا قال تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) أي بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا وصاروا إلى ما صاروا إليه بخلاف أهل النار فإنهم ليس لهم عمل واحد يقتضي دخول الجنة لهم والنجاة من النار فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء وأنه لا خير عندهم بالكلية فقال تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) قال الضحاك عن ابن عباس: إنما هي ساعة فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين. وقال سعيد بن جبير: يفرغ الله من الحساب نصف النهار فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار قال الله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) وقال عكرمة إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وهي الساعة التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر إذا انقلب الناس إلى أهليهم للقيلولة فينصرف أهل النار إلى النار، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة فكانت قيلولتهم في الجنة وأطعموا كبد حوت فأشبعهم كلهم وذلك قوله (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) وقال سفيان عن ميسرة عن المنهال عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: لا ينتصف النهار حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) وقرأ (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم): وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) قال قالوا في الغرف من الجنة وكان حسابهم إذ عرضوا على ربهم عرضة واحدة وذلك الحساب اليسير وهو مثل قوله تعالى (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا * وينقلب إلى أهله مسرورا) وقال قتادة (خير مستقرا وأحسن مقيلا) مأوى ومنزلا وقال قتادة وحدث صفوان بن محرز أنه قال: يجاء برجلين يوم القيامة أحدهما كان ملكا في الدنيا إلى الحمرة والبياض فيحاسب فاذا عبد لم يعمل خيرا قط فيؤمر به إلى النار والآخر كان صاحب كساء في الدنيا فيحاسب فيقول يارب ما أعطيتني من شيء فتحاسبني به فيقول الله: صدق عبدي فأرسلوه فيؤمر به إلى الجنة ثم يتركان ما شاء الله، ثم يدعى صاحب النار فاذا هو مثل الحممة السوداء فيقال له كيف وجدت فيقول شر مقيل فيقال له عد ثم يدعى بصاحب الجنة فاذا هو مثل القمر ليلة البدر فيقال له كيف وجدت؟ فيقول رب خير مقيل فيقال له عد. رواها ابن أبي حاتم كلها، وقال ابن جرير: حدثني يونس أنبأنا ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحارث أن سعيدا الصواف حدثه أنه بلغه أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس وأنهم يتقلبون في رياض الجنة حتى يفرغ من الناس وذلك قوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا)

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا * وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء. قال مجاهد وهذا كما قال تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) الآية قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار بن الحارث حدثنا مؤمل حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قرأ هذه الآية (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا) قال ابن عباس

رضى الله عنهما يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة فى صعيد واحد الجن والإنس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق فتنشق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من الجن والإنس ومن جميع الخلق فيحيطون بالجن والإنس وبجميع الخلق ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والإنس وجميع الخلق وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن جميع الخلق ثم تنشق السماء الثالثة فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وجميع الخلق ، ثم كذلك كل سماء على ذلك التضعيف حتى تنشق السماء السابعة فينزل أهلها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات وبالجن والانس وجميع الخلق كلهم وينزل ربنا عز وجل فى ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السموات السبع ومن الجن والانس ، وجميع الخلق لهم قرون كأكعب القنا وهم تحت العرش لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله عزوجل ما بين أخمص قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام وما بين كعبه إلى ركبته مسيرة خمسمائة عام وما بين ركبته إلى حجزته[1] مسيرة خمسمائة عام وما بين حجزته إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام وما بين ترقوته إلى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام. وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام وجهنم محسه ، هكذا رواه ابن أبى حاتم بهذا السياق وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنى الحجاج عن مبارك بن فضالة عن على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران أنه سمع ابن عباس يقول : إن هذه السماء إذا انشقت ينزل منها من الملائكة أكثر من الانس والجن وهو يوم التلاق يوم يلتقى أهل السماء وأهل الأرض فيقول أهل الأرض جاء ربنا ؟ فيقولون لم يجىء وهو آت ثم تنشق السماء الثانية ثم سماء سماء على قدر ذلك من التضعيف إلى السماء السابعة فينزل منها من الملائكة أكثر من جميع من نزل من السموات ومن الجن والانس . قال فتنزل الملائكة الكروبيون ثم يأتى ربنا فى حملة العرش الثمانية بين كعب كل ملك وركبته مسيرة سبعين سنة ، وبين فخذه ومنكبه مسيرة سبعين سنة. قال وكل ملك منهم لم يتأمل وجه صاحبه وكل ملك منهم واضع رأسه بين ثدييه[2] يقول سبحان الملك القدوس وعلى رءوسهم شىء مبسوط كأنه القنا والعرش فوق ذلك ثم وقف فمداره على على بن زيد بن جدعان وفيه ضعف فى سياقاته غالبا وفيها نكارة شديدة ، وقد ورد فى حديث الصور المشهور قريب من هذا والله أعلم ، وقد قال الله تعالى (فيومئذ وقعت الواقعة * وانشقت السماء فهى يومئذ واهية * والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) قال شهر بن حوشب حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك. وأربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك رواه ابن جرير عنه وقال أبو بكر ابن عبد الله إذا نظر أهل الأرض إلى العرش يهبط عليهم من فوقهم شخصت اليه أبصارهم ورجفت كلاهم فى أجوافهم وطارت قلوبهم من مقرها من صدورهم إلى حناجرهم . قال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا المعتمر بن سليمان عن عبد الجليل عن أبى حازم عن عبد الله بن عمرو قال : يهبط الله عزوجل حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب منها النور والظلمة فيضرب الماء فى تلك الظلمة صوتا تنخلع له القلوب وهذا موقوف على عبد الله بن عمرو من كلامه ولعله من الزاملتين والله أعلم

وقوله تعالى (الملك يومئذ الحق للرحمن) الآية كما قال تعالى (لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) وفى الصحيح أن الله تعالى يطوى السموات بيمينه ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول : أنا الملك أنا الديان أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون أين المتكبرون ؟ وقوله (وكان يوما على الكافرين عسيرا) أى شديداً صعباً لأنه يوم عدل وقضاء فصل كما قال تعالى (فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير) فهذا حال الكافرين فى هذا اليوم ، وأما المؤمنون فكما قال تعالى (لا يحزنهم الفزع الأكبر) الآية . وروى الإمام أحمد حدثنا حسين بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى قال : قيل يارسول الله (يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ما أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه

(١) فى النسخة المكية أرنبته (٢) فى نسخة يديه .

من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا » وقوله تعالى (ويوم يعض الظالم على يديه) الآية يخبر تعالى عن ندم الظالم الذى فارق طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذى لا مرية فيه وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم وعض على يديه حسرة وأسفا وسواء كان سبب نزولها فى عقبة بن أبى معيط أو غيره من الأشقياء فإنها عامة فى كل ظالم كما قال تعالى (يوم تقلب وجوههم فى النار) الآيتين فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، ويعض على يديه قائلا (يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا) يعنى من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة ، وسواء فى ذلك أمية ابن خلف أو أخوه أبى بن خلف أو غيرهما (لقد أضلنى عن الذكر) وهو القرآن (بعد إذ جاءنى) أى بعد بلوغه إلىّ قال الله تعالى (وكان الشيطان للإنسان خذولا) أى يخذله عن الحق ويصرفه عنه ويستعمله فى الباطل ويدعوه إليه

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال « يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا » وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه كما قال تعالى (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) الآية فكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام فى غيره حتى لا يسمعونه . فهذا من هجرانه وترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه ، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه ، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره ، من هجرانه فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء ، أن يخلصنا مما يسخطه ، ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذى يحبه ويرضاه إنه كريم وهاب وقوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين) أى كما حصل لك يا محمد فى قومك من الذين هجروا القرآن كذلك كان فى الأمم الماضين لأن الله جعل لكل نبى عدوا من المجرمين يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم كما قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن) الآيتين ولهذا قال تعالى ههنا (وكفى بربك هاديا ونصيرا) أى لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقه واتبعه فان الله هاديه وناصره فى الدنيا والآخرة وإنما قال (هاديا ونصيرا) لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن لئلا يهتدى أحد به ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن فلهذا قال (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين) الآية

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا * ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيهم حيث قالوا (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) أى هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذى أوحى إليه جملة واحدة كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به كقوله (وقرآنا فرقناه) الآية ولهذا قال (لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) قال قتادة: بيناه تبيينا . وقال ابن زيد وفسرناه تفسيرا (ولا يأتونك بمثل) أى بحجة وشبهة (إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) أى ولا يقولون قولا يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق

فى نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم ، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس (ولا يأتونك بمثل) أى بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول (إلا جئناك بالحق) الآية أى إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم وما هذا إلا اعتناء وكبير شرف للرسول صلى الله عليه وسلم حيث كان يأتيه الوحى من الله عز وجل بالقرآن صباحا ومساء وليلا ونهارا سفرا وحضرا ، وكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كانزال الكتاب مما قبله من الكتب المتقدمة فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد ﷺ أعظم نبى أرسله الله تعالى وقد جمع الله للقرآن الصفتين معا ، ففى الملأ الأعلى أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث وروى النسائى بإسناده عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة ، قال الله تعالى (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) وقال تعالى (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا)

ثم قال تعالى مخبرا عن سوء حال الكفار فى معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم فى أسوإ الحالات وأقبح الصفات (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) وفى الصحيح عن أنس أن رجلا قال يارسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة فقال « إن الذى أمشاه على رجليه قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من المفسرين

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَىٰ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا * وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾

يقول تعالى متوعدا من كذب رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم من مشركى قومه ومن خالفه ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله فبدأ بذكر موسى وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيرا أى نبيا موازرا ومؤيدا وناصرا فكذبهما فرعون وجنوده (فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها) وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحا عليه السلام ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل ، إذ لا فرق بين رسول ورسول ، ولو فرض أن الله تعالى بعث إليهم كل رسول فانهم كانوا يكذبون ، ولهذا قال تعالى (وقوم نوح لما كذبوا الرسل) ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله عز وجل ويحذرهم نقمه (فما آمن معه إلا قليلا) ولهذا أغرقهم الله جميعا ولم يبق منهم أحدا ولم يترك من بنى آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط (وجعلناهم للناس آية) أى عبرة يعتبرون بها كما قال تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) أى وأبقينا لكم من السفن ما تركبون فى لجج البحار لتذكروا نعمة الله عليكم من إنجائكم من الغرق وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره . وقوله تعالى (وعادا وثمود وأصحاب الرس) قد تقدم الكلام على قصتيهما فى غير ما سورة كسورة الأعراف بما أغنى عن الاعادة ، وأما أصحاب الرس فقال ابن جريج عن ابن عباس هم أهل قرية من قرى ثمود وقال ابن جريج : قال عكرمة أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس ، وقال قتادة : فلج من قرى اليمامة وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس فى قوله (وأصحاب الرس) قال بئر بأذربيجان وقال الثورى عن أبى بكر عن عكرمة الرس بئر رسوا فيها نبيهم أى دفنوه فيها ، وقال ابن إسحق عن محمد بن كعب

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود وذلك أن الله تعالى بعث نبيا إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود ، ثم إن أهل القرية عدوا على النبي فحفروا له بئرا فألقوه فيها ثم أطبقوا عليه بحجر أصم قال فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ثم يأتى بحطبه فيبيعه ويشترى به طعاما وشرابا ثم يأتى به إلى تلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله تعالى عليها فيدلى اليه طعامه وشرابه ثم يردها كما كانت ، قال فكان ذلك ماشاء الله أن يكون ، ثم إنه ذهب يوما يحتطب كما كان يصنع فجمع حطبه وحزم حزمته وفرغ منها فلما أراد أن يحتملها وجد سنة فاضطجع فنام فضرب الله على أذنه سبع سنين ثم إنه هب فتمطى فتحول لشقه الآخر فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى ثم إنه هب واحتمل حزمته ولا يحسب إلا أنه نام ساعة من نهار فجاء إلى القرية فباع حزمته ثم اشترى طعاما وشرابا كما كان يصنع ثم إنه ذهب إلى الحفيرة موضعها الذى كانت فيه فالتمسه فلم يجده وكان قد بدا لقومه فيه بداء فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه ، قال فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الأسود مافعل فيقولون له لاندرى حتى قبض الله النبى وهب الأسود من نومته بعد ذلك » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة » وهكذا رواه ابن جرير عن ابن حميد عن سلمة عن محمد ابن إسحق عن محمد بن كعب مرسلا وفيه غرابة ونكارة ولعل فيه إدراجا والله أعلم : وقال ابن جرير لايجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرأس الذين ذكروا فى القرآن لأن الله أخبر عنهم أنه أهلكهم وهؤلاء آمنوا بنبيهم إلا أن يكون حدث لهم أحداث آمنوا بالنبى بعد هلاك آبائهم والله أعلم ، واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود الذين ذكروا فى سورة البروج فالله أعلم . وقوله تعالى (وقرونا بين ذلك كثيراً) أى وأمما أضعاف من ذكر أهلكناهم كثيرة ولهذا قال (وكلا ضربنا له الأمثال) أى بينا لهم الحجج ووضحنا لهم الأدلة كما قال قتادة وأزحنا الأعذار عنهم (وكلا تبرنا تتبيراً) أى أهلكنا إهلاكا كقوله تعالى (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) والقرن هو الأمة من الناس كقوله (ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) وحده بعضهم بمائة وعشرين سنة وقيل بمائة وقيل بثمانين وقيل أربعين وقيل غير ذلك والأظهر أن القرن هو الأمة المتعاصرون فى الزمن الواحد وإذا ذهبوا وخلفهم جيل فهو قرن آخر كما ثبت فى الصحيحين « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » الحديث (ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء) يعنى قرية قوم لوط وهى سدوم التى أهلكها الله بالقلب وبالمطر من الحجارة التى من سجيل كما قال تعالى (وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) وقال (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون) وقال تعالى (وإنها لبسبيل مقيم) وقال (وإنهما لبإمام مبين) ولهذا قال (أفلم يكونوا يرونها) أى فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول وبمخالفتهم أوامر الله (بل كانوا لايرجون نشورا) يعنى المارين بها من الكفار لايعتبرون لأنهم لايرجون نشوراً أى معادا يوم القيامة

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا * أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه كما قال تعالى (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً) الآية يعنونه بالعيب والنقص ، وقال ههنا (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذى بعث الله رسولا ؟) أى على سبيل التنقص والازدراء فقبحهم الله كما قال (ولقد استهزىء برسل من قبلك) الآية . وقوله تعالى (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا) يعنون أنه كاد يثنيهم عن عبادة الأصنام لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها . قال الله تعالى متوعدا لهم ومتهددا (وسوف يعلمون حين يرون العذاب) الآية . ثم قال تعالى لنبيه منبها أن من

كتب الله عليه الشقاوة والضلال فانه لايهديه أحد إلا الله عز وجل (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) أى مهما استحسن من شيء ورآه حسنا فى هوى نفسه كان دينه ومذهبه كما قال تعالى (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء) الآية ولهذا قال ههنا (أفأنت تكون عليه وكيلا) قال ابن عباس كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا فاذا رأى غيره أحسن منه عبد الثانى وترك الأول . ثم قال تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون) الآية أى هم أسوأ حالا من الأنعام السارحة فان تلك تفعل ماخلقت له وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لاشريك له فلم يفعلوا وهم يعبدون غيره ويشركون به مع قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل اليهم

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾

من ههنا شرع سبحانه وتعالى فى بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة فقال تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ؟) قال ابن عباس وابن عمر وأبو العالية وأبومالك ومسروق ومجاهد وسعيد بن جبير والنخعى والضحاك والحسن وقتادة : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس (ولو شاء لجعله ساكنا) أى دائما لايزول كما قال تعالى (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً) الآيات . وقوله تعالى (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) أى لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف فان الضد لايعرف إلا بضده ، وقال قتادة والسدى دليلا تتلوه وتتبعه حتى تأتى عليه كله . وقوله تعالى (ثم قبضناه إلينا قبضا يسيراً) أى الظل وقيل الشمس (يسيراً) أى سهلا قال ابن عباس سريعا وقال مجاهد خفيا وقال السدى قبضا خفيا حتى لايبقى فى الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة وقد أظلت الشمس مافوقه ، وقال أيوب بن موسى فى الآية (قبضا يسيرا) قليلا قليلا ، وقوله (وهو الذى جعل لكم الليل لباسا) أى يلبس الوجود ويغشاه كما قال تعالى (والليل إذا يغشى) (والنوم سباتا) أى قاطعا للحركة لراحة الأبدان فان الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة فى الانتشار بالنهار فى المعاش فاذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات فاستراحت فحصل النوم الذى فيه راحة البدن والروح معا (وجعل النهار نشورا) أى ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم كما قال تعالى (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) الآية

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا * لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

وهذا أيضا من قدرته التامة وسلطانه العظيم وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات أى بمجيء السحاب بعدها والرياح أنواع فى صفات كثيرة من التسخير فمنها مايثير السحاب ، ومنها مايحمله ومنها مايسوقه ومنها ما يكون بين يدى السحاب مبشرا ومنها ما يكون قبل ذلك تقم الأرض ومنها مايلقح السحاب ليمطر ولهذا قال تعالى (وأنزلنا من السماء ماء طهوها) أى آلة يتطهر بها كالسحور والوجور وماجرى مجراهما . فهذا أصح مايقال فى ذلك ، وأما من قال إنه فعول بمعنى فاعل؟ أو إنه مبنى للمبالغة والتعدى فعلى كل منهما إشكالات من حيث اللغة والحكم ليس هذا موضع بسطها والله أعلم . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى بإسناده إلى حميد الطويل عن ثابت البنانى قال دخلت مع أبى العالية فى يوم مطير وطرق البصرة قذرة فصلى فقلت له فقال (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) قال طهره ماء السماء وقال أيضا حدثنا أبى حدثنا أبو سلمة حدثنا وهيب عن داود عن سعيد بن المسيب فى هذه الآية قال : أنزله الله طهورا لاينجسه شيء . وعن أبى سعيد قال : قيل يارسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة وهى بئر يلقى فيها النتن ولحوم الكلاب ؟ فقال « إن الماء طهور لاينجسه شيء » رواه الشافعى وأحمد وصححه وأبوداود والترمذى وحسنه والنسائى. وروى ابن أبى حاتم باسناده

حدثنا أبى حدثنا أبو الأشعث حدثنا معتمر سمعت أبى يحدث عن سيار عن خالد بن يزيد قال : كنا عنـد عبد الملك بن مروان فذكروا الماء فقال خالد بن يزيد : منـه من السماء ومنـه ما يسقيه الغيم من البحر فيذبه الرعد والبرق فأما ما كان من البحر فلا يكون منه نبات فأما النبات فما كان من السماء ، وروى عن عكرمة قال ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بهـا فى الأرض عشبة أو فى البحر لؤلؤة ، وقال غيره : فى البر بر وفى البحر در ، وقوله تعالى (لنحيي به بلدة ميتا) أى أرضاً قد طال انتظارها للغيث فهى هامدة لا نبات فيها ولا شىء فلما جاءها الحياء عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان كما قال تعـالى (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) الآية (ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا) أى وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسى محتاجين إليـــه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وثمارهم كما قال تعـالى (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا) الآية وقال تعـالى (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعدموتها) الآية : وقوله تعالى (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا) أى أمطرنا هذه الأرض دون هذه وسـقنا السحاب يمر على الأرض ويتعـداها ويتجاوزها إلى الأرض الأخرى فيمطرها ويكفيها ويجعلها غـدقا والتى وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء، وله فى ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة ، قال ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهم ليس عام بأكثر مطرا من عام ولـكن الله يصرفه كيف يشاء ثم قرأ هـذه الآية (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر النـاس إلا كفورا) أى ليذكروا باحياء الله الأرض الميتـة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات . أو ليذكر من منع المطر إنما أصابه ذلك بذنب أصابه فيقلع عما هو فيه . وقال عمر مولى عقبة : كان جبريل عليه السلام فى موضع الجنائز فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « يا جبريل إنى أحب أن أعلم أمر السحاب » قال : فقال له جبريل يا نبى الله هـــذا ملك السحاب فسله فقال تأتينا صكاك مختمة : أسق بلاد كذا وكذا ، كذا وكذا قطرة . رواه ابن أبى حاتم وهو حديث مرسل وقوله تعالى (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) قال عكرمة يعنى الذين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وهذا الذى قاله عكرمة كما صح فى الحديث المخرج فى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوما على أثر سماء أصابتهم من الليل «أتدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم قال « قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بى كافر بالـكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بى مؤمن بالـكوكب »

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا * فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾

يقول تعـالى (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا) يدعوهم إلى الله عز وجل ولـكنا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن (لأنذركم به ومن بلغ) (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) (لتنذر أم القرى ومن حولها) (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليـكم جميعا) وفى الصحيحين « بعثت إلى الأحمر والأسود » وفيهما « وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » ولهذا قال تعالى (فلا تطع الـكافرين وجاهدهم به) يعنى بالقرآن قاله ابن عباس (جهادا كبيرا) كما قال تعـالى (يا أيها النبى جاهـد الـكفار والمنافقين) الآية وقوله تعالى (وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج) أى خلق الماءين الحلو والملح ، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار وهذا هو البحر الحلو العذب الفرات الزلال : قاله ابن جريج واختاره ابن جرير ، وهذا المعنى لا شك فيه فانه ليس فى الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات ، والله سبحانه وتعالى إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه ، فالبحر العذب هو هـذا السارح بين الناس فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارا وعيونا

فى كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم وقوله تعالى (وهذا ملح أجاج) أى مالح مر زعاق لا يستساغ وذلك كالبحار المعروفة فى المشارق والمغارب : البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق وبحر القلزم وبحر اليمن وبحر البصرة وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التى لا تجرى ، ولكن تموج وتضطرب وتلتطم فى زمن الشتاء وشدة الرياح ، ومنها ما فيه مد وجزر ، ففى أول كل شهر يحصل منها مد وفيض فإذا شرع الشهر فى النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى ، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت فى المد إلى الليلة الرابعة عشرة ثم تشرع فى النقص ، فاجرى الله سبحانه وتعالى ـ وهو ذو القدرة التامة ـ العادة بذلك ، فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة لئلا يحصل بسببها نتن الهواء فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان ، ولما كان ماؤها ملحا كان هواؤها صحيحا وميتتها طيبة ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر أنتوضأ به ؟ فقال « هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته » رواه الأئمة مالك والشافعى وأحمد وأهل السنن بإسناد جيد وقوله تعالى (وجعل بينها برزخاً وحجرا) أى بين العذب والمالح (برزخا) أى حاجزا وهو اليبس من الأرض (وحجراً محجوراً) أى مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر كقوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله تعالى (أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون) وقوله تعالى (وهو الذى خلق من الماء بشرا) الآية أى خلق الإنسان من نطفة ضعيفة فسواه وعدله وجعله كامل الخلقة ذكرا وأنثى كما يشاء (فجعله نسبا وصهرا) فهو فى ابتداء أمره ولد نسيب ثم يتزوج فيصير صهرا ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات ، وكل ذلك من ماء مهين ولهذا قال تعالى (وكان ربك قديرا)

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا * الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين فى عبادتهم غير الله من الأصنام التى لا تملك له ضرا ولا نفعا بلا دليل قادهم إلى ذلك ولا حجة أدتهم إليه بل بمجرد الآراء ، والتشهى والأهواء ، فهم يوالونهم ويقاتلون فى سبيلهم ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم ولهذا قال تعالى (وكان الكافر على ربه ظهيرا) أى عونا فى سبيل الشيطان على حزب الله وحزب الله هم الغالبون كما قال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) أى آلهتهم التى اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصرا ، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم ، ويذبون عن حوزتهم ، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله وللمؤمنين فى الدنيا والآخرة قال مجاهد (وكان الكافر على ربه ظهيرا) قال يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه ، وقال سعيد بن جبير (وكان الكافر على ربه ظهيرا) يقول عونا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك ، وقال زيد بن أسلم (وكان الكافر على ربه ظهيرا) قال مواليا ، ثم قال تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه (وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا) أى بشيرا للمؤمنين ونذيرا للكافرين ، مبشرا بالجنة لمن أطاع الله ونذيرا بين يدى عذاب شديد لمن خالف أمر الله (قل ما أسألكم عليه من أجر) أى على هذا البلاغ وهذا الانذار من

أجرة أطلبها من أموالكم وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى (لمن شاء منكم أن يستقيم) (إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا) أي طريقا ومسلكا ومنهجا يقتدى فيها بما جئت به ، ثم قال تعالى (وتوكل على الحي الذي لايموت) أي في أمورك كلها كن متوكلا على الله الحي الذي لايموت أبدا الذي هو (الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) الدائم الباقي السرمدي الأبدي الحي القيوم رب كل شيء ومليكه اجعله ذخرك وملجأك ، وهو الذي يتوكل عليه ويفزع إليه فانه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك كما قال تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) . وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الله بن محمد بن علي بن نفيل قال قرأت على معقل يعني ابن عبيدالله عن عبد الله بن أبي حسين عن شهر بن حوشب قال ، لقي سلمان النبي ﷺ في بعض فجاج المدينة فسجد له فقال « لاتسجدلي يا سلمان واسجد للحي الذي لايموت » وهذا مرسل حسن . وقوله تعالى (وسبح بحمده) أي اقرن بين حمده وتسبيحه ، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك » أي أخلص له العبادة والتوكل كما قال تعالى (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) وقال تعالى (فاعبده وتوكل عليه) وقال تعالى (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا) وقوله تعالى (وكفى به بذنوب عباده خبيراً) أي بعلمه التام الذي لايخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة . وقوله تعالى (الذي خلق السموات والأرض) الآية أي هو الحي الذي لايموت وهو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع في ارتفاعها واتساعها والأرضين السبع في سفولها وكثافتها (في ستة أيام ثم استوى على العرش) أي يدبر الأمر ويقضي الحق وهو خير الفاصلين وقوله (ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً) أي استعلم عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتد به ، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم على الاطلاق في الدنيا والآخرة الذي لاينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، فما قاله فهو الحق وما أخبره به فهو الصدق ، وهو الإمام المحكم الذي إذا تنازع الناس في شيء وجب رد نزاعهم اليه فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق وما خالفها فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان قال الله تعالى (فإن تنازعتم في شيء) الآية وقال تعالى (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) وقال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) أي صدقا في الاخبار وعدلا في الأوامر والنواهي ولهذا قال تعالى (فاسأل به خبيرا) قال مجاهد في قوله (فاسأل به خبيرا) قال ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك . وكذا قال ابن جريج وقال شمر بن عطية في قوله (فاسأل به خبيرا) هذا القرآن خبير به . ثم قال تعالى منكرا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) أي لا نعرف الرحمن وكان ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فقالوا لانعرف الرحمن ولا الرحيم ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم ، ولهذا أنزل الله تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) أي هو الله وهو الرحمن . وقال في هذه الآية (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) أي لانعرفه ولا نقر به (أنسجد لما تأمرنا) أي لمجرد قولك (وزادهم نفورا) فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم ويفردونه بالإلهية ويسجدون له ، وقد اتفق العلماء رحمهم الله على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها كما هو مقرر في موضعه والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا * وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾

يقول تعالى ممجدا نفسه ومعظما على جميل ماخلق في السماوات من البروج وهي الكواكب العظام في قول مجاهد

وسعيد بن جبير وأبي صالح والحسن وقتادة . وقيل هي قصور في السماء للحرس ، يروى هذا عن علي وابن عباس ومحمد ابن كعب وإبراهيم النخعي وسليمان بن مهران الأعمش ، وهو رواية عن أبي صالح أيضا والقول الأول أظهر . اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس فيجتمع القولان كما قال تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) الآية ولهذا قال تعالى (تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجاً) وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود كما قال تعالى (وجعلنا سراجا وهاجاً) (وقمراً منيرا) أي مشرقا مضيئاً بنور آخر من غير نور الشمس كما قال تعالى (وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا) وقال مخبرا عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) ثم قال تعالى (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة) أي يخلف كل واحد منهما صاحبه يتعاقبان لا يفتران إذا ذهب هذا جاء هذا وإذا جاء هذا ذهب ذاك كما قال تعالى (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) الآية وقال (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً) الآية وقال (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) الآية . وقوله تعالى (لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً) أي جعلهما يتعاقبان توقيتا لعبادة عباده له عز وجل فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل ، وقد جاء في الحديث الصحيح « ان الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » وقال أبو داود الطيالسي حدثنا أبو حمزة عن الحسن أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى فقيل له صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه فقال إنه بقي عليّ من وردي شيء فأحببت أن أتمه أو قال أقضيه وتلا هذه الآية (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية يقول من فاته شيء من الليل أن يعمله أدركه بالنهار ، أو من النهار أدركه بالليل وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقال مجاهد وقتادة خلفة أي مختلفين أي هذا بسواده وهذا بضيائه

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾

هذه صفات عباد الله المؤمنين (الذين يمشون على الأرض هونا) أي بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار كقوله تعالى (ولا تمش في الأرض مرحاً) الآية فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبب وكأنما الأرض تطوى له ، وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رويداً فقال ما بالك أأنت مريض ؟ قال لا يا أمير المؤمنين فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة . وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا » وقال عبدالله بن المبارك عن معمر عن عمر بن المختار عن الحسن البصري في قوله (وعباد الرحمن) الآية قال : إن المؤمنين قوم ذلل ذلت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم والله لأصحاء ولكنهم دخلهم من الخوف مالم يدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة . فقالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعاظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من النار ، إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ومن لم ير لله نعمة إلا في مطعم أو مشرب فقد قل علمه وحضر عذابه . وقوله تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) أي إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيء لم يقابلوهم عليه بمثله بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا

خيراً كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلما وكما قال تعالى (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) الآية . وروى الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الأعمش عن أبى خالد الوالبى عن النعمان بن مقرن المزنى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسب رجل رجلا عنده فجعل المسبوب يقول : عليك السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما إن ملكا بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا قال له بل أنت وأنت أحق به ، وإذا قال له وعليك السلام قال لا بل عليك وأنت أحق به » إسناده حسن ولم يخرجوه وقال مجاهد (قالوا سلاماً) يعنى قالوا سداداً ، وقال سعيد بن جبير ردوا معروفاً من القول ، وقال الحسن البصرى قالوا سلام عليكم إن جهل عليهم حلموا ، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل فقال تعالى (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) أى فى طاعته وعبادته كما قال تعالى (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحارهم يستغفرون) وقوله (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) الآية وقال تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) الآية ولهذا قال تعالى (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً) أى ملازماً دائماً كما قال الشاعر :

إن يعذب يكن غراماً وإن يعـ ـط جزيلا فانه لا يبالى

ولهذا قال الحسن فى قوله (إن عذابها كان غراماً) كل شىء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام وإنما الغرام اللازم مادامت الأرض والسموات وكذا قال سليمان التيمى ، وقال محمد بن كعب (إن عذابها كان غراماً) يعنى ما نعموا فى الدنيا إن الله تعالى سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه فأغرمهم فأدخلهم النار (إنها ساءت مستقرا ومقاماً) أى بئس المنزل منظرا وبئس المقيل مقاماً ، وقال ابن أبى حاتم عند قوله (إنها ساءت مستقرا ومقاماً) حدثنا أبى حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش عن مالك بن الحارث قال : إذا طرح الرجل فى النار هوى فيها فإذ انتهى إلى بعض أبوابها قيل له مكانك حتى تتحف قال فيسقى كأسا من سم الأساود والعقارب قال فيتميز الجلد على حدة والشعر على حدة والعصب على حدة والعروق على حدة . وقال أيضاً حدثنا أبى حدثنا الحسن ابن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش عن مجاهد عن عبيد بن عمير قال إن فى النار لجبابا فيها حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال الدهم فإذا قذف بهم فى النار خرجت إليهم من أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم فكشطت لحومهم إلى أقدامهم فإذا وجدت حر النار رجعت

وقال الإمام أحمد حدثنا الحسن بن موسى حدثنا سلام يعنى ابن مسكين عن أبى ظلال عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن عبداً فى جهنم لينادى ألف سنة ياحنان يا منان فيقول الله عز وجل لجبريل اذهب فأتنى بعبدى هذا فينطلق جبريل فيجد أهل النار مكبين يبكون فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره فيقول الله عز وجل ائتنى به فانه فى مكان كذا وكذا فيجىء به فيوقفه على ربه عز وجل فيقول له يا عبدى كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول يارب شر مكان وشر مقيل فيقول الله عز وجل : ردوا عبدى . فيقول يا رب ما كنت أرجو إذ أخرجتنى منها أن تردنى فيها فيقول الله عز وجل دعوا عبدى » وقوله تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) الآية أى ليسوا بمبذرين فى إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون فى حقهم فلا يكفونهم بل عدلا خيارا وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا (وكان بين ذلك قواما) كما قال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) الآية وقال الإمام أحمد حدثنا عصام بن خالد حدثنى أبو بكر بن عبد الله بن أبى مريم الغسانى عن ضمرة عن أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من فقه الرجل قصده فى معيشته » ولم يخرجوه وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا أبو عبيدة الحداد حدثنا مسكين بن عبد العزيز العبدى حدثنا إبراهيم الهجرى عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « ما عال من اقتصد » لم يخرجوه . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد بن يحيى حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون حدثنا سعد بن حكيم عن مسلم بن حبيب عن بلال — يعنى العبسى — عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ « ما أحسن القصد فى الغنى وما أحسن القصد فى الفقر

وما أحسن القصد فى العبادة » ثم قال لا نعرفه يروى إلا من حديث حذيفة رضى الله عنه ، وقال الحسن البصرى : ليس فى النفقة فى سبيل الله سرف ، وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف . وقال غيره السرف النفقة فى معصية الله عز وجل

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله هو ابن مسعود قال سئل رسول الله ﷺ أى الذنب أكبر ؟ قال « أن تجعل لله أندادا وهو خلقك » قال ثم أى ؟ قال « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قال ثم أى ؟ قال « أن تزانى حليلة جارك » قال عبد الله وأنزل الله تصديق ذلك (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر) الآية وهكذا رواه النسائى عن هناد بن السرى عن أبى معاوية به ، وقد أخرجه البخارى ومسلم من حديث الأعمش ومنصور زاد البخارى وواصل ثلاثتهم عن أبى وائل شقيق بن سلمة عن أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل عن ابن مسعود به فالله أعلم ، ولفظهما عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم ، الحديث . طريق غريب وقال ابن جرير حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى حدثنا عامر بن مدرك حدثنا السرى يعنى ابن إسماعيل حدثنا الشعبى عن مسروق قال : قال عبد الله خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فاتبعته فجلس على نشز من الأرض وقعدت أسفل منه ووجهى حيال ركبتيه واغتنمت خلوته وقلت بأبى أنت وأمى يا رسول الله أى الذنب أكبر ؟ قال « أن تدعو لله ندا وهو خلقك » . قلت ثم مه ؟ قال « أن تقتل ولدك كراهية أن يطعم معك » قلت ثم مه ؟ قال « أن تزانى حليلة جارك » ثم قرأ (والذين لا يدعون مع الله) الآية وقال النسائى حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن منصور عن هلال بن يساف عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع « ألا إنما هى أربع » فما أنا بأشح عليهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ ؛ « لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا » وقال الإمام أحمد حدثنا على بن المدينى رحمه الله حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان حدثنا محمد بن سعيد الأنصارى سمعت أبا طيبة الكلاعى سمعت المقداد بن الأسود رضى الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « ما تقولون فى الزنا ؟ » قالوا حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره » قال « فما تقولون فى السرقة ؟ » قالوا حرمها الله ورسوله فهى حرام قال « لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره » وقال أبو بكر بن أبى الدنيا حدثنا عمار بن نصر حدثنا بقية عن أبى بكر بن أبى مريم عن الهيثم بن مالك الطائى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « مامن ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رحم لا يحل له » وقال ابن جريج أخبرنى يعلى عن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عباس يحدث أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر) الآية ونزلت (قل يا عبادى الذى أسرفوا على أنفسهم) الآية وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن أبى عمر حدثنا سفيان عن عمرو عن أبى فاختة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل « إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق ، وينهاك أن تقتل ولدك وتغذو كلبك ، وينهاك أن تزنى بحليلة جارك » قال سفيان وهو قوله (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر) الآية . وقوله تعالى (ومن يفعل ذلك يلق أثاما) روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : أثاماً : واد فى جهنم ، وقال عكرمة (يلق أثاما) أودية فى جهنم يعذب فيها

الزناة . وكذا روى عن سعيد بن جبير ومجاهد ، وقال قتادة (يلق أثاماً) نكالا : كنا نحدث أنه واد فى جهنم وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول : يابنى ، إياك والزنا فإن أوله مخافة وآخره ندامة . وقد ورد فى الحديث الذى رواه ابن جرير وغيره عن أبى أمامة الباهلى موقوفا ومرفوعا ان غيا وأثاما بئران فى قعر جهنم . أجارنا الله منهما بمنه وكرمه . وقال السدى (يلق أثاماً) جزاء وهذا أشبه بظاهر الآية وبهذا فسره بما بعده مبدلا منه وهو قوله تعالى (يضاعف له العذاب يوم القيامة) أى يكرر عليه ويغلظ (ويخلد فيه مهانا) أى حقيرا ذليلا . وقوله تعالى (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً) أى جزاؤه على مافعل من هذه الصفات القبيحة ماذكر (إلا من تاب) أى فى الدنيا إلى الله عز وجل من جميع ذلك فان الله يتوب عليه ، وفى ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء (ومن يقتل مؤمنا متعمداً) الآية فان هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة فتحمل على من لم يتب لأن هذه مقيدة بالتوبة ثم قد قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به) الآية . قد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحة توبة القاتل كما ذكر مقررا من قصة الذى قتل مائة رجل ثم تاب فقبل الله توبته وغير ذلك من الأحاديث ، وقوله تعالى (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) فى معنى قوله (يبدل الله سيئاتهم حسنات) قولان أحدهما أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات ، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية قال هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات فرغب الله بهم عن السيئات فحولهم إلى الحسنات فأبدلهم مكان السيئات الحسنات ، وروى عن مجاهد عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية :

بدلن بعد حره خريفا ... وبعد طول النفس الوجيفا

يعنى تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها ، وقال عطاء بن أبى رباح هذا فى الدنيا يكون الرجل على صفة قبيحة ثم يبدله الله بها خيراً . وقال سعيد بن جبير أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات ، وقال الحسن البصرى أبدلهم الله بالعمل السىء العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا ، وأبدلهم بالفجور إحصانا ، وبالكفر إسلاما ، وهذا قول أبى العالية وقتادة وجماعة آخرين (والقول الثانى) ان تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وماذاك إلا لأنه كلما تذكر مامضى ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار فيوم القيامة وإن وجده مكتوبا عليه فإنه لا يضره وينقلب حسنة فى صحيفته كما ثبتت السنة بذلك وصحت به الآثار المروية عن السلف رضى الله عنهم.[1] فعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إنى لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار ، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة ، يؤتى برجل فيقول نحوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها قال فيقال له : عملت يوم كذا كذا وكذا ، وعملت يوم كذا ، كذا وكذا ، فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً فيقال : فان لك بكل سيئة حسنة فيقول يارب عملت أشياء لا أراها ههنا » قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، انفرد بإخراجه مسلم . وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا هاشم بن يزيد حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنى أبى حدثنى ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان أعطنى صحيفتك فيعطيه إياها فما وجد فى صحيفته من حسنة محا بها عشر سيئات من صحيفة الشيطان وكتبهن حسنات فاذا أراد أحدكم أن ينام فليكبر ثلاثاً وثلاثين تكبيرة ويحمد أربعا وثلاثين تحميدة ويسبح ثلاثاً وثلاثين تسبيحة فتلك مائة » . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو سلمة وعارم قالا حدثنا ثابت يعنى ابن يزيد أبو زيد حدثنا عاصم عن أبى عثمان عن سلمان قال يعطى الرجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها فاذا سيئاته فاذا كاد يسوء ظنه نظر فى أسفلها فاذا حسناته ثم ينظر فى أعلاها فاذا هى قد بدلت حسنات ، وقال أيضا حدثنا أبى حدثنا هشام بن عمار حدثنا سليمان بن موسى الزهرى أبو داود حدثنا أبو العنبس عن أبيه عن أبى هريرة قال : ليأتين الله عز وجل بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات ، قيل من هم يا أباهريرة ؟ قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات . وقال أيضاً حدثنا أبى حدثنا عبد الله

(١) قوله فعن أبى ذر الخ فى بعض النسخ زيادة السند بما لفظه. قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبى ذر الخ اهـ

ابن أبي زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا أبو حمزة عن أبي الصيف ـ قلت وكان من أصحاب معاذ بن جبل ـ قال : يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف المتقين ثم الشاكرين ثم الخائفين ثم أصحاب اليمين، قلت لم سموا أصحاب اليمين ؟ قال لأنهم قد عملوا بالسيئات والحسنات فأعطوا كتبهم بأيمانهم فقرءوا سيئاتهم حرفا حرفا وقالوا يا ربنا هذه سيئاتنا فأين حسناتنا ، فعند ذلك محا الله السيئات وجعلها حسنات فعند ذلك قالوا : (هاؤم اقرءوا كتابيه) فهم أكثر أهل الجنة ، وقال علي ابن الحسين زين العابدين (يبدل الله سيئاتهم حسنات) قال في الآخرة وقال مكحول يغفرها لهم فيجعلها حسنات رواهما ابن أبي حاتم ، وروى ابن جرير عن سعيد بن المسيب مثله . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا أبو جابر أنه سمع مكحولا يحدث قال : جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه فقال يارسول الله رجل غدر وفجر ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها بيمينه لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم فهل له من توبة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أأسلمت ؟» قال أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فقال النبي صلى الله عليه وسلم « فإن الله غافر لك ما كنت كذلك ومبدل سيئاتك حسنات » فقال يا رسول الله وغدراتي وفجراتي ؟ فقال « وغدراتك وفجراتك » فولى الرجل يكبر ويهلل : وروى الطبراني من حديث أبي المغيرة عن صفوان بن عمرو عن عبدالرحمن بن جبير عن أبي فروة أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة فهل له من توبة ؟ فقال « أسلمت ؟ » فقال نعم ، قال « فافعل الخيرات واترك السيئات فيجعلها الله لك خيرات كلها » قال وغدراتي وفجراتي؟ قال « نعم » فمازال يكبر حتى توارى ، ورواه الطبراني من طريق أبي فروة الرهاوي عن ياسين الزيات عن أبي سلمة الحمصي عن يحي بن جابر عن سلمة بن نفيل مرفوعا ، وقال أيضاً حدثنا أبو زرعة حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان عن فليح بن عبيد بن أبي عبيد الشماس عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاءتني امرأة فقالت هل لي من توبة ؟ إني زنيت وولدت وقتلته ، فقلت: لا ولا نعمت العين ولا كرامة ، فقامت وهي تدعو بالحسرة ، ثم صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم الصبح فقصصت عليه ماقالت المرأة وما قلت لها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بئسما قلت أما كنت تقرأ هذه الآية ؟ » (والذين لايدعون مع الله إلها آخر ـ إلى قوله ـ إلا من تاب) الآية فقرأتها عليها فخرت ساجدة وقالت الحمد لله الذي جعل لي مخرجا ، هذا حديث غريب من هذا الوجه وفي رجاله من لا يعرف والله أعلم ، وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن المنذر الحزامي بسنده بنحوه وعنده فخرجت تدعو بالحسرة وتقول ياحسرتا أخلق هذا الحسن للنار ؟ وعنده أنه لما رجع من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تطلبها في جميع دور المدينة فلم يجدها ، فلما كان من الليلة المقبلة جاءته فأخبرها بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرت ساجدة وقالت الحمد لله الذي جعل لي مخرجا وتوبة مما عملت ، وأعتقت جارية كانت معها وابنتها وتابت إلى الله عز وجل ، ثم قال تعالى مخبرا عن عموم رحمته بعباده وأنه من تاب اليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلا أو حقيرا كبيرا أو صغيرا فقال تعالى (ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً) أي فإن الله يقبل توبته كما قال تعالى (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه) الآية وقال تعالى (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) الآية وقال تعالى (قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله) الآية أي لمن تاب اليه

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ✽ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ✽ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن أنهم لايشهدون الزور قيل هو الشرك وعبادة الأصنام وقيل الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل ، وقال محمد بن الحنفية هو اللغو والغناء ، وقال أبو العالية وطاوس وابن سيرين والضحاك

والربيع بن أنس وغيرهم : هو أعياد المشركين. وقال عمرو بن قيس: هي المجالس السوء والخنا . وقال مالك عن الزهرى : شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه كما جاء في الحديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر » وقيل المراد بقوله تعالى (لا يشهدون الزور) أي شهادة الزور وهي الكذب متعمدا على غيره كما في الصحيحين عن أبي بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » ثلاثا قلنا بلى يارسول الله قال « الشرك بالله وعقوق الوالدين » وكان متكئا فجلس فقال « ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت . والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أي لا يحضرونه ولهذا قال تعالى (وإذا مروا باللغو مروا كراما) أي لا يحضرون الزور وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء ولهذا قال (مروا كراما) وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو الحسن العجلي عن محمد بن مسلم أخبرني إبراهيم بن ميسر أن ابن مسعود مر بلهو فلم يقف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً » وحدثنا الحسين بن محمد بن سلمة النحوى ثنا حبان أنا عبد الله أنا محمد بن مسلم أخبرني ميسرة قال بلغني أن ابن مسعود مر بلهو معرضا فلم يقف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً » ثم تلا إبراهيم بن ميسرة (وإذا مروا باللغو مروا كراما) وقوله تعالى (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعمياناً) وهذه أيضا من صفات المؤمنين (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) بخلاف الكافر فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يتغير عما كان عليه بل يبقى مستمرا على كفره وطغيانه وجهله وضلاله كما قال تعالى (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم) فقوله (لم يخروا عليها صما وعمياناً) أي بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيه فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى . قال مجاهد قوله (لم يخروا عليها صما وعمياناً) قال لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئا ، وقال الحسن البصري رضي الله عنه : كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى . وقال قتادة قوله تعالى (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) يقول لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه فهم والله قوم عقلوا عن الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أسيد بن عاصم حدثنا عبد الله بن حمران ثنا ابن عون قال سألت الشعبي قلت الرجل يرى القوم سجودا ولم يسمع ما سجدوا أيسجد معهم ؟ قال فتلا هذه الآية : يعني أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر أمر السجود ولا ينبغي للمؤمن أن يكون إمعة بل يكون على بصيرة من أمره ويقين واضح بين وقوله تعالى (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له قال ابن عباس يعنون من يعمل بطاعة الله فتقربه أعينهم في الدنيا والآخرة قال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين . وسئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا أو ولد ولد أو أخا أو حميما مطيعا لله عز وجل قال ابن جريج في قوله (هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) قال يعبدونك فيحسنون عبادتك ولا يجرون علينا الجرائر ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للاسلام وقال الإمام أحمد حدثنا معمر بن بشير حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا صفوان بن عمرو حدثني عبد الرحمن بن جبير ابن نفير عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوما فمر به رجل فقال طوبى لهاتين العينين اللتين رأيا رسول الله صلى الله عليه وسلم لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت فاستغضب المقداد فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيرا ، ثم أقبل اليه فقال ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضرا غيبه الله عنه لا يدرى لو شهده كيف يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أولا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم قد كفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبي

صلى الله عليه وسلم على أشر حال بعث عليها نبيا من الأنبياء فى فترة جاهلية ، مايرون أن دينا أفضل من عبادة الأوثان فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل وفرق بين الوالد وولده إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافرا وقد فتح الله قفل قلبه للايمان يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه فى النار ، وأنها التى قال الله تعالى (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه ، وقوله تعالى (واجعلنا للمتقين إماما) قال ابن عباس والحسن والسدى وقتادة والربيع بن أنس أئمة يقتدى بنا فى الخير . وقال غيرهم هداة مهتدين دعاة إلى الخير فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم وأن يكون هداهم متعديا إلى غيرهم بالنفع وذلك أكثر ثوابا ، وأحسن مآبا ، ولهذا ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به من بعده أو صدقة جارية »

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا * خَـٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴾

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ماذكر من الصفات الجميلة ، والأقوال والأفعال الجليلة ، قال بعد ذلك كله (أولئك) أى المتصفون بهذه (يجزون) يوم القيامة (الغرفة) وهى الجنة ، قال أبو جعفر الباقر وسعيد ابن جبير والضحاك والسدى سميت بذلك لارتفاعها (بما صبروا) أى على القيام بذلك (ويلقون فيها) أى فى الجنة (تحية وسلاما) أى يبتدرون فيها بالتحية والإكرام . ويلقون التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، وقوله تعالى (خالدين فيها) أى مقيمين لايظعنون ولا يحولون ولا يموتون ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولا كما قال تعالى (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض) الآية . وقوله تعالى (حسنت مستقراً ومقاما) أى حسنت منظرا وطابت مقيلا ومنزلا . ثم قال تعالى (قل ما يعبأ بكم ربى) أى لايبالى ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه ، فانه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا . قال مجاهد وعمرو بن شعيب (مايعبأ بكم ربى) يقول ما يفعل بكم ربى ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (قل مايعبأ بكم ربى) الآية يقول لولا إيمانكم ، وأخبر تعالى الكفار أنه لاحاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين ، وقوله تعالى (فقد كذبتم) أيها الكافرون (فسوف يكون لزاماً) أى فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم يعنى مفضيا لعذابكم وهلاككم ودماركم فى الدنيا والآخرة ، ويدخل فى ذلك يوم بدر كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب ومحمد بن كعب القرظى ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم وقال الحسن البصرى (فسوف يكون لزاماً) أى يوم القيامة ، ولا منافاة بينهما . آخر تفسير سورة الفرقان ولله الحمد والمنة .

﴿ تفسير سورة الشعراء وهى مكية ﴾

﴿ ووقع فى تفسير مالك المروى عنه تسميتها سورة الجامعة ﴾

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا۟

إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور فقد تكلمنا عليه فى أول تفسير سورة البقرة . وقوله تعالى (تلك آيات الكتاب المبين) أى هذه آيات القرآن المبين أى البين الواضح الجلى الذى يفصل بين الحق والباطل والغى والرشاد . وقوله تعالى (لعلك باخع) أى مهلك (نفسك) أى مما تحرص وتحزن عليهم (ألا يكونوا مؤمنين) وهذه تسلية من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فى عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار كما قال تعالى (فلاتذهب نفسك عليهم حسرات) كقوله (فلعلك باخع نفسك على آثارهم) الآية . قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعطية والضحاك والحسن وغيرهم(لعلك باخع نفسك) أى قاتل نفسك قال الشاعر :

ألا أيهذا الباخع الحزن نفسه لشىء نحته عن يديه المقادر

ثم قال تعالى (إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) أى لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرا ولكن لانفعل ذلك لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختيارى . وقال تعالى (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا * أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) وقال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) الآية فنفذ قدره ومضت حكمته وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم ثم قال تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) أى كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس كما قال تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقال تعالى (يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) وقال تعالى (ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه) الآية ولهذا قال تعالى ههنا (فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) أى فقد كذبوا بما جاءهم من الحق فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه وجلالة قدره وشأنه الذين اجترءوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه وهو القاهر العظيم القادر الذى خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم من زروع وثمار وحيوان . قال سفيان الثورى عن رجل عن الشعبى : الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم (إن فى ذلك لآية) أى دلالة على قدرة الخالق للأشياء الذى بسط الأرض ورفع بناء السماء ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس بل كذبوا به وبرسله وكتبه وخالفوا أمره وارتكبوا نهيه . وقوله (وإن ربك لهو العزيز) أى الذى عز كل شىء وقهره وغلبه (الرحيم) أى بخلقه فلا يعجل على من عصاه بل يؤجله وينظره ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر . قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس وابن إسحاق :العزيز فى نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره ، وقال سعيد بن جبير : الرحيم بمن تاب إليه وأناب

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ * وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى

مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ ﴾

يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام حين ناداه من جانب الطور الأيمن ، وكلمه وناجاه ، وأرسله واصطفاه ، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه ، ولهذا قال تعالى (أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون * قال رب إنى أخاف أن يكذبون * ويضيق صدرى ولاينطلق لسانى فأرسل إلى هارون * ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون) هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه كما قال فى سورة طه (قال رب اشرح لى صدرى ويسرلى أمرى — إلى قوله — قد أوتيت سؤلك يا موسى) وقوله تعالى (ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون) أى بسبب قتل القبطى الذى كان سبب خروجه من بلاد مصر (قال كلا) أى قال الله له لا تخف من شىء من ذلك كقوله (سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا — أى برهانا — فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) (فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون) كقوله (إننى معكما أسمع وأرى) أى إننى معكما بحفظى وكلاءتى ونصرى وتأييدى (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين) كقوله فى الآية الأخرى (إنا رسولا ربك) أى كل منا أرسل إليك (أن أرسل معنا بنى إسرائيل) أى أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك فإنهم عباد الله المؤمنون وحزبه المخلصون وهم معك فى العذاب المهين ؛ فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون هنالك بالكلية ونظر إليه بعين الازدراء والغمص فقال (ألم نربك فينا وليدا) الآية أى أما أنت الذى ربيناه فينا وفى بيتنا وعلى فراشنا وأنعمنا عليه مدة من السنين ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة أن قتلت منا رجلا وجحدت نعمتنا عليك ولهذا قال (وأنت من الكافرين) أى الجاحدين . قاله ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير (قال فعلتها إذاً) أى فى تلك الحال (وأنا من الضالين) أى قبل أن يوحى إلى وينعم الله على بالرسالة والنبوة . قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم (وأنا من الضالين) أى الجاهلين ، قال ابن جريج وهو كذلك فى قراءة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (ففرت منكم لما خفتكم) الآية أى انفصل الحال الأول وجاء أمر آخر فقد أرسلنى الله إليك فان أطعته سلمت وإن خالفته عطبت ، ثم قال موسى (وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل) أى وما أحسنت إلى وربيتنى مقابل ما أسأت إلى بنى إسرائيل فجعلتهم عبيدا وخدماً تصرفهم فى أعمالك ومشاق رعيتك، أفيفى إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم أى ليس ما ذكرته شيئا بالنسبة إلى ما فعلت بهم

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده فى قوله (وما رب العالمين) وذلك أنه كان يقول لقومه (ماعلمت لكم من إله غيرى) (فاستخف قومه فأطاعوه) وكانوا يجحدون الصانع جل وعلا ويعتقدون أنه لارب لهم سوى فرعون ، فلما قال له موسى إنى رسول رب العالمين قال له فرعون ومن هذا الذى تزعم أنه رب العالمين غيرى ؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف حتى قال السدى هذه الآية كقوله تعالى (قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط فانه لم يكن مقرا بالصانع حتى يسأل عن الماهية بل كان جاحدا له بالكلية فيما يظهر وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين (قال رب السموات والأرض وما بينهما) أى خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه وإلهه لاشريك له هو الذى خلق الأشياء كلها العالم العلوى وما فيه من الكواكب

الثوابت والسيارات النيرات ، والعالم السفلى وما فيه من بحار وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار وما بين ذلك من الهواء والطير ، وما يحتوى عليه الجو ، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون (إن كنتم موقنين) أى إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذه ، فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلا لهم على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله (ألا تستمعون ؟) أى ألا تعجبون من هذا فى زعمه أن لكم إلها غيرى؟ فقال لهم موسى (ربكم ورب آبائكم الأولين) أى خالقكم وخالق آبائكم الأولين الذين كانوا قبل فرعون وزمانه (قال) أى فرعون لقومه (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) أى ليس له عقل فى دعواه أن ثم ربا غيرى (قال) أى موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة فأجاب موسى بقوله (رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) أى هو الذى جعل المشرق مشرقا تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغربا تغرب فيه الكواكب ثوابتها وسياراتها مع هذا النظام الذى سخرها فيه وقدرها فان كان هذا الذى يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقا فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغربا والمغرب مشرقا كما قال تعالى عن (الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فائت بها من المغرب) الآية . ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه ، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ فى موسى عليه السلام فقال ما أخبر الله تعالى عنه :

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه فظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال فقال (لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) فعند ذلك قال موسى (أولو جئتك بشىء مبين ؟) أى ببرهان قاطع واضح (قال فائت به إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين) أى ظاهر واضح فى غاية الجلاء والوضوح والعظمة ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مزعج (ونزع يده) أى من جيبه (فاذا هى بيضاء للناظرين) أى تتلألأ كقطعة من القمر فبادر فرعون بشقاوته إلى التكذيب والعناد فقال للملأ حوله (إن هذا الساحر عليم) أى فاضل بارع فى السحر ، فروج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به فقال (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره) الآية أى أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم فيأخذ البلاد منكم فأشيروا على فيه ماذا أصنع به ؟ (قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحار عليم) أى أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم يقابلونه ويأتون بنظير ما جاء به فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد، فأجابهم إلى ذلك . وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم فى ذلك ليجتمع الناس فى صعيد واحد وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس فى النهار جهرة

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا

لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ * فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ * فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ * قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى عليه السلام والقبط فى سورة الأعراف وفى سورة طه وفى هذه السورة : وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم فأبى الله إلا أن يتم نوره ولوكره الكافرون ، وهذا شأن الكفر والإيمان ماتواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) (وقل جاء الحق وزهق الباطل) الآية ولهذا لما جاء السحرة وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر ، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلا فى ذلك ، وكان السحرة جمعا كثيرا ؟ وجما غفيرا ، قيل كانوا اثنى عشر ألفا وقيل خمسة عشر ألفا ، وقيل سبعة عشر ألفا ، وقيل تسعة عشر ألفا ، وقيل بضعة وثلاثين ألفا ، وقيل ثمانين ألفا ، وقيل غير ذلك والله أعلم بعدتهم . قال ابن إسحاق : وكان أمرهم راجعا إلى أربعة منهم وهم رؤساؤهم وهم :سابور وعاذور وحطحط ومصنى ، واجتهد الناس فى الاجتماع ذلك اليوم وقال قائلهم (لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) ولم يقولوا نتبع الحق سواء كان من السحرة أومن موسى بل الرعية على دين ملكهم(فلما جاء السحرة) أى إلى مجلس فرعون وقد ضربوا له وطاقا وجمع خدمه وحشمه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته . فقام السحرة بين يدى فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا أى هذا الذى جمعتنا من أجله فقالوا (أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين) أى وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندى وجلسائى ، فعادوا إلى مقام المناظرة (قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا) وقد اختصر هذا ههنا فقال لهم موسى (ألقوا ما أنتم ملقون * فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون)وهذا كما تقول الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئا هذا بثواب فلان ، وقد ذكر الله تعالى فى سورة الأعراف أنهم (سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) وقال فى سورة طه (فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى — إلى قوله — ولا يفلح الساحر حيث أتى) وقال ههنا (فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون)أى تختطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئا ، قال الله تعالى (فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون — إلى قوله — رب موسى وهارون) فكان هذا أمرا عظيما جدا وبرهانا قاطعا للعذر وحجة دامغة ، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى فى الساعة الراهنة وسجدوا لله رب العالمين الذى أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة ، فغلب فرعون غلبا لم يشاهد العالم مثله وكان وقحا جريئا عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل فشرع يتهددهم ويتوعدهم ويقول(إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) وقال (إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة) الآية

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

تهددهم فلم ينفع ذلك فيهم وتوعدهم فما زادهم إلا إيمانا وتسليما . وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم من أن هذا الذى جاء به موسى لا يصدر عن بشر إلا أن يكون الله قد أيده به وجعله له حجة ودلالة

على صدق ماجاء به من ربه ، ولهذا لما قال لهم فرعون (آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟) أى كان ينبغى أن تستأذنونى فيما فعلتم ولا تفتاتوا على فى ذلك فان أذنت لكم فعلتم وإن منعتكم امتنعتم فانى أنا الحاكم المطاع (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها فانهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم فكيف يكون كبيرهم الذى أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لايقوله عاقل . ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدى والأرجل والصلب فقالوا (لاضير) أى لاحرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالى به (إنا إلى ربنا منقلبون) أى المرجع إلى الله عز وجل وهو لايضيع أجر من أحسن عملا ولا يخفى عليه مافعلت بنا وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء ولهذا قالوا (إنا نطمع أن يغفرلنا ربنا خطايانا) أى ما قارفنا من الذنوب وما أكرهتنا عليه من السحر (إن كنا أول المؤمنين) أى بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان . فقتلهم كلهم .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج ببنى إسرائيل ليلا من مصر وأن يمضى بهم حيث يؤمر ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل . خرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً ، وكان خروجه بهم فيما ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع القمر ، وذكر مجاهد رحمه الله أنه كسف القمر تلك الليلة فالله أعلم . وأن موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام فدلته امرأة عجوز من بنى إسرائيل عليه، فاحتمل تابوته معهم ويقال إنه هو الذى حمله بنفسه عليهما السلام وكان يوسف عليه السلام قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحتملوه معهم . وقد ورد فى ذلك حديث رواه ابن أبى حاتم رحمه الله فقال : حدثنا على بن الحسين حدثنا عبدالله بن عمر بن أبان بن صالح حدثنا ابن فضيل عن يونس بن أبى إسحق عن ابن أبى بردة عن أبيه عن أبى موسى قال : نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعرابى فأكرمه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعاهدنا » فأتاه الأعرابى فقال له رسول الله ﷺ « ماحاجتك ؟ » قال ناقة برحلها وأعنز يحتلبها أهلى ، فقال « أعجزت أن تكون مثل عجوز بنى إسرائيل ؟ » فقال له أصحابه وما عجوز بنى إسرائيل يارسول الله ؟ قال « إن موسى عليه السلام لما أراد أن يسير ببنى إسرائيل أضل الطريق فقال لبنى إسرائيل ماهذا ؟ فقال له علماء بنى إسرائيل نحن نحدثك أن يوسف عليه السلام لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقاً من الله أن لانخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا ، فقال لهم موسى فأيكم يدرى أين قبر يوسف ؟ قالوا مايعلمه إلا عجوز من بنى إسرائيل ، فأرسل اليها فقال لها دلينى على قبر يوسف ، فقالت والله لاأفعل حتى تعطينى حكمى ، فقال لها وما حكمك ؟ قالت حكمى أن أكون معك فى الجنة ، فكأنه ثقل عليه ذلك فقيل له أعطها حكمها — قال — فانطلقت معهم إلى بحيرة — مستنقع ماء — فقالت لهم انضبوا هذا الماء فلما أنضبوه قالت احفروا فلما حفروا استخرجوا قبر يوسف فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار» وهذا حديث غريب جدا والأقرب أنه موقوف والله أعلم : فلما أصبحوا وليس فى ناديهم داع ولا مجيب غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بنى إسرائيل لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعا فى بلاده حاشرين أى من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجاب ونادى فيهم (إن هؤلاء) يعنى بنى إسرائيل (لشرذمة قليلون) أى لطائفة قليلة (وإنهم لنا لغائظون) أى كل وقت يصل منهم الينا مايغيظنا (وإنا لجميع حاذرون) أى نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وقرأ طائفة من السلف (وإنا لجميع حذرون) أى مستعدون بالسلاح ، وإنى أريد أن أستأصل شأفتهم وأبيد

خضراءهم فجوزى فى نفسه وجنده بما أراد لهم ، قال الله تعالى (فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم) أى فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر فى الدنيا (كذلك وأورثناها بنى إسرائيل) كما قال تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها) الآية وقال تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) الآيتين .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين أن فرعون خرج فى محفل عظيم وجمع كبير هو عبارة عن مملكة الديار المصرية فى زمانه أولى الحل والعقد والدول من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ، فأما ماذكره غير واحد من الإسرائيليات من أنه خرج فى ألف ألف وستمائة ألف فارس منها مائة ألف على خيل دهم ففيه نظر . وقال كعب الأحبار فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم وفى ذلك نظر ، والظاهر أن ذلك من مجازفات بنى إسرائيل والله سبحانه وتعالى أعلم ، والذى أخبر به القرآن هو النافع ولم يعين عدتهم إذ لا فائدة تحته لأنهم خرجوا بأجمعهم (فأتبعوهم مشرقين) أى وصلوا إليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها (فلما تراءى الجمعان) أى رأى كل من الفريقين صاحبه فعند ذلك (قال أصحاب موسى إنا لمدركون) وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر وهو بحر القلزم فصار أمامهم البحر وقد أدركهم فرعون بجنوده فلهذا قالوا (إنا لمدركون * قال كلا إن معى ربى سيهدين) أى لا يصل إليكم شىء مما تحذرون فان الله سبحانه هو الذى أمرنى أن أسير ههنا بكم وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد ، وكان هرون عليه السلام فى القدمة ومعه يوشع بن نون ومؤمن آل فرعون وموسى عليه السلام فى الساقة ، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أنهم وقفوا لا يدرون مايصنعون وجعل يوشع بن نون أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى عليه السلام يانبى الله ههنا أمرك ربك أن تسير ؟ فيقول نعم فاقترب فرعون وجنوده ولم يبق إلا القليل فعند ذلك أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر فضربه وقال انفلق باذن الله . وروى ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان بن صالح حدثنا الوليد حدثنا محمد بن حمزة بن يوسف عن عبد الله بن سلام أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال : يامن كان قبل كل شىء والمكون لكل شىء والكائن بعد كل شىء اجعل لنا مخرجا فأوحى الله اليه (أن اضرب بعصاك البحر) وقال قتادة أوحى الله تلك الليلة إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع فبات البحر تلك الليلة وله اضطراب ولا يدرى من أى جانب يضربه موسى فلما انتهى اليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون يانبى الله أين أمرك ربك عز وجل ؟ قال أمرنى أن أضرب البحر قال فاضربه ، وقال محمد بن إسحق أوحى الله - فيما ذكر لى - إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له قال فبات البحر يضطرب ويضرب بعضه بعضا فرقا من الله تعالى وانتظاراً لما أمره الله ، وأوحى الله إلى موسى (أن اضرب بعصاك البحر) فضربه بها ففيها سلطان الله الذى أعطاه فانفلق ، وذكر غير واحد أنه جاءه فكناه فقال انفلق على أبا خالد باذن الله . قال الله تعالى (فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) أى كالجبل الكبير، قاله ابن مسعود وابن عباس ومحمد بن كعب والضحاك وقتادة وغيرهم . وقال عطاء الخراسانى : هو الفج بين الجبلين وقال ابن عباس : صار البحر اثنى عشر طريقا لكل سبط طريق ، وزاد السدى وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ،

وقام الماء على حيله كالحيطان وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته فسار يبسا كوجه الأرض قال الله تعالى (فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لاتخاف دركا ولا تخشى) وقال فى هذه القصة (وأزلفنا ثم الآخرين) أى هنالك قال ابن عباس وعطاء الخراسانى وقتادة والسدى (وأزلفنا) أى قربنا من البحر فرعون وجنوده وأدنيناهم اليه (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين) أى أنجينا موسى وبنى إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك ، وروى ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا أبوبكر بن أبى شيبة حدثنا شبابة حدثنا يونس بن أبى إسحق عن أبى إسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله هو ابن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسرى ببنى إسرائيل بلغ فرعون ذلك فأمر بشاة فذبحت ، وقال لا والله لايفرغ من سلخها حتى يجتمع إلى ستمائة ألف من القبط فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر فقال له : انفرق فقال له البحر قد استكبرت ياموسى وهل انفرقت لأحد من ولد آدم فأنفرق لك ؟ قال ومع موسى رجل على حصان له فقال له ذلك الرجل أين أمرت يانبى الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه يعنى البحر فأقحم فرسه فسبح به فخرج فقال أين أمرت يانبى الله قال ما أمرت إلا بهذا الوجه قال والله ما كذب ولا كذبت ثم اقتحم الثانية فسبح ثم خرج فقال أين أمرت يانبى الله ؟ قال ما أمرت إلا بهذا الوجه قال والله ما كذب ولا كذبت : قال فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه موسى بعصاه فانفلق فكان فيه اثنا عشر سبطا لكل سبط طريق يتراءون فلما خرج أصحاب موسى وتتام أصحاب فرعون التقى البحر عليهم فأغرقهم ، وفى رواية إسرائيل عن أبى إسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله قال : فلما خرج آخر أصحاب موسى وتكامل أصحاب فرعون انطم عليهم البحر فمارئى سواد أكثر من يومئذ ، وغرق فرعون لعنه الله ، ثم قال تعالى (إن فى ذلك لآية) أى فى هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة (وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) تقدم تفسيره .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء . أمر الله تعالى رسوله محمدا ﷺ أن يتلوه على أمته ليقتدوا به فى الإخلاص والتوكل وعبادة الله وحده لاشريك له والتبرى من الشرك وأهله فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل أى من صغره إلى كبره فانه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجل (فقال لأبيه وقومه ماذا تعبدون) أى ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ (قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين) أى مقيمين على عبادتها ودعائها (قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) يعنى اعترفوا بأن أصنامهم لاتفعل شيئا من ذلك وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون فهم على آثارهم يهرعون فعند ذلك قال لهم إبراهيم (أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدولى إلا رب العالمين) أى إن كانت هذه الأصنام شيئا ولها تأثير فلتخلص إلى بالمساءة فإنى عدولها لا أبالى بها ولا أفكر فيها ، وهذا كما قال تعالى مخبرا عن نوح عليه السلام (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) الآية وقال هود عليه السلام (إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم) وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم فقال (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله) الآية . وقال تعالى (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم — إلى قوله — حتى تؤمنوا بالله وحده) وقال تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين * وجعلها كلمة) يعنى لا إله إلا الله

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾

يعنى لاأعبد إلا الذى يفعل هذه الأشياء (الذى خلقنى فهو يهدين) أى هو الخالق الذى قدر قدراً وهدى الخلائق اليه فكل يجرى على ماقدر له وهو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء (والذى هو يطعمنى ويسقين) أى هو خالق ورازقى بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية فساق المزن وأنزل الماء وأحيا به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد وأنزل الماء عذبا زلالا يسقيه مما خلق أنعاما وأناسى كثيرا . وقوله (وإذا مرضت فهو يشفين) أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ولكن أضافه إلى نفسه أدبا كما قال تعالى آمرا للمصلى أن يقول . (اهدنا الصراط المستقيم) إلى آخر السورة فأسند الانعام والهداية إلى الله تعالى والغضب حذف فاعله أدبا وأسند الضلال إلى العبيد كما قالت الجن (وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) وكذا قال إبراهيم (وإذا مرضت فهو يشفين) أى إذا وقعت فى مرض فإنه لايقدر على شفائى أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة اليه (والذى يميتنى ثم يحيين) أى هو الذى يحيى ويميت لايقدر على ذلك أحد سواه فإنه هو الذى يبدئ ويعيد (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) أى لايقدر على غفران الذنوب فى الدنيا والآخرة إلا هو ومن يغفر الذنوب إلا الله وهو الفعال لما يشاء

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ * وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ * وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ * وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه ربه حكما . قال ابن عباس وهو العلم ، وقال عكرمة هو اللب ، وقال مجاهد هو القرآن ، وقال السدى هو النبوة . وقوله (وألحقنى بالصالحين) أى اجعلنى مع الصالحين فى الدنيا والآخرة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عند الاحتضار « اللهم فى الرفيق الأعلى » قالها ثلاثاً . وفى الحديث فى الدعاء « اللهم أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مبدلين » وقوله (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) أى واجعل لى ذكرا جميلا بعدى أذكر به ويقتدى بى فى الخير كما قال تعالى (وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على إبراهيم * كذلك نجزى المحسنين) قال مجاهد وقتادة (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) يعنى الثناء الحسن . قال مجاهد كقوله تعالى (وآتيناه فى الدنيا حسنة) الآية وكقوله (وآتيناه أجره فى الدنيا) الآية ، قال ليث بن أبى سليم كل ملة تحبه وتتولاه وكذا قال عكرمة . وقوله تعالى (واجعلنى من ورثة جنة النعيم) أى أنعم على فى الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدى وفى الآخرة بأن تجعلنى من ورثة جنة النعيم . وقوله (واغفر لأبى) الآية كقوله (ربنا اغفر لى ولوالدى) وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه — إلى قوله — إن إبراهيم لأواه حليم) وقد قطع تعالى الالحاق فى استغفاره لأبيه فقال تعالى (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه — إلى قوله — وما أملك لك من الله من شىء) وقوله (ولاتخزنى يوم يبعثون) أى أجرنى من الخزى يوم القيامة ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم . وقال البخارى عند هذه الآية: قال إبراهيم بن طهمان عن ابن أبى ذئب عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يلقى إبراهيم يوم القيامة أباه عليه الغبرة والقترة » وفى رواية أخرى حدثنا إسماعيل حدثنا أخى عن ابن أبى ذئب

عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يلقى إبراهيم أباه فيقول يا رب إنك وعدتنى أن لاتخزنى يوم يبعثون فيقول الله تعالى إنى حرمت الجنة على الكافرين » هكذا رواه عند هذه الآية . وفى أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفردا به ولفظه « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعصينى فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتنى أن لاتخزنى يوم يبعثون فأى خزى أخزى من أبى الأبعد فيقول الله تعالى إنى حرمت الجنة على الكافرين ثم يقول يا إبراهيم انظر تحت رجلك فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار » ورواه عبد الرحمن النسائى فى التفسير من سننه الكبير وقوله (ولا تخزنى يوم يبعثون) أخبرنا أحمد بن حفص بن عبد الله حدثنى أبى حدثنى إبراهيم بن طهمان عن محمد بن عبد الرحمن عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة وقال له قد نهيتك عن هذا فعصيتنى ، قال لكنى اليوم لا أعصيك واحدة ، قال يارب وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون فان أخزيت أباه فقد أخزيت الأبعد . قال يا إبراهيم إنى حرمتها على الكافرين فأخذ منه . قال يا إبراهيم أين أبوك ؟ قال أنت أخذته منى ، قال انظر أسفل منك فنظر فإذا ذيخ يتمرغ فى نتنه فأخذ بقوائمه فألقى فى النار » وهذا إسناد غريب وفيه نكارة والذيخ هو الذكر من الضباع كأنه حول آزر إلى صورة ذيخ متلطخ بعذرته فيلقى فى النار كذلك . وقد رواه البزار بإسناده من حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ وفيه غرابه . ورواه أيضا من حديث قتادة عن جعفر بن عبد الغافر عن أبى سعيد عن النبى ﷺ بنحوه وقوله : (يوم لاينفع مال ولا بنون) أى لا يقى المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهبا (ولا بنون) أى ولو افتدى بمن على الأرض جميعا ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله وإخلاص الدين له والتبرى من الشرك وأهله ولهذا قال (إلا من أتى الله بقلب سليم) أى سالم من الدنس والشرك قال ابن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ، وقال ابن عباس (إلا من أتى الله بقلب سليم) القلب السليم أن يشهد أن لا إله إلا الله ، وقال مجاهد والحسن وغيرهما (بقلب سليم) يعنى من الشرك ، وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم هو القلب الصحيح وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض قال الله تعالى (فى قلوبهم مرض) قال أبو عثمان النيسابورى هو القلب السالم من البدعة المطمئن إلى السنة

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

(وأزلفت الجنة) أى قربت وأدنيت من أهلها مزخرفة مزينة لناظريها وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما فى الدنيا وعملوا لها فى الدنيا (وبرزت الجحيم للغاوين) أى أظهرت وكشف عنها وبدت منها عنق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر وقيل لأهلها تقريعا وتوبيخا (أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون) أى ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغنى عنكم اليوم شيئا ولا تدفع عن أنفسها فانكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون ، وقوله (فكبكبوا فيها هم والغاوون) قال مجاهد يعنى فدهوروا فيها.

وقال غيره كبوا فيها والكاف مكررة كما يقال صرصر والمراد أنه ألقى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك (وجنود إبليس أجمعون) أى ألقوا فيها عن آخرهم (قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفى ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين) أى يقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ، ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة (تالله إن كنا لفى ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين) أى نجعل أمركم مطاعا كما يطاع أمر رب العالمين وعبدناكم مع رب العالمين (وما أضلنا إلا المجرمون) أى ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون (فما لنا من شافعين) قال بعضهم يعنى من الملائكة كما يقولون (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل) وكذا قالوا (فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم) أى قريب : قال قتادة يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحا نفع، وأن الحميم إذا كان صالحا شفع (فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين) وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون والله تعالى يعلم أنهم لو ردوا إلى دار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، وقد أخبر الله تعالى عن تخاصم أهل النار فى سورة ص ثم قال تعالى (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) ثم قال تعالى (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) أى إن فى محاجة إبراهيم لقومه وإقامة الحجج عليهم فى التوحيد لآية أى لدلالة واضحة جلية على أن لا إله إلا الله (وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم)

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله نوح عليه السلام وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد ما عبدت الأصنام والأنداد فبعثه الله ناهيا عن ذلك ومحذرا من وبيل عقابه فكذبه قومه فاستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة فى عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى ، ونزل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل فلهذا قال تعالى (كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون) أى ألا تخافون الله فى عبادتكم غيره (إنى لكم رسول أمين) أى إنى رسول من الله إليكم أمين فيما بعثنى الله به أبلغكم رسالات ربى ولا أزيد فيها ولا أنقص منها (فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر) الآية أى لا أطلب منكم جزاء على نصحى لكم بل أدخر ثواب ذلك عند الله (فاتقوا الله وأطيعون) فقد وضح لكم وبان صدقى ونصحى وأمانتى فيما بعثنى الله به وائتمننى عليه

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

يقولون لا نؤمن لك ولا نتبعك ونتأسى فى ذلك بهؤلاء الأرذلين الذين اتبعوك وصدقوك وهم أراذلنا ولهذا (قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون * قال وما علمى بما كانوا يعملون) أى وأى شىء يلزمنى من اتباع هؤلاء لى ولو كانوا على أى شىء كانوا عليه لا يلزمنى التنقيب عنهم والبحث والفحص إنما على أن أقبل منهم تصديقهم إياى وأكل سرائرهم إلى الله عز وجل (إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين) كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ويتابعوه فأبى عليهم ذلك وقال (وما أنا بطارد المؤمنين * إن أنا إلا نذير مبين) أى إنما بعثت نذيرا فمن أطاعنى واتبعنى وصدقنى كان منى وأنا منه سواء كان شريفا أو وضيعا ، أو جليلا أو حقيرا

﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي

ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله تعالى ليلا ونهاراً وسراً وجهاراً وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ والامتناع الشديد وقالوا في الآخر (لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين) أي لئن لم تنته من دعوتك إيانا إلى دينك (لتكونن من المرجومين) أي لنرجمنك فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه فقال (رب إن قومي كذبون * فافتح بيني وبينهم فتحاً) الآية كما قال في الآية الأخرى (فدعا ربه أني مغلوب فانتصر) إلى آخر الآية. وقال ههنا (فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين) والمشحون هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين أي أنجينا نوحا ومن اتبعه كلهم وأغرقنا من كفر به وخالف أمره كلهم أجمعين (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم)

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام انه دعا قومه عاداً وكان قومه يسكنون الأحقاف وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت متاخمة بلاد اليمن ، وكان زمانهم بعد قوم نوح كما قال في سورة الأعراف (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة) وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد والطول المديد والأرزاق الدارة والأموال والجنات والأنهار والأبناء والزروع والثمار وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه فبعث الله هوداً إليهم رجلا منهم رسولا وبشيراً ونذيراً فدعاهم إلى الله وحده وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته وبطشه فقال لهم كما قال نوح لقومه إلى أن قال (أتبنون بكل ريع آية تعبثون) اختلف المفسرون في الريع بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة يبنون هناك بنياناً محكما هائلا باهراً ولهذا قال (أتبنون بكل ريع آية) أي معلما بناء مشهوراً (تعبثون) أي وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة ، ولهذا قال (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) قال مجاهد ، والمصانع البروج المشيدة والبنيان المخلد ، وفي رواية عنه بروج الحمام ، وقال قتادة هي مأخذ الماء . قال قتادة وقرأ بعض الكوفيين (وتتخذون مصانع كأنكم خالدون) وفي القراءة المشهورة (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) أي لكي تقيموا فيها أبداً وذلك ليس بحاصل لكم بل زائل عنكم كما زال عمن كان قبلكم ، وروى ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا أبي حدثنا الحكم بن موسى حدثنا الوليد حدثنا ابن عجلان حدثني عون بن عبد الله بن عتبة أن أبا الدرداء رضي الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الشجر قام في مسجدهم فنادى يا أهل دمشق فاجتمعوا اليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا تستحيون ، ألا تستحيون ، تجمعون ما لا تأكلون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تدركون ، إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطيلون فأصبح أملهم غروراً ، وأصبح جمعهم بوراً ، وأصبحت مساكنهم قبوراً ، ألا إن عادا ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركابا فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين ؟ . وقوله (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) أي يصفهم بالقوة والغلظة

والجبروت (فاتقوا الله وأطيعون) أى اعبدوا ربكم وأطيعوا رسولكم ، ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال (واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون * إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أى إن كذبتم وخالفتم ، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب فما نفع فيهم

﴿ قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن جواب قوم هود له بعد ماحذرهم وأنذرهم ورغبهم ورهبهم وبين لهم الحق ووضحه (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) أى لانرجع عما نحن عليه (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين) وهكذا الأمر فان الله تعالى قال (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون) وقال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون) الآية وقولهم (إن هذا إلا خلق الأولين) قرأ بعضهم (إن هذا إلا خلق الأولين) بفتح الخاء وتسكين اللام ، قال ابن مسعود والعوفى عن عبد الله بن عباس وعلقمة ومجاهد يعنون ماهذا الذى جئتنا به إلا أخلاق الأولين كما قال المشركون من قريش (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) وقال (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون * فقد جاءوا ظلماً وزوراً * وقالوا أساطير الأولين) وقال (وقيل للذين كفروا ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) وقرأ آخرون (إن هذا إلا خلق الأولين) بضم الخاء واللام يعنون دينهم وماهم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا معاد ولهذا قالوا (وما نحن بمعذبين) ، قال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس (إن هذا إلا خلق الأولين) يقول دين الأولين . وقاله عكرمة وعطاء الخراسانى وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير وقوله تعالى (فكذبوه فأهلكناهم) أى استمروا على تكذيب نبى الله هود ومخالفته وعناده فأهلكهم الله وقد بين سبب إهلاكه إياهم فى غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحا صرصرا عاتية أى ريحا شديدة الهبوب ذات برد شديد جدا فكان سبب إهلاكهم من جنسهم فإنهم كانوا أعتى شىء وأجبره فسلط الله عليهم ماهو أعتى منهم وأشد قوة كما قال تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد) وهم عاد الأولى كما قال تعالى (وأنه أهلك عادا الأولى) وهم من نسل إرم بن سام بن نوح (ذات العماد) الذين كانوا يسكنون العمد ، ومن زعم أن إرم مدينة فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب وليس لذلك أصل أصيل ولهذا قال (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) أى لم يخلق مثل هذه القبيلة فى قوتهم وشدتهم وجبروتهم ولو كان المراد بذلك مدينة لقال التى لم يبن مثلها فى البلاد وقال تعالى (فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون) وقد قدمنا أن الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح إلا مقدار أنف الثور ، عتت على الخزنة فأذن الله لها فى ذلك فسلكت فحصبت بلادهم فحصبت كل شىء لهم كما قال تعالى (تدمر كل شىء بأمر ربها) الآية وقال تعالى (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية - إلى قوله - حسوما - أى كاملة - فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاويه) أى بقوا أبدانا بلا رءوس وذلك أن الريح كانت تأتى الرجل منهم فتقتلعه وترفعه فى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه وتكسر رأسه وتلقيه كأنهم أعجاز نخل منقعر وقد كانوا تحصنوا فى الجبال والكهوف والمغارات وحفروا لهم فى الأرض إلى أنصافهم فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئاً (إن أجل الله إذا جاء لايؤخر) ولهذا قال تعالى (فكذبوه فأهلكناهم) الآية

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴾

وهذا إخبار من الله عزوجل عن عبده ورسوله صالح عليه السلام أنه بعثه إلى قومه ثمود وكانوا عربا يسكنون مدينة الحجر التى بين وادى القرى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة ، وقد قدمنا فى سورة الأعراف الأحاديث المروية فى مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزو الشام فوصل إلى تبوك ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك . وكانوا بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام . فدعاهم نبيهم صالح إلى الله عزوجل أن يعبدوه وحده لاشريك له وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه وأخبرهم أنه لا يبتغى بدعوتهم أجرا منهم وإنما يطلب ثواب ذلك من الله عزوجل ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَا ءَامِنِينَ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾

يقول لهم واعظالهم ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم ومذكرا بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة وجعلهم فى أمن من المحذورات . وأنبت لهم من الجنات . وفجرلهم من العيون الجاريات وأخرج لهم من الزروع والثمرات ولهذا قال (ونخل طلعها هضيم) قال العوفى عن ابن عباس أينع وبلغ فهو هضيم ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (ونخل طلعها هضيم) يقول معشبة وقال إسماعيل بن أبى خالد عن عمرو بن أبى عمرو — وقد أدرك الصحابة — عن ابن عباس فى قوله (ونخل طلعها هضيم) قال إذا رطب واسترخى رواه ابن أبى حاتم ثم قال : وروى عن أبى صالح نحو هذا وقال أبو إسحاق عن أبى العلاء (ونخل طلعها هضيم) قال هو المذنب من الرطب وقال مجاهد: هو الذى إذا يبس تهشم وتفتت وتناثر . وقال ابن جريج سمعت عبد الكريم أنبأنا أمية سمعت مجاهدا يقول (ونخل طلعها هضيم) قال : حين يطلع تقبض عليه فتهضمه فهو من الرطب الهضيم ومن اليابس الهشيم تقبض عليه فتهشمه . وقال عكرمة وقتادة: الهضيم الرطب اللين . وقال الضحاك : إذا كثر حمل الثمرة وركب بعضها بعضا فهو هضيم وقال مرة هو الطلع حين يتفرق ويخضر . وقال الحسن البصرى هو الذى لانوى له ، وقال أبو صخر : ما رأيت الطلع حين ينشق عنه الكم فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض فهو الهضيم

وقوله (وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين) قال ابن عباس وغير واحد يعنى حاذقين . وفى رواية عنه شرهين أشرين وهو اختيار مجاهد وجماعة ولا منافاة بينهما فانهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة فى الجبال أشرا وبطرا وعبثا من غير حاجة إلى سكناها وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم ولهذا قال (فاتقوا الله وأطيعون) أى أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم فى الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذى خلقكم ورزقكم لتعبدوه وتوحدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا (ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) يعنى رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّٰدِقِينَ * قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن ثمود فى جوابهم لنبيهم صالح عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة ربهم عز وجل أنهم (قالوا إنما أنت من المسحرين) قال مجاهد وقتادة يعنون من المسحورين ، وروى أبو صالح عن ابن عباس (من المسحرين)

يعنى من المخلوقين واستشهد بعضهم على هذا بقول الشاعر :

فإن تسألينا فيم نحن فاننا * عصافير من هذا الأنام المسحر

يعنى الذين لهم سحر والسحر هو الرئة ، والأظهر فى هذا قول مجاهد وقتادة أنهم يقولون إنما أنت فى قولك هذا مسحور لا عقل لك ، ثم قالوا (ما أنت إلا بشر مثلنا) يعنى فكيف أوحى إليك دوننا كما قالوا فى الآية الأخرى (أألقى عليه الذكر من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر * سيعلمون غدا من الكذاب الأشر) ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاء هم به من ربهم ، وقد اجتمع ملؤهم وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء ـ وأشاروا إلى صخرة عندهم ـ من صفتها كذا وكذا فعند ذلك أخذ عليهم نبى الله صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه فأعطوه ذلك فقام نبى الله صالح عليه السلام فصلى ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم فانفطرت تلك الصخرة التى أشاروا إليها عن ناقة عشراء على الصفة التى وصفوها فآمن بعضهم وكفر أكثرهم (قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) يعنى ترد ماءكم يوما ويوما تردونه أنتم (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم) فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حينا من الدهر ترد الماء وتأكل الورق والمرعى وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شربا وريا ؛ فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تمالئوا على قتلها وعقرها (فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب) وهو أن أرضهم زلزلت زلزالا شديداً وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون وأصبحوا فى ديارهم جاثمين (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم)

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط عليه السلام وهو لوط بن هاران بن آزر وهو ابن أخى إبراهيم الخليل عليه السلام وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة فى حياة إبراهيم عليهما السلام ، وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها التى أهلكها الله بها وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة وهى مشهورة ببلاد الغور متاخمة لجبال البيت المقدس بينها وبين بلاد الكرك والشوبك ؛ فدعاهم إلى الله عزوجل أن يعبدوه وحده لاشريك له ؛ وأن يطيعوا رسولهم الذى بعثه الله إليهم ونهاهم عن معصية الله وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه فى العالم مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله من إتيان الذكور دون الإناث ولهذا قال تعالى

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

لما نهاهم نبى الله عن ارتكاب الفواحش وغشيانهم الذكور وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتى خلقهن الله لهم ما كان جوابهم له إلا أن قالوا (لئن لم تنته يا لوط) أى عما جئتنا به (لتكونن من المخرجين) أى ننفيك من بين أظهرنا كما قال تعالى (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون) فلما رأى أنهم لا يرتدعون

عمام فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم تبرأ منهم وقال (إني لعملكم من القالين) أي المبغضين لا أحبه ولا أرضى به وإني برىء منكم ثم دعا الله عليهم فقال (رب نجني وأهلي مما يعملون) قال الله تعالى (فنجيناه وأهله أجمعين) أي كلهم (إلا عجوزاً في الغابرين) وهي امرأته وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقي من قومها وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأعراف وهود وكذا في الحجر حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته وأنهم لا يلتفتوا إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه فصبروا لأمر الله واستمروا وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ولهذا قال تعالى (ثم دمرنا الآخرين * وأمطرنا عليهم مطراً — إلى قوله — وإن ربك لهو العزيز الرحيم)

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

هؤلاء — يعني أصحاب الأيكة — هم أهل مدين على الصحيح وكان نبي الله شعيب من أنفسهم وإنما لم يقل ههنا أخوهم شعيب لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهي شجرة وقيل شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها فلهذا لما قال: كذب أصحاب الأيكة المرسلين لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب وإنما قال (إذ قال لهم شعيب) فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا اليه وإن كان أخاهم نسبا. ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين فزعم أن شعيبا عليه السلام بعثه الله إلى أمتين ومنهم من قال ثلاث أمم. وقد روى إسحق بن بشر الكاهلي — وهو ضعيف — حدثني ابن السدي عن أبيه وزكريا بن عمرو عن خصيف عن عكرمة قالا: مابعث الله نبيا مرتين إلا شعيبا مرة إلى مدين فأخذهم الله بالصيحة ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة، وروى أبو القاسم البغوي عن هدبة عن همام عن قتادة في قوله تعالى (وأصحاب الرس) قوم شعيب وقوله (وأصحاب الأيكة) قوم شعيب، وقاله إسحق بن بشر. وقال غير جويبر أصحاب الأيكة ومدين هما واحد والله أعلم. وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة شعيب من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام عن هشام بن سعيد عن سعيد بن أبي هلال عن ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله اليهما شعيبا النبي عليه السلام» وهذا غريب وفي رفعه نظر والأشبه أن يكون موقوفا، والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا في كل مقام بشيء ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء فدل ذلك على أنهما أمة واحدة

﴿ أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَٱتَّقُوا ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

يأمرهم عليه السلام بإيفاء المكيال والميزان وينهاهم عن التطفيف فيهما فقال (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين) أي إذا دفعتم للناس فكملوا الكيل لهم ولا تبخسوا الكيل فتعطوه ناقصا وتأخذوه إذا كان لكم تاما وافيا ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون (وزنوا بالقسطاس المستقيم) والقسطاس هو الميزان وقيل هو القبان. قال بعضهم هو معرب من الرومية. قال مجاهد القسطاس المستقيم هو العدل بالرومية، وقال قتادة القسطاس العدل، وقوله (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) أي لا تنقصوهم أموالهم (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) يعني قطع الطريق كما قال في الآية الأخرى (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) وقوله (واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين) يخوفهم بأس الله

الذى خلقهم وخلق آباءهم الأوائل كما قال موسى عليه السلام (ربكم ورب آبائكم الأولين) قال ابن عباس ومجاهد والسدى وسفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم (والجبلة الأولين) يقول خلق الأولين . وقرأ ابن زيد (ولقد أضل منكم جبلا كثيراً)

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها تشابهت قلوبهم حيث قالوا (إنما أنت من المسحرين) يعنون من المسحورين كما تقدم (وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين) أى تتعمد الكذب فيما تقوله لا أن الله أرسلك إلينا (فأسقط علينا كسفا من السماء) قال الضحاك : جانبا من السماء ، وقال قتادة قطعا من السماء وقال السدى عذابا من السماء . وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم فى قوله تعالى (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) إلى أن قالوا (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) وقوله (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) الآية ، وهكذا قال هؤلاء الكفار الجهلة (فأسقط علينا كسفا من السماء) الآية (قال ربى أعلم بما تعملون) يقول الله أعلم بكم فان كنتم تستحقون ذلك جازاكم به وهو غير ظالم لكم وهكذا وقع بهم جزاء كما سألوا جزاء وفاقا ولهذا قال تعالى (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) وهذا من جنس ماسألوه من إسقاط الكسف عليهم ، فان الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام لا يكنهم منه شىء ، ثم أقبلت اليهم سحابة أظلتهم فجعلوا ينطلقون اليها يستظلون بظلها من الحر ، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررا من نار ولهبا ووهجا عظيما ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم ولهذا قال تعالى (إنه كان عذاب يوم عظيم) . وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ففى الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا (لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا) فأرجفوا نبى الله ومن اتبعه فأخذتهم الرجفة ، وفى سورة هود قال (فأخذتهم الصيحة) وذلك لأنهم استهزءوا بنبى الله فى قولهم (أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء إنك لأنت الحليم الرشيد) قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال (فأخذتهم الصيحة) الآية ، وههنا قالوا (فأسقط علينا كسفا من السماء) الآية على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) قال قتادة: قال عبد الله بن عمر رضى الله عنه : إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى مايظلهم منه شىء ، ثم إن الله تعالى أنشأ لهم سحابة فانطلق اليها أحدهم فاستظل بها فأصاب تحتها بردا وراحة فأعلم بذلك قومه فأتوها جميعا فاستظلوا تحتها فأججت عليهم نارا ، وهكذا روى عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، بعث الله اليهم الظلة حتى إذا اجتمعوا كلهم كشف الله عنهم الظلة وأحمى عليهم الشمس فاحترقوا كما يحترق الجراد فى المقلى ، وقال محمد بن كعب القرظى : إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب : أخذتهم الرجفة فى دارهم حتى خرجوا منها فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم فأرسل الله عليهم الظلة فدخل تحتها رجل فقال مارأيت كاليوم ظلا أطيب ولا أبرد من هذا ، هلموا أيها الناس فدخلوا جميعا تحت الظلة فصاح بهم صيحة واحدة فماتوا جميعا ثم تلا محمد بن كعب (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) وقال محمد بن جرير: حدثنى الحارث حدثنى الحسن حدثنى سعيد بن

زيد أخو حماد بن زيد حدثنا حاتم بن أبى صغيرة حدثنى يزيد الباهلى سألت ابن عباس عن هذه الآية (فأخذهم عذاب يوم الظلة) الآية قال بعث الله عليهم رعدة وحرا شديدا فأخذ بأنفاسهم فخرجوا من البيوت هراباً إلى البرية فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس فوجدوا لها برداً ولذة فنادى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم ناراً. قال ابن عباس فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم) أى العزيز فى انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين.

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾

يقول تعالى مخبرا عن الكتاب الذى أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ (وإنه) أى القرآن الذى تقدم ذكره فى أول السورة فى قوله (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث) الآية (لتنزيل رب العالمين) أى أنزله الله عليك وأوحاه إليك (نزل به الروح الأمين) وهو جبريل عليه السلام قاله غير واحد من السلف: ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية العوفى والسدى والضحاك والزهرى وابن جريج وهذا مما لا نزاع فيه. قال الزهرى وهذه كقوله (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه) وقال مجاهد: من كلمه الروح الأمين لا تأكله الأرض (على قلبك لتكون من المنذرين) أى نزل به ملك كريم أمين ذو مكانة عند الله مطاع فى الملأ الأعلى (على قلبك) يا محمد سالماً من الدنس والزيادة والنقص (لتكون من المنذرين) أى لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه وتبشر به المؤمنين المتبعين له وقوله تعالى (بلسان عربى مبين) أى هذا القرآن الذى أنزلناه إليك أنزلناه باللسان العربى الفصيح الكامل الشامل ليكون بينا واضحاً ظاهرا قاطعا للعذر مقيما للحجة دليلا إلى المحجة. قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن أبى بكر العتكى حدثنا عباد بن عباد المهلبى عن موسى بن محمد عن إبراهيم التيمى عن أبيه قال: بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه فى يوم دجن إذ قال لهم «كيف ترون بواسقها» قالوا ما أحسنها وأشد تراكمها قال «فكيف ترون قواعدها؟» قالوا ما أحسنها وأشد تمكنها قال «فكيف ترون جرمها» قالوا ما أحسنه وأشد سواده قال «فكيف ترون رحاها استدارت» قالوا ما أحسنها وأشد استدارتها قال «فكيف ترون برقها أوميض أم خفق أم يشق شقا؟» قالوا بل يشق شقا قال «الحياء الحياء إن شاء الله» قال فقال رجل يا رسول الله بأبى وأمى ما أفصحك ما رأيت الذى هو أعرب منك قال فقال «حق لى وإنما أنزل القرآن بلسانى والله يقول (بلسان عربى مبين)» وقال سفيان الثورى. لم ينزل وحى إلا بالعربية ثم ترجم كل نبى لقومه واللسان يوم القيامة بالسريانية فمن دخل الجنة تكلم بالعربية رواه ابن أبى حاتم

﴿وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾

يقول تعالى وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود فى كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيبا فى ملئه بالبشارة بأحمد (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) والزبر ههنا هى الكتب وهى جمع زبور وكذلك الزبور وهو كتاب داود، وقال الله تعالى (وكل شىء فعلوه فى الزبر) أى مكتوب عليهم فى صحف الملائكة ثم قال تعالى (أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل) أى أوليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن فى كتبهم التى يدرسونها والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما فى أيديهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ومبعثه وأمته كما أخبر بذلك من آمن

منهم كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي عمن أدركه منهم وممن شاكلهم قال الله تعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي) الآية ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن أنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به ولهذا قال (ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين) كما أخبر عنهم في الآية الأخرى (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا) الآية ؛ وقال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى) الآيه وقال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) الآية

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ * وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾

يقول تعالى كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد أي أدخلناه في قلوب المجرمين (لا يؤمنون به) أي بالحق (حتى يروا العذاب الأليم) أي حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار (فيأتيهم بغتة) أي عذاب الله بغتة (وهم لا يشعرون فيقولوا هل نحن منظرون) أي يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلا ليعملوا في زعمهم بطاعة الله كما قال الله تعالى (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب — إلى قوله — مالكم من زوال) فكل ظالم وفاجر وكافر إذ شاهد عقوبته ندم ندما شديدا ؛ هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا — إلى قوله — قال قد أجيبت دعوتكما) فأثرت هذه الدعوة في فرعون فما آمن حتى رأى العذاب الأليم (حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل — إلى قوله — وكنت من المفسدين) وقال تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده) الآيات وقوله تعالى (أفبعذابنا يستعجلون) إنكار عليهم وتهديد لهم فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً : ائتنا بعذاب الله ، كما قال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب) الآيات ثم قال (أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) أي لو أخرناهم وأنظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر وحيناً من الزمان وإن طال ثم جاءهم أمر الله أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وقال تعالى (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر) وقال تعالى (وما يغني عنه ماله إذا تردى) ولهذا قال تعالى (ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون)

وفي الحديث الصحيح « يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة ثم يقال له هل رأيت خيراً قط ؟ هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول لا والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤسا كان في الدنيا فيصبغ في الجنة صبغة ثم يقال له هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول لا والله يارب » أي ما كأن شيئاً كان . ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتمثل بهذا البيت

كأنك لم تؤثر من الدهر ليلة ... إذا أنت أدركت الذي أنت تطلب

ثم قال تعالى مخبراً عن عدله في خلقه أنه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الاعذار اليهم ، والانذار لهم وبعثة الرسل اليهم ، وقيام الحجة عليهم ولهذا قال تعالى (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون * ذكرى وما كنا ظالمين) كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تعالى (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا — إلى قوله — وأهلها ظالمون)

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله (وما تنزلت به الشياطين) ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه أحدها أنه ما ينبغى لهم أى ليس هو من بغيتهم ولا من طلبتهم لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونور وهدى وبرهان عظيم فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة . ولهذا قال تعالى (وما ينبغى لهم) وقوله تعالى (وما يستطيعون) أى ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك قال الله تعالى (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله) ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله لأن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا فى مدة إنزال القرآن على رسول الله فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لئلا يشتبه الأمر ، وهذا من رحمة الله بعباده ، وحفظه لشرعه ، وتأييده لكتابه ولرسوله ، ولهذا قال تعالى (إنهم عن السمع لمعزولون) كما قال تعالى مخبرا عن الجن (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديداً وشهباً * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا * - إلى قوله - أم أراد بهم ربهم رشدا)

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ * وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ * وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ * إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

يقول تعالى آمرا بعبادته وحده لا شريك له ومخبرا أن من أشرك به عذبه . ثم قال تعالى آمرا لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين أى الأدنين إليه : وأنه لا يخلص أحدا منهم إلا إيمانه بربه عز وجل ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين . ومن عصاه من خلق الله كائنا من كان فليتبرأ منه ولهذا قال تعالى (فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون) وهذه النذارة الخاصة لا تنافى العامة بل هى فرد من أجزائها كما قال تعالى (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) وقال تعالى (لتنذر أم القرى ومن حولها) وقال تعالى (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) وقال تعالى (لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا) وقال تعالى (لأنذركم به ومن بلغ) كما قال تعالى (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) وفى صحيح مسلم « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار » وقد وردت أحاديث كثيرة فى نزول هذه الآية الكريمة فلنذكرها

﴿ الحديث الأول ﴾ قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا عبد الله بن نمير عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أنزل الله عز وجل (وأنذر عشيرتك الأقربين) أتى النبى صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه ثم نادى « ياصباحاه » فاجتمع الناس إليه بين رجل يجىء إليه وبين رجل يبعث رسوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا بنى عبد المطلب ، يابنى فهر ، يا بنى لؤى ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى ؟ » قالوا نعم . قال « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فقال أبو لهب تبا لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله (تبت يدا أبى لهب وتب) ورواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى من طرق عن الأعمش به ﴿ الحديث الثانى ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت : لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) قام رسول الله ﷺ فقال « يا فاطمة ابنة محمد ، يا صفية ابنة عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب

لا أملك لكم من الله شيئا سلوني من مالي ما شئتم » انفرد بإخراجه مسلم ﴿ الحديث الثالث ﴾ قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة حدثنا عبد الملك بن عمير عن موسى بن طلحة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية (وأنذر عشيرتك الأقربين) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فعم وخص فقال « يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، يامعشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار ، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئا إلا أن لكم رحما سأبلها ببلالها » ورواه مسلم والترمذى من حديث عبد الملك بن عمير به ، وقال الترمذى غريب من هذا الوجه ، ورواه النسائي من حديث موسى بن طلحة مرسلا ولم يذكر فيه أبا هريرة ، والموصول هو الصحيح ، وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهرى عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة ، وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا محمد يعني بن إسحق عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله ، يا صفية عمة رسول الله ويا فاطمة بنت رسول الله اشتريا أنفسكما من الله فإني لا أغني عنكما من الله شيئا ، سلاني من مالي ما شئتما » تفرد به من هذا الوجه . وتفرد به أيضا عن معاوية عن زائدة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه ، ورواه أيضا عن حسن ثنا ابن لهيعة عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعا . وقال أبو يعلى حدثنا سويد ابن سعيد حدثنا ضمام بن إسماعيل عن موسى بن وردان عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « يا بني قصي يا بني هاشم يا بني عبد مناف أنا النذير والموت المغير . والساعة الموعد » . ﴿ الحديث الرابع ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد التيمي عن أبي عثمان عن قبيصة بن مخارق وزهير بن عمرو قالا لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) صعد رسول الله ﷺ رضمة من جبل على أعلاها حجر فجعل ينادي « يا بني عبد المناف إنما أنا نذير ، إنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو فذهب يربأ أهله رجاء أن يسبقوه فجعل ينادي ويهتف يا صباحاه » ورواه مسلم والنسائي من حديث سليمان ابن طرخان التيمي عن أبي عثمان عبد الرحمن بن سهل النهدى عن قبيصة وزهير بن عمرو الهلالي به .

﴿ الحديث الخامس ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا شريك عن الأعمش عن المنهال عن عباد بن عبد الله الأسدى عن على رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية (وأنذر عشيرتك الأقربين) جمع النبي ﷺ من أهل بيته فاجتمع ثلاثون فأكلوا وشربوا قال : وقال لهم « من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنة ويكون خليفتي في أهلي ؟ » فقال رجل لم يسمه شريك يارسول الله أنت كنت بحرى من يقوم بهذا ، قال ثم قال لآخر ثلاثا قال فعرض ذلك على أهل بيته فقال على أنا ﴿ طريق أخرى بأبسط من هذا السياق ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة حدثنا عثمان بن المغيرة عن أبي صادق عن ربيعة بن ماجد عن على رضى الله عنه قال . جمع رسول الله ﷺ — أو دعا رسول الله ﷺ — بني عبد المطلب وهم رهط وكلهم يأكل الجذعة ويشرب الفرق فصنع لهم مدا من طعام فأكلوا حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس ، ثم دعا بعس فشربوا حتى رووا وبقي الشراب كأنه لم يمس أو لم يشرب وقال « يا بني عبد المطلب إني بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة فقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي » قال فلم يقم إليه أحد ، قال فقمت إليه وكنت أصغر القوم قال : فقال « اجلس » ثم قال ثلاث مرات كل ذلك أقوم إليه فيقول لي « اجلس » حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي ﴿ طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات أخر ﴾ قال الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يوسف بن بكير عن محمد بن إسحق قال : حدثني من سمع عبد الله بن الحارث بن نوفل واستكتمني اسمه عن ابن عباس عن على بن أبي طالب رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ (وأنذر عشيرتك الأقربين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) قال رسول الله ﷺ « عرفت أني إن بادرت بها قومي رأيت منهم ما أكره فصمت فجاءني جبريل عليه السلام فقال يا محمد إنك إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك » قال على رضى

الله عنه فدعانى فقال ياعلى « إن الله تعالى قد أمرنى أنذر عشيرتى الأقربين فعرفت أنى إن بادرتهم بذلك رأيت منهم ما أكره فصمت عن ذلك ثم جاءنى جبريل فقال يامحمد إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك : فاصنع لنا ياعلى شاة على صاع من طعام وأعد لنا عس لبن ثم اجمع لى بنى عبد المطلب » ففعلت فاجتمعوا اليه وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصون رجلا فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب الكافر الخبيث فقدمت اليهم تلك الجفنة فأخذ منها رسول الله ﷺ جذبة فشقها بأسنانه ثم رمى بها فى نواحيها وقال « كلوا بسم الله » فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم . والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ، ثم قال رسول الله ﷺ « اسقهم ياعلى » فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله ، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال : لهد ما سحركم صاحبكم فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ « ياعلى عد لنا بمثل الذى كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب فان هذا الرجل قد بدرنى إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم » ففعلت ثم جمعتهم له فصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صنع بالأمس فأكلوا حتى نهلوا عنه ، وايم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ، ثم قال رسول الله ﷺ « اسقهم ياعلى » فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً ، وايم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله ، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب بالكلام فقال : لهد ما سحركم صاحبكم : فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان الغد : قال رسول الله ﷺ « ياعلى عد لنا بمثل الذى كنت صنعت لنا بالأمس من الطعام والشراب فان هذا الرجل قد بدرنى إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم » ففعلت ثم جمعتهم له فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس فأكلوا حتى نهلوا ثم سقيتهم من ذلك العقب حتى نهلوا عنه ، وايم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلها ثم قال رسول الله ﷺ « يابنى عبد المطلب إنى والله ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة » قال أحمد بن عبد الجبار بلغنى أن ابن إسحق إنما سمعه من عبد الغفار بن القاسم أبى مريم عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث :

وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحق عن عبد الغفار بن القاسم أبى مريم عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث عن ابن عباس عن على بن أبى طالب فذكر مثله وزاد بعد قوله « إنى جئتكم بخير الدنيا والآخرة : وقد أمرنى الله أن أدعوكم اليه فأيكم يوازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى وكذا وكذا ؟ » قال فأحجم القوم عنها جميعاً وقلت — وإنى لأحدثهم سناً وأرمصهم عينا وأعظمهم بطنا وأحمشهم ساقا — أنا يانبى الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتى ثم قال « إن هذا أخى وكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا » ثم قام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع . تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبى مريم وهو متروك كذاب شيعى اتهمه على بن المدينى وغيره بوضع الحديث وضعفه الأئمة رحمهم الله ﴿ طريق أخرى ﴾ قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى أخبرنا الحسين عن عيسى بن ميسرة الحارثى حدثنا عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث قال : قال على رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية (وأنذر عشيرتك الأقربين) قال لى رسول الله ﷺ « اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام وإناء لبنا » قال ففعلت ثم قال لى « ادع بنى هاشم » قال فدعوتهم وإنهم يومئذ أربعون غير رجل أو أربعون ورجل قال وفيهم عشرة كلهم يأكل الجذعة بإدامها ، قال فلما أتوا بالقصعة أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذروتها ثم قال « كلوا » فأكلوا حتى شبعوا وهى على هيئتها لم يزدردوا منها إلا اليسير قال ثم أتيتهم بالاناء فشربوا حتى رووا ، قال وفضل فضل ، فلما فرغوا أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم فبدروه الكلام فقالوا ما رأينا كاليوم فى السحر . فسكت رسول الله ﷺ ثم قال « اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام » فصنعت قال فدعاهم فلما أكلوا وشربوا قال فبدروه فقالوا مثل مقالتهم الأولى فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام » فصنعت قال فجمعتهم فلما أكلوا وشربوا بدرهم رسول الله

صلى الله عليه وسلم الكلام فقال « أيكم يقضى عنى دينى ويكون خليفتى فى أهلى ؟ » قال فسكتوا وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله قال وسكت أنا لسن العباس . ثم قالها مرة أخرى فسكت العباس ، فلما رأيت ذلك قلت أنا يارسول الله قال وإنى يومئذ لأسوأهم هيئة وإنى لأعمش العينين ضخم البطن حمش الساقين ، فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن على رضى الله عنه ، ومعنى سؤاله ﷺ لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ويخلفوه فى أهله يعنى إن قتل فى سبيل الله ، كأنه خشى إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل فلما أنزل الله تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) فعند ذلك أمن وكان أولا يحرس حتى نزلت هذه الآية (والله يعصمك من الناس) ولم يكن أحد فى بنى هاشم إذ ذاك أشد إيمانا وإيقانا وتصديقا لرسول الله ﷺ من على رضى الله عنه، ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ ثم كان بعد هذا والله أعلم دعاؤه الناس جهرة على الصفا وإنذاره لبطون قريش عموما وخصوصا حتى سمى من سمى من أعمامه وعماته وبناته لينبه بالأدنى على الأعلى أى إنما أنا نذير والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبد الواحد الدمشقى من طريق عمرو بن سمرة عن محمد بن سوقة عن عبد الواحد الدمشقى قال رأيت أبا الدرداء رضى الله عنه يحدث الناس ويفتيهم وولده إلى جنبه وأهل بيته جلوس فى جانب المسجد يتحدثون فقيل له مابال الناس يرغبون فيما عندك من العلم وأهل بيتك جلوس لاهين ؟ فقال لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أزهد الناس فى الدنيا الأنبياء وأشدهم عليهم الأقربون » وذلك فيما أنزل الله عزوجل قال تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين - إلى قوله - فقل إنى برىء مما تعملون) ، وقوله تعالى (وتوكل على العزيز الرحيم) أى فى جميع أمورك فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعلى كلمتك ، وقوله تعالى (الذى يراك حين تقوم) أى هو معتن بك كما قال تعالى (فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) قال ابن عباس (الذى يراك حين تقوم) يعنى إلى الصلاة ، وقال عكرمة يرى قيامه وركوعه وسجوده ، وقال الحسن (الذى يراك حين تقوم) إذا صليت وحدك ، وقال الضحاك (الذى يراك حين تقوم) أى من فراشك أو مجلسك . وقال قتادة (الذى يراك) قائما وجالسا وعلى حالاتك وقوله تعالى (وتقلبك فى الساجدين) قال قتادة (الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين) قال فى الصلاة يراك وحدك ويراك فى الجمع . وهذا قول عكرمة وعطاء الخراسانى والحسن البصرى وقال مجاهد كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه . ويشهد لهذا ماصح فى الحديث « سووا صفوفكم فإنى أراكم من وراء ظهرى » وروى البزار وابن أبى حاتم من طريقين عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية يعنى تقلبه من صلب نبى إلى صلب نبى حتى أخرجه نبيا وقوله تعالى (إنه هو السميع العليم) أى السميع لأقوال عباده العليم بحركاتهم وسكناتهم كما قال تعالى (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه) الآية .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخاطبا لمن زعم من المشركين أن ماجاء به الرسول ﷺ ليس بحق وأنه شىء افتعله من تلقاء نفسه أو أنه أتاه به رئى من الجان فنزه الله سبحانه وتعالى جناب رسوله عن قولهم وافترائهم ونبه أن ماجاء به إنما هو من عند الله وأنه تنزيله ووحيه نزل به ملك كريم أمين عظيم وأنه ليس من قبل الشياطين فانهم ليس لهم رغبة فى مثل هذا القرآن العظيم

وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة . ولهذا قال الله تعالى (هل أنبئكم) أى أخبركم (على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم) أى كذوب فى قوله وهو الأفاك (أثيم) وهو الفاجر فى أفعاله . فهذا هو الذى تنزل عليه الشياطين من الكهان وماجرى مجراهم من الكذبة الفسقة ، فان الشياطين أيضا كذبة فسقة (يلقون السمع) أى يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة من علم الغيب فيزيدون معها مائة كذبة ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيحدثون بها فيصدقهم الناس فى كل ماقالوه بسبب صدقهم فى تلك الكلمة التى سمعت من السماء كما صح بذلك الحديث ، كما رواه البخارى من حديث الزهرى أخبرنى يحيى بن عروة بن الزبير أنه سمع عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة رضى الله عنها : سأل ناس النبى ﷺ عن الكهان فقال « إنهم ليسوا بشىء » قالوا يارسول الله فانهم يحدثون بالشىء يكون حقا ، فقال النبى ﷺ « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرقرها فى أذن وليه كقرقرة الدجاج فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة » . وروى البخارى أيضا حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال سمعت عكرمة يقول سمعت أباهريرة يقول : إن النبى ﷺ قال « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنها سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير ، فيسمعها مسترقوا السمع ، ومسترقوا السمع هكذا بعضهم فوق بعض ـ وصفه سفيان بيده فحرفها وبدد بين أصابعه ـ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء » تفرد به البخارى . وروى مسلم من حديث الزهرى عن على بن الحسين عن ابن عباس عن رجال من الأنصار قريباً من هذا وسيأتى عند قوله تعالى فى سبأ (حتى إذا فزع عن قلوبهم) الآية . وقال البخارى وقال الليث حدثنى خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال أن أبا الأسود أخبره عن عروة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الملائكة تحدث فى العنان ـ والعنان الغمام ـ بالأمر فى الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها فى أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة » ورواه البخارى فى موضع آخر من كتاب بدء الخلق عن سعيد بن أبى زيد عن الليث عن عبدالله بن أبى جعفر عن أبى الأسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة بنحوه وقوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن ، وكذا قال مجاهد رحمه الله وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما ، وقال عكرمة كان الشاعران يتهاجيان فينتصر لهذا فئام من الناس ولهذا فئام من الناس فأنزل الله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون) وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا ليث عن ابن الهاد عن يحنس مولى مصعب بن الزبير عن أبى سعيد قال : بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرج إذ عرض شاعر ينشد فقال النبى صلى الله عليه وسلم « خذوا الشيطان ـ أو أمسكوا الشيطان ـ ، لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً » وقوله تعالى (ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى كل لغو يخوضون وقال الضحاك عن ابن عباس فى كل فن من الكلام ، وكذا قال مجاهد وغيره ، وقال الحسن البصرى قد والله رأينا أوديتهم التى يخوضون فيها مرة فى شتيمة فلان ومرة فى مدحة فلان . وقال قتادة : الشاعر يمدح قوماً بباطل ويذم قوماً بباطل . وقوله تعالى (وأنهم يقولون مالا يفعلون) قال العوفى عن ابن عباس كان رجلان على عهد رسول الله أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين وإنهما تهاجيا فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فقال الله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون * وأنهم يقولون مالا يفعلون) . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أكثر قولهم يكذبون فيه . وهذا الذى قاله ابن عباس رضى الله عنه هو الواقع فى نفس الأمر . فان الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم فيتكثرون بما ليس لهم ، ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله فيما إذا اعترف الشاعر فى شعره بما يوجب حدا هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا لأنهم يقولون مالا يفعلون ؟ على قولين . وقد

ذكر محمد بن إسحق ومحمد بن سعد فى الطبقات والزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل النعمان بن عدى بن نضلة على ميسان من أرض البصرة وكان يقول الشعر فقال :

ألا هل أتى الحسناء أن خليلها * بميسان يسقى فى زجاج وحنتم * إذا شئت غنتنى دهاقين قرية
ورقاصة تحنو على كل مبسم * فان كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى * ولا تسقنى بالأصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوؤه * تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال أى والله إنه ليسوءنى ذلك ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته ، وكتب اليه عمر (بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير) ﴿ أما بعد ﴾ فقد بلغنى قولك

لعل أمير المؤمنين يسوءه * تنادمنا بالجوسق المتهدم

وايم الله إنه ليسوؤنى وقد عزلتك . فلما قدم على عمر بكته بهذا الشعر فقال والله يا أمير المؤمنين ما شربتها قط وما ذاك الشعر إلا شىء طفح على لسانى . فقال عمر أظن ذلك ولكن والله لا تعمل لى عملا أبدا . وقد قلت ماقلت فلم يذكر أنه حده على الشراب وقد ضمنه شعره لأنهم يقولون مالا يفعلون ولكنه ذمه عمر رضى الله عنه ولامه على ذلك وعزله به ، ولهذا جاء فى الحديث « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً يريه خير له من أن يمتلئ شعراً » والمراد من هذا أن الرسول ﷺ الذى أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة كما قال تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) وقال تعالى (إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون * ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون * تنزيل من رب العالمين) وهكذا قال ههنا (وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين) إلى أن قال (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون) إلى أن قال (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون * والشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ؟ وأنهم يقولون مالا يفعلون) وقوله (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال محمد بن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبى الحسن سالم البراد بن عبد الله مولى تميم الدارى قال لما نزلت (والشعراء يتبعهم الغاوون) جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء فتلا النبى ﷺ (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال « أنتم » (وذكروا الله كثيراً) قال « أنتم » (وانتصروا من بعد ماظلموا) قال « أنتم » رواه ابن أبى حاتم وابن جرير من رواية ابن إسحق وقد روى ابن أبى حاتم أيضا عن أبى سعيد الأشج عن أبى أسامة عن الوليد بن أبى كثير عن يزيد بن عبد الله عن أبى الحسن مولى بنى نوفل أن حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله ﷺ حين أنزلت هذه الآية (والشعراء يتبعهم الغاوون) يبكيان فقال رسول الله ﷺ وهو يقرؤها عليهما (والشعراء يتبعهم الغاوون) حتى بلغ (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال « أنتم » وقال أيضاً حدثنا أبى حدثنا أبو مسلم حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن عروة قال : لما نزلت (والشعراء يتبعهم الغاوون) إلى قوله (وأنهم يقولون مالا يفعلون) قال عبد الله بن رواحة يارسول الله قد علم الله أنى منهم فأنزل الله تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآية وهكذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم . ولا شك أنه استثناء ولكن هذه السورة مكية فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الأنصار ؟ وفى ذلك نظر ، ولم يتقدم إلا مرسلات لا يعتمد عليها والله أعلم ، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله ثم تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحاً وذكر الله كثيراً فى مقابلة ماتقدم من الكلام السيىء . فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وامتدح الإسلام

وأهله فى مقابلة ماكان يذمه ، كما قال عبد الله بن الزبعرى حين أسلم .

يارسول المليك إن لسانى ✽ راتق ما فتقت إذ أنا بور
إذ أجارى الشيطان فى سنن الغى ✽ ى ومن مال ميله مثبور

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وهو ابن عمه وأكثرهم له هجواً ، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ وكان يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما كان يهجوه ، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه ،وهكذا روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال يا رسول الله ثلاث أعطنيهن قال « نعم » قال : معاوية تجعله كاتبا بين يديك قال « نعم » قال وتؤمرنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين قال « نعم » وذكر الثالثة ولهذا قال تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً) قيل معناه ذكروا الله كثيراً فى كلامهم وقيل فى شعرهم وكلاهما صحيح مكفر لما سبق وقوله تعالى (وانتصروا من بعد ماظلموا) قال ابن عباس يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد وهذا كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان « اهجهم — أوقال — هاجهم وجبريل معك » وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ إن الله عز وجل قد أنزل فى الشعراء ما أنزل فقال رسول الله ﷺ « إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل » وقوله تعالى (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) كقوله تعالى (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم) الآية ، وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « إياكم والظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة » قال قتادة بن دعامة فى قوله تعالى (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) يعنى من الشعراء وغيرهم ، وقال أبو داود الطيالسى حدثنا إياس بن أبى تميمة قال حضرت الحسن ومر عليه بجنازة نصرانى فقال (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) وقال عبد الله ابن أبى رباح عن صفوان بن محرز أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى حتى أقول قد اندق قضيب زوره (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) . وقال ابن وهب أخبرنى ابن سريج الاسكندرانى عن بعض المشيخة أنهم كانوا بأرض الروم فبينما هم ليلة على نار يشتوون عليها أو يصطلون إذا بركبان قد أقبلوا فقاموا إليهم فإذا فضالة بن عبيد فيهم فأنزلوه فجلس معهم — قال — وصاحب لنا قائم يصلى حتى مر بهذه الآية (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) قال فضالة بن عبيد هؤلاء الذين يخربون البيت . وقيل المراد بهم أهل مكة وقيل الذين ظلموا من المشركين . والصحيح أن هذه الآية عامة فى كل ظالم كما قال ابن أبى حاتم .ذكر عن يحيى بن زكريا بن يحيى الواسطى حدثنى الهيثم بن محفوظ أبو سعد النهدى حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المحبر حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : كتب أبى فى وصيته سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما وصى به أبو بكر بن أبى قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر وينتهى الفاجر ويصدق الكاذب إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فان يعدل فذاك ظنى به ورجائى فيه وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) آخر تفسير سورة الشعراء والحمد لله رب العالمين .

﴿ تفسير سورة النمل وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ طس تِلْكَ ءَايَٰتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ✽ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ✽ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ✽ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ

يعمهون * أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون * وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾

قد تقدم الكلام فى سورة البقرة على الحروف المقطعة فى أوائل السور ، وقوله تعالى (تلك آيات) أى هذه آيات (القرآن وكتاب مبين) أى بين واضح (هدى وبشرى للمؤمنين) أى إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه وعمل بما فيه وأقام الصلاة المكتوبة وآتى الزكاة المفروضة وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرها وشرها والجنة والنار كما قال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر) الآية وقال تعالى (لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا) ولهذا قال تعالى ههنا (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة) أى يكذبون بها ويستبعدون وقوعها (زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون) أى حسنا لهم ما هم فيه ومددنا لهم فى غيهم فهم يتيهون فى ضلالهم وكان هذا جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة كما قال تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) الآية (أولئك الذين لهم سوء العذاب) أى فى الدنيا والآخرة (وهم فى الآخرة هم الأخسرون) أى ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر وقوله تعالى (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) أى (وإنك) يا محمد (لتلقى) أى لتأخذ (القرآن من لدن حكيم عليم) أى من عند حكيم عليم أى حكيم فى أمره ونهيه عليم بالأمور جليلها وحقيرها ، فخبره هو الصدق المحض وحكمه هو العدل التام كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا)

﴿ إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون * فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين * يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم * وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون * إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم * وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين * فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين * وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام كيف اصطفاه الله وكلمه وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة والأدلة القاهرة وابتعثه إلى فرعون وملئه فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له . فقال تعالى (إذ قال موسى لأهله) أى اذكر حين سار موسى بأهله فأضل الطريق وذلك فى ليل وظلام فآنس من جانب الطور ناراً أى رأى ناراً تأجج وتضطرم فقال (لأهله إنى آنست ناراً سآتيكم منها بخبر) أى عن الطريق (أو آتيكم منها بشهاب قبس لعلكم تصطلون) أى تستدفئون به وكان كما قال . فانه رجع منها بخبر عظيم ، واقتبس منها نوراً عظيما ولهذا قال تعالى (فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها) أى فلما أتاها ورأى منظراً هائلا عظيما حيث انتهى إليها والنار تضطرم فى شجرة خضراء لا تزداد النار إلا توقداً ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء قال ابن عباس وغيره لم تكن ناراً وإنما كانت نوراً يتوهج ، وفى رواية عن ابن عباس نور رب العالمين فوقف موسى متعجبا مما رأى (فنودى أن بورك من فى النار)

قال ابن عباس تقدس (ومن حولها) أى من الملائكة قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وقال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود هو الطيالسى حدثنا شعبة والمسعودى عن عمرو بن مرة سمع أبا عبيدة يحدث عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل » زاد المسعودى « وحجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شىء أدركه بصره » ثم قرأ أبو عبيدة (أن بورك من فى النار ومن حولها) وأصل الحديث مخرج فى صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرة ، وقوله تعالى (وسبحان الله رب العالمين) أى الذى يفعل ما يشاء ولا يشبهه شىء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شىء من مصنوعاته وهو العلى العظيم المباين لجميع المخلوقات ولا يكتنفه الأرض والسموات بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات

وقوله تعالى (يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) أعلمه أن الذى يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الذى عز كل شىء وقهره وغلبه الحكيم فى أقواله وأفعاله ، ثم أمره أن يلقى عصاه من يده ليظهر له دليلا واضحا على أنه الفاعل المختار القادر على كل شىء ، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت فى الحال حية عظيمة هائلة فى غاية الكبر وسرعة الحركة مع ذلك ولهذا قال تعالى (فلما رآها تهتز كأنها جان) والجان ضرب من الحيات أسرعه حركة وأكثره اضطرابا : وفى الحديث نهى عن قتل جنان البيوت فلما عاين موسى ذلك (ولى مدبراً ولم يعقب) أى لم يلتفت من شدة فرقه (ياموسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون) أى لا تخف مما ترى فانى أريد أن أصطفيك رسولا وأجعلك نبيا وجيها . وقوله تعالى (إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم) هذا استثناء منقطع وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على عمل سىء ثم أقلع عنه ورجع وتاب وأناب فان الله يتوب عليه كما قال تعالى (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وقال تعالى (ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه) الآية والآيات فى هذا كثيرة جداً . وقوله تعالى (وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار وصدق من جعل له معجزة ، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده فى جيب درعه فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف : وقوله تعالى (فى تسع آيات)) أى هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن وأجعلهن برهانا لك إلى فرعون وقومه (إنهم كانوا قوما فاسقين) وهذه هى الآيات التسع التى قال الله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) كما تقدم تقرير ذلك هنالك ، وقوله تعالى (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) أى بينة واضحة ظاهرة (قالوا هذا سحر مبين) وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين (وجحدوا بها) أى فى ظاهر أمرهم (واستيقنتها أنفسهم) أى علموا فى أنفسهم أنها حق من عند الله ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها (ظلما وعلواً) أى ظلما من أنفسهم سجية ملعونة وعلواً أى استكباراً عن اتباع الحق ولهذا قال تعالى (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أى انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم فى اهلاك الله إياهم وإغراقهم عن آخرهم فى صبيحة واحدة وفحوى الخطاب يقول احذروا أيها المكذبون لمحمد الجاحدون لما جاء به من ربه أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى فان محمداً ﷺ أشرف وأعظم من موسى ، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده فى نفسه وشمائله وما سبقه من البشارات من الأنبياء به وأخذ المواثيق له ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا

النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه داود وابنه سليمان عليهما السلام من النعم الجزيلة والمواهب الجليلة والصفات الجميلة وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة والملك والتمكين التام فى الدنيا والنبوة والرسالة فى الدين ولهذا قال تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) قال ابن أبى حاتم ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن هشام أخبرنى أبى عن جدى قال : كتب عمر بن عبد العزيز : إن الله لم ينعم على عبده نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل . قال الله تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) فأى نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان عليهما السلام وقوله تعالى (وورث سليمان داود) أى فى الملك والنبوة وليس المراد وراثة المال إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود فانه قد كان لداود مائة امرأة ، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة فان الأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فى قوله « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة » وقال (يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء) أى أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام والتمكين العظيم حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً وهذا شىء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به ورسوله ، ومن زعم من الجهلة والرعاع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بنى آدم قبل سليمان بن داود كما قد يتفوه به كثير من الناس فهو قول بلا علم ، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ويعرف ما تقول وليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال . ولكن الله سبحانه كان قد أفهم سليمان ما يتخاطب به الطيور فى الهواء وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها ولهذا قال تعالى (علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء) أى مما يحتاج إليه الملك (إن هذا لهو الفضل المبين) أى الظاهر البين لله علينا ، قال الإمام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو بن أبى عمرو عن المطلب عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع — قال — فخرج ذات يوم وأغلقت الأبواب فأقبلت امرأة تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن فى البيت من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة؟ والله لنفتضحن بداود فجاء داود عليه السلام فإذا الرجل قائم وسط الدار فقال له داود من أنت؟ فقال الذى لا يهاب الملوك ولا يمتنع من الحجاب فقال داود أنت إذاً والله ملك الموت مرحباً بأمر الله فتزمل داود مكانه حتى قبضت نفسه حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس فقال سليمان عليه السلام للطير أظلى داود فظللت عليه الطير حتى أظلمت عليه الأرض ، فقال لها سليمان اقبضى جناحا جناحا» قال أبو هريرة يا رسول الله كيف فعلت الطير ؟ فقبض رسول الله ﷺ يده وغلبت عليه يومئذ المضرحية . قال أبو الفرج ابن الجوزى : المضرحية هى النسور الحمراء . وقوله تعالى (وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون) أى وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير يعنى ركب فيهم فى أبهة وعظمة كبيرة فى الإنس وكانوا هم الذين يلونه والجن وهم بعدهم فى المنزلة والطير ومنزلتها فوق رأسه ، فان كان حر أظلته منه بأجنحتها . وقوله (فهم يوزعون) أى يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته التى هى مرتبة له ، قال مجاهد جعل على كل صنف وزعة يردون أولاها على أخراها لئلا يتقدموا فى المسير كما يفعل الملوك اليوم . وقوله

(حتى إذا أتوا على وادى النمل) أى حتى إذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادى النمل (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) أورد ابن عساكر من طريق إسحق بن بشر عن سعيد عن قتادة عن الحسن أن اسم هذه النملة حرس وأنها من قبيلة يقال لهم بنو الشيصان وأنها كانت عرجاء وكانت بقدر الذئب. أى خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ففهم ذلك سليمان عليه السلام منها (فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحاً ترضاه) أى ألهمنى أن أشكر نعمتك التى مننت بها على من تعليمى منطق الطير والحيوان وعلى والدى بالاسلام لك، والإيمان بك (وأن أعمل صالحاً ترضاه) أى عملا تحبه وترضاه (وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) أى إذا توفيتنى فألحقنى بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك، ومن قال من المفسرين إن هذا الوادى كان بأرض الشام أو بغيره وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب أو غير ذلك من الأقاويل فلا حاصل لها. وعن نوف البكالى أنه قال كان نمل سليمان أمثال الذئاب، هكذا رأيته مضبوطا بالياء المثناة من تحت وإنما هو بالباء الموحدة وذلك تصحيف والله أعلم. والغرض أن سليمان عليه السلام فهم قولها وتبسم ضاحكا من ذلك وهذا أمر عظيم جداً. وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن بشار حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا مسعر عن زيد العمى عن أبى الصديق الناجى قال خرج سليمان بن داود عليهما السلام يستسقى فاذا هو بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهى تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ولا غنى بنا عن سقياك وإلا تسقنا تهلكنا. فقال سليمان: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم. وقد ثبت فى الصحيح عند مسلم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « قرصت نبيا من الأنبياء نملة فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه، أفى أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟ فهلا نملة واحدة؟ »

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾

قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندسا يدل سليمان عليه السلام على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء فى تخوم الأرض كما يرى الانسان الشىء الظاهر على وجه الأرض ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض فاذا دلهم عليه أمر سليمان عليه السلام الجان فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان عليه السلام يوماً بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره (فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) حدث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا وفى القوم رجل من الخوارج يقال له نافع ابن الأزرق وكان كثير الاعتراض على ابن عباس فقال له قف يا ابن عباس غلبت اليوم، قال ولم؟ قال إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء فى تخوم الأرض، وإن الصبى ليضع له الحبة فى الفخ ويحثو على الفخ ترابا فيجىء الهدهد ليأخذها فيقع فى الفخ فيصيده الصبى فقال ابن عباس، لولا أن يذهب هذا فيقول رددت على ابن عباس لما أجبته ثم قال له ويحك إنه إذا نزل القدر عمى البصر وذهب الحذر، فقال له نافع: والله لا أجادلك فى شىء من القرآن أبداً وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى عبد الله البرزى من أهل برزة من غوطة دمشق وكان من الصالحين يصوم الاثنين والخميس وكان أعور قد بلغ الثمانين فروى ابن عساكر بسنده إلى أبى سليمان بن زيد أنه سأله عن سبب عوره فامتنع عليه فألح عليه شهوراً فأخبره أن رجلين من أهل خراسان نزلا عنده جمعة فى قرية برزة وسألاه عن واديها فأريتهما إياه فأخرجا مجامر وأوقدا فيها بخوراً كثيراً حتى عجعج الوادى بالدخان، فأخذا يعزمان والحيات تقبل من كل مكان إليهما فلا يلتفتان إلى شىء منها، حتى أقبلت حية نحو الذراع وعيناها تتوقدان مثل الدينار، فاستبشرا

بها عظيما وقالا الحمد لله الذى لم يخيب سفرنا من سنة وكسرا المجامر وأخـذا الحية فأدخلا فى عينها ميلا فا كتحلا به ، فسألتهما أن يكحلانى فأبيا فألححت عليهما وقلت لابد من ذلك وتوعدتهما بالدولة فكحلا عينى الواحـدة اليمنى فحين وقع فى عينى نظرت إلى الأرض تحتى مثـل المرآة أنظر ماتحتها كما ترى المرآة ثم قالالى : سر معنا قليلا فسرت معهما وهما يحدثان حتى إذا بعدت عن القرية أخذانى فكتفانى وأدخل أحدهما يده فى عينى ففقأها ورمى بها ومضيا ، فلم أزل كذلك ملقى مكتوفاً حتى مر بى نفر ففك وثاقى ، فهذا ماكان من خبر عينى وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا هشام بن عمار حدثنا صدقة بن عمرو الغسانى حدثنا عباد بن ميسرة المنقرى عن الحسن قال : اسم هدهد سليمان عليـه السلام عنبر . وقال محمد بن إسحق : كان سليمان عليه السلام إذا غدا إلى مجلسه الذى كان يجلس فيه تفقد الطير وكان فيما يزعمون يأتيه نوب من كل صنف من الطير كل يوم طائر ، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد (فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) أخطأه بصرى من الطير أم غاب فلم يحضر؟ وقوله (لأعذبنه عذاباً شديداً) قال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد عن ابن عباس يعنى نتف ريشه ، وقال عبد الله ابن شداد نتف ريشه وتشميسه وكذا قال غير واحد من السلف إنه نتف ريشه وتركه ملقى يأ كله الذر والنمل . وقوله (أو لأذبحنه) يعنى قتله (أو ليأتينى بسلطان مبين) بعذر بين واضح ، وقال سفيان بن عيينة وعبد الله بن شداد : لما قدم الهدهد قالت له الطير ما خلفك فقد نذر سليمان دمك ، فقال هل استثنى ؟ قالوا نعم قال (لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين) قال نجوت إذاً . قال مجاهد إنما دفع الله عنه بره بأمه

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

يقول تعالى (فمكث) الهدهد (غير بعيد) أى غاب زماناً يسيرا ثم جاء فقال لسليمان (أحطت بما لم تحط به) أى اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) أى بخبر صدق حق يقين ، وسبأ هم حمير وهم ملوك اليمن ، ثم قال (إنى وجدت امرأة تملكهم) قال الحسن البصرى وهى بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ ، وقال قتادة : كانت أمها جنية وكان مؤخر قدمها مثل حافر الدابة من بيت مملكة ، وقال زهير بن محمد : هى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان وأمها فارعة الجنية ؛ وقال ابن جريج بلقيس بنت ذى شرخ وأمها بلتعة وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسن حدثنا مسدد حدثنا سفيان بن عيينة عن عطاء بن السائب عن مجاهد عن ابن عباس قال : كان مع صاحبة سليمان مائة ألف قيل تحت كل قيل مائة ألف مقاتل ، وقال الأعمش عن مجاهد : كان تحت يدى ملكة سبأ اثنا عشر ألف قيل تحت كل قيل مائة ألف مقاتل ، وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن قتادة فى قوله تعالى (إنى وجدت امرأة تملكهم) كانت من بيت مملكة وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثنى عشر رجلا كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل وكانت بأرض يقال لها مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء ، وهذا القول هو أقرب على أنه كثير على مملكة اليمن والله أعلم وقوله (وأوتيت من كل شىء) أى من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن (ولها عرش عظيم) يعنى سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلىء . قال زهير بن محمد كان من ذهب وصفحاته مرمولة بالياقوت والزبرجد ؛ طوله ثمانون ذراعاً وعرضه أربعون ذراعاً ؛ وقال محمد ابن إسحق : كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ وكان إنما يخدمها النساء ولها ستمائة امرأة تلى الخدمة ، قال علماء التاريخ : وكان هذا السرير فى قصر عظيم مشيد رفيع البناء

محكم وكان فيه ثلثمائة وستون طاقه من مشرقه ومثلها من مغربه ، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة وتغرب من مقابلتها فيسجدون لها صباحاً ومساء ولهذا قال (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل) أى عن طريق الحق (فهم لا يهتدون) وقوله (ألا يسجدوا لله) معناه (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله) أى لا يعرفون سبيل الحق التى هى إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها ، كما قال تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) وقرأ بعض القراء (ألا يا اسجدوا لله) جعلها ألا الاستفتاحية ويا للنداء ، وحذف المنادى تقديره عنده ألا يا قوم اسجدوا لله ، وقوله (الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعلم كل خبيئة فى السماء والأرض ، وكذا قال عكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد . وقال سعيد بن المسيب: الخبء الماء وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم خبء السموات والأرض ما جعل فيهما من الأرزاق . المطر من السماء والنبات من الأرض . وهذا مناسب من كلام الهدهد الذى جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره من أنه يرى الماء يجرى فى تخوم الأرض وداخلها وقوله (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) أى يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال ، وهذا كقوله تعالى (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) وقوله (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) أى هو المدعو الله وهو الذى لا إله إلا هو رب العرش العظيم : الذى ليس فى المخلوقات أعظم منه . ولما كان الهدهد داعيا إلى الخير ، وعبادة الله وحده والسجود له نهى عن قتله كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال نهى النبى ﷺ عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد والصرد ، وإسناده صحيح.

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن قيل سليمان للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم (قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) أى أصدقت فى إخبارك هذا (أم كنت من الكاذبين) فى مقالتك لتتخلص من الوعيد الذى أوعدتك ؟ (اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) وذلك أن سليمان عليه السلام كتب كتابا إلى بلقيس وقومها . وأعطاه ذلك الهدهد فحمله .قيل فى جناحه كما هى عادة الطير ، وقيل بمنقاره ، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس إلى الخلوة التى كانت تختلى فيها بنفسها فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها ثم تولى ناحية أدبا ورياسة فتحيرت مما رأت وهالها ذلك ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته فإذا فيه (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلوا على وأتونى مسلمين) فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها ثم قالت لهم (يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم) تعنى بكرمه ما رأته من عجيب أمره كون طائر ذهب به فألقاه إليها ثم تولى عنها أدبا وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ولا سبيل لهم إلى ذلك ثم قرأته عليهم (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلوا على وأتونى مسلمين) فعرفوا أنه من نبى الله سليمان عليه السلام ، وأنه لا قبل لهم به وهذا الكتاب فى غاية البلاغة والوجازة والفصاحة فانه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها . قال العلماء لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام . وقد روى ابن أبى حاتم فى ذلك حديثاً فى تفسيره حيث قال : حدثنا أبى حدثنا هارون بن الفضل أبو يعلى الحناط حدثنا أبو يوسف عن سلمة بن صالح عن عبد الكريم أبى أمية عن

ابن بريدة عن أبيه قال : كنت أمشى مع رسول الله ﷺ فقال « إنى أعلم آية لم تنزل على نبى قبلى بعد سليمان بن داود » قلت يا نبى الله أى آية ؟ قال « سأعلمكها قبل أن أخرج من المسجد » قال فانتهى إلى الباب فأخرج إحدى قدميه فقلت نسى ثم التفت إلى وقال « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » هذا حديث غريب وإسناده ضعيف . وقال ميمون بن مهران كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب باسمك اللهم حتى نزلت هذه الآية . فكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) . وقوله (أن لا تعلوا على) قال قتادة يقول لا تجبروا على (وأتونى مسلمين) وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم لا تمتنعوا ولا تتكبروا على وأتونى مسلمين . قال ابن عباس موحدين ، وقال غيره مخلصين ، وقال سفيان بن عيينة : طائعين .

﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ * قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم فى أمرها وما قد نزل بها ولهذا قالت (يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) أى حتى تحضرون وتشيرون (قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد) أى منوا إليها بعددهم وعددهم وقوتهم ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا :(والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين) أى نحن ليس لنا عاقة ولا بنا بأس إن شئت أن تقصديه وتحاربيه فما لنا عاقة عنه . وبعد هذا فالأمر إليك مرى فينا رأيك نمتثله ونطيعه . قال الحسن البصرى رحمه الله:فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها ، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هى أحزم رأياً منهم وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطير . وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعا فقالت لهم إنى أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه ويخلص إلى وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا . ولهذا قالت (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) . قال ابن عباس أى إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوه أى خربوه (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) أى وقصدوا من فيها من الولاة والجنود فأهانوهم غاية الهوان إما بالقتل أو بالأسر . قال ابن عباس قالت بلقيس(إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة) قال الرب عز وجل (وكذلك يفعلون) ثم عدلت إلى المصالحة والمهادنة والمسالمة والمخادعة والمصانعة فقالت (وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) أى سأبعث إليه بهدية تليق بمثله وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك فلعله يقبل ذلك منا ويكف عنا أو يضرب علينا خراجا نحمله إليه فى كل عام ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا : قال قتادة رحمه الله ما كان أعقلها فى إسلامها وشركها ، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس. وقال ابن عباس وغير واحد قالت لقومها إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه وإن لم يقبلها فهو نبى فاتبعوه

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين من السلف وغيرهم أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلىء وغير ذلك وقال بعضهم أرسلت بلبن من ذهب ، والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب : قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما أرسلت جوارى فى زى الغلمان وغلمان فى زى الجوارى فقالت إن عرف هؤلاء من هؤلاء فهو نبى قالوا فأمرهم سليمان فتوضئوا فجعلت الجارية تفرغ على يدها من الماء وجعل الغلام يغترف فميزهم بذلك . وقيل بل جعلت الجارية

تغسل باطن يدها قبل ظاهرها والغلام بالعكس ، وقيل بل جعلت الجوارى يغسلن من أكفهن إلى مرافقهن ، والغلمان من مرافقهم إلى كفوفهم ولا منافاة بين ذلك كله والله أعلم . وذكر بعضهم أنها أرسلت اليه بقدح ليملأه ماء رواء لا من السماء ولا من الأرض : فأجرى الخيل حتى عرقت ثم ملأه من ذلك ، وبخرزة وسلك ليجعله فيها ففعل ذلك والله أعلم أكان ذلك أم لا ، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات ، والظاهر أن سليمان عليه السلام لم ينظر إلى ماجاءوا به بالكلية ولا اعتنى به بل أعرض عنه ، وقال منكراً عليهم ‏(أتمدونن بمال ؟) أى أتصانعوننى بمال لأترككم على شرككم وملككم ؟ ‏(فما آتانى الله خير مما آتاكم) أى الذى أعطانى الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ‏(بل أنتم بهديتكم تفرحون) أى أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف ، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الاسلام أو السيف

قال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه : أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة ، فلما رأت رسلها ذلك قالوا مايصنع هذا بهديتنا ، وفى هذا جواز تهيؤ الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد ‏(ارجع إليهم) أى بهديتهم ‏(فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها) أى لا طاقة لهم بقتالهم ‏(ولنخرجنهم منها أذلة) أى ولنخرجنهم من بلدتهم أذلة ‏(وهم صاغرون) أى مهانون مدحورون . فلما رجعت إليها رسلها بهديتها وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هى وقومها وأقبلت تسير اليه فى جنودها خاضعة ذليلة معظمة لسليمان ناوية متابعته فى الإسلام ، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه ووفودهم اليه فرح بذلك وسره .

﴿ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ * قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾

قال محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان قال : فلما رجعت اليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد والله عرفت ماهذا بملك وما لنا به من طاقة وما نصنع بمكابرته شيئا ، وبعثت اليه إنى قادمة عليك بملوك قومى لأنظر ما أمرك وما تدعونا اليه من دينك ، ثم أمرت بسرير ملكها الذى كانت تجلس عليه . وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ فجعل فى سبعة أبيات بعضها فى بعض ثم أقفلت عليه الأبواب ثم قالت لمن خلفت على سلطانها احتفظ بما قبلك وسرير ملكى فلا يخلص اليه أحد من عباد الله ، ولا يرينه أحد حتى آتيك ثم شخصت إلى سليمان فى اثنى عشر ألف قيل من ملوك اليمن تحت يدى كل قيل ألوف كثيرة فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس ممن تحت يده فقال ‏(يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين) وقال قتادة لما بلغ سليمان أنها جائية وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه . وكان من ذهب وقوائمه لؤلؤ وجوهر . وكان مستترا بالديباج والحرير ، وكانت عليه تسعة مغاليق فكره أن يأخذه بعد إسلامهم . وقد علم نبى الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودماؤهم فقال ‏(يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين) وهكذا قال عطاء الخراسانى والسدى وزهير بن محمد ‏(قبل أن يأتونى مسلمين) فتحرم على أموالهم بإسلامهم ‏(قال عفريت من الجن) قال مجاهد أى مارد من الجن ، قال شعيب الجبائى وكان اسمه كوزن ، وكذا قال محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان وكذا قال أيضا وهب بن منبه قال أبو صالح وكان كأنه جبل ‏(أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) قال ابن عباس رضى الله عنه يعنى قبل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد مقعدك ، وقال السدى وغيره كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس ‏(وإنى عليه لقوى أمين) قال ابن عباس أى قوى على حمله أمين على

ما فيـه من الجوهر ، فقال سليمان عليـه السلام أريد أعجل من ذلك ، ومن ههنا يظهر أن سليمان أراد باحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحـد قبله ولا يكون لأحـد من بعد ، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه ، هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة . فلما قال سليمان أريد أعجل من ذلك (قال الذي عنده علم من الكتاب) قال ابن عباس وهو آصف كاتب سليمان ، وكذا روى محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان أنه آصف بن برخياء . وكان صديقا يعلم الاسم الأعظم . وقال قتادة كان مؤمنا من الإنس واسمه آصف ، وكذا قال أبو صالح والضحاك وقتادة إنه كان من الإنس زاد قتادة من بني إسرائيل . وقال مجاهـد كان اسمه أسطوم ، وقال قتادة في رواية عنه كان اسمه بليخا ، وقال زهير بن محمد هو رجل من الإنس يقال له ذوالنور . وزعم عبدالله بن لهيعة أنه الخضر وهو غريب جدا . وقوله (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) أي ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك ، وقال وهب بن منبه: امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتيك به فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب ثم قام فتوضأ ودعا الله تعالى . قال مجاهد قال ياذا الجلال والاكرام. وقال الزهري قال : يا إلهنا وإله كل شيء إلها واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها . قال فمثل بين يديه . قال مجاهد وسعيد ابن جبير ومحمد بن إسحق وزهير بن محمد وغيرهم : لما دعا الله تعالى وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس وكان في اليمن وسليمان عليه السلام ببيت المقدس غاب السرير وغاص في الأرض ثم نبع من بين يدي سليمان

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه قال وكان هذا الذي جاء به من عباد البحر فلما عاين سليمان وملؤه ذلك ورآه مستقراً عنده (قال هذا من فضل ربي) أي هذا من نعم الله على (ليبلوني) أي ليختبرني (أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه) كقوله (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) وكقوله (ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) وقوله (ومن كفر فإن ربي غني كريم) أي هو غني عن العباد وعبادتهم كريم أي كريم في نفسه وإن لم يعبده أحد فان عظمته ليست مفتقرة إلى أحد ، وهذا كما قال موسى (إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد) وفي صحيح مسلم « يقول الله تعالى : ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم مازاد ذلك في ملكي شيئا . ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم مانقص ذلك من ملكي شيئاً . ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

لما جيء سليمان عليه السـلام بعرش بلقيس قبل قدومها أمر به أن يغير بعض صـفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها فقال (نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون) قال ابن عباس نزع منـه فصوصه ومرافقه ، وقال مجاهد أمر به فغير ما كان فيه أحمر جعل أصـفر وما كان أصفر جعل أحمر . وما كان أخضر جعل أحمر غير كل شيء عن حاله . وقال عكرمة زادوا فيه ونقصوا وقال قتادة جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا (فلما جاءت قيل أهكذا عرشك) أي عرض عليها عرشها وقد غير ونـكر

وزيد فيه ونقص منه فكان فيها ثبات وعقل ، ولها لب ودهاء وحزم ، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ولا أنه غيره لمارأت من آثاره وصفاته وإن غير وبدل ونكر فقالت (كأنه هو) أي يشبهه ويقاربه . وهذا غاية في الذكاء والحزم . وقوله (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) قال مجاهد يقوله سليمان ، وقوله تعالى (وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين) هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام في قول مجاهد وسعيد بن جبير رحمهما الله أي قال سليمان (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) وهي كانت قد صدها أي منعها من عبادة الله وحده (ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين) وهذا الذي قاله مجاهد وسعيد وحسن وقاله ابن جرير أيضا ، ثم قال ابن جرير ويحتمل أن يكون في قوله (وصدها) ضمير يعود إلى سليمان أو إلى الله عز وجل تقديره ومنعها (ما كانت تعبد من دون الله) أي صدها عن عبادة غير الله (إنها كانت من قوم كافرين) ﴿ قلت ﴾ ويؤيد قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح كما سيأتي . وقوله (قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها) وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قصراً عظيما من قوارير أي من زجاج وأجرى تحته الماء فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه . واختلفوا في السبب الذي دعا سليمان عليه السلام إلى اتخاذه فقيل انه لما عزم على تزوجها واصطفائها لنفسه ، ذكر له جمالها وحسنها ولكن في ساقيها هلب عظيم ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة . فساءه ذلك فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا ؟ هكذا قول محمد بن كعب القرظي وغيره. فلما دخلت وكشفت عن ساقيها رأى أحسن الناس ساقاً وأحسنهم قدماً. ولكن رأى على رجليها شعراً لأنها ملكة ليس لها زوج فأحب أن يذهب ذلك عنها فقيل له الموسى فقالت لا أستطيع ذلك . وكره سليمان ذلك وقال للجن اصنعوا شيئا غير الموسى يذهب به هذا الشعر فصنعوا له النورة . وكان أول من اتخذت له النورة قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي والسدي وابن جريج وغيرهم . وقال محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان ثم قال لها ادخلي الصرح ليريها ملكا هو أعز من ملكها وسلطانا هو أعظم من سلطانها فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها لا تشك أنه ماء تخوضه فقيل لها إنه صرح ممرد من قوارير ، فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة الله وحده وعاتبها في عبادة الشمس من دون الله ، وقال الحسن البصري : لما رأت العلجة الصرح عرفت والله أن قد رأت ملكا أعظم من ملكها ، وقال محمد بن إسحق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه قال : أمر سليمان بالصرح وقد عملته له الشياطين من زجاج كأنه الماء بياضا ثم أرسل الماء تحته ثم وضع له فيه سريره فجلس عليه وعكفت عليه الطير والجن والإنس ثم قال لها ادخلي الصرح ليريها ملكا هو أعز من ملكها وسلطانا هو أعظم من سلطانها (فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها) لا تشك أنه ماء تخوضه قيل لها (إنه صرح ممرد من قوارير) . فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة الله عزوجل وحده وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله فقالت بقول الزنادقة فوقع سليمان ساجداً إعظاما لما قالت وسجد معه الناس فسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع فلما رفع سليمان رأسه قال ويحك ماذا قلت ؟ قالت أنسيت ما قلت ؟ فقالت (رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) فأسلمت وحسن إسلامها . وقد روى الإمام أبو بكر بن أبي شيبة في هذا أثراً غريباً عن ابن عباس فقال حدثنا الحسين بن علي عن زائدة حدثني عطاء بن السائب حدثنا مجاهد ونحن في الأزد قال حدثنا ابن عباس قال : كان سليمان عليه السلام يجلس على سريره ثم توضع كراسي حوله فيجلس عليها الإنس ثم يجلس الجن ثم الشياطين ثم يأتي الريح فترفعهم ثم تظلهم الطير ثم يغدون قدر ما يشتهي الراكب أن ينزل شهراً ورواحها شهراً ، قال فبينما هو ذات يوم في مسير له إذ تفقد الطير ففقد الهدهد فقال (مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين * لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين) قال وكان عذابه إياه أن ينتفه ثم يلقيه في الأرض فلا يمتنع من نملة ولا من شيء من هوام الأرض قال عطاء وذكر سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل حديث مجاهد (فمكث غير بعيد ـ فقرأ حتى انتهى إلى قوله ـ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين * اذهب بكتابي هذا) وكتب بسم الله الرحمن الرحيم، إلى بلقيس (أن لا تعلوا

علىّ وائتونى مسلمين) فلما ألقى الهدهد الكتاب اليها ألقى فى روعها انه كتاب كريم وانه من سليمان وأن لاتعلوا على وائتونى مسلمين قالوا نحن أولوا قوة قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ، فلما جاءت الهدية سليمان قال أتمدوننى بمال ارجع اليهم فلما نظر إلى الغبار أخبرنا ابن عباس قال وكان بين سليمان وبين ملكة سبأ ومن معها حين نظر إلى الغبار كما بيننا وبين الحيرة ، قال عطاء ومجاهد حينئذ فى الأزد . قال سليمان أيكم يأتينى بعرشها ؟ قال وبين عرشها وبين سليمان حين نظر إلى الغبار مسيرة شهرين (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) قال وكان لسليمان مجلس يجلس فيه للناس كما يجلس الأمراء ثم يقوم . فقال (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) قال سليمان أريد أعجل من ذلك ، فقال الذى عنده علم من الكتاب أنا أنظر فى كتاب ربى ثم آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك قال فنظر إليه سليمان فلما قطع كلامه رد سليمان بصره فنبع عرشها من تحت قدم سليمان من تحت كرسى كان سليمان يضع عليه رجله ثم يصعد إلى السرير ، قال فلما رأى سليمان عرشها قال (هذا من فضل ربى) الآية (قال نكروا لها عرشها) فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو . قال فسألته حين جاءته عن أمرين قالت لسليمان أريد ماء ليس من أرض ولا سماء . وكان سليمان إذا سئل عن شىء سأل الإنس ثم الجن ثم الشياطين قال: فقالت الشياطين هذا هين أجر الخيل ثم خذ عرقها ثم املأ منه الآنية . قال فأمر بالخيل فأجريت ثم أخذ عرقها فملأ منه الآنية ، قال وسألت عن لون الله عزوجل . قال فوثب سليمان عن سريره فخر ساجداً فقال يارب لقد سألتنى عن أمر إنه ليتعاظم فى قلبى أن أذكره لك ، فقال ارجع فقد كفيتكهم قال فرجع إلى سريره قال ما سألت عنه ؟ قالت ماسألتك إلا عن الماء فقال لجنوده ماسألت عنه ؟ فقالوا ماسألتك إلا عن الماء ، قال ونسوه كلهم . قال وقالت الشياطين إن سليمان يريد أن يتخذها لنفسه فإن اتخذها لنفسه ثم ولد بينهما ولد لم ننفك من عبوديته ، قال فجعلوا صرحاً ممرداً من قوارير فيه السمك قال فقيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها فاذا هى شعراء . فقال سليمان هذا قبيح فما يذهبه ؟ قالوا يذهبه الموسى فقال أثر الموسى قبيح قال فجعلت الشياطين النورة . قال فهو أول من جعلت له النورة ، ثم قال أبو بكر بن أبى شيبة ما أحسنه من حديث ﴿ قلت ﴾ بل هو منكر غريب جداً ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس والله أعلم . والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب مما وجد فى صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهما الله تعالى فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بنى إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان وما لم يكن ومما حرف وبدل ونسخ . وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ولله الحمد والمنة . أصل الصرح فى كلام العرب هو القصر وكل بناء مرتفع ، قال الله سبحانه وتعالى إخباراً عن فرعون لعنه الله أنه قال لوزيره هامان (ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب) الآية . والصرح قصر فى اليمن عالى البناء ، والممرد المبنى بناء محكما أملس (من قوارير) أى زجاج ، وتمريد البناء تمليسه ، ومارد : حصن بدومة الجندل . والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصراً عظيما منيفاً من زجاج لهذه الملكة ليريها عظمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ماهو فيه وتبصرت فى أمره انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبى كريم ، وملك عظيم ، وأسلمت لله عز وجل وقالت (رب إنى ظلمت نفسى) أى بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) أى متابعة لدين سليمان فى عبادته لله وحده لاشريك له الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰئِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له (فإذا هم فريقان يختصمون) قال مجاهد : مؤمن وكافر كقوله تعالى (قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون) (قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة) أى لم تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته ولهذا قال (لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك) أى ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيرا ، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحدا منهم سوء إلا قال هذا من قبل صالح وأصحابه قال مجاهد تشاءموا بهم وهذا كما قال الله تعالى إخبارا عن قوم فرعون (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) الآية وقال تعالى (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك * قل كل من عند الله) أى بقضائه وقدره ، وقال تعالى مخبرا عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون (قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم) الآية وقال هؤلاء (اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله) أى الله يجازيكم على ذلك (بل أنتم قوم تفتنون) قال قتادة تبتلون بالطاعة والمعصية. والظاهر أن المراد بقوله (تفتنون) أى تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال

﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورءوسهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب صالح وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة وهموا بقتل صالح أيضاً بأن يبيتوه فى أهله ليلا فيقتلوه غيلة ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه إنهم ما علموا بشىء من أمره وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك فقال تعالى (وكان فى المدينة) أى مدينة ثمود (تسعة رهط) أى تسعة نفر (يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم قال العوفى عن ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة أى الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم قبحهم الله ولعنهم وقد فعل ذلك وقال السدى عن أبى مالك عن ابن عباس: كان أسماء هؤلاء التسعة دعمى ودعيم وهرما وهريم وداب وصواب ورياب ومسطع وقدار بن سالف عاقر الناقة أى الذى باشر ذلك بيده ، قال الله تعالى (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) وقال تعالى (إذ انبعث أشقاها) وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر بن ربيعة الصنعانى سمعت عطاء - هو ابن أبى رباح - يقول (وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) قال كانوا يقرضون الدراهم يعنى أنهم كانوا يأخذون منها وكأنهم كانوا يتعاملون بها عددا كما كان العرب يتعاملون . وقال الإمام مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال قطع الذهب والورق من الفساد فى الأرض ، وفى الحديث الذى رواه أبو داود وغيره أن رسول الله ﷺ نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الافساد فى الأرض بكل طريق يقدرون عليها فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك . وقوله تعالى (قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله) أى تحالفوا وتبايعوا على قتل نبى الله صالح عليه السلام من لقيه ليلا غيلة ، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم ، قال مجاهد تقاسموا وتحالفوا على هلاكه فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين ، وقال قتادة تواثقوا على أن يأخذوه ليلا فيقتلوه ، وذكر لنا أنهم بينما هم معانيق إلى صالح ليفتكوا به إذ بعث الله عليهم صخرة فأهمدتهم ، قال

العوفى عن ابن عباس : هم الذين عقروا الناقة قالوا: حين عقروها لنبيتن صالحا وأهله فنقتلهم ثم نقول لأولياء صالح ما شهدنا من هذا شيئا وما لنا به من علم فدمرهم الله أجمعين. وقال محمد بن إسحق قال هؤلاء التسعة بعد ما عقروا الناقة هلم فلنقتل صالحا فإن كان صادقا عجلناه قبلنا وإن كان كاذبا كنا قد ألحقناه بناقته فأتوه ليلا ليبيتوه فى أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم منشدخين قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم والله لا تقتلونه أبدا وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم فى ثلاث فان كان صادقا فلا تزيدوا ربكم عليكم غضبا ، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك وقال عبد الرحمن بن أبى حاتم : لما عقروا الناقة قال لهم صالح (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) قالوا زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث وكان لصالح مسجد فى الحجر عند شعب هناك يصلى فيه فخرجوا إلى كهف أى غار هناك ليلا فقالوا إذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله ففرغنا منهم فبعث الله عليهم صخرة من الهضب حيالهم فخشوا أن تشدخهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم فى ذلك الغار فلا يدرى قومهم أين هم ،ولا يدرون مافعل بقومهم : فعذب الله هؤلاء ههنا وهؤلاء ههنا وأنجى الله صالحا ومن معه ثم قرأ (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية) أى فارغة ليس فيها أحد (بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون)

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه أنذر قومه نقمة الله بهم فى فعلهم الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم وهى إتيان الذكور دون الإناث وذلك فاحشة عظيمة استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء فقال (أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون) أى يرى بعضكم بعضا وتأتون فى ناديكم المنكر (أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون) أى لا تعرفون شيئا لا طبعا ولا شرعا كما قال فى الآية الأخرى (أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون) (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون) أى يتحرجون من فعل ما تفعلونه ومن إقراركم على صنيعكم فأخرجوهم من بين أظهركم فانهم لا يصلحون لمجاورتكم فى بلادكم فعزموا على ذلك فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، قال الله تعالى (فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين) أى من الهالكين مع قومها لأنها كانت ردءاً لهم على دينهم وعلى طريقتهم فى رضاها بأفعالهم القبيحة فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبى الله ﷺ لا كرامة لها وقوله تعالى (وأمطرنا عليهم مطرا) أى حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ولهذا قال (فساء مطر المنذرين) أى الذين قامت عليهم الحجة ووصل إليهم الانذار فخالفوا الرسول وكذبوه وهموا بإخراجه من بينهم

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول (الحمد لله) أى على نعمه على عباده من النعم التى لا تعد ولا تحصى وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى ، وأن يسلم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم وهم رسله وأنبياؤه الكرام ، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره : إن المراد بعباده الذين اصطفى ، هم الأنبياء قال وهو كقوله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) : وقال الثورى والسدى هم أصحاب محمد ﷺ ورضى عنهم أجمعين وروى نحوه عن ابن عباس أيضاً ولا منافاة فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى . والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ذكره لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد وما أحل بأعدائه من الخزى والنكال والقهر ، أن يحمدوه على جميع أفعاله ، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار . وقد قال أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عمارة بن صبيح حدثنا طلق بن غنام حدثنا الحكم بن ظهير عن السدى عن أبى مالك عن ابن عباس (وسلام على عباده الذين اصطفى) قال هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم الله لنبيه رضى الله عنهم وقوله تعالى (آلله خير أم ما يشركون) استفهام إنكار على المشركين فى عبادتهم مع الله آلهة أخرى . ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره فقال تعالى (أمن خلق السموات) أى خلق تلك السموات فى ارتفاعها وصفائها . وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة . وخلق الأرض فى استفالها وكثافتها وما جعل فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار ، والفيافى والقفار ، والزروع والأشجار ، والثمار والبحار ، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك . وقوله تعالى (وأنزل لكم من السماء ماء) أى جعله رزقاً للعباد (فأنبتنا به حدائق) أى بساتين (ذات بهجة) أى منظر حسن وشكل بهى (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) أى لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها . وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك المتفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد كما يعترف به هؤلاء المشركون كما قال تعالى فى الآية الأخرى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) أى هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق ، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة ، من هو المتفرد بالخلق والرزق ولهذا قال تعالى (أإله مع الله ؟) أى أإله مع الله يعبد ، وقد تبين لكم ولكل ذى لب مما يعترفون به أيضاً أنه الخالق الرازق . ومن المفسرين من يقول معنى قوله (أإله مع الله) فعل هذا وهو يرجع إلى معنى الأول لأن تقدير الجواب أنهم يقولون ليس ثم أحد فعل هذا معه بل هو المتفرد به فيقال فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير ؟ كما قال تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق) الآية . وقوله تعالى ههنا (أمن خلق السموات والأرض) (أمن) فى هذه الآيات كلها تقديره أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شىء منها ؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر لأن فى قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك . وقد قال الله تعالى (آلله خير أم ما يشركون) ثم قال فى الآية الأخرى (بل هم قوم يعدلون) أى أى يجعلون لله عدلا ونظيراً . وهكذا قال تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) أى أمن هو هكذا كمن ليس كذلك ؟ ولهذا قال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب) (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين) وقال تعالى (أمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أى أمن هو شهيد على أفعال الخلق حركاتهم وسكناتهم يعلم الغيب جليله وحقيره كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التى عبدوها من دون الله ؟ ولهذا قال (وجعلوا لله شركاء قل سموهم) وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها .

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى (أمن جعل الأرض قراراً) أى قارة ساكنة ثابتة لاتميد ولاتتحرك بأهلها ولا ترجف بهم فانها لو كانت كذلك لماطاب عليها العيش والحياة بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً ثابتة لاتتزلزل ولا تتحرك كما قال تعالى فى الآية الأخرى (الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء) (وجعل خلالها أنهارا) أى جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة شقها فى خلالها وصرفها فيها مابين أنهار كبار وصغار وبين ذلك ، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوبا وشمالا بحسب مصالح عباده فى أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم فى أرجاء الأرض وسير لهم أرزاقهم بحسب مايحتاجون اليه (وجعل لها رواسى) أى جبالا شامخة ترسى الأرض وتثبتها لئلا تميد بكم (وجعل بين البحرين حاجزا) أى جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزا أى مانعا يمنعها من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا فان الحكمة الإلهية تقتضى بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه فان البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس والمقصود منها أن تكون عذبة زلالا يسقى الحيوان والنبات والثمار منها . والبحار المالحة هى المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحاً أجاجاً لئلايفسد الهواء بريحها كما قال تعالى (وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا) ولهذا قال تعالى (أ إله مع الله ؟) أى فعل هذا أو يعبد على القول الأول والآخر ؟ وكلاهما متلازم صحيح (بل أكثرهم لايعلمون) أى فى عبادتهم غيره .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد ، المرجو عند النوازل كما قال تعالى (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) وقال تعالى (ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) وهكذا قال ههنا (أمن يجيب المضطر إذا دعاه) أى من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا اليه ، والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه . قال الإمام أحمد أنبأنا عفان أنبأنا وهيب أنبأنا خالد الحذاء عن أبى تميمة الهجيمى عن رجل من بلهجيم قال: قلت يارسول الله إلام تدعو ؟ قال « أدعو إلى الله وحده الذى إن مسك ضر فدعوته كشف عنك ، والذى إن أضللت بأرض قفر فدعوته ردعليك ، والذى إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك » قال: قلت أوصنى ، قال « لاتسبن أحدا ولاتزهدن فى المعروف ، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط اليه وجهك ، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى ، واتزر إلى نصف الساق فان أبيت فالى الكعبين . وإياك وإسبال الازار فان إسبال الازار من المخيلة وإن الله لايحب المخيلة » وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر فذكر اسم الصحابى فقال : حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة حدثنا يونس هو ابن عبيد حدثنا عبيدة الهجيمى عن أبيه عن أبى تميمة الهجيمى عن جابر بن سليم الهجيمى قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محتب بشملة وقد وقع هدبها على قدميه فقلت: أيكم محمد رسول الله ؟ فأومأ بيده إلى نفسه ، فقلت يارسول الله أنا من أهل البادية وفىّ جفاؤهم فأوصنى قال « لاتحقرن من المعروف شيئا ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلاتشتمه بماتعلم فيه فانه يكون لك أجره وعليه وزره ، وإياك وإسبال الازار فان إسبال الازار من المخيلة وإن الله لايحب المخيلة ، ولاتسبن أحدا » قال فماسببت بعده أحدا ولاشاة ولابعيرا . وقد روى أبو داود والنسائى لهذا الحديث طرقا وعندهما طرف صالح منه . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا على بن هشام حدثنا عبدة ابن نوح عن عمر بن الحجاج عن عبيدالله بن أبى صالح قال : دخل على طاوس يعودنى فقلت له: ادع الله لى يا أبا عبد الرحمن فقال ادع لنفسك فانه يجيب المضطر إذا دعاه ، وقال وهب بن منبه قرأت فى الكتاب الأول إن الله تعالى يقول : بعزتى إنه من اعتصم بى فإن كادته السموات بمن فيهن والأرض بمن فيهن فانى أجعل له من بين ذلك مخرجاً

ومن لم يعتصم بى فإنى أخسف به من تحت قدميه الأرض فأجعله فى الهواء فأكله إلى نفسه وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينورى المعروف بالدقى الصوفى قال هذا الرجل كنت أكارى على بغل لى من دمشق إلى بلد الزبدانى فركب معى ذات مرة رجل فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة فقال لى خذ فى هذه فانها أقرب فقلت لاخبرة لى فيها ، فقال بل هى أقرب فسلكناها فانتهينا إلى مكان وعر وواد عميق وفيه قتلى كثيرة فقال لى أمسك رأس البغل حتى أنزل فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه وسل سكينا معه وقصدنى ففررت من بين يديه وتبعنى فناشدته الله وقلت خذ البغل بما عليه فقال هو لى وإنما أريد قتلك فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل فاستسلمت بين يديه وقلت إن رأيت أن تتركنى حتى أصلى ركعتين فقال : عجل فقمت أصلى فأرتج على القرآن فلم يحضرنى منه حرف واحد فبقيت واقفا متحيرا وهو يقول هيه افرغ فأجرى الله على لسانى قوله تعالى (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادى وبيده حربة فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده فخر صريعا فتعلقت بالفارس وقلت بالله من أنت ؟ فقال أنا رسول الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . قال فأخذت البغل والحمل ورجعت سالما . وذكر فى ترجمة فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلية قالت : هزم الكفار يوما المسلمين فى غزاة فوقف جواد جيد بصاحبه وكان من ذوى اليسار ومن الصلحاء فقال للجواد مالك ويلك إنما كنت أعدك لمثل هذا اليوم فقال له الجواد ومالى لا أقصر وأنت تكل العلوفة إلى السواس فيظلمونى ولا يطعمونى إلا القليل ؟ فقال لك على عهد الله أنى لا أعلفك بعد هذا اليوم إلا فى حجرى فجرى الجواد عند ذلك ونجى صاحبه وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا فى حجره ، واشتهر أمره بين الناس وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك وبلغ ملك الروم أمره فقال : ما تضام بلدة يكون هذا الرجل فيها. واحتال ليحصله فى بلده فبعث إليه رجلا من المرتدين عنده فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حسنت نيته فى الإسلام وقومه حتى استوثق ثم خرجا يوما يمشيان على جنب الساحل وقد واعد شخصا آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا على أسره فلما اكتنفاه ليأخذاه رفع طرفه إلى السماء وقال : اللهم إنه إنما خدعنى بك فاكفنيهما بما شئت . قال فخرج سبعان فأخذاهما ورجع الرجل سالما . وقوله تعالى (ويجعلكم خلفاء الأرض) اى يخلف قرنا لقرن قبلهم وخلفا لسلف كما قال تعالى (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) وقال تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات) وقال تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) أى قوما يخلف بعضهم بعضا كما قدمنا تقريره وهكذا هذه الآية (ويجعلكم خلفاء الأرض) أى أمة بعد أمة وجيلا بعد جيل وقوما بعد قوم ولوشاء لأوجدهم كلهم فى وقت واحد ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب ولوشاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يميت أحدا حتى تكون وفاة الجميع فى وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ويتضرر بعضهم ببعض ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ثم يكثرهم غاية الكثرة ويذرأهم فى الأرض ويجعلهم قرونا بعد قرون وأمما بعد أمم حتى ينقضى الأجل وتفرغ البرية كما قدر ذلك تبارك وتعالى وكما أحصاهم وعدهم عدا ثم يقيم القيامة ويوفى كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله ولهذا قال تعالى (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله) أى يقدر على ذلك أو أإله مع الله بعد هذا ! وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له ؟ (قليلا ما تذكرون) أى ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يقول تعالى (أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر) أى بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية كما قال تعالى (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) وقال تعالى (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) الآية (ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) أى بين يدى السحاب الذى فيه مطر يغيث الله به عباده المجدبين الأزلين القنطين (أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون)

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

أى هو الذى بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده كما قال تعالى فى الآية الأخرى (إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدئ ويعيد) وقال تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) (ومن يرزقكم من السماء والأرض) أى بما ينزل من مطر السماء وينبت من بركات الأرض كما قال تعالى (والسماء ذات الرجع * والأرض ذات الصدع) وقال تعالى (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركا فيسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به منها أنواع الزروع والثمار والأزاهير وغير ذلك من ألوان شتى (كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) ولهذا قال تعالى (أإله مع الله) أى فعل هذا وعلى القول الآخر بعد هذا (قل هاتوا برهانكم) على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى (إن كنتم صادقين) فى ذلك وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون)

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * بَلِ ادَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلما لجميع الخلق أنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله . وقوله تعالى (إلا الله) استثناء منقطع أى لا يعلم أحد ذلك إلا الله عز وجل فانه المنفرد بذلك وحده لا شريك له كما قال تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) الآية وقال تعالى (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) إلى آخر السورة ، والآيات فى هذا كثيرة ، وقوله تعالى (وما يشعرون أيان يبعثون) أى وما يشعر الخلائق الساكنون فى السموات والأرض بوقت الساعة كما قال تعالى (ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة) أى ثقل علمها على أهل السموات والأرض . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا على بن الجعد حدثنا أبو جعفر الرازى عن داود بن أبى هند عن الشعبى عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت : من زعم أنه يعلم — يعنى النبى صلى الله عليه وسلم — ما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية لأن الله تعالى يقول (قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) وقال قتادة إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال : جعلها زينة للسماء وجعلها يهتدى بها وجعلها رجوما للشياطين ، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف مالا علم له به . وإن أناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة ، من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ولعمرى ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والقصير والطويل والحسن والدميم ، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشىء من الغيب ، وقضى الله تعالى أنه لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون . رواه ابن أبى حاتم عنه بحروفه

وهو كلام جليل متين صحيح وقوله (بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها) أى انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها وقرأ آخرون (بل أدرك علمهم) أى تساوى علمهم فى ذلك كما فى الصحيح لمسلم أن رسول الله ﷺ قال لجبريل وقد سأله عن وقت الساعة « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » أى تساوى فى العجز عن درك ذلك علم المسئول والسائل ، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (بل ادارك علمهم فى الآخرة) أى غاب ، وقال قتادة (بل ادارك علمهم فى الآخرة) يعنى بجهلهم بربهم، يقول لم ينفذ لهم علم فى الآخرة . هذا قول ، وقال ابن جريج عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس (بل ادارك علمهم فى الآخرة) حين لم ينفع العلم ، وبه قال عطاء الخراسانى والسدى أن علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك كما قال تعالى (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين) وقال سفيان عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه كان يقرأ (بل أدرك علمهم) قال اضمحل علمهم فى الدنيا حين عاينوا الآخرة وقوله تعالى (بل هم فى شك منها) عائد على الجنس والمراد الكافرون كما قال تعالى (وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً) أى الكافرون منكم وهكذا قال ههنا (بل هم فى شك منها) أى شاكون فى وجودها ووقوعها (بل هم منها عمون) أى فى عماية وجهل كبير فى أمرها وشأنها

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ * وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن منكرى البعث من المشركين أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاما ورفاتا وترابا ثم قال (لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل) أى ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً ، وقولهم (إن هذا إلا أساطير الأولين) يعنون ما هذا الوعد باعادة الأبدان (إلا أساطير الأولين) أى أخذه قوم عمن قبلهم من كتب يتلقاه بعض عن بعض وليس له حقيقة، قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد (قل) يا محمد لهؤلاء (سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) أى المكذبين بالرسل وبما جاءوهم به من أمر المعاد وغيره كيف حلت بهم نقمة الله وعذابه ونكاله ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته ، ثم قال تعالى مسلياً لنبيه ﷺ (ولا تحزن عليهم) أى المكذبين بما جئت به ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات (ولا تكن فى ضيق مما يمكرون) أى فى كيدك ورد ما جئت به فان الله مؤيدك وناصرك ومظهر دينك على من خالفه وعانده فى المشارق والمغارب

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟) قال الله تعالى مجيباً لهم (قل) يا محمد (عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون) قال ابن عباس أن يكون قرب أو أن يقرب لكم بعض الذى تستعجلون ، وهكذا قال مجاهد والضحاك وعطاء الخراسانى وقتادة

والسدى وهذا هو المراد بقوله تعالى (ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريبا) وقال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) وإنما دخلت اللام فى قوله (ردف لكم) لأنه ضمن معنى عجل لكم كما قال مجاهد فى رواية عنه (عسى أن يكون ردف لكم) عجل لكم

ثم قال الله تعالى (وإن ربك لذو فضل على الناس) أى فى إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم (وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) أى يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به (يعلم السر وأخفى) (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض وأنه عالم الغيب والشهادة وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه فقال تعالى (وما من غائبة) قال ابن عباس يعنى وما من شىء (فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين) وهذه كقوله (ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير)

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ * إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان أنه يقص على بنى إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل (أكثر الذى هم فيه يختلفون) كاختلافهم فى عيسى وتباينهم فيه فاليهود افتروا والنصارى غلوا فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام ، عليه أفضل الصلاة والسلام، كما قال تعالى (ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون) وقوله (وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين) أى هدى لقلوب المؤمنين به ورحمة لهم فى العمليات . ثم قال تعالى (إن ربك يقضى بينهم) أى يوم القيامة (بحكمه وهو العزيز) أى فى انتقامه (العليم) بأفعال عباده وأقوالهم (فتوكل على الله) أى فى جميع أمورك وبلغ رسالة ربك (إنك على الحق المبين) أى أنت على الحق المبين وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة حقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ، ولهذا قال تعالى (إنك لا تسمع الموتى) أى لا تسمعهم شيئاً ينفعهم فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة وفى آذانهم وقر الكفر ولهذا قال تعالى (ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم * إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) أى إنما يستجيب لك من هو سميع بصير السمع والبصر النافع فى القلب والبصيرة الخاضع لله ولما جاء عنه على ألسنة الرسل عليهم السلام

﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾

هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض قيل من مكة وقيل من غيرها كما سيأتى تفصيله إن شاء الله تعالى فتكلم الناس على ذلك، قال ابن عباس والحسن وقتادة ويروى عن على رضى الله عنه تكلمهم كلاما أى تخاطبهم مخاطبة وقال عطاء الخراسانى تكلمهم فتقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون. ويروى هذا عن على واختاره ابن جرير وفى هذا القول نظر لا يخفى والله أعلم . وقال ابن عباس فى رواية تجرحهم ، وعنه رواية قال. كلا تفعل يعنى هذا وهذا وهو قول حسن ولا منافاة والله أعلم ، وقد ورد فى ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة فلنذكر منها ما تيسر والله المستعان . قال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن

قرات عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال « لاتقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان والدابة وخروج يأجوج ومأجوج وخروج عيسى بن مريم عليه السلام والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب وخسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا » وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من طرق عن فرات القزاز عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة مرفوعاً ، وقال الترمذي حسن صحيح . ورواه مسلم أيضا من حديث عبد العزيز بن رفيع عن أبي الطفيل عنه موقوفا فالله أعلم ﴿ طريق أخرى ﴾ قال أبو داود الطيالسي عن طلحة بن عمرو وجرير بن حازم ، فأما طلحة فقال أخبرني عبد الله بن عبيد الله بن عمير الليثي أن أبا الطفيل حدثه عن حذيفة بن أسيد الغفاري أبي سريحة ، وأما جرير فقال عن عبد الله بن عبيد عن رجل من آل عبد الله بن مسعود . وحديث طلحة أتم وأحسن قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال « لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خرجة من أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية — يعني مكة — ثم تكمن زمنا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك فيعلو ذكرها في أهل البادية ويدخل ذكرها القرية » يعني مكة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفض الناس عنها شتى ومعا ، وبقيت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله فبدأت بهم فجلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدري وولت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول : يافلان الآن تصلي فيقبل عليها فتسمه في وجهه ثم تنطلق ويشترك الناس في الأموال ويصطحبون في الأمصار يعرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن ليقول يا كافر اقضني حقي وحتى ان الكافر ليقول يامؤمن اقضني حقي » ورواه ابن جرير من طريقين عن حذيفة بن أسيد موقوفا والله أعلم . ورواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعا ، وأن ذلك في زمان عيسى ابن مريم وهو يطوف بالبيت ولكن إسناده لايصح (حديث آخر) قال مسلم بن الحجاج حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا محمد بن بشر عن أبي حيان عن أبي زرعة عن عبد الله بن عمرو قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً » (حديث آخر) روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن ابن يعقوب مولى الحرقة عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « بادروا بالأعمال ستا : طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخاصة أحدكم وأمر العامة » تفرد به وله من حديث قتادة عن الحسن عن زياد بن رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « بادروا بالأعمال ستا : الدجال والدخان ودابة الأرض وطلوع الشمس من مغربها وأمر العامة وخويصة أحدكم » . (حديث آخر) قال ابن ماجه حدثنا حرملة ابن يحيى حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث وابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعيد عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بادروا بالأعمال ستا : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان والدابة والدجال وخويصة أحدكم وأمر العامة » تفرد به . (حديث آخر) قال أبو داود الطيالسي حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أوس بن خالد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام فتخطم أنف الكافر بالعصا وتجلي وجه المؤمن بالخاتم حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر » ورواه الإمام أحمد عن بهز وعفان ويزيد بن هرون ثلاثتهم عن حماد بن سلمة به ، وقال « فتخطم أنف الكافر بالخاتم وتجلو وجه المؤمن بالعصا حتى إن أهل الخوان الواحد ليجتمعون فيقول هذا يامؤمن ويقول هذا يا كافر » ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يونس بن محمد المؤدب عن حماد بن سلمة به (حديث آخر) قال ابن ماجه حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو حدثنا أبو تميلة حدثنا خالد بن عبيد حدثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : ذهب بي

رسول الله ﷺ إلى موضع بالبادية قريب من مكة فإذا أرض يابسة حولها رمل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تخرج الدابة من هذا الموضع » فإذا فتر في شبر قال ابن بريدة فحججت بعد ذلك بسنين فأرانا عصاً له فإذا هو بعصاي هذه كذا وكذا . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة أن ابن عباس قال : هي دابة ذات زغب لها أربع قوائم تخرج من بعض أودية تهامة . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبدالله بن رجاء حدثنا فضيل ابن مرزوق عن عطية قال : قال عبد الله تخرج الدابة من صدع من الصفا كجري الفرس ثلاثة أيام لم يخرج ثلثها ، وقال محمد بن إسحق عن أبان بن صالح قال : سئل عبدالله بن عمرو عن الدابة فقال الدابة تخرج من تحت صخرة بجياد والله لو كنت معهم أو لو شئت بعصاي الصخرة التي تخرج الدابة من تحتها . قيل فتصنع ماذا يا عبد الله بن عمرو فقال تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل الشام فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل اليمن فتصرخ صرخة تنفذه ثم تروح من مكة فتصبح بعسفان قيل . ثم ماذا قال ثم لا أعلم ، وعن عبدالله بن عمر أنه قال . تخرج الدابة ليلة جمع . رواه ابن أبي حاتم وفي إسناده ابن البيلماني . وعن وهب بن منبه أنه حكى من كلام عزير عليه السلام أنه قال : وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كل يسمعها ، وتضع الحبالى قبل التمام ، ويعود الماء العذب أجاجاً ويتعادى الأخلاء وتحرق الحكمة ويرفع العلم وتكلم الأرض التي تليها ، وفي ذلك الزمان يرجو الناس مالا يبلغون ، ويتعبون فيما لا ينالون ، ويعملون فيما لا يأكلون رواه ابن أبي حاتم عنه . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو صالح كاتب الليث حدثني معاوية بن صالح عن أبي مريم أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول : إن الدابة فيها من كل لون ما بين قرنيها فرسخ للراكب ، وقال ابن عباس هي مثل الحربة الضخمة ، وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : إنها دابة لها ريش وزغب وحافر وما لها ذنب ولها لحية ، وإنها لتخرج حضر الفرس الجواد ثلاثا وما خرج ثلثها رواه ابن أبي حاتم . وقال ابن جريج عن ابن الزبير إنه وصف الدابة فقال : رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هر وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصلين اثناعشر ذراعاً تخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان فلا يبقى مؤمن إلا نكتت في وجهه بعصا موسى نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة حتى يبيض لها وجهه ، ولا يبقى كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان فتفشو تلك النكتة حتى يسود بها وجهه حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق بكم ذا يا مؤمن بكم ذا يا كافر ؟ وحتى إن أهل البيت يجلسون على مائدتهم فيعرفون مؤمنهم من كافرهم ، ثم تقول لهم الدابة يا فلان أبشر أنت من أهل الجنة ؟ ويا فلان أنت من أهل النار . فذلك قول الله تعالى (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون)

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ * أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن يوم القيامة وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله عز وجل ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا تقريعاً وتوبيخاً وتصغيرا وتحقيرا فقال تعالى (ويوم نحشر من كل أمة فوجاً) أي من كل قوم وقرن فوجاً أي جماعة (ممن يكذب بآياتنا) كما قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) وقال تعالى (وإذا النفوس زوجت) وقوله تعالى (فهم يوزعون) قال ابن عباس رضي الله عنهما : يدفعون وقال قتادة : وزعة : تردأولهم على آخرهم . وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : يساقون (حتى إذا جاءوا) ووقفوا بين يدي الله عز وجل في مقام المساءلة (قال أكذبتم بآياتي

ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون) أى فيسئلون عن اعتقادهم وأعمالهم فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله عنهم (فلا صدق ولا صلى * ولكن كذب وتولى) فحينئذ قامت عليهم الحجة ولم يكن لهم عذر يعتذرون به كما قال الله تعالى (هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون) الآية وهكذا قال ههنا (ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون) أى بهتوا فلم يكن لهم جواب لأنهم كانوا فى الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذى لا تخفى عليه خافية . ثم قال تعالى منبها على قدرته التامة وسلطانه العظيم وشأنه الرفيع الذى تجب طاعته والانقياد لأوامره وتصديق أنبيائه فيما جاءوا به من الحق الذى لا محيد عنه فقال تعالى (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه) أى فى ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه وتهدأ أنفاسهم ويستريحون من نصب التعب فى نهارهم (والنهار مبصرا) أى منيرا مشرقا فبسبب ذلك يتصرفون فى المعايش والمكاسب والأسفار والتجارات وغير ذلك من شئونهم التى يحتاجون إليها (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون)

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ * وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ * مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ * وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع فى الصور وهو كما جاء فى الحديث قرن ينفخ فيه . وفى حديث الصور إن إسرافيل هو الذى ينفخ فيه بأمر الله تعالى فينفخ فيه أولا نفخة الفزع ويطولها وذلك فى آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء فيفزع من فى السموات ومن فى الأرض (إلا من شاء الله) وهم الشهداء فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون قال الإمام مسلم بن الحجاج حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبرى حدثنا أبى حدثنا شعبة عن النعمان ابن سالم سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفى سمعت عبد الله بن عمرو رضى الله عنه وجاءه رجل فقال ما هذا الحديث الذى تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ فقال سبحان الله؟ أو لا إله إلا الله أو كلمة نحوهما لقد هممت أن لا أحدث أحدا شيئا أبدا إنما قلت إنكم سترون بعد قليل أمرا عظيما يحرب البيت ويكون ويكون - ثم قال - قال رسول الله ﷺ « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين - لا أدرى أربعين يوما أو أربعين شهرا أو أربعين عاما - فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدكم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه »قال سمعتها من رسول الله ﷺ قال « فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا فيتمثل لهم الشيطان فيقول ألا تستجيبون فيقولون فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم فى ذلك دار رزقهم حسن عيشهم ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا - قال - وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله - أو قال ينزل الله - مطرا كأنه الطل - أو قال الظل، شعبة الشاك - فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال يا أيها الناس هلموا إلى ربكم وقفوهم إنهم مسئولون ثم يقال أخرجوا بعث النار فيقال من كم فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين قال فذلك يوم يجعل الولدان شيبا وذلك يوم يكشف عن ساق » وقوله ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا . الليت هو صفحة العنق أى أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدا فهذه نفخة الفزع ، ثم بعد ذلك نفخة الصعق وهو الموت ، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين وهو النشور من القبور لجميع

الخلائق ولهذا قال تعالى (وكل أتوه داخرين) قرئ بالمد وبغيره على الفعل وكل بمعنى واحد وداخرين أى صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره كما قال تعالى (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) وقال تعالى (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) وفى حديث الصور أنه فى النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح فتوضع فى ثقب فى الصور ثم ينفخ إسرافيل فيه بعد ما تنبت الأجساد فى قبورها وأماكنها فإذا نفخ فى الصور طارت الأرواح تتوهج أرواح المؤمنين نورا وأرواح الكافرين ظلمة فيقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى جسدها . فتجىء الأرواح إلى أجسادها فتدب فيها كما يدب السم فى اللديغ ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم قال الله تعالى (يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون) وقوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب) أى تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه وهى تمر مر السحاب أى تزول عن أماكنها كما قال تعالى (يوم تمور السماء مورا * وتسير الجبال سيرا) وقال تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا * فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) وقال تعالى (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة) وقوله تعالى (صنع الله الذى أتقن كل شىء) أى يفعل ذلك بقدرته العظيمة (الذى أتقن كل شىء) أى أتقن كل ما خلق وأودع فيه من الحكمة ما أودع (إنه خبير بما يفعلون) أى هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر وسيجازيهم عليه أتم الجزاء . ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال (من جاء بالحسنة فله خير منها) قال قتادة بالإخلاص وقال زين العابدين هى لا إله إلا الله وقد بين تعالى فى الموضع الآخر أن له عشر أمثالها (وهم من فزع يومئذ آمنون) كما قال فى الآية الأخرى (لا يحزنهم الفزع الأكبر) وقال تعالى (أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة) وقال تعالى (وهم فى الغرفات آمنون) وقوله تعالى (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار) أى من لقى الله مسيئاً لا حسنة له أو قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه ولهذا قال تعالى (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) وقال ابن مسعود وابن عباس وأبو هريرة رضى الله عنهم وأنس بن مالك وعطاء وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وإبراهيم النخعى وأبو وائل وأبو صالح ومحمد ابن كعب وزيد بن أسلم والزهرى والسدى والضحاك والحسن وقتادة وابن زيد فى قوله (ومن جاء بالسيئة) يعنى بالشرك .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا رسوله وآمراً له أن يقول (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء) كما قال تعالى (قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم) وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها كما قال تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) ؛ وقوله تعالى (الذى حرمها) أى الذى إنما صارت حراما شرعا وقدرا بتحريمه لها كما ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها » الحديث بتمامه . وقد ثبت فى الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع كما هو مبين فى موضعه من كتاب الأحكام ولله الحمد والمنة . وقوله تعالى : (وله كل شىء) من باب عطف العام على الخاص أى هو رب هذه البلدة ورب كل شىء ومليكه لا إله إلا هو (وأمرت أن أكون من المسلمين) أى الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له . وقوله (وأن أتلو القرآن) أى على الناس

أبلغهم إياه كقوله تعالى (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) وكقوله تعالى (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق) الآية أى أنا مبلغ ومنذر (فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين) أى لى أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم وخلصوا من عهدتهم وحساب أممهم على الله تعالى كقوله تعالى (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وقال (إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل) (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها) أى لله الحمد الذى لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه، والانذار اليه، ولهذا قال تعالى (سيريكم آياته فتعرفونها) كما قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وقوله تعالى (وما ربك بغافل عما تعملون) أى بل هو شهيد على كل شىء. قال ابن أبى حاتم ذكر عن أبى عمر الحوضى حفص بن عمر حدثنا أبو أمية بن يعلى الثقفى حدثنا سعيد بن أبى سعيد سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ «يا أيها الناس لا يغترن أحدكم بالله فان الله لو كان غافلا شيئاً لأغفل البعوضة والخردلة والذرة» وقال أيضا حدثنا محمد بن يحيى حدثنا نصر ابن على قال أبى أخبرنى عن خالد بن قيس عن مطر عن عمر بن عبد العزيز قال: فلو كان الله مغفلا شيئاً لأغفل ما تعفى الرياح من أثر قدمى ابن آدم، وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كان ينشد هذين البيتين إما له وإما لغيره

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل * خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة * ولا أن ما يخفى عليه يغيب

آخر تفسير سورة النمل ولله الحمد والمنة

﴿تفسير سورة القصص وهى مكية﴾

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا يحيى بن آدم حدثنا وكيع عن أبيه عن أبى إسحق عن معديكرب قال أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا طسم المائتين فقال ما هى معى ولكن عليكم بمن أخذها من رسول الله ﷺ خباب بن الأرت قال: فأتينا خباب بن الارت فقرأها علينا رضى الله عنه.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة، وقوله (تلك) أى هذه (آيات الكتاب المبين) أى الواضح الجلى الكاشف عن حقائق الأمور وعلم ما قد كان وما هو كائن. وقوله (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق) الآية كما قال تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص) أى نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهد وكأنك حاضر ثم قال تعالى (إن فرعون علا فى الأرض) أى تكبر وتجبر وطغى (وجعل أهلها شيعاً) أى أصنافا قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته وقوله تعالى (يستضعف طائفة منهم) يعنى بنى إسرائيل وكانوا فى ذلك الوقت خيار أهل زمانهم، هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم فى أخس الأعمال، ويكدهم ليلا ونهارا فى أشغاله وأشغال رعيته ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيى نساءهم إهانة لهم واحتقارا وخوفا من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه. وكانت القبط قد تلقوا هذا من بنى إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية وجرى له مع جبارها

ماجرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون فاحترز فرعون من ذلك وأمر بقتل ذكور بنى إسرائيل ولن ينفع حذر من قدر لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ولكل أجل كتاب ولهذا قال تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض - إلى قوله - يحذرون) وقد فعل تعالى ذلك بهم كما قال تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون - إلى قوله - يعرشون) وقال تعالى (كذلك وأورثناها بنى إسرائيل) أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذى لا يخالف أمره القدرى ولا يغلب بل نفذ حكمه وجرى قلمه فى القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه بل يكون هذا الغلام الذى احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفاً من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفى دارك وغذاؤه من طعامك وأنت تربيه وتدلله وتتفداه وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه لتعلم أن رب السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوى العزيز الشديد المحال الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل خافت القبط أن يفنى بنى إسرائيل فيلون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة فقالوا لفرعون إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم وغلمانهم يقتلون ، ونساؤهم لا يمكن أن تقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال فيخلص إلينا ذلك فأمر بقتل الولدان عاما وتركهم عاما ، فولد هرون عليه السلام فى السنة التى يتركون فيها الولدان ، وولد موسى فى السنة التى يقتلون فيها الولدان ، وكان لفرعون ناس موكلون بذلك وقوابل يدرن على النساء فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها ، فاذا كان وقت ولادتها لا يقبلها إلا نساء القبط فان ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن ، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا قبحهم الله تعالى . فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ولم تفطن لها الدايات ، ولكن لما وضعته ذكراً ضاقت به ذرعاً وخافت عليه خوفاً شديداً وأحبته حباً زائداً وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً ، قال الله تعالى (وألقيت عليك محبة منى) فلما ضاقت به ذرعاً ألهمت فى سرها وألقى فى خلدها ونفث فى روعها كما قال تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل فاتخذت تابوتاً ومهدت فيه مهداً وجعلت ترضع ولدها فاذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعته فى ذلك التابوت وسيرته فى البحر وربطته بحبل عندها فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه فذهبت فوضعته فى ذلك التابوت وأرسلته فى البحر وذهلت أن تربطه فذهب مع الماء واحتمله حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجوارى فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون ولا يدرين مافيه وخشين أن يفتتن عليها فى فتحه دونها ، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه فأوقع الله محبته فى قلبها حين نظرت اليه وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها ولهذا قال (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزناً) الآية قال محمد بن إسحق وغيره اللام هنا لام العاقبة لا لام التعليل لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضى

ما قالوه ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فانه تبقى اللام للتعليل لأن معناه أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله عدوا لهم وحزنا فيكون أبلغ فى إبطال حذرهم منه ولهذا قال تعالى (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) وقد روى عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه كتب كتابا إلى قوم من القدرية فى تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة فى علمه السابق وموسى فى علم الله السابق لفرعون عدو وحزن قال الله تعالى (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وقلتم أنتم لو شاء فرعون أن يكون لموسى وليا وناصرا والله تعالى يقول (ليكون لهم عدوا وحزنا) وقوله تعالى (وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك) الآية يعنى أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفا من أن يكون من بنى إسرائيل فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه وتذب دونه وتحببه إلى فرعون فقالت (قرة عين لى ولك) فقال فرعون أما لك فنعم وأما لى فلا، فكان كذلك وهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه وقد تقدم فى حديث الفتون فى سورة طه هذه القصة بطولها من رواية ابن عباس مرفوعا عند النسائى وغيره. وقوله (عسى أن ينفعنا) وقد حصل لها ذلك وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه. وقوله (أو نتخذه ولدا) أى أرادت أن تتخذه ولدا وتتبناه وذلك أنه لم يكن لها ولد منه وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) أى لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها فى البحر أنه أصبح فارغا أى من كل شىء من أمور الدنيا إلا من موسى قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والضحاك والحسن البصرى وقتادة وغيرهم (إن كادت لتبدى به) أى إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها لولا أن الله ثبتها وصبرها قال الله تعالى (لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته قصيه) أى أمرت ابنتها وكانت كبيرة تعى ما يقال لها فقالت لها (قصيه) أى اتبعى أثره وخذى خبره وتطلبى شأنه من نواحى البلد فخرجت لذلك (فبصرت به عن جنب). قال ابن عباس عن جانب، وقال مجاهد بصرت به عن جنب عن بعيد

وقال قتادة جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون وأحبته امرأة الملك واستطلقته منه عرضوا عليه المراضع التى فى دارهم فلم يقبل منها ثديا وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته فلما رأته بأيديهم عرفته ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها. قال الله تعالى (وحرمنا عليه المراضع من قبل) أى تحريما قدريا وذلك لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضع غير ثدى أمه ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه لترضعه وهى آمنة بعد ما كانت خائفة فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه (قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) قال ابن عباس فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا فى أمرها وقالوا لها وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت لهم نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى سرور الملك ورجاء منفعته فأرسلوها فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحاً شديدا وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء

جزيلا وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة ولكن لكونه وافق ثديها، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت : إن لي بعلا وأولاداً ولا أقدر على المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه في بيتي فعلت فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها النفقة والصلاة والكساوى والإحسان الجزيل فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا في عز وجاه ورزق دارّ . ولهذا جاء في الحديث « مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها » ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل يوم وليلة أو نحوه والله أعلم فسبحان من بيده الأمر ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن الذي يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً وبعد كل ضيق مخرجاً ، ولهذا قال تعالى (فرددناه إلى أمه كي تقر عينها) أي به (ولا تحزن) أي عليه (ولتعلم أن وعد الله حق) أي فيما وعدها من رده إليها وجعله من المرسلين فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين فعاملته في تربيته ماينبغي له طبعا وشرعا . وقوله تعالى (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أي حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس وعاقبته محمودة في نفس الأمر كما قال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) وقال تعالى (فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا)

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى آتاه الله حكما وعلما قال مجاهد يعني النبوة (وكذلك نجزي المحسنين) ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ماكان تعالى قدره له من النبوة والتكليم في قضية قتله ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين فقال تعالى (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) قال ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس وذلك بين المغرب والعشاء . وقال ابن المنكدر عن عطاء بن يسار عن ابن عباس كان ذلك نصف النهار وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة والسدي وقتادة (فوجد فيها رجلين يقتتلان) أي يتضاربان ويتنازعان (هذا من شيعته) أي إسرائيلي (وهذا من عدوه) أي قبطي ، قاله ابن عباس وقتادة والسدي ومحمد بن إسحق ، فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام فوجد موسى فرصة وهي غفلة الناس فعمد إلى القبطي (فوكزه موسى فقضى عليه) قال مجاهد فوكزه أي طعنه بجمع كفه وقال قتادة وكزه بعصا كانت معه فقضى عليه أي كان فيها حتفه فمات (قال) موسى (هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين * قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت علي) أي بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة (فلن أكون ظهيرا) أي معينا (للمجرمين) أي الكافرين بك . المخالفين لأمرك

﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ * فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح (فى المدينة خائفا) أى من معرة ما فعل (يترقب) أى يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر فمر فى بعض الطرق فاذا ذلك الذى استنصره بالأمس على ذلك القبطى يقاتل آخر فلما مر عليه موسى استصرخه على الآخر فقال له موسى (إنك لغوى مبين) أى ظاهر الغواية كثير الشر ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي فاعتقد الاسرائيلي لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك فقال يدفع عن نفسه (يا موسى) أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ؟ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام فلما سمعها ذلك القبطى لقفها من فمه ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده فعلم فرعون بذلك فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّـٰصِحِينَ ﴾

قال تعالى (وجاء رجل) وصفه بالرجولية لأنه خالف الطريق فسلك طريقا أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه فسبق إلى موسى فقال له يا موسى (إن الملأ يأتمرون بك) أى يتشاورون فيك (ليقتلوك فاخرج) أى من البلد (إنى لك من الناصحين)

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّـٰلِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾

لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته فى أمره خرج من مصر وحده ولم يألف ذلك قبله بل كان فى رفاهية ونعمة ورياسة (فخرج منها خائفا يترقب) أى يتلفت (قال رب نجنى من القوم الظالمين) أى من فرعون وملئه فذكروا أن الله سبحانه وتعالى بعث إليه ملكا على فرس فأرشده إلى الطريق فالله أعلم (ولما توجه تلقاء مدين) أى أخذ طريقا سالكا مهيعا فرح بذلك (قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) أى الطريق الأقوم ففعل الله به ذلك وهداه إلى الصراط المستقيم فى الدنيا والآخرة فجعله هاديا مهديا (ولما ورد ماء مدين) أى لما وصل إلى مدين وورد ماءها وكان لها بئر يرده رعاء الشاء (وجد عليه أمة من الناس يسقون) أى جماعة يسقون (ووجد من دونهم امرأتين تذودان) أى تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما (قال ما خطبكما ؟) أى ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ (قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء) أى لا يحصل لنا سقى إلا بعد فراغ هؤلاء (وأبونا شيخ كبير) أى فهذا الحال الملجىء لنا إلى ما ترى قال الله تعالى (فسقى لهما) قال أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا عبيد الله أنبأنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون قال فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال فاذا هو بامرأتين تذودان قال ما خطبكما ؟ فحدثتاه فأتى الحجر فرفعه ثم لم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم ، إسناد صحيح . وقوله تعالى (ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام . إلا البقل وورق الشجر وكان حافيا

فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه وجلس فى الظل وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة . وقوله (إلى الظل) قال ابن عباس وابن مسعود والسدى جلس تحت شجرة ، وقال ابن جرير : حدثنى الحسين بن عمرو العنقزى حدثنا أبى حدثنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله — هو ابن مسعود — قال : حثثت على جمل ليلتين حتى صبحت مدين فسألت عن الشجرة التى أوى إليها موسى فإذا هى شجرة خضراء ترف فأهوى إليها جملى وكان جائعا فأخذها جملى فعالجها ساعة ثم لفظها فدعوت الله لموسى عليه السلام ثم انصرفت ، وفى رواية عن ابن مسعود أنه ذهب إلى الشجرة التى كلم الله منها موسى كما سيأتى إن شاء الله فالله أعلم ، وقال السدى كانت الشجرة من شجر السمر ، وقال عطاء بن السائب لما قال موسى (رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) أسمع المرأة

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

لما رجعت المرأتان سريعا بالغنم إلى أبيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعا فسألهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها قال الله تعالى (فجاءته إحداهما تمشى على استحياء) أى مشى الحرائر كما روى عن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أنه قال : جاءت مستترة بكم درعها ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو نعيم حدثنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون قال : قال عمر رضى الله عنه جاءت تمشى على استحياء قائلة بثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء ولاجة خراجة . هـذا إسناد صحيح ، قال الجوهرى: السلفع من الرجال الجسور ومن النساء الجرية السليطة ومن النوق الشديدة . (قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) وهذا تأدب فى العبارة لم تطلبه طلبا مطلقا لئلا يوهم ريبة بل قالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا يعنى ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا (فلما جاءه وقص عليه القصص) أى ذكر له ما كان من أمره وماجرى له من السبب الذى خرج من أجله من بلده (قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين) يقول طب نفسا وقر عينا فقد خرجت من مملكتهم فلاحكم لهم فى بلادنا ، ولهذا قال (نجوت من القوم الظالمين) وقد اختلفت المفسرون فى هذا الرجل من هو ؟ على أقوال أحدها أنه شعيب النبى عليه السلام الذى أرسل إلى أهل مدين وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء ، وقد قاله الحسن البصرى وغير واحد ، ورواه ابن أبى حاتم حدثنا أبى حـدثنا عبـد العزيز الأزدى حـدثنا مالك بن أنس أنه بلغه أن شعيبا هو الذى قص عليه موسى القصص قال (لاتخف نجوت من القوم الظالمين) وقد روى الطبرانى عن سلمة بن سعد العنزى أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له « مرحبا بقوم شعيب وأختان موسى هديت » وقال آخرون بل كان ابن أخى شعيب وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب وقال آخرون كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه (وما قوم لوط منكم ببعيد) وقد كان هلاك قوم لوط فى زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن ، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة كما ذكره غير واحد . وماقيل إن شعيبا عاش مدة طويلة إنما هو والله أعلم احتراز من هذا الإشكال ثم من القوى لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه

لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن ههنا ، وما جاء فى بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى لم يصح إسناده كما سنذكره قريبا إن شاء الله ، ثم من الموجود فى كتب بنى إسرائيل أن هذا الرجل اسمه ثيرون والله أعلم . قال أبوعبيدة بن عبدالله بن مسعود : ثيرون هو ابن أخى شعيب عليه السلام وعن أبى حمزة عن ابن عباس قال الذى استأجر موسى يثرى صاحب مدين رواه ابن جرير به ثم قال الصواب إن هذا لايدرك إلا بخبر ولا خبر تجب به الحجة فى ذلك وقوله تعالى (قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) أى قالت إحدى ابنتى هذا الرجل قيل هى التى ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت لأبيها (يا أبت استأجره) أى لرعية هذه الغنم قال عمر وابن عباس وشريح القاضى وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحق وغير واحد لما قالت (إن خير من استأجرت القوى الأمين) قال لها أبوها وما علمك بذلك ؟ قالت له إنه رفع الصخرة التى لايطيق حملها إلا عشرة رجال وإنى لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لى كونى من ورائى فاذا اختلف على الطريق فاحذفى لى بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدى اليه . وقال سفيان الثورى عن أبى إسحق عن أبى عبيدة عن عبد الله هو ابن مسعود قال . أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس فى عمر صاحب ويوسف حين قال أكرمى مثواه وصاحبة موسى حين قالت : (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين * قال (إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين) أى طلب اليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين ، قال شعيب الجبائى وهما صفوريا وليا وقال محمد بن إسحق صفوريا وشرفا ويقال ليا وقد استدل أصحاب أبى حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال بعتك أحد هذين العبدين بمائة فقال : اشتريت ، أنه يصح والله أعلم ، وقوله (على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك) أى على أن ترعى غنمى ثمانى سنين فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو اليك وإلا فنى الثمان كفاية (وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) أى لاأشاقك ولا أؤاذيك ولا أماريك وقد استدلوا بهذه الآية الكريمة لمذهب الأوزاعى فيما إذا قال بعتك هذا بعشرة نقداً أو بعشرين نسيئة أنه يصح ويختار المشترى بأيهما أخذه صح ، وحمل الحديث المروى فى سنن أبى داود « من باع بيعتين فى بيعة فله أوكسهما أو الربا » على هذا المذهب ، وفى الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذه المذهب نظر ليس هذا موضع بسطه لطوله . والله أعلم . ثم قد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم فى صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية واستأنسوا فى ذلك بما رواه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه فى كتابه السنن حيث قال باب استئجار الأجير على طعام بطنه حدثنا محمد حدثنا محمد بن المصفى حدثنا بقية بن الوليد عن مسلمة ابن على عن سعيد بن أبى أيوب عن الحارث بن يزيد عن على بن رباح قال سمعت عتبة بن المنذر السلمى يقول كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ طسم حتى إذا بلغ قصة موسى قال « إن موسى آجر نفسه ثمانى سنين أو عشر سنين على عفة فرجه وطعام بطنه » وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف لأن مسلمة بن على وهو الخشنى الدمشقى البلاطى ضعيف الرواية عند الأئمة ولكن قد روى من وجه آخر وفيه نظر أيضا وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبدالله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمى عن على بن رباح اللخمى قال سمعت عتبة بن المنذر السلمى صاحب رسول الله ﷺ يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه » وقوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام (قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلاعدوان على والله على ما نقول وكيل) يقول إن موسى قال لصهره الأمر على ماقلت من أنك استأجرتنى على ثمان سنين فإن أتممت عشراً فمن عندى فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط ولهذا قال (أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على) أى فلا حرج على مع أن الكامل وإن كان مباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى بدليل من خارج كما قال تعالى (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحمزة بن عمرو الأسلمى رضى الله عنه وكان كثير الصيام وسأله عن الصوم فى السفر فقال « إن شئت فصم وإن شئت فأفطر » مع أن فعل الصيام راجح من دليل آخر ، هذا وقد دل الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين

وأتمهما وقال البخاري حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مروان بن شجاع عن سالم الأفطس عن سعيد ابن جبير قال: قال سألني يهودي من أهل الحيرة أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت على ابن عباس رضي الله عنه فسألته فقال قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل. هكذا رواه حكيم بن جبير وغيره عن سعيد بن جبير، ووقع في حديث الفتون من رواية القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير أن الذي سأله رجل من أهل النصرانية والأول أشبه والله أعلم. وقد روى من حديث ابن عباس مرفوعا قال ابن جرير حدثنا أحمد بن محمد الطوسي حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثني إبراهيم بن يحيي بن أبي يعقوب عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى قال أتمهما وأكملهما» ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن الحميدي عن سفيان وهو ابن عيينة حدثني إبراهيم بن يحيي بن أبي يعقوب وكان من أسناني أو أصغر مني فذكره. وفي إسناده قلب وإبراهيم هذا ليس بمعروف. ورواه البزار عن أحمد بن أبان القرشي عن سفيان ابن عيينة عن إبراهيم بن أعين عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ فذكره ثم قال لا نعرفه مرفوعا عن ابن عباس إلا من هذا الوجه. ثم قال ابن أبي حاتم قرئ على يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحارث عن يحيي بن ميمون الحضرمي عن يوسف بن تيرح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي الأجلين قضى موسى؟ قال «لا علم لي» فسأل رسول الله ﷺ جبريل فقال جبريل: لا علم لي، فسأل جبريل ملكا فوقه فقال: لا علم لي، فسأل ذلك الملك ربه عز وجل عما سأله عنه جبريل عما سأله عنه محمد صلى الله عليه وسلم فقال الرب عز وجل: قضى أبرهما وأبقاهما أو قال أزكاهما. وهذا مرسل وقد جاء مرسلا من وجه آخر وقال سنيد حدثنا حجاج عن ابن جريج قال: قال مجاهد إن النبي صلى الله عليه وسلم سأل جبريل أي الأجلين قضى موسى؟ فقال سوف أسأل إسرافيل فسأله فقال سوف أسأل الرب عز وجل فسأله فقال أبرهما وأوفاهما ﴿طريق أخرى مرسلة أيضا﴾ قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظي قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأجلين قضى موسى قال «أوفاهما وأتمهما» فهذه طرق متعاضدة ثم قد روى هذا مرفوعاً من رواية أبي ذر رضي الله عنه. قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أبو عبيد الله يحيي بن محمد بن السكن حدثنا إسحق بن إدريس حدثنا عويذ بن أبي عمران الجوني عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل أي الأجلين قضى موسى؟ - قال - «أوفاهما وأبرهما - قال - وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما» ثم قال البزار لا نعلم يروى عن أبي ذر إلا بهذا الاسناد. وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث عويذ بن أبي عمران وهو ضعيف ثم قد روى أيضا نحوه من حديث عتبة بن المنذر بزيادة غريبة جدا فقال أبو بكر البزار حدثنا عمر بن الخطاب السجستاني حدثنا يحيي بن بكير حدثنا ابن لهيعة حدثنا الحارث بن يزيد عن علي بن رباح اللخمي قال سمعت عتبة ابن المنذر يقول إن رسول الله ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى قال «أبرهما وأوفاهما» ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم «إن موسى عليه السلام لما أراد فراق شعيب عليه السلام أمر امرأته أن تسأل أباها ان يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت غنمه في ذلك العام من قالب لون قال فما مرت شاة إلا ضرب موسى جنبها بعصاه فولدت قوالب ألوان كلها وولدت ثنتين وثلاثا كل شاة ليس فيها فشوش ولا ضبوب ولا كميشة تفوت الكف ولا ثغول» وقال رسول الله ﷺ «إذا فتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها وهي السامرية» هكذا أورده البزار، وقد رواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا فقال حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيي بن عبد الله بن بكير حدثني عبد الله بن لهيعة ح وحدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان أنبأنا الوليد أنبأنا عبد الله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح اللخمي قال سمعت عتبة بن المنذر السلمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه فلما وفى الأجل

ـ قيل يارسول الله أى الأجلين ؟ ـ قال أبرهما وأوفاهما ، فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت غنمه من قالب لون من ولد ذلك العام وكانت غنمه سوداء حسناء فانطلق موسى عليه السلام إلى عصاه فسماها من طرفها ثم وضعها فى أدنى الحوض ثم أوردها فسقاها ووقف موسى بازاء الحوض فلم تصدر منها شاة إلا وضرب جنبها شاة شاة قال فأتأمت وألبنت ووضعت كلها قوالب ألوان إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش قال يحيى ولا ضبون وقال صفوان ولا صبوب قال أبو زرعة الصواب طنوب ولا عزوز ولا ثعول ولا كميشة تفوت الكف قال النبى صلى الله عليه وسلم « لو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهى السامرية» وحدثنا أبو زرعة أنبأنا صفوان قال سمعت الوليد قال سألت ابن لهيعة ما الفشوش ؟ قال التى تفش بلبنها واسعة الشخب قلت فما الضبوب قال الطويلة الضرع تجره قلت فما العزوز قال ضيقة الشخب قال فما الثعول ؟ قال التى ليس لها ضرع إلا كهيئة حلمتين قلت فما الكميشة ؟ قال التى تفوت الكف كميشة الضرع صغير لا يدركه الكف . مدار هذا الحديث على عبد الله بن لهيعة المصرى وفى حفظه سوء وأخشى أن يكون رفعه خطأ والله أعلم . وينبغى أن يروى ليس فيها فشوش ولا عزوز ولاضبوب ولا ثعول ولا كميشة لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة وقد روى ابن جرير من كلام أنس بن مالك موقوفا عليه ما يقارب بعضه بإسناد جيد فقال حدثنا محمد بن المثنى حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبى حدثنا قتادة حدثنا أنس بن مالك رضى الله عنه قال لما دعا نبى الله موسى عليه السلام صاحبه إلى الأجل الذى كان بينهما قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها فلك ولدها فعمد موسى فرفع حبالا على الماء فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة فولدن كلهن بلقا إلا شاة واحدا فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ * ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

قد تقدم فى تفسير الآية قبلها أن موسى عليه السلام قضى أتم الأجلين وأوفاها وأبرها وأكلهما وأتقاهما وقد يستفاد هذا أيضا من الآية الكريمة حيث قال تعالى (فلما قضى موسى الأجل) أى الأكمل منهما والله أعلم ، وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد قضى عشر سنين وبعدها عشرا أخر ، وهذا القول لم أره لغيره وقد حكاه عنه ابن أبى حاتم وابن جرير فالله أعلم ، وقوله (وسار بأهله) قالوا كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله فعزم على زيارتهم فى خفية من فرعون وقومه فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره فسلك بهم فى ليلة مطيرة مظلمة باردة فنزل منزلا فجعل كلما أورى زنده لا يضىء شيئا فتعجب من ذلك ، فبينما هو كذلك (آنس من جانب الطور نارا) أى رأى نارا تضىء على بعد (فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا) أى حتى أذهب إليها (لعلى آتيكم منها بخبر) وذلك لأنه قد أضل الطريق (أوجذوة من النار) أى قطعة منها (لعلكم تصطلون) أى تستدفئون بها من البرد قال الله تعالى (فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن) أى من جانب الوادى مما يلى الجبل عن يمينه من ناحية الغرب كما قال تعالى (وما كنت

بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر) فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة والجبل الغربى عن يمينه والنار وجدها تضطرم فى شجرة خضراء فى لحف الجبل مما يلى الوادى فوقف باهتا فى أمرها فناداه ربه (من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة) قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن عبد الله قال : رأيت الشجرة التى نودى منها موسى عليه السلام سمرة خضراء ترف إسناده مقارب ، وقال محمد بن إسحق عن بعض من لا يتهم عن وهب بن منبه قال : شجرة من العليق وبعض أهل الكتاب يقول إنها من العوسج وقال قتادة هى من العوسج وعصاه من العوسج ، وقوله تعالى (أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين) أى الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين الفعال لما يشاء لا إله غيره ولا رب سواه تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه . وقوله (وأن ألق عصاك) أى التى فى يدك كما قرره على ذلك فى قوله تعالى (وما تلك بيمينك يا موسى ؟ قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى) والمعنى أما هذه عصاك التى تعرفها (ألقها فألقاها فإذا هى حية تسعى) فعرف وتحقق أن الذى يكلمه ويخاطبه هو الذى يقول للشىء كن فيكون كما تقدم بيان ذلك فى سورة طه : وقال ههنا (فلما رآها تهتز)أى تضطرب (كأنها جان ولى مدبرا) أى فى حركتها السريعة مع عظم خلقتها وقوائمها واتساع فمها واصطكاك أنيابها وأضراسها بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها تنحدر فى فيها تتقعقع كأنها حادرة فى واد فعند ذلك (ولى مدبرا ولم يعقب) أى ولم يكن يلتفت لأن طبع البشرية ينفر من ذلك فلما قال الله (ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) رجع فوقف فى مقامه الأول ثم قال الله تعالى (اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء)أى إذا أدخلت يدك فى جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر فى لمعان البرق ،ولهذا قال(من غير سوء)أى من غير برص وقوله تعالى(واضمم إليك جناحك من الرهب) قال مجاهد من الفزع وقال قتادة من الرعب وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير مما حصل لك من خوفك من الحية والظاهر أن المراد أعم من هذا وهو أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شىء أن يضم إليه جناحه من الرهب وهو يده فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده فإنه يزول عنه ما يجده أو يخف إن شاء الله تعالى وبه الثقة . قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا الربيع بن تغلب الشيخ صالح أخبرنا أبو إسماعيل المؤدب عن عبد الله بن مسلم عن مجاهد قال : كان موسى عليه السلام قد ملىء قلبه رعبا من فرعون فكان إذا رآه قال : اللهم إنى أدرأ بك فى نحره وأعوذ بك من شره فنزع الله ما كان فى قلب موسى عليه السلام وجعله فى قلب فرعون فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار . وقوله تعالى (فذانك برهانان من ربك) يعنى إلقاء العصا وجعلها حية تسعى ، وإدخاله يده فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ولهذا قال تعالى (إلى فرعون وملئه) أى وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع (إنهم كانوا قوما فاسقين) أى خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون الذى إنما خرج من ديار مصر فرارا منه وخوفا من سطوته (قال رب إنى قتلت منهم نفسا) يعنى ذلك القبطى (فأخاف أن يقتلون) أى إذا رأونى (وأخى هارون هو أفصح منى لسانا) وذلك أن موسى عليه السلام كان فى لسانه لثغة بسبب ما كان تناول تلك الجمرة حين خير بينها وبين التمرة أو الدرة فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه فحصل فيه شدة فى التعبير ولهذا قال (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى * واجعل

لى وزيراً من أهلى هارون أخى اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى) أى يؤنسنى فيما أمرتنى به من هـذا المقام العظيم وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد ولهذا قال (وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءا) أى وزيراً ومعيناً ومقويا لأمرى يصدقنى فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل لأن خبر الاثنين أنجع فى النفوس من خبر الواحد ولهذا قال (إنى أخاف أن يكذبون) وقال محمد بن إسحاق (ردءا يصدقنى) أى يبين لهم عنى ما أ كلمهم به فانه يفهم عنى ما لا يفهمون فلما سأل ذلك موسى قال الله تعالى (سنشد عضدك بأخيك) أى سنقوى أمرك ونعز جانبك بأخيك الذى سألت له أن يكون نبيا معك كما قال فى الآية الأخرى (قد أوتيت سؤلك ياموسى) وقال تعالى (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) ولهذا قال بعض السلف ليس أحد أعظم منة على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام فانه شفع فيه حتى جعله الله نبيا ورسولا معه إلى فرعون وملئه ولهذا قال تعالى فى حق موسى (وكان عند الله وجيها) وقوله تعالى (ونجعل لكما سلطانا) أى حجة قاهرة (فلا يصلون إليكما بآياتنا) أى لاسبيل لهم إلى الوصول إلى أذا كما بسبب إبلاغكما آيات الله كما قال تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ـ إلى قوله ـ والله يعصمك من الناس) وقال تعالى (الذين يبلغون رسـالات الله ـ إلى قوله ـ وكفى بالله حسيباً) أى وكفى بالله ناصراً ومعينا ومؤيداً ولهـذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما فى الدنيا والآخرة فقال تعالى (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) كما قال تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز) وقال تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا) إلى آخر الآية ووجه ابن جرير على أن المعنى ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما ثم يبتدىء فيقول (بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) تقديره أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا ، ولاشك أن هذا المعنى صحيح وهو حاصل من التوجيه الأول فلا حاجة إلى هذا والله أعلم

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن مجىء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عزوجل من توحيده واتباع أوامره فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه وأيقنوا أنه من عند الله عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهتة وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق فقالوا (ما هـذا إلا سحر مفترى) أى مفتعل مصنوع وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما صعد معهم ذلك . وقوله (وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) يعنون عبادة الله وحده لاشريك له، يقولون ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى فقال موسى عليه السلام مجيباً لهم (ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده) يعنى منى ومنكم ، وسيفصل بينى وبينكم ولهذا قال (ومن تكون له عاقبة الدار) أى من النصرة والظفر والتأييد (إنه لا يفلح الظالمون) أى المشركون بالله عز وجل

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه فى دعواه الالهية لنفسه القبيحة لعنه الله كما قال الله تعالى (فاستخف قومه فأطاعوه) الآية وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافه أذهانهم ولهذا قال (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) وقال تعالى إخبارا عنه (فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى * إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) يعنى أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالى مصرحا لهم بذلك فأجابوه سامعين مطيعين ولهذا انتقم الله تعالى منه فجعله عبرة لغيره فى الدنيا والآخرة وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك فقال (لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) وقوله (فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى) يعنى أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين يعنى يتخذ له آجراً لبناء الصرح وهو القصر المنيف الرفيع العالى كما قال فى الآية الأخرى (وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب) وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذى لم ير فى الدنيا بناء أعلى منه إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون ولهذا قال (وإنى لأظنه من الكاذبين) أى فى قوله إن ثم ربا غيرى لا أنه كذبه فى أن الله تعالى أرسله لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا فانه قال (ومارب العالمين ؟) وقال (لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) وقال (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) وهذا قول ابن جرير . وقوله تعالى (واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون) أى طغوا وتجبروا وأكثروا فى الأرض الفساد واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد (فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد) ولهذا قال تعالى ههنا (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) أى أغرقناهم فى البحر فى صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحد (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار) أى لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم فى تكذيب الرسل وتعطيل الصانع (ويوم القيامة لا ينصرون) أى فاجتمع عليهم خزى الدنيا موصولا بذل الآخرة كما قال تعالى (أهلكناهم فلا ناصر لهم) وقوله تعالى (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) أى وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله كما أنهم فى الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم كذلك (ويوم القيامة هم من المقبوحين) قال قتادة : وهذه الآية كقوله تعالى (وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم ، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم ، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه . وقوله تعالى (من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) يعنى أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين كما قال تعالى (وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة * فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية) وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا محمد وعبد الوهاب قالا حدثنا عوف عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض بعد ما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية الذين مسخوا قردة بعد موسى ثم قرأ (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) الآية ورواه ابن أبى حاتم من حديث عوف بن أبى جميلة الأعرابى بنحوه وهكذا رواه أبو بكر البزار فى مسنده عن عمرو بن على الفلاس عن يحيى القطان عن عوف عن أبى نضرة عن أبى سعيد موقوفا ثم رواه عن نصر بن على عن عبد الأعلى عن عوف عن أبى نضرة عن أبى سعيد رفعه إلى النبى ﷺ قال « ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى » ثم قرأ (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) الآية.

وقوله (بصائر للناس وهدى ورحمة) أي من العمى والغي وهدى إلى الحق ورحمة أي إرشادا إلى العمل الصالح (لعلهم يتذكرون) أي لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بسببه

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى منبها على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبرا كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم وهو رجل أمي لا يقرأ شيئا من الكتب نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها قال تعالى (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) الآية أي وما كنت حاضرا لذلك ولكن الله أوحاه اليك ، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه وما كان من إنجاء الله وإغراق قومه ثم قال تعالى (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) الآية وقال في آخر السورة (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك) وقال بعد ذكر قصة يوسف (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) الآية وقال في سورة طه (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) الآية وقال ههنا بعدما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) يعني ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطىء الوادي (وما كنت من الشاهدين) لذلك ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى اليك ذلك ليكون حجة وبرهانا على قرون قد تطاول عهدها ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين : وقوله تعالى (وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا) أي وما كنت مقيما في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه (ولكنا كنا مرسلين) أي ولكن نحن أوحينا إليك ذلك وأرسلناك إلى الناس رسولاً (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) قال أبو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه أخبرنا علي بن حجر أخبرنا عيسى بن يونس عن حمزة الزيات عن الأعمش عن علي بن مدرك عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) قال نودوا أن: يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني وأجبتكم قبل أن تدعوني وهكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث جماعة عن حمزة وهو ابن حبيب الزيات عن الأعمش ورواه ابن جرير من حديث وكيع ويحيى بن عيسى عن الأعمش عن علي بن مدرك عن أبي زرعة وهو ابن عمرو بن جرير أنه قال ذلك من كلامه والله أعلم .

وقال مقاتل بن حيان (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت. وقال قتادة (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) موسى وهذا والله أعلم أشبه بقوله تعالى (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) ثم أخبر ههنا بصيغة أخرى أخص من ذلك وهو النداء كما قال تعالى (وإذ نادى ربك موسى) وقال تعالى (إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى) وقال تعالى (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا) وقوله تعالى (ولكن رحمة من ربك) أي ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك ولكن الله تعالى أوحاه اليك وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد بإرسالك اليهم (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) أي لعلهم يهتدون بما جئتهم به

من الله عز وجل (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) الآية أى وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ولينقطع عذرهم إذاجاءهم عذاب من الله بكفرهم فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) وقال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقال تعالى (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير) الآية والآيات فى هذا كثيرة

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد صلى الله عليه وسلم قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد (لولا أوتى مثل ما أوتى موسى) الآية يعنون والله أعلم من الآيات الكثيرة مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتنقيص الزروع والثمار مما يضيق على أعداء الله وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة ، التى أجراها الله تعالى على يدى موسى عليه السلام حجة وبرهاناً له على فرعون وملئه وبنى إسرائيل ، ومع هذا كله لم ينجع فى فرعون وملئه بل كفروا بموسى وأخيه هرون كما قالوا لهما (أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ومانحن لكما بمؤمنين) وقال تعالى (فكذبوهما فكانوا من المهلكين) ولهذا قال هاهنا (أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل) أى أولم يكفر البشر بما أوتى موسى من تلك الآيات العظيمة (قالوا ساحران تظاهرا) أى تعاونا (وقالوا إنا بكل كافرون) أى بكل منهما كافرون ، ولشدة التلازم والتصاحب والمقاربة بين موسى وهرون دل ذكر أحدهما على الآخر كما قال الشاعر :

فما أدرى إذا يممت أرضا أريد الخير أيهما يلينى

أى فما أدرى يلينى الخير أو الشر . قال مجاهد : أمرت اليهود قريشا أن يقولوا لمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك فقال الله (أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا) قال يعنى موسى وهرون صلى الله عليهما وسلم (تظاهرا) أى تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر ؟ وبهذا قال سعيد بن جبير وأبورزين فى قوله (ساحران) يعنون موسى وهرون وهذا قول جيد قوى والله أعلم ، وقال مسلم بن يسار عن ابن عباس (قالوا ساحران تظاهرا) قال يعنون موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم وهذا رواية الحسن البصرى . وقال الحسن وقتادة يعنى عيسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم وهذا فيه بعد لأن عيسى لم يجر له ذكر ههنا والله أعلم . وأما من قرأ (سحران تظاهرا) فقال على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس يعنون التوراة والقرآن وكذا قال عاصم الجندى والسدى وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال السدى : يعنى صدق كل واحد منهما الآخر وقال ، عكرمة : يعنون التوراة والإنجيل وهو رواية عن أبى زرعة واختاره ابن جرير . وقال الضحاك وقتادة . الإنجيل والقرآن والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب والظاهر على قراءة (سحران) أنهم يعنون التوراة والقرآن لأنه قال بعده (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه) وكثيراً مايقرن الله

بين التوراة والقرآن كما فى قوله تعالى (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ـ إلى أن قال ـ وهذا كتاب أنزلناه مبارك) وقال فى آخر السورة (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن) الآية وقال (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) وقالت الجن (إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه) وقال ورقة بن نوفل : هذا الناموس الذى أنزل على موسى . وقد علم بالضرورة لذوى الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتابا من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن وبعده فى الشرف والعظمة الكتاب الذى أنزله على موسى بن عمران عليه السلام وهو الكتاب الذى قال الله فيه (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء) والإنجيل إنما أنزل متمما للتوراة ومحلا لبعض ماحرم على بنى إسرائيل ولهذا قال تعالى (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين) أى فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل قال الله تعالى (فإن لم يستجيبوا لك) أى فان لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق (فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) أى بلا دليل ولا حجة (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) أى بغير حجة مأخوذة من كتاب الله (إن الله لا يهدى القوم الظالمين) . وقوله تعالى (ولقد وصلنا لهم القول) قال مجاهد فصلنا لهم القول . وقال السدى بينا لهم القول وقال قتادة : يقول تعالى أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع (لعلهم يتذكرون) قال مجاهد وغيره (وصلنا لهم) يعنى قريشا وهذا هو الظاهر لكن قال حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة عن رفاعة ـ رفاعة هذا هو ابن قرظة القرظى ، وجعله ابن منده : رفاعة بن شموال خال صفية بنت حيي وهو الذى طلق تميمة بنت وهب التى تزوجها بعده عبد الرحمن ابن الزبير بن باطا ، كذا ذكره ابن الأثير ـ قال نزلت (ولقد وصلنا لهم القول) فى عشرة أنا أحدهم . رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديثه

﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَٰهِلِينَ ﴾

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن كما قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) وقال تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله) وقال تعالى (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) وقال تعالى (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ـ إلى قوله ـ فاكتبنا مع الشاهدين) قال سعيد بن جبير نزلت فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى فلما قدموا على النبى ﷺ قرأ عليهم (يس والقرآن الحكيم) حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) يعنى من قبل هذا القرآن كنا مسلمين أى موحدين مخلصين لله مستجيبين له . قال الله تعالى (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) أى هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثانى ولهذا قال (بما صبروا) أى على اتباع الحق فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس وقد ورد فى الصحيح من حديث عامر الشعبى عن أبى بردة عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين . رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها

ثم أعتقها فتزوجها » . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحق السيلحيني حدثنا ابن لهيعة عن سليمان بن عبد الرحمن عن القاسم بن أبي أمامة قال : إني لتحت راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فقال قولا حسناً جميلا وقال فيما قال « من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين وله مالنا وعليه ما علينا » وقوله تعالى (ويدرءون بالحسنة السيئة) أي لا يقابلون السيء بمثله ولكن يعفون ويصفحون (ومما رزقناهم ينفقون) أي ومن الذي رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله في النفقات الواجبة لأهليهم وأقاربهم والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات وصدقات النفل والقربات وقوله تعالى (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) أي لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم بل كما قال تعالى (وإذا مروا باللغو مروا كراما) (وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) أي إذا سفه عليهم سفيه وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب ؛ ولهذا قال عنهم إنهم قالوا (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) أي لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها . قال محمد بن إسحق في السيرة ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه في المسجد فجلسوا اليه وكلموه وسألوه ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ما نعلم ركبا أحمق منكم أو كما قالوا لهم فقالوا لهم سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه لم نأل أنفسنا خيرا . قال ويقال إن النفر النصارى من أهل نجران فالله أعلم أي ذلك كان . قال ويقال والله أعلم ان فيهم نزلت هذه الآيات (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون - إلى قوله - لا نبتغي الجاهلين) قال وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت قال مازلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه رضي الله عنهم والآيات اللاتي في سورة المائدة (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا - إلى قوله - فاكتبنا مع الشاهدين)

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم إنك يا محمد (لا تهدي من أحببت) أي ليس إليك ذلك إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة كما قال تعالى (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) . وقال تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وهذه الآية أخص من هذا كله فانه قال (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه ويحبه حبا شديدا طبعيا لا شرعيا فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والدخول في الإسلام فسبق القدر فيه واختطف من يده فاستمر على ما كان عليه من الكفر ولله الحكمة التامة قال الزهري حدثني سعيد بن المسيب عن أبيه وهو المسيب بن حزن المخزومي رضي الله عنه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية ابن المغيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياعم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل

وعبد الله بن أبي أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله لأستغفرن لك مالم أنه عنك » فأنزل الله تعالى (ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى) وأنزل في أبي طالب (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) أخرجاه من حديث الزهري وهكذا رواه مسلم في صحيحه والترمذي من حديث يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال « يا عماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة » فقال لولا أن تعيرني بها قريش يقولون ما حمله عليه إلا جزع الموت لأقررت بها عينك لا أقولها إلا لأقر بها عينك فأنزل الله تعالى (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن كيسان ، ورواه الإمام أحمد عن يحيى بن سعيد القطان عن يزيد بن كيسان حدثني أبو حازم عن أبي هريرة فذكره بنحوه وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة انها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه رسول الله ﷺ أن يقول لا إله إلا الله فأبى عليه ذلك وقال أي ابن أخي ملة الأشياخ وكان آخر ما قاله هو على ملة عبد المطلب وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة حدثنا عبد الله ابن عثمان بن خثيم عن سعيد بن أبي راشد قال كان رسول قيصر جاء إلي قال كتب معي قيصر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا فأتيته فدفعت الكتاب فوضعه في حجره ثم قال « ممن الرجل ؟ » قلت من تنوخ قال « هل لك في دين أبيك إبراهيم الحنيفية » قلت إني رسول قوم وعلى دينهم حتى أرجع إليهم فضحك رسول الله ﷺ ونظر إلى أصحابه وقال « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » وقوله تعالى (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) يقول تعالى مخبرا عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ويتخطفونا أينما كنا قال الله تعالى مجيبا لهم (أو لم نمكن لهم حرما آمنا) يعني هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين وحرم معظم آمن منذ وضع فكيف يكون هذا الحرم آمنا لهم في حال كفرهم وشركهم ولا يكون آمنا لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟ وقوله تعالى (يجبى إليه ثمرات كل شيء) أي من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره وكذلك المتاجر والأمتعة (رزقا من لدنا) أي من عندنا (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ولهذا قالوا ما قالوا وقد قال النسائي أنبأنا الحسن بن محمد حدثنا الحجاج عن ابن جريج أخبرني ابن أبي مليكة قال : قال عمرو بن شعيب عن ابن عباس ولم يسمعه منه أن الحارث بن عامر بن نوفل الذي قال (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا)

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾

يقول تعالى معرضاً بأهل مكة في قوله تعالى (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) أي طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق كما قال في الآية الأخرى (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان — إلى قوله — فأخذهم العذاب وهم ظالمون) ولهذا قال تعالى (فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) أي دثرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم وقوله تعالى (وكنا نحن الوارثين) أي رجعت خرابا ليس فيها أحد وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا عن ابن مسعود أنه سمع كعبا يقول لعمر : إن سليمان عليه السلام قال للهامة

يعني البومة ـ مالك لا تأكلين الزرع ؟ قالت : لأنه أخرج آدم من الجنة بسببه ، قال فمالك لا تشربين الماء ؟ قالت لأن الله تعالى أغرق قوم نوح به ، قال فمالك لا تأوين إلى الخراب ؟ قالت لأنه ميراث الله تعالى ثم تلا (وكنا نحن الوارثين) ثم قال تعالى مخبرا عن عدله وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ولهذا قال (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها) وهى مكة (رسولا يتلو عليهم آياتنا) فيه دلالة على أن النبى الأمى وهو محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث من أم القرى رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجام كما قال تعالى (لتنذر أم القرى ومن حولها) وقال تعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) وقال (لأنذركم به ومن بلغ) وقال (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) وتمام الدليل قوله تعالى (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديداً) الآية فأخبر تعالى أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة وقد قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فجعل تعالى بعثة النبى الأمى شاملة لجميع القرى لأنه مبعوث إلى أمها وأصلها التى ترجع إليها وثبت فى الصحيحين عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال « بعثت إلى الأحمر والأسود » ولهذا ختم به النبوة والرسالة فلا نبى بعده ولا رسول بل شرعه باق ببقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة وقيل المراد بقوله (حتى يبعث فى أمها رسولا) أى أصلها وعظيمتها كأمهات الرساتيق والأقاليم ، حكاه الزمخشرى وابن الجوزى وغيرهما وليس ببعيد

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين فى الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم كما قال تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) وقال (وما عند الله خير للأبرار) وقال (وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع) وقال تعالى (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله ما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم اصبعه فى اليم فلينظر ماذا يرجع إليه » وقوله تعالى (أفلا تعقلون ؟) أى أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة . وقوله تعالى (أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين) يقول تعالى : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب الذى هو صائر إليه لا محالة كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده فهو ممتع فى الحياة الدنيا أياما قلائل (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) قال مجاهد وقتادة من المعذبين ثم قد قيل إنها نزلت فى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى أبى جهل . وقيل فى حمزة وعلى وأبى جهل وكلاهما عن مجاهد والظاهر أنها عامة وهذا كقوله تعالى إخباراً عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه وهو فى الدرجات وذاك فى الدركات فقال (ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين) وقال تعالى (ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون)

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۞ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۞ وَقِيلَ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ۞ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ۞ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول (أين شركائى الذين كنتم تزعمون) يعنى أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدار الدنيا من الأصنام والأنداد هل ينصرونكم أو ينتصرون ، وهذا على سبيل التقريع والتهديد كما قال تعالى (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون). وقوله (قال الذين حق عليهم القول) يعنى الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر (ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون) فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم ثم تبرءوا من عبادتهم كما قال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) وقال تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقال الخليل عليه السلام لقومه (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) الآية وقال الله تعالى (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب - إلى قوله - وما هم بخارجين من النار) ولهذا قال (وقيل ادعوا شركاءكم) أى ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم فى الدار الدنيا (فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب) أى وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة . وقوله (لو أنهم كانوا يهتدون) أى فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين فى الدار الدنيا وهذا كقوله تعالى (ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا * ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا) . وقوله (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) النداء الأول عن سؤال التوحيد وهذا فيه إثبات النبوات ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم وكيف كان حالكم معهم وهذا كما يسئل العبد فى قبره . من ربك ومن نبيك ومادينك ؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأما الكافر فيقول هاه هاه لا أدرى ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت لأن من كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ولهذا قال تعالى (فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون) قال مجاهد فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب وقوله (فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً) أى فى الدنيا (فعسى أن يكون من المفلحين) أى يوم القيامة وعسى من الله موجبة فان هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، وأنه ليس له فى ذلك منازع ولا معقب قال تعالى (وربك يخلق مايشاء ويختار) أى ما يشاء فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ومرجعها إليه . وقوله (ما كان لهم الخيرة) نفى على أصح القولين كقوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) وقد اختار ابن جرير أن (ما) ههنا بمعنى الذى تقديره : ويختار الذى لهم فيه خيرة، وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح ، والصحيح أنها نافية كما نقله ابن أبى حاتم عن ابن عباس وغيره أيضاً فان المقام فى بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار وأنه لا نظير له فى ذلك ولهذا قال (سبحان الله وتعالى عما يشركون) أى من الأصنام والأنداد التى لا تخلق ولا تختار شيئاً ثم قال تعالى (وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) أى يعلم ما تكن الضمائر ، وما تنطوى عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) . وقوله

(وهو الله لا إله إلا هو) أى هو المنفرد بالإلهية فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه (له الحمد فى الأولى والآخرة) أى فى جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته (وله الحكم) أى الذى لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته (وإليه ترجعون) أى جميعكم يوم القيامة فيجزى كل عامل بعمله من خير وشر ولا يخفى عليه منهم خافية فى سائر الأعمال

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

يقول تعالى ممتنا على عباده بما سخرلهم من الليل والنهار اللذين لاقوام لهم بدونهما وبين أنه لوجعل الليل دائما عليهم سرمداً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ولسئمته النفوس وانحصرت منه ولهذا قال تعالى (من إله غير الله يأتيكم بضياء) أى تبصرون به وتستأنسون بسببه (أفلا تسمعون ؟) ثم أخبر تعالى أنه لوجعل النهار سرمدا أى دائما مستمرا إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال ولهذا قال تعالى (من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه) أى تستريحون من حركاتكم وأشغالكم (أفلا تبصرون ؟ * ومن رحمته) أى بكم (جعل لكم الليل والنهار) أى خلق هذا وهذا (لتسكنوا فيه) أى فى الليل (ولتبتغوا من فضله) أى فى النهار بالأسفار والترحال، والحركات والأشغال ، وهذا من باب اللف والنشر . وقوله (ولعلكم تشكرون) أى تشكرون الله بأنواع العبادات فى الليل والنهار ، ومن فاته شىء بالليل استدركه بالنهار أو بالنهار استدركه بالليل كما قال تعالى (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) والآيات فى هذا كثيرة .

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

وهذا أيضا نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلها آخر يناديهم الرب تعالى على رءوس الاشهاد فيقول (أين شركائى الذين كنتم تزعمون) أى فى دار الدنيا . (ونزعنا من كل أمة شهيدا) قال مجاهد : يعنى رسولا (فقلنا هاتوا برهانكم) أى على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء (فعلموا أن الحق لله) أى لا إله غيره فلم ينطقوا ولا يحيروا جوابا (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى ذهبوا فلم ينفعوهم .

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

قال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال (إن قارون كان من قوم موسى) قال كان ابن عمه ، وهكذا قال إبراهيم النخعى وعبد الله بن الحارث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وغيرهم أنه كان ابن عم موسى عليه السلام . قال ابن جريج هو قارون بن يصهب بن قاهث وموسى بن عمران بن قاهث ، وزعم محمد بن إسحاق بن يسار أن قارون كان عم موسى بن عمران عليه السلام . قال ابن جريج وأكثر أهل العلم على أنه

كان ابن عمه والله أعلم وقال قتادة بن دعامة كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى وكان يسمى النور لحسن صوته بالتوراة ولكن عدو الله نافق كما نافق السامرى فأهلكه البغى لكثرة ماله: وقال شهر بن حوشب زاد فى ثيابه شبرا طولا ترفعا على قومه . وقوله (وآتيناه من الكنوز) أى الأموال (ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) أى ليثقل حملها الفئام من الناس لكثرتها . قال الأعمش عن خيثمة كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود كل مفتاح مثل الاصبع كل مفتاح على خزانة على حدته فإذا ركب حملت على ستين بغلا أغر محجلا وقيل غير ذلك والله أعلم . وقوله (إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) أى وعظه فيما هو فيه صالحو قومه فقالوا على سبيل النصح والارشاد : لا تفرح بما أنت فيه يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال (إن الله لا يحب الفرحين) قال ابن عباس يعنى المرحين ، وقال مجاهد يعنى الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم ، وقوله (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) أى استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة فى طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات التى يحصل لك بها الثواب فى الدنيا والآخرة (ولا تنس نصيبك من الدنيا) أى مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح فان لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا ولزورك عليك حقا فآت كل ذى حق حقه (وأحسن كما أحسن الله إليك) أى أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك (ولا تبغ الفساد فى الأرض) أى لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به فى الأرض وتسىء إلى خلق الله (إن الله لا يحب المفسدين) .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير (قال إنما أوتيته على علم عندى) أى أنا لا أفتقر إلى ما تقولون فان الله تعالى إنما أعطانى هذا المال لعلمه بأنى أستحقه ولمحبته لى فتقديره إنما أعطيته لعلم الله فى أنى أهل له وهذا كقوله تعالى (وإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم) أى على علم من الله بى وكقوله تعالى (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى) أى هذا أستحقه . وقد روى عن بعضهم أنه أراد (إنما أوتيته على علم عندى) أى أنه كان يعانى علم الكيمياء وهذا القول ضعيف لأن علم الكيمياء فى نفسه علم باطل لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله عز وجل قال الله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له) وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « يقول الله تعالى ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة » وهذا ورد فى المصورين الذين يشبهون بخلق الله فى مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل فكيف بمن يدعى أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى هذا زور ومحال ، وجهل وضلال ، وإنما يقدرون على الصبغ فى الصور الظاهرة وهى كذب وزغل وتمويه وترويج أنه صحيح فى نفس الأمر وليس كذلك قطعا لا محالة ولم يثبت بطريق شرعى أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التى يتعاطاها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون فأما ما يجريه الله سبحانه من خرق العوائد على يدى بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهبا أو فضة أو نحو ذلك فهذا أمر لا ينكره مسلم ولا يرده مؤمن ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسموات واختياره وفعله كما روى عن حيوة بن شريح المصرى رحمه الله تعالى أنه سأله سائل فلم يكن عنده ما يعطيه ورأى ضرورته فأخذ حصاة من الأرض فأجالها فى كفه ثم ألقاها إلى ذلك السائل فإذا هى ذهب أحمر . والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جدا يطول ذكرها ، وقال بعضهم إن قارون كان يعرف الاسم الأعظم فدعا الله به فتمول بسببه . والصحيح المعنى الأول ولهذا قال الله تعالى رادا عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) أى قد كان من هو أكثر منه مالا وما كان

ذلك عن محبة مناله وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ولهذا قال (ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون)أى لكثرة ذنوبهم . قال قتادة (على علم عندى) على خير عندى ، وقال السدى على علم أنى أهل لذلك . وقد أجاد فى تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فانه قال فى قوله (قال إنما أوتيته على علم عندى) قال لولا رضا الله عنى ومعرفته بفضلى ما أعطانى هذا المال وقرأ (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) الآية وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه لولا أن يستحق ذلك لما أعطى

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه فى زينة عظيمة وتجمل باهر من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها وتمنوا أن لو كان لهم مثل الذى أعطى (قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم) أى ذو حظ وافر من الدنيا ، فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا) أى جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين فى الدار الآخرة خير مما ترون . كما فى الحديث الصحيح « يقول الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرءوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) » وقوله (ولا يلقاها إلا الصابرون) قال السدى ولا يلقى الجنة إلا الصابرون كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم ، قال ابن جرير ولا يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون فى الدار الآخرة وكأنه جعل ذلك مقطوعا من كلام أولئك وجعله من كلام الله عز وجل واخباره بذلك

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

لما ذكر تعالى اختيال قارون فى زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض كما ثبت فى الصحيح عند البخارى من حديث الزهرى عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال « بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة » ثم رواه من حديث جرير بن زيد عن سالم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحوه . وقال الإمام أحمد حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاص حدثنا الأعمش عن عطية عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « بينما رجل ممن كان قبلكم خرج فى بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله الأرض فأخذته فانه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة » تفرد به أحمد وإسناده حسن ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا أبو خيثمة حدثنا يعلى بن منصور أخبرنى محمد بن مسلم سمعت زياد النميرى يحدث عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « بينما رجل ممن كان قبلكم خرج فى بردين فاختال فيهما فأمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر فى كتاب العجائب الغريبة بسنده عن نوفل بن مساحق قال رأيت شابا فى مسجد نجران فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله وتمامه وجماله فقال مالك تنظر إلى فقلت أعجب من جمالك وكمالك . فقال إن الله ليعجب منى قال فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر فأخذه بعض قرابته فى كمه وذهب به

وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبي الله عليه السلام واختلف في سببه فعن ابن عباس والسدي أن قارون أعطى امرأة بغيا مالا على أن تبهت موسى بحضرة الملأ من بني إسرائيل وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله تعالى فتقول ياموسى إنك فعلت بي كذا وكذا فلما قالت ذلك في الملأ لموسى عليه السلام أرعد من الفرق وأقبل عليها بعد ماصلى ركعتين ثم قال ، أنشدك بالله الذي فرق البحر وأنجاكم من فرعون وفعل كذا وكذا لما أخبرتني بالذي حملك على ماقلت ؟ فقالت أما إذا نشدتني فان قارون أعطاني كذا وكذا على أن أقول ذلك لك وأنا أستغفر الله وأتوب اليه فعند ذلك خر موسى لله عز وجل ساجدا وسأل الله في قارون فأوحى الله اليه أن قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك . وقيل إن قارون لما خرج على قومه في زينته تلك وهو راكب على البغال الشهب وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة فمر في محفله ذلك على مجلس نبي الله موسى عليه السلام وهو يذكرهم بأيام الله فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوههم نحوه ينظرون إلى ماهو فيه فدعاه موسى عليه السلام وقال : ماحملك على ماصنعت ؟ فقال ياموسى أما لئن كنت فضلت علي بالنبوة فلقد فضلت عليك بالدنيا ولئن شئت لنخرجن فلتدعون علي وأدعو عليك ، فخرج موسى وخرج قارون في قومه فقال موسى عليه السلام تدعو أو أدعو أنا ؟ فقال بل أدعو أنا فدعا قارون فلم يجب له ثم قال موسى أدعو ؟ قال نعم فقال موسى اللهم مر الأرض أن تطيعني اليوم فأوحى الله إليه أني قد فعلت فقال موسى يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى أقدامهم . ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم ثم إلى مناكبهم ثم قال أقبلي بكنوزهم وأموالهم قال : فأقبلت بها حتى نظروا إليها ثم أشار موسى بيده ثم قال اذهبوا بني لاوى فاستوت بهم الأرض ، وعن ابن عباس قال : خسف بهم إلى الأرض السابعة وقال قتادة ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة ، وقد ذكر ههنا إسرائيليات غريبة أضربنا عنها صفحاً . وقوله تعالى (فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) أي ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه ، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله ولا كان هو في نفسه منتصراً لنفسه فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره

وقوله تعالى (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس) أي الذين لما رأوه في زينته (قالوا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم) فلما خسف به أصبحوا يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر أي ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه فإن الله يعطي ويمنع ويضيق ويوسع ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم ، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب » (لولا أن من الله علينا لخسف بنا) أي لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به لأنا وددنا أن نكون مثله (ويكأنه لا يفلح الكافرون) يعنون أنه كان كافراً ولا يفلح الكافرون عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة وقد اختلف النحاة في معنى قوله ههنا ويكأن فقال بعضهم معناه ويلك اعلم أن ولكن خفف فقيل ويك ودل فتح أن على حذف اعلم ، وهذا القول ضعفه ابن جرير ، والظاهر أنه قوي ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة ويكأن ، والكتابة أمر وضعي اصطلاحي والمرجع إلى اللفظ العربي والله أعلم ، وقيل معناها ويكأن أي ألم تر أن قاله قتادة . وقيل معناها وي كأن ففصلها وجعل حرف وي للتعجب أو للتنبيه وكأن بمعنى أظن وأحسب . قال ابن جرير وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة إنها بمعنى ألم تر أن واستشهد بقول الشاعر :

سألتاني الطلاق إذ رأتاني ... قل مالي وقد جئتماني بنكر

ويكأن من يكن له نشب يحـ ... ـبب ومن يفتقر يعش عيش ضر

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذى لا يحول ولا يزول جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علواً فى الأرض أى ترفعاً على خلق الله وتعاظما عليهم وتجبراً بهم ولا فساداً فيهم كما قال عكرمة العلو: التجبر . وقال سعيد بن جبير العلو البغى وقال سفيان بن سعيد الثورى عن منصور عن مسلم البطين العلو فى الأرض التكبر بغير حق والفساد أخذ المال بغير حق ، وقال ابن جريج (لا يريدون علوا فى الأرض) تعظما وتجبراً (ولا فساداً) عملا بالمعاصى . وقال ابن جرير حدثنا وكيع حدثنا أبى عن أشعث السمان عن أبى سلام الأعرج عن على قال : إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل فى قوله تعالى (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره ، فان ذلك مذموم كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنه أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد » وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل فهذا لا بأس به فقد ثبت أن رجلا قال : يارسول الله إنى أحب أن يكون ردائى حسنا ونعلى حسنة أفمن الكبر ذلك ؟ فقال « لا ، إن الله جميل يحب الجمال » . وقال تعالى (من جاء بالحسنة) أى يوم القيامة (فله خير منها) أى ثواب الله خير من حسنة العبد فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة وهذا مقام الفضل ، ثم قال (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) كما قال فى الآية الأخرى (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار ، هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) وهذا مقام الفضل والعدل

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ * وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد وهو يوم القيامة فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة ولهذا قال تعالى (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) أى افترض عليك أداءه إلى الناس (لرادك إلى معاد) أى إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك كما قال تعالى (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) وقال تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) وقال (وجىء بالنبيين والشهداء)

وقال السدى عن أبى صالح عن ابن عباس (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) يقول لرادك إلى الجنة ثم سائلك عن القرآن . قال السدى وقال أبو سعيد مثلها ، وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما (لرادك إلى معاد) قال إلى يوم القيامة ورواه مالك عن الزهرى وقال الثورى عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (لرادك إلى معاد) إلى الموت ولهذا طرق عن ابن عباس رضى الله عنهما وفى بعضها لرادك إلى معدنك من الجنة وقال مجاهد يحييك يوم القيامة وكذا روى عن عكرمة وعطاء وسعيد بن جبير وأبى قزعة وأبى مالك وأبى صالح وقال الحسن البصرى إى والله إن له لمعاداً فيبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة . وقد روى عن ابن عباس غير ذلك كما قال البخارى فى التفسير من صحيحه حدثنا محمد بن مقاتل أنبأنا يعلى حدثنا سفيان العصفرى عن عكرمة عن ابن عباس (لرادك إلى معاد) قال إلى مكة وهكذا رواه النسائى فى تفسير سننه وابن جرير من حديث يعلى وهو ابن عبيد الطنافسى به وهكذا رواه العوفى عن ابن عباس (لرادك إلى معاد) أى لرادك إلى مكة كما أخرجك منها وقال محمد ابن إسحق عن مجاهد فى قوله (لرادك إلى معاد) إلى مولدك بمكة . وقال ابن أبى حاتم وقد روى عن ابن عباس ويحيى ابن الجزار وسعيد بن جبير وعطية والضحاك نحو ذلك . وحدثنا أبى حدثنا بن أبى عمر قال : قال سفيان فسمعناه من

مقاتل منذ سبعين سنة عن الضحاك قال لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله عليه (إن الذى فرض عليك الكتاب لرادك إلى معاد) إلى مكة وهذا من كلام الضحاك يقتضى أن هذه الآية مدنية وإن كان مجموع السورة مكيا والله أعلم . وقد قال عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة فى قوله تعالى (لرادك إلى معاد) قال هذه مما كان ابن عباس يكتمها . وقد روى ابن أبى حاتم بسنده عن نعيم القارى أنه قال فى قوله (لرادك إلى معاد) قال إلى بيت المقدس وهذا والله أعلم يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر والله الموفق للصواب ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة وهو الفتح الذى هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبى صلى الله عليه وسلم كما فسر ابن عباس سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) إلى آخر السورة أنه أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ووافقه عمر على ذلك وقال :لا أعلم منها غير الذى تعلم ، ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله (لرادك إلى معاد) بالموت وتارة بيوم القيامة الذى هو بعد الموت وتارة بالجنة التى هى جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وابلاغها إلى الثقلين الإنس والجن ، ولأنه أكمل خلق الله وأفصح خلق الله وأشرف خلق الله على الإطلاق وقوله تعالى (قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين) أى قل لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم قل ربى أعلم بالمهتدى منكم ومنى وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار ولمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب) أى أما كنت تظن قبل انزال الوحى إليك أن الوحى ينزل عليك (ولكن رحمة من ربك) أى إنما أنزل الوحى عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة (فلا تكونن ظهيراً) أى معيناً (للكافرين) ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم (ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك) أى لا تتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك لا تلوى على ذلك ولا تباله فان الله معل كلمتك ومؤيد دينك ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان ولهذا قال (وادع إلى ربك) أى إلى عبادة ربك وحده لا شريك له (ولا تكونن من المشركين) وقوله (ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو) أى لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغى الإلهية إلا لعظمته . وقوله (كل شىء هالك إلا وجهه) إخبار بأنه الدائم الباقى الحى القيوم الذى تموت الخلائق ولا يموت كما قال تعالى (كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) فعبر بالوجه عن الذات وهكذا قوله ههنا (كل شىء هالك إلا وجهه) أى إلا إياه وقد ثبت فى الصحيح من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد * ألا كل شىء ما خلا الله باطل * » وقال مجاهد والثورى فى قوله (كل شىء هالك إلا وجهه) أى إلا ما أريد به وجهه ، وحكاه البخارى فى صحيحه كالمقرر له ، قال ابن جرير :ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر

أستغفر الله ذنبا لست محصيه * رب العباد إليه الوجه والعمل

وهذا القول لا ينافى القول الأول فان هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة ، والقول الأول مقتضاه ان كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس فانه الأول الآخر الذى هو قبل كل شىء وبعد كل شىء . قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا فى كتاب التفكر والاعتبار حدثنا أحمد بن محمد بن أبى بكر حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا عمر بن سليم الباهلى حدثنا أبو الوليد قال : كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتى الخربة فيقف على بابها فينادى بصوت حزين : فيقول أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول (كل شىء هالك إلا وجهه)وقوله(له الحكم) أى الملك والتصرف ولا معقب لحكمه (وإليه ترجعون) أى يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر. آخر تفسير سورة القصص ولله الحمد والمنة

﴿ تفسير سورة العنكبوت وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة البقرة . وقوله تعالى (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) استفهام انكار ومعناه أن الله سبحانه وتعالى لابد أن يبتلى عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان كما جاء فى الحديث الصحيح « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان فى دينه صلابة زيد له فى البلاء » وهذه الآية كقوله (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) ومثلها فى سورة براءة وقال فى البقرة (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) ولهذا قال ههنا (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) أى الذين صدقوا فى دعوى الإيمان ممن هو كاذب فى قوله ودعواه ، والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون . وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة وبهذا يقول ابن عباس وغيره فى مثل قوله (إلا لنعلم) إلا لنرى وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود والعلم أعم من الرؤية فانه يتعلق بالمعدوم والموجود

وقوله تعالى (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون) أى لا يحسبن الذين لم يدخلوا فى الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فان من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم ولهذا قال (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) أى يفوتونا (ساء ما يحكمون) أى بئس ما يظنون

﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى (من كان يرجو لقاء الله) أى فى الدار الآخرة وعمل الصالحات ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل فان الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملا موفرا فان ذلك كائن لا محالة لأنه سميع الدعاء بصير بكل الكائنات ولهذا قال تعالى (من كان يرجوا لقاء الله فان أجل الله لآت وهو السميع العليم) وقوله تعالى (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه) كقوله تعالى (من عمل صالحا فلنفسه) أى من عمل صالحا فإنما يعود نفع عمله على نفسه فان الله تعالى غنى عن أفعال العباد ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم مازاد ذلك فى ملكه شيئا ولهذا قال تعالى (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين) قال الحسن البصرى : إن الرجل ليجاهد وما ضرب يوما من الدهر بسيف . ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم ومع بره وإحسانه بهم يجازى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون فيقبل القليل من الحسنات ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ويجزى على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح كما قال تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) وقال ههنا (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون)

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده فان الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان ، فالوالد بالانفاق والوالدة بالاشفاق ، ولهـذا قال تعـالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا * إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلاتقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً) ومع هـذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما فى مقابلة إحسانهما المتقدم قال (وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما) أى وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين فاياك وإياها فلا تطعهما فى ذلك فان مرجعكم إلى يوم القيامة فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك وأحشرك مع الصالحين لا فى زمرة والديك وإن كنت أقرب الناس إليهما فى الدنيا فان المرء إنمـا يحشر يوم القيامة مع من أحب أى حبا دينياً ولهذا قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) وقال الترمذى عندتفسيرهذه الآية:حدثنا محمد بن بشار ثنا محمد بن المثنى حدثنا محمد بن جعفرحدثناشعبة عن سماك بن حرب قال : سمعت مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال نزلت فى أربع آيات فذكر قصته وقال : قالت أم سعد أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر قال فكانوا إذا أرادوا أن يطعموهـا شجروا فاها فنزلت (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً * وإن جاهـداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما) الآية وهـذا الحـديث رواه الإمام أحمـد ومسلم وأبو داود والنسائى أيضاً وقال الترمذى حسن صحيح

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت الإيمان فى قلوبهم بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة فى الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم فارتدوا عن الإسلام ، ولهذا قال تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) قال ابن عباس يعنى فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذى فى الله وكذا قال غيره من علماء السلف ، وهذه الآية كقوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ـ إلى قوله ـ ذلك هو الضلال البعيد) ثم قال عز وجل (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) أى ولئن جاء نصر قريب من ربك يا محمـد وفتح ومغانم ليقولن هؤلاء لكم إنا كنا معكم أى إخوانكم فى الدين كما قال تعـالى (الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين وقال تعالى (فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنـده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين) وقال تعالى مخبرا عنهم ههنا (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) ثم قال الله تعالى (أو ليس الله بأعلم بمـا فى صـدور العالمين) أى أو ليس الله بأعلم بما فى قلوبهم وما تكنه ضمائرهم وان أظهروا لكم الموافقة ؟ وقوله تعالى (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) أى وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء ليتميز هؤلاء من هؤلاء من يطيع الله فى الضراء والسراء ، ومن إنما يطيعه

فى حظ نفسه كما قال تعالى (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوأخباركم)وقال تعالى بعد وقعة أحد التى كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) الآية

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا (ولنحمل خطاياكم) أى وآثامكم إن كانت لكم آثام فى ذلك علينا وفى رقابنا كما يقول القائل : افعل هذا وخطيئتك فى رقبتى،قال الله تعالى تكذيبا لهم (وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون) أى فيما قالوه إنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم فانه لا يحمل أحد وزر أحد قال الله تعالى (وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى) وقال تعالى (ولا يسئل حميم حميما يبصرونهم) وقوله تعالى (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزاراً أخر بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئا كما قال تعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) الآية وفى الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئا » وفى الصحيح « ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل » وقوله تعالى (وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون) أى يكذبون ويختلقون من البهتان ، وقد ذكر ابن أبى حاتم ههنا حديثا فقال : حدثنا أبى حدثنا هشام بن عمار حدثنا صدقة حدثنا عثمان بن حفص بن أبى العالية حدثنى سليمان بن حبيب المحاربى عن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بلغ ما أرسل به ثم قال « إياكم والظلم فان الله يعزم يوم القيامة فيقول : وعزتى وجلالى لا يجوزنى اليوم ظلم ثم ينادى مناد فيقول أين فلان بن فلان ؟ فيأتى يتبعه من الحسنات أمثال الجبال فيشخص الناس إليها أبصارهم حتى يقوم بين يدى الرحمن عز وجل ثم يأمر المنادى فينادى من كانت له تباعة أو ظلامة عند فلان بن فلان فهلم فيقبلون حتى يجتمعوا قياما بين يدى الرحمن فيقول الرحمن اقضوا عن عبدى فيقولون كيف نقضى عنه ؟ فيقول خذوا لهم من حسناته فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى منها حسنة وقد بقى من أصحاب الظلامات فيقول اقضوا عن عبدى فيقولون لم يبق له حسنة فيقول خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه » ثم نزع النبى صلى الله عليه وسلم بهذه الآية الكريمة (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون) وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح من غير هذا الوجه « إن الرجل ليأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال وقد ظلم هذا وأخذ مال هذا وأخذ من عرض هذا فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته فإذا لم تبق له حسنة أخذ من سيئاتهم فطرح عليه » وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن أبى الحوارى حدثنا أبو بشر الحذاء عن أبى حمزة الثمالى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « يامعاذ إن المؤمن يسئل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة باصبعيه فلا ألفينك تأتى يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاك الله منك » .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَا ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث فى قومه هذه المدة

يدعوهم إلى الله تعالى ليلا ونهاراً وسراً وجهاراً ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق وإعراضا عنه وتكذيبا له وما آمن معه منهم إلا قليل ولهذا قال تعالى (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) أي بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والانذار فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ولا تحزن عليهم فان الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء وبيده الأمر وإليه ترجع الأمور (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية) الآية واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك ويذل عدوك ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين . قال حماد بن سلمة عن على ابن زيد عن يوسف بن ماهك عن ابن عباس قال : بعث نوح وهو لأربعين سنة ولبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وعاش بعد الطوفان ستين عاما حتى كثر الناس وفشوا ، وقال قتادة يقال إن عمره كله ألف سنة الا خمسين عاما لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلثمائة سنة ودعاهم ثلثمائة سنة ولبث بعد الطوفان ثلثمائة سنة وخمسين عاما وهذا قول غريب ، وظاهر السياق من الآية أنه مكث فى قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما . وقال عون بن أبى شداد إن الله تعالى أرسل نوحا إلى قومه وهو ابن خمسين وثلثمائة سنة فدعاهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم عاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة وهذا أيضا غريب رواه ابن أبى حاتم وابن جرير وقول ابن عباس : أقرب والله أعلم وقال الثورى عن سلمة بن كهيل عن مجاهد قال : قال لى ابن عمر : كم لبث نوح فى قومه ؟ قال قلت ألف سنة إلا خمسين عاما قال فان الناس لم يزالوا فى نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا ، وقوله تعالى (فأنجيناه وأصحاب السفينة) أى الذين آمنوا بنوح عليه السلام وقد تقدم ذكر ذلك مفصلا فى سورة هود ، وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته ، وقوله تعالى (وجعلناها آية للعالمين) أى وجعلنا تلك السفينة باقية إما عينها كما قال قتادة إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودى أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان كما قال تعالى (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون - إلى قوله - ومتاعا إلى حين) وقال تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) وقال ههنا (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) وهذا من باب التدريج من الشخص إلى الجنس كقوله تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) أى وجعلنا نوعها رجوما فان التى يرمى بها ليست هى زينة للسماء وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) ولهذا نظائر كثيرة وقال ابن جرير : لو قيل إن الضمير فى قوله (وجعلناها) عائد إلى العقوبة لكان وجها والله أعلم .

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له والإخلاص له فى التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له ، وتوحيده فى الشكر فانه المشكور على النعم لا مسدى لها غيره فقال لقومه (اعبدوا الله واتقوه) أى أخلصوا له العبادة والخوف (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) أى إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير فى الدنيا والآخرة واندفع عنكم الشر فى الدنيا والآخرة ، ثم أخبر تعالى أن الأصنام التى يعبدونها لا تضر ولا تنفع وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء فسميتموها آلهة وإنما هى مخلوقة مثلكم ، هكذا رواه العوفى عن ابن عباس وبه قال مجاهد والسدى ، وروى الوالبى عن ابن عباس وتصنعون إفكا أى تنحتونها أصناما وبه قال مجاهد فى رواية ، وعكرمة والحسن وقتادة وغيرهم واختاره ابن جرير رحمه الله . وهى لا تملك لكم رزقا (فابتغوا عند الله الرزق) وهذا أبلغ فى الحصر

كقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) (رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة) ولهذا قال(فابتغوا) أى فاطلبوا(عند الله الرزق) أى لا عند غيره فان غيره لا يملك شيئا (واعبدوه واشكروا له) أى كلوا من رزقه واعبدوه وحده واشكروا له على ما أنعم به عليكم (إليه ترجعون) أى يوم القيامة فيجازى كل عامل بعمله ، وقوله تعالى (وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) أى فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال فى مخالفة الرسل (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) يعنى إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء وقال قتادة فى قوله (وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) قال يعزى نبيه ﷺ وهـذا من قتادة يقتضى أنه قد انقطع الكلام الأول واعترض بهذا إلى قوله (فما كان جواب قومه) وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضاً . والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام يحتج عليهم لاثبات المعاد لقوله بعد هذا كله (فما كان جواب قومه) والله أعلم

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن الخليل عليه السلام أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكورا ثم وجدوا وصاروا أناسا سامعين مبصرين فالذى بدأ هـذا قادر على إعادته فانه سهل عليه يسير لديه ، ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما فى الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء : السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ، وأودية وبرارى وقفار ، وأشجار وأنهار ، وثمار وبحار ، كل ذلك دال على حدوثها فى أنفسها وعلى وجود صانعها الفاعل المختار ، الذى يقول للشىء كن فيكون ولهذا قال (أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير) كقوله تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) ثم قال تعالى (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة) أى يوم القيامة (إن الله على كل شىء قدير) وهـذا المقام شبيه بقوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وكقوله تعالى (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ؟ * أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون) وقوله تعالى (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء) أى هو الحاكم المتصرف الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فله الخلق والأمر مهما فعل فعدل لأنه المالك الذى لا يظلم مثقال ذرة كما جاء فى الحديث الذى رواه أهل السنن « إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم » ولهذا قال تعالى (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون) أى ترجعون يوم القيامة وقوله تعالى (وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء) أى لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه بل هو القاهر فوق عباده فكل شىء خائف منه فقير إليه وهو الغنى عما سواه (ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير * والذين كفروا بآيات الله ولقائه) أى جحدوها وكفروا بالمعاد (أولئك يئسوا من رحمتى) أى لا نصيب لهم فيها (وأولئك لهم عذاب أليم) أى موجع شديد فى الدنيا والآخرة

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن قوم إبراهيم فى كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ودفعهم الحق بالباطل أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان (إلا أن قالوا اقتلوه أوحرقوه) وذلك لأنهم قام عليهم البرهان وتوجهت عليهم الحجة فعدلوا إلى إستعمال جاههم وقوة ملكهم (قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين) وذلك أنهم حشدوا فى جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة وحوطوا حولها ثم أضرموا فيها النار فارتفع لها لهب إلى عنان السماء ، ولم توقد نار قط أعظم منها ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه فى كفة المنجنيق ثم قذفوه فيها فجعلها الله عليه بردا وسلاما ، وخرج منها سالما بعد ما مكث فيها أياما ، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماما . فانه بذل نفسه للرحمن ، وجسده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان . وقوله تعالى (فأنجاه الله من النار) أى سلمه منها بأن جعلها عليه بردا وسلاماً (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون * وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا) يقول لقومه مقرعا لهم وموبخا على سوء صنيعهم فى عبادتهم للأوثان إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها فى الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض فى الحياة الدنيا وهذا على قراءة من نصب مودة بينكم على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع فمعناه إنما اتخاذكم هذا لتحصل لكم المودة فى الدنيا فقط (ثم يوم القيامة) ينعكس هذا الحال فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضا وشنآنا ثم (يكفر بعضكم ببعض) أى تتجاحدون ما كان بينكم (ويلعن بعضكم بعضاً) أى يلعن الأتباع المتبوعين والمتبوعون الأتباع (كلما دخلت أمة لعنت أختها) وقال تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) وقال ههنا (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار) الآية أى ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ومالكم من ناصر ينصركم ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله وهذا حال الكافرين ، وأما المؤمنون فبخلاف ذلك.

قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى حدثنا أبو عاصم الثقفى ثنا الربيع بن إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن جعدة ابن هبيرة المخزومى عن أبيه عن جده عن أم هانىء أخت على بن أبى طالب قالت : قال لى النبى ﷺ « أخبرك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة فى صعيد واحد فمن يدرى أين الطرفان ؟ - قالت الله ورسوله أعلم - ثم ينادى مناد من تحت العرش يا أهل التوحيد فيشرئبون - قال أبو عاصم يرفعون رءوسهم - ثم ينادى يا أهل التوحيد ، ثم ينادى الثالثة يا أهل التوحيد إن الله قد عفا عنكم - قال - فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض فى ظلامات الدنيا - يعنى المظالم - ثم ينادى يا أهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعلى الله الثواب »

﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى الْءَاخِرَةِ لَمِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن إبراهيم أنه آمن له لوط يقال إنه ابن أخى إبراهيم ، يقولون هو لوط بن هاران بن آزر يعنى ولم يؤمن به من قومه سواه وسارة امرأة إبراهيم الخليل لكن يقال كيف الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الوارد فى الصحيح أن إبراهيم حين مر على ذلك الجبار فسأل إبراهيم عن سارة ماهى منه فقال أختى ، ثم جاء إليها فقال لها انى قد قلت له إنك أختى فلا تكذبينى فانه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك فأنت أختى فى الدين . وكأن المراد من هذا والله أعلم أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الاسلام غيرى وغيرك فان لوطا عليه السلام آمن به من قومه وهاجر معه إلى بلاد الشام ثم أرسل فى حياة الخليل إلى أهل سذوم وإقليمها وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتى

وقوله تعالى (وقال إني مهاجر إلى ربي) يحتمل عود الضمير في قوله (وقال) على لوط لأنه هو أقرب المذكورين ويحتمل عوده إلى إبراهيم . قاله ابن عباس والضحاك وهو المكنى عنه بقوله (فآمن له لوط) أي من قومه ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ابتغاء اظهار الدين والتمكن من ذلك ولهذا قال (إنه هو العزيز الحكيم) أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين به الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية . وقال قتادة: هاجرا جميعا من كوثى وهي من سواد الكوفة إلى الشام . قال وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة ينحاز أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم ويبقى في الأرض شرار أهلها حتى تلفظهم أرضهم وتقذرهم روح الله عز وجل وتحشرهم النار مع القردة والخنازير تبيت معهم إذا باتوا ، وتقيل معهم إذا قالوا وتأكل ما سقط منهم » وقد أسند الإمام أحمد هذا الحديث فرواه مطولا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة عن شهر بن حوشب قال : لما جاءتنا بيعة يزيد بن معاوية قدمت الشام فأخبرت بمقام يقومه نوف البكالي فجئته إذجاء رجل فانتبذ الناس وعليه خميصة فاذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص فلما رآه نوف أمسك عن الحديث فقال عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها فتلفظهم أرضهم تقذرهم نفس الرحمن، تحشرهم النار مع القردة والخنازير فتبيت معهم إذا باتوا ، وتقيل معهم إذا قالوا ، وتأكل من تخلف منهم » قال وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « سيخرج أناس من أمتي من قبل المشرق يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم كلما خرج منهم قرن قطع كلما خرج منهم قرن قطع — حتى عدها زيادة على عشرين مرة — كلما خرج منهم قرن قطع حتى يخرج الدجال في بقيتهم» ورواه الإمام أحمد عن أبي داود وعبد الصمد كلاهما عن هشام الدستوائي عن قتادة به ، وقد رواه أبو داود في سننه فقال في كتاب الجهاد (باب ما جاء في سكنى الشام) حدثنا عبيد الله بن عمر حدثنا معاذ بن هشام حدثني[1] عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبدالله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ستكون هجرة بعد هجرة وينحاز أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم ويبقى في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضهم ، وتقذرهم نفس الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير » وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا أبو جناب يحيى بن أبي حية عن شهر بن حوشب قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول : لقد رأيتنا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم ، ثم لقد رأيتنا بآخرة الآن والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم ، وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لئن أنتم اتبعتم أذناب البقر وتبايعتم بالعينة وتركتم الجهاد في سبيل الله ليلزمنكم الله مذلة في أعناقكم لا تنزع منكم حتى ترجعوا إلى ما كنتم عليه وتتوبوا إلى الله تعالى » وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لتكونن هجرة بعد هجرة إلى مهاجر أبيكم إبراهيم حتى لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها وتلفظهم أرضوهم ، وتقذرهم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث يبيتون وما سقط منهم فلها » ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول « يخرج قوم من أمتي يسيئون الأعمال يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم — قال يزيد لا أعلمه إلا قال — يحقر أحدكم علمه مع علمهم يقتلون أهل الإسلام فاذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم فطوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه ، كلما طلع منهم قرن قطعه الله » فردد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين مرة أو أكثر وأنا أسمع وقال الحافظ أبو بكر البيهقي حدثنا أبو الحسن بن الفضل أخبرنا عبد الله بن جعفر حدثنا يعقوب بن سفيان حدثنا أبو النضر إسحق بن إبراهيم بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا حدثنا يحيى بن حمزة حدثنا الأوزاعي عن نافع ، وقال أبو النضر عمن حدثه عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال « سيهاجر أهل الأرض هجرة بعد هجرة إلى مهاجر إبراهيم حتى لا يبقى إلا شرار أهلها تلفظهم الأرضون وتقذرهم روح الرحمن ؛ وتحشرهم النار مع القردة والخنازير تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا لها ما سقط منهم » غريب من حديث نافع والظاهر أن الأوزاعي قد رواه عن شيخ له من الضعفاء والله أعلم . وروايته من حديث

(١) بياض بأصله ، ولعله سقط من السند رجل من الرواة فحرره .

عبد الله بن عمرو بن العاص أقرب إلى الحفظ . وقوله تعالى (ووهبناله إسحاق ويعقوب) كقوله (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله ، وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا) أى أنه لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي وولد له ولد صالح نبي فى حياة جده وكذلك قال تعالى (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة) أى زيادة كما قال تعالى (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) أى يولد لهذا الولد ولد فى حياتكما تقر به أعينكما وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه القرآن وثبتت به السنة النبوية قال الله تعالى (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا) الآية وفى الصحيحين « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام » فاما ما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) قال هما ولدا إبراهيم فمعناه أن ولد الولد بمنزلة الولد فان هذا الأمر لا يكاد يخفى على من هودون ابن عباس . وقوله تعالى (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلا وجعله للناس إماما أن جعل فى ذريته النبوة والكتاب فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالته فجميع أنبياء بنى إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم حتى كان آخرهم عيسى بن مريم فقام فى ملئهم مبشرا بالنبى العربى القرشى الهاشمى خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة . الذى اصطفاه الله من صميم العرب العرباء من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه عليه أفضل الصلاة والسلام . وقوله (وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) أى جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة فكان له فى الدنيا الرزق الواسع الهنى والمنزل الرحب والمورد العزب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن وكل أحد يحبه ويتولاه كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه كما قال تعالى (وإبراهيم الذى وفى) أى قام بجميع ما أمره وكمل طاعة ربه ولهذا قال تعالى (وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) وكما قال تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين — إلى قوله — وإنه فى الآخرة لمن الصالحين)

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال فى إتيانهم الذكران من العالمين ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بنى آدم قبلهم وكانوا مع هذا يكفرون بالله ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل أى يقفون فى طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم (وتأتون فى ناديكم المنكر) أى يفعلون مالا يليق من الأقوال والأفعال فى مجالسهم التى يجتمعون فيها لا ينكر بعضهم على بعض شيئا من ذلك فمن قائل كانوا يأتون بعضهم بعضا فى الملأ قاله مجاهد ، ومن قائل كانوا يتضارطون ويتضاحكون قالته عائشة رضى الله عنها والقاسم ، ومن قائل كانوا يناطحون بين الكباش ويناقرون بين الديوك وكل ذلك كان يصدر عنهم وكانوا شرا من ذلك ، وقال الإمام أحمد حدثنا حماد بن أسامة أخبرنى حاتم بن أبى صغيرة حدثنا سماك ابن حرب عن أبى صالح مولى أم هانىء عن أم هانىء قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (وتأتون فى ناديكم المنكر) قال « يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم وذلك المنكر الذى كانوا يأتونه » ورواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم من حديث أبى أسامة حماد بن رسامة عن أبى يونس القشيرى عن حاتم بن أبى

صغيرة به . ثم قال الترمذى هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبى صغيرة عن سماك ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا محمد بن كثير عن عمرو بن قيس عن الحكم عن مجاهد (وتأتون فى ناديكم المنكر) قال الصفير ولعب الحمام والجلاهق والسؤال فى المجلس وحل أزرار القباء ، وقوله تعالى (فما كان جواب قومه إلا أن قال ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ولهذا استنصر عليهم نبى الله فقال (رب انصرنى على القوم المفسدين) .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَٰلِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَٰبِرِينَ * وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَٰبِرِينَ * إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

لما استنصر لوط عليه السلام بالله عز وجل عليهم بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم عليه السلام فى هيئة أضياف فجاءهم بما ينبغى للضيف فلما رأى إبراهيم أنه لا همة لهم إلى الطعام نكرهم وأوجس منهم خيفة فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة وكانت حاضرة فتعجبت من ذلك كما تقدم بيانه فى سورة هود والحجر فلما جاءت إبراهيم بالبشرى وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط أخذ يدافع لعلهم ينظرون لعل الله أن يهديهم ، ولما قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية (قال إن فيها لوطا ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) أى من الهالكين لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط فى صورة شبان حسان فلما رآهم كذلك (سىء بهم وضاق بهم ذرعا) أى اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه وإن لم يضفهم خشى عليهم منهم ولم يعلم بأمرهم فى الساعة الراهنة (قالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد . ولهذا قال تعالى (ولقد تركنا منها آية بينة) أى واضحة (لقوم يعقلون) كما قال تعالى (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون)

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام أنه أنذر قومه أهل مدين فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة فقال (يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر) قال ابن جرير قال بعضهم معناه واخشوا اليوم الآخر وهذا كقوله تعالى (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) وقوله (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) نهاهم عن العيث فى الأرض بالفساد وهو السعى فيها والبغى على أهلها وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ويقطعون الطريق على الناس هذا مع كفرهم بالله ورسوله فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها وعذاب يوم

الظلة الذى أزهق الأرواح من مستقرها إنه كان عذاب يوم عظيم ، وقد تقدمت قصتهم مبسوطة فى سورة الأعراف وهود والشعراء ، وقوله (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) قال قتادة ميتين ، وقال غيره قد ألقى بعضهم على بعض

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَٰبِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع فى عذابهم وأخذهم بالانتقام منهم فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف وهى قريبة من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريبا من وادى القرى . وكانت العرب تعرف مساكنهما جيدا وتمر عليها كثيرا ، وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة ، وفرعون ملك مصر فى زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله تعالى وبرسوله ﷺ (فكلا أخذنا بذنبه) أى كانت عقوبته بما يناسبه (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) وهم عاد وذلك أنهم قالوا من أشد منا قوة فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدنا بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر (ومنهم من أخذته الصيحة) وهم ثمود قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التى انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوا سواء بسواء ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم وتهددوا نبى الله صالحا ومن آمن معه وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات (ومنهم من خسفنا به الأرض) وهو قارون الذى طغى وبغى وعتا وعصى الرب الأعلى ومشى فى الأرض مرحا وفرح ومرح وتاه بنفسه واعتقد أنه أفضل من غيره واختال فى مشيته فخسف الله به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة (ومنهم من أغرقنا) وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا فى صبيحة واحدة فلم ينج منهم مخبر (وما كان الله ليظلمهم) أى فيما فعل بهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم وهذا الذى ذكرناه ظاهر سياق الآية وهو من باب اللف والنشر وهو أنه ذكر الأمم المكذبة ثم قال (فكلا أخذنا بذنبه) أى من هؤلاء المذكورين وإنما نبهت على هذا لأنه قد روى ابن جريج قال : قال ابن عباس فى قوله (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) قال قوم لوط (ومنهم من أغرقنا) قال قوم نوح وهذا منقطع عن ابن عباس فان ابن جريج لم يدركه . ثم قد ذكر الله فى هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان ، وقوم لوط بانزال الرجز من السماء وأطال السياق والفصل بين ذلك وبين هذا السياق ، وقال قتادة (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) قال قوم لوط (ومنهم من أخذته الصيحة) قوم شعيب وهذا بعيد أيضا لما تقدم والله أعلم

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسكون بهم فى الشدائد ، فهم فى ذلك

كبيت العنكبوت فى ضعفه ووهنه فليس فى أيدى هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت فانه لا يجدى عنه شيئا فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله وهو مع ذلك يحسن العمل فى اتباع الشرع فانه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها ، ثم قال تعالى متوعدا لمن عبد غيره وأشرك به إنه تعالى يعلم ماهم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ، ثم قال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلى العالمون) أى وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون فى العلم المتضلعون منه . قال الإمام أحمد حدثنا إسحق بن عيسى حدثنى ابن لهيعة عن أبى قبيل عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : عقلت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل ، وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص رضى الله عنه حيث يقول الله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين ثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنا أبى حدثنا ابن سنان عن عمرو بن مرة قال : ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزننى لأنى سمعت الله تعالى يقول (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن قدرته العظيمة أنه خلق السموات والأرض بالحق يعنى لا على وجه العبث واللعب (لتجزى كل نفس بما تسعى) (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) وقوله تعالى (إن فى ذلك لآية للمؤمنين) أى لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية ، ثم قال تعالى آمرا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن وهو قراءته وإبلاغه للناس (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) يعنى أن الصلاة تشتمل على شيئين على ترك الفواحش والمنكرات أى مواظبتها تحمل على ترك ذلك (وقد جاء فى الحديث من رواية عمران وابن عباس مرفوعا « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعدا »

﴿ ذكر الآثار الواردة فى ذلك ﴾

قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن هارون المخرمى الفلاس حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد حدثنا عمر ابن أبى عثمان حدثنا الحسن عن عمران بن حصين قال سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن قول الله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) قال « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » وحدثنا على بن الحسين حدثنا يحيى بن أبى طلحة اليربوعى حدثنا أبو معاوية عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعدا » ورواه الطبرانى من حديث أبى معاوية . وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا خالد بن عبد الله عن العلاء بن المسيب عمن ذكره عن ابن عباس فى قوله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) قال فمن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا . فهذا موقوف قال ابن جرير وحدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا على بن هاشم بن البريد عن جويبر عن الضحاك عن ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال « لا صلاة لمن لم يطع الصلاة » وطاعة الصلاة أن تنهاه عن الفحشاء والمنكر . قال : قال سفيان (قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك) قال : فقال سفيان إى والله تأمره وتنهاه

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد عن جويبر عن الضحاك عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ ـ وقال أبو خالد مرة عن عبد الله ـ « لا صلاة لمن لم يطع الصلاة وطاعة الصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر » والموقوف أصح كما رواه الأعمش عن مالك بن الحارث عن عبد الرحمن بن يزيد قال قيل لعبد الله إن فلانا يطيل الصلاة قال إن الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها . وقال ابن جرير حدثنا على حدثنا إسماعيل بن مسلم عن الحسن قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم « من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً » والأصح فى هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأعمش وغيرهم والله أعلم . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا يوسف ابن موسى أنبأنا جرير — يعنى ابن عبد الحميد — عن الأعمش عن أبى صالح قال أراه عن جابر شك الأعمش قال : قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم إن فلانا يصلى بالليل فإذا أصبح سرق قال « سينهاه ما تقول » وحدثنا محمد بن موسى الجرشى أخبرنا زياد بن عبد الله عن الأعمش عن أبى صالح عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه ولم يشك ثم قال : وهذا الحديث قد رواه عن الأعمش غير واحد واختلفوا فى إسناده فرواه غير واحد عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة أو غيره وقال قيس عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال جرير وزياد عن عبد الله عن الأعمش عن أبى صالح عن جابر ، وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع أخبرنا الأعمش قال أرى أبا صالح عن أبى هريرة قال جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن فلانا يصلى بالليل فإذا أصبح سرق فقال « إنه سينهاه ما تقول » . وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى وهو المطلوب الأكبر ولهذا قال تعالى (ولذكر الله أكبر) أى أعظم من الأول (والله يعلم ما تصنعون) أى يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم . وقال أبو العالية فى قوله تعالى (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) قال إن الصلاة فيها ثلاث خصال فكل صلاة لا يكون فيها شىء من هذه الخلال فليست بصلاة : الإخلاص والخشية وذكر الله فالاخلاص يأمره بالمعروف والخشية تنهاه عن المنكر وذكر الله القرآن يأمره وينهاه ، وقال ابن عون الأنصارى إذا كنت فى صلاة فأنت فى معروف وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر والذى أنت فيه من ذكر الله أكبر وقال حماد بن أبى سليمان (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) يعنى مادمت فيها ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (ولذكر الله أكبر) يقول ولذكر الله لعباده أكبر إذا ذكروه من ذكرهم إياه وكذا روى غير واحد عن ابن عباس وبه قال مجاهد وغيره ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن داود بن أبى هند عن رجل عن ابن عباس (ولذكر الله أكبر) قال ذكر الله عند طعامك وعند منامك ، قلت فان صاحبا لى فى المنزل يقول غير الذى تقول ، قال وأى شىء يقول ؟ قلت قال يقول الله تعالى (فاذكرونى أذكركم) فلذكر الله إيانا أكبر من ذكرنا إياه قال : صدق قال وحدثنا أبى حدثنا النفيلى حدثنا إسماعيل عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى (ولذكر الله أكبر) قال لها وجهان قال ذكر الله عند ما حرمه قال وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه قال ابن جرير حدثنى يعقوب بن إبراهيم أخبرنا هشيم أخبرنا عطاء بن السائب عن عبد الله بن ربيعة قال : قال لى ابن عباس هل تدرى ما قوله تعالى (ولذكر الله أكبر) ؟ قال : قلت نعم ، قال : فما هو ؟ قلت التسبيح والتحميد والتكبير فى الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك . قال : لقد قلت قولا عجيبا وما هو كذلك ولكنه إنما يقول ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه ، وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس وروى أيضاً عن ابن مسعود وأبى الدرداء وسلمان الفارسى وغيرهم واختاره ابن جرير

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بآية السيف ولم يبق معهم مجادلة وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف وقال آخرون بل هى باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم فى الدين فيجادل بالتى هى أحسن ليكون أنجع فيه كما قال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) الآية وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وهذا القول اختاره ابن جرير وحكاه عن ابن زيد . وقوله تعالى (إلا الذين ظلموا منهم) أى حادوا عن وجه الحق وعموا عن واضح الحجة وعاندوا وكابروا فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد

ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم قال الله عز وجل (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد - إلى قوله - إن الله قوى عزيز) قال جابر : أمرنا من خالف كتاب الله أن نضرب به بالسيف، قال مجاهد (إلا الذين ظلموا منهم) يعنى أهل الحرب ومن امتنع منهم من أداء الجزية . وقوله تعالى (وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم) يعنى إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه فهذا لا نقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقا ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلا ولكن نؤمن به إيمانا مجملا معلقا على شرط وهو أن يكون منزلا لا مبدلا ولا مؤولا . قال البخارى رحمه الله حدثنا محمد بن بشار حدثنا عثمان بن عمر أخبرنا على بن المبارك عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » وهذا الحديث تفرد به البخارى. وقال الإمام أحمد حدثنا عثمان بن عمرو أخبرنا يونس عن الزهرى أخبرنى ابن أبى نملة أن أبا نملة الأنصارى أخبره أنه بينما هو جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه رجل من اليهود فقال يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الله أعلم » قال اليهودى أنا أشهد أنها تتكلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فان كان حقا لم تكذبوهم وإن كان باطلا لم تصدقوهم » (قلت) وأبو نملة هذا هو عمارة وقيل عمار وقيل عمرو بن معاذ بن زرارة الأنصارى رضى الله عنه ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل وما أقل الصدق فيه ثم ما أقل فائدة كثير منه لوكان صحيحا . قال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا أبو عاصم أخبرنا سفيان عن سليمان ابن عامر عن عمارة بن عمير عن حريث بن ظهير عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل فانه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفى قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال ، وقال البخارى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا إبراهيم بن سعد أخبرنا ابن شهاب عن عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء وكتابكم الذى أنزل إليكم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدث تقرءونه محضا لم يشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم ، وقال البخارى وقال أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى أخبرنى حميد ابن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار فقال إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب (قلت) معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة لأنهم لم يكن فى ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة فى هذه الأمة لا يعلمها إلا الله عز وجل ومن منحه الله تعالى علما بذلك كل بحسبه ولله الحمد والمنة

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَا إِلَّا الْكَٰفِرُونَ * وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَا إِلَّا الظَّٰلِمُونَ ﴾

قال ابن جرير يقول الله تعالى كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب، وهذا الذى قاله حسن ومناسبته وارتباطه جيد ؛ وقوله تعالى (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) أى الذين أخذوه

فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما ، وقوله تعالى (ومن هؤلاء من يؤمن به) يعنى العرب من قريش وغيرهم (وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) أى ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغطى ضوء الشمس بالوصائل وهيهات ، ثم قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) أى قد لبثت فى قومك يا محمد من قبل أن تأتى بهذا القرآن عمرا لا تقرأ كتابا ولا تحسن الكتابة بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمى لا تقرأ ولا تكتب وهكذا صفته فى الكتب المتقدمة كما قال تعالى (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) الآية وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائما إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده بل كان له كتاب يكتبون بين يده الوحى والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم من متأخرى الفقهاء كالقاضى أبى الوليد الباجى ومن تابعه أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ما قاضى عليه محمد ابن عبد الله . فإنما حمله على ذلك رواية فى صحيح البخارى : ثم أخذ فكتب . وهذه محمولة على الرواية الأخرى : ثم أمر فكتب . ولهذا اشتد النكير من فقهاء الشرق والغرب على من قال بقول الباجى وتبرءوا منه وأنشدوا فى ذلك أقوالا وخطبوا به فى محافلهم : وإنما أراد الرجل — أعنى الباجى — فيما يظهر عنه أنه كتب ذلك على وجه المعجزة لا أنه كان يحسن الكتابة كما قال صلى الله عليه وسلم إخباراً عن الدجال « مكتوب بين عينيه كافر » وفى رواية « ك ف ر ، يقرؤها كل مؤمن » وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت صلى الله عليه وسلم حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له ، قال الله تعالى (وما كنت تتلو) أى تقرأ (من قبله من كتاب) لتأكيد النفى ولا تخطه بيمينك تأكيد أيضا وخرج مخرج الغالب كقوله تعالى (ولا طائر يطير بجناحيه) . وقوله تعالى (إذا لارتاب المبطلون) أى لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمى لا يحسن الكتابة (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) قال الله تعالى (قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض) الآية وقال ههنا (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) أى هذا القرآن آيات بينة واضحة فى الدلالة على الحق أمرا ونهيا وخبرا يحفظه العلماء يسره الله عليهم حفظا وتلاوة وتفسيراً كما قال تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من نبى إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » وفى حديث عياض بن حماد فى صحيح مسلم يقول الله تعالى « إنى مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً » أى لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل لأنه قد جاء فى الحديث الآخر « لو كان القرآن فى إهاب ما أحرقته النار » ولأنه محفوظ فى الصدور ميسر على الألسنة مهيمن على القلوب معجز لفظا ومعنى ولهذا جاء فى الكتب المتقدمة فى صفة هذه الأمة أناجيلهم فى صدورهم ، واختار ابن جرير أن المعنى فى قوله تعالى (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تخطه بيمينك آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب ، ونقله عن قتادة وابن جريج وحكى الأول عن الحسن البصرى فقط قلت وهو الذى رواه العوفى عن ابن عباس وقاله الضحاك وهو الأظهر والله أعلم ، وقوله تعالى (وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) أى ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون أى المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه كما قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى

وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فى تعنتهم وطلبهم آيات يعنون ترشدهم إلى أن محمدا رسول الله كما أتى صالح بناقته قال الله تعالى (قل) يا محمد (إنما الآيات عند الله) أى إنما أمر ذلك إلى الله فانه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم لأن هذا سهل عليه يسير لديه ، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان فلا يجيبكم إلى ذلك كما قال تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون * وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) وقوله (وإنما أنا نذير مبين) أى إنما بعثت نذيراً لكم بين النذارة فعلى أن أبلغكم رسالة الله تعالى و (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشداً) وقال تعالى (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) ثم قال تعالى مبينا كثرة جهلهم وسخافة عقلهم حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه الذى هو أعظم من كل معجزة اذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته بل عن معارضة عشر سور من مثله بل عن معارضة سورة منه فقال تعالى (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) أى أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذى فيه خبر ماقبلهم ونبأ مابعدهم وحكم مابينهم وأنت رجل أمى لا تقرأ ولا تكتب ولم تخالط أحدا من أهل الكتاب فجئتهم بأخبار مافى الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح البين الجلى كما قال تعالى (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل) وقال تعالى (وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى) وقال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنا ليث حدثنى سعيد بن أبى سعيد عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « مامن الأنبياء من نبى إلا قد أعطى من الآيات مامثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » أخرجاه من حديث الليث . وقد قال الله تعالى (إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) أى إن فى هذا القرآن لرحمة أى بياناً للحق وإزاحة للباطل وذكرى بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين لقوم يؤمنون

ثم قال تعالى (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا) أى هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ويعلم ما أقول لكم من اخبارى عنه بأنه أرسلنى فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى كما قال تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات (يعلم مافى السموات والأرض) أى لا تخفى عليه خافية (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) أى يوم القيامة سيجزيهم على مافعلوا ويقابلهم على ماصنعوا فى تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل فسيجزيهم على ذلك إنه حكيم عليم

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن جهل المشركين فى استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم وبأس الله أن يحل عليهم كما قال تعالى (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وقال ههنا (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب) أى لولا ماحتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة

لجاءهم العذاب قريبا سريعا كما استعجلوه ثم قال (وليأتينهم بغتة) أى فجأة (وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) أى يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة. قال شعبة عن سماك عن عكرمة. قال فى قوله (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) قال البحر وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا عمر بن إسماعيل بن مجالد حدثنا أبى عن مجاهد عن الشعبي أنه سمع ابن عباس يقول (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) وجهنم هو هذا البحر الأخضر تنتثر الكواكب فيه وتكور فيه الشمس والقمر ثم يوقد فيكون هو جهنم وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عاصم أخبرنا عبد الله بن أمية حدثنى محمد بن حي أخبرنى صفوان بن يعلى عن أبيه أن النبي ﷺ قال « البحر هو جهنم » قالوا ليعلى فقال : ألا ترون أن الله تعالى يقول (ناراً أحاط بهم سرادقها) قال لا والذى نفس يعلى بيده لا أدخلها أبدا حتى أعرض على الله ولا يصيبنى منها قطرة حتى أعرض على الله تعالى هذا تفسير غريب وحديث غريب جداً والله أعلم ثم قال عز وجل (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) كقوله تعالى (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) وقال تعالى (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) وقال تعالى (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) الآية فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم وهذا أبلغ فى العذاب الحسى وقوله تعالى (ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون) تهديد وتقريع وتوبيخ وهذا عذاب معنوى على النفوس كقوله تعالى (يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شىء خلقناه بقدر) وقال تعالى (يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً * هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا اصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون)

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ * ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذى لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ولهذا قال تعالى (يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون) قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا بقية بن الوليد حدثنى جبير بن عمرو القرشى حدثنى أبو سعد الأنصارى عن أبى يحيى مولى الزبير بن العوام عن الزبير بن العوام قال : قال رسول الله ﷺ « البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيراً فأقم » ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير المنزلين هناك أصحمة النجاشى ملك الحبشة رحمه الله تعالى فآواهم وأيدهم بنصره وجعلهم سيوما ببلاده ثم بعد ذلك هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة ثم قال تعالى (كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون) أى أينما كنتم يدرككم الموت فكونوا فى طاعة الله وحيث أمركم الله فهو خير لكم فان الموت لا بد منه ولا محيد عنه ثم إلى الله المرجع والمآب فمن كان مطيعا له جازاه أفضل الجزاء ووافاه أتم الثواب ولهذا قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار) أى لنسكننهم منازل عالية فى الجنة تجرى من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن يصرفونها ويجرونها حيث شاءوا (خالدين فيها) أى ماكثين فيها أبدا لا يبغون عنها حولا (نعم أجر العاملين) نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين (الذين صبروا) أى على دينهم وهاجروا إلى الله ونابذوا الأعداء

وفارقوا الأهل والأقرباء ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده وتصديق موعوده قال ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا أبي أخبرنا صفوان المؤذن أخبرنا الوليد بن مسلم أخبرنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن جده أبي سلام الأسود حدثني أبو معاوية الأشعري أن أبا مالك الأشعري حدثه أن رسول الله ﷺ حدثه أن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام ، وتابع الصلاة والصيام وقام بالليل والناس نيام (وعلى ربهم يتوكلون) في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم . ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب فانهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار ولهذا قال تعالى (وكأين من دابة لا تحمل رزقها) أي لاتطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئا لغد (الله يرزقها وإياكم) أي الله يقيض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض ، والطير في الهواء والحيتان في الماء . قال تعالى (ومامن دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين) وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد ابن عبد الرحمن الهروي حدثنا يزيد يعني ابن هارون حدثنا الجراح بن منهال الجزري — هو أبو العطوف — عن الزهري عن رجل عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لي « يا ابن عمر مالك لا تأكل ؟ » قال قلت لا أشتهيه يا رسول الله قال « لكني أشتهيه وهذا صبح رابعة منذ لم أذق طعاما ولم أجده ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر ، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم بضعف اليقين ؟ » قال فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم) فقال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فان الحياة بيد الله ، ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهما ولا أخبأ رزقا لغد » هذا حديث غريب وأبو العطوف الجزري ضعيف وقد ذكروا أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض خرجوا وهم بيض فإذا رآهم أبواهم كذلك نفرا عنهم أياما حتى يسود الريش فيظل الفرخ فاتحاً فاه يتفقد أبويه فيقيض الله تعالى طيراً صغاراً كالبرغش فيغشاه فيتقوت به تلك الأيام حتى يسود ريشه والأبوان يتفقدانه كل وقت فكلما رأوه أبيض الريش نفرا عنه فإذا رأوه قد اسود ريشه عطفا عليه بالحضانة والرزق ولهذا قال الشاعر

يا رازق النعاب في عشه ✽ وجابر العظم الكسير المهيض

وقد قال الشافعي في جملة كلام له في الأوامر كقول النبي ﷺ « سافروا تصحوا وترزقوا » قال البيهقي أخبرنا إملاء أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان أخبرنا أحمد بن عبيد أخبرنا محمد بن غالب حدثني محمد بن سنان أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن يزداد شيخ من أهل المدينة حدثنا عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « سافروا تصحوا وتغنموا » قال ورويناه عن ابن عباس ، وقال الإمام أحمد حدثنا قبيصة أخبرنا ابن لهيعة عن دراج عن عبد الرحمن بن حجيرة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « سافروا تربحوا ، وصوموا تصحوا واغزوا تغنموا » وقد ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعا وعن معاذ بن جبل موقوفا ، وفي لفظ « سافروا مع ذوي الجد والميسرة » قال ورويناه عن ابن عباس وقوله (وهو السميع العليم) أي السميع لأقوال عباده العليم بحركاتهم وسكناتهم

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ✽ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ✽ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى مقرراً أنه لا إله إلا هو لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار ، وأنه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم ، واختلافها واختلاف أرزاقهم . فتفاوت بينهم فمنهم الغنى والفقير وهو العليم بما يصلح كلامنهم ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر ، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها ، فاذا كان الأمر كذلك فلم يعبد غيره ؟ ولم يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد فى ملكه فليكن الواحد فى عبادته وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقدكان المشركون يعترفون بذلك كما كانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * فَإِذَا رَكِبُوا فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها وغاية ما فيها لهو ولعب (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان) أى الحياة الدائمة الحق الذى لا زوال له ولا انقضاء بل هى مستمرة أبد الآباد ، وقوله تعالى (لو كانوا يعلمون) أى لآثروا ما يبقى على ما يفنى ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له فهلا يكون هذا منهم دائما (فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) كقوله تعالى (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم) الآية وقال ههنا (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) وقد ذكر محمد بن إسحاق عن عكرمة بن أبى جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها فلما ركب فى البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء فانه لا ينجى ههنا إلا هو فقال عكرمه والله لئن كان لا ينجى فى البحر غيره فانه لا ينجى فى البر أيضاً غيره اللهم لك على عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدى فى يد محمد فلأجدنه رءوفا رحيما فكان كذلك وقوله تعالى (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا) هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة لأنهم لا يقصدون ذلك ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهى لام التعليل ، وقد قدمنا تقرير ذلك فى قوله (ليكون لهم عدواً وحزنا)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ * وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

يقول تعالى ممتنا على قريش فيما أحلهم من حرمه الذى جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ومن دخله كان آمنا فهم فى أمن عظيم والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا كما قال تعالى (لإيلاف قريش) إلى آخر السورة . وقوله تعالى (أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون) أى أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد و (بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار) فكفروا بنبى الله وعبده ورسوله فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله وأن لا يشركوا به وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره فكذبوه فقاتلوه فأخرجوه من بين ظهرهم ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم به عليهم وقتل من قتل منهم ببدر ثم

صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين ففتح الله على رسوله مكة وأرغم آنافهم وأذل رقابهم ، ثم قال تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه) أى لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله فقال إن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء . ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه فالأول مفتر والثانى مكذب ولهذا قال تعالى (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) ثم قال تعالى (والذين جاهدوا فينا) يعنى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين (لنهدينهم سبلنا) أى لنبصرنهم سبلنا أى طرقنا فى الدنيا والآخرة . قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن أبى الحوارى أخبرنا عباس الهمدانى أبو أحمد من أهل عكا فى قول الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) قال الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون قال أحمد بن أبى الحوارى فحدثت به أبا سليمان يعنى الدارانى فأعجبه وقال ليس ينبغى لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه فى الأثر ، فإذا سمعه فى الأثر عمل به وحمد الله حتى وافق ما فى قلبه . وقوله (وإن الله لمع المحسنين) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عيسى بن جعفر قاضى الرى حدثنا أبو جعفر الرازى عن المغيرة عن الشعبى قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك والله أعلم . آخر تفسير سورة العنكبوت ولله الحمد والمنة .

﴿ تفسير سورة الروم وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصى بلاد الروم فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية وحاصره فيها مدة طويلة ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتى . وقال الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا أبو إسحاق عن سفيان الثورى عن حبيب بن أبى عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض) قال غلبت وغلبت ، قال كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب فذكر ذلك لأبى بكر فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما إنهم سيغلبون » فذكره أبو بكر لهم فقالوا اجعل بيننا وبينك أجلا فان ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ألا جعلتها إلى دون ـ أراه قال العشر ـ » قال سعيد بن جبير البضع ما دون العشر ثم ظهرت الروم بعد قال فذلك قوله (الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ـ إلى قوله ـ وهو العزيز الرحيم) هكذا رواه الترمذى والنسائى جميعا عن الحسين بن حريث عن معاوية بن عمرو عن أبى إسحاق الفزارى عن سفيان الثورى به وقال الترمذى حديث حسن غريب إنما نعرفه من حديث سفيان عن حبيب . ورواه ابن أبى حاتم عن محمد بن إسحاق الصاغانى عن معاوية بن عمرو به . ورواه ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا محمد بن سعيد أبو سعيد الثعلبى الذى يقال

له أبو سعد من أهل طرسوس حدثنا أبو إسحاق الفزارى فذكره ، وعندهم قال سفيان فبلغنى أنهم غلبوا بعد يوم بدر
﴿ حديث آخر ﴾ قال سليمان بن مهران الأعمش عن مسلم عن مسروق قال : قال عبد الله : خمس قد مضين : الدخان واللزام والبطشة ، والقمر . والروم . أخرجاه . وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا المحاربى عن داود بن أبى هند عن عامر — هو الشعبى — عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : كانت فارس ظاهرة على الروم وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم . وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم فلما نزلت (الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) قالوا يا أبابكر إن صاحبك يقول إن الروم تظهر على فارس فى بضع سنين قال : صدق قالوا هل لك أن تقامرك فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين فمضت السبع ولم يكن شىء ففرح المشركون بذلك فشق على المسلمين فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال « ما بضع سنين عندكم ؟ » قالوا دون العشر قال « اذهب فزايدهم وازدد سنتين فى الأجل » قال فمامضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ففرح المؤمنون بذلك وأنزل الله تعالى (الم * غلبت الروم — إلى قوله تعالى — وعد الله لا يخلف الله وعده) ﴿ حديث آخر ﴾ قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا أحمد بن عمر الوكيعى حدثنا مؤمن عن إسرائيل عن أبى إسحاق عن البراء قال لما نزلت (الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) قال المشركون لأبى بكر ألا ترى إلى ما يقوم صاحبك يزعم أن الروم تغلب فارس قال صدق صاحبى قالوا هل لك أن نخاطرك فجعل بينه وبينهم أجلا فحل الأجل قبل أن تغلب الروم فارس فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم وساءه ذلك وكرهه وقال لأبى بكر « مادعاك إلى هذا ؟ » قال تصديقاً لله ولرسوله . قال « تعرض لهم وأعظم لهم الخطر واجعله إلى بضع سنين » فأتاهم أبو بكر فقال هل لكم فى العود فإن العود أحمد؟ قالوا نعم فلم تمض تلك السنين حتى غلبت الروم فارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا الرومية ، فجاء أبو بكر إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هذا السحت، قال « تصدق به » ﴿ حديث آخر ﴾ قال أبو عيسى الترمذى حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا إسماعيل بن أبى أويس أخبرنى ابن أبى الزناد عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمى قال : لما نزلت (الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين) فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب وفى ذلك قوله تعالى (يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح فى نواحى مكة (الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين) فقال ناس من قريش لأبى بكر فذاك بيننا وبينكم زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس فى بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال بلى وذلك قبل تحريم الرهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان وقالوا لأبى بكر كم نجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين فسم بيننا وبينك وسطاً ننتهى إليه قال فسموا بينهم ست سنين قال فمضت ست السنين قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رهن أبى بكر فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس قال فعاب المسلمون على أبى بكر تسميته ست سنين قال لأن الله يقول فى بضع سنين قال فأسلم عند ذلك ناس كثير . هكذا ساقه الترمذى ثم قال هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن ابن أبى الزناد ، وقد روى نحو هذا مرسلا عن جماعة من التابعين مثل عكرمة والشعبى ومجاهد وقتادة والسدى والزهرى وغيرهم ومن أغرب هذه السياقات مارواه الإمام سنيد بن داود فى تفسيره حيث قال حدثنى حجاج عن أبى بكر بن عبد الله عن عكرمة قال : كان فى فارس امرأة لا تلد إلا الملوك الأبطال فدعاها كسرى فقال إنى أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً وأستعمل عليه رجلا من بنيك فأشيرى على أيهم أستعمل ؟ ! فقالت هذا فلان وهو أروغ من ثعلب وأحذر من صقر وهذا فرخان وهو أنفذ من سنان ، وهذا شهريراز وهو أحلم من كذا تعنى أولادها الثلاثة فاستعمل أيهم شئت ، قال فانى استعملت الحليم فاستعمل شهريراز فسار إلى الروم بأهل فارس فظهر عليهم فقتلهم وخرب مدائنهم وقطع

زيتونهم قال أبو بكر بن عبد الله فحدثت بهذا الحديث عطاء الخراسانى فقال أما رأيت بلاد الشام ؟ قلت: لا ، قال أما إنك لو رأيتها لرأيت المدائن التى خربت والزيتون الذى قطع فأتيت الشام بعد ذلك فرأيته .قال عطاء الخراسانى حدثنى يحيى بن يعمر أن قيصر بعث رجلا يدعى قطمة بجيش من الروم وبعث كسرى شهر براز فالتقيا بين أذرعات وبصرى وهى أدنى الشام إليكم فلقيت فارس الروم فغلبتهم فارس ففرحت بذلك كفار قريش وكرهه المسلمون . قال عكرمة : ولقى المشركون أصحاب النبى ﷺ وقالوا إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله تعالى (الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض — إلى قوله — ينصر من يشاء) فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا فلا تفرحوا ولا يقرن الله أعينكم فوالله ليظهرن الله الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم فقام إليه أبى بن خلف فقال كذبت يا أبا فضيل ، فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو الله فقال أناحبك عشر قلائص منى وعشر قلائص منك فان ظهرت الروم على فارس غرمت وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين ، ثم جاء أبو بكر إلى النبى ﷺ فأخبره فقال «ما هكذا ذكرت إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده فى الخطر وماده فى الأجل » فخرج أبو بكر فلقى أبيا فقال لعلك ندمت ؟ فقال لا ، تعال أزايدك فى الخطر وأمادك فى الأجل فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين قال قد فعلت فظهرت الروم على فارس قبل ذلك فغلبهم المسلمون . قال عكرمة لما أن ظهرت فارس على الروم جلس فرخان يشرب وهو أخو شهر براز فقال لأصحابه لقد رأيت كأنى جالس على سرير كسرى فبلغت كسرى فكتب كسرى إلى شهر براز إذا أتاك كتابى فابعث إلى برأس فرخان فكتب إليه شهر براز أيها الملك إنك لن تجد مثل فرخان له نكاية وصوت فى العدو فلا تفعل ، فكتب إليه إن فى رجال فارس خلفاً منه فعجل إلى برأسه . فراجعه فغضب كسرى فلم يجبه وبعث بريدا إلى أهل فارس إنى قد نزعت عنكم شهر براز واستعملت عليكم فرخان ثم رفع إلى البريد صحيفة لطيفة صغيرة فقال إذا ولى فرخان الملك وانقاد له أخوه فأعطه هذه ، فلما قرأ شهر براز الكتاب قال سمعا وطاعة ونزل عن سريره وجلس عليه فرخان ورفع إليه الصحيفة اللطيفة فلما قرأها قال ائتونى بشهر براز وقدمه ليضرب عنقه فقال شهر براز لا تعجل حتى أكتب وصيتى ، قال نعم فدعا بالسفط فأعطاه الصحائف فقال كل هذا راجعت فيك كسرى وأنت أردت أن تقتلنى بكتاب واحد فرد الملك إلى أخيه شهر براز وكتب شهر براز إلى قيصر ملك الروم إن لى إليك حاجة لا تحملها البرد ولا تحملها الصحف فالقنى ولا تلقنى إلا فى خمسين روميا فإنى لا ألقاك إلا فى خمسين فارسيا . فأقبل قيصر فى خمسمائة ألف رومى وجعل يضع العيون بين يديه فى الطريق وخاف أن يكون قد مكر به حتى أتاه عيونه بأنه ليس معه إلا خمسون رجلا ، ثم بسط لهما والتقيا فى قبة ديباج ضربت لهما مع كل واحد منهما سكين فدعيا ترجمانا بينهما فقال شهر براز إن الذين خربوا مدائنك أنا وأخى بكيدنا وشجاعتنا وإن كسرى حسدنا وأراد أن أقتل أخى فأبيت ثم أمر أخى أن يقتلنى فقد خلعنا جميعا فنحن نقاتله معك . قال قد أصبتما ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السر بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا قال أجل فقتلا الترجمان جميعا بسكينيهما فأهلك الله كسرى وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية ففرح والمسلمون معه . فهذا سياق غريب وبناء عجيب . ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمات فقوله تعالى (الم * غلبت الروم) قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور فى أول سورة البقرة ، وأما الروم فهم من سلالة العيص بن اسحق بن إبراهيم وهم أبناء عم بنى إسرائيل ويقال لهم بنو الأصفر وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ويقال لها المتحيرة ويصلون إلى القطب الشمالى وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها وفيه محاريب إلى جهة الشمال فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلثمائة سنة وكان من ملك منهم الشام مع الجزيرة يقال له قيصر فكان أول من دخل فى دين النصارى من ملوك الروم قسطنطين بن قسطس وأمه مريم الهيلانية الفندقانية من أرض حران كانت قد

تنصرت قبله فدعته إلى دينها وكان قبل ذلك فيلسوفا فتابعها يقال تقية واجتمعت به النصارى وتناظروا فى زمانه مع عبد الله بن أريوس واختلفوا اختلافا كثيرا منتشرا متشتتا لا ينضبط إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفاً فوضعوا لقسطنطين العقيدة وهى التى يسمونها الأمانة الكبيرة وإنما هى الخيانة الحقيرة ، ووضعوا له القوانين يعنون كتب الأحكام من تحريم وتحليل وغير ذلك مما يحتاجون اليه ، وغيروا دين المسيح عليه السلام ، وزادوا فيه ونقصوا منه فصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير ، واتخذوا أعيادا أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من البواغيث والشعانين ، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ثم البتاركة ثم المطارنة ثم الأساقفة والقساقسة ثم الشمامسة ، وابتدعوا الرهبانية ، وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد وأسس المدينة المنسوبة اليه وهى القسطنطينية يقال إنه بنى فى أيامه اثنى عشر ألف كنيسة ، وبنى بيت لحم بثلاث محاريب وبنت أمه القمامة ، وهؤلاء هم الملكية يعنون الذين هم على دين الملك ، ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف ثم النسطورية أصحاب نسطورا وهم فرق وطوائف كثيرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة » والغرض أنهم استمروا على النصرانية كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم هرقل ، وكان من عقلاء الرجال ومن أحزم الملوك وأدهاهم وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا فتملك عليهم فى رياسة عظيمة وأبهة كثيرة فناوأه كسرى ملك الفرس وملك البلاد كالعراق وخراسان والرى وجميع بلاد العجم وهو سابور ذو الأكتاف ، وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر وله رياسة العجم وحماقة الفرس وكانوا مجوسا يعبدون النار ، فتقدم عن عكرمة أنه قال بعث اليه نوابه وجيشه فقاتلوه ، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه فى بلاده فقهره وكسره وقصره حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية ، فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه وكانت النصارى تعظمه تعظيما زائدا ، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ولا أمكنه ذلك لحصانتها لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك ، فلما طال الأمر دبر قيصر مكيدة ورأى فى نفسه خديعة فطلب من كسرى أن يقلع من بلاده على مال يصالحه عليه ويشترط عليه ماشاء فأجابه إلى ذلك وطلب منه أموالا عظيمة لايقدر عليها أحد من ملوك الدنيا من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة ، فطاوعه قيصر وأوهمه أن عنده جميع ماطلب واستقل عقله لما طلب منه ماطلب ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عشره ، وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته ليسعى فى تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه فأطلق سراحه فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية جمع أهل ملته وقال : إنى خارج فى أمر قد أبرمته فى جند قد عينته من جيشى فان رجعت اليكم قبل الحول فأنا ملككم وإن لم أرجع اليكم قبلها فأنتم بالخيار إن شئتم استمررتم على بيعتى وإن شئتم وليتم عليكم غيرى فأجابوه بأنك ملكنا مادمت حيا ولو غبت عشرة أعوام ، فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة فى جيش متوسط هذا وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى إلى بلاد فارس فعاث فى بلادهم قتلا لرجالها ومن بها من المقاتلة أولا فأولا ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن وهى كرسى مملكة كسرى فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله وأسر نساءه وحريمه وحلق رأس ولده وركبه على حمار وبعث معه من الأساورة من قومه فى غاية الهوان والذلة وكتب إلى كسرى يقول هذا ماطلبت فخذه فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم مالا يحصيه إلا الله تعالى واشتد حنقه على البلد فجد فى حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك ، فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون التى لاسبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها ، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق اليها وهو أنه أرصد جنده وحواصله التى معه عند فم المخاضة وركب فى بعض الجيش وأمر بأحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه وسار الى قريب من يوم فى الماء مصعدا ثم أمر بالقاء تلك الأحمال فى النهر فلما مرت بكسرى وجنده ظن أنهم قد خاضوا من هنالك فركبوا فى طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض والخوض فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كسرى وجنوده ودخلوا القسطنطينية فكان ذلك يوماً مشهوداً

عند النصارى وبقى كسرى وجيوشه حائرين لايدرون ماذا يصنعون لم يحصلوا على بلاد قيصر وبلادهم قد خربتها الروم وأخذوا حواصلهم وسبوا ذراريهم ونساءهم فكان هذا من غلب الروم لفارس وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب فارس للروم ، وكانت الوقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى على ماذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما وهى طرف بلاد الشام مما يلى بلاد الحجاز ، وقال مجاهد كان ذلك فى الجزيرة وهى أقرب بلاد الروم من فارس فالله أعلم . ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين وهى تسع فان البضع فى كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع : وكذلك جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وغيرهما من حديث عبدالله بن عبدالرحمن الجمحى عن الزهرى عن عبيد الله بن عبدالله عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر فى مناحبة (الم * غلبت الروم) الآية « ألا احتطت يا أبا بكر فان البضع ما بين ثلاث إلى تسع ؟ » ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وروى ابن جرير عن عبدالله بن عمرو أنه قال ذلك والله أعلم . وقوله تعالى (لله الأمر من قبل ومن بعد) أى من قبل ذلك ومن بعده فبنى على الضم لما قطع المضاف وهو قوله قبل عن الاضافة ونويت (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) أى للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى ، وهم المجوس وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر فى قول طائفة كثيرة من العلماء كابن عباس والثورى والسدى وغيرهم وقد ورد فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم والبزار من حديث الأعمش عن عطية عن أبى سعيد قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به وأنزل الله (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) وقال الآخرون بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية . قاله عكرمة والزهرى وقتادة وغير واحد ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى ليمشين من حمص إلى إيليا وهو بيت المقدس شكراً لله تعالى ففعل ، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ الذى بعثه مع دحية بن خليفة فأعطاه دحية لعظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر . فلما وصل اليه سأل من بالشام من عرب الحجاز ، فأحضر له أبوسفيان صخر بن حرب الأموى فى جماعة من كبار قريش وكانوا بغزة فجىء بهم اليه فجلسوا بين يديه . فقال أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبوسفيان أنا فقال لأصحابه وأجلسهم خلفه إنى سائل هذا عن هذا الرجل فان كذب فكذبوه ، فقال أبوسفيان فوالله لولا أن يأثروا على الكذب لكذبت فسأله هرقل عن نسبه وصفته فكان فيما سأله أن قال : فهل يغدر ؟ قال قلت لا ونحن منه فى مدة لا ندرى ماهو صانع فيها يعنى بذلك الهدنة التى كانت قد وقعت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفار قريش عام الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديبية لأن قيصر إنما وفى بنذره بعد الحديبية والله أعلم . ولأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعثت فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ماينبغى له إصلاحه وتفقد بلاده ثم بعد أربع سنين من نصرته وفى بنذره والله أعلم : والأمر فى هذا سهل قريب إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين ، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك لأن الروم أهل كتاب فى الجملة فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس كما قال تعالى (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى — إلى قوله — ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) . وقال تعالى ههنا (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبوزرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنى أسيد الكلابى قال سمعت العلاء بن الزبير الكلابى يحدث عن أبيه قال رأيت غلبة فارس الروم ثم رأيت غلبة الروم فارس ، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم كل ذلك فى خمس عشرة سنة

وقوله تعالى (وهو العزيز) أى فى انتصاره وانتقامه من أعدائه (الرحيم) بعباده المؤمنين وقوله تعالى (وعد الله لا يخلف الله وعده) أى هذا الذى أخبرناك به يامحمد من أنا سننصر الروم على فارس وعد من الله حق وخبر صدق لا يخلف ولا بد من كونه ووقوعه لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق ويجعل لها

العاقبة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى بحكم الله فى كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل . وقوله تعالى (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) أى أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها فهم حذاق أذكياء فى تحصيلها ووجوه مكاسبها وهم غافلون فى أمور الدين وما ينفعهم فى الدار الآخرة كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة ، قال الحسن البصرى والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلى. وقال ابن عباس فى قوله تعالى (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) يعنى الكفار يعرفون عمران الدنيا وهم فى أمر الدين جهال

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

يقول تعالى منبهاً على التفكر فى مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها وأنه لا إله غيره ولا رب سواه فقال (أو لم يتفكروا فى أنفسهم) يعنى به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوى والسفلى وما بينهما من المخلوقات المتنوعة والأجناس المختلفة فيعلموا أنها ما خلقت سدى ولا باطلا بل بالحق وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة ولهذا قال تعالى (وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات من إهلاك من كفر بهم ونجاة من صدقهم فقال تعالى (أو لم يسيروا فى الأرض) أى بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين ولهذا قال (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة) أى كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم قوة أيها المبعوث إليهم محمد ﷺ وأكثر أموالا وأولادا ، وما أوتيتم معشار ما أوتوا ومكنوا فى الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه وعمروا فيها أعماراً طوالا فعمروها أكثر منكم . واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا أخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ، ولا حالت أموالهم وأولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله واستهزءوا بها وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم ولهذا قال تعالى (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات وكانوا بها يستهزئون) كما قال تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) وقال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقال تعالى (فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) وعلى هذا تكون السوأى منصوبة مفعولا لأساءوا وقيل بل المعنى فى ذلك (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى) أى كانت السوأى عاقبتهم لأنهم كذبوا بآيات الله وكانو بها يستهزئون . فعلى هذا تكون السوأى منصوبة خبر كان ، هذا توجيه ابن جرير ونقله عن ابن عباس وقتادة ، ورواه ابن أبى حاتم عنهما عن الضحاك بن مزاحم وهو الظاهر والله أعلم لقوله (وكانوا بها يستهزئون)

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن

شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰٓئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾

يقول تعالى (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) أى كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته (ثم إليه ترجعون) أى يوم القيامه فيجازى كل عامل بعمله . ثم قال (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) قال ابن عباس : ييأس المجرمون ، وقال مجاهد يفتضح المجرمون وفى رواية يكتئب المجرمون (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) أى ما شفعت فيهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم . ثم قال تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) قال قتادة هى والله الفرقة التى لا اجتماع بعدها ، يعنى أنه إذا رفع هذا إلى عليين وخفض هذا إلى أسفل سافلين فذلك آخر العهد بينهما ولهذا قال تعالى (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) قال مجاهد وقتادة : ينعمون وقال يحيى بن أبى كثير يعنى سماع الغناء . والحبرة أعم من هذا كله قال العجاج :

فالحمد لله الذى أعطى الحبر موالى الحق إن المولى شكر

﴿ فَسُبْحَٰنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾

هـذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده فى هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه عند المساء وهو إقبال الليل بظلامه وعند الصباح وهو إسفار النهار بضيائه . ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التحميد فقال تعالى (وله الحمد فى السموات والأرض) أى هو المحمود على ما خلق فى السموات والأرض ثم قال تعالى (وعشيا وحين تظهرون) فالعشاء هو شدة الظلام والاظهار قوة الضياء ، فسبحان خالق هذا وهذا فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا كما قال تعالى (والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها) وقال تعالى (والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى) وقال تعالى (والضحى والليل إذا سجى) والآيات فى هذا كثيرة وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا زياد بن فايد عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال « ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » . وقال الطبرانى حدثنا مطلب بن شعيب الأزدى حدثنا عبد الله بن صالح حدثنى الليث بن سعد عن سعيد بن بشير عن محمد بن عبد الرحمن بن البيلمانى عن أبيه عن عبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ قال « من قال حين يصبح سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون الآية بكمالها أدرك ما فاته فى يومه ومن قالها حين يمسى أدرك ما فاته فى ليلته » إسناد جيد[1] ورواه أبو داود فى سننه وقوله تعالى (يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة ، وهـذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هـذا النمط فانه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ليدل خلقه على كمال قدرته فمن ذلك إخراج النبات من الحب والحب من النبات ، والبيض من الدجاج والدجاج من البيض ، والإنسان من النطفة والنطفة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وقوله تعالى (ويحيى الأرض بعد موتها) كقوله تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون — إلى قوله — وفجرنا فيها من العيون) وقال تعالى (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت

(١) فى النسخة المكية : ضعيف

وربتت وأنت من كل زوج بهيج ــ إلى قوله ــ وأن الله يبعث من فى القبور) وقال تعالى (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا ــ إلى قوله ــ لعلكم تذكرون) ولهذا قال ههنا (وكذلك تخرجون)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى (ومن آياته) الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) فأصلكم من تراب ثم من ماء مهين ثم تصور فكان علقة ثم مضغة ثم صار عظاما شكله على شكل الإنسان ثم كسا الله تلك العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير ، ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيف القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبنى المدائن والحصون ويسافر فى أقطار الأقاليم ويركب متن البحور ويدور أقطار الأرض ويكتسب ويجمع الأموال وله فكرة وغور ودهاء ومكر ورأى وعلم واتساع فى أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه ، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم فى فنون المعايش والمكاسب وفاوت بينهم فى العلوم والفكر ، والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ، ولهذا قال تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد وغندر قالا حدثنا عوف عن قسامة بن زهير عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك » ورواه أبو داود والترمذى من طرق عن عوف الأعرابى به وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . وقوله تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا) أى خلق لكم من جنسكم إناثا تكون لكم أزواجا (لتسكنوا إليها) كما قال تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) يعنى بذلك حواء خلقها الله من آدم من ضلعه الاقصر الأيسر . ولو أنه تعالى جعل بنى آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم إما من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببنى آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم وجعل بينهم وبينهن مودة وهى المحبة ورحمة وهى الرأفة فان الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد أو محتاجة إليه فى الانفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

يقول تعالى (ومن آياته) الدالة على قدرته العظيمة (خلق السموات والأرض) أى خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، وخلق الأرض فى انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار . وقوله تعالى (واختلاف ألسنتكم) يعنى اللغات فهؤلاء بلغة العرب وهؤلاء تترلهم لغة أخرى وهؤلاء كرج وهؤلاء روم وهؤلاء فرنج وهؤلاء بربر وهؤلاء تكرور وهؤلاء حبشة وهؤلاء هنود وهؤلاء عجم وهؤلاء صقالبة وهؤلاء خزر وهؤلاء أرمن وهؤلاء أكراد إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى من اختلاف لغات بنى آدم واختلاف ألوانهم وهى حلاهم فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان وليس يشبه واحد منهم الآخر بل لابدأن

يفارقه بشيء من السمت أو الهيئة أو الكلام ظاهرا كان أو خفيا يظهر عند التأمل كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لاتشبه أخرى ، ولو توافق جماعة فى صفة من جمال أو قبح لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر (إن فى ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله) أى ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم فى الليل ، والنهار فيه تحصل الراحة وسكون الحركة وذهاب الكلال والتعب وجعل لكم الانتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار وهذا ضد النوم (إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) أى يعون ، قال الطبرانى حدثنا حجاج بن عمران السدوسى حدثنا عمرو بن الحصين العقيلى حدثنا محمد بن عبد الله بن علاثة حدثنا ثور بن يزيد عن خالد بن معدان سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: أصابنى أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال « قل اللهم غارت النجوم وهدأت العيون وأنت حى قيوم يا حى يا قيوم أنم عينى وأهدىء ليلى » فقلتها فذهب عنى .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾

يقول تعالى (ومن آياته) الدالة على عظمته أنه (يريكم البرق خوفا وطمعا) أى تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق متلفة وتارة ترجون وميضه وما يأتى بعده من المطر المحتاج إليه ، ولهذا قال تعالى (وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها) أى بعد ما كانت هامدة لانبات فيها ولا شىء ، فلما جاءها الماء (اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) وفى ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة ولهذا قال (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) ثم قال تعالى (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) كقوله تعالى (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه) وقوله (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا اجتهد فى اليمين قال . والذى تقوم السماء والأرض بأمره أى هى قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم ولهذا قال تعالى (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) أى من الأرض كما قال تعالى (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) وقال تعالى (فإنما هى زجرة واحدة * فإذاهم بالساهرة) وقال تعالى (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون)

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

يقول تعالى (وله من فى السموات والأرض) أى ملكه وعبيده (كل له قانتون) أى خاضعون خاشعون طوعا وكرها . وفى حديث دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد مرفوعا « كل حرف فى القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » وقوله (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى أيسر عليه ، وقال مجاهد الإعادة أهون عليه من البداءة والبداءة عليه هينة وكذا قال عكرمة وغيره وروى البخارى حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب أخبرنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما

بدأني وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » انفرد بإخراجه البخاري كما انفرد بروايته أيضا من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة به وقد رواه الإمام أحمد منفردا به عن حسن بن موسى عن ابن لهيعة حدثنا أبو يونس سليم بن جبير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه أو مثله . وقال آخرون كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء وقال العوفي عن ابن عباس كل عليه هين وكذا قاله الربيع بن خثيم ومال اليه ابن جرير وذكر عليه شواهد كثيرة قال ويحتمل أن يعود الضمير في قوله (وهو أهون عليه) إلى الخلق أي وهو أهون على الخلق . وقوله (وله المثل الأعلى في السموات والأرض) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كقوله تعالى (ليس كمثله شيء) وقال قتادة مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره ، وقال مثل هذا ابن جرير . وقد أنشد بعض المفسرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف :

إذا سكن الغدير على صفاء ... وجنب أن يحركه النسيم
يرى فيه السماء بلا امتراء ... كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قلوب أرباب التجلي ... يرى في صفوها الله العظيم

وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع بل قد غلب كل شيء وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه الحكيم في أقواله وأفعاله شرعا وقدرا وعن مالك في تفسيره المروى عنه عن محمد بن المنكدر في قوله تعالى (وله المثل الأعلى) قال لا إله إلا الله

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به العابدين معه غيره الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ملك له كما كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . فقال تعالى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) أي تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم (هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء) أي يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكا له في ماله فهو وهو فيه على السواء (تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) أي تخافون أن يقاسموكم الأموال . قال أبو مجلز إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك وليس له ذاك . كذلك الله لا شريك له . والمعنى أن أحدكم يأنف من ذلك فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه وهذا كقوله تعالى (ويجعلون لله ما يكرهون) أي من البنات حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً وجعلوها بنات الله وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب فهم يأنفون من البنات وجعلوا الملائكة بنات الله فنسبوا إليه مالا يرتضونه لأنفسهم فهذا أغلظ الكفر وهكذا في هذا المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقه وأحدهم يأبى غاية الاباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك أن يكون عبده شريكه في ماله يساويه فيه ولو شاء لقاسمه عليه (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا)

قال الطبراني حدثنا محمود بن الفرج الأصبهاني حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي حدثنا حماد عن شعيب عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان يلبي أهل الشرك لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . فأنزل الله تعالى (هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) ولما كان التنبيه بمثل هذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الأولى والأحرى . قال تعالى (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) ثم قال تعالى مبينا أن المشركين إنما عبدوا غيره سفها من أنفسهم وجهلا (بل اتبع الذين ظلموا) أي المشركون (أهواءهم) أي في عبادتهم الأنداد بغير علم (فمن يهدي من أضل الله) أي فلا أحد يهديهم إذا

كتب الله ضلالهم (وما لهم من ناصرين) أى ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير ولا محيد لهم عنه لأنه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾

يقول تعالى : فسدد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم الذى هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التى فطر الله الخلق عليها فانه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لاإله غيره كما تقدم عند قوله تعالى (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى) وفى الحديث « إنى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم » وسنذكر فى الأحاديث أن الله تعالى فطر خلقه على الإسلام ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية والنصرانية والمجوسية . وقوله تعالى (لا تبديل لخلق الله) قال بعضهم معناه لاتبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التى فطرهم الله عليها فيكون خبرا بمعنى الطلب كقوله تعالى (ومن دخله كان آمنا) وهو معنى حسن صحيح ، وقال آخرون هو خبر على بابه ومعناه أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم فى الفطرة على الجبلة المستقيمة لايولد أحد إلا على ذلك ولا تفاوت بين الناس فى ذلك . ولهذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعى وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وابن زيد فى قوله (لاتبديل لخلق الله) أى لدين الله ، وقال البخارى قوله (لاتبديل لخلق الله) لدين الله، خلق الأولين دين الأولين ، الدين والفطرة الإسلام . حدثنا عبدان أخبرنا عبدالله أخبرنا يونس عن الزهرى أخبرنى أبوسلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » ثم يقول (فطرت الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) ورواه مسلم من حديث عبد الله بن وهب عن يونس بن يزيد الأيلى عن الزهرى به ، وأخرجاه أيضا من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ وفى معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة . فمنهم الأسود بن سريع التميمى . قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا يونس عن الحسن عن الأسود ابن سريع قال : أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه فأصبت ظفرا فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « مابال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ؟ » فقال رجل يارسول الله أماهم أبناء المشركين فقال لا إنما خياركم أبناء المشركين - ثم قال - لا تقتلوا ذرية لا تقتلوا ذرية - وقال - كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها » ورواه النسائى فى كتاب السير عن زياد بن أيوب عن هشيم عن يونس وهو ابن عبيد عن الحسن البصرى به . ومنهم جابر بن عبدالله الأنصارى قال الإمام أحمد حدثنا هاشم ثنا أبوجعفر عن الربيع بن أنس عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فاذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً » ومنهم عبدالله بن عباس الهاشمى . قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبوعوانة حدثنا أبوبشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن أولاد المشركين فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم » أخرجاه فى الصحيحين من حديث أبى بشر جعفر بن إياس اليشكرى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعا بذلك ، وقد قال الإمام أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا حماد يعنى ابن سلمة أنبأنا عمار بن أبى عمار عن ابن عباس قال : أتى على زمان وأنا أقول أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين وأولاد المشركين مع المشركين حتى حدثنى فلان

عن فلان أن رسـول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » قال فلقيت الرجل فأخبرني فأمسكت عن قولي ، ومنهم عياض بن حمـار المجاشعي قال الإمام أحمد حـدثنا يحيى بن سعيد حـدثنا هشام عن قتادة عن مطرف عن عياض بن حمار أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم فقال في خطبته « إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا : كل ما نحلته عبادي حلال . وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطانا ، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشا فقلت رب إذا يثلغ رأسي فيدعه خبزة قال استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك وأنفق فسننفق عليك وابعث جيشا نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك — قال — : وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم ورجل عفيف متعفف ذو عيال — قال — وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبع لا يبتغون أهلا ولا مالا ، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه . ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك » وذكر البخيل والكذاب والشنظير الفحاش . انفرد بإخراجه مسلم فرواه من طرق عن قتادة به وقوله تعالى (ذلك الدين القيم) أي التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي فلهذا لا يعرفه أكثر الناس فهم عنه ناكبون كما قال تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقال تعالى (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) الآية . وقوله تعالى (منيبين إليه) قال ابن زيد وابن جريج أي راجعين إليه (واتقوه) أي خافوه وراقبوه (وأقيموا الصلاة) وهي الطاعة العظيمة (ولا تكونوا من المشركين) أي بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة لا يريدون بها سواه ، قال ابن جرير حـدثني يحيى بن واضح حـدثنا يونس بن إسحاق عن يزيد بن أبي مريم قال مر عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل فقال عمر ما قوام هذه الأمة ؟ قال معاذ : ثلاث وهن المنجيات الإخلاص وهي الفطرة فطرة الله التي فطر النـاس عليها والصلاة وهي الملة ، والطاعة وهي العصمة فقال عمر صدقت . حدثني يعقوب أنبأنا ابن علية أنبأنا أيوب عن أبي قلابة أن عمر رضي الله عنه قال لمعاذ ما قوام هذا الأمر ؟ فذكر نحوه وقوله تعالى (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون) أي لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أي بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وقرأ بعضهم فارقوا دينهم أي تركوه وراء ظهورهم وهؤلاء كاليهودي والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام كما قال تعالى (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله) الآية فأهـل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة . وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسـول الله ﷺ وبمـا كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه كما رواه الحاكم في مستدركه أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم فقال « من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي »

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ * وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم فى حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم فى حالة الاختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره . وقوله تعالى (ليكفروا بما آتيناهم) هى لام العاقبة عند بعضهم ولام التعليل عند آخرين ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك ثم توعدهم بقوله (فسوف تعلمون) قال بعضهم والله لو توعدنى حارس درب لخفت منه فكيف والمتوعد ههنا هو الذى يقول للشىء كن فيكون ثم قال تعالى منكراً على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان (أم أنزلنا عليهم سلطانا) أى حجة (فهو يتكلم) أى ينطق (بما كانوا به يشركون) وهذا استفهام إنكار أى لم يكن لهم شىء من ذلك،ثم قال تعالى (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووفقه فان الإنسان إذا أصابته نعمة بطر . وقال (ذهب السيئات عنى انه لفرح فخور) أى يفرح فى نفسه ويفخر على غيره وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية . قال الله تعالى (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) أى صبروا فى الضراء وعملوا الصالحات فى الرخاء كما ثبت فى الصحيح « عجباً للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » وقوله تعالى (أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله فيوسع على قوم ويضيق على آخرين (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون)

﴿ فَئَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَٰلِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَٰنَهُ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً بإعطاء (ذى القربى حقه) أى من البر والصلة (والمسكين) وهو الذى لا شىء له ينفق عليه أوله شىء لايقوم بكفايته (وابن السبيل) وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه فى سفره (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) أى النظر إليه يوم القيامة وهوالغاية القصوى (وأولئك هم المفلحون) أى فى الدنيا والآخرة.ثم قال تعالى (وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله) أى من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم فهذا لاثواب له عند الله ، بهذا فسره ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب والشعبى،وهذا الصنيع مباح وإن كان لاثواب فيه إلا أنه قد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ، قاله الضحاك واستدل بقوله تعالى (ولا تمنن تستكثر) أى لا تعط العطاء تريد أكثر منه ؟ وقال ابن عباس : الربا رباءان ، فربا لايصح : يعنى ربا البيع ؟ وربا لا بأس به وهو هدية الرجل يريد فضلها ، أضعافها ثم تلا هذه الآية (وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله) وإنما الثواب عند الله فى الزكاة ولهذا قال تعالى (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) أى الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء كما جاء فى الصحيح « وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب الا أخذها الرحمن بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أحد » وقوله عزوجل (الله الذى خلقكم ثم رزقكم) أى هو الخالق الرازق يخرج الإنسان من بطن أمه عريانا لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك والرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب كما قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سلام بن شرحبيل عن حبة وسواء ابنى خالد قالا دخلنا على النبى ﷺ وهو يصلح شيئا فأعناه فقال « لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رءوسكما فإن الإنسان

تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ثم يرزقه الله عز وجل » وقوله تعالى (ثم يميتكم) أى بعد هذه الحياة (ثم يحييكم) أى يوم القيامة ، وقوله تعالى (هل من شركائكم) أى الذين تعبدونهم من دون الله (من يفعل من ذلكم من شىء ؟) أى لا يقدر أحد منهم على فعل شىء من ذلك بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق والاحياء والاماتة ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ولهذا قال بعد هذا كله (سبحانه وتعالى عما يشركون) أى تعالى وتقدس وتنزه وتعاظم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساو أو ولد أو والد بل هو الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * قُلْ سِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾

قال ابن عباس وعكرمة والضحاك والسدى وغيرهم المراد بالبر ههنا الفيافى وبالبحر الأمصار والقرى وفى رواية عن ابن عباس وعكرمة : البحر الأمصار والقرى ما كان منها على جانب نهر ، وقال آخرون بل المراد بالبر هو البر المعروف وبالبحر هو البحر المعروف . وقال زيد بن رفيع (ظهر الفساد) يعنى انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط وعن البحر يعنى دوابه . رواه ابن أبى حاتم وقال حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد بن المقرى عن سفيان عن حميد بن قيس الأعرج عن مجاهد (ظهر الفساد فى البر والبحر) قال فساد البر قتل ابن آدم وفساد البحر أخذ السفينة غصبا ، وقال عطاء الخراسانى المراد بالبر ما فيه من المدائن والقرى وبالبحر جزائره . والقول الأول أظهر وعليه الأكثرون ، ويؤيده ما قاله محمد بن إسحاق فى السيرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح ملك أيلة وكتب إليه ببحره يعنى ببلده ومعنى قوله تعالى (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس) أى بان النقص فى الزروع والثمار بسبب المعاصى . وقال أبو العالية . من عصى الله فى الأرض فقد أفسد فى الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود « لحد يقام فى الأرض أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحا » والسبب فى هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطى المحرمات وإذا تركت المعاصى كان سببا فى حصول البركات من السماء والأرض . ولهذا إذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام فى آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة فى ذلك الوقت من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية وهو تركها فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف فإذا أهلك الله فى زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج قيل للأرض أخرجى بركتك فيأكل من الرمانة الفئام من الناس ويستظلون بقحفها ، ويكفى لبن اللقحة الجماعة من الناس وماذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة محمد ﷺ فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير . ولهذا ثبت فى الصحيحين أن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب وقال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا محمد والحسين قالا حدثنا عوف عن أبى مخذم قال وجد رجل فى زمان زياد أو ابن زياد صرة فيها حب يعنى من بر أمثال النوى مكتوب فيها هذا نبت فى زمان كان يعمل فيه بالعدل ، وروى مالك عن زيد ابن أسلم أن المراد بالفساد ههنا الشرك وفيه نظر وقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذى عملوا) الآية أى يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبارا منه لهم ومجازاة على صنيعهم (لعلهم يرجعون) أى عن المعاصى كما قال تعالى (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) ثم قال تعالى (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) أى من قبلكم (كان أكثرهم مشركين) أى فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ * مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ

كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة فى طاعته والمبادرة إلى الخيرات (فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله) أى يوم القيامة إذا أراد كونه فلاراد له (يومئذ يصدعون) أى يتفرقون ففريق فى الجنة وفريق فى السعير ولهذا قال تعالى (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون * ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) أى يجازيهم مجازاة الفضل ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائه ضعف إلى ما يشاء الله (إنه لا يحب الكافرين) ومع هذا هو العادل فيهم الذى لا يجور

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يذكر تعالى نعمه على خلقه فى إرساله الرياح مبشرات بين يدى رحمته بمجيء الغيث عقبها ولهذا قال تعالى (وليذيقكم من رحمته) أى المطر الذى ينزله فيحيي به العباد والبلاد (ولتجرى الفلك بأمره) أى فى البحر وإنما سيرها بالريح (ولتبتغوا من فضله) أى فى التجارات والمعايش والسير من إقليم إلى إقليم وقطر إلى قطر (ولعلكم تشكرون) أى تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التى لا تعد ولا تحصى . ثم قال تعالى (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا) هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ماجاءوا أممهم به من الدلائل الواضحات . ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) أى هو حق أوجبه على نفسه الكريمة تكرما وتفضلا كقوله تعالى (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وروى ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن نفيل حدثنا موسى بن أعين عن ليث عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما من امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » ثم تلا هذه الآية (وكان حقا علينا نصر المؤمنين)

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ * فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذى ينزل منه الماء فقال تعالى (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا) إما من البحر كما ذكره غير واحد أو مما يشاء الله عز وجل (فيبسطه فى السماء كيف يشاء) أى يمده فيكثره وينميه ويجعل من القليل كثيرا ينشىء سحابة ترى فى رأى العين مثل الترس ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق ، وتارة يأتى السحاب من نحو

البحر ثقالا مملوءة كما قال تعالى (وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمه حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت — إلى قوله — كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) وكذلك قال ههنا (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا) قال مجاهد وأبو عمرو بن العلاء ومطر الوراق وقتادة يعنى قطعا . وقال غيره متراً كما كما قاله الضحاك وقال غيره : أسود من كثرة الماء تراه مدلهما ثقيلا قريبا من الأرض وقوله تعالى (فترى الودق يخرج من خلاله) أى فترى المطر وهو القطر يخرج من بين ذلك السحاب (فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون) أى لحاجتهم اليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله اليهم . وقوله تعالى (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قانطين أزلين من نزول المطر اليهم قبل ذلك فلما جاءهم جاءهم على فاقة فوقع منهم موقعا عظيما ، وقد اختلف النحاة فى قوله (من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) فقال ابن جرير هو تأكيد ، وحكاه عن بعض أهل العربية . وقال آخرون من قبل أن ينزل عليهم المطر من قبله أى الانزال لمبلسين ، ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس ويكون معنى الكلام أنهم كانوا محتاجين اليه قبل نزوله ومن قبله أيضا قد فات عندهم نزوله وقتا بعد وقت فترقبوه فى إبانه فتأخر ثم مضت مدة فترقبوه فتأخر ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط فبعد ما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ولهذا قال تعالى (فانظر إلى آثار رحمة الله) يعنى المطر (كيف يحيي الأرض بعد موتها) ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها فقال تعالى (إن ذلك لمحي الموتى) أى إن الذى فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات (إنه على كل شىء قدير) ثم قال تعالى (ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون) يقول تعالى (ولئن أرسلنا ريحاً) يابسة على الزرع الذى زرعوه ونبت وشب واستوى على سوقه فرأوه مصفرا أى قد اصفر وشرع فى الفساد لظلوا من بعده أى بعد هذا الحال يكفرون أى يجحدون ماتقدم إليهم من النعم كقوله تعالى (أفرأيتم ما تحرثون — إلى قوله — بل نحن محرومون) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع حدثنا هشيم عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبيد الله بن عمرو قال : الرياح ثمانية أربعة منها رحمة وأربعة منها عذاب ، فأما الرحمة فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات ، وأما العذاب فالعقيم والصرصر وهما فى البر والعاصف والقاصف وهما فى البحر فاذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدى رحمته ولاقحا للسحاب تلقحه بحمله الماء كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل ، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيما وأودعه عذابا أليما وجعله نقمة على من يشاء من عباده فيجعله صرصراً وعاتيا ومفسدا لما يمر عليه والرياح مختلفة فى مهابها صبا ، ودبور وجنوب وشمال ، وفى منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف فريح لينة رطبة تغذى النبات وأبدان الحيوان وأخرى تجففه ، وأخرى تهلكه وتعطبه ، وأخرى تسيره وتصلبه ، وأخرى توهنه وتضعفه وقال ابن أبى حاتم حدثنا ابن عبيدالله بن أخى ابن وهب حدثنا عمى حدثنا عبد الله بن عياش حدثنى عبد الله بن سليمان عن دراج عن عيسى بن هلال الصدفى عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « الريح مسخرة فى الثانية — يعنى الأرض الثانية — فلما أراد الله أن يهلك عادا أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عاداً فقال يارب أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور ، قال له الجبار تبارك وتعالى ، لا إذاً تكفأ الأرض ومن عليها ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم فهى التى قال الله فى كتابه (ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) » هذا حديث غريب ورفعه منكر والأظهر أنه من كلام عبد الله بن عمرو رضى الله عنه

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى كما أنك ليس فى قدرتك أن تسمع الأموات فى أجداثها ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون وهم مع ذلك مدبرون عنك كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردهم عن ضلالتهم بل ذلك إلى الله فانه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ويهدى من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال تعالى (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) أى خاضعون مستجيبون مطيعون فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين كما قال تعالى (إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون) وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بهذه الآية (إنك لا تسمع الموتى) على توهيم عبد الله ابن عمر فى روايته مخاطبة النبى ﷺ القتلى الذين ألقوا فى قليب بدر بعد ثلاثة أيام ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر يارسول الله ما تخاطب من قوم قد جيفوا ؟ فقال « والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون » وتأولته عائشة على أنه قال « إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق » وقال قتادة أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقريعاً وتوبيخاً ونقمة ، والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك مارواه ابن عبد البر مصححاً له عن ابن عباس مرفوعاً « مامن أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام » وثبت[1] عنه ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم السلام عليكم دار قوم مؤمنين وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب العدوم والجماد ، والسلف مجمعون على هذا وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحى له ويستبشر فروى ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إذا مر الرجل بقبر يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام ، وروى ابن أبى الدنيا باسناده عن رجل من آل عاصم الجحدرى قال رأيت عاصما الجحدرى فى منامى بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مت ؟ قال بلى ، قلت فأين أنت ؟ قال أنا والله فى روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزنى فنتلقى أخباركم . قال قلت أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال هيهات قد بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح ، قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال نعم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قال قلت فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال لفضل يوم الجمعة وعظمته قال وحدثنا محمد بن الحسين ثنا بكر بن محمد ثنا حسن القصاب قال كنت أغدو مع محمد بن واسع فى كل غداة سبت حتى نأتى أهل الجبان فنقف على القبور فنسلم عليه وندعو لهم ثم ننصرف فقلت ذات يوم لو صيرت هذا اليوم يوم الاثنين ؟ قال بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبلها ويوما بعدها . قال ثنا محمد ثنا عبد العزيز بن أبان قال ثنا سفيان الثورى قال بلغنى عن الضحاك أنه قال : من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته ، فقيل له وكيف ذلك ؟ قال لمكان يوم الجمعة . حدثنا خالد بن خداش ثنا جعفر بن سليمان عن أبى التياح يقول كان مطرف يغدو فاذا كان يوم الجمعة أدلج . قال وسمعت أبا التياح يقول بلغنا أنه كان ينزل بغوطة فأقبل ليلة حتى إذا كان عند المقابر يقوم وهو على فرسه فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره فقالوا هذا مطرف يأتى الجمعة ويصلون عندكم يوم الجمعة ؟ قالوا نعم ونعلم مايقول فيه الطير . قلت ومايقولون ؟ قال يقولون سلام عليكم ؟ حدثنى محمد ابن الحسن ثنا يحيى بن أبى بكر ثنا الفضل ابن الموفق ابن خال سفيان بن عيينة قال لما مات أبى جزعت عليه جزعا شديدا فكنت آتى قبره فى كل يوم ثم قصرت عن ذلك ماشاء الله ثم أنى أتيته يوما فبينا أنا جالس عند القبر غلبتنى عيناى فنمت فرأيت كأن قبر أبى قد انفرج وكأنه قاعد فى قبره متوشح أكفانه عليه سحنة الموتى قال فكأنى بكيت لما رأيته قال يابنى ما أبطأبك عنى قلت وإنك لتعلم بمجيئى ؟ قال ماجئت مرة إلا علمتها وقد كنت تأتينى فأسر بك ويسر من حولى بدعائك قال فكنت آتيه بعد ذلك كثيراً ، حدثنى محمد حدثنا يحيى بن بسطام ثنا عثمان بن سويد الطفاوى قال وكانت

[1] من هنا إلى الآية التالية زيادة من النسخة المكية وهو غير موجود فى النسخة الأميرية .

أمه من العابدات وكان يقال لها راهبة قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت يا ذخرى ودخيرتى من عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى لا تخذلنى عند الموت ولا توحشنى . قال فماتت فكنت آتيها فى كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور فرأيتها ذات يوم فى منامى فقلت لها يا أمى كيف أنت ؟ قالت أى بنى إن للموت لكربة شديدة وإنى بحمد الله لفى برزخ محمود يفرش فيه الريحان ونتوسد السندس والاستبرق إلى يوم النشور فقلت لها ألك حاجة ؟ قالت نعم ، قلت وما هى ؟ قالت لا تدع ما كنت تصنع من زياراتنا والدعاء لنا فانى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك يقال لى يا راهبة هذا ابنك قد أقبل فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات ، حدثنى محمد حدثنا محمد بن عبد العزيز ابن سليمان حدثنا بشر بن منصور قال لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان فيشهد الصلاة على الجنائز فإذا أمسى وقف على المقابر فقال آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم ، وتجاوز عن مسيئكم ، وقبل حسناتكم لا يزيد على هؤلاء الكلمات قال فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، قال فبينا أنا نائم إذا بخلق قد جاءونى فقلت ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا نحن أهل المقابر ، قلت ما حاجتكم ؟ قالوا إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت وما هى ؟ قالوا الدعوات التى كنت تدعو بها ، قال قلت فإنى أعود لذلك ، قال فما تركتها بعد ، وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه . قال عبد الله بن المبارك حدثنى ثور بن يزيد عن إبراهيم عن أيوب قال تعرض أعمال الأحياء على الموتى فإذا رأوا حسنا فرحوا واستبشروا ، وإن رأوا سوءاً قالوا اللهم راجع به

وذكر ابن أبى الدنيا عن أحمد بن أبى الحوارى قال ثنا محمد أخى قال دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال عظنى ، قال بم أعظك أصلحك الله ؟ بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته . قال ابن أبى الدنيا وحدثنى محمد بن الحسين ثنى خالد بن عمرو الأموى ثنا صدقة بن سليمان الجعفرى قال : كانت لى شرة سمجة فمات أبى فتبت وندمت على ما فرطت ثم زللت أيما زلة فرأيت أبى فى المنام فقال أى بنى ما كان أشد فرحى بك وأعمالك تعرض علينا فنشبهها بأعمال الصالحين فلما كانت هذه المرة استحييت لذلك حياء شديداً فلا تخزنى فيمن حولى من الأموات قال فكنت أسمعه بعد ذلك يقول فى دعائه فى السحر وكان جاراً لى بالكوفة أسألك إيابة لا رجعة فيها ولا حور يا مصلح الصالحين ويا هادى المضلين ويا أرحم الراحمين . وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة ، وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول : اللهم إنى أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة ، كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله . وقد شرع السلام على الموتى ، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال وقد علم النبى ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية ، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد وإن لم يسمع المسلم الرد والله أعلم

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾

ينبه تعالى على تنقل الإنسان فى أطوار الخلق حالا بعد حال فأصله من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم يصير عظاما ثم تكسى العظام لحما وينفخ فيه الروح ثم يخرج من بطن أمه ضعيفا نحيفا واهن القوى ثم يشب قليلا قليلا حتى يكون صغيراً ثم حدثا ثم مراهقا ثم شابا وهو القوة بعد الضعف ثم يشرع فى النقص فيكتهل ثم يشيخ ثم يهرم وهو الضعف بعد القوة فتضعف الهمة والحركة والبطش وتشيب اللمة وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة ، ولهذا قال تعالى (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء) أى يفعل ما يشاء ويتصرف فى عبيده بما يريد (وهو العليم القدير) قال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن فضيل ويزيد حدثنا فضيل بن مرزوق عن عطية العوفى قال : قرأت على ابن عمر (الله

الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعدضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا) فقال (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا) ثم قال قرأت على رسول الله ﷺ كما قرأت على فأخذ على كما أخذت عليك ، ورواه أبو داود والترمذى وحسنه من حديث فضيل به ورواه أبو داود من حديث عبد الله بن جابر عن عطية عن أبى سعيد بنحوه

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

يخبر تعالى عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة ففى الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ،وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضا فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة فى الدنيا ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم . قال الله تعالى (كذلك كانوا يؤفكون * وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث) أى فيرد عليهم المؤمنون العلماء فى الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله فى الدنيا فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غيرساعة (لقد لبثتم فى كتاب الله) أى فى كتاب الأعمال (إلى يوم البعث) أى من يوم خلقتم إلى أن بعثتم(ولكنكم كنتم لا تعلمون) قال الله تعالى (فيومئذ) أى يوم القيامة (لاينفع الذين ظلموا معذرتهم)أى اعتذارهم عما فعلوا (ولا هم يستعتبون)أى ولا هم يرجعون إلى الدنيا كما قال تعالى (وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ * كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾

يقول تعالى (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى قد بينا لهم الحق ووضحناه لهم وضربنا لهم فيه الأمثال ليستبينوا الحق ويتبعوه (ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون) أى لو رأوا أى آية كانت، سواء كانت باقتراحهم أوغيره لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها سحر وباطل كما قالوا فى انشقاق القمر ونحوه كما قال تعالى(إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون*ولوجاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) ولهذا قال ههنا (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون*فاصبرإن وعد الله حق) أى اصبر على مخالفتهم وعنادهم فان الله تعالى منجزلك ماوعدك من نصره إياك عليهم وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك فى الدنيا والآخرة (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) أى بل اثبت على ما بعثك الله به فانه الحق الذى لا مرية فيه ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع بل الحق كله منحصر فيه .قال سعيد عن قتادة نادى رجل من الخوارج عليا رضى الله عنه وهو فى صلاة الغداة فقال : (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) فأنصت له على حتى فهم ما قال فأجابه وهو فى الصلاة (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لايوقنون) رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، وقد رواه ابن جرير من وجه آخر فقال حدثنا وكيع حدثنا يحى بن آدم عن شريك عن عثمان عن أبى زرعة عن على بن ربيعة قال: نادى رجل من الخوارج عليا رضى الله عنه وهو فى صلاة الفجر فقال (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) فأجابه على رضى الله عنه وهو فى الصلاة (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك

الذين لايوقنون): ﴿طريق أخرى﴾ قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن الجعد أخبرنا شريك عن عمران بن ظبيان عن أبي يحيى قال صلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه صلاة الفجر فناداه رجل من الخوارج (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) فأجابه علي رضي الله عنه وهو في الصلاة (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لايوقنون)

﴿ ما روى في فضل هذه السورة الشريفة واستحباب قراءتها في الفجر ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عبد الملك بن عمير سمعت شبيب بن روح يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح فقرأ فيها الروم فأوهم فلما انصرف قال «إنه يلبس علينا القرآن فان أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء فمن شهد منكم الصلاة معنا فليحسن الوضوء » وهذا إسناد حسن ومتن حسن ، وفيه سر عجيب . ونبأ غريب ، وهو أنه ﷺ تأثر بنقصان وضوء من ائتم به فدل ذلك على أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام. آخر تفسير سورة الروم ولله الحمد والمنة

﴿ تفسير سورة لقمان وهي مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْاٰخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

تقدم في أول سورة البقرة عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة وهو أنه سبحانه وتعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، ووصلوا أرحامهم وقراباتهم وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك لم يراءوا به ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورا فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى (أولئك على هدى من ربهم) أي على بصيرة وبينة ومنهج واضح جلي (وأولئك هم المفلحون) أي في الدنيا والآخرة

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه كما قال تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) الآية عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب كما قال ابن مسعود في قوله تعالى (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) قال هو والله الغناء روى ابن جرير حدثني يونس بن عبد الأعلى قال أخبرنا ابن وهب أخبرني يزيد بن يونس عن أبي صخر عن ابن معاوية البجلي عن سعيد بن جبير عن أبي الصهباء البكري أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) فقال عبدالله بن مسعود: الغناء والله الذي لا إله إلا هو ، يرددها ثلاث مرات حدثنا عمرو بن علي حدثنا صفوان بن عيسى أخبرنا حميد الخراط عن عمار عن سعيد بن جبير عن أبي

الصهباء أنه سأل ابن مسعود عن قول الله (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) قال الغناء وكذا قال ابن عباس وجابر وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومكحول وعمرو بن شعيب وعلى بن بذيمة . وقال الحسن البصرى نزلت هذه الآية (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم) فى الغناء والمزامير ، وقال قتادة: قوله (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم) والله لعله لاينفق فيه مالا ولكن شراؤه استحبابه بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع ، وقيل أراد بقوله (يشترى لهو الحديث) اشتراء المغنيات من الجوارى ، قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى حدثنا وكيع عن خلاد الصفار عن عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال « لايحل بيع المغنيات ولا شراؤهن وأكل أثمانهن حرام ، وفيهن أنزل الله عزوجل على (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) » وهكذا رواه الترمذى وابن جرير من حديث عبيد الله بن زحر بنحوه ثم قال الترمذى هذا حديث غريب وضعف على بن يزيد المذكور ﴿ قلت ﴾ على وشيخه والراوى عنه كلهم ضعفاء والله أعلم ، وقال الضحاك فى قوله تعالى (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) قال يعنى الشرك وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله ، وقوله (ليضل عن سبيل الله) أى إنما يصنع هذا للتخالف للاسلام وأهله وعلى قراءة فتح الياء تكون اللام لام العاقبة أو تعليلا للامر القدرى أى قيضوا لذلك ليكونوا كذلك وقوله تعالى (ويتخذها هزوا) قال مجاهد ويتخذ سبيل الله هزوا يستهزىء بها وقال قتادة يعنى ويتخذ آيات الله هزوا وقول مجاهد أولى. وقوله (أولئك لهم عذاب مهين) أى كما استهانوا بآيات الله وسبيله أهينوا يوم القيامة فى العذاب الدائم المستمر . ثم قال تعالى (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا) أى هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولى عنها وأعرض وأدبر وتصام وما به من صمم كأنه ما سمعها لأنه يتأذى بسماعها إذلا انتفاع له بها ولا أرب له فيها (فبشره بعذاب أليم) أى يوم القيامة يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ * خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء فى الدار الآخرة الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وعملوا الأعمال الصالحة التابعة لشريعة الله (لهم جنات النعيم) أى يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب والنساء والنضرة والسماع الذى لم يخطر ببال أحدهم فى ذلك مقيمون دائما لا يظعنون ولا يبغون عنها حولا وقوله تعالى (وعد الله حقا) أى هذا كائن لا محالة لأنه من وعد الله والله لا يخلف الميعاد لأنه الكريم المنان الفعال لما يشاء القادر على كل شىء (وهو العزيز) الذى قهر كل شىء ودان له كل شىء (الحكيم) فى أقواله وأفعاله الذى جعل القرآن هدى للمؤمنين (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى) الآية ، وقوله (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا)

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما فقال تعالى (خلق السموات بغير عمد) قال الحسن وقتادة ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية . وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد لها عمد لا ترونها

وقد تقدم تقرير هذه المسألة فى أول سورة الرعد بما أغنى عن إعادته (وألقى فى الأرض رواسى) يعنى الجبال أرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء ولهذا قال (أن تميد بكم) أى لئلا تميد بكم . وقوله تعالى (وبث فيها من كل دابة) أى وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا تعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذى خلقها ، ولما قرر سبحانه أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله (وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) أى من كل زوج من النبات كريم أى حسن المنظر . وقال الشعبى والناس أيضا من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم ، وقوله تعالى (هذا خلق الله) أى هذا الذى ذكره تعالى من خلق السموات والأرض وما بينهما صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره وحده لا شريك له فى ذلك ولهذا قال تعالى (فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) أى مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد (بل الظالمون) يعنى المشركين بالله العابدين معه غيره (فى ضلال) أى جهل وعمى (مبين) أى واضح ظاهر لاخفاء به

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

اختلف السلف فى لقمان هل كان نبياً أو عبدا صالحا من غير نبوة ؟ على قولين الأكثرون على الثانى . وقال سفيان الثورى عن الأشعث عن عكرمة عن ابن عباس قال كان لقمان عبدا حبشياً نجارا وقال قتادة عن عبد الله بن الزبير قلت لجابر بن عبد الله ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال كان قصيرا أفطس الأنف من النوبة ، وقال يحيى بن سعيد الأنصارى عن سعيد بن المسيب قال كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة ، وقال الأوزاعى حدثنى عبد الرحمن بن حرملة قال جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله فقال له سعيد بن المسيب لا تحزن من أجل أنك أسود فانه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان بلال ومهجع مولى عمر بن الخطاب ولقمان الحكيم كان أسود نوبيا ذا مشافر ، وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبى عن أبى الأشهب عن خالد الربعى قال كان لقمان عبدا حبشيا نجارا فقال له مولاه اذبح لنا هذه الشاة فذبحها قال أخرج أطيب مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب ، ثم مكث ما شاء الله ثم قال اذبح لنا هذه الشاة فذبحها فقال أخرج أخبث مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب ، فقال له مولاه أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما ، فقال لقمان إنه ليس من شىء أطيب منهما إذا طابا ولا أخبث منهما إذا خبثا وقال شعبة عن الحكم عن مجاهد كان لقمان عبدا صالحا ولم يكن نبيا ، وقال الأعمش قال مجاهد كان لقمان عبدا أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين ، وقال حكام بن أسلم عن سعيد الزبيدى عن مجاهد كان لقمان الحكيم عبدا حبشيا غليظ الشفتين مصفح القدمين قاضيا على بنى اسرائيل ، وذكر غيره أنه كان قاضيا على بنى إسرائيل فى زمان داود عليه السلام ، وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا الحكم حدثنا عمرو بن قيس قال كان لقمان عبدا أسود غليظ الشفتين مصفح القدمين فأتاه رجل وهو فى مجلس ناس يحدثهم فقال له ألست الذى كنت ترعى معى الغنم فى مكان كذا وكذا ؟ قال نعم قال فما بلغ بك ما أرى ؟ قال صدق الحديث والصمت عما لا يعنينى ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبد الرحمن بن يزيد عن جابر قال : إن الله رفع لقمان الحكيم بحكمته رآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال له ألست عبد بنى فلان الذى كنت ترعى بالأمس ؟ قال بلى قال فما بلغ بك ما أرى ؟ قال قدر الله وأداء الامانة وصدق الحديث وتركى ما لا يعنينى فهذه الآثار منها ما هو مصرح فيه بنفى كونه نبيا ومنها ما هو مشعر بذلك ، لأن كونه عبدا قد مسه الرق ينافى كونه نبياً لأن الرسل كانت تبعث فى أحساب قومها ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيا وإنما ينقل كونه نبيا عن عكرمة إن صح السند إليه فإنه رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة قال كان لقمان نبيا وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفى وهو ضعيف والله أعلم وقال عبد الله بن وهب أخبرنى عبد الله بن عياش القتبانى عن عمر مولى غفرة قال وقف رجل على لقمان الحكيم فقال أنت لقمان أنت عبد بنى الحسحاس ؟ قال نعم ، قال أنت راعى الغنم قال نعم

قال أنت الأسود ! قال أما سوادي فظاهر فما الذي يعجبك من أمري ! قال وطء الناس بساطك ، وغشيهم بابك ، ورضاهم بقولك ، قال يا ابن أخي إن صغيت إلى ما أقول لك كنت كذلك ، قال لقمان : غضي بصري وكفي لساني وعفة طعمتي وحفظي فرجي وقولي بصدق ، ووفائي بعهدي وتكرمتي ضيفي وحفظي جاري وتركي مالا يعنيني ، فذاك الذي صيرني إلى ما ترى وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن فضيل حدثنا عمرو بن واقد عن عبدة بن رباح عن ربيعة عن أبي الدرداء أنه قال يوما وذكر لقمان الحكيم فقال ما أوتي ما أوتي عن أهل ولا مال ولا حسب ولا خصال ولكنه كان رجلا صمصامة سكيتا طويل التفكر عميق النظر لم ينم نهاراً قط ولم يره أحد قط يبزق ولا يتنخع ولا يبول ولا يتغوط ولا يغتسل ولا يعبث ولا يضحك ، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها إياه أحد ، وكان قد تزوج وولد له أولاد فماتوا فلم يبك عليهم ، وكان يغشى السلطان ويأتي الحكام لينظر ويتفكر ويعتبر فبذلك أوتي ما أوتي . وقد ورد أثر غريب عن قتادة رواه ابن أبي حاتم فقال حدثنا أبي حدثنا العباس بن الوليد حدثنا زيد بن يحي بن عبيد الخزاعي حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة قال : خير الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة على النبوة قال فأتاه جبريل وهو نائم فذر عليه الحكمة أورش عليه الحكمة قال فأصبح ينطق بها : قال سعيد فسمعت عن قتادة يقول قيل للقمان كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك ؟ فقال إنه لو أرسل إلي بالنبوة عزمة لرجوت فيه الفوز منه ولكنت أرجو أن أقوم بها ولكنه خيرني فخفت أن أضعف عن النبوة فكانت الحكمة أحب إلي . فهذا من رواية سعيد بن بشير وفيه ضعف قد تكلموا فيه بسببه فالله أعلم ؛ والذي رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تعالى (ولقد آتينا لقمان الحكمة) أي الفقه في الإسلام ولم يكن نبياً ولم يوح إليه وقوله (ولقد آتينا لقمان الحكمة) أي الفهم والعلم والتعبير (أن اشكر لله) أي أمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه ثم قال تعالى (ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه) أي إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى (ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) وقوله (ومن كفر فان الله غني حميد) أي غني عن العباد لا يتضرر بذلك ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعا فانه الغني عما سواه ؛ فلا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ * وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن وصية لقمان لولده وهو لقمان بن عنقاء بن سدون واسم ابنه ثاران في قول حكاه السهيلي . وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر وأنه آتاه الحكمة وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ولهذا أوصاه أولا بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا ثم قال محذرا له (إن الشرك لظلم عظيم) أي هو أعظم الظلم قال البخاري حدثنا قتيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه ليس بذلك ألا تسمع إلى قول لقمان (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) » ورواه مسلم من حديث الأعمش به ثم قرن بوصيته إيا بعبادة الله وحده البر بالوالدين كما قال تعالى (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) وكثيرا ما يقرن تعالى بين ذلك في

القرآن ؛ وقال ههنا (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن) قال مجاهد مشقة وهن الولد ؛ وقال قتادة جهدا على جهد ؛ وقال عطاء الخراساني ضعفا على ضعف . وقوله (وفصاله في عامين) أي تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين كما قال تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) الآية ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأنه قال في الآية الأخرى (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلا ونهارا ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه كما قال تعالى (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) ولهذا قال (أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير) أي فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الله بن أبي شيبة ومحمود بن غيلان قالا حدثنا عبيد الله أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحق عن سعيد بن وهب قال : قدم علينا معاذ بن جبل وكان بعثه النبي صلى الله عليه وسلم فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إني رسول رسول الله ﷺ إليكم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تطيعوني لا آلوكم خيرا ، وإن المصير إلى الله إلى الجنة أو إلى النار إقامة فلا ظعن وخلود فلا موت . وقوله (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) أي إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفا أي محسناً إليهما (واتبع سبيل من أناب إلي) يعني المؤمنين (ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) قال الطبراني في كتاب العشرة حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا أحمد بن أيوب بن راشد حدثنا مسلمة بن علقمة عن داود بن أبي هند أن سعد بن مالك قال أنزلت فيّ هذه الآية (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) الآية قال كنت رجلا براً بأمي فلما أسلمت قالت يا سعد ما هذا الذي أراك قد أحدثت لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال يا قاتل أمه فقلت لا تفعلي يا أمه فإني لا أدع ديني هذا لشيء . فمكثت يوما وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت فمكثت يوما آخر وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت فمكثت يوما وليلة أخرى لا تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني هذا لشيء فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي . فأكلت

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله سبحانه عن لقمان الحكيم ليمتثلها الناس ويقتدوا بها فقال (يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل) أي إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل . وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله إنها ضمير الشأن والقصة ، وجوز على هذا رفع مثقال والأول أولى . وقوله عز وجل (يأت بها الله) أي أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط وجازى عليها إن خيرا فخير وإن شراً فشر كما قال تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا) الآية وقال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات والأرض فإن الله يأتي بها لأنه لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولهذا قال تعالى (إن الله لطيف خبير) أي لطيف العلم فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت (خبير) بدبيب النمل في الليل البهيم

وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله (فتكن فى صخرة) أنها صخرة تحت الأرضين السبع ، وذكره السدى بإسناده ذلك المطروق عن ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة إن صح ذلك ، ويروى هذا عن عطية العوفى وأبى مالك والثورى والمنهال بن عمرو وغيرهم وهذا والله أعلم كأنه متلقى من الاسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب والظاهر والله أعلم أن المراد أن هذه الحبة فى حقارتها لو كانت داخل صخرة فان الله سيبديها ويظهرها بلطيف علمه . كما قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائنا ما كان » ثم قال (يا بنى أقم الصلاة) أى بحدودها وفروضها وأوقاتها (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) أى بحسب طاقتك وجهدك (واصبر على ما أصابك) علم أن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى فأمره بالصبر وقوله (إن ذلك من عزم الأمور) أى إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور وقوله (ولا تصعر خدك للناس) يقول لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم واستكباراً عليهم ، ولكن ألن جانبك وابسط وجهك إليهم كما جاء فى الحديث « ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط، وإياك وإسبال الازار فإنها من المخيلة والمخيلة لا يحبها الله » قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (ولا تصعر خدك للناس) يقول لا تتكبر فتحتقر عباد الله وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك ، وكذا روى العوفى وعكرمة عنه ، وقال مالك عن زيد بن أسلم (ولا تصعر خدك للناس) لا تتكلم وأنت معرض وكذا روى عن مجاهد وعكرمة ويزيد بن الاصم وأبى الجوزاء وسعيد ابن جبير والضحاك وابن زيد وغيرهم ، وقال إبراهيم النخعى يعنى بذلك التشدق فى الكلام . والصواب القول الأول قال ابن جرير وأصل الصعر داء يأخذ الإبل فى أعناقها أو رءوسها حتى تفلت أعناقها عن رءوسها فشبه به الرجل المتكبر ومنه قول عمرو بن حيى التغلبى

وكنا إذا الجبار صعر خده * أقمنا له من ميله فتقوما

وقال أبو طالب فى شعره :

وكنا قديماً لا نقر ظلامة * إذا ما ثنوا صعر الرءوس نقيمها

وقوله (ولا تمش فى الأرض مرحا) أى خيلاء متكبرا جبارا عنيدا لا تفعل ذلك يبغضك الله ولهذا قال (إن الله لا يحب كل مختال فخور) أى مختال معجب فى نفسه فخور أى على غيره ، وقال تعالى (ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) وقد تقدم الكلام على ذلك فى موضعه وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى حدثنا محمد بن عمران بن أبى ليلى حدثنا أبى عن ابن أبى ليلى عن عيسى عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى عن ثابت بن قيس بن شماس قال : ذكر الكبر عند رسول الله ﷺ فشدد فيه فقال « إن الله لا يحب كل مختال فخور » فقال رجل من القوم والله يا رسول الله إنى لأغسل ثيابى فيعجبنى بياضها ويعجبنى شراك نعلى وعلاقة سوطى ، فقال « ليس ذلك الكبر إنما الكبر أن تسفه الحق وتغمط الناس » ورواه من طريق أخرى بمثله وفيه قصة طويلة ومقتل ثابت ووصيته بعد موته وقوله (واقصد فى مشيك) أى امش مقتصدا مشيا ليس بالبطىء المتثبط ولا بالسريع المفرط بل عدلا وسطا بين بين . وقوله (واغضض من صوتك) أى لا تبالغ فى الكلام ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ولهذا قال (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) قال مجاهد وغير واحد إن أقبح الأصوات لصوت الحمير أى غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير فى علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى ، وهذا التشبيه فى هذا بالحمير يقتضى تحريمه وذمه غاية الذم لأن رسول الله ﷺ قال « ليس لنا مثل السوء العائد فى هبته كالكلب يقى ثم يعود فى قيئه » وقال النسائى عند تفسير هذه الآية حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا الليث عن جعفر بن ربيعة عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فانها رأت شيطانا » وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه من طرق عن جعفر بن ربيعة

به ، وفى بعض الألفاظ بالليل فالله أعلم فهذه وصايا نافعة جداً وهى من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة فلنذكر منها أن نموذجا ودستورا إلى ذلك قال الإمام أحمد حدثنا على ابن إسحاق أخبرنا ابن المبارك أخبرنا سفيان أخبرنى نهشل بن مجمع الضبى عن قزعة عن ابن عمر قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال « إن لقمان الحكيم كان يقول إن الله إذا استودع شيئاً حفظه » وروى ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعى عن موسى بن سليمان عن القاسم بن مخيمرة أن رسول الله ﷺ قال : « قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه يابنى إياك والتقنع فانه مخوفة بالليل مذمة بالنهار » وقال حدثنا أبى حدثنا عمرو بن عثمان بن ضمرة حدثنا الثرى بن يحيى قال : قال لقمان لابنه يابنى إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك وقال أيضا حدثنا أبى حدثنا عبدة بن سليمان أخبرنا ابن المبارك حدثنا عبد الرحمن المسعودى عن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه يابنى إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام يعنى السلام ثم اجلس فى ناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا فان أفاضوا فى ذكر الله فأجل سهمك معهم ، وإن أفاضوا فى غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم وقال أيضا حدثنا أبى حدثنا عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار حدثنا ضمرة عن حفص بن عمر قال : وضع لقمان جرابا من خردل إلى جانبه وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة حتى نفد الخردل فقال يابنى لقد وعظتك موعظة لو وعظها جبل تفطر قال فتفطر ابنه ، وقال أبو القاسم الطبرانى حدثنا يحيى بن عبد الباقى المصيصى حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الخزاعى ثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفى حدثنا أنس بن سفيان القدسى عن خليفة بن سلام عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « اتخذوا السودان فان ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم والنجاشى وبلال المؤذن » . قال الطبرانى أراد الحبش ﴿ فصل فى الخمول والتواضع ﴾ وذلك متعلق بوصية لقمان عليه السلام لابنه وقد جمع فى ذلك الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا كتابا مفرداً ونحن نذكر منه مقاصده قال : حدثنا إبراهيم ابن المنذر حدثنا عبد الله بن موسى المدنى عن أسامة بن زيد بن حفص بن عبد الله بن أنس عن جده أنس بن مالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « رب أشعث ذى طمرين يصفح عن أبواب الناس إذا أقسم على الله لأبره » ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان عن ثابت وعلى بن زيد عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم فذكره وزاد « منهم البراء بن مالك » وروى أيضا عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا وإذا غابوا لم يفتقدوا أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشتتة » وقال أبو بكر بن سهل التميمى حدثنا ابن أبى مريم حدثنا نافع بن يزيد عن عياش بن عباس عن عيسى بن عبد الرحمن عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر رضى الله عنه أنه دخل المسجد فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكى عند قبر رسول الله ﷺ فقال له ما يبكيك يامعاذ ؟ قال حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم : سمعته يقول « إن اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة » حدثنا الوليد بن شجاع حدثنا غنام بن على عن حميد بن عطاء الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « رب ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره ، لو قال اللهم إنى أسألك الجنة لأعطاه الله الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً » وقال أيضا حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن سالم بن أبى الجعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من أمتى من لو أتى باب أحدكم يسأله ديناراً أو درهما أو فلساً لم يعطه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها ، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها ولم يمنعها إياه لهوانه عليه ، ذوطمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » وهذا مرسل من هذا الوجه وقال أيضا حدثنا إسحاق بن إبراهيم أخبرنا جعفر بن سليمان حدثنا عوف قال : قال أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من ملوك الجنة من هو أشعث أغبر ذو طمرين لا يؤبه له الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم ، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا ، وإذا قالوا لم ينصت لهم ، حوائج أحدهم تتجلجل فى صدره ، لو قسم نوره

يوم القيامة بين الناس لوسعهم » قال وأنشدني عمر بن شبية عن ابن عائشة قال : قال عبدالله بن المبارك :

ألا رب ذى طمرين فى منزل غدا زرابيه مبثوثة ونمارقه
قد اطردت أنواره حول قصره وأشرق والتفت عليه حدائقه

وروى أيضا من حديث عبيد الله بن زحر عن على بن زيد عن القاسم عن أبى أمامة مرفوعا « قال الله : من أغبط أوليائى عندى مؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من صلاة ، أحسن عبادة ربه وأعطاه فى السر ، وكان غامضا فى الناس لايشار إليه بالأصابع إن صبر على ذلك » قال ثم أنفذ رسول الله ﷺ بيده وقال « عجلت منيته ، وقل تراثه وقلت بواكيه » وعن عبدالله بن عمرو قال : أحب عباد الله إلى الله الغرباء ، قيل ومن الغرباء ، قال الفرارون بدينهم يجمعون يوم القيامة إلى عيسى بن مريم . وقال الفضيل بن عياض بلغنى أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ألم أنعم عليك ألم أعطك ألم أسترك ؟ ألم ... ألم ... ألم أجمل ذكرك . ثم قال الفضيل إن استطعت أن لا تعرف فافعل وما عليك أن لا يثنى عليك وما عليك أن تكون مذموما عند الناس محبوبا عند الله . وكان ابن محيريز يقول اللهم إنى أسألك ذكرا خاملا ، وكان الخليل بن أحمد يقول اللهم اجعلنى عندك من أرفع خلقك واجعلنى فى نفسى من أوضع خلقك . وعند الناس من أوسط خلقك . ثم قال ﴿باب ما جاء فى الشهرة﴾ حدثنا أحمد بن عيسى المصرى حدثنا ابن وهب عن عمرو بن الحارث وابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن سنان بن سعد عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال حسب امرىء من الشر إلا من عصم الله أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه ودنياه ، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم » وروى مثله عن إسحاق بن البهلول عن ابن أبى فديك عن محمد بن عبد الواحد الأخنسى عن عبد الواحد بن أبى كثير عن جابر ابن عبد الله مرفوعا مثله ، وروى عن الحسن مرسلا نحوه فقيل للحسن فانه يشار اليك بالأصابع ، فقال إنما المراد من يشار اليه فى دينه بالبدعة وفى دنياه بالفسق : وعن على رضى الله عنه قال : لاتبدأ لأن تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر وتعلم وا كتم واصمت تسلم ، تسر الأبرار وتغيظ الفجار : وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله ماصدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب ماصدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه . وقال محمد بن العلاء من أحب الله أحب أن لا يعرفه الناس . وقال سماك بن سلمة إياك وكثرة الأخلاء . وقال أبان بن عثمان إن أحببت أن يسلم اليك دينك فأقل من المعارف . كان أبو العالية إذا جلس اليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم . وقال حدثنا على بن الجعد أخبرنا شعبة عن عوف عن أبى رجاء قال رأى طلحة قوما يمشون معه فقال ذباب طمع وفراش النار : وقال ابن إدريس عن هرون بن أبى عيسى عن سليم بن حنظلة قال بينا نحن حول أبى إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال : إنها مذلة للتابع وفتنة للمتبوع وقال ابن عون عن الحسن خرج ابن مسعود فاتبعه أناس فقال والله لو تعلمون ما أغلق عليه بابى ما اتبعنى منكم رجلان . وقال حماد بن زيد كنا إذا مررنا على المجلس ومعنا أيوب فسلم ردوا ردا شديدا فكان ذلك نعمة . وقال عبدالرزاق عن معمر كان أيوب يطيل قميصه فقيل له فى ذلك فقال إن الشهرة فيما مضى كانت فى طول القميص واليوم فى تشميره . واصطنع مرة نعلين على حذو نعلى النبى صلى الله عليه وسلم فلبسهما أياما ثم خلعهما وقال لم أر الناس يلبسونهما . وقال إبراهيم النخعى لاتلبس من الثياب مايشهر فى الفقهاء ولاما يزدريك السفهاء . وقال الثورى كانوا يكرهون من الثياب الجياد التى يشتهر بها ويرفع الناس اليه فيها أبصارهم . والثياب الرديئة التى يحتقر فيها ويستذل دينه ، وحدثنا خالد بن خداش حدثنا حماد عن أبى حسنة صاحب الزيادى قال كنا عند أبى قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية فقال إياكم وهذا الحمار النهاق . وقال الحسن رحمه الله إن قوما جعلوا الكبر فى قلوبهم والتواضع فى ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعجب من صاحب المطرف بمطرفه مالهم تفاقدوا ، وفى بعض الأخبار أن موسى عليه السلام قال لبنى إسرائيل مالكم تأتونى عليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بالخشية ﴿فصل فى حسن الخلق﴾ قال أبو التياح عن أنس رضى الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا ، وعن عطاء عن ابن عمر قيل يارسول الله أى المؤمنين أفضل ؟ قال « أحسنهم خلقا » وعن نوح بن عباد عن ثابت عن أنس مرفوعا « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه

درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة وإنه ليبلغ بسوء خلقه درك جهنم وهو عابد» وعن سيار بن هارون عن حميد عن أنس مرفوعاً «ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة» وعن عائشة مرفوعاً «إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار» وقال ابن أبي الدنيا حدثني أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس حدثنا عبد الله بن إدريس أخبرني أبي وعمي عن جدي عن أبي هريرة رضي الله عنه سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال «تقوى الله وحسن الخلق» وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال «الأجوفان الفم والفرج» وقال أسامة بن شريك كنت عند رسول الله ﷺ فجاءته الأعراب من كل مكان فقالوا يا رسول الله ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال «حسن الخلق».

وقال يعلى بن سماك عن أم الدرداء عن أبي الدرداء يبلغ به قال: ما من شيء أثقل في الميزان من خلق حسن، وكذا رواه عطاء عن أم الدرداء به وعن مسروق عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً» حدثنا عبد الله بن أبي الدنيا حدثنا محمد بن عيسى عن محمد بن أبي سارة عن الحسن بن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو عليه الأجر ويروح» وعن مكحول عن أبي ثعلبة مرفوعاً «إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني منزلا في الجنة مساويكم أخلاقاً الثرثارون المتشدقون المتفيهقون» وعن أبي أويس عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعاً «ألا أخبركم بأكملكم إيماناً أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً الذين يؤلفون ويألفون» وقال الليث عن يزيد بن عبد الله بن أسامة عن بكر بن أبي الفرات قال: قال رسول الله ﷺ «ما حسن الله خلق رجل وخلقه فتطعمه النار» وعن عبد الله بن غالب الحداني عن أبي سعيد مرفوعاً «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق» وقال ميمون بن مهران عن رسول الله ﷺ «ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق» وذلك أن صاحبه لا يخرج من ذنب إلا وقع في آخر. قال حدثنا علي بن الجعد حدثنا أبو المغيرة الأحمسي حدثنا عبد الرحمن ابن إسحق عن رجل من قريش قال: قال رسول الله ﷺ «ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق، إن الخلق الحسن ليذيب الذنوب كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السيء ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل» وقال عبد الله بن إدريس عن أبيه عن جده عن أبي هريرة مرفوعاً «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط وجوه وحسن خلق» وقال محمد بن سيرين حسن الخلق عون على الدين، ﴿فصل في ذم الكبر﴾ قال علقمة عن ابن مسعود رفعه «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان» وقال إبراهيم بن أبي عبلة عن أبي سلمة عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً «من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر أكبه الله على وجهه في النار» حدثنا إسحق بن إسماعيل حدثنا أبو معاوية عن عمر بن راشد عن إياس بن سلمة عن أبيه مرفوعاً «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب عند الله من الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب»، وقال مالك بن دينار ركب سليمان بن داود عليهما السلام ذات يوم البساط في مائتي ألف من الإنس ومائتي ألف من الجن فرفع حتى سمع تسبيح الملائكة في السماء ثم خفض حتى مست قدمه ماء البحر فسمعوا صوتاً لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسف به أبعد مما رفع قال حدثنا أبو خيثمة حدثنا يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال كان أبو بكر يخطبنا فيذكر بدء خلق الإنسان حتى إن أحدنا ليقذر نفسه يقول: خرج من مجرى البول مرتين وقال الشعبي من قتل اثنين فهو جبار ثم تلا (أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض) وقال الحسن عجباً لابن آدم يغسل الخرء بيده في اليوم مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السموات. قال حدثنا خالد بن خداش حدثنا حماد بن زيد عن علي بن الحسن عن الضحاك بن سفيان فذكر حديث ضرب مثل الدنيا بما يخرج من ابن آدم. وقال الحسن عن يحيي عن أبي قال ان مطعم ابن آدم ضرب مثلا للدنيا وان قزحه وملحه. وقال محمد بن الحسين بن علي سمن ولد علي رضي الله عنه ما دخل قلب رجل من شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك. وقال

يونس بن عبيد ليس مع السجود كبر ولا مع التوحيد نفاق ، ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال فى مشيته وذلك قبل أن يستخلف فطعن طاوس فى جنبه بأصبعه وقال ليس هذا شأن من فى بطنه خرء ؟ ! فقال له كالمعتذر إليه : يا عم لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها قال أبو بكر بن أبى الدنيا كان بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلمون هذه المشية ﴿ فصل فى الاختيال ﴾ عن ابن أبى ليلى عن ابن بريدة عن أبيه مرفوعا « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه » ورواه عن إسحاق بن إسماعيل عن سفيان عن زيد بن أسلم عن ابن عمر مرفوعا مثله وحدثنا محمد بن بكار حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه عن الأعرج عن أبى هريرة مرفوعا «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره، وبينما رجل يتبختر فى برديه أعجبته نفسه خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » وروى الزهرى عن سالم عن أبيه بينما رجل إلى آخره .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

يقول تعالى منبها خلقه على نعمه عليهم فى الدنيا والآخرة بأنه سخر لهم ما فى السموات من نجوم يستضيئون بها فى ليلهم ونهارهم وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد وجعله إياها لهم سقفا محفوظا وما خلق لهم فى الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة الشبه والعلل ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم بل منهم من يجادل فى الله أى فى توحيده وإرساله الرسل ومجادلته فى ذلك بغير علم ولا مستند من حجة صحيحة ولا كتاب مأثور صحيح ، ولهذا قال تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) أى مبين مضىء (وإذا قيل لهم) أى لهؤلاء المجادلين فى توحيد الله (اتبعوا ما أنزل الله) أى على رسوله من الشرائع المطهرة (قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) أى لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال الله تعالى (أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) أى فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ولهذا قال تعالى (أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير)

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَٰقِبَةُ الْأُمُورِ * وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله أى أخلص له العمل وانقاد لأمره واتبع شرعه ، ولهذا قال (وهو محسن) أى فى عمله : باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر (فقد استمسك بالعروة الوثق) أى فقد أخذ موثقا من الله متينا أنه لا يعذبه (وإلى الله عاقبة الأمور * ومن كفر فلا يحزنك كفره) أى لا تحزن عليهم يا محمد فى كفرهم بالله وبما جئت به فان قدر الله نافذ فيهم وإلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا أى فيجزيهم عليه (إن الله عليم بذات الصدور) فلا تخفى عليه خافية ثم قال تعالى (نمتعهم قليلا) أى فى الدنيا (ثم نضطرهم) أى نلجئهم (إلى عذاب غليظ) أى فظيع صعب مشق على النفوس كما قال تعالى (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن هؤلاء المشركين به أنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض وحده لا شريك له ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ، ولهذا قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله) أى إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم (بل أكثرهم لا يعلمون) ثم قال تعالى (لله ما فى السموات والأرض) أى هو خلقه وملكه (إن الله هو الغنى الحميد) أى الغنى عما سواه وكل شىء فقير إليه الحميد فى جميع ما خلق له الحمد فى السموات والأرض على ما خلق وشرع وهو المحمود فى الأمور كلها

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التى لا يحيط بها أحد ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها كما قال سيد البشر وخاتم الرسل « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » فقال تعالى (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) أى ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما وجعل البحر مداداً وأمده سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفد ماء البحر ولو جاء أمثالها مددا ، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ولم يرد الحصر ولا أن ثم سبعة أبحر موجودة محيطة بالعالم كما يقوله من تلقاه من الاسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب بل كما قال تعالى فى الآية الأخرى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) فليس المراد بقوله (بمثله) آخر فقط بل بمثله ثم بمثله ، ثم بمثله ثم هلم جرا لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته قال الحسن البصرى لو جعل شجر الأرض أقلاما وجعل البحر مدادا ، وقال الله إن من أمرى كذا ومن أمرى كذا لنفد ماء البحر وتكسرت الأقلام ، وقال قتادة قال المشركون إنما هذا كلام يوشك أن ينفد فقال الله تعالى (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) أى لو كان شجر الأرض أقلاما ومع البحر سبعة أبحر ما كان لتنفد عجائب ربى وحكمته وخلقه وعلمه . وقال الربيع بن أنس إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) الآية يقول لو كان البحر مدادا لكلمات الله والأشجار كلها أقلاما لانكسرت الأقلام وفنى ماء البحر وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شىء لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثنى عليه كما ينبغى حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول . وقد روى أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود قال ابن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة يا محمد أرأيت قولك (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) إيانا تريد أم قومك؟ فقال رسول الله ﷺ « كلا كما » قالوا ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شىء ؟ فقال رسول الله ﷺ « إنها فى علم الله قليل وعندكم من ذلك ما يكفيكم » وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) الآية وهكذا روى عن عكرمة وعطاء بن يسار وهذا يقتضى أن هذه الآية مدنية لا مكية والمشهور أنها مكية والله أعلم وقوله (إن الله عزيز حكيم) أى عزيز قد عز كل شىء وقهره وغلبه فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه حكيم فى خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شئونه وقوله تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) أى ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى

قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة الجميع هين عليه (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) أى لا يأمر بالشىء إلا مرة واحدة فيكون ذلك الشىء لا يحتاج إلى تكرره وتوكيده (فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة) وقوله (إن الله سميع بصير)أى كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة ولهذا قال تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) الآية

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

يخبر تعالى أنه (يولج الليل فى النهار) يعنى يأخذ منه فى النهار فيطول ذاك ويقصر هذا وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية ثم يشرع فى النقص فيطول الليل ويقصر النهار وهذا يكون فى الشتاء (وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى) قيل إلى غاية محدودة وقيل إلى يوم القيامة وكلا المعنيين صحيح ويستشهد للقول الأول بحديث أبى ذر رضى الله عنه الذى فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يا أبا ذر أتدرى أين تذهب هذه الشمس ؟ » قلت الله ورسوله أعلم . قال « فانها تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال لها ارجعى من حيث جئت » وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو صالح حدثنا يحيى بن أيوب عن ابن جريج عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس أنه قال : الشمس بمنزلة الساقية تجرى بالنهار فى السماء فى فلكها فإذا غربت جرت بالليل فى فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها قال وكذلك القمر إسناده صحيح ، وقوله (وان الله بما تعملون خبير) كقوله (ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض) ومعنى هذا أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء كقوله تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) الآية وقوله تعالى (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل) أى إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق أى الموجود الحق الإله الحق وأن كل ما سواه باطل فانه الغنى عما سواه وكل شىء فقير إليه لأن كل ما فى السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابا لعجزوا عن ذلك ، ولهذا قال تعالى (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير) أى العلى الذى لا أعلى منه الكبير الذى هو أكبر من كل شىء فكل خاضع حقير بالنسبة إليه

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾

يخبر تعالى أنه هو الذى سخر البحر لتجرى فيه الفلك بأمره أى بلطفه وتسخيره فانه لولا ما جعل فى الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت ، ولهذا قال (ليريكم من آياته) أى من قدرته (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى صبار فى الضراء شكور فى الرخاء ، ثم قال تعالى (وإذا غشيهم موج كالظلل) أى كالجبال والغمام (دعوا الله مخلصين له الدين) كما قال تعالى (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) وقال تعالى (فإذا ركبوا فى الفلك) الآية ثم قال تعالى (فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد) قال مجاهد أى كافر كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد كما قال تعالى (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) وقال ابن زيد هو المتوسط فى العمل وهذا الذى قاله ابن زيد

هو المراد فى قوله تعالى (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد) الآية فالمقتصد ههنا هو التوسط فى العمل ، ويحتمل أن يكون مرادا هنا أيضا ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام والآيات الباهرات فى البحر ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام والدؤوب فى العبادة والمبادرة إلى الخيرات ، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه والله أعلم . وقوله تعالى (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور) فالختار هو الغدار . قاله مجاهد والحسن وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم وهو الذى كلما عاهد نقض عهده والختر أتم الغدر وأبلغه . قال عمرو بن معديكرب :

وإنك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدر وختر

وقوله (كفور) أى جحود للنعم لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾

يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد وآمرا لهم بتقواه والخوف منه والخشية من يوم القيامة حيث (لا يجزى والد عن ولده) أى لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه . وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) أى لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة (ولا يغرنكم بالله الغرور) يعنى الشيطان . قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة فانه يغر ابن آدم ويعده ويمنيه وليس من ذلك شىء بل كان كما قال تعالى (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) قال وهب بن منبه قال عزير عليه السلام لما رأيت بلاء قومى اشتد حزنى وكثر همى وأرق نومى فتضرعت إلى ربى وصليت وصمت فأنا فى ذلك التضرع أبكى إذ أتانى الملك فقلت له خبرنى هل تشفع أرواح الصديقين للظلمة أو الآباء لأبنائهم ؟ قال إن القيامة فيها فصل القضاء وملك ظاهر ليس فيه رخصة لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الرحمن ، ولا يؤخذ فيه والد عن ولده ولا ولد عن والده ولا أخ عن أخيه ولا عبد عن سيده ولا يهتم أحد به بغيره ، ولا يحزن لحزنه ولا أحد يرحمه ، كل مشفق على نفسه ، ولا يؤخذ إنسان عن إنسان ، كل يهمه همه ويبكى عوله ، ويحمل وزره ولا يحمل وزره معه غيره . رواه ابن أبى حاتم

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾

هذه مفاتيح الغيب التى استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها ؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب (لا يجليها لوقتها إلا هو) وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن يشاء الله من خلقه وكذلك لا يعلم ما فى الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى أو شقيا أو سعيدا علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه ، وكذا لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا فى دنياها وأخراها (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) فى بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان لا علم لأحد بذلك وهذه شبيهة بقوله تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) الآية . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب

قال الإمام أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنى حسين بن واقد حدثنى عبد الله بن بريدة سمعت أبى بريدة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) » هذا حديث

صحيح الإسناد ولم يخرجوه ﴿حديث ابن عمر﴾ قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « مفاتيح الغيب خمس لايعلمهن إلا الله (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) » انفرد بإخراجه البخارى فرواه فى كتاب الاستسقاء فى صحيحه عن محمد بن يوسف الفريابى عن سفيان بن سعيد الثورى به ، ورواه فى التفسير من وجه آخر فقال حدثنا يحيى بن سليمان حدثنا ابن وهب حدثنى عمر بن محمد ابن زيد بن عبد الله بن عمر أن أباه حدثه أن عبد الله بن عمر قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « مفاتيح الغيب خمس » ثم قرأ (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام) انفرد به أيضا . ورواه الإمام أحمد عن غندر عن شعبة عن عمر بن محمد أنه سمع أباه يحدث عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال « أوتيت مفاتيح كل شىء إلا الخمس (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وما تدرى نفس مادا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) » ﴿حديث ابن مسعود﴾ رضى الله عنه قال الإمام أحمد حدثنا يحيى عن شعبة ثنى عمرو ابن مرة عن عبدالله بن سلمة قال : قال عبدالله أوتى نبيكم صلى الله عليه وسلم مفاتيح كل شىء غير خمس (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) وكذا رواه عن محمد بن جعفر عن شعبة عن عمرو بن مرة به وزاد فى آخره . قال قلت له أنت سمعته من عبد الله : قال نعم أكثر من خمسين مرة ، ورواه أيضا عن وكيع عن مسعر عن عمرو بن مرة به وهذا إسناد حسن على شرط أصحاب السنن ولم يخرجوه ﴿حديث أبى هريرة﴾ قال البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا إسحاق عن جرير عن أبى حيان عن أبى زرعة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس إذ أتاه رجل يمشى فقال يارسول الله : ما الإيمان ؟ قال « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر » قال يارسول الله ما الإسلام قال « الإسلام . أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » قال يارسول الله ما الإحسان . قال « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه يراك » قال يارسول الله متى الساعة ، قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها ، وإذا كان الحفاة العراة رءوس الناس فذاك من أشراطها فى خمس لايعلمهن إلا الله ، إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم مافى الأرحام » الآية ثم انصرف الرجل فقال « ردوه على » فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئا فقال « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم » ورواه البخارى أيضا فى كتاب الإيمان ومسلم من طرق عن أبى حيان به وقد تكلمنا عليه فى أول شرح البخارى وذكرنا ثم حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى ذلك بطوله وهو من افراد مسلم ﴿حديث ابن عباس﴾ قال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا عبد الحميد حدثنا بهز حدثنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : جلس رسول الله ﷺ مجلسا فأتاه جبريل فجلس بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم واضعا كفيه على ركبتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما الإسلام ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الإسلام أن تسلم وجهك لله عز وجل وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله » قال فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت ، قال « إذا فعلت ذلك فقد أسلمت » قال يارسول الله فحدثنى ما الإيمان ؟ قال « الإيمان أن تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وتؤمن بالموت وبالحياة بعد الموت ، وتؤمن بالجنة والنار والحساب والميزان ، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره » قال فإذا فعلت ذلك فقد آمنت ، قال « إذا فعلت ذلك فقد آمنت » قال يارسول الله حدثنى ما الإحسان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الإحسان أن تعمل لله كأنك تراه فإن كنت لاتراه فانه يراك » قال يارسول الله فحدثنى متى الساعة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هى ـ سبحان الله ـ فى خمس لايعلمهن إلا الله (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث. ويعلم مافى الأرحام ، وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) ولكن إن

شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك — قال أجل يا رسول الله فحدثني قال رسول الله ﷺ — إذا رأيت الأمة ولدت ربتها — أو ربها — ورأيت أصحاب البنيان يتطاولون في البنيان ، ورأيت الحفاة الجياع العالة رءوس الناس فذلك من معالم الساعة وأشراطها » قال يا رسول الله ومن أصحاب البنيان الحفاة الجياع العالة ؟ قال «العرب» حديث غريب ولم يخرجوه ﴿ حديث رجل من بني عامر ﴾ روى الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن منصور عن ربعي بن حراش عن رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي ﷺ فقال أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه « اخرجي إليه فانه لا يحسن الاستئذان فقولي له فليقل السلام عليكم أأدخل » قال فسمعته يقول ذلك فقلت السلام عليكم أأدخل ؟ فأذن لي فدخلت فقلت بم أتيتنا ؟ قال « لم آتكم إلا بخير ، أتيتكم بأن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن تدعوا اللات والعزى ، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ؛ وأن تصوموا من السنة شهراً ، وأن تحجوا البيت وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم » قال فقال فهل بقي من العلم شيء لا تعلمه ؟ قال « قد علمني الله عز وجل خيراً وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل : الخمس (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام) » الآية وهذا إسناد صحيح وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد جاء رجل من أهل البادية فقال إن امرأتي حبلى فأخبرني ماتلد ، وبلادنا مجدبة فأخبرني متى ينزل الغيث ، وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت فأنزل الله عز وجل (إن الله عنده علم الساعة — إلى قوله — عليم خبير) قال مجاهد وهي مفاتيح الغيب التي قال الله تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير . وقال الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : من حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً) وقوله تعالى (وما تدري نفس بأي أرض تموت) قال قتادة أشياء استأثر الله بهن فلم يطلع عليهن ملكا مقرباً ولا نبياً مرسلا (إن الله عنده علم الساعة) فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة في أي سنة أو في أي شهر أو ليل أو نهار (وينزل الغيث) فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلا أو نهاراً (ويعلم ما في الأرحام) فلا يعلم أحد ما في الأرحام أذكر أم أنثى أحمر أو أسود وما هو (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً) أخير أم شر ، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت لعلك الميت غدا لعلك المصاب غدا (وما تدري نفس بأي أرض تموت) أي ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض أفي بحر أم بر أو سهل أو جبل . وقد جاء في الحديث « إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة » فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير في مسند أسامة ابن زيد حدثنا إسحاق بن إبراهيم أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب عن أبي المليح عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جعل الله ميتة عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة » وقال عبد الله بن الإمام أحمد حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو داود الحفري عن سفيان عن أبي إسحاق عن مطر بن عكامس قال ؟ قال رسول الله ﷺ « إذا قضى الله ميتة عبد بأرض جعل له إليها حاجة » وهكذا رواه الترمذي في القدر من حديث سفيان الثوري به ثم قال حسن غريب ولا يعرف لمطر عن النبي صلى الله عليه وسلم غير هذا الحديث وقد رواه أبو داود في المراسيل فالله أعلم . وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن أبي المليح بن أسامة عن أبي عزة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها — أو قال بها — حاجة » وأبو عزة هذا هو بشار بن عبيد الله ويقال ابن عبد الهذلي . وأخرجه الترمذي من حديث إسماعيل ابن إبراهيم وهو ابن علية وقال صحيح . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن عصام الأصفهاني حدثنا المؤمل ابن إسماعيل حدثنا عبيد الله بن أبي حميد عن أبي المليح عن أبي عزة الهذلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم ينته حتى يقدمها » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله عنده علم الساعة — إلى — عليم خبير) . ﴿ حديث آخر ﴾ قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد بن ثابت الجحدري ومحمد بن يحيى القطعي قالا حدثنا عمر بن علي حدثنا إسماعيل عن قيس عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل لها إليها حاجة » ثم قال البزار وهذا الحديث لا نعلم أحداً

يرفعه إلا عمر بن على المقدمى . وقال ابن أبى الدنيا حدثنى سليمان بن أبى مسيح قال أنشدنى محمد بن الحكم لأعشى همدان.

فما تزود مما كان يجمعه ... سوى حنوط غداة البين مع خرق

وغير نفحة أعواد تشب له ... وقل ذلك من زاد لمنطلق

لا تأسين على شىء فكل فتى ... إلى منيته سيار فى عنق

وكل من ظن أن الموت يخطئه ... معلل بأعاليل من الحمق

بأيما بلدة تقدر منيته ... إلا يسير إليها طائعا يبق

أورده الحافظ ابن عساكر رحمه الله فى ترجمة عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث وهو أعشى همدان وكان الشعبى زوج أخته وهو مزوج بأخت الشعبى أيضا ، وقد كان ممن طلب العلم والتفقه ثم عدل إلى صناعة الشعر فعرف به ، وقد روى ابن ماجه عن أحمد بن ثابت وعمر بن شبة كلاهما عن عمر بن عكرمة مرفوعا إذا كان أجل أحدكم بأرض أتت له إليها حاجة فإذ بلغ أقصى أثره قبضه الله عز وجل فتقول الأرض يوم القيامة : يارب هذا ما أودعتنى قال الطبرانى حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن أيوب عن أبى المليح عن أسامة أن رسول الله ﷺ قال «ما جعل الله منية عبد بأرض إلا جعل له إليها حاجة» . آخر تفسير سورة لقمان ، والحمد لله رب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل

﴿ تفسير سورة الم السجدة ، وهى مكية ﴾

روى البخارى فى كتاب الجمعة حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن سعد بن إبراهيم عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج عن أبى هريرة قال . كان النبى ﷺ يقرأ فى الفجر يوم الجمعة (الم تنزيل) السجدة و (هل أتى على الإنسان) ورواه مسلم أيضا من حديث سفيان الثورى به . وقال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر أخبرنا الحسن بن صالح عن ليث عن أبى الزبير عن جابر قال كان النبى ﷺ لاينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذى بيده الملك ، تفرد به أحمد .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا ، وقوله (تنزيل الكتاب لاريب فيه) أى لا شك فيه ولا مرية أنه منزل (من رب العالمين) ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين (أم يقولون افتراه) بل يقولون افتراه أى اختلقه من تلقاء نفسه (بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) أى يتبعون الحق .

﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَآءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ * ذَٰلِكَ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

يخبر تعالى أنه خالق للأشياء فخلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، وقد تقدم الكلام على ذلك (ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع) أى بل هو المالك لأزمة الأمور الخالق لكل شىء المدبر لكل شىء القادر على كل شىء فلا ولى لخلقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه (أفلا تتذكرون) يعنى أيها العابدون

غيره المتوكلون على من عـداه تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظـير أو شريك أو وزير أو نديد أو عديل ، لا إله إلا هو ولا رب سواه ، وقد أورد النسائى ههنا حديثا فقال : حدثنا إبراهيم بن يعقوب حدثنى محمد بن الصباح حدثنا أبو عبيدة الحداد حدثنا الأخضر بن عجلان عن أبى جريج المكى عن عطاء عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ أخـذ بيدى فقال : « إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش فى اليوم السابع ، فخلق التربة يوم السبت ، والجبال يوم الأحد ، والشجر يوم الاثنين ، والمكروه يوم الثلاثاء ، والنور يوم الأربعاء ، والدواب يوم الخميس ، وآدم يوم الجمعة فى آخر ساعة من النهار بعـد العصر ، وخلقـه من أديم الأرض أحمرها وأسودها وطيبها وخبيثها ، من أجل ذلك جعل الله من بنى آدم الطيب والخبيث » هكذا أورد هذا الحديث إسنادا ومتنا ، وقد أخرج مسلم والنسائى أيضا من حديث حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج عن إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحو من هذا السياق . وقد علله البخارى فى كتاب التاريخ الكبير فقال وقال بعضهم أبو هريرة عن كعب الأحبار وهو أصح وكذا علله غير واحد من الحفاظ والله أعلم ، وقوله تعالى (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) أى يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة كما قال تعالى (الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن) الآية وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة وسمك السماء خمسمائة سنة . وقال مجاهد وقتادة والضحاك النزول من الملك فى مسيرة خمسمائة عام وصعوده فى مسيرة خمسمائة عام ولـكنه يقطعها فى طرفة عين ولهذا قال تعالى (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون * ذلك عالم الغيب والشهادة) أى المدبر لهذه الأمور الذى هو شهيد على أعمال عباده يرفع إليه جليلها وحقيرها وصغيرها وكبيرها ، هو العزيز الذى قد عز كل شىء فقهره وغلبه ودانت له العباد والرقاب الرحيم بعباده المؤمنين فهو عزيز فى رحمته رحيم فى عزته وهذا هو الكمال ، العزة مع الرحمة والرحمة مع العزة فهو رحيم بلا ذل

﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا أنه الذى أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها . وقال مالك عن زيد بن أسلم (الذى أحسن كل شىء خلقه) قال أحسن خلق كل شىء كأنه جعله من المقدم والمؤخر ، ثم لما ذكر تعالى خلق السموات والأرض شرع فى ذكر خلق الانسان فقال تعالى (وبدأ خلق الإنسان من طين) يعنى خلق أبا البشر آدم من طين (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) أى يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة (ثم سواه) يعنى آدم لما خلقه من تراب خلقه سويا مستقيما (ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) يعنى العقول (قليلا ما تشكرون) أى بهذه القوى التى رزقكموها الله عز وجل فالسعيد من استعملها فى طاعة ربه عز وجل

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى استبعادهم المعاد حيث قالوا (أئذا ضللنا فى الأرض) أى تمزقت أجسامنا وتفرقت فى أجزاء الأرض وذهبت (أئنا لفى خلق جديد) أى أئنا لنعود بعد تلك الحال ؟ يستبعدون ذلك وهـذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرهم العاجزة لا بالنسبة إلى قدرة الذى بدأهم وخلقهم من العدم ، الذى إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ولهذا قال تعالى (بل هم بلقاء ربهم كافرون) ثم قال تعالى (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم) الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره فى سورة

إبراهيم وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور . قاله قتادة وغير واحد وله أعوان ، وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت ، قال مجاهد: حويت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها متى يشاء . ورواه زهير بن محمد عن النبي ﷺ بنحوه مرسلا . وقاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يحي بن أبي يحي القرى حدثنا عمر بن سمرة عن جعفر ابن محمد قال سمعت أبي يقول : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي ﷺ « ياملك الموت ارفق بصاحبي فانه مؤمن » فقال ملك الموت يامحمد طب نفساً وقر عيناً فاني بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن مافي الأرض بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى إني أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يامحمد لو أني أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها ، قال جعفر بلغني أنه إنما يتصفحهم عند مواقيت الصلاة فاذا حضرهم عند الموت فان كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ولقنه الملك لا إله إلا الله محمد رسول الله في تلك الحال العظيمة ، وقال عبد الرزاق حدثنا محمد بن مسلم عن إبراهيم بن ميسرة قال سمعت مجاهداً يقول : ماعلى ظهر الأرض من بيت شعر أومدر إلا وملك الموت يطرف به كل يوم مرتين ، وقال كعب الأحبار والله مامن بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات ينظر هل فيه أحد أمر أن يتوفاه . رواه ابن أبي حاتم ، وقوله تعالى (ثم إلى ربكم ترجعون) أي يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة وقالهم حين عاينوا البعث وقاموا بين يدي الله عز وجل حقيرين ذليلين ناكسي رءوسهم أي من الحياء والخجل يقولون (ربنا أبصرنا وسمعنا) أي نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك كما قال تعالى (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) وهكذا هؤلاء يقولون (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا) أي إلى دار الدنيا (نعمل صالحاً إنا موقنون) أي قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ولقاءك حق ، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون بآيات الله ويخالفون رسله كما قال تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا) الآية وقال ههنا (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) كما قال تعالى (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً) (ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) أي من الصنفين فدارهم النار لامحيد لهم عنها ولامحيص لهم منها . نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا) أي يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به واستبعادكم وقوعه وتناسيكم له إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له (إنا نسيناكم) أي سنعاملكم معاملة الناسي لأنه تعالى لاينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء ، بل من باب المقابلة كما قال تعالى (فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) وقوله تعالى (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) أي بسبب كفركم وتكذيبكم كما قال تعالى في الآية الأخرى (لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً * إلا حميماً وغساقاً * إلى قوله - فلن نزيدكم إلا عذاباً)

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَىٰ

جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى (إنما يؤمن بآياتنا) أى إنما يصدق بها (الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا) أى استمعوا لها وأطاعوها قولا وفعلا (وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) أى عن اتباعها والانقياد لها كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة ، قال الله تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) ثم قال تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) يعنى بذلك قيام الليل وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة ، قال مجاهد والحسن فى قوله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) يعنى بذلك قيام الليل ، وعن أنس وعكرمة ومحمد بن المنكدر وأبى حازم وقتادة هو الصلاة بين العشاءين وعن أنس أيضا هو انتظار صلاة العتمة . رواه ابن جرير بإسناد جيد ،وقال الضحاك هو صلاة العشاء فى جماعة وصلاة الغداة فى جماعة (يدعون ربهم خوفا وطمعا) أى خوفا من وبال عقابه وطمعا فى جزيل ثوابه (ومما رزقناهم ينفقون) فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم فى الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ كما قال عبد الله ابن رواحة رضى الله عنه :

وفينا رسول الله يتلو كتابه * إذا انشق معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا * به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه * إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وقال الإمام أحمد حدثنا روح وعفان قالا حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا عطاء بن السائب عن مرة الهمدانى عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال « عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطائه ولحافه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى ، ورجل غزا فى سبيل الله تعالى فانهزموا فعلم ما عليه من الفرار وما له فى الرجوع فرجع حتى أهريق دمه رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى ، فيقول الله عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى ورهبة مما عندى حتى أهريق دمه » وهكذا رواه أبو داود فى الجهاد عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة به بنحوه . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عاصم بن أبى النجود عن أبى وائل عن معاذ بن جبل قال كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير فقلت يا نبى الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار قال « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت - ثم قال :- ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، وصلاة الرجل فى جوف الليل - ثم قرأ - (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) حتى بلغ (جزاء بما كانوا يعملون) ثم قال - ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ - فقلت بلى يا رسول الله فقال - رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله - ثم قال - ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟» فقلت بلى يا نبى الله فأخذ بلسانه ثم قال « كف عليك هذا » فقلت يارسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ، فقال « ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس فى النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم » ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه فى سننهم من طرق عن معمر به وقال الترمذى حسن صحيح ورواه ابن جرير من حديث شعبة عن الحكم قال : سمعت عروة بن النزال يحدث عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال له « ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة والصدقة تكفر الخطيئة وقيام العبد فى جوف الليل » وتلا هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون) ورواه أيضا من حديث الثورى عن منصور بن المعتمر عن الحكم عن ميمون بن أبى شبيب عن معاذ عن النبى ﷺ بنحوه ومن حديث الأعمش عن حبيب بن أبى ثابت والحكم عن ميمون بن أبى شبيب

عن معاذ مرفوعا بنحوه ومن حديث حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن شهر عن معاذ أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) قال « قيام العبد من الليل » وروى ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان الواسطي حدثنا يزيد بن هارون حدثنا قطر بن خليفة عن حبيب بن أبي ثابت والحكم وحكيم بن جبير عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ بن جبل قال كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فقال « إن شئت نبأتك بأبواب الخير ، الصوم جنة والصدقة تطفيء الخطيئة وقيام الرجل في جوف الليل » ثم تلا رسول الله ﷺ (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) الآية ثم قال حدثنا أبي حدثنا سويد بن سعيد حدثنا علي بن مسهر عن عبدالرحمن بن إسحق عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء منادفنادى بصوت يسمع الخلائق سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ـ الآية ـ فيقومون وهم قليل » وقال البزار حدثنا عبد الله بن شبيب حدثنا الوليد بن عطاء بن الأغر حدثنا عبد الحميد بن سليمان حدثني مصعب عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال بلال لما نزلت هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) الآية كنا نجلس في المجلس وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء فنزلت هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ثم قال لا نعلم روى أسلم عن بلال سواه وليس له طريق عن بلال غير هذه الطريق وقوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) الآية أي فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد لما أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقا فان الجزاء من جنس العمل ، قال الحسن البصري: أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم مالم تر عين ولم يخطر على قلب بشر . رواه ابن أبي حاتم . قال البخاري قوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) الآية حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » قال أبو هريرة اقرءوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) قال وحدثنا سفيان حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال الله مثله . قيل لسفيان رواية قال فأي شيء ؟ ورواه مسلم والترمذي من حديث سفيان بن عيينة به وقال الترمذي حسن صحيح ثم قال البخاري حدثنا إسحق بن نصر حدثنا أبو أسامة عن الأعمش حدثنا أبو صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخرا من بله ما أطلعتم عليه » ثم قرأ (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) قال أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح قرأ أبو هريرة (قرات أعين) انفرد به البخاري من هذا الوجه وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ « إن الله تعالى قال أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » أخرجاه في الصحيحين من رواية عبد الرزاق قال ورواه الترمذي في التفسير وابن جرير من حديث عبد الرحيم بن سليمان عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ بمثله ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح . وقال حماد بن سلمة عن ثابت بن أبي رافع عن أبي هريرة رضي الله عنه قال حماد أحسبه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من يدخل الجنة ينعم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به وروى الإمام أحمد حدثنا هارون حدثنا ابن وهب حدثني أبو صخر أن أبا حازم حدثه قال سمعت سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يقول شهدت من رسول الله ﷺ مجلسا وصف فيه الجنة حتى انتهى ثم قال في آخر حديثه « فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ثم قرأ هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع ـ إلى قوله ـ يعملون) وأخرجه مسلم في صحيحه عن هارون بن معروف وهارون بن سعيد كلاهما عن ابن وهب به

وقال ابن جرير حدثني العباس بن أبي طالب حدثنا معلى بن أسد حدثنا سلام بن أبي مطيع عن قتادة عن عقبة بن عبد الغافر عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يروى عن ربه عز وجل « قال أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » لم يخرجوه وقال مسلم أيضا في صحيحه حدثنا ابن أبي عمر وغيره حدثنا سفيان حدثنا مطرف بن طريف وعبد الملك بن سعيد سمعا الشعبي يخبر عن المغيرة بن شعبة قال سمعته على المنبر يرفعه إلى النبي ﷺ قال سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له ادخل الجنة فيقول أي رب كيف وقد أخذ الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول رضيت رب فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله فقال في الخامسة رضيت ربي فيقول هذا لك وعشرة أمثاله معه ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول رضيت رب قال رب فأعلاهم منزلة قال أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر قال ومصداقه من كتاب الله عز وجل (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) الآية ورواه الترمذي عن ابن أبي عمر وقال حسن صحيح قال ورواه بعضهم عن الشعبي عن المغيرة ولم يرفعه والمرفوع أصح قال ابن أبي حاتم حدثنا جعفر بن المدائني حدثنا أبو بدر بن شجاع بن الوليد حدثنا زياد بن خيثمة عن محمد بن جحادة عن عامر بن عبد الواحد قال : بلغني أن الرجل من أهل الجنة يمكث في مكانه سبعين سنة ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه فتقول له قد أنى لك أن يكون لنا منك نصيب فيقول من أنت ؟ فتقول أنا من المزيد فيمكث معها سبعين سنة ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه فتقول له قد أنى لك أن يكون لنا منك نصيب فتقول من أنت ؟ فتقول أنا التي قال الله (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وقال ابن لهيعة حدثني عطاء ابن دينار عن سعيد بن جبير قال : تدخل عليهم الملائكة في مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات معهم التحف من الله من جنات عدن ما ليس في جناتهم وذلك قوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) ويخبرون أن الله عنهم راض ، وروى ابن جرير حدثنا سهل بن موسى الرازي حدثنا الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو عن أبي اليمان الهوزني أو غيره قال : الجنة مائة درجة أولها درجة فضة وأرضها فضة ومساكنها فضة وآنيتها فضة وترابها المسك ، والثانية ذهب وأرضها ذهب ومساكنها ذهب وآنيتها ذهب وترابها المسك والثالثة لؤلؤ وأرضها لؤلؤ ومساكنها اللؤلؤ وآنيتها اللؤلؤ وترابها المسك وسبع وتسعون بعد ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم تلا هذه الآية (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم) الآية وقال ابن جرير حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا معتمر بن سليمان عن الحكم بن أبان عن الغطريف عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي ﷺ عن الروح الأمين قال « يؤتى بحسنات العبد وسيئاته ينقص بعضها من بعض فإن بقيت حسنة واحدة وسع الله له في الجنة قال فدخلت على يزداد فحدث بمثل هذا الحديث قال فقلت فأين ذهبت الحسنة قال (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم) الآية قلت قوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) قال العبد يعمل سراً أسره إلى الله لم يعلم به الناس فأسر الله له يوم القيامة قرة أعين .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أنه لا يساوى فى حكمه يوم القيامة من كان مؤمنا بآياته متبعا لرسله بمن كان فاسقا أى خارجا عن طاعة ربه مكذبا رسل الله إليه كما قال تعالى (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) وقال تعالى (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) وقال تعالى (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) الآية ولهذا قال تعالى ههنا (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون) أى عند الله يوم القيامة وقد ذكر عطاء بن يسار والسدى وغيرهما أنها نزلت فى على بن أبى طالب وعقبة بن أبى معيط ولهذا فصل حكمهم فقال (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها وهى الصالحات (فلهم جنات المأوى) أى التى فيها المساكن والدور والغرف العالية (نزلا) أى ضيافة وكرامة (بما كانوا يعملون * وأما الذين فسقوا) أى خرجوا عن الطاعة فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها كقوله (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) الآية قال الفضيل بن عياض والله إن الأيدى لموثقة وإن الأرجل لمقيدة وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم (وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون) أى يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا . وقوله تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر) قال ابن عباس يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها وما يحل بأهلها مما يبتلى الله به عباده ليتوبوا إليه ، وروى مثله عن أبى بن كعب وأبى العالية والحسن وإبراهيم النخعى والضحاك وعلقمة وعطية ومجاهد وقتادة وعبد الكريم الجزرى وخصيف ، وقال ابن عباس فى رواية عنه يعنى به إقامة الحدود عليهم . وقال البراء بن عازب ومجاهد وأبو عبيدة يعنى به عذاب القبر ، وقال النسائى أخبرنا عمرو بن على أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى عن إسرائيل عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص وأبى عبيدة عن عبد الله (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر) قال سنون أصابتهم ، وقال عبد الله بن الإمام أحمد حدثنى عبد الله بن عمر القواريرى حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة عن قتادة عن عروة عن الحسن العوفى عن يحيى بن الجزار عن ابن أبى ليلى عن أبى بن كعب فى هذه الآية (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر) قال القمر والدخان قد مضيا والبطشة واللزام ، ورواه مسلم من حديث شعبة به موقوفا نحوه وعند البخارى عن ابن مسعود نحوه ، وقال عبد الله بن مسعود أيضا فى رواية عنه العذاب الأدنى ما أصابهم من القتل والسبى يوم بدر . وكذا قال مالك عن زيد بن أسلم قال السدى وغيره لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير فأصيبوا أو غرموا ومنهم من جمع له الأمران . وقوله تعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) أى لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها . قال قتادة: إياكم والاعراض عن ذكر الله فان من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة وأعوز أشد العوز وعظم من أعظم الذنوب ، ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك (إنا من المجرمين منتقمون) أى سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام . وروى ابن جرير حدثنى عمران بن بكار الكلاعى حدثنا محمد بن المبارك حدثنا إسماعيل بن عياش حدثنا عبد العزيز بن عبيد الله عن عبادة بن نسى عن جنادة بن أمية عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ثلاث من فعلهن فقد أجرم ، من عقد لواء فى غير حق أو عق والديه أو مشى مع ظالم ينصره فقد أجرم يقول الله تعالى (إنا من المجرمين منتقمون) ورواه ابن أبى حاتم من حديث إسماعيل ابن عياش به وهذا حديث غريب جداً .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه آتاه الكتاب وهو التوراة ، وقوله تعالى (فلا تكن في مرية من لقائه) قال قتادة يعني به ليلة الإسراء ثم روى عن أبي العالية الرياحي قال حدثني ابن عم نبيكم يعني ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « أريت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلا آدم طوالا جعداً كأنه من رجال شنوأة . ورأيت عيسى رجلا مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس ، ورأيت مالكا خازن النار والدجال » في آيات أراهن الله إياه (فلا تكن في مرية من لقائه) أنه قد رأى موسى ولقي موسى ليلة أسري به .

وقال الطبراني حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا الحسن بن علي الحلواني حدثنا روح بن عبادة حدثنا سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة عن أبي العالية عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله تعالى (وجعلناه هدى لبني إسرائيل) قال جعل موسى هدى لبني إسرائيل وفي قوله (فلا تكن في مرية من لقائه) قال من لقاء موسى ربه عز وجل وقوله تعالى (وجعلناه) أي الكتاب الذي آتيناه (هدى لبني إسرائيل) كما قال تعالى في سورة الإسراء (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل أن لا تتخذوا من دوني وكيلا) وقوله تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) أي لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك زواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوهم به كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله ويدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ثم لما بدلوا وحرفوا وأولوا سلبوا ذلك المقام وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه فلا عمل صالحا ولا اعتقادا صحيحاً ولهذا قال تعالى (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب) قال قتادة وسفيان لما صبروا عن الدنيا وكذلك قال الحسن ابن صالح قال سفيان هكذا كان هؤلاء ولا ينبغي للرجل أن يكون إماما يقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا ، قال وكيع قال سفيان لا بد للدين من العلم كما لا بد للجسد من الخبز وقال ابن بنت الشافعي : قرأ أبي على عمي أو عمي على أبي سئل سفيان عن قول علي رضي الله عنه الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ألم تسمع قوله (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) قال لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوسا قال بعض العلماء بالصبر واليقين تنال الامامة في الدين ولهذا قال تعالى (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الأمر) الآية كما قال هنا (إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أي من الاعتقادات والأعمال

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَاءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾

يقول تعالى أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاءوهم به من قويم السبل فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً) ولهذا قال (يمشون في مساكنهم) أي وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين ، فلا يرون فيها أحدا ممن كان يسكنها ويعمرها ذهبوا منها (كأن لم يغنوا فيها) كما قال (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) وقال (وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد * أفلم يسيروا في الأرض – إلى قوله – ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) ولهذا قال ههنا (إن في ذلك لآيات) أي إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ونجاة من آمن بهم لآيات وعبرا ومواعظ ودلائل متناظرة (أفلا يسمعون) أي أخبار من تقدم كيف كان أمرهم وقوله تعالى (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز) يبين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السيح وهو ما تحمله الأنهار ويتحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة اليه في أوقاته ولهذا قال تعالى (إلى الأرض الجرز) وهي التي لا نبات فيها كما قال تعالى (وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً) أي

يبساً لاتنبت شيئاً ، وليس المراد من قوله (إلى الأرض الجرز) أرض مصر فقط بل هي بعض المقصود وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست هي المقصودة وحدها ولكنها مرادة قطعا من هذه الآية فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء مالو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها فيسوق الله تعالى إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة وفيه طين أحمر فيغشى أرض مصر وهي أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء ، وذلك الطين أيضا لينبت الزرع فيه فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم وطين جديد من غير أرضهم فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود أبداً ، قال ابن لهيعة عن قيس بن حجاج عمن حدثه قال : لما فتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص وكان أميرا بها حين دخل بؤونة من أشهر العجم فقالوا أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لايجرى إلا بها . قال وماذاك قالوا إذا كانت ثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل فقال لهم عمرو إن هذا لا يكون في الإسلام ، إن الإسلام يهدم ما كان قبله فأقاموا بؤونة والنيل لايجرى حتى هموا بالجلاء فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك فكتب اليه عمر إنك قد أصبت بالذى فعلت ، وقد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي هذا فألقها في النيل فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر أما بعد فإنك إن كنت إنما تجرى من قبلك فلا تجرى ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله أن يجريك . قال فألقى البطاقة في النيل فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعا في ليلة واحدة ، وقد قطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم . رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائى الطبرى في كتاب السنة له .ولهذا قال تعالى (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) كما قال تعالى (فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا) الآية ولهذا قال ههنا (أفلا يبصرون) وقال ابن أبي نجيح عن رجل عن ابن عباس في قوله (إلى الأرض الجرز) قال هي التى لاتمطر إلا مطرا لايغنى عنها شيئا إلا ما يأتيها من السيول، وعن ابن عباس ومجاهد هي أرض باليمن ، وقال الحسن رحمه الله هي قرى فيما بين اليمن والشام . وقال عكرمة والضحاك وقتادة والسدى وابن زيد الأرض الجرز التى لانبات فيها وهي مغبرة قلت وهذا كقوله تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) الآيتين

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن استعجال الكفار ووقوع بأس الله بهم وحلول غضبه ونقمته عليهم استبعادا وتكذيباً وعنادا (ويقولون متى هذا الفتح) أى متى تنصر علينا يامحمد ؟ كما تزعم أن لك وقتاً تدال علينا وينتقم لك منا فمتى يكون هذا مانراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين قال الله تعالى (قل يوم الفتح) أى إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه فى الدنيا وفى الأخرى (لاينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون) كما قال تعالى (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم) الآيتين . ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة ، وأخطأ فأفحش ، فان يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء وقد كانوا قريباً من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله تعالى (قل يوم الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون) وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل كقوله (فافتح بينى وبينهم فتحا) الآية وكقوله (قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق) الآية وقال تعالى (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد) وقال تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) وقال تعالى (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) ثم قال تعالى (فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون) أى أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك كقوله تعالى (اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو) الآية وانتظر فان الله سينجز لك

ما وعدك وسينصرك على من خالفك إنه لا يخلف الميعاد وقوله (إنهم منتظرون) أى أنت منتظر وهم منتظرون ويتربصون بكم الدوائر (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله فى نصرتك وتأييدك وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفى أصحابك من وبيل عقاب الله لهم وحلول عذابه بهم وحسبنا الله ونعم الوكيل آخر تفسير سورة السجدة ولله الحمد والمنة

﴿ تفسير سورة الاحزاب وهى مدنية ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا خلف بن هشام حدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن زر قال : قال لى أبى بن كعب كأين تقرأ سورة الأحزاب أو كأين تعدها ؟ قال قلت ثلاثاً وسبعين آية فقال قط لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة ولقد قرأنا فيها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم ورواه النسائى من وجه آخر عن عاصم وهو ابن أبى النجود وهو أبو بهدلة به ، وهذا إسناد حسن وهو يقتضى أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضا والله أعلم

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى فانه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى ، وقد قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله . قوله تعالى (ولا تطع الكافرين والمنافقين) أى لا تسمع منهم ولا تستشرهم (إن الله كان عليما حكيما) أى فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه فانه عليم بعواقب الأمور حكيم فى أقواله وأفعاله ولهذا قال تعالى (واتبع ما يوحى إليك من ربك) أى من قرآن وسنة (إن الله كان بما تعملون خبيرا) أى فلا تخفى عليه خافية وتوكل على الله أى فى جميع أمورك وأحوالك (وكفى بالله وكيلا) أى وكفى به وكيلا لمن توكل عليه وأناب إليه

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ * ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

يقول تعالى موطئا قبل المقصود المعنوى أمرا معروفا حسيا وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان فى جوفه ولا تصير زوجته التى يظاهر منها بقوله أنت على كظهر أمى أما له ، كذلك لا يصير الدعى ولدا للرجل إذا تبناه فدعاه ابناله فقال (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) كقوله عز وجل (ماهن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم) الآية . وقوله تعالى (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) هذا هو المقصود بالنفى فانها نزلت فى شأن زيد بن حارثة رضى الله عنه مولى النبى صلى الله عليه وسلم ، كان النبى صلى الله عليه وسلم قد تبناه قبل النبوة فكان يقال له زيد بن محمد فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الالحاق وهذه النسبة بقوله تعالى (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) كما قال تعالى فى أثناء السورة (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين

وكان الله بكل شيء عليما) وقال ههنا (ذلكم قولكم بأفواهكم) يعنى تبنيكم لهم قول لا يقتضى أن يكون ابنا حقيقيا فانه مخلوق من صلب رجل آخر فما يمكن أن يكون له أبوان كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) قال سعيد بن جبير (يقول الحق) أى العدل، وقال قتادة (وهو يهدى السبيل) أى الصراط المستقيم وقد ذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت فى رجل من قريش كان يقال له ذو القلبين وأنه كان يزعم أن له قلبين كل منهما بعقل وافر فأنزل الله تعالى هذه الآية ردا عليه . هكذا روى العوفى عن ابن عباس ، وقاله مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة واختاره ابن جرير . وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا زهير عن قابوس يعنى ابن أبى ظبيان قال إن أباه حدثه قال قلت لابن عباس أرأيت قول الله تعالى (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) ما عنى بذلك؟ قال قام رسول الله ﷺ يوما يصلى فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه ألا ترون له قلبين قلبا معكم وقلبا معهم فأنزل الله تعالى (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) وهكذا رواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى عن صاعد الحرانى عن عبد بن حميد وعن أحمد بن يونس كلاهما عن زهير وهو ابن معاوية به ثم قال وهذا حديث حسن ، وكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث زهير به . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى فى قوله (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) قال بلغنا أن ذلك كان فى زيد بن حارثة ضرب له مثل : يقول ليس ابن رجل آخر ابنك وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد أنها نزلت فى زيد بن حارثة رضى الله عنه ، وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير والله سبحانه وتعالى أعلم . وقوله عز وجل (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) هذا أمر ناسخ لما كان فى ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب وهم الأدعياء فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم فى الحقيقة وأن هذا هو العدل والقسط والبر . قال البخارى رحمه الله حدثنا معلى بن أسد حدثنا عبد العزيز بن المختار عن موسى بن عقبة قال حدثنى سالم عن عبد الله بن عمر قال إن زيد بن حارثة رضى الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى من طرق عن موسى بن عقبة به . وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه فى الخلوة بالمحارم وغير ذلك ، ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبى حذيفة رضى الله عنهما يا رسول الله كنا ندعو سالما ابنا وإن الله قد أنزل ما أنزل وإنه كان يدخل على وإنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك شيئا ، فقال صلى الله عليه وسلم « أرضعيه تحرمى عليه » الحديث ، ولهذا لما نسخ هذا الحكم أباح تبارك وتعالى زوجة الدعى ، وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة رضى الله عنه ، وقال عز وجل (لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا) وقال تبارك وتعالى فى آية التحريم (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) احترازا عن زوجة الدعى فانه ليس من الصلب فأما الابن من الرضاعة فمنزل منزلة ابن الصلب شرعا بقوله صلى الله عليه وسلم فى الصحيحين « حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب » فأما دعوة الغير ابنا على سبيل التكريم والتحبيب فليس مما نهى عنه فى هذه الآية بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذى من حديث سفيان الثورى عن سلمة بن كهيل عن الحسن العرنى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أغيلمة بنى عبد المطلب على جمرات لنا من جمع فجعل يلطخ أفخاذنا ويقول « أبنى لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس » قال أبو عبيدة وغيره أبنى تصغير أبنى وهذا ظاهر الدلالة فان هذا كان فى حجة الوداع سنة عشر . وقوله (ادعوهم لآبائهم) فى شأن زيد بن حارثة رضى الله عنه وقد قتل فى يوم مؤتة سنة ثمان وأيضاً ففى صحيح مسلم من حديث أبى عوانة الوضاح بن عبد الله اليشكرى عن الجعد أبى عثمان البصرى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ « يا بنى » ورواه أبو داود والترمذى ، وقوله عز وجل (فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم) أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عرفوا فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم فى الدين ومواليهم أى عوضا عما فاتهم من النسب ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء وتبعتهم ابنة حمزة رضى الله عنها تنادى يا عم يا عم فأخذها على رضى الله عنه

وقال لفاطمة رضى الله عنها دونك ابنة عمك ، فاحتملتها فاختصم فيها على وزيد وجعفر رضى الله عنهم فى أيهم يكفلها فكل أدلى بحجة . فقال على رضى الله عنه أنا أحق بها وهى ابنة عمى ، وقال زيد ابنة أخى ، وقال جعفر بن أبى طالب ابنة عمى وخالتها تحتى يعنى أسماء بنت عميس ، فقضى بها النبى صلى الله عليه وسلم لخالتها وقال « الخالة بمنزلة الأم» وقال لعلى رضى الله عنه « أنت منى وأنا منك » وقال لجعفر رضى الله عنه « أشبهت خلقى وخلقى » وقال لزيد رضى الله عنه « أنت أخونا ومولانا » ففى هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها أنه ﷺ حكم بالحق وأرضى كلا من المتنازعين وقال لزيد رضى الله عنه « أنت أخونا ومولانا » كما قال تعالى (فإخوانكم فى الدين ومواليكم) وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه قال : قال أبو بكر رضى الله عنه قال الله عز وجل (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم) فأنا ممن لايعرف أبوه فأنا من إخوانكم فى الدين ، قال أبى والله إنى لأظنه أنه لو علم أن أباه كان حمارا لانتمى اليه وقد جاء فى الحديث « ليس من رجل ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر » وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد فى التبرى من النسب المعلوم ولهذا قال تعالى (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم) ثم قال تعالى (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) أى إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه فى الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع فان الله تعالى قد وضع الحرج فى الخطأ ورفع إثمه كما أرشد اليه فى قوله تبارك وتعالى آمرا عباده أن يقولوا (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله عز وجل قد فعلت » . وفى صحيح البخارى عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر » وفى الحديث الآخر « إن الله تعالى رفع عن أمتى الخطأ والنسيان والأمر الذى يكرهون عليه » وقال تبارك وتعالى ههنا (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ماتعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما) أى وإنما الإثم على من تعمد الباطل كما قال عز وجل (لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) الآية . وفى الحديث المتقدم « ليس من رجل ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر » وفى القرآن المنسوخ فانه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم . قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس عن عمر رضى الله عنهم أنه قال : إن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق وأنزل معه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فرجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده ، ثم قال قد كنا نقرأ (ولا ترغبوا عن آبائكم فانه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم) وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لاتطرونى كما أطرى عيسى بن مريم عليه الصلاة السلام فانما أنا عبد الله فقولوا عبده ورسوله » وربما قال معمر « كما أطرت النصارى ابن مريم » ورواه فى الحديث الآخر « ثلاث فى الناس كفر ، الطعن فى النسب ، والنياحة على الميت . والاستسقاء بالنجوم » .

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾

قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحكمه فيهم كان مقدما على اختيارهم لأنفسهم كما قال تعالى (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مماقضيت ويسلموا تسليما) وفى الصحيح « والذى نفسى بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » وفى الصحيح أيضاً أن عمر رضى الله عنه قال يارسول الله والله لأنت أحب الى من كل شىء إلا من نفسى ، فقال صلى الله عليه وسلم « لاياعمر حتى أكون أحب اليك من نفسك . فقال يارسول الله

والله لأنت أحب إلى من كل شىء حتى من نفسى ، فقال صلى الله عليه وسلم « الآن ياعمر » ولهذا قال تعالى فى هذه الآية (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) ، وقال البخارى عند هذه الآية الكريمة حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا محمد بن فليح حدثنا أبى عن هلال بن على عن عبد الرحمن بن أبى عمرة عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « مامن مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة : اقرءوا إن شئتم (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، وان ترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه » تفرد به البخارى ورواه أيضا فى الاستقراض وابن جرير وابن أبى حاتم من طرق عن فليح به مثله ، ورواه أحمد من حديث أبى حصين عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ بنحوه ، وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى فى قوله (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) عن أبى سلمة عن جابر بن عبدالله رضى الله عنه عن النبى ﷺ كان يقول « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فأيما رجل مات وترك دينا فإلى ، ومن ترك مالا فهو لورثته » ورواه أبو داود عن أحمد ابن حنبل به نحوه وقوله تعالى (وأزواجه أمهاتهم) أى فى الحرمة والاحترام ، والتوقير والاكرام والاعظام ، ولكن لاتجوز الخلوة بهن ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالاجماع ، وإن سمى بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين كما هو منصوص الشافعى رضى الله عنه فى المختصر ، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم ، وهل يقال لمعاوية وأمثاله خال المؤمنين ؟ فيه قولان للعلماء رضى الله عنهم ، ونص الشافعى رضى الله عنه على أنه لا يقال ذلك ، وهل يقال لهن أمهات المؤمنات فيدخل النساء فى جمع المذكر السالم تغليبا ؟ فيه قولان ، صح عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لا يقال ذلك وهذا أصح الوجهين فى مذهب الشافعى رضى الله عنه . وقد روى عن أبى بن كعب وابن عباس رضى الله عنهم أنهما قرآ (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) . وروى نحو هذا عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن وهو أحد الوجهين فى مذهب الشافعى رضى الله عنه . حكاه البغوى وغيره واستأنسوا عليه بالحديث الذى رواه أبو داود رحمه الله حدثنا عبدالله بن محمد النفيلى حدثنا ابن المبارك عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم فاذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطب بيمينه » وكان يأمر بثلاثة أحجار وينهى عن الروث والرمة . وأخرجه النسائى وابن ماجه من حديث ابن عجلان ، والوجه الثانى أنه لا يقال ذلك واحتجوا بقوله تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) . وقوله تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) أى فى حكم الله . (من المؤمنين والمهاجرين) أى القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التى كانت بينهم كما قال ابن عباس وغيره : كان المهاجرى يرث الأنصارى دون قراباته وذوى رحمه للأخوة التى آخى بينهما رسول الله ﷺ ، وكذا قال سعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف . وقد أورد فيه ابن أبى حاتم حديثاً عن الزبير بن العوام فقال حدثنا أبى حدثنا أحمد بن أبى بكر المصعبى من ساكنى بغداد عن عبد الرحمن بن أبى الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير بن العوام رضى الله عنه قال أنزل الله عز وجل فينا خاصة معشر قريش والأنصار (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا فوجدنا الأنصار نعم الاخوان فواخيناهم وورثناهم فآخى أبو بكر رضى الله عنه خارجة بن زيد ، وآخى عمر رضى الله عنه فلانا ، وآخى عثمان رضى الله عنه رجلا من بنى زريق ابن سعد الزرقى ويقول بعض الناس غيره قال الزبير رضى الله عنه وواخيت أنا كعب بن مالك فجئته فابتعلته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى فوالله يابنى لومات يومئذ عن الدنيا ماورثه غيرى حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة فرجعنا إلى موارثينا . وقوله تعالى (إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً) أى ذهب الميراث وبقى النصر والبر والصلة والاحسان والوصية ، وقوله تعالى (كان ذلك فى الكتاب مسطوراً) أى هذا الحكم وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الأول الذى لا يبدل ولا

يغير . قاله مجاهد وغير واحد وإن كان تعالى قدشرع خلافه فى وقت لماله فى ذلك من الحكمة البالغة وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار فى قدره الأزلى وقضائه القدرى الشرعى والله أعلم .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا * لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن أولى العزم الخمسة وبقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهد والميثاق فى إقامة دين الله تعالى وإبلاغ رسالته والتعاون والتناصر والاتفاق كما قال تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد ارسالهم وكذلك هذا ، ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة وهم أولو العزم وهو من باب عطف الخاص على العام وقد صرح بذكرهم أيضاً فى هذه الآية وفى قوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فذكر الطرفين والوسط الفاتح والخاتم ومن بينهما على الترتيب فهذه هى الوصية التى أخذ عليهم الميثاق بها كما قال تعالى (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) فبدأ فى هذه الآية بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم . قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة الدمشقى حدثنا محمد بن بكار حدثنا سعيد بن بشير حدثنى قتادة عن الحسن عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى قول الله تعالى (وإذا خذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم « كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث فبدأبى قبلهم » سعيد بن بشير فيه ضعف ، وقد رواه سعيد بن أبى عروبة عن قتادة به مرسلا وهو أشبه ، ورواه بعضهم عن قتادة موقوفا والله أعلم . وقال أبو بكر البزار حدثنا عمرو بن على حدثنا أبو أحمد حدثنا حمزة الزيات حدثنا عدى بن ثابت عن أبى حازم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: خيار ولد آدم خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وخيرهم محمد صلى الله عليه وسلم . موقوف وحمزة فيه ضعف ، وقد قيل إن المراد بهذا الميثاق الذى أخذ منهم حين أخرجوا فى صورة الذر من صلب آدم عليه الصلاة والسلام كما قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب قال : ورفع أباهم آدم فنظر إليهم يعنى ذريته وأن فيهم الغنى والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال : رب لو سويت بين عبادك فقال : إنى أحببت أن أشكر . ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة وهو الذى يقول الله تعالى (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) وهذا قول مجاهد أيضا ، وقال ابن عباس: الميثاق الغليظ العهد وقوله تعالى (ليسأل الصادقين عن صدقهم) قال مجاهد المبلغين المؤدين عن الرسل ، وقوله تعالى (وأعد للكافرين) أى من أممهم (عذابا أليما) أى موجعا فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين الواضح الجلى الذى لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين ، فما جاءت به الرسل هو الحق ومن خالفهم فهو على الضلال كما يقول أهل الجنة (لقد جاءت رسل ربنا بالحق)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين فى صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق ، وذلك فى شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور ، وقال موسى بن عقبة وغيره كان فى سنة أربع وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرا من أشراف يهود بنى النضير الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى خيبر منهم سلام بن أبى الحقيق وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع خرجوا إلى مكة فاجتمعوا بأشراف قريش وألبوهم على حرب النبى صلى الله عليه وسلم ووعدوهم من أنفسهم النصر والاعانة فأجابوهم إلى ذلك ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضا ، وخرجت قريش فى أحابيشها ومن تابعها وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب ، وعلى غطفان عيينه بن حصن بن بدر ، والجميع قريب من عشرة آلاف فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلى الشرق ، وذلك باشارة سلمان الفارسى رضى الله عنه ، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ونقل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب وحفر ، وكان فى حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات . وجاء المشركون فنزلوا شرقى المدينة قريبا من أحد ونزلت طائفة منهم فى أعالى أرض المدينه كما قال الله تعالى (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين وهم نحو من ثلاثه آلاف وقيل سبعمائة فأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم إلى نحو العدو ، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الخيالة والرجالة أن تصل إليهم وجعل النساء والذرارى فى آطام المدينة ، وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقى المدينة ولهم عهد من النبى ﷺ وذمة وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حيى بن أخطب النضرى فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ومالأوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم الخطب واشتد الأمر وضاق الحال كما قال الله تبارك وتعالى (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) ومكثوا محاصرين للنبى ﷺ وأصحابه قريبا من شهر إلا أنهم لا يصلون إليهم ولم يقع بينهم قتال ، إلا أن عمرو بن عبد ودّ العامرى وكان من الفرسان الشجعان المشهورين فى الجاهلية ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق وخلصوا إلى ناحية المسلمين فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه فيقال إنه لم يبرز إليه أحد ، فأمر عليا رضى الله عنه فخرج إليه فتجاولا ساعة ثم قتله على رضى الله عنه فكان علامة على النصر . ثم أرسل الله عز وجل على الأحزاب ريحا شديدة الهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شىء ، ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين كما قال الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا) قال مجاهد وهى الصبا ، ويؤيده الحديث الآخر « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » وقال ابن جرير حدثنى محمد بن المثنى حدثنا عبد الأعلى حدثنا داود عن عكرمة قال : قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب انطلق ننصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت الشمال إن الحرة لا تسرى بالليل قال : فكانت الريح التى أرسلت عليهم الصبا ورواه ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الأشج عن حفص بن غياث عن داود عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما فذكره وقال ابن جرير أيضا حدثنا يونس حدثنا ابن وهب حدثنى عبيد الله بن عمر عن نافع عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال أرسلنى خالى عثمان ابن مظعون رضى الله عنه ليلة الخندق فى برد شديد وريح إلى المدينة فقال ائتنا بطعام ولحاف قال فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لى وقال « من أتيت من أصحابى فمرهم يرجعوا » قال فذهبت والريح تسفى كل شىء فجعلت لا ألقى أحدا إلا أمرته بالرجوع إلى النبى ﷺ قال فما يلوى أحد منهم عنقه ، قال وكان معى ترس لى فكانت الريح تضربه على وكان فيه حديد قال فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفى فأبعدها إلى الأرض .

وقوله (وجنودا لم تروها) هم الملائكة زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف فكان رئيس كل قبيلة يقول يا بنى فلان إلى فيجتمعون إليه فيقول : النجاء ، النجاء لما ألقى الله عز وجل فى قلوبهم من الرعب ، وقال محمد بن إسحاق عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال : قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان رضى الله عنه يا أبا عبد الله رأيتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه ؟ قال : نعم يا ابن أخى قال وكيف كنتم تصنعون ؟ قال والله لقد كنا نجهد ، قال الفتى والله لو أدركناه

ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا . قال : قال حذيفة رضى الله عنه يا ابن أخى والله لورأيتنامع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هو يا من الليل ثم التفت فقال « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ - يشترط له النبي ﷺ أن يرجع - أدخله الله الجنة » قال فما قام رجل ، ثم صلى رسول الله ﷺ هويا من الليل ثم التفت إلينافقال مثله، فما قام منا رجل ، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل ثم التفت إلينافقال « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ، - يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة » فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن لى بد من القيام حين دعاني فقال ﷺ « يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ما يفعلون ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا » قال فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله عز وجل تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قراراً ولا ناراً ولا بناء فقام أبو سفيان فقال يا معشر قريش لينظر كل امرىء من جليسه . قال حذيفة رضى الله عنه فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبي فقلت من أنت ، فقال أنا فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون والله ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فانى مرتحل ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني لو شئت لقتلته بسهم ، قال حذيفة رضى الله عنه فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى في مرط لبعض نسائه مرحل فلما رآني أدخلني بين رجليه وطرح على طرف المرط ثم ركع وسجد وإني لفيه ، فلما سلم أخبرته الخبر وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه قال : كنا عند حذيفة بن اليمان رضى الله عنه فقال له رجل لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت : فقال له حذيفة أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقر فقال رسول الله ﷺ « ألا رجل يأتى بخبر القوم يكون معي يوم القيامة » فلم يجبه منا أحد ثم الثانية ثم الثالثة مثله ثم قال صلى الله عليه وسلم « يا حذيفة قم فأتنا بخبر من القوم » فلم أجد بدا إذ دعاني باسمى أن أقوم فقال « ائتنى بخبر القوم ولا تذعرهم على » قال فمضيت كأنما أمشى في حمام حتى أتيتهم فإذا أبو سفيان يصلى ظهره بالنار فوضعت سهما في كبد قوسى وأردت أن أرميه ثم ذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تذعرهم على ولو رميته لأصبته قال فرجعت كأنما أمشى في حمام فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أصابني البرد حين فرغت وقررت فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم وألبسني من فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها فلم أزل نائما حتى الصبح فلما أن أصبحت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قم يا نومان » ورواه يونس بن بكير عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم قال إن رجلا قال لحذيفة رضى الله عنه نشكو إلى الله صحبتكم لرسول الله ﷺ إنكم أدركتموه ولم ندركه ورأيتموه ولم نره فقال حذيفة رضى الله عنه ونحن نشكو إلى الله إيمانكم به ولم تروه والله لا تدرى يا ابن أخى لو أدركته كيف كنت تكون لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الخندق في ليلة باردة مطيرة ثم ذكر نحو ما تقدم مطولا . وروى بلال ابن يحيى العبسى عن حذيفة رضى الله عنه نحو ذلك أيضا وقد أخرج الحاكم والبيهقى في الدلائل من حديث عكرمة ابن عمار عن محمد بن عبد الله الدؤلى عن عبد العزيز ابن أخى حذيفة قال ذكر حذيفة رضى الله عنه مشاهدهم مع رسول الله ﷺ فقال جلساؤه أما والله لو شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا . فقال حذيفة لا تمنوا ذلك لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعودا وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا قط أشد ظلمة ولا أشد ريحا في أصوات ريحها أمثال الصواعق وهى ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، ويأذن لهم فيتسللون أو نحن ثلثمائة أو نحو ذلك

إذا استقبلنا رسول الله ﷺ رجلا رجلا حتى أتى على وما على جنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتى ما يجاوز ركبتى قال فأتانى ﷺ وأنا جاث على ركبتى فقال « من هذا ؟ » فقلت حذيفة قال « حذيفة » فتقاصرت الأرض فقلت: بلى يارسول الله كراهية أن أقوم فقمت فقال « إنه كائن فى القوم خبر فأتنى بخبر القوم » قال وأنا من أشد الناس فزعا وأشدهم قرا قال فخرجت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته » قال فوالله ماخلق الله تعالى فزعا ولاقرا فى جوفى إلا خرج من جوفى فما أجد فيه شيئا قال فلما وليت قال ﷺ « يا حذيفة لاتحدثن فى القوم شيئا حتى تأتينى » قال فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نار لهم توقد فإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ويمسح خاصرته ويقول: الرحيل الرحيل ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك فانتزعت سهما من كنانتى أبيض الريش فأضعه فى كبد قوسى لأرميه به فى ضوء النار فذكرت قول رسول ﷺ « لا تحدثن فيهم شيئا حتى تأتينى » قال فأمسكت ورددت سهمى إلى كنانتى ثم إنى شجعت نفسى حتى دخلت العسكر فإذا أدنى الناس منى بنو عامر يقولون ياآل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم . وإذا الريح فى عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبرا فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وفرشهم الريح تضربهم بها ثم خرجت نحو النبى صلى الله عليه وسلم فلما انتصفت فى الطريق أو نحوا من ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك معتمين فقالوا أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل فى شملة يصلى فوالله ما عدا أن رجعت راجعنى القر وجعلت أقرقف فأومأ إلى رسول الله ﷺ بيده وهو يصلى فدنوت منه فأسبل على شملة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حز به أمر صلى فأخبرته خبر القوم وأخبرته أنى تركتهم يرتحلون وأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا) وأخرج أبو داود فى سننه منه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى، من حديث عكرمة بن عمار به. وقوله تعالى (إذ جاءوكم من فوقكم) أى الأحزاب (ومن أسفل منكم) تقدم عن حذيفة رضى الله عنه أنهم بنو قريظة (وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر) أى من شدة الخوف والفزع (وتظنون بالله الظنونا) قال ابن جرير ظن بعض من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الدائرة على المؤمنين وأن الله سيفعل ذلك ، وقال محمد بن إسحاق فى قوله تعالى (وإذ زاغب الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا) ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق حتى قال معتب بن قشير أخو بنى عمرو بن عوف كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط ، وقال الحسن فى قوله عز وجل (وتظنون بالله الظنونا) ظنون مختلفة ظن المنافقون أن محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه يستأصلون . وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن عاصم الأنصارى حدثنا أبو عامر ح وحدثنا أبى حدثنا أبو عامر العقدى حدثنا الزبير يعنى ابن عبدالله مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه عن ربيع بن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قلنا يوم الخندق يارسول الله هل من شىء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال ﷺ « نعم ، قولوا اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا » قال فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبى عامر العقدى

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن ذلك الحال حين نزلت الأحزاب حول المدينة والمسلمون محصورون فى غاية الجهد والضيق ورسول الله ﷺ بين أظهرهم أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالا شديداً فحينئذ ظهر النفاق وتكلم الذين فى قلوبهم مرض بما فى أنفسهم (وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) أما المنافق فنجم نفاقه ، والذى فى قلبه شبهة أو حسكة ضعف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس فى نفسه لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال ، وقوم آخرون قالوا كما قال الله تعالى (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب) يعنى المدينة كما جاء فى الصحيح « أريت فى المنام دار هجرتكم أرض بين حرتين فذهب وهلى أنها هجر فإذا هى يثرب » وفى لفظ المدينة ، فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا إبراهيم بن مهدى حدثنا صالح بن عمر عن يزيد بن أبى زياد عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن البراء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى إنما هى طابة هى طابة » تفرد به الإمام أحمد وفى إسناده ضعف والله أعلم ، ويقال إنما كان أصل تسميتها يثرب برجل نزلها من العماليق يقال له يثرب بن عبيد بن مهلاييل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح . قاله السهيلى ، قال وروى عن بعضهم أنه قال إن لها فى التوراة أحد عشر اسما : المدينة وطابة وطيبة والمسكينة والجابرة والمحبة والمحبوبة والقاصمة والمجبورة والعذراء والمرحومة . وعن كعب الأحبار قال : إنا نجد فى التورة يقول الله تعالى للمدينة يا طيبة ويا طابة ويا مسكينة لا تقلى الكنوز أرفع أحاجرك على أحاجر القرى وقوله (لا مقام لكم) أى ههنا يعنون عند النبي صلى الله عليه وسلم فى مقام المرابطة (فارجعوا) أى إلى بيوتكم ومنازلكم (ويستأذن فريق منهم النبى) قال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما هم بنو حارثة قالوا بيوتنا نخاف عليها السراق وكذا قال غير واحد ، وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك هو أوس بن قيظى يعنى اعتذروا فى الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة أى ليس دونها ما يحجبها من العدو فهم يخشون عليها منهم قال الله تعالى (وما هى بعورة) أى ليست كما يزعمون (إن يريدون إلا فرارا) أى هربا من الزحف

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين (يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا) أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها ثم سئلوا الفتنة وهى الدخول فى الكفر لكفروا سريعاً وهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع ، هكذا فسرها قتادة وعبد الرحمن بن زيد وابن جرير وهذا ذم لهم فى غاية الذم ، ثم قال تعالى يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف أن لا يولوا الأدبار ولا يفرون من الزحف (وكان عهد الله مسئولا) أى وإن الله سيسألهم عن ذلك العهد لابد من ذلك ، ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ولا يطول أعمارهم بل ربما كان ذلك سببا فى تعجيل أخذهم غرة ولهذا قال تعالى (وإذاً لا تمتعون إلا قليلا) أى بعد هربكم وفراركم (قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى) ثم قال تعالى (قل من ذا الذى يعصمكم من الله) أى يمنعكم (إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيراً) أى ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ

فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾

يخبر تعالى عن إحاطه علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب والقائلين لإخوانهم أى أصحابهم وعشرائهم وخلطائهم (هلم إلينا) أى إلى ما نحن فيه من الاقامة فى الظلال والثمار وهم مع ذلك (لا يأتون البأس إلا قليلا * أشحة عليكم) أى بخلاء بالمودة والشفقة عليكم ، وقال السدى (أشحة عليكم) أى فى الغنائم (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) أى من شدة خوفه وجزعه ، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال (فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) أى فإذا كان الأمن تكلموا كلاما بليغاً فصيحاً عاليا وادعوا لأنفسهم المقامات العالية فى الشجاعة والنجدة وهم يكذبون فى ذلك ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما (سلقوكم) أى استقبلوكم ، وقال قتادة أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوأه مقاسمة أعطونا أعطونا قد شهدنا معكم ، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق وهم مع ذلك أشحة على الخير أى ليس فيهم خير قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير فهم كما قال فى أمثالهم الشاعر:

أفى السلم أعيار جفاء وغلظة ، وفى الحرب أمثال النساء العوارك

أى فى حال المسالمة كأنهم الحمر ، والأعيار جمع عير وهو الحمار ، وفى الحرب كأنهم النساء الحيض ، ولهذا قال تعالى (أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا) أى سهلا هينا عنده .

﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾

وهذا أيضا من صفاتهم القبيحة فى الجبن والخور والخوف (يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) بل هم قريب منهم وإن لهم عودة إليهم (وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم) أى ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم فى المدينة بل فى البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوكم (ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا) أى ولو كانو بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قيلا لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم والله سبحانه وتعالى العالم بهم .

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا * وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾

هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسى بالنبى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا فى أمرهم يوم الأحزاب (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) أى هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال تعالى (لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) ثم قال تعالى مخبرا عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم وجعله العاقبة حاصلة لهم فى الدنيا والآخرة فقال تعالى (ولما رأى المؤمنون الأحزب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله) قال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة يعنون قوله تعالى فى سورة البقرة (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول

الرسول والذين آمنوا معه متى نصرالله ؟ ألا إن نصر الله قريب) أى هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذى يعقبه النصرالقريب ولهذا قال تعالى (وصدق الله ورسوله) . وقوله تعالى (وما زادهم إلا إيماناً وتسليما) دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم كما قال جمهور الأئمة إنه يزيد وينقص وقد قررنا ذلك فى أول شرح البخارى ولله الحمد والمنة ومعنى قوله جلت عظمته (وما زادهم) أى ذلك الحال والضيق والشدة (إلا إيماناً) بالله (وتسليما) أى انقيادا لأوامره وطاعة لرسوله ﷺ

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا * لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

لما ذكر عز وجل عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذى كانوا عاهدوا الله عليه لايولون الأدبار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و (صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه) قال بعضهم أجله وقال البخارى عهده وهو يرجع إلى الأول (ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) أى وما غيروا عهدالله ولا نقضوه ولا بدلوه ، قال البخارى حدثنا أبواليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى قال أخبرنى خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال : لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) تفرد به البخارى دون مسلم وأخرجه أحمد فى مسنده والترمذى والنسائى فى التفسير من سننيهما من حديث الزهرى به وقال الترمذى حسن صحيح وقال البخارى أيضا حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى حدثنى أبى عن ثمامة عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال نرى هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر رضى الله عنه (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) الآية انفرد به البخارى من هذا الوجه ، ولكن له شواهد من طرق أخر . قال الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت قال: قال أنس : عمى أنس بن النضر رضى الله عنه سميت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه وقال أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه لئن أرانى الله تعالى مشهدا فيما بعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله عز وجل ما أصنع . قال فهاب أن يقول غيرها فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد فاستقبل سعد بن معاذ رضى الله عنه فقال له أنس رضى الله عنه يا أبا عمرو أين واها لريح الجنة إنى أجده دون أحد قال فقاتلهم حتى قتل رضى الله عنه قال فوجد فى جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية فقالت أخته عمتى الربيع ابنة النضر فما عرفت أخى إلا ببنانه قال فنزلت هذه الآية (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) قال فكانوا يرون أنها نزلت فيه ، وفى أصحابه رضى الله عنهم ورواه مسلم والترمذى والنسائى من حديث سليمان بن المغيرة به ورواه النسائى أيضا وابن جرير من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضى الله عنه به نحوه وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا يزيد بن هرون حدثنا حميد عن أنس رضى الله قال إن عمه يعنى أنس بن النضر رضى الله عنه غاب عن قتال بدر فقال غبت عن أول قتال قاتله رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين لئن أشهدنى الله عز وجل قتالا للمشركين ليرين الله تعالى ما أصنع ، قال فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء — يعنى أصحابه — وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء — يعنى المشركين — ثم تقدم فلقيه سعد يعنى ابن معاذ رضى الله عنه دون أحد فقال أنا معك قال سعد رضى الله عنه فلم أستطع أن أصنع ما صنع فلما قتل قال فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف وطعنة رمح ورمية سهم وكانوا يقولون فيه وفى أصحابه نزلت (فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر) وأخرجه الترمذى فى التفسير عن عبد بن حميد والنسائى فيه أيضا عن إسحق بن إبراهيم كلاهما عن يزيد بن هرون به

وقال الترمذي حسن . وقد رواه البخاري في المغازي عن حسان بن حسان عن محمد بن طلحة عن مصرف عن حميد عن أنس رضي الله عنه به ولم يذكر نزول الآية ورواه ابن جرير من حديث المعتمر بن سليمان عن حميد عن أنس رضي الله عنه به : وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن الفضل العسقلاني حدثنا سليمان بن أيوب بن سليمان حدثنا عيسى بن موسى بن طلحة ابن عبيد الله حدثني أبي عن جدي عن موسى بن طلحة عن أبيه طلحة رضي الله عنه قال : لما أن رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحد صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وعزى المسلمين بما أصابهم وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر ثم قرأ هذه الآية (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه) الآية كلها ، فقام اليه رجل من المسلمين فقال يارسول الله من هؤلاء ؟ فأقبلت وعلي ثوبان أخضران حضرميان فقال « أيها السائل هذا منهم » وكذا رواه ابن جرير من حديث سليمان بن أيوب الطلحي به ، وأخرجه الترمذي في التفسير والمناقب أيضا وابن جرير من حديث يونس بن بكير عن طلحة بن يحيى عن موسى وعيسى ابني طلحة عن أبيهما رضي الله عنه به وقال حديث غريب لانعرفه إلا من حديث يونس وقال أيضا حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري حدثنا أبو عامر - يعني العقدي - حدثني إسحاق - يعني ابن طلحة بن عبيد الله - عن موسى بن طلحة قال : دخلت على معاوية رضي الله عنه فلما خرجت دعاني فقال ألا أضع عندك يا ابن أخي حديثا سمعته من رسول الله ﷺ ؟ أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « طلحة ممن قضى نحبه » ورواه ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عبد الحميد الحماني عن إسحاق بن يحيى بن طلحة الطلحي عن موسى بن طلحة قال : قام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فقال إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « طلحة ممن قضى نحبه » ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى (فمنهم من قضى نحبه) يعني عهده (ومنهم من ينتظر) قال يوما فيه القتال فيصدق في اللقاء وقال الحسن (فمنهم من قضى نحبه) يعني موته على الصدق والوفاء ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك ومنهم من لم يبدل تبديلا وكذا قال قتادة وابن زيد وقال بعضهم : نحبه نذره وقوله تعالى (وما بدلوا تبديلا) أي وما غيروا عهدهم وبدلوا الوفاء بالغدر ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا (إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً * ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار) وقوله تعالى (ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم) أي إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب فيظهر أمر هذا بالفعل وأمر هذا بالفعل مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ولكن لايعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بما يعلمه منهم كما قال تعالى (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) فهذا علم بالشيء بعد كونه وإن كان العلم السابق حاصلا به قبل وجوده : وكذا قال الله تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب) ولهذا قال تعالى ههنا (ليجزي الله الصادقين بصدقهم) أي بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه وقيامهم به ومحافظتهم عليه (ويعذب المنافقين) وهم الناقضون لعهد الله المخالفون لأوامره فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هي الغالبة لغضبه قال (إن الله كان غفوراً رحيما)

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة بما أرسل عليهم من الريح والجنود الالهية ولولا أن الله جعل رسوله رحمة للعالمين لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم التي أرسلها على عاد ولكن قال تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) فسلط عليهم هواء فرق شملهم كما كان سبب اجتماعهم من الهوى وهم أخلاط من قبائل شتى أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق جماعتهم وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحنقهم لم ينالوا خيرا لا في

الدنيا مما كان فى أنفسهم من الظفر والمغنم ولا فى الآخرة بما تحملوه من الآثام فى مبارزة الرسول ﷺ بالعداوة وهمهم بقتله واستئصال جيشه ، ومن هم بشىء وصدق همه بفعله فهو فى الحقيقة كفاعله . وقوله تبارك وتعالى (وكفى الله المؤمنين القتال) أى لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ؛ بل كفى الله وحده ونصر عبده وأعز جنده . ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده وأعز جنده ؛ وهزم الأحزاب وحده فلا شىء بعده » أخرجاه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وفى الصحيحين من حديث إسماعيل بن أبى خالد عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ؛ اللهم اهزمهم وزلزلهم » وفى قوله عز وجل (وكفى الله المؤمنين القتال) إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش وهكذا وقع بعدها لم يغزهم المشركون بل غزاهم المسلمون فى بلادهم ، قال محمد بن إسحق لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم » فلم تغز قريش بعد ذلك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو يغزوهم بعد ذلك حتى فتح الله تعالى مكة ، وهذا الحديث الذى ذكره محمد بن إسحق حديث صحيح كما قال الإمام أحمد حدثنا يحي عن سفيان حدثنى أبو إسحق قال سمعت سليمان بن صرد رضى الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب « الآن نغزوهم ولا يغزونا » وهكذا رواه البخارى فى صحيحه من حديث الثورى وإسرائيل عن أبى إسحق به وقوله تعالى (وكان الله قويا عزيزا) أى بحوله وقوته ردهم خائبين لم ينالوا خيرا وأعز الله الإسلام وأهله وصدق وعده ونصر رسوله وعبده فلله الحمد والمنة

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾

قد تقدم أن بنى قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ونزلوا على المدينة نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من العهد وكان ذلك بسفارة حيى بن أخطب النضرى لعنه الله دخل حصنهم ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد وقال له فيما قال ويحك قد جئتك بعز الدهر أتيتك بقريش وأحابيشها وغطفان وأتباعها، ولا يزالون ههنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه ، فقال له كعب بل والله أتيتنى بذل الدهر . ويحك يا حيى إنك مشئوم فدعنا منك فلم يزل يفتل فى الذروة والغارب حتى أجابه واشترط له حيى إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شىء أن يدخل معهم فى الحصن فيكون له أسوتهم ، فلما نقضت قريظة وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه وشق عليه وعلى المسلمين جدا فلما أيده الله تعالى ونصره وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة مؤيدا منصورا ووضع الناس السلاح ، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة فى بيت أم سلمة رضى الله عنها إذ تبدى له جبريل عليه الصلاة والسلام معتجرا بعمامة من إستبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج فقال : أوضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال ﷺ « نعم » قال لكن الملائكة لم تضع أسلحتها وهذا الآن رجوعى من طلب القوم ، ثم قال : إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بنى قريظة ، وفى رواية فقال له عذيرك من مقاتل أوضعتم السلاح ؟ قال « نعم » قال لكنا لم نضع أسلحتنا بعد ، انهض إلى هؤلاء قال صلى الله عليه وسلم « أين ! » قال بنى قريظه فان الله تعالى أمرنى أن أزلزل عليهم فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم من فوره وأمر الناس بالمسير إلى بنى قريظة وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا يصلين أحدمنكم العصر إلا فى بنى قريظة » فسار الناس فأدركتهم الصلاة فى الطريق فصلى بعضهم فى الطريق وقالوا لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير ، وقال آخرون لا نصليها إلا فى بنى قريظة فلم يعنف

واحداً من الفريقين ، وتبعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضى الله عنه وأعطى الراية لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه . ثم نازلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضى الله عنه لأنهم كانوا حلفاءهم فى الجاهلية ؟ واعتقدوا أنه يحسب إليهم فى ذلك كما فعل عبد الله بن أبى ابن سلول فى مواليه بنى قينقاع حين استطلقهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فظن هؤلاء أن سعدا سيفعل فيهم كما فعل ابن أبى فى أولئك ولم يعلموا أن سعدا رضى الله عنه كان قد أصابه سهم فى أكحله أيام الخندق فكواه رسول الله ﷺ فى أكحله وأنزله فى قبة فى المسجد ليعوده من قريب وقال سعد رضى الله عنه فيما دعا به : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى لها ، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة، فاستجاب الله تعالى دعاءه وقدر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلبا من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة ليحكم فيهم ، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه جعل الأوس يلوذون به ويقولون يا سعد إنهم مواليك فأحسن فيهم ويرققونه عليهم ويعطفونه وهو ساكت لا يرد عليهم فلما أكثروا عليه قال رضى الله عنه ، لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم فلما دنا من الخيمة التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قوموا إلى سيدكم » فقام إليه المسلمون فأنزلوه اعظاما وإكراما واحتراما له فى محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم فلما جلس قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن هؤلاء ـ وأشار إليهم ـ قد نزلوا على حكمك فاحكم فيهم بما شئت » فقال رضى الله عنه وحكمى نافذ عليهم ؟ قال صلى الله عليه وسلم « نعم » قال وعلى من فى هذه الخيمة؟ قال « نعم » قال وعلى من ههنا وأشار إلى الجانب الذى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالا وإكراما وإعظاما ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم » فقال رضى الله عنه إنى أحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم وأموالهم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة» ، وفى رواية «لقد حكمت بحكم الملك» ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأخاديد فخدت فى الأرض وجىء بهم مكتفين فضرب أعناقهم وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة وسبى من لم ينبت منهم مع النساء وأموالهم ، وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه فى كتاب السيرة الذى أفردناه موجزا وبسيطا ولله الحمد والمنة ولهذا قال تعالى (وأنزل الذين ظاهروهم) أى عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أهل الكتاب) يعنى بنى قريظة من اليهود من بعض أسباط بنى إسرائيل كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديما طمعا فى اتباع النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) فعليهم لعنة الله ؟ وقوله تعالى (من صياصيهم) يعنى حصونهم . كذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة والسدى وغيرهم من السلف ومنه سمى صياصى البقر وهى قرونها لأنها أعلى شىء فيها (وقذف فى قلوبهم الرعب) وهو الخوف لأنهم كانوا مالؤا المشركين على حرب النبى صلى الله عليه وسلم وليس من يعلم كمن لا يعلم وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوهم فى الدنيا فانعكس عليهم الحال ، وانقلب إليهم القال انشمر المشركون ففازوا بصفقة المغبون ، فكما راموا العز ذلوا وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا ، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة فصارت الجملة أن هذه هى الصفقة الخاسرة ؟ ولهذا قال تعالى (فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) فالذين قتلوا هم المقاتلة والأسراء هم الأصغر والنساء ، وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم بن بشير أخبرنا عبد الملك بن عمير عن عطية القرظى قال عرضت على النبى صلى الله عليه وسلم يوم قريظة فشكوا فى فأمر بى النبى صلى الله عليه وسلم أن ينظروا هل أنبت بعد فنظرونى فلم يجدونى أنبت فخلى عنى وألحقنى بالسبى ، وكذا رواه أهل السنن كلهم من طرق عن عبد الملك بن عمير به وقال الترمذى حسن صحيح ، ورواه النسائى أيضا من حديث ابن جريج عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن عطية بنحوه وقوله تعالى (وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم) أى جعلها لكم من قتلكم لهم (وأرضا لم تطأوها) قيل خيبر وقيل

مكة رواه مالك عن زيدبن أسلم ، وقيل فارس والروم ، وقال ابن جرير يجوز أن يكون الجميع مراداً (وكان الله على كل شىء قديرا) قال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن عمرو عن أبيه عن جده علقمة بن وقاص قال : أخبرتنى عائشة رضى الله عنها قالت : خرجت يوم الخندق أقفو الناس فسمعت وئيد الأرض ورائى فإذا أنا بسعد بن معاذ رضى الله عنه ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنه قالت فجلست إلى الأرض فمر سعد رضى الله عنه وعليه درع من حديد قد خرجت منه أطرافه فأنا أتخوف على أطراف سعد قالت وكان سعد رضى الله عنه من أعظم الناس وأطولهم فمر وهو يرتجز ويقول :

ليث قليلا يشهد الهيجا حمل ما أحسن الموت إذا حان الأجل

قالت فقمت فاقتحمت حديقة فإذا فيها نفر من المسلمين وإذا فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفيهم رجل عليه تسبغة له تعنى المغفر فقال عمر رضى الله عنه ماجاء بك ؟ لعمرى والله إنك لجريئة ، وما يؤمنك أن يكون بلاء أو يكون تحوز قالت فما زال يلومنى حتى تمنيت أن الأرض انشقت بى ساعتئذ فدخلت فيها فرفع الرجل التسبغة عن وجهه فاذا هو طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه فقال : ياعمر ويحك إنك قد أكثرت منذ اليوم ، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله تعالى قالت ورمى سعداً رضى الله عنه رجل من قريش يقال له ابن العرقة بسهم له وقال له خذها وأنا ابن العرقة فأصاب أكحله فقطعه فدعا الله تعالى سعد رضى الله عنه فقال : اللهم لاتمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة قالت وكانوا حلفاءه ومواليه فى الجاهلية قالت فرقأ كلمه وبعث الله تعالى الريح على المشركين وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة ، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد ، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا فى صياصيهم ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبة من أدم فضربت على سعد رضى الله عنه فى المسجد قالت فجاءه جبريل عليه السلام وان على ثناياه لنقع الغبار فقال أوقد وضعت السلاح ؟ لا والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح اخرج إلى بنى قريظة فقاتلهم قالت فلبس رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته وأذن فى الناس بالرحيل أن يخرجوا فمر على بنى تميم وهم جيران المسجد فقال « من مربكم » قالوا مربنا دحية الكلبى وكان دحية الكلبى يشبه لحيته وسنه ووجهه جبريل عليه الصلاة والسلام فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم انزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر فأشار إليهم إنه الذبح ، قالوا ننزل على حكم سعد ابن معاذ رضى الله عنه فقال رسول الله ﷺ « انزلوا على حكم سعد بن معاذ » فنزلوا وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن معاذ رضى الله عنه فأتى به على حمار عليه إكاف من ليف قد حمل عليه ، وحف به قومه فقالوا يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك وأهل الكتاب[1] ومن قد علمت قالت فلا يرجع اليهم شيئا ولا يلتفت اليهم ، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال : قد آن لى أن لا أبالى فى الله لومة لائم . قالت قال أبو سعيد فلما طلع : قال رسول الله ﷺ « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » فقال عمر رضى الله عنه سيدنا الله قال « أنزلوه » فأنزلوه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « احكم فيهم » قال سعد رضى الله عنه فانى أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم وتقسم أموالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى وحكم رسوله » ثم دعا سعد رضى الله عنه : فقال اللهم إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئا فأبقنى لها ، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضنى اليك ، قال فانفجر كلمه وكان قد برئ منه إلا مثل الخرص ورجع إلى قبته التى ضرب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت عائشة رضى الله عنها فحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما قالت فوالذى نفس محمد بيده إنى لأعرف بكاء أبى بكر رضى الله عنه من بكاء عمر رضى الله عنه وأنا فى حجرتى وكانوا كما قال الله تعالى (رحماء بينهم) قال علقمة فقلت أى أمه فكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؟ قالت كانت عينه لاتدمع على أحد ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته صلى الله عليه وسلم وقد أخرج البخارى

(١) فى النسخة المكية : وأهل النكاية .

ومسلم من حديث عبد الله بن نمير عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها نحوا من هذا ولكنه أخصر منه وفيه دعا سعد رضي الله عنه

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها وبين الصبر على ماعنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله تعالى فى ذلك الثواب الجزيل فاخترن رضى الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

قال البخارى حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى قال أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه قالت فبدأ بى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إنى ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلى حتى تستأمرى أبويك » وقد علم أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه قالت ثم قال « إن الله تعالى قال (يا أيها النبى قل لأزواجك) » إلى تمام الآيتين فقلت له ففى أى هذا استأمر أبوى فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة . وكذا رواه معلقا عن الليث حدثنى يونس عن الزهرى عن أبى سلمة عن عائشة رضى الله عنها فذكره وزاد قالت ثم فعل أزواج النبى ﷺ مثل ما فعلت وقد حكى البخارى أن معمرا اضطرب فيه فتارة رواه عن الزهرى عن أبى سلمة وتارة رواه عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها وقال ابن جرير حدثنا أحمد بن عبدة الضبى حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبى سلمة عن أبيه قال : قالت عائشة رضى الله عنها لما نزل الخيار قال لى رسول الله ﷺ « إنى أريد أن أذكر لك أمرا فلا تقضى فيه شيئا حتى تستأمرى أبويك » قالت قلت وما هو يارسول الله ؟ قالت فرده عليها فقالت وما هو يارسول الله ؟ قالت فرده عليها فقالت وما هو يارسول الله ؟ قالت فقرأ ﷺ عليها (يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها) إلى آخر الآية قالت فقلت بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة قالت ففرح بذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، وحدثنا ابن وكيع حدثنا محمد بن بشر عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما نزلت آية التخيير بدأ بى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ياعائشة إنى عارض عليك أمرا فلا تفتاتى فيه بشىء حتى تعرضيه على أبويك أبى بكر وأم رومان رضى الله عنهما» فقلت يارسول الله وما هو ؟ قال صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل (يا أيها النبى قل لأوزاجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما) » قالت فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة ولا أؤامر فى ذلك أبوى أبا بكر وأم رومان رضى الله عنهما . فضحك رسول الله ﷺ ثم استقرأ الحجر فقال « إن عائشة رضى الله عنها قالت كذا وكذا » فقلن ونحن نقول مثل ماقالت عائشة رضى الله عنهن كلهن ورواه ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الأشج عن أبى أسامة عن محمد بن عمرو به قال ابن جرير وحدثنا سعيد بن يحيى الأموى حدثنا أبى حدثنا محمد بن إسحاق عن عبدالله بن أبى بكر عن عمرة عن عائشة رضى الله عنها قالت إن رسول الله ﷺ لما نزل (١) إلى نسائه أمر أن يخيرهن فدخل على فقال « سأذكر لك أمرا فلا تعجلى حتى تستشيرى أباك » فقلت وما هو يارسول الله ؟ قال « إنى أمرت أن أخيركن » وتلا عليها آية التخيير إلى آخر الآيتين قالت فقلت وما الذى تقول لا تعجلى حتى تستشيرى أباك ؟ فإنى أختار الله ورسوله . فسر صلى الله عليه وسلم بذلك وعرض على نسائه فتتابعن كلهن فاخترن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا يزيد بن سنان البصرى حدثنا أبو صالح عبدالله بن صالح حدثنى الليث حدثنى عقيل عن الزهرى أخبرنى عبيدالله بن عبد الله بن أبى ثور

(١) بياض بالأصل .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قالت عائشة رضى الله عنها أنزلت آية التخيير فبدأ بى أول امرأة من نسائه فقال ﷺ « إنى ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تعجلى حتى تستأمرى أبويك » قالت وقد علم أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه قالت ثم قال « إن الله تبارك وتعالى قال (يا أيها النبى قل لأزواجك) » الآيتين قالت عائشة رضى الله عنها فقلت أفى هـذا أستأمر أبوى ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة . ثم خير نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت عائشة رضى الله عنهن وأخرجه البخارى ومسلم جميعاً عن قتيبة عن الليث عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها مثله وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن مسلم بن صبيح عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه فلم يعدها علينا شيئاً أخرجاه من حديث الأعمش . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عامر عبدالملك بن عمرو حدثنا زكريا بن إسحق عن أبى الزبير عن جابر رضى الله عنه قال أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن رسـول الله صلى الله عليه وسلم والناس ببابه جلوس والنبى صلى الله عليـه وسـلم جالس فلم يؤذن له ، ثم أقبـل عمر رضى الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فدخلا والنبى صلى الله عليه وسلم جالس وحوله نساؤه وهو صلى الله عليـه وسلم ساكت فقال عمر رضى الله عنه لأكلمن النبى ﷺ لعله يضحك فقال عمر رضى الله عنه يا رسـول الله لو رأيت ابنة زيد ـ امرأة عمر ـ سـألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها فضحك النبى صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال « هن حولى يسألننى النفقة » فقام أبو بكر رضى الله عنه إلى عائشة ليضربها وقام عمر رضى الله عنه إلى حفصة كلاهما يقولان تسألان النبى صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده فنهاهما رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقلن والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا المجلس ماليس عنده قال وأنزل الله عز وجل الخيار فبدأ بعائشة رضى الله عنها فقال « إنى أذكر لك أمرا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك » قالت وما هو ؟ قال فتلا عليها (يا أيها النبى قل لأزواجك) الآيه قالت عائشة رضى الله عنها أفيك أستأمر أبوى ؟ بل أختار الله تعـالى ورسـوله وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت فقـال ﷺ « إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا ولـكن بعثنى معلما ميسراً لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى فرواه هو والنسائى من حديث زكريا بن إسحق المكى به . وقال عبد الله بن الإمام أحمد حـدثنا شريح بن يونس حدثنا على بن هاشم بن البريد عن محمد بن عبيد الله بن على بن أبى رافع عن عثمان بن على بن الحسين عن أبيه عن على رضى الله عنه قال : إن رسـول الله ﷺ خير نساءه الدنيا والآخرة ولم يخيرهن الطلاق وهـذا منقطع . وقد روى عن الحسن وقتادة وغيرهما نحو ذلك وهو خلاف الظاهر من الآية فإنه قال (فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا) أى أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن ،وقد اختلف العلماء فى جواز تزوج غيره لهن لو طلقهن على قولين أصحهما نعم لو وقع ليحصـل المقصود من السراح والله أعلم قال عكرمة وكان تحتـه يومئذ تسع نسوة خمس من قريش عائشة وحفصة وأم حبيبة وسـودة وأم سـلمة رضى الله عنهن ، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حيى النضيرية(1) وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية رضى الله عنهن وأرضاهن أجمعين

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾

يقول تعالى واعظا نساء النبى صلى الله عليه وسلم اللاتى اخترن الله ورسـوله والدار الآخرة واستقر أمرهن تحت رسـول الله ﷺ فناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة. قال ابن عباس رضى الله عنهما وهى النشوز وسوء الخلق وعلى كل تقدير فهو شرط والشرط لا يقتضى الوقوع

(1) فى البغوى : الخيبرية .

كقوله تعالى (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك) وكقوله عز وجل (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الواحد القهار) فلما كانت محلتهن رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظا صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع ولهذا قال تعالى (من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) قال مالك عن زيد بن أسلم (يضاعف لها العذاب ضعفين) قال فى الدنيا والآخرة ، عن ابن أبى نجيح عن مجاهد مثله (وكان ذلك على الله يسيرا) أى سهلا هينا ، ثم ذكر عدله وفضله فى قوله (ومن يقنت منكن لله ورسوله) أى يطع الله ورسوله ويستجب (نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما) أى فى الجنة فانهن فى منازل رسول الله ﷺ فى أعلى عليين فوق منازل جميع الخلائق فى الوسيلة التى هى أقرب منازل الجنة إلى العرش

﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبى ﷺ ونساء الأمة تبع لهن فى ذلك فقال تعالى مخاطبا لنساء النبى ﷺ بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن فانه لا يشبههن أحد من النساء ولا يلحقهن فى الفضيلة والمنزلة ثم قال تعالى (فلا تخضعن بالقول) قال السدى وغيره يعنى بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ولهذا قال تعالى (فيطمع الذى فى قلبه مرض) أى دغل (وقلن قولا معروفا) قال ابن زيد: قولا حسنا جميلا معروفا فى الخير، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم أى لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها . وقوله تعالى (وقرن فى بيوتكن) أى الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة ، ومن الحوائج الشرعية الصلاة فى المسجد بشرطه كما قال رسول الله ﷺ « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهن تفلات » وفى رواية « وبيوتهن خير لهن » وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا حميد بن مسعدة حدثنا أبو رجاء الكلبى روح بن المسيب ثقة حدثنا ثابت البنانى عن أنس رضى الله عنه قال : جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد فى سبيل الله تعالى فمالنا عمل ندرك به عمل المجاهدين فى سبيل الله تعالى ، فقال رسول الله ﷺ « من قعدت - أو كلمة نحوها - منكن فى بيتها فانها تدرك عمل المجاهدين فى سبيل الله تعالى » ثم قال لا نعلم . رواه عن ثابت إلا روح بن المسيب وهو رجل من أهل البصرة مشهور

وقال البزار أيضا حدثنا محمد بن المثنى حدثنى عمرو بن عاصم حدثنا همام عن قتادة عن مورق عن أبى الأحوص عن عبد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان وأقرب ما تكون بروحة ربها وهى فى قعر بيتها » ورواه الترمذى عن بندار عن عمرو بن عاصم به نحوه . وروى البزار بإسناده المتقدم وأبو داود أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « صلاة المرأة فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها وصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها » وهذا إسناد جيد ، وقوله تعالى (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) قال مجاهد كانت المرأة تخرج تمشى بين يدى الرجال فذلك تبرج الجاهلية . وقال قتادة (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) يقول إذا خرجتن من بيوتكن وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج فنهى الله تعالى عن ذلك ، وقال مقاتل بن حيان (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) والتبرج أنها تلقى الخمار على رأسها ولا تشده

فيوارى قلائدهــا وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كله منها وذلك التبرج ثم عمت نساء المؤمنين فى التبرج . وقال ابن جرير حدثنى ابن زهير حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا داود يعنى ابن أبى الفرات حدثنا على بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال تلا هــذه الآية (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) قال كانت فيما بين نوح وإدريس وكانت ألف سنة وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل ، وكان رجال الجبل صباحا وفى النساء دمامة . وكان نساء السهل صباحا وفى الرجال دمامة ، وإن إبليس لعنه الله أتى رجلا من أهل السهل فى صورة غلام فآجر نفسه منه فكان يخدمه فاتخذ إبليس شيئا من مثل الذى يزمر فيه الرعاء فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حوله فانتابوهم يسمعون إليه واتخذوا عيداً يجتمعون إليه فى السنة فيتبرج النساء للرجال قال ويتزين الرجال لهن وان رجلا من أهل الجبل هجم عليهم فى عيدهم ذلك فرأى النساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهن فنزلوا معهن وظهرت الفاحشة فيهن فهو قول الله تعالى (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) وقوله تعالى (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) نهاهن أولا عن الشر ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة وهى عبادة الله وحده لا شريك له وإيتاء الزكاة وهى الإحسان إلى المخلوقين (وأطعن الله ورسوله)) وهذا من باب عطف العام على الخاص. وقوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) نص فى دخول أزواج النبى ﷺ فى أهــل البيت ههنا لأنهن سبب نزول هــذه الآية وسبب النزول داخل فيــه قولا واحداً إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح . وروى ابن جرير عن عكرمة أنه كان ينادى فى السوق (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) نزلت فى نساء النبى ﷺ خاصة . وهكذا روى ابن أبى حاتم قال : حــدثنا على بن حرب الموصلى حدثنا زيد بن الحباب حدثنا حسين بن واقد عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) قال نزلت فى نساء النبى صلى الله عليــه وسلم خاصة ، وقال عكرمة من شــاء باهلته إنها نزلت فى شــأن نساء النبى صلى الله عليه وسلم فان كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ففى هذا نظر فانه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك ﴿ الحديث الأول ﴾ قال الإمام أحمــد حدثنا عفان حدثنا حماد أخبرنا على بن يزيد عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال إن رســول الله صــلى الله عليــــه وسلم كان يمر بباب فاطمة رضى الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول « الصلاة يا أهل البيت ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) ورواه الترمذى عن عبد بن حميد عن عفان به وقال حسن غريب ﴿ حديث آخر ﴾ قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو نعيم حدثنا يونس عن أبى إسحق أخبرنى أبو داود عن أبى الحمراء قال رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ قال رأيت رســول الله ﷺ إذا طلع الفجر جاء إلى باب على وفاطمة رضى الله عنهما فقــال « الصلاة الصلاة إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » أبو داود الأعمى هو نفيع بن الحارث كذاب ﴿ حديث آخر ﴾ وقال الإمام أيضاً أيضا حدثنا محمد بن مصعب حدثنا الأوزاعى حدثنا شداد بن عمار قال دخلت على واثلة بن الأسقع رضى عنه وعنده قوم فذكروا علياً رضى الله عنه فشتموه فشتمته معهم فلما قاموا قال لى شتمت هــذا الرجل قلت قد شتموه فشتمته معهم ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ ؟ قلت بلى قال أتيت فاطمة رضى الله عنها أسألها عن على رضى الله عنه فقالت توجه إلى رسول الله ﷺ فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه على وحسن وحسين رضى الله عنهم آخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل فأدنى علياً وفاطمة رضى الله عنهما وأجلسهما بين يديه وأجلس حسنا وحسيناً رضى الله عنهما كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه أو قال كساءه ثم تلا ﷺ هــذه الآية (إنمــا يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) وقال « اللهم هؤلاء أهل بيتى وأهل بيتى أحق» . وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن عبد الكريم بن أبى عمير عن الوليد بن مسلم عن أبى عمرو الأوزاعى بسنده نحوه زاد فى آخره قال واثلة رضى الله عنه فقلت وأنا يا رسول الله صلى الله عليك من أهلك ؟ قال صلى الله عليه

وسلم « وأنت من أهلي » قال واثلة رضي الله عنه وإنها من أرجى ما أرتجي، ثم رواه أيضا عن عبد الأعلى بن واصل عن الفضل بن دكين عن عبد السلام بن حرب عن كلثوم المحاربي عن شداد بن أبي عمار قال إني لجالس عند واثلة بن الأسقع رضي الله عنه إذ ذكروا عليا رضي الله عنه فشتموه فلما قاموا قال اجلس حتى أخبرك عن هذا الذي شتموه إني عند رسول الله ﷺ إذ جاء علي وفاطمة وحسن وحسين رضي الله عنهم فألقى ﷺ عليهم كساء له ثم قال « اللهم هؤلاء أهل بيتي ، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » قلت يا رسول الله وأنا ؟ قال ﷺ « وأنت » قال فوالله إنها لأوثق عمل عندي

﴿ حديث آخر ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا عبدالله بن نمير حدثنا عبدالملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح حدثني من سمع أم سلمة رضي الله عنها تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في بيتها فأتته فاطمة رضي الله عنها ببرمة فيها خزيرة فدخلت عليه بها فقال صلى الله عليه وسلم لها « ادعي زوجك وابنيك » قالت فجاء علي وحسن وحسين رضي الله عنهم فدخلوا عليه فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة وهو على منامة له وكان تحته صلى الله عليه وسلم كساء خيبري قالت وأنا في الحجرة أصلي فأنزل الله عز وجل هذه الآية (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) قالت رضي الله عنها فأخذ صلى الله عليه وسلم فضل الكساء فغطاهم به ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء ثم قال « اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ») قالت فأدخلت رأسي البيت فقلت وأنا معكم يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « إنك إلى خير إنك إلى خير » في إسناده من لم يسم وهو شيخ عطاء وبقية رجاله ثقات ﴿ طريق أخرى ﴾ قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا مصعب بن المقدام حدثنا سعيد بن زربي عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن أم سلمة رضي الله عنها قالت جاءت فاطمة رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ ببرمة لها قد صنعت فيها عصيدة تحملها على طبق فوضعتها بين يديه صلى الله عليه وسلم فقال « أين ابن عمك وابناك ؟ » فقالت رضي الله عنها في البيت فقال صلى الله عليه وسلم « ادعيهم » فجاءت إلى علي رضي الله عنه فقالت أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت وابناك قالت أم سلمة رضي الله عنها فلما رآهم مقبلين مد صلى الله عليه وسلم يده إلى كساء كان على المنامة فمده وبسطه وأجلسهم عليه ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله فضمه فوق رءوسهم وأومأ بيده اليمنى إلى ربه فقال « اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » ﴿ طريق أخرى ﴾ قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا عبدالله بن عبدالقدوس عن الأعمش عن حكيم ابن سعد قال ذكرنا علي ابن أبي طالب رضي الله عنه عند أم سلمة رضي الله عنها فقالت في بيتي نزلت (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) قالت أم سلمة جاء رسول الله ﷺ إلى بيتي فقال « لا تأذني لأحد » فجاءت فاطمة رضي الله عنها فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها ، ثم جاء الحسن رضي الله عنه فلم أستطع أن أمنعه أن يدخل على جده وأمه ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه عن جده صلى الله عليه وسلم وأمه رضي الله عنها ثم جاء علي رضي الله عنه فلم أستطع أن أحجبه فاجتمعوا فجللهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه ثم قال « هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط قالت فقلت يا رسول الله وأنا ؟ قالت فوالله ما أنعم وقال « إنك إلى خير » ﴿ طريق أخرى ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف عن أبي المعدل عن عطية الطفاوي عن أبيه قال إن أم سلمة رضي الله عنها حدثته قالت بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي يوما إذ قالت الخادم إن فاطمة وعليا رضي الله عنهما بالسدة قالت فقال لي رسول الله ﷺ « قومي فتنحي عن أهل بيتي » قالت فقمت فتنحيت في البيت قريبا فدخل علي وفاطمة ومعهما الحسن والحسين رضي الله عنهم وهما صبيان صغيران فأخذ الصبيين فوضعهما في حجره فقبلهما واعتنق عليا رضي الله عنه بإحدى يديه وفاطمة رضي الله عنها باليد الأخرى وقبل فاطمة وقبل عليا وأغدق عليهم خميصة سوداء وقال « اللهم إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتي » قالت فقلت وأنا يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم « وأنت » ﴿ طريق أخرى ﴾ قال ابن جرير

حدثنا أبوكريب حدثنا الحسن بن عطية حدثنا فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد عن أم سلمة رضى الله عنها قالت إن هذه الآية نزلت فى بيتى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) قالت وأنا جالسة على باب البيت فقلت يارسول الله ألست من أهل البيت ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « إنك إلى خير ، أنت من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم » قالت وفى البيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم ﴿ طريق أخرى ﴾ رواها ابن جرير أيضا عن أبى كريب عن وكيع عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن أم سلمة رضى الله عنها بنحوه ﴿ طريق أخرى ﴾ قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا خالد بن مخلد حدثنى موسى بن يعقوب حدثنى هاشم بن هاشم بن عتبة بن أبى وقاص عن عبد الله بن وهب بن زمعة قال أخبرتنى أم سلمة رضى الله عنها قالت إن رسول الله ﷺ جمع عليا وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم ، ثم أدخلهم تحت ثوبه ثم جأر إلى الله عز وجل ثم قال : « هؤلاء أهل بيتى » قالت أم سلمة رضى الله عنها فقلت يارسول الله أدخلنى معهم فقال ﷺ « أنت من أهلى » .

﴿ طريق أخرى ﴾ رواها ابن جرير أيضا عن أحمد بن محمد الطوسى عن عبد الرحمن بن صالح عن محمد بن سليمان الأصبهانى عن يحيى بن عبيد المكى عن عطاء عن عمر بن أبى سلمة عن أمه رضى الله عنها بنحو ذلك ﴿ حديث آخر ﴾ قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا محمد بن بشر عن زكريا عن مصعب بن شيبة عن صفية بنت شيبة قالت : قالت عائشة رضى الله عنها خرج النبى ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن رضى الله عنه فأدخله معه ثم جاء الحسين رضى الله عنه فأدخله معه ثم جاءت فاطمة رضى الله عنها فأدخلها معه ثم جاء على رضى الله عنه فأدخله معه ثم قال صلى الله عليه وسلم (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) ورواه مسلم عن أبى بكر ابن أبى شيبة عن محمد بن بشر به . ﴿ طريق أخرى ﴾ قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا شريح بن يونس أبو الحارث حدثنا محمد بن يزيد عن العوام يعنى ابن حوشب رضى الله عنه عن ابن عم له قال دخلت مع أبى على عائشة رضى الله عنها فسألتها عن على رضى الله عنه فقالت رضى الله عنها : تسألنى عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه ؟ لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليا وفاطمة وحسنا وحسينا رضى الله عنهم فألقى عليهم ثوبا فقال « اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » قالت فدنوت منهم فقلت يارسول الله وأنا من أهل بيتك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « تنحى فانك على خير » ﴿ حديث آخر ﴾ قال ابن جرير حدثنا ابن المثنى حدثنا بكر بن يحيى بن زبان العنزى حدثنا مندل عن الأعمش عن عطية عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نزلت هذه الآية فى خمسة فى وفى على وحسن وحسين وفاطمة (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) » قد تقدم أن فضيل بن مرزوق رواه عن عطية عن أبى سعيد عن أم سلمة رضى الله عنها كما تقدم وروى ابن أبى حاتم من حديث هرون بن سعد العجلى عن عطية عن أبى سعيد رضى الله عنه موقوفاً والله سبحانه وتعالى أعلم ﴿ حديث آخر ﴾ قال ابن جرير حدثنا ابن المثنى حدثنا أبو بكر الحنفى حدثنا بكير بن مسمار قال سمعت عامر بن سعد رضى الله عنه قال : قال سعد رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحى فأخذ علياً وابنيه وفاطمة رضى الله عنهم فأدخلهم تحت ثوبه ثم قال « رب هؤلاء أهلى وأهل بيتى » ﴿ حديث آخر ﴾ وقال مسلم فى صحيحه حدثنى زهير بن حرب وشجاع بن مخلد جميعا عن ابن علية قال زهير حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنى أبو حيان حدثنى يزيد بن حيان قال انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر ابن سلمة إلى زيد بن أرقم رضى الله عنه فلما جلسنا اليه قال له حصين لقد لقيت يازيد خيراً كثيرا رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه لقد لقيت يازيد خيرا كثيرا . حدثنا يازيد ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا ابن أخى والله لقد كبرت سنى وقدم عهدى ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله صلى الله عليه وسلم فما حدثتكم فاقبلوا ومالا فلا تكلفوا فيه ، ثم قال : قام فينا رسول الله ﷺ

يوما خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال « أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله عزوجل ورغب فيه ثم قال « وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي » ثلاثا فقال له حصين ومن أهل بيته يازيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ، قال ومن هم ؟ قال هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس رضي الله عنهم قال كل هؤلاء حرم الصدقة بعده ؟ قال نعم . ثم رواه عن محمد بن الريان عن حسان بن إبراهيم عن سعيد بن مسروق عن يزيد بن حبان عن زيد بن أرقم رضي الله عنه فذكر الحديث بنحو ما تقدم وفيه فقلت له من أهل بيته نساؤه ؟ قال لا ، وايم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها ، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده . هكذا وقع في هذه الرواية والأولى أولى والأخذ بها أحرى . وهذه الثانية تحتمل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه إنما المراد بهم آله الذين حرموا الصدقة أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط ، بل هم مع آله ، وهذا الاحتمال أرجح جمعا بينها وبين الرواية التي قبلها وجمعا أيضا بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن صحت فإن في بعض أسانيدها نظرا والله أعلم ثم الذي لايشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) فإن سياق الكلام معهن ولهذا قال تعالى بعد هذا كله (واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) أي واعملن بما ينزل الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم في بيوتكن من الكتاب والسنة . قاله قتادة وغير واحد واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس ، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس ، وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما أولاهن بهذه النعمة وأحظاهن بهذه الغنيمة وأخصهن من هذه الرحمة العميمة ، فإنه لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي في فراش امرأة سواها كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه قال بعض العلماء رحمه الله لأنه لم يتزوج بكرا سواها ولم ينم معها رجل في فراشها سواه صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها فناسب أن تخصص بهذه المزية ، وأن تفرد بهذه المرتبة العلية ، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته فقرابته أحق بهذه التسمية كما تقدم في الحديث « وأهل بيتي أحق » وهذا يشبه ماثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال « هو مسجدي هذا » فهذا من هذا القبيل فإن الآية إنما نزلت في مسجد قباء كما ورد في الأحاديث الأخر ، ولكن إذا كان ذاك أسس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله ﷺ أولى بتسميته بذلك والله أعلم ، وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الوليد حدثنا أبو عوانة عن حصين بن عبد الرحمن عن أبي جميلة قال إن الحسن بن علي رضي الله عنهما استخلف حين قتل علي رضي عنهما قال . فبينما هو يصلي إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجره ، وزعم حصين انه بلغه ان الذي طعنه رجل من بني أسد وحسن رضي الله عنه ساجد . قال فيزعمون ان الطعنة وقعت في وركه فمرض منها أشهرا ثم برأ فقعد على المنبر فقال يا أهل العراق اتقوا الله فينا فانا أمراؤكم وضيفانكم ونحن أهل البيت الذي قال الله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) قال فما زال يقولها حتى مابقي أحد من أهل المسجد إلا وهو يحن بكاء ، وقال السدي عن أبي الديلم قال : قال علي بن الحسين رضي الله عنهما لرجل من أهل الشام أما قرأت في الأحزاب (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) قال نعم ولأنتم هم ؟ قال: نعم وقوله تعالى (إن الله كان لطيفاً خبيرا) أي بلطفه بكن بلغتن هذه المنزلة وبخبرته بكن وأنكن أهل لذلك أعطاكن ذلك وخصكن بذلك ، قال ابن جرير رحمه الله واذكروا نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة فاشكرن الله تعالى على ذلك واحمدنه (إن الله كان لطيفاً خبيراً) أي ذا لطف بكن إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة . وهي السنة ، خبيرا بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجا وقال قتادة (واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) قال يمتن عليهن

بذلك رواه ابن جرير وقال عطية العوفي في قوله تعالى (إن الله كان لطيفاً خبيرا) يعني لطيفا باستخراجها خبيرا بموضعها رواه ابن أبي حاتم ثم قال وكذا روى عن الربيع بن أنس عن قتادة .

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا عثمان بن حكيم حدثنا عبد الرحمن بن شيبة قال سمعت أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ وسلم تقول قلت للنبي ﷺ ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر قالت وأنا أسرح شعري فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرتي حجرة بيتي فجعلت سمعي عند الجريد فإذا هو يقول عند المنبر « يا أيها الناس إن الله تعالى يقول إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات » إلى آخر الآية وهكذا رواه النسائي وابن جرير من حديث عبد الواحد بن زياد به مثله ﴿طريق أخرى عنها﴾ قال النسائي أيضا حدثنا محمد بن حاتم حدثنا سويد أخبرنا عبد الله بن شريك عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ يانبي الله مالي أسمع الرجال يذكرون في القرآن والنساء لايذكرن ؟ فأنزل الله تعالى (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) وقد رواه ابن جرير عن أبي كريب عن أبي معاوية عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة أن يحيي بن عبد الرحمن بن حاطب حدثه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قلت يارسول الله أيذكر الرجال في كل شيء ولا نذكر ؟ فأنزل الله تعالى (إن المسلمين والمسلمات) الآية (طريق أخرى) قال سفيان الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : قالت أم سلمة رضي الله عنها يا رسول الله يذكر الرجال ولانذكر فأنزل الله تعالى (إن المسلمين والمسلمات) الآية ﴿ حديث آخر ﴾ قال ابن جرير حدثنا أبو كريب قال حدثنا سنان[1] بن مظاهر العمري حدثنا أبو كدينة يحيي بن المهلب عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النساء للنبي صلى الله عليه وسلم : ماله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات فأنزل الله تعالى (إن المسلمين والمسلمات) الآية وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال دخل نساء على نساء النبي ﷺ فقلن قد ذكركن الله تعالى في القرآن ولم نذكر بشيء أما فينا ما يذكر ؟ فأنزل الله تعالى (إن المسلمين والمسلمات) الآية فقوله تعالى (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) دليل على أن الإيمان غير الإسلام وهو أخص منه لقوله تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) وفي الصحيحين « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » فيسلبه الإيمان ولا يلزم من ذلك كفره باجماع المسلمين فدل على أنه أخص منه كما قررناه أول في شرح البخاري . وقوله تعالى (والقانتين والقانتات) القنوت هو الطاعة في سكون (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) وقال تعالى (وله من في السماوات والأرض كل له قانتون) (يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين) (وقوموا لله قانتين) فالإسلام بعده مرتبة يرتقي إليها وهو الإيمان ثم القنوت ناشيء عنهما (والصادقين والصادقات) هذا في الأقوال فان الصدق خصلة محمودة ولهذا كان بعض الصحابة رضي الله عنه لم تجرب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام ، وهو علامة على الإيمان كما أن الكذب أمارة على النفاق ، ومن صدق نجا ، عليكم بالصدق فان الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإياكم والكذب فان الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار . ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ولايزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » والأحاديث فيه كثيرة جداً (والصابرين والصابرات) هذه سجية الأثبات وهي الصبر على المصائب والعلم بأن المقدر كائن لا محالة وتلقي

(١) الذي في تفسير ابن جرير سيار بن مظاهر العنزي وهو الموافق لما في تقريب التهذيب .

ذلك بالصبر والثبات وإنما الصبر عند الصدمه الأولى ، أى أصعبه فى أول وهلة ثم ما بعده أسهل منه وهو صدق السجية وثباتها (والخاشعين والخاشعات) الخشوع: السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته كما فى الحديث « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فانه يراك »(والتصدقين والتصدقات)الصدقة هى الاحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب يعطون من فضول الأموال طاعة لله وإحسانا إلى خلقه وقد ثبت فى الصحيحين « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله ـ فذكر منهم ـ ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » وفى الحديث الآخر « والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » والأحاديث فى الحث عليها كثيرة جداً له موضع بذاته (والصائمين والصائمات) فى الحديث الذى رواه ابن ماجه « والصوم زكاة البدن » أى يزكيه ويطهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعا وشرعا كما قال سعيد بن جبير من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل فى قوله تعالى (والصائمين والصائمات) ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة كما قال رسول الله ﷺ « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » ناسب أن يذكر بعده (والحافظين فروجهم والحافظات) أى عن المحارم والمآثم إلا عن المباح كما قال عز وجل (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) وقوله تعالى (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام بن عبيد الله حدثنا محمد بن جابر عن على بن الأقمر عن الأغر أبى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » وقد رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث الأعمش عن الأغر أبى مسلم عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم بمثله وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال قلت يا رسول الله أى العباد أفضل درجة عند الله تعالى يوم القيامة ؟ قال ﷺ « الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » قال قلت يا رسول الله ومن الغازى فى سبيل الله تعالى ؟ قال « لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله تعالى أفضل منه » وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يسير فى طريق مكة فأتى على جمدان فقال « هذا جمدان سيروا فقد سبق المفردون » قالوا وما المفردون ؟ قال صلى الله عليه وسلم « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » ثم قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اغفر للمحلقين » قالوا والمقصرين قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اغفر للمحلقين » قالوا والمقصرين قال « والمقصرين » تفرد به من هذا الوجه ورواه مسلم دون آخره وقال الإمام أحمد حدثنا حجين بن المثنى حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة عن زياد بن أبى زياد مولى عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة قال إنه بلغنى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما عمل آدمى عملا قط أنجى له من عذاب الله تعالى من ذكر الله عز وجل » وقال معاذ رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من تعاطى الذهب والفضة ، ومن أن تلقوا عدوكم غدا فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا بلى يا رسول الله قال صلى الله عليه وسلم « ذكر الله عز وجل » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا زبان بن فايد عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن رجلا سأله فقال أى المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم « أكثرهم لله تعالى ذكراً » قال فأى الصائمين أكثر أجراً ؟ قال صلى الله عليه وسلم « أكثرهم لله عز وجل ذكرا » ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة . كل ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثرهم لله ذكراً » فقال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما ذهب الذاكرون بكل خير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أجل » . وسنذكر إن شاء الله تعالى بقية الأحاديث

الواردة فى كثرة الذكر عند قوله تعالى فى هذه السورة (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا) الآية إن شاء الله تعالى ، وقوله تعالى(أعدالله لهم مغفرة وأجرا عظيما)خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم أى أن الله تعالى قد أعد لهم أى هيأ لهم مغفرة منه لذنوبهم وأجرا عظيما وهو الجنة

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾

قال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى (وماكان لمؤمن ولا مؤمنة) الآية وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضى الله عنه فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضى الله عنها فخطبها فقالت لست بناكحته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بلى فانكحيه » قالت يا رسول الله أؤامر فى نفسى؟ فبينما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم (وماكان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا)الآية قالت قد رضيته لى يا رسول الله منكحا ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم » قالت إذا لا أعصي رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنكحته نفسي وقال ابن لهيعة عن أبى عمرة عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رضى الله عنه فاستنكفت منه وقالت أنا خير منه حسبا وكانت امرأة فيها حدة فأنزل الله تعالى (وماكان لمؤمن ولا مؤمنة) الآية كلها وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل ابن حيان أنها نزلت فى زينب بنت جحش رضى الله عنها حين خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم على مولاه زيد بن حارثة رضى الله عنه فامتنعت ثم أجابت . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط رضى الله عنها وكانت أول من هاجر من النساء يعنى بعد صلح الحديبية فوهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم فقال قد قبلت فزوجها زيد بن حارثة رضى الله عنه يعنى والله أعلم بعد فراقه زينب فسخطت هى وأخوها وقالا إنما أردنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجنا عبده قال فنزل القرآن (وماكان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا) إلى آخر الآية قال وجاء أمر أجمع من هذا(النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) قال فذاك خاص وهذا أجمع وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ثابت البنانى عن أنس رضى الله عنه قال خطب النبي ﷺ على جليبيب امرأة من الأنصار إلى أبيها فقال حتى أستأمر أمها فقال النبي صلى الله عليه وسلم « فنعم إذا » قال فانطلق الرجل إلى امرأته فذكر ذلك لها فقالت لاها الله إذن ما وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا جليبيبا وقد منعناها من فلان وفلان قال والجارية فى سترها تسمع قال فانطلق الرجل يريد أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك . فقالت الجارية أتريدون أن تردوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه قال فكأنها جلت عن أبويها وقالا صدقت فذهب أبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن كنت رضيته فقد رضيناه قال صلى الله عليه وسلم «فإنى قد رضيته » قال فزوجها ثم فزع أهل المدينة فركب جليبيب فوجدوه قد قتل وحوله ناس من المشركين قد قتلهم قال أنس رضى الله عنه فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت بالمدينة . وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد يعنى ابن سلمة عن ثابت عن كنانة بن نعيم العدوى عن أبى برزة الأسلمى قال إن جليبيبا كان امرأ يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن فقلت لامرأتى لا تدخلن عليكن جليبيبا فانه إن دخل عليكن لأفعلن ولأفعلن قالت وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم هل للنبى صلى الله عليه وسلم فيها حاجة أم لا فقال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل من الأنصار « زوجنى ابنتك » قال نعم وكرامة يارسول الله ونعمة عين فقال صلى الله عليه وسلم « إنى لست أريدها لنفسى »قال فلمن يارسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم « لجليبيب» فقال يا رسول الله أشاور أمها فأتى أمها فقال رسول الله ﷺ يخطب ابنتك فقالت نعم ونعمة عين فقال إنه ليس

يخطبها لنفسه إنما يخطبها لجليبيب فقالت: أجليبيب، ابنه أجليبيب ابنه ؟ الالعمر الله لا نزوجه ، فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها قالت الجارية من خطبنى إليكم فأخبرتها أمها قالت أتردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ادفعونى إليه فانه لن يضيعنى فانطلق أبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال شأنك بها فزوجها جليبيبا قال فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة له فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه رضى الله عنهم « هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا نفقد فلانا ونفقد فلانا قال صلى الله عليه وسلم « انظروا هل تفقدون من أحد » قالوا لا قال صلى الله عليه وسلم « لكننى أفقد جليبيبا » قال صلى الله عليه وسلم « فاطلبوه فى القتلى » فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه فقالوا يا رسول الله ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام عليه فقال « قتل سبعة وقتلوه هذا منى وأنا منه » مرتين أو ثلاثا ثم وضعه رسول صلى الله عليه وسلم على ساعديه وحفر له ماله سرير إلا ساعد النبى صلى الله عليه وسلم ثم وضعه فى قبره ولم يذكر أنه غسله رضى الله عنه قال ثابت رضى الله عنه فما كان فى الأنصار أيم أنفق منها وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة ثابتا هل تعلم ما دعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قال « اللهم صب عليها صبا ولا تجعل عيشها كدا » وكذا كان فما كان فى الأنصار أيم أنفق منها هكذا أورده الإمام أحمد بطوله وأخرج منه مسلم والنسائى فى الفضائل قصة قتله وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب أن الجارية لما قالت فى خدرها أتردون على رسول الله ﷺ أمره نزلت هذه الآية (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) وقال ابن جريج أخبرنى عامر بن مصعب عن طاوس قال إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر فنهاه وقرأ ابن عباس رضى عنه الله (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) فهذه الآية عامة فى جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشىء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ههنا ولا رأى ولا قول كما قال تبارك وتعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) وفى الحديث « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » ولهذا شدد فى خلاف ذلك فقال (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) كقوله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نبيه صلى الله عليه وسلم أنه قال لمولاه زيد بن حارثة رضى الله عنه وهو الذى أنعم الله عليه أى بالإسلام ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم (وأنعمت عليه) أى بالعتق من الرق وكان سيدا كبير الشأن جليل القدر حبيبا إلى النبى صلى الله عليه وسلم يقال له الحب ويقال لابنه أسامة الحب ابن الحب قالت عائشة رضى الله عنها ما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية إلا أمره عليهم ، ولو عاش بعده لا استخلفه ، رواه الإمام أحمد عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد عن وائل بن داود عن عبد الله البهى عنها . وقال البزار حدثنا خالد بن يوسف حدثنا أبو عوانة ح وحدثنا محمد بن معمر حدثنا أبو داود حدثنا أبو عوانة أخبرنى عمر بن أبى سلمة عن أبيه قال حدثنى أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : كنت فى المسجد فأتانى العباس وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما فقالا يا أسامة استأذن لنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقلت : على والعباس يستأذنان فقال صلى الله عليه وسلم « أتدرى ما حاجتهما ؟ » قلت لا يا رسول الله قال صلى الله عليه وسلم

«لكني أدرى» قال فأذن لهما قالا يا رسول الله جئناك لتخبرنا أى أهلك أحب إليك ؟ قال صلى الله عليه وسلم « أحب أهلى إلى فاطمة بنت محمد » قالا يا رسول الله ما نسألك عن فاطمة ، قال صلى الله عليه وسلم « فأسامة بن زيد بن حارثة الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية رضى الله عنها وأمها أميمة بنت عبد المطلب وأصدقها عشرة دنانير وستين درهما وخمارا وملحفة ودرعا وخمسين مدا من طعام وعشرة أمداد من تمر قاله مقاتل بن حيان ، فمكثت عنده قريبا من سنة أو فوقها ثم وقع بينهما فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له « أمسك عليك زوجك واتق الله » قال الله تعالى (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ذكر ابن أبى حاتم وابن جرير هاهنا آثارا عن بعض السلف رضى الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحا لعدم صحتها فلا نوردها . وقد روى الإمام أحمد ههنا أيضا حديثا من رواية حماد بن زيد عن ثابت عن أنس رضى الله عنه فيه غرابة تركنا سياقه أيضا . وقد روى البخارى أيضا بعضه مختصرا فقال : حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا يعلى ابن منصور عن حماد بن زيد حدثنا ثابت عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال إن هذه الآية (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) نزلت فى شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة رضى الله عنهما . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا على بن هاشم ابن مرزوق حدثنا ابن عيينة عن على بن زيد بن جدعان قال سألنى على بن الحسين رضى الله عنهما ما يقول الحسن فى قوله تعالى (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) فذكرت له فقال لا ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها فلما أتاه زيد رضى الله عنه ليشكوها إليه قال «اتق الله وأمسك عليك زوجك» فقال: قد أخبرتك أنى مزوجكها وتخفى فى نفسك ما الله مبديه . وهكذا روى عن السدى أنه قال نحو ذلك

وقال ابن جرير حدثنى إسحق بن شاهين حدثنى خالد عن داود عن عامر عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لو كتم محمد صلى الله عليه وسلم شيئا مما أوحى إليه من كتاب الله تعالى لكتم (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) وقوله تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا زوجنا كها) الوطر هو الحاجة والأرب أى لما فرغ منها وفارقها زوجنا كها وكان الذى ولى تزويجها منه هو الله عز وجل بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولى ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر ، قال الإمام أحمد حدثنا هاشم يعنى ابن القاسم أخبرنا النضر حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس رضى الله عنه قال لما انقضت عدة زينب رضى الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة « اذهب فاذكرها على » فانطلق حتى أتاها وهى تخمر عجينها قال فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول إن رسول الله ﷺ ذكرها فوليتها ظهرى ونكصت على عقبى وقلت يا زينب أبشرى أرسلنى رسول الله ﷺ يذكرك ، قالت ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربى عز وجل فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن ، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطعمنا عليها الخبز واللحم فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعته فجعل صلى الله عليه وسلم يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن يا رسول الله كيف وجدت أهلك ؟ فما أدرى أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى الستر بينى وبينه ونزل الحجاب ووعظ القوم بما وعظوا به (لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم) الآية كلها ورواه مسلم والنسائى من طرق عن سليمان ابن المغيرة به ، وقد روى البخارى رحمه الله عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال إن زينب بنت جحش رضى الله عنها كانت تفخر على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فتقول زوجكن أهاليكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات وقد قدمنا فى سورة النور عن محمد بن عبد الله بن جحش قال تفاخرت زينب وعائشة رضى الله عنهما فقالت زينب رضى الله عنها أنا التى نزل تزويجى من السماء ، وقالت عائشة رضى الله عنها أنا التى نزل عذرى من السماء فاعترفت لها زينب رضى الله عنها وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن المغيرة عن الشعبى قال : كانت

زينب رضى الله عنها تقول للنبى صلى الله عليه وسلم إنى لأدل عليك بثلاث: ما من نسائك امرأة تدل بهن : إن جدى وجدك واحد ، وإنى أنكحنيك الله عزوجل من السماء ، وإن السفير جبريل عليه الصلاة والسلام . وقوله تعالى (لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً) أى إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك لئلا يبقى حرج على المؤمنين فى تزويج مطلقات الأدعياء وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قبل النبوة قد تبنى زيد ابن حارثة رضى الله عنه فكان يقال له زيد بن محمد فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى (وما جعل أدعياءكم أبناءكم — إلى قوله تعالى — ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) ثم زاد ذلك بياناً وتأكيداً بوقوع تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش رضى الله عنها لما طلقها زيد بن حارثة رضى الله عنه ، ولهذا قال تعالى فى آية التحريم (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) ليحترز من الابن الدعى فان ذلك كان كثيرا فيهم . وقوله تعالى (وكان أمر الله مفعولا) أى وكان هذا الأمر الذى وقع قد قدره الله تعالى وحتمه وهو كائن لا محالة ، كانت زينب رضى الله عنها فى علم الله ستصير من أزواج النبى ﷺ

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾

يقول تعالى (ماكان على النبى من حرج فيما فرض الله له) أى فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب رضى الله عنها التى طلقها دعيه زيد بن حارثة رضى الله عنه وقوله تعالى (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) أى هذا حكم الله تعالى فى الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشىء وعليهم فى ذلك حرج وهذا رد عن من توهم من المنافقين نقصا فى تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذى كان قد تبناه (وكان أمر الله قدرا مقدورا) أى وكان أمره الذى يقدره كائنا لا محالة وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا * مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾

يمدح تبارك وتعالى (الذين يبلغون رسالات الله) أى إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها (ويخشونه) أى يخافونه ولا يخافون أحدا سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى (وكفى بالله حسيبا) أى وكفى بالله ناصرا ومعينا ، وسيد الناس فى هذا المقام بل وفى كل مقام محمد رسول الله ﷺ فانه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب إلى جميع أنواع بنى آدم وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع فانه قد كان النبى قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة ، وأما هو صلى الله عليه وسلم فانه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضى الله عنهم بلغوا عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله فى ليله ونهاره وحضره وسفره وسره وعلانيته فرضى الله عنهم وأرضاهم ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا فبنورهم يقتدى المهتدون وعلى منهجهم يسلك الموفقون فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم . قال الإمام أحمد حدثنا ابن نمير أخبرنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقوله فيقول الله ما يمنعك أن تقول منه فيقول رب خشيت الناس فيقول فأنا أحق أن تخشى » ورواه أيضا عن عبد الرزاق عن الثورى عن زيد عن عمرو بن مرة ، ورواه ابن ماجه عن أبى كريب عن عبد الله بن نمير وأبى معاوية كلاهما عن الأعمش به . وقوله تعالى (ماكان محمد أبا أحد من رجالكم) نهى أن يقال بعد هذا زيد بن محمد أى لم يكن أباه وإن كان قد تبناه فانه صلى الله عليه وسلم لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ، فإنه صلى الله عليه وسلم ولد له القاسم والطيب والطاهر

من خديجة رضى الله عنها فماتوا صغارا ، وولد له صلى الله عليه وسلم إبراهيم من مارية القبطية فمات أيضا رضيعا وكان له صلى الله عليه وسلم من خديجة أربع بنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضى الله عنهم أجمعين فمات فى حياته صلى الله عليه وسلم ثلاث وتأخرت فاطمة رضى الله عنها حتى أصيبت به صلى الله عليه وسلم ثم ماتت بعده لستة أشهر وقوله تعالى (ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما) كقوله عزوجل (الله أعلم حيث يجعل رسالته) فهذه الآية نص فى أنه لانبى بعده وإذاكان لا نبى بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فان كل رسول نبى ولا ينعكس وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول ﷺ من حديث جماعة من الصحابة رضى الله عنهم ، قال الإمام أحمد حدثنا أبو عامر الأزدى حدثنا زهير بن محمد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبى بن كعب عن أبيه رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون لوتم موضع هذه اللبنة ؟ فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة » ورواه الترمذى عن بندار عن أبى عامر العقدى به وقال حسن صحيح ﴿ حديث آخر ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا المختار ابن فلفل حدثنا أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبى » قال فشق ذلك على الناس فقال « ولكن المبشرات » قالوا يارسول الله وما المبشرات ؟ قال « رؤيا الرجل المسلم وهى جزء من أجزاء النبوة » وهكذا رواه الترمذى عن الحسن بن محمد الزعفرانى عن عفان بن مسلم به وقال صحيح غريب من حديث المختار بن فلفل

﴿ حديث آخر ﴾ قال أبو داود الطيالسى حدثنا سليم بن حيان عن سعيد بن مينا عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فكان من دخلها فنظر إليها قال ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة فأنا موضع اللبنة ختم بى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » ورواه البخارى ومسلم والترمذى من طرق عن سليم بن حيان به وقال الترمذى صحيح غريب من هذا الوجه ﴿ حديث آخر ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثلى ومثل النبيين كمثل رجل بنى دارا فأتمها إلا لبنة واحدة فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » انفرد به مسلم من رواية الأعمش به . ﴿ حديث آخر ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا يونس بن محمد حدثنا حماد بن زيد حدثنا عثمان بن عبيد الراسبى قال سمعت أبا الطفيل رضى الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا نبوة بعدى إلا المبشرات » قيل وما المبشرات يا رسول الله قال « الرؤيا الحسنة » — أو قال — « الرؤيا الصالحة » ﴿ حديث آخر ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل ابتنى بيوتا فأكملها وأحسنها وأجملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان ويقولون ألا وضعت ههنا لبنة فيتم بنيانك ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فكنت أنا اللبنة » أخرجاه من حديث عبد الرزاق ﴿ حديث آخر ﴾ عن أبى هريرة رضى الله عنه أيضا قال الإمام مسلم حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة وعلى بن حجر قالوا حدثنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون » . ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث إسماعيل بن جعفر وقال الترمذى حسن صحيح ﴿ حديث آخر ﴾ وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى دارا فأتمها إلا موضع لبنة واحدة فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » ورواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة وأبى كريب

كلاهما عن أبي معاوية به (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا معاوية بن صالح حدثنا سعيد بن سويد الكلبي عن عبد الأعلى بن هلال السلمي عن العرباض بن سارية رضى الله عنه قال : قال لى النبي صلى الله عليه وسلم « إنى عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته » ﴿ حديث آخر ﴾ قال الزهرى أخبرنى محمد بن جبير ابن مطعم عن أبيه رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن لى أسماء : أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله تعالى بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب الذى ليس بعده نبى » أخرجاه فى الصحيحين . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحاق حدثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن عبد الرحمن ابن جبير قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما كالمودّع فقال « أنا محمد النبي الأمى — ثلاثا — ولا نبى بعدى ، أتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش، وتجوز بى، وعوفيت وعوفيت أمتى ، فاسمعوا وأطيعوا مادمت فيكم ، فإذا ذهب بى فعليكم بكتاب الله تعالى أحلوا حلاله وحرموا حرامه » تفرد به الإمام أحمد

ورواه الإمام أحمد أيضا عن يحيى بن إسحاق عن ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن عبد الله بن شريح الخولانى عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما فذكر مثله سواء والاحاديث فى هذا كثيرة، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدين الحنيف له ، وقد أخبر الله تبارك وتعالى فى كتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم فى السنة المتواترة عنه أنه لا نبى بعده ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل ، ولو تحرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات فكلها محال وضلال عند أولى الألباب كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسى باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذى لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان لعنهما الله وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله تعالى معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه فانهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الا تفاق أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ويكون فى غاية الافك والفجور فى أقوالهم وأفعالهم كما قال تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل كل أفاك أثيم) الآية وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فانهم فى غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات فصلوات الله وسلامه عليهم دائما مستمراً مادامت الأرض والسموات

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن لما لهم فى ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب . قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد عن عبد الله بن سعيد حدثنى مولى ابن عباس عن أبي بحرية عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من اعطاء الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم » قالوا وما هو يارسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم « ذكر الله

عز وجل » وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه من حديث عبدالله بن سعيد بن أبى هند عن زياد مولى ابن عباس عن أبى بحرية واسمه عبدالله بن قيس البراغمى عن أبى الدرداء رضى الله عنه به ، قال الترمذى ورواه بعضهم عنه فأرسله ، قلت وقد تقدم هذا الحديث عند قوله تعالى (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات) فى مسند الإمام أحمد من حديث زيادبن أبىزياد مولى عبدالله بن عباس أنه بلغه عنمعاذبن جبل رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ بنحوه فالله أعلم. وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثناروح بن فضالة عن أبى سعيد الحمصى قال : سمعت أباهريرة رضى الله عنه يقول : دعاء سمعته من رسول الله ﷺ لا أدعه : اللهم اجعلنى أعظم شكرك وأتبع نصيحتك وأكثر ذكرك وأحفظ وصيتك ورواه الترمذى عن يحيى بن موسى عن وكيع عن أبىفضالة الفرج بنفضالة عنأبى سعيد الحمصى عنأبى هريرة رضى الله عنه فذكر مثله وقال غريب وهكذا رواه الإمام أحمد أيضا عن أبى النضر هاشم بن القاسم عن فرج بن فضالة عن أبىسعيد المرى عن أبى هريرة رضى الله عنـه فذكره . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بنمهدى عن معاوية بن صالح عن عمرو بن قيس قال سمعت عبـد الله بن بشر يقول جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ فقال أحـدهما يارسول أى الناس خـير ؟ قال صـلى الله عليه وسـلم « منطال عمره وحسن عمله » وقال الآخر يارسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا فمرنى بأمر أتشبث به قال صلى الله عليه وسـلم « لايزال لسانك رطبا بذكرالله تعالى» وروى الترمذى وابن ماجه الفصل الثانى من حديث معاوية بن صالح به ، وقال الترمذى حديث حسن غريب . وقال الإمام أحمد حدثنا شريح حدثنا ابن وهب عن عمرو بن الحارث قال : إن دراجا أبا السمح حدثه عن أبى الهيثم عن أبى سـعيد الخدرى رضى الله عنـه قال : إن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم قال « أكثروا ذكر الله تعـالى حتى يقولوا مجنون » . وقال الطبرانى حدثنا عبد الله بن أحمد حدثنا عقبة بن مكرم العمى حدثنا سعيد بن سفين الجحدرى حدثنا الحسن بن أبى جعفر عنعقبة بن أبىشبيب الراسبى عن أبى الجوزاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « اذكروا الله ذكراً » حتى يقول المنافقون إنـكم تراءون » ، وقال الإمام أحمـد حدثنا أبو سعيدمولى بنى هاشم حدثنا شداد أبو طلحة الراسبى سمعت أبا الوازع جابر بن عمرو يحدث عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « مامن قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله تعالى فيه إلا رأوه حسرة يوم القيامة ، وقال على بنأبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (اذكروا الله ذكراً كثيرا) إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لهاحدا معلوما ثم عذر أهلها فى حال العذر غير الذكر فان اللهتعالى لميجعل له حدا ينتهى اليه ولميعذر أحدا فىتركه إلا مغلوبا علىتركه فقال (اذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم) بالليلوالنهار فىالبر والبحر ، وفىالسفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال . وقال عز وجل (وسبحوه بكرة وأصيلا) فاذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائـكته ، والأحاديث والآيات والآثار فىالحث على ذكر الله تعالى كثيرة جدا وفى هذه الآية الـكريمة الحث على الاكثار منذلك . وقد صنفالناس فىالأذكار المتعلقة بآناءالليل والنهار كالنسائى والمعمرى وغيرهما . ومن أحسن الـكتب المؤلفة فى ذلك كتاب الأذكار للشيخ محيى الدين النووى رحمه الله وقوله تعالى (وسبحوه بكرة وأصـيلا) أى عند الصباح والمساء كقوله عز وجل (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد فى السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون) وقوله تعالى (هو الذى يصلى عليكم وملائـكته) هذا تهييج إلى الذكر أىأنهسبحانه يذكركم فاذكروهأنتم كقوله عزوجل (كما أرسلنا فيكمرسولا منـكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمـكم الـكتاب والحـكمة ويعلمـكم مالم تـكونوا تعلمون * فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تـكفرون) وقال النبى ﷺ « يقول الله تعالى من ذكرنى فى نفسـه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فىملأ خير منه » والصلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد عنـد الملائـكة حكاه البخارى عن أبى العالية ورواه أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عنه ، وقال غيره الصلاة من الله عزوجل الرحمة . وقد يقال ،

لا منافاة بين القولين والله أعلم ، وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار كقوله تبارك وتعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات) الآية . وقوله تعالى (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) أي بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين (وكان بالمؤمنين رحيما) أي في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فانه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم وبصرهم الطريق الذي ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأتباعهم من الطغام ، وأما رحمته بهم في الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم

قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبي عدي عن حميد عن أنس رضي الله عنه قال : مر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه رضي الله عنهم وصبي في الطريق فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتقول: ابني، ابني وسعت فأخذته فقال القوم يارسول الله ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار قال فخفضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لا ، والله لايلقي حبيبه في النار » إسناده على شرط الصحيحين ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، ولكن في صحيح الإمام البخاري عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيا لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته فقال رسول الله ﷺ « أترون هذه تلقي ولدها في النار وهي تقدر على ذلك ؟ » قالوا لا قال رسول الله ﷺ فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها » .

وقوله تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) الظاهر أن المراد والله أعلم تحيتهم أي من الله تعالى يوم يلقونه سلام أي يوم يسلم عليهم كما قال عز وجل (سلام قولا من رب رحيم) وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيي بعضهم بعضا بالسلام يوم يلقون الله في الدار الآخرة ، واختاره ابن جرير : [قلت] وقد يستدل بقوله تعالى (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) . وقوله تعالى (وأعد لهم أجرا كريما) يعني الجنة وما فيها من المآكل والشارب والملابس والمساكن والمناكح والملاذ والمناظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا فليح بن سليمان حدثنا هلال بن علي عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة قال أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) وحرزا للأميين أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا ، وقد رواه البخاري في البيوع عن محمد بن سنان عن فليح بن سليمان عن هلال بن علي به . ورواه في التفسير عن عبد الله قيل ابن رجاء وقيل ابن صالح عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن هلال عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو به . ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن عبد الله بن رجاء عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون به .

وقال البخاري في البيوع وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، وقال وهب بن منبه إن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له شعياء : أن قم في قومك بني إسرائيل فاني منطق لسانك بوحي وأبعث أميا من الأميين ، أبعثه ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من

سكينته ، ولو يمشى على القصب لم يسمع من تحت قدميه أبعثه مبشرا ونذيرا لايقول الخنا ، أفتح به أعينا كمها وآذانا صما وقلوبا غلفا ، أسدده لكل أمر جميل وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه أهدى به بعد الضلال ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأعرف به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة وقلوب مختلفة . وأهواء متشتتة ، وأستنقذ به فئاما من الناس عظيمة من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، موحدين مؤمنين مخلصين ، مصدقين لما جاءت به رسلى ؛ ألهمهم التسبيح والتحميد ، والثناء والتكبير والتوحيد ، فى مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم يصلون لى قياما وقعودا ويقاتلون فى سبيل الله صفوفا وزحوفا ، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتى ألوفا ، يطهرون الوجوه والأطراف ويشدون الثياب فى الأنصاف ، قربانهم دماؤهم . وأناجيلهم فى صدورهم ، رهبان بالليل ليوث بالنهار ، وأجعل فى أهل بيته وذريته السابقين ، والصديقين والشهداء والصالحين ، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون ، وأعز من نصرهم وأؤيد من دعا لهم ، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم ، أو بغى عليهم أو أراد أن ينتزع شيئا مما فى أيديهم ، أجعلهم ورثة لنبيهم ، والداعية إلى ربهم ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويوفون بعهدهم أختم بهم الخير الذى بدأته بأولهم ، ذلك فضلى أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم . هكذا رواه ابن أبى حاتم عن وهب بن منبه اليمانى رحمه الله . ثم قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الرحمن بن صالح حدثنا عبد الرحمن ابن محمد بن عبيد الله القرشى عن شيبان النحوى أخبرنى قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) وقد كان أمر عليا ومعاذا رضى الله عنهما أن يسيرا إلى اليمن فقال « انطلقا فبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، إنه قد أنزل على (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) » ورواه الطبرانى عن محمد بن نصر بن حميد البزار البغدادى عن عبد الرحمن بن صالح الأزدى عن عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمى بإسناده مثله ، وقال فى آخره « فانه قد أنزل على يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا على أمتك ومبشرا بالجنة ونذيرا من النار وداعيا إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه وسراجا منيرا بالقرآن » . فقوله تعالى (شاهدا) أى لله بالوحدانية ، وأنه لا إله غيره وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة وجئنا بك على هؤلاء شهيدا كقوله (لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ، وقوله عز وجل (ومبشرا ونذيرا) أى بشيرا للمؤمنين بجزيل الثواب ونذيرا للكافرين من وبيل العقاب . وقوله جلت عظمته (وداعيا إلى الله بإذنه) أى داعيا للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك (وسراجا منيرا) أى وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس فى إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلا معاند . وقوله جل وعلا (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم) أى لا تطعهم وتسمع منهم فى الذى يقولونه (ودع أذاهم) أى اصفح وتجاوز عنهم وكل أمرهم إلى الله تعالى فان فيه كفاية لهم ولهذا قال جل جلاله (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة منها إطلاق النكاح على العقد وحده وليس فى القرآن آية أصرح فى ذلك منها، وقد اختلفوا فى النكاح هل هو حقيقة فى العقد وحده أو فى الوطء أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال ، واستعمال القرآن إنما هو فى العقد والوطء بعده إلا فى هذه الآية فانه استعمل فى العقد وحده لقوله تبارك وتعالى (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها وقوله تعالى (المؤمنات) خرج

مخرج الغالب إذ لا فرق فى الحكم بين المؤمنة والكتابية فى ذلك بالاتفاق وقد استدل ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد ابن المسيب والحسن البصرى وعلى بن الحسين زين العابدين وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح لأن الله تعالى قال (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) فعقب النكاح بالطلاق فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله وهذا مذهب الشافعى وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من السلف والخلف رحمهم الله تعالى ، وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى إلى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال إن تزوجت فلانة فهى طالق ، فعندهما متى تزوجها طلقت منه ، واختلفا فيما إذا قال كل امرأة أتزوجها فهى طالق فقال مالك لا تطلق حتى يعين المرأة . وقال أبو حنيفة رحمه الله كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية ، قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن منصور المروزى حدثنا النضر بن شميل حدثنا يونس يعنى ابن أبى إسحاق قال سمعت آدم مولى خالد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . قال إذا قال كل امرأة أتزوجها فهى طالق قال ليس بشىء من أجل أن الله تعالى يقول (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) الآية وحدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى حدثنا وكيع عن مطر عن الحسن بن مسلم بن يناق عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إنما قال الله عزوجل (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح وهكذا روى محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال الله تعالى (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) فلا طلاق قبل النكاح وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا طلاق لابن آدم فيم لا يملك رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى هذا حديث حسن وهو أحسن شىء روى فى هذا الباب ، وهكذا روى ابن ماجه عن على والمسور بن مخرمة رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا طلاق قبل النكاح » ، وقوله عزوجل (فما لكم عليهن من عدة تعتدونها) هذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج فى فورها[1] من شاءت ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها فانها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً وإن لم يكن دخل بها بالاجماع أيضا ، وقوله تعالى (فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا) المتعة ههنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها . قال الله تعالى (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم) وقال عز وجل (لا جناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقاً على المحسنين) وفى صحيح البخارى عن سهل بن سعد وأبى أسيد رضى الله عنهما قالا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج أميمة بنت شراحيل فلما أن دخلت عليه صلى الله عليه وسلم بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين ، قال على ابن أبى طلحة رضى الله عنهما إن كان سمى لها صداقا فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سمى لها صداقا أمتعها على قدر عسره ويسره وهو السراح الجميل

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

يقول تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتى أعطاهن مهورهن وهى الأجور

(١) فى النسخة المكية : فى قرئها .

ههنا كما قاله مجاهد وغير واحد وقد كان مهره لنسائه اثنتى عشرة أوقية ونشز وهو نصف أوقية فالجميع خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فانه أمهرها عنه النجاشى رحمه الله تعالى أربعمائة دينار وإلا صفية بنت حيى فانه اصطفاها من سبي خيبر ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها ، وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها ـ رضى الله عنهن أجمعين ـ وقوله تعالى (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) أى وأباح لك التسرى مما أخذت من المغانم وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما ، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليهما السلام وكانتا من السرارى رضى الله عنهما وقوله تعالى (وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك) الآية هذا عدل وسط بين الافراط والتفريط فان النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدا ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت وهذا شنيع فظيع ، وإنما قال (وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك) فوحد لفظ الذكر لشرفه وجمع الاناث لنقصهن كقوله (عن اليمين والشمائل) (يخرجهم من الظلمات إلى النور)(وجعل الظلمات والنور) وله نظائر كثيرة وقوله تعالى (اللاتى هاجرن معك) قال ابن أبى حاتم رحمه الله حدثنا محمد بن عمار ابن الحارث الرازى حدثنا عبيد الله بن موسى حدثنا إسرائيل عن السدى عن أبى صالح عن أم هانىء قالت خطبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فعذرنى ، ثم أنزل الله تعالى (إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليه وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك قالت فلم أكن أحل له ولم أكن ممن هاجر معه كنت من الطلقاء. ورواه ابن جرير عن أبى كريب عن عبيد الله بن موسى به ثم رواه ابن أبى حاتم من حديث إسماعيل بن أبى خالد عن أبى صالح عنها بنحوه ، ورواه الترمذى فى جامعه . وهكذا قال أبو رزين وقتادة إن المراد من هاجر معه إلى المدينة . وفى رواية عن قتادة (اللاتى هاجرن معك) أى أسلمن ، وقال الضحاك قرأ ابن مسعود (واللائى هاجرن معك)

وقوله تعالى (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك) الآية أى ويحل لك أيها النبى المرأة المؤمنة إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك . وهذه الآية توالى فيها شرطان كقوله تعالى إخبارا عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) وكقول موسى عليه السلام (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) وقال ههنا (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى) الآية وقد قال الإمام أحمد حدثنا إسحق أخبرنا مالك عن أبى حازم عن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت يا رسول الله إنى قد وهبت نفسى لك فقامت قياما طويلا فقام رجل فقال يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة ، فقال رسول الله ﷺ « هل عندك من شىء تصدقها إياه ؟ » فقال ما عندى إلا إزارى هذا ، فقال رسول الله ﷺ « إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك فالتمس شيئاً » فقال لا أجد شيئا ، فقال « التمس ولو خاتما من حديد » فالتمس فلم يجد شيئاً ، فقال له النبى ﷺ « هل معك من القرآن شىء ؟ » قال نعم سورة كذا وسورة كذا ـ السور يسميها ـ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم «زوجتكها بما معك من القرآن » أخرجاه من حديث مالك وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا مرحوم سمعت ثابتا يقول : كنت مع أنس جالسا وعنده ابنة له فقال أنس جاءت امرأة إلى النبى ﷺ فقالت يانبى الله هل لك فى حاجة فقالت ابنته ما كان أقل حياءها فقال « هى خير منك رغبت فى النبى فعرضت عليه نفسها » انفرد بإخراجه البخارى من حديث مرحوم بن عبد العزيز عن ثابت البنانى عن أنس به : وقال أحمد أيضا حدثنا عبد الله بن بكير حدثنا سنان بن ربيعة عن الحضرمى عن أنس بن مالك أن امرأة أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ابنة لى كذا وكذا فذكرت من حسنها وجمالها فآثرتك بها فقال « قد قبلتها » فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تشك شيئا قط فقال «لا حاجة لى فى ابنتك»

لم يخرجوه ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا منصور بن أبي مزاحم حدثنا ابن أبي الوضاح يعني محمد بن مسلم عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة قالت التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم ، وقال ابن وهب عن سعيد بن عبد الرحمن وابن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه أن خولة بنت حكيم بن الاوقص من بني سليم كانت من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وفي رواية له عن سعيد بن عبد الرحمن عن هشام عن أبيه كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم كانت وهبت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة صالحة . فيحتمل أن أم سليم هي خولة بنت حكيم أو هي امرأة أخرى ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي حدثنا وكيع حدثنا موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب وعمر بن الحكم وعبد الله بن عبيدة قالوا : تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة ستا من قريش: خديجة وعائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة ، وثلاثا من بني عامر بن صعصعة وامرأتين من بني هلال بن عامر: ميمونة بنت الحارث وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ وزينب أم المساكين ، وامرأة من بني بكر بن كلاب من القرظيات وهي التي اختارت الدنيا وامرأة من بني الجون وهي التي استعاذت منه وزينب بنت جحش الأسدية ، والسبيتين صفية بنت حيي ابن أخطب وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية ، وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن ابن عباس (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي) قال هي ميمونة بنت الحارث فيه انقطاع هذا مرسل والمشهور أن زينب التي كانت تدعى أم المساكين هي زينب بنت خزيمة الأنصارية وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته فالله أعلم . والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير كما قال البخاري حدثنا زكريا بن يحيي حدثنا أبو أسامة قال حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى (ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) قلت ما أرى ربك إلا يسارع في هواك. وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن منصور الجعفي حدثنا يونس بن بكير عن عنبسة بن الأزهر عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن يونس بن بكير أي أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له وإن ذلك مباحا له ومخصوصا به لأنه مردود إلى مشيئته كما قال الله تعالى (إن أراد النبي أن يستنكحها) أي إن اختار ذلك .

وقوله تعالى (خالصة لك من دون المؤمنين) قال عكرمة أي لا تحل الموهوبة لغيرك ولو ان امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئا وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما أي انها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل فانه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها كما حكم به رسول الله ﷺ في تزويج بنت واشق لما فوضت فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها لما توفي عنها زوجها والموت والدخول سواء في تقرير المهر وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ فأما هو عليه الصلاة والسلام فانه لا يجب عليه للمفوضة شيء ولو دخل بها لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود كما في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها ولهذا قال قتادة في قوله (خالصة لك من دون المؤمنين) يقول ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم) قال أبي بن كعب ومجاهد والحسن وقتادة وابن جرير في قوله (قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم) أي من حصرهم في أربع نسوة حرائر وما شاءوا من الإماء واشتراط الولي والمهر والشهود عليهم وهم الأمة وقد رخصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئا منه (لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما)

﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِي إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن بشر حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تغير من النساء اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فأنزل الله عز وجل (ترجي من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء) الآية قالت إنى أرى ربك يسارع لك فى هواك . وقد تقدم أن البخارى رواه من حديث أبى أسامة عن هشام بن عروة فدل هذا على أن المراد بقوله (ترجى) أى تؤخر (من تشاء منهن) أى من الواهبات (وتؤوى إليك من تشاء) أى من شئت قبلتها ومن شئت رددتها ، ومن رددتها فأنت فيها أيضا بالخيار بعد ذلك إن شئت عـدت فيها فأويتها ولهذا قال (ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) قال عامر الشعبي فى قوله تعالى (ترجى من تشاء منهن) الآية كن نساء وهبن أنفسهن للنبى صلى الله عليه وسلم فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن لم ينكحن بعده ، منهن أم شريك ، وقال آخرون بل المراد بقوله (ترجى من تشاء منهن) الآية أى من أزواجك لا حرج عليك أن تترك القسم لهن فتقدم من شئت وتؤخر من شئت وتجامع من شئت وتترك من شئت هكذا يروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وأبى رزين وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم ، ومع هذا كان النبى ﷺ يقسم لهن ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجبا عليه صلى الله عليه وسلم واحتجوا بهذه الآية الكريمة ، وقال البخارى حـدثنا حبان بن موسى حدثنا عبد الله هو ابن المبارك أخبرنا عاصم الأحول عن معاذ عن عائشة أن رسول الله صـلى عليه وسلم : كان يستأذن فى اليوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية (ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) فقلت لها ما كنت تقولين ؟ فقالت كنت أقول إن كان ذلك إلى فانى لا أريد يارسول الله أن أوثر عليك أحدا . فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عـدم وجود القسم وحديثها الأول يقتضى أن الآية نزلت فى الواهبات ، ومن ههنا اختار ابن جرير أن الآية عامة فى الواهبات وفى النساء اللاتى عنده أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم ، وهـذا الذى اختاره حسن جيد قوى وفيه جمع بين الأحاديث ولهذا قال تعالى (ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن) أى إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج فى القسم ، فان شئت قسمت وإن شئت لم تقسم لا جناح عليك فى أى ذلك فعلت ثم مع هذا أن تقسم لهن اختيارا منك لا أنه على سبيل الوجوب فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك فى ذلك ، واعترفن بمنتك عليهن فى قسمتك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن . وقوله تعالى (والله يعلم مافى قلوبكم) أى من الميـل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه كما قال الإمام أحـمد حدثنا يزيد حدثنا حماد بن سلمة عن أيوب عن أبى قلابة عن عبد الله بن يزيد عن عائشة قالت : كان رسول الله صـلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول « اللهم هذا فعلى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » ورواه أهل السنن الأربعة من حديث حماد بن سلمة وزاد أبو داود بعد قوله « فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » يعنى القلب . وإسـناده صحيح ورجاله كلهم ثقات ولهذا عقب ذلك بقوله تعالى (وكان الله عليما) أى بضمائر السرائر (حليما) أى يحلم ويغفر .

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴾

ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد وابن جرير وغيرهم أن هـذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبى صـلى الله عليه وسـلم ورضا عنهن على حسن صنيعهن فى اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم كما تقدم فى الآية ، فلما اخترن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بهن أزواجا غيرهن ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسرارى فـلا حرج عليـه فيهن ، ثم إنه تعالى رفع عنـه الحرج فى ذلك ونسخ

حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج لتكون المنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليهن
قال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء عن عائشة رضي الله عنها قالت مامات رسول الله صلى الله عليه وسلم
حتى أحل الله له النساء ، ورواه أيضا من حديث ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة ، ورواه الترمذي
والنسائي في سننهما ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبة حدثني عمر بن أبي بكر
حدثني المغيرة بن عبد الرحمن الخزاعي عن أبي النضر مولى عمر بن عبد الله عن عبد الله بن وهب بن زمعة عن أم سلمة انها قالت : لم
يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم . وذلك قول الله تعالى (ترجى من
تشاء منهن) الآية فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة كآيتي عدة الوفاة في البقرة ، الأولى ناسخة للتي بعدها
والله أعلم ، وقال آخرون بل معنى الآية (لا يحل لك النساء من بعد) أي من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي
أحللنا لك من نسائك اللاتي آتيت أجورهن وماملكت يمينك ، وبنات العم والعمات والخال والخالات والواهبة
وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك ، وهذا ماروى عن أبي بن كعب ومجاهد في رواية عنه وعكرمة
والضحاك في رواية وأبي رزين في رواية عنه وأبي صالح والحسن وقتادة في رواية والسدى وغيرهم قال ابن جرير
حدثنا يعقوب حدثنا ابن علية عن داود بن أبي هند حدثني محمد بن أبي موسى عن زياد عن رجل من الأنصار قال
قلت لأبي بن كعب أرأيت لو أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم توفين اما كان له أن يتزوج ؟ فقال وما يمنعه من
ذلك ؟ قال قلت قول الله تعالى (لا يحل لك النساء من بعد) فقال إنما أحل الله له ضربا من النساء فقال تعالى (ياأيها النبي
إنا أحللنا لك أزواجك — إلى قوله تعالى — إن وهبت نفسها للنبي) ثم قيل له (لا يحل لك النساء من بعد)
ورواه عبد الله بن أحمد من طرق عن داود به ، وروى الترمذي عن ابن عباس قال نهى رسول الله صلى الله عليه
وسلم عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله تعالى (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن
تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك) فأحل الله فتياتكم المؤمنات ، وامرأة مؤمنة
إن وهبت نفسها للنبي وحرم كل ذات دين غير الاسلام ثم قال (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله) الآية

وقال تعالى (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن — إلى قوله تعالى — خالصة لك من دون
المؤمنين) وحرم ماسوى ذلك من أصناف النساء ، وقال مجاهد (لا يحل لك النساء من بعد) أي من بعد ماسمى لك
لا مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة ، وقال أبو صالح (لا يحل لك النساء من بعد) أمر أن لا يتزوج أعرابية
ولا عربية ويتزوج بعد من نساء تهامة وماشاء من بنات العم والعمة والخال والخالة إن شاء ثلاثمائة ، وقال عكرمة
(لا يحل لك النساء من بعد) أي التي سمى الله ، واختار ابن جرير رحمه الله أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف
النساء ، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعا ، وهذا الذي قاله جيد ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف
فان كثيرا منهم روى عنه هذا وهذا ولا منافاة والله أعلم . ثم أورد ابن جرير على نفسه ماروى أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم طلق حفصة ثم راجعها وعزم على فراق سودة حتى وهبت يومها لعائشة ، ثم أجاب بأن هذا كان قبل
نزول قوله تعالى (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج) الآية ، وهذا الذي قاله من أن هذا كان
قبل نزول الآية صحيح ولكن لا يحتاج إلى ذلك فان الآية إنما دلت على انه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته
وأنه لايستبدل بهن غيرهن ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال فالله أعلم ، فأما قضية
سودة ففي الصحيح عن عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها وهي سبب نزول قوله تعالى (وإن امرأة خافت من
بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا) الآية ، وأما قضية حفصة فروى أبو داود والنسائي
وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من طرق عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن صالح بن صالح بن حي عن سلمة بن كهيل
عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ثم راجعها وهذا إسناد قوي
وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو كريب حدثنا يونس بن بكير عن الأعمش عن أبي صالح عن ابن عمر قال : دخل عمر على

حفصة وهي تبكي فقال ما يبكيك ؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك ، إنه كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلي والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً . ورجاله على شرط الصحيحين . وقوله تعالى (ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) فنهاه عن الزيادة عليهن إن طلق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً مناسباً ذكره ههنا فقال حدثنا إبراهيم بن نصر حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا عبد السلام ابن حرب عن إسحاق بن عبد الله القرشي عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة قال: كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل بادلني امرأتك وأبادلك بامرأتي أي تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي فأنزل الله (ولا أن تبدل بهن من أزوج ولو أعجبك حسنهن) قال فدخل عيينة بن حصن الفزاري على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده عائشة فدخل بغير إذن فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « فأين الاستئذان ؟ » فقال يا رسول الله ما استأذنت على رجل من مضر منذ أدركت ثم قال من هذه الحميراء إلى جنبك ؟ فقال رسول الله ﷺ « هذه عائشة أم المؤمنين » قال أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق ؟ قال « ياعيينة إن الله قد حرم ذلك » فلما أن خرج قالت عائشة من هذا ؟ قال « هذا أحمق مطاع وإنه على ماترين لسيد قومه » ثم قال البزار : إسحاق بن عبد الله لين الحديث جداً وإنما ذكرناه لأنا لم نحفظه إلا من هذا الوجه وبينا العلة فيه

﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَـٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَٰجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾

هذه آية الحجاب وفيها أحكام وآداب شرعية وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال وافقت ربي عز وجل في ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقلت يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفجور فلو حجبتهن فأنزل الله آية الحجاب وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لما تما لأن عليه في الغيرة (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن) فنزلت كذلك وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بدر وهي قضية رابعة وقد قال البخاري حدثنا مسدد عن يحيى عن حميد عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش التي تولى الله تعالى تزوجها بنفسه وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة في قول قتادة والواقدي وغيرهما ، وزعم أبو عبيدة معمر بن المثنى وخليفة بن خياط أن ذلك كان في سنة ثلاث فالله أعلم قال البخاري حدثنا محمد بن عبد الله الرقاشي حدثنا معتمر بن سليمان سمعت أبي حدثنا أبو مجلز عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام ، فلما قام ، قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل فإذا القوم جلوس ثم إنهم قاموا فانطلقوا فجئت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين

إناه ولكن إذا دعيتم فادخلو فإذا طعمتم فانتشروا) الآية وقد رواه أيضا فى موضع آخر ، ومسلم والنسائى من طرق عن معتمر بن سليمان به ثم رواه البخارى منفردا به من حديث أيوب عن أبى قلابة عن أنس رضى الله عنه بنحوه ثم قال حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك قال : بنى النبى صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش بخبز ولحم فأرسلت على الطعام داعيا فيجىء قوم فيأكلون ويخرجون ثم يجىء قوم فيأكلون ويخرجون فدعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه فقلت يا رسول الله ماأجد أحداأدعوه قال «ارفعواطعامكم» وبقى ثلاثة رهط يتحدثون فى البيت فخرج النبى صلى الله عليه وسلم فانطلق إلى حجرة عائشة رضى الله عنها فقال « السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته » قالت وعليك السلام ورحمة الله كيف وجدت أهلك يارسول الله بارك الله لك؟ فتقرى حجرنسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة ويقلن له كما قالت عائشة ، ثم رجع النبى صلى الله عليه وسلم فإذا ثلاثة رهط فى البيت يتحدثون وكان النبى صلى الله عليه وسلم شديد الحياء فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة فما أدرى أخبرته أم أخبر أن القوم خرجوا فرجع حتى إذا وضع رجله فى أسكفة الباب داخله والأخرى خارجه أرخى الستر بينى وبينه وأنزلت آية الحجاب . انفرد به البخارى من بين أصحاب الكتب الستة سوى النسائى فى اليوم والليلة من حديث عبد الوارث ثم رواه عن إسحاق هو ابن منصور عن عبد الله بن بكير السهمى عن حميد عن أنس بنحو ذلك وقال رجلان انفرد به من هذا الوجه وقد تقدم فى افراد مسلم من حديث سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو المظفر حدثنا جعفر بن سليمان عن الجعد أبى عثمان اليشكرى عن أنس بن مالك قال أعرس رسول الله ﷺ ببعض نسائه فصنعت أم سليم حيسا ثم جعلته فى تور فقالت اذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقرئه منى السلام وأخبره أن هذا منا له قليل قال أنس : والناس يومئذ فى جهد فجئت به فقلت يارسول الله بعثت بهذا أم سليم إليك وهى تقرئك السلام وتقول أخبره أن هذا منا له قليل فنظر إليه ثم قال « ضعه » فوضعته فى ناحية البيت ثم قال « اذهب فادع لى فلانا وفلانا » فسمى رجالا كثيرا وقال « ومن لقيت من المسلمين » فدعوت من قال لى ومن لقيت من المسلمين فجئت والبيت والصفة والحجرة ملأى من الناس فقلت يا أبا عثمان كم كانوا ؟ فقال كانوا زهاء ثلاثمائة قال أنس فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « جىء به » فجئت به إليه فوضع يده عليه ودعا وقال « ما شاء الله » ثم قال « ليتحلق عشرة عشرة وليسموا وليأكل كل إنسان مما يليه » فجعلوا يسمون ويأكلون حتى أكلوا كلهم فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « ارفعه » قال فجئت فأخذت التور فنظرت فيه فما أدرى أهو حين وضعت أكثر أم حين أخذت قال وتخلف رجال يتحدثون فى بيت رسول الله ﷺ وزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم التى دخل بها معهم مولية وجهها إلى الحائط فأطالوا الحديث فشقوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أشد الناس حياء ، ولو أعلموا كان ذلك عليهم عزيزاً فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم على حجره وعلى نسائه فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه ابتدروا الباب فخرجوا وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أرخى الستر ودخل البيت وأنا فى الحجرة فمكث رسول الله ﷺ فى بيته يسيراً وأنزل الله عليه القرآن فخرج وهو يتلوا هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى) الآيات قال أنس فقرأهن على قبل الناس فأنا أحدث الناس بهن عهداً ، وقد رواه مسلم والترمذى والنسائى جميعا عن قتيبة عن جعفر بن سليمان به ، وقال الترمذى حسن صحيح وعلقه البخارى فى كتاب النكاح فقال : وقال إبراهيم بن طهمان عن الجعد أبى عثمان عن أنس فذكر نحوه ، ورواه مسلم أيضا عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق عن معمر عن الجعد به ، وقد روى هذا الحديث عبد الله بن المبارك عن شريك عن بيان بن بشر عن أنس بنحوه ، وروا البخارى والترمذى من طريقين آخرين عن بيان بن بشر الأحمسى الكوفى عن أنس بنحوه ، ورواه ابن أبى حاتم أيضا من حديث أبى نضرة العبدى عن أنس بن مالك بنحو ذلك ولم يخرجوه ، ورواه ابن جرير من حديث عمرو بن سعيد ومن حديث الزهرى عن أنس بنحو ذلك ، وقال الإمام أحمد حدثنا بهز وهاشم بن القاسم قالا حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال لما انقضت عدة زينب قال رسول الله

ﷺ لزيد « اذهب فاذكرها على » قال فانطلق زيد حتى أتاها ـ قال ـ وهى تخمر عجينها فلما رأيتها عظمت فى صدرى ، وذكر تمام الحديث كما قدمناه عند قوله تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا) وزاد فى آخره بعد قوله : ووعظ القوم بما وعظوا به . قال هاشم فى حديثه (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) الآية. وقد أخرجه مسلم والنسائى من حديث جعفر بن سليمان به . وقال ابن جرير حدثنى أحمد بن عبد الرحمن بن أخى ابن وهب حدثنى عمى عبد الله بن وهب حدثنى يونس عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع ـ وهو صعيد أفيح ـ وكان عمر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : احجب نساءك فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة طويلة فناداها عمر بصوته الأعلى : قد عرفناك يا سودة حرصا على أن ينزل الحجاب قالت فأنزل الله الحجاب . هكذا وقع فى هذه الرواية ، والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب كما رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها فرآها عمر بن الخطاب فقال يا سودة أما والله ما تخفين علينا فانظرى كيف تخرجين. قالت فانكفأت راجعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتى وإنه ليتعشى وفى يده عرق فدخلت فقالت يا رسول الله إنى خرجت لبعض حاجتى فقال لى عمر كذا وكذا ، قالت فأوحى الله إليه ثم رفع عنه وإن العرق فى يده ما وضعه فقال « إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن » لفظ البخارى فقوله تعالى (لا تدخلوا بيوت النبي) حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن كما كانوا قبل ذلك يصنعون فى بيوتهم فى الجاهلية وابتداء الإسلام حتى غار الله لهذه الأمة فأمرهم بذلك وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ولهذا قال رسول الله ﷺ « إياكم والدخول على النساء » الحديث ثم استثنى من ذلك فقال تعالى (إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه) قال مجاهد وقتادة وغيرهما أى غير متحينين نضجه واستواءه أى لا ترقبوا الطعام إذا طبخ حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه وهذا دليل على تحريم التطفيل وهو الذى تسميه العرب الضيفن ، وقد صنف الخطيب البغدادى فى ذلك كتابا فى ذم الطفيليين وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها ، ثم قال تعالى (ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا) وفى صحيح مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرسا كان أو غيره » وأصله فى الصحيحين ، وفى الصحيح أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو دعيت إلى ذراع لأجبت ولو أهدى إلى كراع لقبلت ، فإذا فرغتم من الذى دعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل وانتشروا فى الأرض » ولهذا قال تعالى (ولا مستأنسين لحديث) أى كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ونسوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى (إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحيى منكم) وقيل المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به ، ولكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه عليه السلام حتى أنزل الله عليه النهى عن ذلك ولهذا قال تعالى (والله لا يستحيى من الحق) أى ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه ثم قال تعالى (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) أى وكما نهيتكم عن الدخول عليهن كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن أبى عمر حدثنا سفيان عن مسعر عن موسى بن أبى كثير عن مجاهد عن عائشة قالت كنت آكل مع النبي ﷺ حيسا فى قعب فمر عمر فدعاه فأكل فأصابت أصبعه أصبعى فقال حس أو أوه لو أطاع فيكن ما رأتكن عين فنزل الحجاب (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أى هذا الذى أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب وقوله تعالى (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم عند الله عظيما) قال ابن أبى حاتم حدثنا على ابن الحسين حدثنا محمد بن أبى حماد حدثنا مهران عن سفيان عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) قال نزلت فى رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم بعده

قال رجل لسفيان: أهي عائشة؟ قال قد ذكروا ذلك وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذكر بسنده عن السدي أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبد الله رضي الله عنه حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك، ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفى عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين مأخذهما هل دخلت هذه في عموم قوله (من بعده) أم لا فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها فما نعلم في حلها لغيره والحالة هذه نزاعا والله أعلم، وقال ابن جرير حدثني محمد بن المثنى حدثنا عبد الوهاب حدثنا داود عن عامر أن نبي الله ﷺ مات وقد ملك قيلة ابنة الأشعث - يعني ابن قيس - فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك فشق ذلك على أبي بكر مشقة شديدة فقال له عمر يا خليفة رسول الله إنها ليست من نسائه إنها لم يخيرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يحجبها وقد برأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها، قال فاطمأن أبو بكر رضي الله عنه وسكن، وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك وشدد فيه وتوعد عليه بقوله (إن ذلكم كان عند الله عظيما) ثم قال تعالى (إن تبدوا شيئا أو تخفوه فان الله كان بكل شيء عليما) أي مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم، فإن الله يعلمه فانه لا تخفى عليه خافية (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور)

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾

لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم كما استثناهم في سورة النور عند قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من رجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) وفيها زيادات على هذه وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته ههنا. وقد سأل بعض السلف فقال: لم لم يذكر العم والخال في هاتين الآيتين؟ فأجاب عكرمة والشعبي بأنهما لم يذكرا لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما، قال ابن جرير حدثني محمد بن المثنى حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد حدثنا داود عن الشعبي وعكرمة في قوله تعالى (لا جناح عليهن في آبائهن) الآية قلت ما شأن العم والخال لم يذكرا؟ قال لأنهما ينعتانها لأبنائهما وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها. وقوله تعالى (ولا نسائهن) يعني بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات، وقوله تعالى (وما ملكت أيمانهن) يعني به أرقاءهن من الذكور والإناث كما تقدم التنبيه عليه، وإيراد الحديث فيه قال سعيد بن المسيب إنما يعني به الإماء فقط رواه ابن أبي حاتم وقوله تعالى (واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا) أي واخشينه في الخلوة والعلانية فانه شهيد على كل شيء لا تخفى عليه خافية فراقبن الرقيب

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾

قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء، وقال ابن عباس: يصلون يبركون هكذا علقه البخاري عنهما؟ وقد رواه أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية كذلك وروى مثله عن الربيع أيضا وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كما قاله سواء، رواهما ابن أبي حاتم، وقال أبو عيسى الترمذي وروى عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا: صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار ثم قال ابن أبي حاتم حدثنا عمرو الأودي حدثنا وكيع عن الأعمش عن عمرو بن مرة قال الأعمش أراه عن عطاء بن أبي رباح (إن الله وملائكته يصلون على النبي) قال: صلاته تبارك وتعالى سبوح قدوس سبقت رحمتي

غضبى . والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده فى الملأ الأعلى بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلى عليه ثم أمر تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعا ، وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا أحمد بن عبدالرحمن حدثنى أبى عن أبيه عن أشعث بن إسحق عن جعفر يعنى ابن المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن بنى إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام هل يصلى ربك ؟ فناداه ربه عز وجل : يا موسى سألوك هل يصلى ربك فقل نعم أنا أصلى وملائكتى على أنبيائى ورسلى ، فأنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم (إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) . وقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه يصلى على عباده المؤمنين فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ✽ وسبحوه بكرة وأصيلا ✽ هو الذى يصلى عليكم وملائكته) الآية وقال تعالى (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ✽ أولئك عليهم صلوات من ربهم) الآية ، وفى الحديث « إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف » ، وفى الحديث الآخر « اللهم صل على آل أبى أوفى » وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر وقد سألته أن يصلى عليها وعلى زوجها : « صلى الله عليك وعلى زوجك » ، وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ونحن نذكر منها إن شاء الله ما تيسر والله المستعان ، قال البخارى عند تفسير هذه الآية حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد أخبرنا أبى عن مسعر عن الحكم عن ابن أبى ليلى عن كعب بن عجرة قال : قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف الصلاة ؟ قال « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد »

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن الحكم قال : سمعت ابن أبى ليلى قال لقينى كعب بن عجرة فقال ألا أهدى لك هدية ! خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا يا رسول الله قد علمنا أو عرفنا كيف السلام عليك فكيف الصلاة ؟ فقال « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ؛ اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة فى كتبهم من طرق متعددة عن الحكم وهو ابن عتيبة زاد البخارى وعبد الله بن عيسى كلاهما عن عبدالرحمن بن أبى ليلى فذكرهم . وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا هشيم بن بشير عن يزيد بن أبى زياد حدثنا عبدالرحمن بن أبى ليلى عن كعب بن عجرة قال لما نزلت (إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) قال : قلنا يارسول الله قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك ؟ قال « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » وكان عبد الرحمن بن أبى ليلى يقول وعلينا معهم، ورواه الترمذى بهذه الزيادة ومعنى قولهم أما السلام عليك فقد عرفناه هو الذى فى التشهد الذى كان يعلمهم إياه كما كان يعلمهم السورة من القرآن وفيه السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ﴿ حديث آخر ﴾ قال البخارى حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا الليث عن ابن الهاد عن عبد الله بن خباب عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قلنا يا رسول الله هذا السلام عليك فكيف نصلى عليك قال « قولوا اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم » قال أبو صالح عن الليث : على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم . حدثنا إبراهيم بن حمزة حدثنا ابن أبى حازم والدراوردى عن يزيد يعنى ابن الهاد قال : كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم . وأخرجه النسائى وابن ماجه من حديث ابن الهاد به . ﴿ حديث آخر ﴾ قال الإمام أحمد قرأت على عبدالرحمن مالك عن عبد الله بن أبى بكر عن أبيه عن عمرو بن سليم أنه قال أخبرنى أبو حميد الساعدى أنهم قالوا يارسول الله كيف نصلى عليك قال « قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته

كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » وقد أخرجه بقية الجماعة سوى الترمذى من حديث مالك به .

﴿ حديث آخر ﴾ قال مسلم حدثنا يحيى بن يحيى التميمى قال : قرأت على مالك عن نعيم بن عبد الله المجمر أخبرنى محمد بن عبد الله بن زيد الأنصارى قال : وعبد الله بن زيد هو الذى كان أرى النداء بالصلاة أخبره عن أبى مسعود الأنصارى قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى مجلس سعد بن عبادة فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله فكيف نصلى عليك ؟ قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تمنينا أنه لم يسأله ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم » وقد رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن جرير من حديث مالك به وقال الترمذى حسن صحيح وروى الإمام أحمد وأبوداود والنسائى وابن خزيمة وابن حبان والحاكم فى مستدركه من حديث محمد بن إسحق عن محمد بن إبراهيم التيمى عن محمد بن عبدالله بن زيد بن عبدربه عن أبى مسعود البدرى أنهم قالوا يا رسول الله أما السلام فقد عرفناه فكيف نصلى عليك إذا نحن صلينا فى صلاتنا فقال « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » وذكره ورواه الشافعى رحمه الله فى مسنده عن أبى هريرة بمثله ، ومن ههنا ذهب الشافعى رحمه الله إلى أن يجب على المصلى أن يصلى على رسول الله ﷺ فى التشهد الأخير فان تركه لم تصح صلاته ، وقد شرع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يشنع على الإمام الشافعى فى اشتراطه ذلك فى الصلاة ويزعم أنه قد تفرد بذلك ، وحكى الاجماع على خلافه أبو جعفر الطبرى والطحاوى والخطابى وغيرهم فيما نقله القاضى عياض عنهم ، وقد تعسف هذا القائل فى رده على الشافعى وتكلف فى دعواه الاجماع فى ذلك وقال مالم يحط به علما فانا قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ فى الصلاة كما هو ظاهر الآية ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود وأبو مسعود البدرى وجابر بن عبد الله ، ومن التابعين الشعبى وأبو جعفر الباقر ومقاتل بن حيان وإليه ذهب الشافعى لا خلاف عنه فى ذلك ولا بين أصحابه أيضاً ، وإليه ذهب الإمام أحمد أخيرا فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقى به ، وبه قال إسحق بن راهويه والفقيه الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز المالكى رحمهم الله حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال فى الصلاة عليه ﷺ كما علمهم أن يقولوا لما سألوه وحتى إن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على آله فيما حكاه البندنيجى وسليم الرازى وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدسى ، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالى قولا عن الشافعى . والصحيح أنه وجه ، على أن الجمهور على خلافه وحكموا الاجماع على خلافه وللقول بوجوبه ظواهر الحديث والله أعلم . والغرض أن الشافعى رحمه الله يقول بوجوب الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى الصلاة سلفا وخلفا كما تقدم ولله الحمد والمنة فلا اجماع على خلافه فى هذه المسئلة لا قديما ولا حديثا والله أعلم .

ومما يؤيد ذلك الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وصححه ، والنسائى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما من رواية حيوة بن شريح المصرى عن أبى هانىء حميد بن هانىء عن عمرو بن مالك أبى على الحسينى عن فضالة ابن عبيد رضى الله عنه قال سمع رسول الله ﷺ رجلا يدعو فى صلاته لم يمجد الله ولم يصل على النبى فقال رسول الله ﷺ « عجل هذا » ثم دعاه فقال له أو لغيره « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد الله عز وجل والثناء عليه ثم ليصل على النبى ثم ليدع بعد بما شاء » وكذا الحديث الذى رواه ابن ماجه من رواية عبد المهيمن ابن عباس بن سهل بن سعد الساعدى عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا صلاة لمن لا وضوء له ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه . ولا صلاة لمن لم يصل على النبى ، ولا صلاة لمن لم يحب الأنصار » ولكن عبد المهيمن هذا متروك وقد رواه الطبرانى من رواية أخيه أبى بن عباس ولكن فى ذلك نظر وإنما يعرف من رواية عبد المهيمن والله أعلم .

﴿ حديث آخر ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا إسماعيل عن أبى داود الأعمى عن بريدة قال : قلنا

يارسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك ؟ قال ؟ « قولوا اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد كما جعلتها على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد » أبوداود الأعمى اسمه نفيع بن الحارث متروك

﴿حديث آخر﴾ موقوف رويناه من طريق سعيد بن منصور ويزيد بن هارون وزيد بن الحباب ثلاثتهم عن نوح بن قيس حدثنا سلامة الكندي أن عليا رضي الله عنه كان يعلم الناس هذا الدعاء اللهم داحي المدحوات ، وبارئ المسموكات وجبار القلوب على فطرتها شقيها وسعيدها ، اجعل شرائف صلواتك ، ونوامي بركاتك ، ورأفة تحننك ، على محمد عبدك ورسولك الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، والمعلن الحق بالحق ، والدامغ لجيشات الأباطيل ، كما حمل فاضطلع بأمرك بطاعتك ، مستوفزا في مرضاتك غير نكل في قدم ، ولا وهن في عزم ، واعيا لوحيك ، حافظا لعهدك ، ماضيا على نفاذ أمرك حتى أورى قبسا لقابس ، آلاء الله تصل بأهله أسبابه ، به هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم ، وأبهج موضحات الأعلام ، ونائرات الأحكام ، ومنيرات الإسلام ، فهو أمينك المأمون ، وخازن علمك المخزون ، وشهيدك يوم الدين ، وبعيثك نعمة ، ورسولك بالحق رحمة ، اللهم افسح له في عدنك واجزه مضاعفات الخير من فضلك ، مهنآت له غير مكدرات ، من فوز ثوابك المحلول وجزيل عطائك المعلول ، اللهم أعل على بناء الناس بناءه وأكرم مثواه لديك ونزله ، وأتمم له نوره واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة ، مرضي المقالة ذا منطق عدل ، وخطة فصل ، وحجة وبرهان عظيم . هذا مشهور من كلام علي رضي الله عنه وقد تكلم عليه ابن قتيبة في مشكل الحديث وكذا أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوي في جزء جمعه في فضل الصلاة على النبي ﷺ إلا أن في إسناده نظرا . قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي : سلامة الكندي هذا ليس بمعروف ولم يدرك عليا . كذا قال وقد روى الحافظ أبو القاسم الطبراني هذا الأثر عن محمد بن علي الصائغ عن سعيد بن منصور حدثنا نوح بن قيس عن سلامة الكندي قال كان علي رضي الله عنه يعلمنا الصلاة على النبي ﷺ فيقول اللهم داحي المدحوات وذكره

﴿حديث آخر﴾ قال ابن ماجه حدثنا زياد بن عبدالله حدثنا المسعودي عن عون بن عبدالله عن أبي فاختة عن الأسود ابن يزيد عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال إذا صليتم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسنوا الصلاة عليه فإنكم لاتدرون لعل ذلك يعرض عليه قال فقالوا له علمنا ، قال قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركتك على سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وخاتم النبيين ، محمد عبدك ورسولك ، إمام الخير وقائد الخير ، ورسول الرحمة . اللهم ابعثه مقاماً محمودا يغبطه به الأولون والآخرون ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وهذا موقوف ؛ وقد روى إسماعيل القاضي عن عبدالله بن عمرو أو عمر على الشك من الراوي قريباً من هذا ؛ ﴿حديث آخر﴾ قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا أبو إسرائيل عن يونس بن خباب قال خطبنا بفارس فقال (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) فقال أنبأني من سمع ابن عباس يقول هكذا أنزل فقلنا أو قالوا يارسول الله علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك قال « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وارحم محمداً وآل محمد كما رحمت آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد » فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي صلى الله عليه وسلم كما هو قول الجمهور ويعضده حديث الأعرابي الذي قال: اللهم ارحمني ومحمداً ولاترحم معنا أحداً فقال رسول الله ﷺ « لقد حجرت واسعاً » وحكى القاضي عياض عن جمهور المالكية منعه قال وأجازه أبو محمد بن أبي زيد ،

﴿حديث آخر﴾ قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر أخبرنا شعبة عن عاصم بن عبيدالله قال سمعت عبدالله بن عامر بن ربيعة يحدث عن أبيه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « من صلى علي صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ماصلى علي فليقل عبد من ذلك أو ليكثر » ورواه ابن ماجه من حديث شعبة به .

﴿ حديث آخر ﴾ قال أبو عيسى الترمذي حدثنا بندار حدثنا محمد بن خالد بن عثمة حدثني موسى بن يعقوب الزمعي حدثني عبد الله بن كيسان أن عبد الله بن شداد أخبره عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة » تفرد بروايته الترمذي رحمه الله ثم قال هذا حديث حسن غريب ﴿ حديث آخر ﴾ قال إسماعيل القاضي حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان عن يعقوب بن زيد بن طلحة قال : قال رسول الله ﷺ « أتاني آت من ربي فقال لي مامن عبد يصلي عليك صلاة إلا صلى الله عليه بها عشراً » فقام اليه رجل فقال يارسول الله ألا أجعل نصف دعائي لك ؟ قال « إن شئت » قال ألا أجعل ثلثي دعائي لك ؟ قال « إن شئت » قال ألا أجعل دعائي لك كله قال « إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة » فقال شيخ كان بمكة يقال له منيع لسفيان عمن أسنده قال لاأدري ﴿ حديث آخر ﴾ قال إسماعيل القاضي حدثنا سعيد بن سلام العطار حدثنا سفيان الثوري عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج في جوف الليل فيقول « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه » فقال أبي يارسول الله إني أصلي من الليل أفأجعل لك ثلث صلاتي ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الشطر » قال أفأجعل لك شطر صلاتي ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الثلثان » قال أفأجعل لك صلاتي كلها قال « إذن يغفر لك الله ذنبك كله » وقد رواه الترمذي بنحوه فقال حدثنا هناد حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال « يا أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه » قال أبي قلت يارسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال « ماشئت » قلت الربع قال « ماشئت فان زدت فهو خير لك » قلت فالنصف قال « ماشئت فان زدت فهو خير لك » قلت فالثلثين قال « ماشئت فان زدت فهو خير لك » قلت أجعل لك صلاتي كلها قال « إذن تكفى همك ويغفر لك ذنبك » ثم قال هذا حديث حسن . وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن عبد الله ابن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي عن أبيه قال : قال رجل يارسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك ؟ قال « إذن يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك » ﴿ حديث آخر ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا أبو سلمة منصور بن سلمة الخزاعي ويونس هو ابن محمد قالا حدثنا ليث عن يزيد بن الهاد عن عمرو بن أبي عمرو عن أبي الحويرث عن محمد بن جبير بن مطعم عن عبد الرحمن بن عوف قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعته حتى دخل نخلا فسجد فأطال السجود حتى خفت أو خشيت أن يكون قد توفاه الله أو قبضه : قال فجئت أنظر فرفع رأسه فقال « مالك ياعبد الرحمن ؟ » قال فذكرت ذلك له فقال « إن جبريل عليه السلام قال لي ألا أبشرك إن الله عز وجل يقول من صلى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت عليه » ﴿ طريق أخرى ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا سليمان بن بلال حدثنا عمرو بن أبي عمرو عن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف عن عبد الرحمن بن عوف قال : قام رسول الله ﷺ فتوجه نحو صدقته فدخل فاستقبل القبلة فخر ساجدا فأطال السجود حتى ظننت أن الله قد قبض نفسه فيها فدنوت منه ثم جلست فرفع رأسه فقال « من هذا » قلت عبد الرحمن قال « ماشأنك » قلت يارسول الله سجدت سجدة خشيت أن يكون الله قبض روحك فيها فقال « إن جبريل أتاني فبشرني أن الله عز وجل يقول لك من صلى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت عليه فسجدت لله عز وجل شكرا » ورواه إسماعيل بن إسحق القاضي في كتابه عن يحيى بن عبد الحميد عن الدراوردي عن عمرو بن عبد الواحد عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف به ، ورواه من وجه آخر عن عبد الرحمن ﴿ حديث آخر ﴾ قال أبو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن عبد الرحيم بن بجير بن عبد الله بن معاوية بن بجير بن ريان حدثنا يحيى بن أيوب حدثني عبيد الله بن عمر عن الحكم بن عتيبة عن إبراهيم النخعي عن الأسود بن يزيد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال خرج رسول الله ﷺ لحاجة فلم يجد أحداً يتبعه ففزع عمر فأتاه بمطهرة من خلفه فوجد النبي ﷺ ساجدا في مشربة فتنحى عنه من خلفه حتى رفع النبي صلى الله عليه وسلم رأسه فقال « أحسنت ياعمر حين وجدتني

ساجدا فتنحيت عنى إن جبريل أتانى فقال من صلى عليك من أمتك واحدة صلى الله عليه عشر صلوات ورفعه عشر درجات » وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه المستخرج على الصحيحين ، وقد رواه إسماعيل القاضى عن القعنبى عن سلمة بن وردان عن أنس عن عمر بنحوه ، ورواه أيضا عن يعقوب بن حميد عن أنس بن عياض عن سلمة بن وردان عن مالك بن أوس بن الحدثان عن عمر بن الخطاب بنحوه ﴿ حديث آخر ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا أبو كامل حدثنا حماد ابن سلمة عن ثابت بن سليمان مولى الحسن بن على عن عبد الله بن أبى طلحة عن أبيه أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى فى وجهه فقالوا يا رسول الله إنا لنرى السرور فى وجهك فقال « إنه أتانى الملك فقال يا محمد أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول إنه لا يصلى عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً ، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً ؟ قلت : بلى » ورواه النسائى من حديث حماد بن سلمة به ؛ وقد رواه إسماعيل القاضى عن إسماعيل بن أبى أويس عن أخيه عن سليمان بن بلال عن عبيد الله بن عمر عن ثابت عن أنس عن أبى طلحة بنحوه ﴿ طريق أخرى ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا شريح حدثنا أبو معشر عن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبى طلحة الأنصارى قال أصبح رسول الله ﷺ يوما طيب النفس يرى فى وجهه البشر قالوا يا رسول الله أصبحت اليوم طيب النفس يرى فى وجهك البشر قال « أجل أتانى آت من ربى عز وجل فقال من صلى عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات ؛ ومحا عنه عشر سيئات . ورفع له عشر درجات ، ورد عليه مثلها » وهذا أيضا إسناد جيد ولم يخرجوه . ﴿ حديث آخر ﴾ روى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث إسماعيل بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى على واحدة صلى الله عليه بها عشراً » قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح وفى الباب عن عبد الرحمن بن عوف وعامر بن ربيعة وعمار وأبى طلحة وأنس وأبى بن كعب ، وقال الإمام أحمد حدثنا حسين ابن محمد حدثنا شريك عن ليث عن كعب عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « صلوا على فانها زكاة لكم وسلوا الله لى الوسيلة فانها درجة فى أعلا الجنة ولا ينالها إلا رجل ، وأرجو أن أكون أنا هو » تفرد به أحمد وقد رواه البزار من طريق مجاهد عن أبى هريرة بنحوه فقال حدثنا محمد بن إسحاق البكالى حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا داود بن علية عن ليث عن مجاهد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلوا على فانها زكاة لكم ، وسلوا الله لى الدرجة الوسيلة من الجنة » فسألناه أو أخبرنا فقال « هى درجة فى أعلى الجنة وهى لرجل وأرجو أن أكون ذلك الرجل » فى إسناده بعض من تكلم فيه ﴿ حديث آخر ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحاق حدثنا ابن لهيعة عن عبد الرحمن بن بريح الخولانى سمعت أبا قيس مولى عمرو بن العاص سمعت عبد الله بن عمرو يقول : من صلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة صلى الله عليه وملائكته لها سبعين صلاة ، فليقل عبد من ذلك أو ليكثر وسمعت عبدالله بن عمرو يقول خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما كالمودع فقال « أنا محمد النبى الأمى — قاله ثلاث مرات — ولا نبى بعدى ، أوتيت فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه ، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش وتجوز بى عوفيت وعوفيت أمتى ، فاسمعوا وأطيعوا مادمت فيكم ، فإذا ذهب بى فعليكم بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه :

﴿ حديث آخر ﴾ قال أبو داود الطيالسى حدثنا أبو سلمه الخراسانى حدثنا أبو إسحاق عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ذكرت عنده فليصل على ومن صلى على مرة واحد صلى الله عليه عشراً » ورواه النسائى فى اليوم والليلة من حديث أبى داود الطيالسى عن أبى سلمة وهو المغيرة بن مسلم الخراسانى عن أبى إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعى عن أنس به ﴿ حديث آخر ﴾ عن أنس قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن فضيل حدثنا يونس بن عمرو عن يونس بن أبى إسحاق عن يزيد بن أبى مريم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه عشر خطيئات » ﴿ حديث آخر ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا عبد الملك ابن عمرو وأبو سعيد حدثنا سليمان بن بلال عن عمارة بن غزية عن عبد الله بن على بن الحسين عن أبيه على بن الحسين

عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل على » وقال أبو سعيد « فلم يصل على » ورواه الترمذي من حديث سليمان بن بلال ثم قال هذا حديث حسن غريب صحيح ومن الرواة من جعله من مسند الحسين بن على ومنهم من جعله من مسند على نفسه

﴿ حديث آخر ﴾ قال إسماعيل القاضي حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد بن سلمة عن معبد بن هلال العنزي حدثنا رجل من أهل دمشق عن عوف بن مالك عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أبخل الناس من ذكرت عنده فلم يصل على » ﴿ حديث آخر ﴾ مرسل قال إسماعيل وحدثنا سليمان بن حرب حدثنا جرير بن حازم سمعت الحسن يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بحسب امرىء من البخل أن أذكر عنده فلا يصلي على »

﴿ حديث آخر ﴾ قال الترمذي حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا ربعي بن إبراهيم عن عبد الرحمن بن إسحاق عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة » ثم قال حسن غريب . قلت وقد رواه البخاري في الأدب عن محمد بن عبيد الله حدثنا ابن أبي حازم عن كثير بن زيد عن الوليد بن رباح عن أبي هريرة مرفوعا بنحوه ، ورويناه من حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة به قال الترمذي وفي الباب عن جابر وأنس قلت وابن عباس وكعب بن عجرة وقد ذكرت طرق هذا الحديث في أول كتاب الصيام عند قوله (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) وهذا الحديث والذي قبله دليل على وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكر وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوي والحليمي ويتقوى بالحديث الآخر الذي رواه ابن ماجه حدثنا جبارة بن المغلس حدثنا حماد بن زيد حدثنا عمرو بن دينار عن جابر بن زيد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من نسي الصلاة على أخطأ طريق الجنة » جبارة ضعيف ولكن رواه إسماعيل القاضي من غير وجه عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من نسي الصلاة على أخطأ طريق الجنة » وهذا مرسل يتقوى بالذي قبله والله أعلم . وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة عليه في المجلس مرة واحدة ثم لا تجب في بقية ذلك المجلس بل تستحب نقله الترمذي عن بعضهم ويتأيد بالحديث الذي رواه الترمذي حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة يوم القيامة فان شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم » تفرد به الترمذي من هذا الوجه ورواه الإمام أحمد عن حجاج ويزيد بن هارون كلاهما عن ابن أبي ذئب عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة مرفوعا مثله ثم قال الترمذي هذا حديث حسن

وقد روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ من غير وجه وقد رواه إسماعيل القاضي من حديث شعبة عن سليمان عن ذكوان عن أبي سعيد قال « ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبي ﷺ إلا كان عليهم يوم القيامة حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب » وحكي عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه — عليه الصلاة والسلام — في العمر مرة واحدة امتثالا لأمر الآية . ثم هي مستحبة في كل حال وهذا هو الذي نصره القاضي عياض بعدما حكى الاجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ في الجملة . قال وقد حكى الطبري أن محمل الآية على الندب وادعى فيه الاجماع قال ولعله فيما زاد على المرة والواجب فيه مرة كالشهادة له بالنبوة وما زاد على ذلك فمندوب ومرغب فيه من سنن الإسلام وشعار أهله [قلت] وهذا قول غريب فانه قد ورد الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة فمنها واجب ومنها مستحب على ما نبينه . فمنه بعد النداء للصلاة للحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا حيوة حدثنا كعب بن علقمة أنه سمع عبد الرحمن بن جبير يقول إنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص يقول إنه سمع رسول الله ﷺ يقول « إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فانه من صلى على صلى الله عليه بها

عشرا ثم سلوا الله لى الوسيلة فانها منزلة فى الجنة لاتنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » وأخرجه مسلم وأبوداود والترمذى والنسائى من حديث كعب بن علقمة ﴿ طريق أخرى ﴾ قال إسماعيل القاضى حدثنا محمد بن أبى بكر حدثنا عمرو بن على عن أبى بكر الجشمى عن صفوان بن سليم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « من سأل الله لى الوسيلة حقت عليه شفاعتى يوم القيامة » .

﴿ حديث آخر ﴾ قال إسماعيل القاضى حدثنا سليمان بن حرب حدثنا سعيد بن زيد عن ليث عن كعب هو كعب الأحبار عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « صلوا على فان صلاتكم على زكاة لكم وسلوا الله لى الوسيلة » قال فإما حدثنا وإما سألناه قال « الوسيلة أعلى درجة فى الجنة لاينالها إلا رجل وأرجو أن أكون أنا ذلك الرجل » ثم رواه عن محمد بن أبى بكر عن معتمر عن ليث وهو ابن أبى سليم به وكذا الحديث الآخر . قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا بكر بن سوادة عن زياد بن نعيم عن ورقاء الحضرمى عن رويفع بن ثابت الأنصارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من صلى على محمد وقال اللهم أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتى » وهذا إسناد لابأس به ولم يخرجوه ﴿ أثر حسن ﴾ قال إسماعيل القاضى حدثنا على بن عبد الله حدثنا سفيان حدثنى معمر عن ابن طاوس عن أبيه سمعت ابن عباس يقول : اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى وارفع درجته العليا ، وأعطه سؤله فى الآخرة والأولى كما آتيت إبراهيم وموسى عليهما السلام . إسناد جيد قوى صحيح .

ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه للحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا ليث بن أبى سليم عن عبد الله بن الحسن عن أمه فاطمة بنت الحسين عن جدته فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال « اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك ، وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال « اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك » وقال إسماعيل القاضى حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا سفيان بن عمرو التميمى عن سليمان الضبى عن على بن الحسين قال ، قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : إذا مررتم بالمساجد فصلوا على النبى صلى الله عليه وسلم . وأما الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم فى الصلاة فقد قدمنا الكلام عليها فى التشهد الأخير ومذهب إلى ذلك من العلماء منهم الشافعى رحمه الله وأكرمه، وأحمد ، وأما التشهد الأول فلا تجب فيه قولا واحدا وهل تستحب ؟ على قولين للشافعى ومن ذلك الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم فى صلاة الجنازة فان السنة أن يقرأ فى التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ، وفى الثانية أن يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وفى الثالثة يدعو للميت وفى الرابعة يقول اللهم لاتحرمنا أجره ولا تفتنا بعده قال الشافعى رحمه الله: حدثنا مطرف بن مازن عن معمر عن الزهرى أخبرنى أبو أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أن السنة فى الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا فى نفسه ثم يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ويخلص الدعاء للجنازة وفى التكبيرات لايقرأ فى شىء منها ثم يسلم سرا فى نفسه . ورواه النسائى عن أبى أمامة نفسه أنه قال من السنة فذكره ، وهذا من الصحابى فى حكم المرفوع على الصحيح . ورواه إسماعيل القاضى عن محمد بن المثنى عن عبد الأعلى عن معمر عن الزهرى عن أبى أمامة بن سهل عن سعيد بن المسيب أنه قال: السنة فى الصلاة على الجنازة فذكره . وهكذا روى عن أبى هريرة وابن عمر والشعبى ومن ذلك فى صلاة العيد قال إسماعيل القاضى حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا هشام الدستوائى حدثنا حماد بن أبى سليمان عن إبراهيم عن علقمة أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يوما قبل العيد فقال لهم إن هذا العيد قد دنا فكيف التكبير فيه ؟ قال عبد الله تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة وتحمد ربك وتصلى على النبى ﷺ ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع ، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك ثم تركع فقال حذيفة وأبو موسى: صدق أبو عبد الرحمن إسناد صحيح ، ومن ذلك أنه يستحب ختم الدعاء بالصلاة عليه صلى الله عليه

وسلم قال الترمذى حدثنا أبوداود حدثنا النضر بن شميل عن أبى قرة الأسدى عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب قال : الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلى على نبيك وكذا رواه أيوب بن موسى عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب . ورواه معاذ بن الحارث عن أبى قرة عن سعيد بن المسيب عن عمر مرفوعا ، وكذا رواه رزين ابن معاويه فى كتابه مرفوعا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد حتى يصلى على فلا تجعلونى كغمر الراكب صلوا على أول الدعاء وآخره وأوسطه » وهذه الزيادة إنما تروى من رواية جابر ابن عبدالله فى مسند الإمام عبد بن حميد الكشى حيث قال : حدثنا جعفر بن عون أخبرنا موسى بن عبيدة عن إبراهيم ابن محمد بن إبراهيم عن أبيه قال : قال جابر قال لنا رسول الله ﷺ « لا تجعلونى كقدح الراكب إذا علق تعاليقه أخذ قدحه فملأه من الماء فان كان له حاجة فى الوضوء توضأ ، وإن كان له حاجة فى الشرب شرب وإلا هراق مافيه اجعلونى فى أول الدعاء وفى وسط الدعاء وفى آخر الدعاء » وهذا حديث غريب وموسى بن عبيدة ضعيف الحديث ، ومن آكد ذلك دعاء القنوت لما رواه أحمد وأهل السنن وابن خزيمة وابن حبان والحاكم من حديث أبى الجوزاء عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن فى الوتر اللهم اهدنى فيمن هديت . وعافنى فيمن عافيت . وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت . وقنى شر ما قضيت . فإنك تقضى ولا يقضى عليك . إنه لا يذل من واليت . ولا يعز من عاديت . تباركت ربنا وتعاليت . وزاد النسائى فى سننه بعد هذا وصلى الله على محمد . ومن ذلك أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة . قال الإمام أحمد حدثنا حسين بن على الجعفى عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبى الأشعث الصنعانى عن أوس بن أوس الثقفى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض ، وفيه النفخة ؛ وفيه الصعقة فأكثروا على من الصلاة فيه فان صلاتكم معروضة على » قالوا يارسول الله وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت ؟ يعنى وقد بليت ، قال « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » ورواه أبوداود والنسائى وابن ماجه من حديث حسين بن على الجعفى وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطنى والنووى فى الأذكار ﴿ حديث آخر ﴾ قال أبو عبد الله بن ماجه حدثنا عمرو بن سواد المصرى حدثنا عبدالله بن وهب عن عمرو ابن الحارث عن سعيد بن أبى هلال عن زيد بن أيمن عن عبادة بن نسى عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ « أكثروا الصلاة على يوم الجمعة فانه مشهود تشهده الملائكة وإن أحدا لن يصلى على فيه إلا عرضت على صلاته حتى يفرغ منها » قال قلت وبعد الموت ؟ « قال إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء فنبى الله حى يرزق » هذا حديث غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع بين عبادة بن نسى وأبى الدرداء فانه لم يدركه والله أعلم

وقد روى البيهقى من حديث أبى أمامة وابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة ولكن فى إسنادهما ضعف والله أعلم . وروى مرسلا عن الحسن البصرى فقال إسماعيل القاضى حدثنا سليمان بن حرب حدثنا جرير بن حازم سمعت الحسن البصرى يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تأكل الأرض جسد من كلمه روح القدس » مرسل حسن والنووى فى الأذكار[1] وقال القاضى وقال الشافعى أخبرنا إبراهيم بن محمد أخبرنا صفوان بن سليم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا كان يوم الجمعة وليلة الجمعة فأكثروا الصلاة على » هذا مرسل وهكذا يجب على الخطيب أن يصلى على النبى ﷺ يوم الجمعة على المنبر فى الخطبتين ولا تصح الخطبتان إلا بذلك لأنها عبادة . وذكر الله شرط فيها فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة هذا مذهب الشافعى وأحمد رحمهما الله ومن ذلك أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره صلى عليه وسلم قال أبوداود حدثنا ابن عوف هو محمد حدثنا المقرى حدثنا حيوة عن أبى صخر حميد بن زياد عن يزيد بن عبدالله ابن قسيط عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « ما منكم من أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام » تفرد به أبو داود وصححه النووى فى الأذكار . ثم قال أبوداود حدثنا أحمد بن صالح قال : قرأت

---

(١) كذا فى الأصل .

على عبد الله بن نافع أخبرنى ابن أبى ذئب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تجعلوا بيوتكم قبورا ولا تجعلوا قبرى عيدا ، وصلوا على فان صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم » تفرد به أبو داود أيضا ، وقد رواه الإمام أحمد عن شريح عن عبد الله بن نافع وهو الصائغ به وصححه النووى أيضا وقد روى من وجه آخر متصلا قال القاضى إسماعيل بن إسحق فى كتابه فضل الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم حدثنا إسماعيل بن أبى أويس حدثنا جعفر بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب عمن أخبره من أهل بيته عن على بن الحسين بن على أن رجلا كان يأتى كل غداة فيزور قبر النبى صلى الله عليه وسلم ويصلى عليه ويصنع من ذلك ما اشتهر عليه على بن الحسين فقال له على بن الحسين ما يحملك على هذا ؟ قال أحب السلام على النبى ﷺ فقال له على بن الحسين هل لك أن أحدثك حديثا عن أبى ؟ قال نعم فقال له على بن الحسين أخبرنى أبى عن جدى أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تجعلوا قبرى عيداً ولا تجعلوا بيوتكم قبورا وصلوا على وسلموا حيثما كنتم فتبلغنى صلاتكم وسلامكم » فى إسناده رجل مبهم لم يسم ، وقد روى من وجه آخر مرسلا قال عبد الرزاق فى مصنفه عن الثورى عن ابن عجلان عن رجل يقال له سهيل عن الحسن بن الحسن بن على قال رأى قوما عند القبر فنهاهم وقال إن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا تتخذوا قبرى عيدا ولا تتخذوا بيوتكم قبورا وصلوا على حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغنى » فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة فنهاهم . وقد روى أنه رأى رجلا ينتاب القبر فقال : يا هذا ما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء . أى الجميع يبلغه صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين ؛ وقال الطبرانى فى معجمه الكبير حدثنا أحمد بن رشدين المصرى حدثنا سعيد بن أبى مريم حدثنا محمد بن جعفر أخبرنى حميد بن أبى زينب عن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال « صلوا على حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغنى » ثم قال الطبرانى حدثنا العباس بن حمدان الأصبهانى حدثنا شعيب بن عبد الحميد الطحان أخبرنا يزيد بن هارون بن أبى شيبان عن الحكم بن عبد الله بن خطاب عن أم أنيس بنت الحسن بن على عن أبيها قال : قال رسول الله ﷺ « أرأيت قول الله عز وجل (إن الله وملائكته يصلون على النبى) — فقال — « إن هذا من المكتوم ولولا أنكم سألتمونى عنه ما أخبرتكم ، إن الله عز وجل وكل بى ملكين لا أذكر عند عبد مسلم فيصلى على إلا قال ذانك الملكان غفر الله لك وقال الله وملائكته جوابا لذينك الملكين آمين ، ولا يصلى على أحد إلا قال ذانك الملكان غفر الله لك ويقول الله وملائكته جوابا لذينك الملكين آمين » غريب جدا وإسناده به ضعف شديد . وقد قال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال « إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغونى عن أمتى السلام » وهكذا رواه النسائى من حديث سفيان الثورى وسليمان بن مهران الأعمش كلاهما عن عبد الله بن السائب به . فأما الحديث الآخر « من صلى على عند قبرى سمعته ، ومن صلى على من بعيد بلغته » ففى إسناده نظر تفرد به محمد بن مروان السدى الصغير وهو متروك عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة مرفوعا . قال أصحابنا ويستحب للمحرم إذا لبى وفرغ من تلبيته أن يصلى على النبى ﷺ لما رواه الشافعى والدار قطنى من رواية صالح بن محمد بن زائدة عن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق قال كان يؤمر الرجل إذا فرغ من تلبيته أن يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم على كل حال ، وقال إسماعيل القاضى حدثنا عارم بن الفضل حدثنا عبد الله بن المبارك حدثنا زكريا عن الشعبى عن وهب بن الأجدع قال : سمعت عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يقول : إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعا وصلوا عند المقام ركعتين ، ثم ائتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت فكبروا سبع مرات تكبيرا بين حمد الله وثناء عليه وصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ومسئلة لنفسك ، وعلى المروة مثل ذلك إسناد جيد حسن قوى ، قالوا ويستحب الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم مع ذكر الله عند الذبح واستأنسوا بقوله تعالى (ورفعنا لك ذكرك) قال بعض المفسرين : يقول الله تعالى لا أذكر إلا ذكرت معى وخالفهم فى ذلك الجمهور وقالوا هذا موطن يفرد فيه ذكر الله تعالى كما عند الأكل والدخول

والوقاع وغير ذلك مما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ حديث آخر ﴾ قال إسماعيل القاضي حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي حدثنا عمرو بن هارون عن موسى بن عبيدة عن محمد بن ثابت عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « صلوا على أنبياء الله ورسله فان الله بعثهم كما بعثني » في إسناده ضعيفان وهما عمرو بن هارون وشيخه والله أعلم . وقد رواه عبد الرزاق عن الثوري عن موسى بن عبيدة الزبيدي به ، ومن ذلك أنه يستحب الصلاة عليه عند طنين الأذن إن صح الخبر في ذلك على أن الإمام أبا بكر محمد بن إسحق بن خزيمة قد رواه في صحيحه فقال : حدثنا زياد بن يحيي حدثنا معمر بن محمد ابن عبيد الله عن علي بن أبي رافع عن أبيه أبي رافع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا طنت أذن أحدكم فليذكرني وليصل علي وليقل ذكر الله من ذكرني بخير » إسناده غريب وفي ثبوته نظر والله أعلم .

﴿ مسئلة ﴾ وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبي ﷺ كلما كتبه ، وقد ورد في الحديث من طريق كادح بن رحمة عن نهشل عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى علي في كتاب لم تزل الصلاة جارية له ما دام اسمي في ذلك الكتاب » وليس هذا الحديث بصحيح من وجوه كثيرة وقد روي من حديث أبي هريرة ولا يصح أيضا ، قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي شيخنا أحسبه موضوعا ، وقد روي نحوه عن أبي بكر وابن عباس ولا يصح من ذلك شيء والله أعلم . وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه [الجامع الآداب الراوي والسامع] قال : رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كثيرا ما يكتب اسم النبي صلى الله عليه وسلم من غير ذكر الصلاة عليه كتابة قال : وبلغني أنه كان يصلي عليه لفظا . ﴿ فصل ﴾ وأما الصلاة على غير الأنبياء فان كانت على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث اللهم صل على محمد وآله وأزواجه وذريته فهذا جائز بالاجماع وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم فقال قائلون يجوز ذلك واحتجوا بقول الله تعالى (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) وبقوله (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) وبقوله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم) الآية وبحديث عبد الله ابن أبي أوفى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال « اللهم صل عليهم » فأتاه أبي بصدقته فقال « اللهم صل على آل أبي أوفى » أخرجاه في الصحيحين ، وبحديث جابر أن امرأته قالت يارسول الله صل علي وعلى زوجي فقال « صلى الله عليك وعلى زوجك » قال الجمهور من العلماء لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة لأن هذا قد صار شعار للانبياء إذا ذكروا فلا يلحق بهم غيرهم فلا يقال قال أبو بكر صلى الله عليه أو قال علي صلى الله عليه ، وإن كان المعنى صحيحا كما لا يقال قال محمد عز وجل ، وإن كان عزيزا جليلا لأن هذا من شعار ذكر الله عز وجل وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم ولهذا لم يثبت شعارا لآل أبي أوفى ولا لجابر وامرأته وهذا مسلك حسن . وقال آخرون لا يجوز ذلك لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء يصلون على من يعتقدون فيهم فلا يقتدى بهم في ذلك والله أعلم ؟ ثم اختلف المانعون من ذلك هل هو من باب التحريم أو الكراهة التنزيهية أو خلاف الأولى ؟ على ثلاثة أقوال حكاه الشيخ أبو زكريا النووي في كتاب الأذكار . ثم قال والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه لأنه شعار أهل البدع وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهي مقصود . قال أصحابنا والمعتمد في ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة في لسان السلف بالأنبياء كما أن قولنا عز وجل مخصوص بالله تعالى فكما لا يقال محمد عز وجل وإن كان عزيزا جليلا لا يقال أبو بكر أو علي صلى الله عليه ؟ هذا لفظ بحروفه؛ قال وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجويني من أصحابنا هو في معنى الصلاة فلا يستعمل في الغائب ولا يفرد به غير الأنبياء فلا يقال علي عليه السلام وسواء في هذا الأحياء والأموات وأما الحاضر فيخاطب به فيقال سلام عليك وسلام عليكم أو السلام عليك أو عليكم وهذا مجمع عليه انتهى ما ذكره (قلت) وقد غلب هذا في عبارة كثير من النساخ للكتب أن يفرد علي رضي الله عنه بأن يقال عليه السلام من دون سائر الصحابة أو كرم الله وجهه ؟ وهذا وإن كان معناه صحيحا لكن ينبغي أن يسوى بين الصحابة في ذلك فان

هذا من باب التعظيم والتكريم ، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه رضى الله عنهم أجمعين قال إسماعيل القاضى حدثنا عبد الله بن عبدالواحد حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنى عثمان بن حكيم بن عبادة بن حنيف عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : لاتصح الصلاة على أحد إلا على النبي صلى الله عليه وسلم ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة ، وقال أيضا حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا حسين بن على عن جعفر بن برقان قال كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد فان ناسا من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخره ، وإن ناسا من القصاص قد أحدثوا فى الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فاذا جاءك كتابى هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامة ويدعوا ماسوى ذلك . أثر حسن ؛ قال إسماعيل القاضى حدثنا معاذ بن أسد حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا ابن لهيعة حدثنى خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال عن نبيه ابن وهب أن كعبا دخل على عائشة رضى الله عنها فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كعب : مامن فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفون بالقبر يضربون بأجنحتهم يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم سبعون ألفا بالليل وسبعون ألفا بالنهار حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج فى سبعين ألفا من الملائكة يزفونه . ﴿ فرع ﴾ قال النووى إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول صلى الله عليه فقط ولا عليه السلام فقط ، وهذا الذى قاله منتزع من هذه الآية الكريمة وهى قوله (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) فالأولى أن يقال ﷺ تسليما

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا * وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

يقول تعالى متهددا ومتوعدا من آذاه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك وإيذاء رسوله بعيب أو بنقص ـ عياذا بالله من ذلك ـ قال عكرمة فى قوله تعالى (إن الذين يؤذون الله ورسوله) نزلت فى المصورين . وفى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله عز وجل : يؤذينى ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر أقلب ليله ونهاره » ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون ياخيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونه وإنما الفاعل لذلك هو الله عز وجل فنهى عن ذلك . هكذا قرره الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء رحمهم الله وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى (إن الذين يؤذون الله ورسوله) نزلت فى الذين طعنوا على النبي ﷺ فى تزويجه صفية بنت حيي بن أخطب . والظاهر أن الآية عامة فى كل من آذاه بشىء ومن آذاه فقد آذى الله كما أن من أطاعه فقد أطاع الله كما قال الإمام أحمد حدثنا يونس حدثنا إبراهيم بن سعد عن عبيدة بن أبى رائطة الحذاء المجاشعى عن عبد الرحمن ابن زياد عن عبد الله بن المغفل المزنى قال : قال رسول الله ﷺ « الله الله فى أصحابى لاتتخذوهم غرضا بعدى فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » وقد رواه الترمذى من حديث عبيدة بن أبى رائطة عن عبد الرحمن بن زياد عن عبدالله بن المغفل به ، ثم قال وهذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه

وقوله تعالى (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا) أى ينسبون اليهم ماهم برآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه (فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا) وهذا هو البهت الكبير أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات مالم يفعلوه على سبيل العيب والتنقص لهم ، ومن أكثر من يدخل فى هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم فان الله عز وجل قد أخبر أنه قد رضى

عن المهاجرين والأنصار ومدحهم وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم وينتقصونهم ويذكرون عنهم مالم يكن ولافعلوه أبداً فهم في الحقيقة منكسو القلوب يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين ، وقال أبو داود حدثنا القعنبي حدثنا عبدالعزيز يعني ابن محمد عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أنه قيل يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال « ذكرك أخاك بما يكره » قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » وهكذا رواه الترمذي عن قتيبة عن الدراوردي به ثم قال حسن صحيح ، وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سلمة حدثنا أبو كريب حدثنا معاوية بن هشام عن عمار بن أنس عن ابن أبي مليكة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه « أي الربا أربى عند الله ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم قال « أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم » ثم قرأ (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبيناً) ،

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا * سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ تسليما أن يأمر النساء المؤمنات ـ خاصة أزواجه وبناته لشرفهن ـ بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الاماء ، والجلباب هو الرداء فوق الخمار . قاله ابن مسعود وعبيدة وقتادة والحسن البصري وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وعطاء الخراساني وغير واحد وهو بمنزلة الازار اليوم . قال الجوهري : الجلباب الملحفة ، قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلالها

تمشي النسور إليه وهي لاهية مشي العذارى عليهن الجلابيب

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة ، وقال محمد بن سيرين سألت عبيدة السلماني عن قول الله عزوجل (يدنين عليهن من جلابيبهن) فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى وقال عكرمة تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدنيه عليها وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو عبد الله الظهراني فيما كتب إلي حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن خثيم عن صفية بنت شيبة عن أم سلمة قالت لما نزلت هذه الآية (يدنين عليهن من جلابيبهن) خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو صالح حدثني الليث حدثنا يونس ابن يزيد قال وسألناه يعني الزهري هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة ؟ قال عليها الخمار إن كانت متزوجة وتنهى عن الجلباب لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر المحصنات وقد قال الله تعالى (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) ، وروي عن سفيان الثوري أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة وإنما نهي عن ذلك لخوف الفتنة لا لحرمتهن واستدل بقوله تعالى (ونساء المؤمنين) وقوله (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) أي إذا فعلن ذلك عرفن أنهن حرائر ، لسن بإماء ولا عواهر . قال السدي في قوله تعالى (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) قال كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة فيعرضون للنساء وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن ، فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا هذه حرة فكفوا عنها ، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا هذه أمة فوثبوا عليها ،

وقال مجاهد يتجلببن فيعلم أنهم حرائر فلا يتعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة ، وقوله تعالى (وكان الله غفوراً رحيما) أى لما سلف فى أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك ، ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر (والذين فى قلوبهم مرض) قال عكرمة وغيره هم الزناة ههنا (والمرجفون فى المدينة) يعنى الذين يقولون جاء الأعداء وجاءت الحروب وهو كذب وافتراء لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق (لنغرينك بهم) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أى لنسلطنك عليهم . وقال قتادة لنحرشنك بهم ، وقال السدى لنعلمنك بهم (ثم لا يجاورونك فيها) أى فى المدينة (إلا قليلا * ملعونين) حال منهم فى مدة إقامتهم فى المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين (أينما ثقفوا) أى وجدوا (أخذوا) لذلتهم وقلتهم (وقتلوا تقتيلا) ثم قال تعالى (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) أى هذه سنته فى المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى وسنة الله فى ذلك لا تبدل ولا تغير

﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا * إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا * رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبرا لرسوله صلوات الله وسلامه عليه أنه لا علم له بالساعة وإن سأله الناس عن ذلك ، وأرشده أن يرد علمها إلى الله عز وجل كما قال الله تعالى فى سورة الأعراف وهى مكية وهذه مدنية فاستمر الحال فى رد علمها إلى الذى يقيمها لكن أخبره أنها قريبة بقوله (وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) كما قال تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) وقال (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) وقال (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) ثم قال (إن الله لعن الكافرين) أى أبعدهم من رحمته (وأعد لهم سعيرا) أى فى الدار الآخرة (خالدين فيها أبدا) أى ماكثين مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها (لا يجدون وليا ولا نصيرا) أى وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه ثم قال (يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) أى يسحبون فى النار على وجوههم وتلوى وجوههم على جهنم يقولون وهم كذلك يتمنون أن لو كانوا فى الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول كما أخبر الله عنهم فى حال العرصات بقوله (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا) وقال تعالى (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) وهكذا أخبر عنهم فى حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول فى الدنيا (وقالوا ربنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) وقال طاوس : سادتنا يعنى الأشراف وكبراءنا يعنى العلماء رواه ابن أبى حاتم أى اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئا وأنهم على شىء فإذا هم ليسوا على شىء (ربنا آتهم ضعفين من العذاب) أى بكفرهم وإغوائهم إيانا (والعنهم لعنا كبيرا) قرأ بعض القراء بالباء الموحدة ، وقرأ آخرون بالثاء المثلثة وهما قريبا المعنى كما فى حديث عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال يا رسول الله علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى قال « قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى انك أنت الغفور الرحيم » أخرجاه فى الصحيحين ، يروى كثيرا وكبيرا وكلاهما بمعنى صحيح واستحب بعضهم أن يجمع الداعى بين اللفظين فى دعائه وفى ذلك نظر ، بل الأولى أن يقول هذا تارة وهذا تارة كما أن القارىء مخير بين القراءتين أيتهما قرأ أحسن وليس له الجمع بينهما

والله أعلم وقال أبو القاسم الطبرانى حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة حدثنا ضرار بن صرد حدثنا على بن هاشم عن عبيدالله ابن أبى رافع عن أبيه فى تسمية من شهد مع على رضى الله عنه الحجاج بن عمرو بن غزية وهو الذى كان يقول عند اللقاء يا معشر الأنصار أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) ؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾

قال البخارى عند تفسير هذه الآية حدثنا إسحق بن إبراهيم حدثنا روح بن عبادة حدثنا عوف عن الحسن ومحمد وخلاس عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول ﷺ إن موسى كان رجلا حييا وذلك قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها) هكذا أورد هذا الحديث ههنا مختصرا جدا وقد رواه فى أحاديث الأنبياء بهذا السند بعينه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن موسى عليه السلام كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شىء استحياء منه فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل فقالوا ما يتستر هذا التستر إلا من عيب فى جلده إما برص وإما أدرة وإما آفة . وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام فخلا يوما وحده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله عز وجل وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا — قال — فذلك قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها) » وهذا سياق حسن مطول وهذا الحديث من أفراد البخارى دون مسلم وقال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا عوف عن الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم . وخلاس ومحمد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها) قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يكاد يرى من جلده شىء استحياء منه . » ثم ساق الحديث كما رواه البخارى مطولا ورواه عنه فى تفسيره عن روح عن عوف به . ورواه ابن جرير من حديث الثورى عن جابر الجعفى عن عامر الشعبى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحو هذا . وهكذا رواه من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير وعبد الله بن الحارث عن ابن عباس فى قوله (لا تكونو كالذين آذوا موسى) قال : قال قومه له إنك آدر فخرج ذات يوم يغتسل فوضع ثيابه على صخرة فخرجت الصخرة تشتد بثيابه وخرج يتبعها عريانا حتى انتهت به مجالس بنى إسرائيل قال فرأوه ليس بآدر فذلك قوله (فبرأه الله مما قالوا) وهكذا رواه العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما سواء . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا روح بن حاتم وأحمد بن المعلى الأدمى قالا حدثنا يحى بن حماد حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم : قال « كان موسى عليه السلام رجلا حييا وإنه أتى — أحسبه قال الماء — ليغتسل فوضع ثيابه على صخرة وكان لا يكاد تبدو عورته فقال بنو إسرائيل إن موسى آدر أو به آفة — يعنون أنه لا يضع ثيابه — فاحتملت الصخرة ثيابه حتى صارت بحذاء مجالس بنى إسرائيل فنظروا إلى موسى كأحسن الرجال — أو كما قال — فذلك قوله (فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها) » وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين عن الحكم عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس عن على بن أبى طالب رضى الله عنهم فى قوله (فبرأه الله مما قالوا) قال صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون عليه السلام فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام أنت قتلته كان ألين لنا منك وأشد حياء فآذوه من ذلك فأمر الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بنى إسرائيل فتكلمت بموته فما عرف موضع قبره إلا الرخم وإن الله جعله أصم أبكم وهكذا رواه ابن جرير عن على بن موسى الطوسى عن عباد بن العوام به ثم قال وجائز أن

يكون هذا هو المراد بالأذى وجائز أن يكون الأول هو المراد فلا قول أولى من قول الله عز وجل [قلت] يحتمل أن يكون الكل مراداً وأن يكون معه غيره والله أعلم . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال قسم : رسول الله ﷺ ذات يوم قسما فقال رجل من الأنصار إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله قال : فقلت ياعدو الله أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فاحمر وجهه ثم قال « رحمة الله على موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر » أخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش به ﴿طريق أخرى﴾ قال الإمام أحمد حدثنا حجاج سمعت إسرائيل بن يونس عن الوليد ابن أبي هشام مولى همدان عن زيد بن زائد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه « لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » فأتى رسول الله ﷺ مال فقسمه قال فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة قال فثبت حتى سمعت ما قالا ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله إنك قلت لنا « لا يبلغني أحد عن أصحابي شيئا » وإني مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا ؛ فاحمر وجه رسول الله ﷺ وشق عليه ثم قال « دعنا منك لقد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر » وقد رواه أبو داود في الأدب عن محمد بن يحيى الذهلي عن محمد بن يوسف الفريابي عن إسرائيل عن الوليد بن أبي هشام به مختصرا « لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » وكذا رواه الترمذي في المناقب عن الذهلي سواء إلا أنه قال زيد بن زائدة ، ورواه أيضا عن محمد بن إسماعيل عن عبد الله بن محمد عن عبيد الله بن موسى وحسين بن محمد كلاهما عن إسرائيل عن السدي عن الوليد بن أبي هشام به مختصراً أيضا فزاد في إسناده السدي ثم قال غريب من هذا الوجه وقوله تعالى (وكان عند الله وجيهاً) أي له وجاهة وجاه عند ربه عز وجل . قال الحسن البصري كان مستجاب الدعوة عند الله وقال غيره من السلف لم يسأل الله شيئا إلا أعطاه ولكن منع الرؤية لما يشاء عز وجل . وقال بعضهم من وجاهته العظيمة عند الله أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه فأجاب الله سؤاله فقال (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بتقواه وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه وأن يقولوا (قولا سديدا) أي مستقيما لا اعوجاج فيه ولا انحراف ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم أي يوفقهم للأعمال الصالحة وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها ثم قال تعالى (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) وذلك أنه يجار من نار الجحيم ويصير إلى النعيم المقيم . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عمرو ابن عوف حدثنا خالد عن ليث عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الظهر فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا فقال « إن الله تعالى أمرني أن آمركم أن تتقوا الله وتقولوا قولا سديدا » ثم أتى النساء فقال « إن الله أمرني أن آمركن أن تتقين الله وتقلن قولا سديدا » وقال ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى حدثنا محمد بن عباد بن موسى حدثنا عبد العزيز بن عمران الزهري حدثنا عيسى بن سبرة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت ما قام رسول الله ﷺ على المنبر إلا سمعته يقول (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً) الآية غريب جدا ، وروى عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن محمد بن كعب عن ابن عباس موقوفا : من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله ، قال عكرمة القول السديد لا إله إلا الله وقال غيره السديد الصدق وقال مجاهد هو السداد وقال غيره هو الصواب والكل حق

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

قال العوفى عن ابن عباس يعنى بالأمانة الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها فقال لآدم : إنى قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال يارب وما فيها ؟ قال إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت فأخذها آدم فتحملها فذلك قوله تعالى (وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الأمانة الفرائض عرضها الله على السموات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك وأشفقوا عليه من غير معصية ولكن تعظيما لدين الله أن لايقوموا بها ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها وهو قوله تعالى (وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) يعنى غرا بأمر الله ، وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) قال عرضت على آدم فقال خذها بما فيها فان أطعت غفرت لك وإن عصيت عذبتك قال قبلت فما كان إلا مقدار ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة ، وقد روى الضحاك عن ابن عباس قريبا من هذا وفيه نظر وانقطاع بين الضحاك وبينه والله أعلم . وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن البصرى وغير واحد: إن الأمانة هى الفرائض، وقال آخرون هى الطاعة وقال الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق قال : قال أبى بن كعب من الأمانة أن المرأة أؤتمنت على فرجها . وقال قتادة الأمانة الدين والفرائض والحدود ؟ وقال بعضهم الغسل من الجنابة ، وقال مالك عن زيد ابن أسلم قال الأمانة ثلاثة، الصلاة والصوم والاغتسال من الجنابة وكل هذه الأقوال لاتنافى بينها بل هى متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهى بشرطها وهو أنه إن قام بذلك أثيب وإن تركها عوقب فقبلها الانسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله وبالله المستعان ، قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد العزيز بن المغيرة البصرى حدثنا حماد بن واقد يعنى أباعمر الصفار سمعت أبا معمر يعنى عون بن معمر يحدث عن الحسن يعنى البصرى أنه تلا هذه الآية (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال) قال عرضها على السبع الطباق الطرائق التى زينت بالنجوم ، وحملة العرش العظيم ، فقيل لها هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت وما فيها ؟ قال قيل لها إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت قالت : لا ، ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد ، التى شدت بالأوتاد ، وذللت بالمهاد ، قال فقيل لها هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت وما فيها ؟ قال قيل لها إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت ، قالت لا ، ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصعاب الصلاب قال قيل لها هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت وما فيها ؟ قال لها إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت قالت : لا . وقال مقاتل بن حيان إن الله تعالى حين خلق خلقه جمع بين الإنس والجن والسموات والأرض والجبال فبدأ بالسموات فعرض عليهن الأمانة وهى الطاعة فقال لهن أتحملن هذه الأمانة ولكن على الفضل والكرامة والثواب فى الجنه ؟ فقلن يارب إنا لانستطيع هذا الأمر وليس بنا قوة ولكنا لك مطيعين ، ثم عرض الأمانة على الأرضين فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة وتقبلنها منى وأعطيكن الفضل والكرامة فى الدنيا ؟ فقلن : لاصبر لنا على هذا يارب ولا نطيق ولكنالك سامعين مطيعين لانعصيك فى شىء أمرتنابه . ثم قرب آدم فقال له أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها ؟ فقال عند ذلك آدم مالى عندك ؟ قال يا آدم إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة فلك عندى الكرامة والفضل وحسن الثواب فى الجنة ، وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها وأسأت فإنى معذبك ومعاقبك وأنزلك النار ، قال : رضيت يارب وتحملها فقال الله عز وجل عند ذلك

قد حملتكها فذلك قوله تعالى(وحملها الإنسان) رواه ابن أبي حاتم وعن مجاهد أنه قال :عرضها على السموات فقالت يارب حملتني الكواكب وسكان السماء وما ذكر وما أريد ثوابا ولا أحمل فريضة . قال وعرضها على الأرض فقالت يارب غرست فيّ الأشجار وأجريت فيّ الأنهار وسكان الأرض وما ذكروما أريد ثوابا ولا أحمل فريضة ، وقالت الجبل مثل ذلك قال الله تعالى (وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) في عاقبة أمره وهكذا قال ابن جريج وعن ابن أشوع أنه قال لما عرض الله عليهن حمل الأمانة ضججن إلى الله ثلاثة أيام ولياليهن وقلن ربنا لا طاقة لنا بالعمل ولا نريد الثواب ثم قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هارون بن زيد بن أبي الزرقاء الموصلي حدثنا أبي حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم في هذه الآية (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض) الآية قال الإنسان بين أذني وعاتقي فقال الله عز وجل : إني معينك عليها، إني معينك على عينيك بطبقتين فإذا نازعاك إلى ما أكره فأطبق ، ومعينك على لسانك بطبقتين فإذا نازعك إلى ما أكره فأطبق ومعينك على فرجك بلباس فلا تكشفه إلى ما أكره . ثم روى عن أبي حازم نحو هذا وقال ابن جرير حدثنا يونس حدثنا ابن وهب قال : قال ابن زيد في قول الله تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال) الآية قال إن الله تعالى عرض عليهن الأمانة أن يفترض عليهن الدين ويجعل لهن ثوابا وعقابا ويستأمنهن على الدين فقلن لا نحن مسخرات لأمرك لا نريد ثوابا ولا عقابا قال وعرض الله تبارك وتعالى على آدم فقال بين أذني وعاتقي قال ابن زيد فقال الله تعالى له : أما إذا تحملت هذا فسأعينك أجعل لبصرك حجابا فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل لك فأرخ عليه حجابه واجعل للسانك بابا وغلقا فإذا خشيت فأغلق ، واجعل لفرجك لباسا فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك ، وقال ابن جرير حدثني سعيد بن عمرو السكوني حدثنا بقية حدثنا عيسى بن إبراهيم عن موسى بن أبي حبيب عن الحكم بن عمير رضي الله عنه وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الأمانة والوفاء نزلا على ابن آدم مع الأنبياء فأرسلوا به . فمنهم رسول الله ومنهم نبي ومنهم نبي رسول ونزل القرآن وهو كلام الله وأنزلت العجمية والعربية فعلموا أمر القرآن وعلموا أمر السنن بألسنتهم ولم يدع الله تعالى شيئا من أمره مما يأتون وما يجتنبون وهي الحجج عليهم إلا بينه لهم ، فليس أهل لسان إلا وهم يعرفون الحسن والقبيح ، ثم الأمانة أول شيء يرفع ويبقى أثرها في جذور قلوب الناس ثم يرفع الوفاء والعهد والذمم وتبقى الكتب فعالم يعمل وجاهل يعرفها وينكرها ولا يحملها حتى وصل إلي وإلى أمتي ولا يهلك على الله إلا هالك ، ولا يغفله إلا تارك . فالحذر أيها الناس ، وإياكم والوسواس الخناس فإنما يبلوكم أيكم أحسن عملا » هذا حديث غريب جداوله شواهد من وجوه أخرى ثم قال ابن جرير حدثنا محمد بن خلف العسقلاني حدثنا عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي حدثنا أبو العوام القطان حدثنا قتادة وأبان بن أبي عياش عن خليد العصري عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خمس من جاء بهن يوم القيامه مع إيمان دخل الجنة . من حافظ على الصلوات الخمس[1] على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن ، وأعطى الزكاة من ماله طيب النفس بها — وكان يقول — وايم الله لا يفعل ذلك إلا مؤمن وأدى الأمانة » قالوا يا أبا الدرداء وما أداء الأمانة ؟ قال رضي الله عنه: الغسل من الجنابة فان الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيره وهكذا رواه أبو داود عن محمد بن عبد الرحمن العنبري عن أبي علي عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي عن أبي العوام عمران بن داود القطان به وقال ابن جرير أيضا حدثنا تميم بن المنتصر أخبرنا إسحاق عن شريك عن الأعمش عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها — أوقال — يكفر كل شيء إلا الأمانة يؤتى بصاحب الأمانة فيقال له أد أمانتك فيقول أنى يارب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له أد أمانتك فيقول أنى يارب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له أد أمانتك . فيقول أنى يارب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول اذهبوا به إلى أمه الهاوية فيذهب به إلى الهاوية فيهوى فيها حتى ينتهي إلى قعرها فيجدها هنالك كهيئتها فيحملها فيضعها على عاتقه فيصعد بها إلى شفير جهنم حتى إذا رأى أنه قد خرج زلت قدمه فهوى في أثرها أبد الآبدين » قال : والأمانة في الصلاة والأمانة في الصوم والأمانة في الوضوء والأمانة في الحديث وأشد ذلك

(١) قوله خمس الخ كذا في النسخ التي بأيدينا ولم يذكر الخمس كلها هنا فلعله اختصر الحديث اه .

الودائع . فلقيت البراء فقلت ألا تسمع مايقول أخوك عبد الله ؟ فقال صدق وقال شريك وحدثنا عياش العامرى عن زاذان عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه ولم يذكر الأمانة فى الصلاة وفى كل شىء اسناده جيد ولم يخرجوه . ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن حذيفة رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر حدثنا أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة . ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانه من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك تراه منتبرا وليس فيه شىء ــ قال ثم أخذ حصى فد حرجه على رجله قال ــ فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال إن فى بنى فلان رجلا أمينا ، حتى يقال للرجل ما أجلده وأظرفه وأعقله وما فى قلبه حبة خردل من إيمان ، ولقد أتى على زمان وما أبالى أيكم بايعت إن كان مسلماً ليردنه علىّ دينه ، وإن كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه علىّ ساعيه فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلانا وفلانا . وأخرجاه فى الصحيحين من حديث الأعمش به . وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا ، حفظ أمانة وصدق حديث وحسن خليقة وعفة طعمة » هكذا رواه الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنها ، وقد قال الطبرانى فى مسنده عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، حدثنا يحيى بن أيوب العلاف المصرى حدثنا سعيد بن أبى مريم حدثنا ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن ابن حجيرة عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا حفظ أمانة وصدق حديث وحسن خليقة وعفة طعمة » فزاد فى الاسناد ابن حجيرة وجعله فى مسند ابن عمر رضى الله عنهما وقد ورد النهى عن الحلف بالأمانة قال عبد الله بن المبارك فى كتاب الزهد حدثنا شريك عن أبى إسحاق الشيبانى عن خناس بن سحيم أو قال جبلة بن سحيم قال أقبلت مع زياد بن حدير من الجابية فقلت فى كلامى لا والأمانة فجعل زياد يبكى ويبكى فظننت أنى أوتيت أمراً عظيما فقلت له أ كان يكره هذا ؟ قال : نعم ، كان عمر بن الخطاب ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهى وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع قال أبو داود حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس حدثنا زهير حدثنا الوليد بن ثعلبة الطائى عن ابن بريدة عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حلف بالأمانة فليس منا » تفرد به أبو داود رحمه الله ، وقوله تعالى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) أى إنما حمل بنى آدم الأمانة وهى التكاليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفا من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله (والمشركين والمشركات) وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسله (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أى وليرحم المؤمنين من الخلق الذى آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته (وكان الله غفوراً رحيما) آخر تفسير سورة الأحزاب ولله الحمد والمنة .

﴿ تفسير سورة سبأ وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق فى الدنيا والآخرة لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ،

المالك لجميع ذلك الحاكم فى جميع ذلك كما قال تعالى (وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون) ولهذا قال تعالى ههنا (الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) أى الجميع ملكه وعبيده وتحت تصرفه وقهره كما قال تعالى (وإن لنا للآخرة والأولى) ثم قال عز وجل (وله الحمد فى الآخرة) فهو المعبود أبدا ، المحمود على طول المدى وقوله تعالى (وهو الحكيم) أى فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره (الخبير) الذى لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شىء وقال مالك عن الزهرى: خبير بخلقه حكيم بأمره ، ولهذا قال عز وجل (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها) أى يعلم عدد القطر النازل فى أجزاء الأرض والحب المبذور والكامن فيها ، ويعلم ما يخرج من ذلك عدده وكيفيته وصفاته (وما ينزل من السماء) أى من قطر ورزق ، وما يعرج فيها أى من الأعمال الصالحة وغير ذلك (وهو الرحيم الغفور) أى الرحيم بعباده فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة الغفور عن ذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ * لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ * وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾

هــذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن فى سورة يونس عليه السلام وهى قوله تعالى (ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين) والثانية هذه (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم) والثالثة فى سورة التغابن وهى قوله تعالى (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) فقال تعالى (قل بلى وربى لتأتينكم) ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا كتاب مبين) قال مجاهد وقتادة لا يعزب عنه لا يغيب عنه أى الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شىء ، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ثم يعيدها كما بدأها أول مرة فانه بكل شىء عليم . ثم بين حكمته فى إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله تعالى (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم * والذين سعوا فى آياتنا معاجزين) أى سعوا فى الصد عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله (أولئك لهم عذاب من رجز أليم) أى لينعم السعداء من المؤمنين ويعذب الأشقياء من الكافرين كما قال عز وجل (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) وقال تعالى (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار)

وقوله تعالى (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق) هذه حكمة أخرى معطوفة على التى قبلها وهى أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذى كانوا قد علموه من كتب الله تعالى فى الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين ويقولون يومئذ أيضاً (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) ويقال أيضا (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) (لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث) (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) العزيز هو المنيع الجناب الذى لا يغالب ولا يمانع بل قد قهر كل شىء وغلبه الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره وهو المحمود فى ذلك كله جل وعلا

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ * أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق) أى تفرقت أجسادكم فى الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق (إنكم) أى بعد هذا الحال (لفى خلق جديد) أى تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك وهو فى هذا الإخبار لايخلو أمره من قسمين إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله تعالى أنه قد أوحى إليه ذلك أو أنه لم يتعمد لكن لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون ولهذا قالوا (أفترى على الله كذبا أم به جنة) قال الله عزوجل راداً عليهم (بل الذين لايؤمنين بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) أى ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه بل محمد صلى الله عليه وسلم هو الصادق البار الراشد الذى جاء بالحق، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء (فى العذاب) أى الكفر المفضى بهم إلى عذاب الله تعالى (والضلال البعيد) من الحق فى الدنيا ثم ، قال تعالى منبهاً لهم على قدرته فى خلق السموات والأرض فقال تعالى (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) أى حيثما توجهوا وذهبوا فالسماء مطلة عليهم والأرض تحتهم كما قال عز وجل (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون * والأرض فرشناها فنعم الماهدون) : قال عبد بن حميد أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (أفلم يروا إلى مابين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) قال إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك أومن بين يديك أومن خلفك رأيت السماء والأرض . وقوله تعالى (إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء) أى لو شئنا لفعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا ثم قال (إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب) قال معمر عن قتادة (منيب) تائب ؟ وقال سفيان عن قتادة: المنيب المقبل إلى الله تعالى أى إن فى النظر إلى خلق السموات والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجاع إلى الله ، على قدرة الله تعالى على بعث الاجساد ووقوع المعاد لأن من قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وهذه الأرضين فى انخفاضها ، وأطوالها وأعراضها إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام ، كما قال تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى) وقال تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة السلام مما آتاه من الفضل المبين وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العدد والعدد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذى كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات . الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات : والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات .
وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع صوت أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه يقرأ من الليل فوقف فاستمع لقراءته ثم قال صلى الله عليه وسلم « لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود » وقال أبو عثمان

النهدى ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا وتر أحسن من صوت أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، ومعنى قوله تعالى (أوبى) أى سبحى قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد وزعم أبو ميسرة أنه بمعنى سبحى بلسان الحبشة وفى هذا نظر فان التأويب فى اللغة هو الترجيع فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى فى كتابه ـ الجمل ـ فى باب النداء منه (ياجبال أوبى معه) أى سيرى معه بالنهار كله والتأويب سير النهار كله ، والإسآد سير الليل كله وهذا لفظه وهو غريب جداً لم أره لغيره وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ فى اللغة لـكنه بعيد فى معنى الآية ههنا والصواب أن المعنى فى قوله تعالى (أوبى معه) أى رجعى مسبحة معه كما تقدم والله أعلم وقوله تعالى (وألنا له الحديد) قال الحسن البصرى وقتادة والأعمش وغيرهم كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ولهذا قال تعالى (أن اعمل سابغات) وهى الدروع قال قتادة وهو أول من عملها من الخلق وإنما كانت قبل ذلك صفائح ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا ابن سماعة حدثنا ابن ضمرة عن ابن شوذب قال : كان داود عليه السلام يرفع فى كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم ألفين له ولأهله وأربعة آلاف درهم يطعم بها بنى إسرائيل خبز الحوارى (وقدر فى السرد) هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود عليه السلام فى تعليمه صنعة الدروع ، قال مجاهد فى قوله تعالى (وقدر فى السرد) لاتدق المسمار فيقلق فى الحلقة ولا تغلظه فيقصمها واجعله بقدر ، وقال الحكم بن عيينة لا تغلظه فيقصم ولا تدقه فيقلق ، وهكذا روى عن قتادة وغير واحد وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : السرد : حلق الحديد . وقال بعضهم يقال درع مسرودة إذا كانت مسمورة الحلق واستشهد بقول الشاعر :

وعليهما مسرودتان قضاهما ... داود أو صنع السوابغ تبع

وقد ذكر الحافظ ابن عسكر فى ترجمة داود عليه الصلاة والسلام من طريق إسحاق بن بشر وفيه كلام عن أبى الياس عن وهب بن منبه ما مضمونه أن داود عليه السلام كان يخرج متنكرا فيسأل الركبان عنه وعن سيرته فلا يسأل أحدا إلا أثنى عليه خيرا فى عبادته وسيرته وعدله عليه السلام ، قال وهب حتى بعث الله تعالى ملكا فى صورة رجل فلقيه داود عليه الصلاة والسلام فسأله كما كان يسأل غيره فقال هو خير الناس لنفسه ولأمته إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملا قال ماهى؟ قال يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين يعنى بيت المال فعند ذلك نصب داود عليه السلام إلى ربه عز وجل فى الدعاء أن يعلمه عملا بيده يستغنى به ويغنى به عياله فألان الله عز وجل له الحديد وعلمه صنعة الدروع فعمل الدروع وهو أول من عملها فقال الله تعالى (أن اعمل سابغات وقدر فى السرد) يعنى مسامير الحلق ، قال وكان يعمل الدرع فإذا ارتفع من عمله درع باعها فتصدق بثلثها واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله ، وأمسك الثلث يتصدق به يوما بيوم إلى أن يعمل غيرها وقال إن الله تعالى أعطى داود شيئا لم يعطه غيره من حسن الصوت إنه كان إذا قرأ الزبور تجتمع الوحوش إليه حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفرو ما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج إلا على أصناف صوته عليه السلام وكان شديد الاجتهاد ، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ فى المزامير ، وكان قد أعطى سبعين مزمارا فى حلقه ، وقوله تعالى (واعملوا صالحا) أى فى الذى أعطاكم الله تعالى من النعم (إنى بما تعملون بصير) أى مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم لايخفى على من ذلك شىء

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الريح له

تحمل بساطه غدوها شهر ورواحها شهر . قال الحسن البصرى كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل باصطخر يتغدى بها ويذهب رائحا من اصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق واصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين اصطخر وكابل شهر كامل للمسرع . وقوله تعالى (وأسلنا له عين القطر) قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وعكرمة وعطاء الخراسانى وقتادة والسدى ومالك عن زيد بن أسلم وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد القطر النحاس قال قتادة وكانت باليمن فكل مايصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان عليه السلام ، قال السدى وإنما أسيلت له ثلاثة أيام وقوله تعالى (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه) أى وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه أى بقدره وتسخيره لهم بمشيئته مايشاء من البنايات وغيرذلك (ومن يزغ منهم عن أمرنا) أى ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة (نذقه من عذاب السعير) وهو الحريق . وقد ذكر ابن أبى حاتم ههنا حديثا غريبا فقال حدثنا أبى حدثنا أبو صالح حدثنا معاوية بن صالح عن أبى الزهراء عن جبير بن نفير عن أبى ثعلبة الخشنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « الجن على ثلاثة أصناف صنف لهم أجنحة يطيرون فى الهواء وصنف حيات وكلاب وصنف يحلون ويظعنون » رفعه غريب جدا . وقال أيضا حدثنا أبى حدثنا حرملة حدثنا ابن وهب أخبرنى بكر بن مضر عن محمد بن بحير عن ابن أنعم أنه قال : الجن ثلاثة أصناف صنف لهم الثواب وعليهم العقاب ، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض وصنف حيات وكلاب . قال بكر بن مضر ولا أعلم إلا أنه قال حدثنى أن الإنس ثلاثة أصناف ، صنف يظلهم الله بظل عرشه يوم القيامة . وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وصنف فى صور الناس على قلوب الشياطين . وقال أيضا حدثنا أبى حدثنا على بن هاشم بن مرزوق حدثنا سلمة يعنى ابن الفضل عن إسماعيل عن الحسن قال الجن ولد إبليس والإنس ولد آدم ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون وهم شركاؤهم فى الثواب والعقاب ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو ولى الله تعالى ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان . وقوله تعالى (يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل) أما المحاريب فهى البناء الحسن وهو أشرف شىء فى المسكن وصدره وقال مجاهد المحاريب بنيان دون القصور . وقال الضحاك هى المساجد وقال قتادة هى القصور والمساجد وقال ابن زيد هى المساكن . وأما التماثيل فقال عطية العوفى والضحاك والسدى: التماثيل الصور. قال مجاهد وكانت من نحاس وقال قتادة من طين وزجاج

وقوله تعالى (وجفان كالجواب وقدور راسيات) الجواب جمع جابية وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء كما قال الأعشى ميمون بن قيس:

تروح على آل المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقى تفهق

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (كالجواب) أى كالجوبة من الأرض وقال العوفى عنه كالحياض وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم. والقدور الراسيات أى الثابتات فى أماكنها لاتتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها كذا قال مجاهد والضحاك وغيرهما وقال عكرمة أثافيها منها وقوله تعالى (اعملوا آل داود شكرا) أى وقلنا لهم اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم فى الدين والدنيا ، وشكرا مصدر من غير الفعل أو أنه مفعول له وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

قال أبو عبد الرحمن السلمى : الصلاة شكر والصيام شكر وكل خير تعمله لله عز وجل شكر وأفضل الشكر الحمد رواه ابن جرير وروى هو وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى قال الشكر تقوى الله تعالى والعمل الصالح وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل . وقد كان آل داود عليهم السلام كذلك قائمين بشكر الله تعالى قولا وعملا . قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن أبى بكر حدثنا جعفر يعنى ابن سليمان عن ثابت البنانى قال كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة فكان لاتأتى عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى فغمرتهم هذه الآية (اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور) وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ

أنه قال « إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود كان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى » . وقد روى أبو عبد الله بن ماجه من حديث سعيد بن داود حدثنا يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قالت أم سليمان بن داود عليهم السلام لسليمان يا بنى لا تكثر النوم بالليل فان كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة » وروى ابن أبى حاتم عن داود عليه الصلاة والسلام ههنا أثرا غريبا مطولا جدا ، وقال أيضا حدثنا أبى حدثنا عمران بن موسى حدثنا أبو زيد قبيصة بن إسحق الرقى قال : قال فضيل فى قوله تعالى (اعملوا آل داود شكرا) قال داود يارب كيف أشكرك والشكر نعمة منك ؟ قال « الآن شكرتنى حين علمت أن النعمة منى » وقوله تعالى (وقليل من عبادى الشكور) إخبار عن الواقع

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَابَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام وكيف عمى الله موته على الجان المسخرين له فى الأعمال الشاقة فانه مكث متوكئا على عصاه وهى منسأته كما قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد مدة طويلة نحوا من سنة فلما أكلتها دابة الأرض وهى الأرضة ضعفت وسقط إلى الأرض وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، وتبينت الجن والإنس أيضا أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك . وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع غريب وفى صحته نظر . قال ابن جرير حدثنا أحمد بن منصور حدثنا موسى بن مسعود حدثنا أبو حذيفة حدثنا إبراهيم بن طهمان عن عطاء عن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال « كان نبى الله سليمان عليه السلام إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها ما اسمك ؟ فتقول كذا فيقول لأى شىء أنت فان كانت تغرس غرست وإن كانت لدواء كتبت، فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه فقال لها ما اسمك، قالت الخروب قال لأى شىء أنت؟ قالت لخراب هذا البيت فقال سليمان عليه السلام اللهم عم على الجن موتى حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب فنحتها عصا فتوكأ عليها حولا ميتا والجن تعمل ، فأكلتها الأرضة فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولا فى العذاب المهين » قال وكان ابن عباس يقرؤها كذلك قال فشكرت الجن للأرضة فكانت تأتيها بالماء وهكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث إبراهيم بن طهمان به وفى رفعه غرابة ونكارة والأقرب أن يكون موقوفا وعطاء بن أبى مسلم الخراسانى له غرابات وفى بعض حديثه نكارة. وقال السدى فى حديثه نكارة وقال السدى فى حديث ذكره عن أبى مالك عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود رضى الله عنه وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم قال : كان سليمان عليه الصلاة السلام يتحرر فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر فيدخل فيه ومعه طعامه وشرابه فأدخله فى المرة التى توفى فيها فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا ينبت الله فى بيت المقدس شجرة فيأتيها فيسألها ما اسمك فتقول الشجرة اسمى كذا وكذا فان كانت لغرس غرسها وإن كانت تنبت دواء قالت نبت دواء كذا وكذا فيجعلها كذلك ، حتى نبتت شجرة يقال لها الخروبة فسألها ما اسمك قالت أنا الخروبة قال ولأى شىء نبت قالت نبت لخراب هذا المسجد قال سليمان عليه الصلاة والسلام ماكان الله ليخربه وأنا حى أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس فنزعها وغرسها فى حائط له ثم دخل المحراب فقام يصلى متكئا على عصاه فمات ولم تعلم به الشياطين وهم فى ذلك يعملون له يخافون أن يخرج عليهم فيعاقبهم، وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه فكان الشيطان الذى يريد أن يخلع يقول ألست جلدا إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر فدخل شيطان من أولئك فمر ولم يكن شيطان ينظر

إلى سليمان عليه السلام فى المحراب إلا احترق فمر ولم يسمع صوت سليمان ثم رجع فلم يسمع ثم رجع فوقع فى البيت ولم يحترق ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتاً فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ففتحوا عليه فأخرجوه . ووجدوا منسأته وهى العصا بلسان الحبشة قد أكلتها الأرضة ولم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوما وليلة ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة وهى فى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه . فمكثوا يدينون له من بعد موته حولا كاملا ، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم يطلعون على الغيب لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا فى العذاب سنة يعملون له ؛ وذلك قول الله عز وجل (ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) يقول تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم ، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ولكنا سننقل إليك الماء والطين قال فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت ،قال ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب ؟ فهو ما تأتيها به الشياطين شكرا لها ، وهذا الأثر والله أعلم إنما هو مما تلقى من علماء أهل الكتاب وهى وقف لا يصدق منه إلا ما وافق الحق ولا يكذب منها إلا ما خالف الحق والباقى لا يصدق ولا يكذب ، وقال ابن وهب وأصبغ بن الفرج عن عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم فى قوله تبارك وتعالى (مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته)قال : قال سليمان عليه السلام لملك الموت إذا أمرت بى فأعلمنى فأتاه فقال : يا سليمان قد أمرت بك قد بقيت لك سويعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير وليس له باب فقام يصلى فاتكأ على عصاه ، قال فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متكىء على عصاه ولم يصنع ذلك فرارا من ملك الموت ، قال والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حى قال فبعث الله عز وجل دابة الأرض قال والدابة تأكل العيدان يقال لها القادح فدخلت فيها فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر ميتاً ، فلما رأت ذلك الجن انفضوا وذهبوا قال فذلك قوله تعالى (ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته) قال أصبغ بلغنى عن غيره أنها اقامت سنة تأكل منها قبل أن يخر ،وذكر غير واحد من السلف نحوا من هذا والله أعلم

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التبابعة منهم وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم وكانوا فى نعمة وغبطة فى بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بارسال السيل والتفرق فى البلاد أيدى سبأ شذر مذر كما سيأتى إن شاء الله تعالى تفصيله وبيانه قريبا وبه الثقة ، قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا ابن لهيعة عن عبدالله بن هبيرة عن عبدالرحمن بن وعلة قال سمعت ابن عباس يقول إن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال صلى الله عليه وسلم « بل هو رجل ولد له عشرة فسكن اليمن منهم ستة والشام منهم أربعة فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير ، وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان »ورواه عن عبد عن الحسن بن موسى عن ابن لهيعة به وهذا إسناد حسن ولم يخرجوه وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر ـ فى كتاب القصد والأمم ، بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم ـ من حديث ابن لهيعة عن علقمة بن وعلة عن ابن عباس رضى الله عنهما فذكر نحوه . وقد روى نحوه من وجه آخر وقال الإمام أحمد أيضاً وعبد بن حميد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا أبو جناب يحيى بن أبى حية الكلبى عن

ابن هارون عن عروة عن فروة بن مسيك رضي الله عنه قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله أقاتل بمقبل قومي مدبرهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم فقاتل بمقبل قومك مدبرهم » فلما وليت دعاني فقال « لاتقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام » فقلت يارسول الله أرأيت سبأ واد هو أو جبل أوماهو ؟ قال صلى الله عليه وسلم « لا بل هو رجل من العرب ولد له عشرة فتيامن ستة وتشاءم أربعة تيامن الأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار الذين يقال لهم بجيلة وخثعم ، وتشاءم لخم وجذام وعاملة وغسان » وهذا أيضا إسناد حسن وإن كان فيه أبوجناب الكلبي وقد تكلموا فيه لكن رواه ابن جرير عن أبي كريب عن العنقري عن أسباط بن نصر عن يحيي بن هانئ المرادي عن عمه أوعن أبيه ــ شك أسباط ــ قال قدم فروة بن مسيك رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره ﴿ طريق أخرى ﴾ لهذا الحديث : قال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبدالأعلى حدثنا ابن وهب حدثني ابن لهيعة عن توبة بن نمير عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال كنا عند عبيدة بن عبدالرحمن بافريقية فقال يوما ما أظن قوما بأرض إلا وهم من أهلها فقال على بن أبي رباح كلا قد حدثني فلان أن فروة بن مسيك الغطيفي رضي الله عنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إن سبأ قوم كان لهم عز في الجاهلية وإني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام أفأقاتلهم فقال ﷺ « ما أمرت فيهم بشيء بعد » فأنزلت هذه الآية (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية) الآيات فقال له رجل يارسول الله ماسبأ ؟ فذكر مثل هذا الحديث الذي قبله أن رسول الله ﷺ سئل عن سبأ ؟ ماهو أبلد أم رجل أم امرأة ؟ قال ﷺ « بل رجل ولد له عشرة فسكن اليمن منهم ستة والشام أربعة أما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير غير ماحلها وأما الشام فلخم وجذام وغسان وعاملة » فيه غرابة من حيث ذكر نزول الآية بالمدينة والسورة مكية كلها والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ طريق أخرى ﴾ قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أبو أسامة حدثنا الحسن بن الحكم حدثنا أبو سبرة النخعي فروة بن مسيك الغطيفي رضي الله عنه قال : قال رجل يارسول الله أخبرني عن سبأ ماهو أرض أم امرأة ؟ قال ﷺ « ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد له عشرة من الولد فتيامن ستة وتشاءم أربعة فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وعاملة وغسان وأما الذين تيامنوا فكندة والأشعريون والأزد ومذحج وحمير وأنمار » فقال رجل ما أنمار ؟ قال ﷺ « الذين منهم خثعم وبجيلة » ورواه الترمذي في جامعه عن أبي كريب وعبد بن حميد قال حدثنا أبو أسامة فذكره أبسط من هذا ثم قال هذا حديث حسن غريب . وقال أبو عمر بن عبدالبر حدثنا عبدالوارث بن سفيان حدثنا قاسم بن أصبغ حدثنا أحمد بن زهير حدثنا عبدالوهاب بن نجدة الحوطي حدثنا ابن كثير هو عثمان بن كثير عن الليث بن سعد عن موسى بن علي عن يزيد بن حصين عن تميم الداري رضي الله عنه قال إن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن سبأ فذكر مثله فقوى هذا الحديث وحسن . قال علماء النسب ــ منهم محمد بن إسحاق ــ اسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ في العرب وكان يقال له الرائش لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه فسمي الرائش ، والعرب تسمي المال ريشا ورياشا . وذكروا أنه بشر برسول الله صلى الله عليه وسلم في زمانه المتقدم وقال في ذلك شعرا :

سيملك بعدنا ملكا عظيما ... نبي لا يرخص في الحرام ... ويملك بعده منهم ملوك
يدينون القياد بكل دامي ... ويملك بعدهم منا ملوك ... يصير الملك فينا باقتسام
ويملك بعد قحطان نبي ... تقي مخبت خير الأنام ... يسمى أحمداً ياليت أني
أعمر بعد مبعثه بعام ... فأعضده وأحبوه بنصري ... بكل مدجج وبكل رام
متى يظهر فكونوا ناصريه ... ومن يلقاه يبلغه سلامي

ذكر ذلك الهمداني في كتاب ــ الإكليل ــ واختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال (أحدها) أنه من سلالة إرم ابن سام بن نوح واختلفوا في كيفية اتصال نسبة به على ثلاثة طرائق (والثاني) أنه من سلالة عابر وهو هود عليه

الصلاة والسلام واختلفوا أيضا فى كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضا (والثالث) أنه من سلالة إسماعيل ابن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام ، واختلفوا فى كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضا . وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النمرى رحمة الله تعالى عليه فى كتابه المسمى – الانباه على ذكر أصول القبائل الرواه – ومعنى قوله ﷺ « كان رجلا من العرب » يعنى العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام من سلالة سام بن نوح ، وعلى القول الثالث كان من سلالة الخليل عليه السلام وليس هذا بالمشهور عندهم والله أعلم . ولكن فى صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بنفر من أسلم ينتضلون فقال « ارموا بنى إسماعيل فان أباكم كان راميا » فأسلم قبيلة من الأنصار – والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ – نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ فى البلاد حين بعث الله عز وجل عليهم سيل العرم ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما قيل لهم غسان بماء نزلوا عليه قيل باليمن ، وقيل إنه قريب من المشلل كما قال حسان بن ثابت رضى الله عنه

إما سألت فانا معشر نجب الأزد نسبتنا والماء غسان

ومعنى قوله ﷺ « ولد له عشرة من العرب » أى كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع اليهم أصول القبائل من عرب اليمن لأنهم ولدوا من صلبه بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر كما هو مقرر مبين فى مواضعه من كتب النسب . ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم « فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة » أى بعد ما أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم منهم من أقام ببلادهم ومنهم من نزح عنها إلى غيرها . وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع اليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سداً عظيما محكما حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار فى غاية ما يكون من الكثرة والحسن كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة أن المرأة كانت تمشى تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل وهو الذى تخترف فيه الثمار فيتساقط من الأشجار فى ذلك مايملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شىء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ولا شىء من الهوام وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ليوحدوه ويعبدوه كما قال تبارك وتعالى (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية) ثم فسرها بقوله عز وجل (جنتان عن يمين وشمال) أى من ناحيتى الجبلين والبلدة بين ذلك (كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) أى غفور لكم إن استمررتم على التوحيد . وقوله تعالى (فأعرضوا) أى عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله كما قال الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام (وجئتك من سبأ بنبأ يقين * إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون) وقال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه بعث الله تعالى إليهم ثلاثة عشر نبيا ، وقال السدى أرسل الله عز وجل إليهم اثنى عشر ألف نبى والله أعلم . وقوله تعالى (فأرسلنا عليهم سيل العرم) المراد بالعرم المياه ، وقيل الوادى وقيل الجرذ وقيل الماء الغزير فيكون من باب اضافة الاسم إلى صفته مثل مسجد الجامع وسعيد كرز ، حكى ذلك السهيلى . وذكر غير واحد منهم ابن عباس ووهب بن منبه وقتادة والضحاك أن الله عز وجل لما أراد عقوبتهم بارسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض يقال لها الجرذ نقبته قال وهب بن منبه وقد كانوا يجدون فى كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجرذ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير وولجت إلى السد فنقبته فانهار عليهم وقال قتادة وغيره الجرذ هو الخلد نقبت أسافله حتى إذا ضعف ووهى وجاءت أيام السيول صدم الماء البناء فسقط فانساب الماء فى أسفل الوادى وخرب مابين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ونضب الماء عن

الأشجار التى فى الجبلين عن يمين وشمال فيبست وتحطمت وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة كما قال الله تبارك وتعالى (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء الخراسانى والحسن وقتادة والسدى وهو الأراك وأكلة البرير (وأثل) قال العوفى عن ابن عباس هو الطرفاء . وقال غيره هو شجر يشبه الطرفاء وقيل هو السمر والله أعلم . وقوله (وشىء من سدر قليل) لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر (قال وشىء من سدر قليل) فهذا الذى صار أمر تينك الجنتين اليه بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذى الشوك الكثير والثمر القليل ، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل ، ولهذا قال تعالى (ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور) أى عاقبناهم بكفرهم قال مجاهد ولا يعاقب إلا الكفور . وقال الحسن البصرى صدق الله العظيم لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور . وقال طاوس لايناقش إلا الكفور . وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملى حدثنا حجاج بن محمد حدثنا أبو البيداء عن هشام بن صالح التغلبى عن ابن خيره وكان من أصحاب على رضى الله عنه قال : جزاء المعصية الوهن فى العبادة والضيق فى المعيشة والتعسر فى اللذة قيل وما التعسر فى اللذة ؟ قال لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من ينغصنه إياها

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطه والعيش الهنى الرغيد ، والبلاد الرخيه ، والأماكن الآمنة والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولاماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا ، ويقيل فى قرية ويبيت فى أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه فى سيرهم ولهذا قال تعالى (وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها) قال وهب بن منبه هى قرى بصنعاء ، وكذا قال أبو مالك ، وقال مجاهد والحسن وسعيد بن جبير ومالك عن زيد بن أسلم وقتادة والضحاك والسدى وابن زيد وغيرهم يعنى قرى الشام يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام فى قرى ظاهرة متواصلة ، وقال العوفى عن ابن عباس القرى التى باركنا فيها بيت المقدس ، وقال العوفى عنه أيضا هى قرى عربية بين المدينة والشام (قرى ظاهرة) أى بينة واضحة يعرفها المسافرون يقيلون فى واحدة ويبيتون فى أخرى ولهذا قال تعالى (وقدرنا فيها السير) أى جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه (سيروا فيها ليالى وأياما آمنين) أى الأمن حاصل لهم فى سيرهم ليلا ونهارا (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم) وقرأ آخرون (بعد بين أسفارنا) وذلك أنهم بطروا هذه النعمة كما قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون فى قطعها إلى الزاد والرواحل والسير فى الحرور والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها مع أنهم كانوا فى عيش رغيد فى من وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة ولهذا قال لهم (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله) وقال عز وجل (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) وقال تعالى (وضرب الله مثلا قريه كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) . وقال تعالى فى حق هؤلاء (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم) أى بكفرهم (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) أى جعلناهم حديثا للناس وسمراً يتحدثون به من خبرهم وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنىء تفرقوا فى البلاد

ههنا وههنا ولهذا تقول العرب فى القوم إذا تفرقوا تفرقوا أيدى سبا وأيادى سبا وتفرقوا شذر مذر

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان حدثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد قال سمعت أبى يقول سمعت عكرمة يحدث بحديث أهل سبأ قال (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال — إلى قوله تعالى — فأرسلنا عليهم سيل العرم) وكانت فيهم كهنة وكانت الشياطين يسترقون السمع فأخبروا الكهنة بشىء من أخبار السماء . فكان فيهم رجل كاهن شريف كثير المال وأنه خبر أن زوال أمرهم قد دنا وأن العذاب قد أظلهم فلم يدر كيف يصنع لأنه كان له مال كثير من عقار فقال لرجل من بنيه وهو أعزهم أخوالا يا بنى إذا كان غدا وأمرتك بأمر فلا تفعله فاذا انتهرتك فانتهرنى ، فاذا لطمتك فالطمنى ، قال يا أبت لا تفعل إن هذا أمر عظيم وأمر شديد ، قال يا بنى قد حدث أمر لا بد منه فلم يزل به حتى وافاه على ذلك ، فلما أصبحوا واجتمع الناس قال يا بنى افعل كذا وكذا فأبى فانتهره أبوه فأجابه فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه فلطمه فوثب على أبيه فلطمه فقال ابنى يلطمنى ؟ على بالشفرة ، قالوا ما تصنع بالشفرة ؟ قال أذبحه ،قالوا تريد أن تذبح ابنك : الطمه أواصنع ما بدا لك قال فأبى قال فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك فجاء أخواله فقالوا خذمنا ما بدالك فأبى إلا أن يذبحه قالوا فلتموتن قبل أن تذبحه قال فاذا كان الحديث هكذا فإنى لا أرى أن أقيم ببلد يحال بينى وبين ابنى فيه اشتروا منى دورى اشتروا منى أرضى فلم يزل حتى باع دوره وأرضه وعقاره فلما صار الثمن فى يده وأحرزه قال : أى قوم إن العذب قد أظلكم وزوال أمركم قد دنا فمن أراد منكم دارا جديدا وحمى شديدا . وسفرا بعيدا . فليلحق بعمان . ومن أراد منكم الخمر والخمير والعصير. وكلمة قال إبراهيم لم أحفظها — فليلحق ببصرى ومن أراد الراسخات فى الوحل :المطعمات فى المحل. المقيمات فى القحل فليلحق بيثرب ذات نخل فأطاعه قومه فخرج أهل عمان إلى عمان . وخرجت غسان إلى بصرى. وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل قال فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان هذا مكان صالح لا نبغى به بدلا فأقاموا به فسموا لذلك خزاعة لأنهم انخزعوا من أصحابهم واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة وتوجه أهل عمان إلى عمان وتوجهت غسان إلى بصرى . هذا أثر غريب عجيب وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار فى أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذى كان أول من خرج من بلاد اليمن بسبب استشعاره بارسال العرم عليهم فقال :وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن فيما حدثنى به أبو زيد الأنصارى أنه رأى جرزا يحفر فى سد مأرب الذى كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن وكاد قومه فأمر أصغر ولده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو لا أقيم ببلد لطم وجهى فيها أصغر ولدى وعرض أمواله. فقال أشراف من أشراف اليمن اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله وانتقل هو فى ولده وولد ولده ،وقالت الأسد لا نتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان فحاربتهم عك وكانت حربهم سجالا ففى ذلك يقول عباس بن مرداس السلمى رضى الله عنه :

وعك بن عدنان الذين تلعبوا   بغسان حتى طردوا كل مطرد

وهذا البيت من قصيدة له . قال ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلدان فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزلت الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مرا . ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عمان عمان : ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه وفى ذلك أنزل الله عز وجل هذه الآيات.وقد ذكر السدى قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمد بن إسحاق إلا أنه قال فأمر ابن أخيه مكان ابنه — إلى قوله — فباع ماله وارتحل بأهله فتفرقوا رواه ابن أبى حاتم

وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد أخبرنا سلمة عن ابن إسحاق قال يزعمون أن عمرو بن عامر وهو عم القوم كان كاهنا فرأى فى كهانته أن قومه سيمزقون ويباعد بين أسفارهم . فقال لهم إنى قد علمت أنكم ستمزقون فمن كان منكم ذاهم بعيد وحمل شديد . ومزاد حديد : فليلحق بكاس أو كرود . قال فكانت وادعة بن عمرو . ومن كان منكم ذاهم مدن. وأمر

دعن ، فليلحق بأرض شن،فكانت عوف بن عمرو وهم الذين يقال لهم بارق ، ومن كان منكم يريد عيشا آنيا،وحرما آمنا فليلحق بالأرزبن فكانت خزاعة ، ومن كان منكم يريد الراسيات فى الوحل ، المطعمات فى المحل، فليلحق بيثرب ذات النخل فكانت الأوس والخزرج وهما هذان الحيان من الأنصار ومن كان منكم يريد خمرا وخميرا وذهبا وحريرا ، وملكا وتأميرا ، فليلحق بكوثى وبصرى ، فكانت غسان بنو جفنة ملوك الشام ومن كان منهم بالعراق . قال ابن إسحق وقد سمعت بعض أهل العلم يقول إنما قالت هذه المقالة طريفة امرأة عمرو بن عامر وكانت كاهنة فرأت فى كهانتها ذلك فالله أعلم أى ذلك كان وقال سعيد عن قتادة عن الشعبي أما غسان فلحقوا بعمان فمزقهم الله كل ممزق بالشام ،وأما الأنصار فلحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة ، وأما الأزد فلحقوا بعمان فمزقهم الله كل ممزق . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ، ثم قال محمد بن إسحق حدثنى أبو عبيدة قال : قال الأعشى أعشى بنى قيس بن ثعلبة واسمه ميمون بن قيس :

وفى ذاك للمؤتسى أسوة * ومأرب قفى عليها العرم * رجام بنته لهم حمير * إذا جاء ماؤهم لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها * على سعة ماؤهم إذ قسم * فصاروا أيادى مايقدرو * ن منه على شرب طفل فطم

وقوله تعالى (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى إن فى هذا الذى حل بهؤلاء من النقمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب شكور على النعم قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعنى قالا أخبرنا سفيان عن أبى إسحق عن العيزار بن حريث عن عمر بن سعد عن أبيه هو سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر ، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر ، يؤجر المؤمن فى كل شىء حتى فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته » . وقد رواه النسائى فى اليوم والليلة من حديث أبى إسحق السبيعى به وهو حديث عزيز من رواية عمر بن سعد عن أبيه ولكن له شاهد فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه « عجباً للمؤمن لا يقضى الله تعالى له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ؛ وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » . قال عبد حدثنا يونس عن سفيان عن قتادة (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) قال كان مطرف يقول: نعم العبد الصبار الشكور الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم فى اتباعهم الهوى والشيطان أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى وخالف الرشاد والهدى فقال (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه) قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره هذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم عليه الصلاة السلام ثم قال (أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا) وقال (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) والآيات فى هذا كثيرة ، وقال الحسن البصرى لما أهبط الله آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ومعه حواء هبط إبليس فرحا بما أصاب منهما وقال إذا أصبت من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف وكان ذلك ظنا من إبليس فأنزل الله عز وجل (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين) فقال عند ذلك إبليس لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح أعده وأمنيه وأخدعه ، فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لا أحجب عنه التوبة ما لم يغرغر بالموت . ولا يدعونى إلا أجبته ، ولا يسألنى إلا أعطيته ، ولا يستغفرنى إلا غفرت له رواه ابن أبى حاتم . وقوله تبارك وتعالى (وما كان له عليهم من سلطان) قال ابن عباس رضى الله عنهما أى من حجة وقال الحسن البصرى والله ما ضربهم بعصا ولا أكرههم على شىء وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها

فأجابوه . وقوله عز وجل (إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك) أى إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء فيحسن عبادة ربه عز وجل فى الدنيا ممن هو منها فى شك

وقوله تعالى (وربك على كل شىء حفيظ) أى ومع حفظه ضل من ضل من اتباع إبليس ، وبحفظه وكلاءته سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

بين تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لا نظير له ولا شريك له بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض فقال (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله) أى من الآلهة التى عبدت من دونه (لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) كما قال تبارك وتعالى (والذين يدعون من دونه ما يملكون من قطمير) . وقوله تعالى (وما لهم فيهما من شرك) أى لا يملكون شيئاً استقلالا ولا على سبيل الشركة (وما له منهم من ظهير) أى وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به فى الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه عبيد لديه قال قتادة فى قوله عز وجل (وما له منهم من ظهير) من عون يعينه بشىء . ثم قال تعالى (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) أى لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترىء أحد أن يشفع عنده تعالى فى شىء إلا بعد إذنه له فى الشفاعة كما قال عز وجل (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) وقال جل وعلا (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقال تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) ولهذا ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله تعالى أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع فى الخلق كلهم أن يأتى ربهم لفصل القضاء قال « فأسجد لله تعالى فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ثم يقال يامحمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع » الحديث بتمامه . وقوله تعالى (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق) وهذا أيضاً مقام رفيع فى العظمة وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحى فسمع أهل السموات كلامه أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشى ، قاله ابن مسعود رضى الله عنه ومسروق وغيرهما (حتى إذا فزع عن قلوبهم) أى زال الفزع عنها قال ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم وأبو عبد الرحمن السلمى والشعبى وإبراهيم النخعى والضحاك والحسن وقتادة فى قوله عز وجل (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالو ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق) يقول خلى عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف ، وجاء مرفوعا إذا فرغ بالغين المعجمة ويرجع إلى الأول فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضا ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ثم الذين يلونهم لمن تحتهم حتى ينتهى الخبر إلى أهل السماء الدنيا ، ولهذا قال تعالى (قالوا الحق) أى أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان (وهو العلى الكبير) . وقال آخرون بل معنى قوله تعالى (حتى إذا فزع عن قلوبهم) يعنى المشركين عند الاحتضار ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة قالوا ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا قال ابن أبى نجيح عن مجاهد (حتى إذا فزع عن قلوبهم) كشف عنها الغطاء يوم القيامة . وقال الحسن (حتى إذا فزع عن قلوبهم) يعنى ما فيها من الشك والتكذيب وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (حتى إذا فزع عن قلوبهم) يعنى ما فيها من الشك قال فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم (قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق وهو العلى الكبير) قال وهذا فى بنى آدم هذا عند الموت أقروا حين لا ينفعهم الاقرار وقد اختار ابن جرير القول الأول أن الضمير عائد على

الملائكة وهذا هو الحق الذى لامرية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار ، ولنذكر منها طرفا يدل على غيره قال البخارى عند تفسير هذه الآية الكريمة فى صحيحه حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال : سمعت عكرمة قال سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول إن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا قضى الله تعالى الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال الحق وهو العلى الكبير فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء » انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم من هذا الوجه ، وقد رواه أبوداود والترمذى وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة به والله أعلم .

﴿ حديث آخر ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرزاق قالا : حدثنا معمر أخبرنا الزهرى عن على بن الحسين عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ جالسا فى نفر من أصحابه قال عبد الرزاق من الأنصار فرمى بنجم فاستنار فقال صلى الله عليه وسلم « ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا فى الجاهلية » قالوا كنا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم . قلت للزهرى أكان يرمى بها فى الجاهلية ، قال نعم ولكن غلظت حين بعث النبى صلى الله عليه وسلم قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فانها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمرا سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم ويخبر أهل كل سماء سماء حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء وتخطف الجن السمع فيرمون ، فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون » هكذا رواه الإمام أحمد ، وقد أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث صالح بن كيسان والأوزاعى ويونس ومعقل بن عبيد الله أربعتهم عن الزهرى عن على بن الحسين عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رجل من الأنصار به وقال يونس عن رجال من الأنصار رضى الله عنهم ، وكذا رواه النسائى فى التفسير من حديث الزبيدى عن الزهرى به ، ورواه الترمذى فيه عن الحسين بن حريث عن الوليد بن مسلم عن الاوزاعى عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رجل من الأنصار رضى الله عنه والله أعلم .

﴿ حديث آخر ﴾ قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عوف وأحمد بن منصور بن سيار الرمادى والسياق لمحمد بن عوف قالا: حدثنا نعيم بن حماد حدثنا الوليد هو ابن مسلم عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عبد الله بن أبى زكريا عن رجاء ابن حيوة عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله تبارك وتعالى أن يوحى بأمره تكلم بالوحى ، فاذا تكلم أخذت السموات منه رجفة - أو قال رعدة - شديدة من خوف الله تعالى فاذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه الصلاة والسلام فيكلمه الله من وحيه بما أراد فيمضى به جبريل عليه الصلاة والسلام على الملائكة كلما مر بسماء سماء يسأله ملائكتها ماذا قال ربنا ياجبريل ، فيقول عليه السلام: قال الحق وهو العلى الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل فينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله تعالى من السماء والأرض » وكذا رواه ابن جرير وابن خزيمة عن زكريا ابن أبان المصرى عن نعيم بن حماد به وقال ابن أبى حاتم سمعت أبى يقول : ليس هذا الحديث بالتام عن الوليد بن مسلم رحمه الله وقد روى ابن أبى حاتم من حديث العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وعن قتادة أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله تعالى إلى محمد ﷺ بعد الفترة التى كانت بينه وبين عيسى عليه الصلاة والسلام ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل فى هذه الآية .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ * قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

يقول تعالى مقررا تفرده بالخلق والرزق وانفراده بالإلهية أيضا فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض أى بما ينزل من المطر وينبت من الزرع إلا الله فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره وقوله تعالى (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) هذا من باب اللف والنشر أى واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال بل واحد منا مصيب ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى ولهذا قال (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) . قال قتادة قد قال ذلك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم للمشركين والله ما نحن وإياكم على أمر واحد إن أحد الفريقين لمهتد ، وقال عكرمة وزياد بن أبى مريم معناها إنا نحن لعلى هدى وإنكم لفى ضلال مبين . وقوله تعالى (قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون) معناه التبرى منهم أى لستم منا ولا نحن منكم بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده وإفراد العبادة له فان أجبتم فأنتم منا ونحن منكم وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا كما قال تعالى (فإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) . وقال عز وجل (قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين) وقوله تعالى (قل يجمع بيننا ربنا) أى يوم القيامة يجمع بين الخلائق فى صعيد واحد ثم يفتح بيننا بالحق أى يحكم بيننا بالعدل فيجزى كل عامل بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية كما قال تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون * وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون) ولهذا قال عز وجل (وهو الفتاح العليم) أى الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور . وقوله تبارك وتعالى (قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء) أى أرونى هذه الآلهة التى جعلتموها لله أندادا وصيرتموها له عدلا (كلا) أى ليس له نظير ولا نديد ولا شريك ولا عديل . ولهذا قال تعالى (بل هو الله) أى الواحد الأحد الذى لا شريك له (العزيز الحكيم) أى ذو العزة الذى قد قهر بها كل شىء وغلبت كل شىء ، الحكيم فى أفعاله وأقواله وشرعه وقدره تبارك وتعالى وتقدس عما يقولون علوا كبيرا والله أعلم

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ تسليما (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) أى إلا إلى جميع الخلائق من المكلفين كقوله تبارك وتعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً) (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) ، (بشيرا ونذيرا) أى تبشر من أطاعك بالجنة وتنذر من عصاك بالنار (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) كقوله عز وجل (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) قال محمد بن كعب فى قوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس) يعنى إلى الناس عامة وقال قتادة فى هذه الآية أرسل الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله تبارك وتعالى أطوعهم لله عز وجل . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو عبدالله الظهرانى حدثنا حفص بن عمر العدنى حدثنا الحكم يعنى

ابن أبان عن عكرمة قال سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول : إن الله تعالى فضل محمداً صلى الله عليه وسلم على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا يا ابن عباس فبم فضله على الأنبياء ؟ قال رضى الله عنه إن الله تعالى قال (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) وقال للنبي صلى الله عليه وسلم (وما أرسلناك إلا كافة للناس) فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس . وهذا الذى قاله ابن عباس رضى الله عنهما قد ثبت فى الصحيحين رفعه عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » وفى الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال « بعثت إلى الأسود والأحمر » قال مجاهد يعنى الجن والإنس وقال غيره يعنى العرب والعجم والكل صحيح. ثم قال عزوجل مخبرا عن الكفار فى استبعادهم قيام الساعة (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) وهذه الآية كقوله عزوجل (يستعجل بها الذين لايؤمنون بها والذى آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) الآية ثم قال تعالى (قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولاتستقدمون) أى لكم ميعاد مؤجل معدود محرر لا يزاد ولاينقص فاذا جاء فلا يؤخر ساعة ولايقدم كما قال تعالى (إن أجل الله إذا جاء لايؤخر) وقال عزوجل (وما نؤخره إلا لأجل معدود ✽ يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد) .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ✽ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ✽ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم وبما أخبر به من أمر المعاد ولهذا قال تعالى (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) قال الله عزوجل متهددا لهم ومتوعدا ومخبرا عن مواقفهم الذليلة بين يديه فى حال تخاصمهم وتحاجهم (يرجع بعضهم إلى بعضهم القول يقول الذين استضعفوا) وهم الأتباع (للذين استكبروا) منهم وهم قادتهم وسادتهم (لولا أنتم لكنا مؤمنين) أى لولا أنتم تصدونا لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاءونا به ، فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا (أنحن صددنا كم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟) أى نحن مافعلنا بكم أكثر من أنا دعتمونا كم فاتبعونا من غير دليل ولا برهان وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك ولهذا قالوا (بل كنتم مجرمين ✽ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار) أى بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا وتغرونا وتمنونا وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شىء فاذا جميع ذلك باطل وكذب ومين ، قال قتادة وابن زيد (بل مكر الليل والنهار) يقول بل مكركم بالليل والنهار وكذا قال مالك عن زيد بن أسلم مكركم بالليل والنهار (إذا تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) أى نظراء وآلهة معه وتقيموا لنا شبها وأشياء من المحال تضلونا بها (وأسروا الندامه لما رأوا العذاب) أى الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه (وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا) وهى السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم (هل يجزون إلا ما كانو يعملون) أى إنما نجازيكم بأعمالكم كل بحسبه للقادة عذاب بحسبهم وللأتباع بحسبهم (قال لكل ضعف

ولكن لا تعلمون) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا فروة بن أبي المغراء حدثنا محمد بن سليمان بن الأصبهاني عن أبي سنان ضرار بن صرد عن عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقاهم لهبها ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب » وحدثنا أبي حدثنا أحمد بن أبي الحواري حدثنا الطيب أبو الحسن عن الحسن بن يحيي الخشني قال ما في جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا قيد ولا سلسلة إلا اسم صاحبها عليها مكتوب قال فحدثته أبا سليمان يعني الداراني رحمة الله عليه فبكى ثم قال ويحك فكيف به لو جمع هذا كله عليه فجعل القيد في رجليه والغل في يديه والسلسلة في عنقه ثم أدخل النار وأدخل المغار ؟ اللهم سلم

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ * وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ وآمرا له بالتأسي بمن قبله من الرسل ومخبره بأنه ما بعث نبيا في قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم كما قال قوم نوح عليه الصلاة والسلام (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي) وقال الكبراء من قوم صالح (للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالو إنا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون) وقال عز وجل (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) وقال تعالى (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها) وقال جل وعلا (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) وقال جل وعلا ههنا (وما أرسلنا في قرية من نذير) أي نبي أو رسول (إلا قال مترفوها) وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة ، قال قتادة هم جبابرتهم وقادتهم ورءوسهم في الشر (إنا بما أرسلتم به كافرون) أي لا نؤمن به ولا نتبعه ، قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا هارون بن إسحاق حدثنا محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن عاصم عن أبي رزين قال كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل . فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم قال فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال دلني عليه قال وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب قال فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إلام تدعو ؟ قال « أدعو إلى كذ وكذا » قال أشهد أنك رسول الله . قال ﷺ « وما علمك بذلك ؟ » قال إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم قال فنزلت هذه الآية (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) الآية قال فأرسل إليه النبي ﷺ إن الله عز وجل قد أنزل تصديق ما قلت وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها وسألتك أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم فزعمت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل . وقال تبارك وتعالى إخبارا عن المترفين المكذبين (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) أي افتخروا بكثرة الأموال والأولاد واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتنائه بهم وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة وهيهات

لهم ذلك قال الله تعالى (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون) وقال تبارك وتعالى (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) وقال عزوجل (ذرنى ومن خلقت وحيدا* وجعلت له مالا ممدودا* وبنين شهودا* ومهدت له تمهيدا* ثم يطمع أن أزيد* كلا إنه كان لآياتنا عنيدا* سأرهقه صعودا) وقد أخبر الله عز وجل عن صاحب تينك الجنتين أنه كان ذا مال وثمر وولد ثم لم يغن عنه شيئا بل سلب ذلك كله فى الدنيا قبل الآخرة ولهذا قال عز وجل هاهنا (قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب فيفقر من يشاء ويغنى من يشاء وله الحكمة التامة البالغة والحجة القاطعة الدامغة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ثم قال تعالى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) أى ليست هذه دليلا على محبتنا لكم ولا اعتنائنا لكم . قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا كثير حدثنا جعفر حدثنا يزيد بن الأصم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ورواه مسلم وابن ماجه من حديث كثير بن هشام عن جعفر بن برقان به ، ولهذا قال الله تعالى (إلا من آمن وعمل صالحا) أى إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح (فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا) أى تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف (وهم فى الغرفات آمنون) أى فى منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ومن كل شر يحذر منه . قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا فروة بن أبى المغراء الكندى حدثنا القاسم وعلى بن مسهر عن عبدالرحمن بن إسحق عن النعمان بن سعد عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن فى الجنة لغرفا ترى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها » فقال أعرابى لمن هى ؟ قال صلى الله عليه وسلم « لمن طيب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام » (والذين يسعون فى آياتنا معاجزين) أى يسعون فى الصد عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته (فأولئك فى العذاب محضرون) أى جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم . وقوله تعالى (قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) أى بحسب ماله فى ذلك من الحكمة يبسط على هذا من المال كثيرا ويضيق على هذا ويقتر على هذا رزقه جدا وله فى ذلك من الحكمة مالا يدركها غيره كما قال تعالى (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفصيلا) أى كما هم متفاوتون فى الدنيا هذا فقير مدقع وهذا غنى موسع عليه فكذلك هم فى الآخرة هذا فى الغرفات فى أعلى الدرجات وهذا فى الغمرات فى أسفل الدركات ؛ وأطيب الناس فى الدنيا كما قال صلى الله عليه وسلم « قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه » رواه مسلم من حديث ابن عمر رضى الله عنهما . وقوله تعالى (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه) أى مهما أنفقتم من شىء فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم فى الدنيا بالبدل وفى الآخرة بالجزاء والثواب كما ثبت فى الحديث « يقول الله تعالى أنفق أنفق عليك » وفى الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما : اللهم أعط ممسكا تلفا ويقول الآخر : اللهم أعط منفقا خلفا ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا » وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى عن يزيد بن عبد العزيز الفلاس حدثنا هشيم عن الكوثر بن حكيم عن مكحول قال بلغنى عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض يعض الموسر على ما فى يده حذار الانفاق » ثم تلا هذه الآية (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا روح بن حاتم حدثنا هشيم عن الكوثر بن حكيم عن مكحول قال بلغنى عن حذيفة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض يعض الموسر على ما فى يده حذار الانفاق » قال الله تعالى (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) وفى الحديث « شرار الناس يبايعون كل مضطر ألا إن بيع المضطرين حرام ، ألا إن بيع المضطرين حرام ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله إن كان عندك معروف فعد به على أخيك وإلا فلا تزده هلاكا إلى هلاكه » هذا حديث غريب من هذا الوجه وفى إسناده ضعف وقال سفيان الثورى عن أبى يونس الحسن بن يزيد

قال : قال مجاهد لا يتأولن أحدكم هذه الآية (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه فإن الرزق مقسوم

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ * فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رءوس الخلائق فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقربوهم إلى الله زلفى فيقول للملائكة (أهؤلاء إياكم كانو يعبدون) أي أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم كما قال تعالى في سورة الفرقان (أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل) وكما يقول لعيسى عليه الصلاة والسلام (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق) وهكذا تقول الملائكة (سبحانك) أي تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله (أنت ولينا من دونهم) أي نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء (بل كانوا يعبدون الجن) يعنون الشياطين لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم (أكثرهم بهم مؤمنون) كما قال تبارك وتعالى (إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا * لعنه الله) قال الله عز وجل (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً) أي لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم، اليوم لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا (ونقول للذين ظلموا) وهم المشركون (ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون) أي يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ * وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غضة طرية من لسان رسوله ﷺ (قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) يعنون أن دين آبائهم هو الحق وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل ، عليهم وعلى آبائهم لعائن الله تعالى (وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى) يعنون القرآن (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) قال الله تعالى (وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) أي ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ وقد كانوا يودون ذلك ويقولون لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا ، فلما من الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه ثم قال تعالى (وكذب الذين من قبلهم) أي من الأمم (وما بلغوا معشار ما آتيناهم) قال ابن عباس رضي الله عنهما أي من القوة في الدنيا . وكذلك قال قتادة والسدي وابن زيد كما قال تعالى (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون * أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة) أي وما دفع ذلك

عنهم عذاب الله ولا رده ، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ولهذا قال (فكذبوا رسلي فكيف كان نكير) أي فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾

يقول تبارك وتعالى قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون (إنما أعظكم بواحدة) أي إنما آمركم بواحدة وهي (أن تقوموا الله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة) أي تقوموا قياما خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية فيسأل بعضكم بعضاهل بمحمد من جنون فينصح بعضكم بعضا (ثم تتفكروا) أي ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر في ذلك ولهذا قال تعالى (أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة) هذا معنى ما ذكره مجاهد ومحمد بن كعب والسدي وقتادة وغيرهم وهذا هو المراد من الآية فأما الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا صدقة ابن خالد حدثنا عثمان بن أبي العاتكة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « أعطيت ثلاثا لم يعطهن أحد قبلي ولافخر . أحلت لي الغنائم ولم تحل لمن قبلي، كانوا قبلي يجمعون غنائمهم فيحرقونها . وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً أتيمم بالصعيد وأصلي فيها حيث أدركتني الصلاة قال الله تعالى (أن تقوموا لله مثنى وفرادى) وأعنت بالرعب مسير شهر بين يدى» فهو حديث ضعيف الإسناد ، وتفسير الآية بالقيام في الصلاة في جماعة وفرادى بعيد ولعله مقحم في الحديث من بعض الرواة فان أصله ثابت في الصحاح وغيرها والله أعلم

وقوله تعالى (إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) قال البخاري عندها حدثنا علي بن عبد الله حدثنا محمد ابن حازم حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم فقال « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش فقالوا مالك ؟ فقال « أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقوني » قالوا بلى ؟ قال صلى الله عليه وسلم « فاني نذير لكم بين يدى عذاب شديد » فقال أبولهب تبا لك ألهذا جمعتنا . فأنزل الله عز وجل (تبت يدا أبي لهب وتب)وقد تقدم عند قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) وقال الإمام أحمد حدثنا أبو نعيم حدثنا بشير بن المهاجر حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال : خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فنادى ثلاث مرات فقال « أيها الناس تدرون ما مثلي ومثلكم ؟ » قالوا الله تعالى ورسوله أعلم . قال ﷺ « إنما مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا يأتيهم فبعثوا رجلا يتراءى لهم فبينما هو كذلك أبصر العدو فأقبل لينذرهم وخشي أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه ، أيها الناس أوتيتم أيها الناس أوتيتم » ثلاث مرات ، وبهذا الإسناد قال: قال رسول ﷺ « بعثت أنا والساعة جميعا إن كادت لتسبقني » تفرد به الإمام أحمد في مسنده

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ✽ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ✽ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ✽ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين (ما سألتكم من أجر فهو لكم) أي لا أريد

منكم جعلا ولا عطاء على أداء رسالة الله عز وجل إليكم ونصحي إياكم وأمركم بعبادة الله (إن أجري إلا على الله) أي إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله (وهو على كل شيء شهيد) أي عالم بجميع الأمور بما أنا عليه من إخباري عنه بارساله إياي إليكم وما أنتم عليه . وقوله عز وجل (قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب) كقوله تعالى (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده) أي يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض وهو علام الغيوب فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض وقوله تبارك وتعالى (قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد) أي جاء الحق من الله والشرع العظيم وذهب الباطل وزهق واضمحل كقوله تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) ولهذا لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام يوم الفتح ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعن الصنم منها بسية قوسه ويقرأ (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن كان الباطل زهوقا) (قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وحده عند هذه الآية كلهم من حديث الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عبد الله بن سخبرة عن ابن مسعود رضي الله عنه به ، أي لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة ، وزعم قتادة والسدي أن المراد بالباطل ههنا إبليس أي أنه لا يخلق أحدا ولا يعيده ولا يقدر على ذلك وهذا وإن كان حقا ولكن ليس هو المراد ههنا والله أعلم . وقول تبارك وتعالى (قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربي) أي الخير كله من عند الله وفيما أنزل الله عز وجل من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لما سئل عن تلك المسئلة في المفوضة أقول فيها برأيي فان يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه . وقوله تعالى (إنه سميع قريب) أي سميع لأقوال عباده قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، وقد روى النسائي ههنا حديث أبي موسى الذي في الصحيحين « إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريبا مجيبا »

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ * وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾

يقول تبارك وتعالى ولو ترى يا محمد إذا فزع هؤلاء المكذبون يوم القيامة فلا فوت أي فلا مفر لهم ولا وزر لهم ولا ملجأ (وأخذوا من مكان قريب) أي لم يمكنوا أن يمعنوا في الهرب بل أخذوا من أول وهلة . قال الحسن البصري حين خرجوا من قبورهم وقال مجاهد وعطية العوفي وقتادة من تحت أقدامهم ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك يعني عذابهم في الدنيا ، وقال عبد الرحمن بن زيد يعني قتلهم يوم بدر والصحيح أن المراد بذلك يوم القيامة وهو الطامة العظمى ، وإن كان ما ذكر متصلا بذلك ، وحكى ابن جرير عن بعضهم قال إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة في أيام بني العباس رضي الله عنهم . ثم أورد في ذلك حديثا موضوعا بالكلية ثم لم ينبه على ذلك وهذا أمر عجيب غريب منه (وقالوا آمنا به) أي يوم القيامة يقولون آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله كما قال تعالى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون) ولهذا قال تعالى (وأنى لهم التناوش من مكان بعيد) أي وكيف لهم تعاطي الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة وهي دار الجزاء لا دار الابتلاء فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد . قال مجاهد (وأنى لهم التناوش) قال التناول لذلك . وقال الزهري : التناوش تناولهم الإيمان وهم في الآخرة وقد انقطعت عنهم الدنيا ، وقال الحسن البصري أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال تعاطوا الإيمان من مكان بعيد ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : طلبوا الرجعة إلى الدنيا

والتوبة بمامهم فيه وليس بحين رجعة ولا توبة . وكذا قال محمد بن كعب القرظى رحمه الله . وقوله تعالى (وقد كفروا به من قبل) أى كيف يحصل لهم الإيمان فى الآخرة وقد كفروا بالحق فى الدنيا وكذبوا الرسل (ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) قال مالك عن زيد بن أسلم (ويقذفون بالغيب) قال بالظن قلت كما قال تعالى (رجما بالغيب) فتارة يقولون شاعر وتارة يقولون كاهن وتارة يقولون ساحر وتارة يقولون مجنون إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون بالبعث والنشور والمعاد (ويقولون إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين) قال قتادة ومجاهد يرجمون بالظن لا بعث ولا جنة ولا نار وقوله تعالى (وحيل بينهم وبين مايشتهون) قال الحسن البصرى والضحاك وغيرهما يعنى الإيمان وقال السدى (وحيل بينهم وبين مايشتهون) وهى التوبة وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله . وقال مجاهد (وحيل بينهم وبين مايشتهون) من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل ، وروى نحوه عن ابن عمر وابن عباس والربيع ابن أنس رضى الله عنهم وهو قول البخارى وجماعة والصحيح أنه لا منافاة بين القولين فانه قد حيل بينهم وبين شهواتهم فى الدنيا وبين ماطلبوه فى الآخرة فمنعوا منه . وقد ذكر ابن أبى حاتم ههنا أثراً غريباً عجيباً جدا فنذكره بطوله فانه قال : حدثنا محمد بن يحيى حدثنا بشر بن حجر الشامى حدثنا على بن منصور الأنبارى عن الرقى بن قطامى عن سعيد ابن طريف عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قول الله عز وجل (وحيل بينهم وبين مايشتهون) إلى آخر الآية قال كان رجل من بنى إسرائيل فاتحاً إن يتح الله تعالى له مالا فمات فورثه ابن له تافه أى فاسد فكان يعمل فى مال الله تعالى بمعاصى الله تعالى عز وجل فلما رأى ذلك أخوات أبيه أتوا الفتى فعذلوه ولاموه فضجر الفتى فباع عقاره بصامت ثم رحل فأتى عينا ثجاجة فسرح فيها ماله وابتنى قصرا فبينما هو ذات يوم جالس إذ شملت عليه ريح بامرأة من أحسن الناس وجها وأطيبهم أرجا أى ريحا فقالت من أنت ياعبد الله ؟ فقال أنا امرؤ من بنى إسرائيل قالت فلك هذا القصر وهذا المال ؟ فقال نعم . قالت فهل لك من زوجة ، قال لا . قالت فكيف يهنيك العيش ولا زوجة لك ، قال قد كان ذاك ، قال فهل لك من بعل ، قالت لا قال فهل لك إلى أن أتزوجك ، قالت إنى امرأة منك على مسيرة ميل فاذا كان غد فتزود زاد يوم واتنى وإن رأيت فى طريقك هولا فلا يهولنك فلما كان من الغد تزود زاد يوم وانطلق فانتهى إلى قصر فقرع رتاجه فخرج اليه شاب من أحسن الناس وجها وأطيبهم أرجا أى ريحا فقال من أنت ياعبدالله ، فقال أنا الإسرائيلى قال فما حاجتك ، قال دعتنى صاحبة هذا القصر إلى نفسها قال صدقت ، قال فهل رأيت فى الطريق هولا ، قال نعم ولولا أنها أخبرتنى أن لا بأس على لهالنى الذى رأيت قال مارأيت ، قال أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بكلبة فاتحة فاها ففزعت فوثبت فإذا أنا من ورائها وإذا جراؤها ينبحن فى بطنها فقال له الشاب لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان يقاعد الغلام الشيخة فى مجلسهم ويسرهم حديثه ، قال ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بمائة عنز حفل وإذا فيها جدى يمصها فاذا أتى عليها وظن أنه لم يترك شيئاً فتح فاه يلتمس الزيادة فقال لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ملك يجمع صامت الناس كلهم حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئاً فتح فاه يلتمس الزيادة ، قال ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بشجر فأعجبنى غصن من شجرة منها ناضرة فأردت قطعه فنادتنى شجرة أخرى ياعبد الله منى فخذ حتى نادانى الشجر أجمع يا عبد الله منى فخذ فقال لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان يقل الرجال ويكثر النساء حتى إن الرجل ليخطب المرأة فتدعوه العشر والعشرون إلى أنفسهن ، قال ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل فاذا أنا برجل قائم على عين يغرف لكل إنسان من الماء فإذا تصدعوا عنه صب فى جرته فلم تعلق جرته من الماء بشىء ، قال لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان القاص يعلم الناس العلم ثم يخالفهم إلى معاصى الله تعالى ، قال ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بعنز وإذا بقوم قد أخذوا بقوائمها وإذا رجل قد أخذ بقرنها وإذا رجل قد أخذ بذنبها وإذا راكب قد ركبها وإذا رجل يحتلبها فقال أما العنز فهى الدنيا والذين أخذوا بقوائمها يتساقطون من عيشها ، وأما الذى أخذ بقرنها فهو يعالج من عيشها ضيقا . وأما الذى أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه ، وأما الذى ركبها فقد

تركها ؟ وأما الذى يحلبها فبخ بخ ذهب ذلك بها ، قال ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا برجل يمتح على قليب كلما أخرج دلوه صبه فى الحوض فانساب الماء راجعا إلى القليب قال هذا رجل رد الله عليه صالح عمله فلم يقبله قال ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا برجل يبذر بذرا فيستحصد فاذا حنطة طيبة قال هذا رجل قبل الله صالح عمله وأزكاه له . قال ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا برجل مستلق على قفاه قال ياعبد الله: ادن منى فخذ بيدى وأقعدنى فوالله ماقعدت منذ خلقنى الله تعالى فأخذت بيده فقام يسعى حتى ما أراه فقال له الفتى هذا عمر الأبعد نفد ، أنا ملك الموت وأنا المرأة التى أتتك أمرنى الله تعالى بقبض روح الأبعد فى هذا المكان ثم أصيره إلى نار جهنم قال ففيه نزلت هذه الآية (وحيل بينهم وبين مايشتهون) الآية هذا أثر غريب وفى صحته نظر، وتنزيل الآية عليه وفى حقه بمعنى أن الكفار كلهم يتوفون وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا كما جرى لهذا المغرور المفتون ذهب يطلب مراده فجاءه ملك الموت فجأة بغتة وحيل بينه وبين ما يشتهى . وقوله تعالى (كما فعل بأشياعهم من قبل) أى كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسل لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) . وقوله تبارك وتعالى (إنهم كانوا فى شك مريب) أى كانوا فى الدنيا فى شك وريبة فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب : قال قتادة إياكم والشك والريبة فان من مات على شك بعث عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه. آخر تفسير سورة سبأ والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب

﴿ تفسير سورة فاطر وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُولِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قال سفيان الثورى عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما: قال كنت لا أدرى مافاطر السموات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما لصاحبه أنا فطرتها أى بدأتها وقال ابن عباس رضى الله عنهما أيضا (فاطر السموات والأرض) أى بديع السموات والأرض ، وقال الضحاك كل شىء فى القرآن فاطر السموات والأرض فهو خالق السموات والأرض . وقوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) أى بينه بين أنبيائه (أولى أجنحة) أى يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعا (مثنى وثلاث ورباع) أى منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ومنهم من له أربعة ومنهم من له أكثر من ذلك كما جاء فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ولهذا قال جل وعلا (يزيد فى الخلق مايشاء إن الله على كل شىء قدير) قال السدى يزيد فى الأجنحة وخلقهم مايشاء وقال الزهرى وابن جريج فى قوله تعالى (يزيد فى الخلق مايشاء) يعنى حسن الصوت رواه عن الزهرى البخارى فى الأدب وابن أبى حاتم فى تفسيره وقرئ فى الشاذ (يزيد فى الحلق) بالحاء المهملة والله أعلم .

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

يخبر تعالى أنه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه لامانع لما أعطى ولا معطى لما منع . قال الإمام أحمد حدثنا على ابن عاصم حدثنا مغيرة أخبرنا عامر عن وراد مولى المغيرة بن شعبة قال إن معاوية كتب إلى المغيرة بن شعبة اكتب لى بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعانى المغيرة فكتبت اليه إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا انصرف من الصلاة « لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد

وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » وبمعته ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال . وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات . وأخرجاه من طرق عن وراد به وثبت فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال إن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول «سمع الله لمن حمده اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد، اللهم أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد. اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد» وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) ولها نظائر كثيرة . وقال الإمام مالك رحمة الله عليه كان أبو هريرة رضى الله عنه إذا مطروا يقول مطرنا بنوء الفتح ثم يقرأ هذه الآية (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) ورواه ابن أبى حاتم عن يونس عن ابن وهب عنه

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده فى افراد العبادة له كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ولهذا قال تعالى (لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) أى فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان والله أعلم

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ * إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

يقول تبارك وتعالى وإن يكذبوك يا محمد هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة فانهم كذلك جاءوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم (وإلى الله ترجع الأمور) أى وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء . ثم قال تعالى (يا أيها الناس إن وعد الله حق) أى المعاد كائن لا محالة (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) أى العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تتلهوا عن ذلك الباقى بهذه الزهرة الفانية (ولا يغرنكم بالله الغرور) وهو الشيطان قاله ابن عباس رضى الله عنهما أى لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته فانه غرار كذاب أفاك ، وهذه الآية كالآية التى فى آخر لقمان فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) وقال مالك عن زيد بن أسلم هو الشيطان كما قال المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب (بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور) ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) أى هو مبارز لكم بالعداوة فعادوه أنتم أشد العداوة وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به (إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) أى إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير فهذا هو العدو المبين نسأل الله القوى العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان وأن يرزقنا اتباع كتابه ، والاقتفاء بطريق رسوله إنه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير ، وهذه كقوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا)

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن وأن الذين آمنوا بالله ورسله (وعملوا الصالحات لهم مغفرة) أي لما كان منهم من ذنب (وأجر كبير) على ما عملوه من خير ثم قال تعالى (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) يعني كالكفار والفجار يعملون أعمالا سيئة وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا أي أفمن كان هكذا قد أضله الله ألك فيه حيلة ، لا حيلة لك فيه (فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) أي بقدره كان ذلك (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) أي لا تأسف على ذلك فان الله حكيم في قدره إنما يضل من يضل ويهدى من يهدى لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام ولهذا قال تعالى (إن الله عليم بما يصنعون) . وقال ابن أبي حاتم عند هذه الآية حدثنا أبي حدثنا محمد بن عوف الحمصي حدثنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني أو ربيعة عن عبد الله بن الديلمي قال أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وهو في حائط بالطائف يقال له الوهط قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ومن أخطأه منه ضل فلذلك أقول جف القلم على ما علم الله عز وجل » ثم قال حدثنا محمد بن عبدة القزويني حدثنا حسان بن حسان البصري حدثنا إبراهيم بن بشر حدثنا يحيى بن معين حدثنا إبراهيم القرشي عن سعيد بن شرحبيل عن زيد بن أبي أوفى رضي الله عنه قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « الحمد لله الذي يهدى من الضلالة ويلبس الضلالة على من أحب » وهذا أيضا حديث غريب جداً

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ * مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

كثيرا ما يستدل تعالى على المعاد باحيائه الأرض بعد موتها كما في أول سورة الحج ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك فان الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها (اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها أنزل من تحت العرش مطرا يعم الأرض جميعا ونبتت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض ولهذا جاء في الصحيح « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب ، منه خلق ومنه يركب » ولهذا قال تعالى (كذلك النشور) وتقدم في الحج حديث أبي رزين قلت يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه . قال صلى الله عليه وسلم « يا أبا رزين أما مررت بوادي قومك ممحلا ثم مررت به يهتز خضرا » قلت بلى ، قال صلى الله عليه وسلم « فكذلك يحيي الله الموتى »

وقوله تعالى (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) أى من كان يحب أن يكون عزيزا فى الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى فانه يحصل له مقصوده لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة وله العزة جميعا كما قال تعالى (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا) وقال عزوجل (ولا يحزنك قولهم ، إن العزة لله جميعا) وقال جل جلاله (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) قال مجاهد (من كان يريد العزة) بعبادة الأوثان (فان العزة لله جميعا) وقال قتادة (من كان يريد العزة فان العزة لله جميعا) أى فليتعزز بطاعة الله عز وجل وقيل من كان يريد علم العزة لمن هى (فان العزة لله جميعا) وحكاه ابن جرير . وقوله تبارك وتعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) يعنى الذكر والتلاوة والدعاء ؛ قاله غير واحد من السلف ، وقال ابن جرير حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى أخبرنى جعفر بن عون عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودى عن عبد الله بن المخارق عن أبيه المخارق بن سليم قال : قال لنا عبد الله هو ابن مسعود رضى عنه إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله تعالى إن العبد المسلم إذا قال سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تبارك الله أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يجىء بهن وجه الله عزوجل ثم قرأ عبدالله رضى الله عنه (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وحدثنى يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية أخبرنا سعيد بن الجريرى عن عبد الله بن شقيق قال : قال كعب الأحبار إن لسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا والله أكبر لدويا حول العرش كدوى النحل يذكرن لصاحبهن والعمل الصالح فى الخزائن وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار رحمة الله عليه ، وقد روى مرفوعا . قال الإمام أحمد حدثنا ابن نمير حدثنا موسى يعنى ابن مسلم الطحان عن عون بن عبد الله عن أبيه أو عن أخيه عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الذين يذكرون الله من جلال الله من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله يتعاطفن حول العرش لهن دوى كدوى النحل يذكرن بصاحبهن ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شىء يذكر به » وهكذا رواه ابن ماجه عن أبى بشر بكر بن خلف عن يحيى بن سعيد القطان عن موسى بن مسلم الطحان عن عون بن عبدالله بن عتبة ابن مسعود عن أبيه أو عن أخيه عن النعمان بن بشير رضى الله عنه به . وقوله تعالى (والعمل الصالح يرفعه) قال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما الكلم الطيب ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عزوجل والعمل الصالح أداء الفريضة فمن ذكر الله تعالى فى أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عزوجل ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب وكذا قال أبو العالية وعكرمة وإبراهيم النخعى والضحاك والسدى والربيع بن أنس وشهر بن حوشب وغير واحد وقال إياس بن معاوية القاضى لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام وقال الحسن وقتادة لا يقبل قول إلا بعمل

وقوله تعالى (والذين يمكرون السيئات) قال مجاهد وسعيد بن جبير وشهر بن حوشب هم المراءون بأعمالهم يعنى يمكرون بالناس يوهمون أنهم فى طاعة الله تعالى وهم بغضاء إلى الله عزوجل يراءون بأعمالهم (ولا يذكرون الله إلا قليلا) وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هم المشركون ، والصحيح أنها عامة والمشركون داخلون بطريق الأولى ولهذا قال تعالى (لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور) أى يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولى البصائر والنهى فانه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه وما أسر أحد سريرة إلا إلا كساه الله تعالى رداءها إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، فالمرائى لا يروج أمره ويستمر إلا على غبى ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم بل ينكشف لهم عن قريب وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية . وقوله تبارك وتعالى (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة) أى ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين (ثم جعلكم أزواجا) أى ذكرا وأنثى لطفا منه ورحمة أن جعل لكم أزواجا من جنسكم لتسكنوا إليها وقوله عز وجل (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) أى هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شىء بل (ما تسقط من ورقة إلا

يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) وقد تقدم الكلام على قوله تعالى (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) وقوله عز وجل (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) أى ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه وهو عنده فى الكتاب الأول (وما ينقص من عمره) الضمير عائد على الجنس لا على العين لأن الطويل العمر فى الكتاب وفى علم الله تعالى لا ينقص من عمره وإنما عاد الضمير على الجنس قال ابن جرير وهذا كقولهم عندى ثوب ونصفه أى ونصف ثوب آخر ، وروى من طريق العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير) يقول ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له فإنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدرت لا يزاد عليه ، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ولكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتبت له فذلك قوله تعالى (ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير) يقول كل ذلك فى كتاب عنده وهكذا قال الضحاك بن مزاحم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه (ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) قال مالفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام ، وقال عبد الرحمن فى تفسيرها ألا ترى الناس يعيش الإنسان مائة سنة وآخر يموت حين يولد فهذا هذا ، وقال قتادة: والذى ينقص من عمره فالذى يموت قبل ستين سنة، وقال مجاهد (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) أى فى بطن أمه يكتب له ذلك لم يخلق الخلق على عمر واحد بل لهذا عمر ولهذا عمر هو أنقص من عمره فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغ ما بلغ ، وقال بعضهم بل معناه (وما يعمر من معمر) أى ما يكتب من الأجل (ولا ينقص من عمره) وهو ذهابه قليلا قليلا الجميع معلوم عند الله تعالى سنة بعد سنة وشهرا بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة الجميع مكتوب عند الله تعالى فى كتابه . نقله ابن جرير عن أبى مالك وإليه ذهب السدى وعطاء الخراسانى ، واختار ابن جرير الأول وهو كما قال، وقال النسائى عند تفسير هذه الآية الكريمة حدثنا أحمد بن يحيى بن أبى زيد بن سليمان قال سمعت ابن وهب يقول حدثنى يونس عن ابن شهاب عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من سره أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه » وقد رواه البخارى ومسلم وأبو داود من حديث يونس بن يزيد الإيلى به

وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا الوليد بن الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله أبو سرح حدثنا عثمان بن عطاء عن مسلمة بن عبد الله عن عمه أبى مسجعة بن ربعى عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال « إن الله تعالى لا يؤخر نفسا إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم فى قبره فذلك زيادة العمر » وقوله عزوجل (إن ذلك على الله يسير) أى سهل عليه يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله فى جميع مخلوقاته فان علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شىء منها

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى منبها على قدرته العظيمة فى خلقه الأشياء المختلفة خلق البحرين العذب الزلال وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها فى الأقاليم والأمصار ، والعمران والبرارى والقفار ، وهى عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك (وهذا ملح أجاج) أى مر وهو البحر الساكن الذى تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحة زعاقا مرة ولهذا قال (وهذا ملح أجاج) أى مر ثم قال تعالى (ومن كل تأكلون لحما طريا) يعنى السمك (وتستخرجون حلية تلبسونها) كما قال عزوجل (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقوله جل

وعلا (وترى الفلك فيه مواخر) أى تمخره وتشقه بحيزومها وهو مقدمها المسنم الذى يشبه جؤجؤ الطير وهو صدره ، وقال مجاهد تمخر الريح السفن ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام ، وقوله جل وعلا (لتبتغوا من فضله) أى بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم (ولعلكم تشكرون) أى تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم وهو البحر تتصرفون فيه كيف شئتم وتذهبون أين أردتم ولا يمتنع عليكم شىء منه ، بل بقدرته قد سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض الجميع من فضله ورحمته .

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم فى تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه ويأخذ من طول هذا فيزيده فى قصر هذا فيعتدلان ، ثم يأخذ من هذا فى هذا فيطول هذا ويقصر هذا ثم يتقارضان صيفاً وشتاء (وسخر الشمس والقمر) أى والنجوم السيارات ، والثوابت الثاقبات ، بأضوائهن أجرام السموات ، الجميع يسيرون بمقدار معين . وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديراً من عزيز عليم (كل يجرى لأجل مسمى) أى إلى يوم القيامة (ذلكم الله ربكم) أى الذى فعل هذا هو الرب العظيم الذى لا إله غيره (والذين تدعون من دونه) أى من الأصنام والأنداد التى هى على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين (ما يملكون من قطمير) قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وعكرمة وعطاء وعطية العوفى والحسن وقتادة وغيرهم : القطمير هو اللفافة التى تكون على نواة التمرة أى لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ولا بمقدار هذا القطمير ثم قال تعالى (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) يعنى الآلهة التى تدعونها من دون الله لا تسمع دعاءكم لأنها جماد لا أرواح فيها (ولو سمعوا ما استجابوا لكم) أى لا يقدرون على شىء مما تطلبون منها (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أى يتبرءون منكم كما قال تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) وقوله تعالى (ولا ينبئك مثل خبير) أى ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها قال قتادة يعنى نفسه تبارك وتعالى فانه أخبر بالواقع لا محالة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ * وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

يخبر تعالى بغنائه عما سواه وبافتقار المخلوقات كلها إليه وتذللها بين يديه فقال تعالى (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) أى هم محتاجون إليه فى جميع الحركات والسكنات وهو تعالى الغنى عنهم بالذات ولهذا قال عز وجل (والله هو الغنى الحميد) أى هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له وهو الحميد فى جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه ، وقوله تعالى (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) أى لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ولهذا قال تعالى (وما ذلك على الله بعزيز) . وقوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى يوم القيامة (وإن تدع مثقلة إلى حملها) أى وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه

(لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى)أي وإن كان قريبا إليها حتى ولو كان أباهـا أو ابنها ، كل مشغول بنفسه وحاله ، قال عكرمة فى قوله تعالى (وإن تدع مثقلة إلى حملها) الآية قال هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول يا رب سل هذا لم كان يغلق بابه دونى ، وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة فيقول له يامؤمن إن لى عندك يداً قد عرفت كيف كنت لك فى الدنيا وقد احتجت إليك اليوم فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه حتى يرده إلى منزل دون منزله وهو فى النار ، وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول يا بنى أى والد كنت لك فيثنى خيرا فيقول له يا بنى إنى قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى فيقول له ولده يا أبت ما أيسر ما طلبت ولكنى أتخوف مثل ما تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ، ثم يتعلق بزوجته فيقول يافلانة أو يا هـذه أى زوج كنت لك فتثنى خيرا فيقول لها إنى أطلب إليك حسنة واحدة تهبيها لى لعلى أنجو بها مما ترين ، قال فتقول ما أيسر ما طلبت ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا إنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، يقول الله تعالى (وإن تدع مثقلة إلى حملها) الآية ، ويقول تبارك وتعالى (لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً) ويقول تعالى (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) رواه ابن أبى حاتم رحمه الله عن أبى عبد الله الزهرانى عن حفص ابن عمر عن الحكم بن أبان عن عكرمة به ، ثم قال تبارك وتعالى (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) أى إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى الخائفون من ربهم الفاعلون ما أمرهم به (ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه) أى ومن عمل صالحا فإنما يعود نفعه على نفسه (وإلى المصير) أى وإليه المرجع والمآب وهو سريع الحساب وسيجزى كل عامل بعمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر

﴿وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَٰتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَٰتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُورِ * إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا * وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ * وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

يقول تعالى كما لا تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير لا يستويان بل بينهما فرق وبون كثير وكما لا تستوى الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور كذلك لا تستوى الأحياء ولا الأموات وهـذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء والكافرين وهم الأموات كقوله تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) وقال عز وجل (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا ؟ فالمؤمن بصير سميع فى نور يمشى على صراط مستقيم فى الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون والكافر أعمى وأصم فى ظلمات يمشى لا خروج له منها ، بل هو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم

وقوله تعالى (إن الله يسمع من يشاء)أى يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها (وما أنت بمسمع من فى القبور) أى كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم (إن أنت إلا نذير) أى إنما عليك البلاغ والانذار والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء (إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) أى بشيرا للمؤمنين ونذيرا للكافرين (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) أى وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر وأزاح عنهم العلل كما قال تعالى (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) وكما قال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا

الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) الآية والآيات . في هذا كثيرة . وقوله تبارك وتعالى (وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات) وهي المعجزات الباهرات والأدلة القاطعات (وبالزبر) وهي الكتب (وبالكتاب المنير) أي الواضح البين (ثم أخذت الذين كفروا) أي ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاءوهم به فأخذتهم أي بالعقاب والنكال (فكيف كان نكير) أي فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيما شديدا بليغا والله أعلم

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

يقول تعالى منبها على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد وهو الماء الذي ينزله من السماء يخرج به ثمرات مختلفا ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض إلى غير ذلك من ألوان الثمار كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها كما قال تعالى في الآية الأخرى (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) وقوله تبارك وتعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها) أي وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمر ، وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جدة مختلفة الألوان أيضا . قال ابن عباس رضي الله عنهما : الجدد الطرائق ، وكذا قال أبو مالك والحسن وقتادة والسدي ومنها غرابيب سود قال عكرمة : الغرابيب الجبال الطوال السود ، وكذا قال أبو مالك وعطاء الخراساني وقتادة ، وقال ابن جرير والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا أسود غربيب ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى (وغرابيب سود) أي سود غربيب وفيما قاله نظر وقوله تعالى (ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) أي كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب وهو كل مادب على القوائم ، والأنعام من باب عطف الخاص على العام كذلك هي مختلفة أيضا فالناس منهم بربر وحبوش وطماطم في غاية السواد وصقالبة وروم في غاية البياض ، والعرب بين ذلك والهنود دون ذلك ، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى (واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين) وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون وهذا اللون فتبارك الله أحسن الخالقين . وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حدثنا الفضل بن سهل حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان بن صالح حدثنا زياد بن عبد الله عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال . جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أيصبغ ربك قال ﷺ « نعم صبغا لا ينفض أحمر وأصفر وأبيض » وروي مرسلا وموقوفا والله أعلم . ولهذا قال تعالى بعد هذا (إنما يخشى الله من عباده العلماء) أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر

قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) قال الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير . وقال ابن لهيعة عن ابن أبي عمرة عن عكرمة عن ابن عباس قال العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئا ، وأحل حلاله وحرم حرامه وحفظ وصيته وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله ، وقال سعيد بن جبير الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عزوجل ، وقال الحسن البصري : العالم من خشي الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله

فيه وزهد فيا سخط الله فيه ثم تلا الحسن (إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور) وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ولكن العلم عن كثرة الخشية . وقال أحمد بن صالح المصرى عن ابن وهب عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما العلم نور يجعله الله فى القلب . قال أحمد بن صالح المصرى معناه أن الخشية لاتدرك بكثرة الروايه وإنما العلم الذى فرض الله عزوجل أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة وما جاء عن الصحابة رضى الله عنهم ومن بعدهم من أئمة المسلمين فهذا لايدرك إلا بالروايه ويكون تأويل قوله: نوريريد به فهم العلم ومعرفة معانية . وقال سفيان الثورى عن أبى حيان التيمى عن رجل قال : كان يقال العلماء ثلاثه عالم بالله عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمرالله . وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله ، فالعالم بالله وبأمرالله الذى يخشى الله تعالى ويعلم الحدود والفرائض ، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله الذى يخشى الله ولا يعلم الحدود والفرائض ، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله الذى يعلم الحدود والفرائض ولايخشى الله عز وجل

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه من إقام الصلاة والانفاق مما رزقهم الله تعالى فى الأوقات المشروعة ليلا ونهارا سرا وعلانية (يرجون تجارة لن تبور) أى يرجون ثوابا عند الله لابدمن حصوله ، كما قدمنا فى أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه إن كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة ولهذا قال تعالى (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) أى ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم (إنه غفور) أى لذنوبهم (شكور) للقليل من أعمالهم قال قتادة كان مطرف رحمه الله إذاقرأ هذه الآية يقول هذه آية القراء . قال الإمام أحمدحدثناأبو عبدالرحمن حدثنا حيوة حدثناسالم بن غيلان قال : إنه سمع دراجا أبا السمح يحدث عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول « إن الله تعالى إذا رضى عن العبد أثنى عليه بسبعة أصناف من الخير لم يعمله وإذا سخط على العبد أثنى عليه بسبعة أصناف من الشر لم يعمله » غريب جدا

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾

يقول تعالى (والذى أوحينا إليك) يا محمد من الكتاب وهو القرآن (هو الحق مصدقا لما بين يديه) أى من الكتب المتقدمة يصدقها كما شهدت هى له بالتنويه وأنه منزل من رب العالمين (إن الله بعباده لخبير بصير) أى هو خبير بهم بصير بمن يستحق مايفضله به على من سواه ، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر وفضل النبيين بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾

يقول تعالى ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفينا من عبادنا وهم هذه الأمة ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع فقال تعالى (فمنهم ظالم لنفسه) وهو المفرط فى فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات (ومنهم مقتصد) وهو المؤدى للواجبات التارك للمحرمات وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات (ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات

وبعض المباحات . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) قال هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ورثهم الله تعالى كل كتاب أنزله فظالمهم يغفر له ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب وقال أبو القاسم الطبرانى حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح وعبدالرحمن بن معاوية العتبى قالا حدثنا أبو الطاهر بن السرح حدثنا موسى بن عبدالرحمن الصنعانى حدثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ذات يوم « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » قال ابن عباس رضى الله عنهما السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ وكذا روى عن غير واحد من السلف أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على مافيه من عوج وتقصير . وقال آخرون بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ولا من المصطفين الوارثين للكتاب

قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا على بن هاشم بن مرزوق حدثنا ابن عيينة عن عمرو عن ابن عباس رضى الله عنهما فمنهم ظالم لنفسه قال هو الكافر وكذا روى عنه عكرمة وبه قال عكرمة أيضا فيما رواه ابن جرير ، وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى (فمنهم ظالم لنفسه) قال هم أصحاب المشأمة ، وقال مالك عن زيد بن أسلم والحسن وقتادة هو المنافق ثم قد قال ابن عباس والحسن وقتادة وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة فى أول سورة الواقعة وآخرها ، والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضا ونحن إن شاء الله تعالى نورد منها ماتيسر

﴿ الحديث الأول ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن الوليد بن العيزار أنه سمع رجلا من ثقيف يحدث عن رجل من كنانة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : فى هذه الآية (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) قال « هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم فى الجنة » هذا حديث غريب من هذا الوجه وفى إسناده من لم يسم وقدرواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث شعبة به نحوه ومعنى قوله بمنزلة واحدة أى فى أنهم من هذه الأمة وأنهم من أهل الجنة وإن كان بينهم فرق فى المنازل فى الجنة ﴿ الحديث الثانى ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا إسحاق بن عيسى حدثنا أنس بن عياض الليثى أبو حمزة عن موسى بن عقبة عن على بن عبدالله الأزدى عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « قال الله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حسابا يسيرا وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون فى طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) » ﴿ طريق أخرى ﴾ قال ابن أبى حاتم حدثنا أسيد بن عاصم ثنا الحسين ابن حفص حدثنا سفيان عن الأعمش عن رجل عن أبى ثابت عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه — قال — فأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يصيبه الهم والحزن ثم يدخل الجنة » ورواه ابن جرير من حديث سفيان الثورى عن الأعمش قال ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد فجلس إلى جنب أبى الدرداء رضى الله عنه فقال اللهم آنس وحشتى وارحم غربتى ويسر لى جليسا صالحا فقال أبو الدرداء رضى الله عنه لئن كنت صادقا لأنا أسعد بك منك سأحدثك حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أحدث به منذ سمعته منه ذكر هذه الآية (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب ، وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا . وأما الظالم لنفسه فيصيبه فى ذلك المكان من الغم والحزن وذلك قوله تعالى (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن)

﴿ الحديث الثالث ﴾ قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا عبدالله بن محمد بن العباس حدثنا ابن مسعود أخبرنا سهل

ابن عبد ربه الرازى حدثنا عمرو بن قيس عن ابن أبى ليلى عن أخيه عن عبدالرحمن بن أبىليلى عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) الآية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كلهم من هذه الأمة » ﴿ الحديث الرابع ﴾ قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عزيز حدثنا سلامة عن عقيل عن ابن شهاب عن عوف بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أمتى ثلاثة أثلاث فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة وثلث يمحصون ويكشفون ثم تأتى الملائكة فيقولون وجدناهم يقولون لا إله إلا الله وحده يقول الله تعالى صدقوا لا إله إلا أنا أدخلوهم الجنة بقولهم لا إله إلا الله وحده واحملوا خطاياهم على أهل النار وهى التى قال الله تعالى (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) وتصديقها فى التى فيها ذكر الملائكة قال الله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) فجعلهم ثلاثة أفواج وهم أصناف كلهم فمنهم ظالم لنفسه فهذا الذى يمحص ويكشف » غريب جدا ﴿ أثر عن ابن مسعود ﴾ رضى الله عنه قال ابن جرير حدثنى ابن حميد حدثنا الحكم بن بشير عن عمرو بن قيس عن عبدالله بن عيسى رضى الله عنه عن يزيد بن الحارث عن شقيق أبى وائل عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : إن هذه الأمة ثلاث أثلاث يوم القيامة ثلث يدخلون الجنة بغير حساب وثلث يحاسبون حسابا يسيرا وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول الله عز وجل ماهؤلاء ؟ وهو أعلم تبارك وتعالى فتقول الملائكة هؤلاء جاءوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئا فيقول الرب عز وجل أدخلوا هؤلاء فى سعة رحمتى . وتلا عبدالله رضى الله عنه هذه الآية (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) الآية ﴿ أثر آخر ﴾ قال أبو داود الطيالسى عن الصلت بن دينار بن الأشعث عن عقبة بن صهبان الهنائى قال سألت عائشة رضى الله عنها عن قول الله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه الآية فقالت لى يابنى هؤلاء فى الجنة أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحياة والرزق وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم قال فجعلت نفسها رضى الله عنها معنا وهذا منها رضى الله عنها من باب الهضم والتواضع وإلا فهى من أكبر السابقين بالخيرات لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه فى قوله تبارك وتعالى فمنهم ظالم لنفسه قال هى لأهل بدونا ومقتصدنا أهل حضرنا وسابقنا أهل الجهاد رواه ابن أبى حاتم

وقال عوف الأعرابى حدثنا عبد الله بن الحارث بن نوفل قال حدثنا كعب الأحبار رحمة الله عليه قال إن الظالم لنفسه من هذه الأمة والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم فى الجنة ، ألم تر أن الله تعالى قال (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير * جنات عدن يدخلونها — إلى قوله عز وجل — والذين كفروا لهم نار جهنم) قال فهؤلاء أهل النار رواه ابن جرير من طرق عن عوف به . ثم قال حدثنى يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية أخبرنا حميد عن إسحاق بن عبدالله بن الحارث عن أبيه قال إن ابن عباس رضى الله عنهما سأل كعباً عن قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا — إلى قوله — بإذن الله) قال تماست مناكبهم ورب كعب ثم أعطوا الفضل بأعمالهم ثم قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا الحكم بن بشير حدثنا عمرو بن قيس عن أبى إسحاق السبيعى فى هذه الآية (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) الآية قال أبو إسحاق أما ما سمعت من ذى ستين سنة فكلهم ناج ، ثم قال حدثنا ابن حميد حدثنا الحكم حدثنا عمرو عن محمد بن الحنفية رضى الله عنه قال إنها أمة مرحومة الظالم مغفور له والمقتصد فى الجنان عند الله والسابق بالخيرات فى الدرجات عند الله . ورواه الثورى عن إسماعيل بن سميع عن رجل عن محمد بن الحنفية رضى الله عنه بنحوه . وقال أبو الجارود : سألت محمد بن على — يعنى الباقر — رضى الله عنهما عن قول الله تعالى (فمنهم ظالم لنفسه) فقال هو الذى خلط عملا صالحا وآخر سيئاً . فهذا ماتيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام . وإذا تقرر هذا فان الآية عامة فى جميع الأقسام الثلاثة فى هذه الأمة فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة وأولى الناس

بهذه الرحمة فانهم كما قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا محمد بن يزيد حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة عن قيس بن كثير قال قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه وهو بدمشق فقال ما أقدمك أي أخي ؟ قال حديث بلغني أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ ، قال أما قدمت لتجارة ؟ قال لا ، قال أما قدمت لحاجة قال لا ؟ قال أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث ؟ قال نعم . قال رضي الله عنه فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من سلك طريقا يطلب فيها علما سلك الله تعالى به طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وإنه ليستغفر للعالم من في السموات والأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . إن العلماء هم ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » وأخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث كثير بن قيس ومنهم من يقول قيس بن كثير عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواة فيه في شرح كتاب العلم من صحيح البخاري ولله الحمد والمنة وقد تقدم في أول سورة طه حديث ثعلبة بن الحكم رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء إني لم أضع علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي »

﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة مأواهم جنات عدن أي جنات الاقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله عز وجل (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا) كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » (ولباسهم فيها حرير) ولهذا كان محظورا عليهم في الدنيا فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة ، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » وقال « هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة »

وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمرو بن سواد السرحي أخبرنا ابن وهب عن ابن لهيعة عن عقيل بن خالد عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال إن أبا أمامة رضي الله عنه حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم وذكر حلى أهل الجنة فقال « مسورون بالذهب والفضة مكللة بالدر وعليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة وعليهم تاج كتاج الملوك شباب جرد مرد مكحولون » (وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) وهو الخوف من المحذور أزاحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم وكأني بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن » رواه ابن أبي حاتم من حديثه

وقال الطبراني حدثنا جعفر بن محمد الفريابي حدثنا موسى بن يحيى المروزي حدثنا سليمان بن عبد الله بن وهب الكوفي عن عبد العزيز بن حكيم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رءوسهم من التراب يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : غفر لهم الكثير من السيئات وشكر لهم اليسير من الحسنات (الذي أحلنا دار المقامة من فضله) يقولون

الذى أعطانا هـذه المنزلة وهـذا المقام من فضله ومنه ورحمته لم تـكن أعمالنا تساوى ذلك كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة» قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله تعالى برحمة منه وفضل » (لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا لغوب) أى لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء . والنصب واللغوب كل منهما يستعمل فى التعب وكأن المراد بنفى هـذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم والله أعلم ، فمن ذلك أنهم كانوا يدئبون أنفسهم فى العبادة فى الدنيا فسقط عنهم التكليف بدخولها وصاروا فى راحة دائمة مستمرة قال الله تبارك وتعالى (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية)

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ * فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء شرع فى بيـان ما للأشقياء فقال (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا) كما قال تعالى (لا يموت فيها ولا يحيى) وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون» وقال عز وجل (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون) فهم فى حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ولـكن لا سبيل إلى ذلك قال الله تعالى (لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابهـا) كما قال عز وجل (إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون * لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون) وقال جل وعلا (كلما خبت زدناهم سعيرا) (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) ثم قال تعالى (كذلك نجزى كل كفور) أى هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق وقوله جلت عظمته (وهم يصطرخون فيها) أى ينادون فيها يجأرون إلى الله عز وجل بأصواتهم (ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل) أى يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول ، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لمـا نهوا عنه وإنهم لـكاذبون فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم كما قال تعالى مخبرا عنهم فى قولهم (فهل إلى مرد من سبيل؟ * ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا) أى لا يجيبكم إلى ذلك لأنكم كنتم كذلك ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتم عنه ولهذا قال ههنا (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ؟) أى أو ما عشتم فى الدنيا أعمارا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به فى مدة عمركم ؟ وقد اختلف المفسرون فى مقدار العمر المراد ههنا فروى عن على بن الحسين زين العابدين رضى الله عنهما أنه قال مقدار سبع عشرة سنة . وقال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة فنعوذ بالله أن نعير بطول العمر قد نزلت هذه الآية (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة وكذا قال أبو غالب الشيبانى . وقال عبد الله بن المبارك عن معمر عن رجل عن وهب بن منبه فى قوله تعالى (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) قال عشرين سنة . وقال هشيم عن منصور عن زاذان عن الحسن فى قوله تعـالى (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) قال أربعين سنة ، وقال هشيم أيضا عن مجالد عن الشعبى عن مسروق أنه كان يقول : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله عز وجل وهذه رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما فيما قال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا بشر بن المفضل حدثنا عبد الله ابن عثمان بن خثيم عن مجاهد قال سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول : العمر الذى أعذر الله تعالى لابن آدم (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) أربعون سنة . هكذا رواه من هذا الوجه عن ابن عباس رضى الله عنهما به وهذا القول هو اختيار ابن جرير ثم رواه من طريق الثورى وعبد الله بن إدريس كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال العمر الذى أعذر الله فيه لابن آدم فى قوله (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) ستون سنة فهذه الرواية أصح عن ابن عباس رضى الله عنهما وهى الصحيحة فى نفس الأمر أيضا لمـا ثبت

فى ذلك من الحديث كما سنورده لا كما زعمه ابن جرير من أن الحديث لم يصح فى ذلك لأن فى إسناده من يجب التثبت فى أمره ، وقد روى أصبغ بن نباتة عن على رضى الله عنه أنه قال : العمر الذى عيرهم الله به فى قوله (أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر) . ستون سنة . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا دحيم حدثنا ابن أبى فديك حدثنى إبراهيم بن الفضل المخزومى عن ابن أبى حسين المكى أنه حدثه عن عطاء هو ابن أبى رباح عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال « إذا كان يوم القيامة قيل أين أبناء الستين وهو العمر الذى قال الله تعالى فيه (أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) » وكذا رواه ابن جرير عن على بن شعيب عن إسماعيل بن أبى فديك به وكذا رواه الطبرانى من طريق ابن أبى فديك به ، وهذا الحديث فيه نظر لحال إبراهيم بن الفضل والله أعلم

﴿حديث آخر﴾ قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن رجل من بنى غفار عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « لقد أعذر الله تعالى إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة لقد أعذر الله تعالى إليه لقد أعذر الله تعالى إليه » وهكذا رواه الإمام البخارى فى كتاب الرقاق من صحيحه حدثنا عبد السلام بن مطهر عن عمر بن على عن معن بن محمد الغفارى عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أعذر الله عز وجل إلى امرئ أخر عمره حتى بلغ ستين سنة » ثم قال البخارى تابعه أبو حازم وابن عجلان عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فأما أبو حازم فقال ابن جرير حدثنا أبو صالح الفزارى حدثنا محمد بن سوار أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد القادر أى الاسكندرى حدثنا أبو حازم عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من عمره الله تعالى ستين سنة فقد أعذر إليه فى العمر » وقد رواه الإمام أحمد والنسائى فى الرقاق جميعاً عن قتيبة عن يعقوب بن عبد الرحمن به ، ورواه البزار قال : حدثنا هشام بن يونس حدثنا عبد العزيز بن أبى حازم عن أبيه عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « العمر الذى أعذر الله تعالى فيه إلى ابن آدم ستون سنة » يعنى (أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر) وأما متابعة ابن عجلان فقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو السفر يحيى بن محمد ابن عبد الملك بن قرعة بسامرا حدثنا أبو عبد الرحمن المقرى حدثنا سعيد بن أبى أيوب حدثنا محمد بن عجلان عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله عز وجل إليه فى العمر » وكذا رواه الإمام أحمد عن أبى عبد الرحمن هو المقرى به ورواه أحمد أيضا عن خلف عن أبى معشر عن أبى سعيد المقبرى . ﴿طريق أخرى﴾ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ابن جرير حدثنى أحمد بن الفرج أبو عتبة الحمصى حدثنا بقية بن الوليد حدثنا المطرف بن مازن الكنانى حدثنى معمر بن راشد قال : سمعت محمد بن عبد الرحمن الغفارى يقول : سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول : قال رسول ﷺ « لقد أعذر الله عز وجل فى العمر إلى صاحب الستين سنة والسبعين » فقد صح هذا الحديث من هذه الطرق فلو لم يكن إلا الطريق التى ارتضاها أبو عبد الله البخارى شيخ هذه الصناعة لكفت . وقول ابن جرير إن فى رجاله بعض من يجب التثبت فى أمره لا يلتفت إليه مع تصحيح البخارى والله أعلم . وذكر بعضهم أن العمر الطبيعى عند الأطباء مائة وعشرون سنة فالإنسان لا يزال فى ازدياد إلى كمال الستين ثم يشرع بعد هذا فى النقص والهرم كما قال الشاعر :

إذا بلغ الفتى ستين عاما ... فقد ذهب المسرة والفتاء

ولما كان هذا هو العمر الذى يعذر الله تعالى إلى عباده به ويزيح به عنهم العلل كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة كما ورد بذلك الحديث ، قال الحسن بن عرفة رحمه الله حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك » وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه جميعاً فى كتاب الزهد عن الحسن بن عرفة به ثم قال الترمذى هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وهذا عجب من الترمذى فإنه قد رواه أبو بكر بن أبى الدنيا من وجه

آخر وطريق أخرى عن أبى هريرة حيث قال حدثنا سليمان بن عمرو عن محمد بن ربيعة عن كامل أبى العلاء عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك » وقد رواه الترمذى فى كتاب الزهد أيضاً عن إبراهيم بن سعيد الجوهرى عن محمد بن ربيعة به ثم قال هذا حديث حسن غريب من حديث أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه وقد روى من غير وجه عنه هذا نصه بحروفه فى الموضعين والله أعلم . وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو موسى الأنصارى حدثنا ابن أبى فديك حدثنى إبراهيم ابن الفضل مولى بنى مخزوم عن المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم « معترك المنايا ما بين الستين إلى السبعين » وبه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أقل أمتى أبناء سبعين » إسناده ضعيف (حديث آخر) فى معنى ذلك قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده حدثنا إبراهيم بن هانى حدثنا إبراهيم بن مهدى عن عثمان ابن مطر عن أبى مالك عن ربعى عن حذيفة رضى الله عنه أنه قال يارسول الله أنبئنا بأعمار أمتك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بين الخمسين إلى الستين » قالوا يارسول الله فأبناء السبعين قال ﷺ « قل من يبلغها من أمتى ، رحم الله أبناء السبعين ورحم الله أبناء الثمانين » ثم قال البزار لا يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد وعثمان بن مطر من أهل البصرة ليس بقوى ، وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاش ثلاثا وستين سنة وقيل ستين وقيل خمسا وستين ، والمشهور الأول والله أعلم . وقوله تعالى (وجاءكم النذير) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وعكرمة وأبى جعفر الباقر رضى الله عنه وقتادة وسفيان بن عيينة أنهم قالوا يعنى الشيب وقال السدى وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم يعنى به رسول الله ﷺ وقرأ ابن زيد (هذا نذير من النذر الأولى) وهذا هو الصحيح عن قتادة فيما رواه شيبان عنه أنه قال : احتج عليهم بالعمر والرسل وهذا اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله تعالى (ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون * لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون) أى لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل فأبيتم وخالفتم ، وقال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تبارك وتعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير * فكذبنا وقلنا مانزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير) وقوله تعالى (فذوقوا فما للظالمين من نصير) أى فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء فى مدة أعمالكم فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض وأنه يعلم ماتكنه السرائر وما تنطوى عليه الضمائر وسيجازى كل عامل بعمله . ثم قال عز وجل (هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) أى يخلف قوم لآخرين قبلهم وجيل لجيل قبلهم . كما قال تعالى (ويجعلكم خلفاء الأرض فمن كفر فعليه كفره) أى فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا) أى كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزلته فى الجنة وزاد أجره وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين (أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله) أى من الأصنام والأنداد (أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات) أى ليس لهم شيء من ذلك ما يملكون من قطمير وقوله (أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه) أى أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولونه من الشرك والكفر ؟ ليس الأمر كذلك (بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا) أى بل إنما اتبعوا فى ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التى تمنوها لأنفسهم وهى غرور وباطل وزور ، ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التى بها تقوم السماء والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما فقال (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) أى أن تضطربا عن أماكنهما كما قال عز وجل (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) وقال تعالى (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) (ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) أى لا يقدر على دوامها وإبقائهما إلا هو وهو مع ذلك حليم غفور أى يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل ويستر آخرين ويغفر ولهذا قال تعالى (إنه كان حليما غفورا) وقد أورد ابن أبى حاتم ههنا حديثا غريبا بل منكرا فقال حدثنا على بن الحسين بن الجنيد حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنى هشام بن يوسف عن أمية بن سهل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى عن موسى عليه الصلاة والسلام على المنبر قال : وقع فى نفس موسى عليه الصلاة والسلام هل ينام الله عزوجل فأرسل الله تعالى إليه ملكا فأرقه ثلاثا وأعطاه قارورتين فى كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما قال فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ثم يستيقظ فيحبس إحداهما عن الأخرى حتى نام نومه فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان ، قال ضرب الله له مثلا إن الله عز وجل لوكان ينام لم تستمسك السماء والأرض ، والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع بل من الإسرائيليات المنكرة فان موسى عليه الصلاة والسلام أجل من أن يجوز على الله سبحانه وتعالى النوم وقد أخبر الله عزوجل فى كتابه العزيز بأنه (الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض) وثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » وقد قال أبو جعفر بن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبى وائل قال : جاء رجل إلى عبد الله هو ابن مسعود رضى الله عنه فقال من أين جئت ؟ قال من الشام قال من لقيت ؟ قال لقيت كعبا قال ما حدثك ، قال حدثنى أن السموات تدور على منكب ملك ، قال أفصدقته أوكذبته ؟ قال ما صدقته ولا كذبته قال لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحلتك ورحلها كذب كعب إن الله تعالى يقول (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعد) وهذا إسناد صحيح إلى كعب وإلى ابن مسعود رضى الله عنه ثم رواه ابن جرير عن ابن حميد عن جرير عن مغيرة عن إبراهيم قال ذهب جندب البجلى إلى كعب بالشام فذكر نحوه . وقد رأيت فى مصنف للفقيه يحيى بن إبراهيم بن مزين الطليطلى سماه ـ سير الفقهاء ـ أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطباع عن وكيع عن الأعمش به ، ثم قال وأخبرنا زونان يعنى عبد الملك بن الحسين عن ابن وهب عن مالك أنه قال السماء لا تدور واحتج بهذه الآية وبحديث « إن بالمغرب بابا للتوبة لا يزال مفتوحا حتى تطلع الشمس منه » قلت وهذا الحديث فى الصحيح والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا • اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل ارسال الرسول إليهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم أى من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل قاله الضحاك وغيره كقوله تعالى (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفة من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) وكقوله تعالى (وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين * فكفروا به فسوف يعلمون) قال الله تعالى (فلما جاءهم نذير) وهو محمد صلى الله عليه وسلم بما أنزل معه من الكتاب العظيم وهو القرآن المبين (ما زادهم إلا نفورا) أى ما ازدادوا إلا كفرا إلى كفرهم ثم بين ذلك بقوله (استكبارا فى الأرض) أى استكبروا عن اتباع آيات الله (ومكر السيء) أى ومكروا بالناس فى صدهم إياهم عن سبيل الله (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) أى وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم . قال ابن أبى حاتم ذكر على بن الحسين حدثنا ابن أبى عمر حدثنا سفيان عن أبى زكريا الكوفى عن رجل حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إياك ومكر السيء فانه لا يحيق المكر السيء إلا بأهله ولهم من الله طالب » وقال محمد بن كعب القرظى : ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به من مكر أو بغى أو نكث وتصديقها فى كتاب الله تعالى (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) (إنما بغيكم على أنفسكم) (ومن نكث فانما ينكث على نفسه) وقوله عزوجل (فهل ينظرون إلا سنة الأولين) يعنى عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى لا تغير ولا تبدل بل هى جارية كذلك فى كل مكذب (ولن تجد لسنة الله تحويلا) أى (وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له) ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد والله أعلم

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا * وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها فخلت منهم منازلهم وسلبوا ما كانوا فيه من النعم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعدد ، وكثرة الأموال والأولاد فما أغنى ذلك شيئا ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شيء إذا أراد كونه فى السموات والأرض (إنه كان عليما قديرا) أى عليم بجميع الكائنات قدير على مجموعها ثم قال تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) أى لو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل السموات والأرض وما يملكونه من دواب وأرزاق . قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله قال: كاد الجعل أن يعذب فى جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ (ولو يؤخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة) وقال سعيد بن جبير والسدى فى قوله تعالى (ما ترك على ظهوها من دابة) أى لما سقاهم المطر فماتت جميع الدواب (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) أى ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ ويوفى كل عامل بعمله فيجازى بالثواب أهل الطاعة وبالعقاب أهل المعصية ولهذا قال تبارك وتعالى (فإذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا) آخر تفسير سورة فاطر ولله الحمد والمنة .

﴿ تفسير سورة يس وهى مكية ﴾

قال أبو عيسى الترمذى حدثنا قتيبة وسفيان بن وكيع حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرواسى عن الحسن بن صالح عن هارون أبى محمد عن مقاتل بن حيان عن قتادة عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« إن لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » ثم قال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن. وهارون أبو محمد شيخ مجهول . وفي الباب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ولا يصح لضعف إسناده ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه منظور فيه أما حديث الصديق رضي الله عنه فرواه الحكيم الترمذي في كتابه نوادر الأصول ، وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه فقال أبو بكر البزار حدثنا عبد الرحمن بن الفضل حدثنا زيد هو ابن الحباب حدثنا حميد هو المكي مولى آل علقمة عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس » ثم قال لا نعلم رواه إلا زيد عن حميد . وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا إسحق بن أبي إسرائيل حدثنا حجاج بن محمد عن هشام بن زياد عن الحسن قال سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ « من قرأ يس في ليلة أصبح مغفوراً له ، ومن قرأ حم التي يذكر فيها الدخان أصبح مغفورا له » إسناده جيد . وقال ابن حبان في صحيحه حدثنا محمد بن إسحق ابن إبراهيم مولى ثقيف حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد السكوني حدثنا أبي حدثنا زياد بن خيثمة حدثنا محمد ابن جحادة عن الحسن عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله عز وجل غفر له » وقد قال الإمام أحمد حدثنا عارم حدثنا معتمر عن أبيه عن رجل عن أبيه عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال « البقرة سنام القرآن وذروته نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا . واستخرجت (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) من تحت العرش فوصلت بها - أو فوصلت بسورة البقرة - ويس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله تعالى والدار الآخرة إلا غفر له واقرءوها على موتاكم » وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة عن محمد بن عبد الأعلى عن معتمر بن سليمان به : ثم قال الإمام أحمد حدثنا عارم حدثنا ابن المبارك حدثنا سليمان التيمي عن أبي عثمان وليس بالنهدي عن أبيه عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقرءوها على موتاكم » يعني يس ورواه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عبد الله بن المبارك به إلا أن في رواية النسائي عن أبي عثمان عن معقل بن يسار رضي الله عنه ، ولهذا قال بعض العلماء من خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله تعالى ، وكأن قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة وليسهل عليه خروج الروح والله تعالى أعلم . قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان قال : كان المشيخة يقولون إذا قرئت يعني يس عند الميت خفف الله عنه بها. وقال البزار حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا إبراهيم بن الحكم ابن أبان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي » يعني يس

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة ، وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة والضحاك والحسن وسفيان بن عيينة أن يس بمعنى يا إنسان ، وقال سعيد بن جبير هو كذلك في لغة الحبشة ، وقال مالك عن زيد بن أسلم هو اسم من أسماء الله تعالى (والقرآن الحكيم) أي المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (إنك) أي يا محمد (لمن المرسلين * على صراط مستقيم) أي على منهج ودين قويم وشرع مستقيم (تنزيل العزيز الرحيم) أي هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين كما قال تعالى (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم * صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) . وقوله تعالى (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) يعني بهم العرب فإنه ما أتاهم من نذير من قبله وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم

كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة في عموم بعثته صلى الله عليه وسلم عند قوله تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) : وقوله تعالى (لقد حق القول على أكثرهم) قال ابن جرير لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قدحتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون (فهم لا يؤمنون) بالله ولا يصدقون رسله

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾

يقول تعالى إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جعل في عنقه غل فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه فارتفع رأسه فصار مقمحا ولهذا قال تعالى (فهم مقمحون) والمقمح هو الرافع رأسه كما قالت أم زرع في كلامها : وأشرب فأتقمح ، أي أشرب فأروى وأرفع رأسي تهنيئاً وترويا ، واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين وإن كانتا مرادتين كما قال الشاعر :

فما أدرى إذا يممت أرضاً * أريد الخير أيهما يليني
أألخير الذى أنا أبتغيه * أم الشر الذى لا يأتليني

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لما دل الكلام والسياق عليه : وهكذا هذا لما كان الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق اكتفى بذكر العنق عن اليدين ، قال العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون) قال هو كقوله عز وجل (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) يعنى بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يبسطوها بخير . وقال مجاهد (فهم مقمحون) قال رافعى رءوسهم وأيديهم موضوعة على أفواههم فهم مغلولون عن كل خير وقوله تعالى (وجعلنا من بين أيديهم سداً) قال مجاهد عن الحق (ومن خلفهم سداً) قال مجاهد : عن الحق فهم يترددون . وقال قتادة في الضلالات وقوله تعالى (فأغشيناهم) أي أغشينا أبصارهم عن الحق (فهم لا يبصرون) أي لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه ، قال ابن جرير : وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان يقرأ (فأعشيناهم) بالعين المهملة من العشا وهو داء في العين ، وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : جعل الله تعالى هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان فهم لا يخلصون إليه وقرأ (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) ثم قال : من منعه الله تعالى لا يستطيع . وقال عكرمة قال أبو جهل لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن فأنزلت (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا — إلى قوله — فهم لا يبصرون) قال وكانوا يقولون هذا محمد فيقول أين هو أين هو ؟ لا يبصره ، رواه ابن جرير ، وقال محمد بن إسحق حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب قال: قال أبو جهل وهم جلوس إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكا فإذا متم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم جنان خير من جنان الأردن ، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون بها وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك وفي يده حفنة من تراب وقد أخذ الله تعالى على أعينهم دونه فجعل يذرها على رءوسهم ويقرأ (يس * والقرآن الحكيم — حتى انتهى إلى قوله تعالى — وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته وباتوا رصداء على بابه حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار فقال مالكم ؟ قالوا ننتظر محمداً

قال قد خرج عليكم فما بقي منكم من رجل إلا وضع على رأسه ترابا ثم ذهب لحاجته ، فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب . قال وقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم قول أبي جهل فقال « وأنا أقول ذلك إن لهم مني لذبحاً وإنه لآخذهم » وقوله تبارك وتعالى (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون) أي قد ختم الله عليهم بالضلالة فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به ، وقد تقدم نظيرها في أول سورة البقرة وكما قال تبارك وتعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) (إنما تنذر من اتبع الذكر) أي إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر وهو القرآن العظيم (وخشي الرحمن بالغيب) أي حيث لايراه أحد إلا الله تبارك وتعالى يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعل (فبشره بمغفرة) أي لذنوبه (وأجر كريم) أي كثير واسع حسن جميل كما قال تبارك وتعالى (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) ثم قال عز وجل (إنا نحن نحيي الموتى) أي يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة فيهديهم بعد ذلك إلى الحق كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب (اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) وقوله تعالى (ونكتب ماقدموا) أي من الأعمال ، وفي قوله تعالى (وآثارهم) قولان ﴿أحدهما﴾ نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم وآثارهم التي أثروها من بعدهم فنجزيهم على ذلك أيضاً إن خيراً فخير وإن شراً فشر كقوله صلى الله عليه وسلم « من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا » رواه مسلم من رواية شعبة عن عون بن أبي جحيفة عن المنذر بن جرير عن أبيه جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه ، وفيه قصة مجتابي النمار المضريين ، ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن يحيى ابن سليمان الجعفي عن أبي المحياه يحيى بن يعلى عن عبدالملك بن عمير عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه فذكر الحديث بطوله ثم تلا هذه الآية (ونكتب ماقدموا وآثارهم) وقد رواه مسلم من رواية أبي عوانة عن عبد الملك بن عمير بن المنذر ابن جرير عن أبيه فذكره ، وهكذا الحديث الآخر الذي في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث . من علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعوله أو صدقة جارية من بعده » وقال سفيان الثوري عن أبي سعيد رضي الله عنه قال سمعت مجاهدا يقول في قوله تعالى (إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم) قال ما أورثوا من الضلالة وقال ابن لهيعة عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير في قوله تعالى (ونكتب ماقدموا وآثارهم) يعني ما أثروا ، يقول ماسنوا من سنة فعمل بها قوم من بعد موتهم فإن كانت خيرا فلهم مثل أجورهم لاينقص من أجر من عمل به شيئاً ، وإن كانت شرا فعليهم مثل أوزارهم ولاينقص من أوزار من عمل بها شيئاً ذكرهما ابن أبي حاتم ، وهذا القول هو اختيار البغوي ﴿ والقول الثاني ﴾ أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية ، قال ابن أبي نجيح وغيره عن مجاهد (ماقدموا) أعمالهم (وآثارهم) قال خطاهم بأرجلهم ، وكذا قال الحسن وقتادة (وآثارهم) يعني خطاهم وقال قتادة لوكان الله عز وجل مغفلا شيئا من شأنك يا ابن آدم أغفل ماتعفي الرياح من هذه الآثار ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله تعالى أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله تعالى فليفعل . وقد وردت في هذه المعنى أحاديث

﴿ الحديث الأول ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا أبي حدثنا الجريري عن أبي نضرة عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم « إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد » قالوا نعم يارسول الله قد أردنا ذلك فقال ﷺ يا بني سلمة « دياركم تكتب آثاركم دياركم تكتب آثاركم » وهكذا رواه مسلم من حديث سعيد الجريري وكهمس بن الحسن كلاهما عن أبي نضرة واسمه المنذر بن مالك بن قطعة العبدي عن جابر رضي الله عنه به ﴿ الحديث الثاني ﴾ قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد ابن الوزير الواسطي حدثنا إسحاق الأزرق عن سفيان الثوري عن أبي سفيان عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال

كانت بنوا سلمة فى ناحية من المدينة فأرادوا أن أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد فنزلت (إنا نحن نحيي الوتى ونكتب ماقدموا وآثارهم) فقال لهم النبى ﷺ « إن آثاركم تكتب » فلم ينتقلوا ، تفرد بإخراجه الترمذى عند تفسيره هذه الآية الكريمة عن محمد بن الوزير به ثم قال حسن غريب من حديث الثورى ، ورواه ابن جرير عن سليمان بن عمر بن خالد الرقى عن ابن المبارك عن سفيان الثورى عن طريف — وهو ابن شهاب أبو سفيان السعدى — عن أبى نضرة به ، وقد روى من غير طريق الثورى فقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عباد بن زياد الساجى حدثنا عثمان بن عمر حدثنا شعبة عن سعيد الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : إن بنى سلمة شكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد فنزلت (ونكتب ماقدموا وآثارهم) فأقاموا فى مكانهم وحدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبد الأعلى حدثنا الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ بنحوه وفيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية والسورة بكمالها مكية فالله أعلم ، ﴿ الحديث الثالث ﴾ قال ابن جرير حدثنا نصر بن على الجهضمى حدثنا أبو أحمد الزبيرى حدثنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كانت منازل الأنصار متباعدة من المسجد فأرادوا أن ينتقلوا إلى المسجد فنزلت (ونكتب ماقدموا وآثارهم) فقالوا نثبت مكاننا ، هكذا رواه وليس فيه شىء مرفوع ، ورواه الطبرانى عن عبدالله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم عن محمد بن يوسف الفريابى عن إسرائيل عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد فأرادوا أن يتحولوا إلى المسجد فنزلت (ونكتب ماقدموا وآثارهم) فثبتوا فى منازلهم ، ﴿ الحديث الرابع ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنى حى بن عبد الله عن أبى عبد الرحمن الحبلى عن عبدالله عمرو رضى الله عنهما قال توفى رجل بالمدينة فصلى عليه النبى صلى الله عليه وسلم وقال « ياليته مات فى غير مولده » فقال رجل من الناس: ولم يارسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ « إن الرجل إذا توفى فى غير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره فى الجنة » ورواه النسائى عن يونس بن عبدالأعلى وابن ماجه عن حرملة كلاهما عن ابن وهب عن حى بن عبدالله به وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا أبو تميلة حدثنا الحسين عن ثابت قال مشيت مع أنس رضى الله عنه فأسرعت المشى فأخذ بيدى فمشينا رويدا فلما قضينا الصلاة قال أنس مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشى فقال يا أنس أما شعرت أن الآثار تكتب ؟ وهذا القول لاتنافى بينه وبين الأول بل فى هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى فانه إذا كانت هذه الآثار تكتب فلأن تكتب تلك التى فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى والله أعلم وقوله تعالى (وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين) أى وجميع الكائنات مكتوب فى كتاب مسطور مضبوط فى لوح محفوظ والإمام المبين ههنا هو أم الكتاب قاله مجاهد وقتادة وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم ، وكذا فى قوله تعالى (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم) أى بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر كما قال عز وجل (ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء) وقال تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا)

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

يقول تعالى واضرب يامحمد لقومك الذين كذبوك (مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضى الله عنهما وكعب الأحبار ووهب بن منبه أنها مدينة انطاكية وكان بها ملك يقال له انطيخس ابن انطيخس بن انطيخس وكان يعبد الأصنام فبعث الله تعالى اليه ثلاثة من الرسل وهم صادق وصدوق وشلوم فكذبهم

وهكذا روى عن بريدة بن الحصيب وعكرمة وقتادة والزهرى أنها انطاكية ، وقد استشكل بعض الأئمة كونها انطاكية بما سنذكره بعد تمام القصة إن شاء الله تعالى

وقوله تعالى (إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما) أى بادروهما بالتكذيب (فعززنا بثالث) أى قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث قال ابن جريج عن وهب بن سليمان عن شعيب الجبائى قال كان اسم الرسولين الأولين شمعون ويوحنا واسم الثالث بولص والقرية انطاكية (فقالوا) أى لأهل تلك القرية (إنا إليكم مرسلون) أى من ربكم الذى خلقكم يأمركم بعبادته وحده لا شريك له، وقاله أبو العالية وزعم قتادة بن دعامة أنهم كانوا رسل المسيح عليه السلام إلى أهل انطاكية (قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا) أى فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر فلم لا أوحى إلينا مثلكم ولو كنتم رسلا لكنتم ملائكة وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله عزوجل (ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا ؟) أى استعجبوا من ذلك وأنكروه، وقوله تعالى (قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فاتونا بسلطان مبين) وقوله تعالى حكاية عنهم فى قوله جل وعلا ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون) وقوله تعالى (ومامنع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ؟) ولهذا قال هؤلاء (ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون * قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) أى أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين الله يعلم أنا رسله إليكم ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار كقوله تعالى (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون)(وما علينا إلا البلاغ المبين) يقولون إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم فاذا أطعتم كانت لكم السعادة فى الدنيا والأخرى وإن لم تجيبوا فستعلمون غب ذلك والله أعلم

﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

فعند ذلك قال لهم أهل القرية (إنا تطيرنا بكم) أى لم نر على وجوهكم خيرا فى عيشنا . وقال قتادة يقولون إن أصابنا شر فانما هو من أجلكم . وقال مجاهد يقولون لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها(لئن لم تنتهوا لنرجمنكم)قال قتادة بالحجارة ، وقال مجاهد بالشتم (وليمسنكم منا عذاب أليم) أى عقوبة شديدة ، فقالت لهم رسلهم(طائركم معكم)أى مردود عليكم كقوله تعالى فى قوم فرعون (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله) وقال قوم صالح (اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله) وقال قتادة ووهب بن منبه أى أعمالكم معكم. وقال عزوجل (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله فمالهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا ؟) وقوله تعالى (أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون) أى من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا بل أنتم قوم مسرفون . وقال قتادة أى إن ذكرناكم بالله تطيرتم منا بل أنتم قوم مسرفون

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِنِّي ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضى الله عنهما وكعب الأحبار ووهب بن منبه: إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى أى لينصرهم من قومه قالوا وهو حبيب وكان يعمل الحرير وهو الحباك وكان رجلا سقيما قد أسرع فيه الجذام وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه مستقيم الفطرة(١) ، وقال ابن إسحاق عن رجل سماه عن الحكم عن مقسم أو عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال اسم صاحب يس حبيب وكان الجذام قد أسرع فيه وقال الثورى عن عاصم الأحوال عن أبى مجلز كان اسمه حبيب بن مرى وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال اسم صاحب يس حبيب النجار فقتله قومه وقال السدى كان قصارا وقال عمر بن الحكم كان إسكافا وقال قتادة كان يتعبد فى غار هناك (قال يا قوم اتبعوا المرسلين) يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم (اتبعوا من لا يسألكم أجرا) أى على إبلاغ الرسالة (وهم مهتدون) فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) أى وما يمنعنى من إخلاص العبادة للذى خلقنى وحده لا شريك له (وإليه ترجعون) أى يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر (أأتخذ من دونه آلهة) استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع (إن يردنى الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون) أى هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئا فان الله تعالى لو أرادنى بسوء (فلا كاشف له إلا هو) وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه ولا ينقذوننى مما أنا فيه (إنى إذا لفى ضلال مبين) أى إن اتخذتها آلهة من دون الله ، وقوله تعالى (إنى آمنت بربكم فاسمعون) قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضى الله عنهما وكعب ووهب يقول لقومه (إنى آمنت بربكم) الذى كفرتم به (فاسمعون) أى فاسمعوا قولى ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله (إنى آمنت بربكم) أى الذى أرسلكم (فاسمعون) أى فاشهدوا لى بذلك عنده وقد حكاه ابن جرير فقال وقال آخرون بل خاطب بذلك الرسل وقال لهم اسمعوا قولى لتشهدوا لى بما أقول لكم عند ربى إنى آمنت بربكم واتبعتكم وهذا القول الذى حكاه عن هؤلاء أظهر فى المعنى والله أعلم ، قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضى الله عنهما وكعب ووهب رضى الله عنهما فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يكن له أحد يمنع عنه ، وقال قتادة جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون فلم يزالوا به حتى أقعصوه وهو يقول كذلك فقتلوه رحمه الله

﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ * وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾

قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود رضى الله عنه أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصه من دبره وقال الله له (ادخل الجنة) فدخلها فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها وقال مجاهد قيل لحبيب النجار ادخل الجنة وذلك أنه قتل فوجبت له فلما رأى الثواب (قال ياليت قومى يعلمون) قال قتادة لا تلقى المؤمن إلا ناصحا لا تلقاه غاشا . لما عاين ما عاين من كرامة الله تعالى (قال ياليت قومى يعلمون * بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هجم عليه وقال ابن عباس نصح قومه فى حياته بقوله (ياقوم اتبعوا المرسلين) وبعد مماته فى قوله (ياليت قومى يعلمون * بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) رواه ابن أبى حاتم وقال سفيان الثورى عن عاصم الأحول عن أبى مجلز (بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) بإيمانى بربى وتصديق المرسلين ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل لى من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل فرحمه الله ورضى عنه فلقد كان حريصا على هداية قومه . قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام بن عبيد الله حدثنا ابن جابر هو محمد عن عبد الملك يعنى ابن عمير قال : قال عروة بن مسعود الثقفى رضى الله عنه للنبى صلى الله عليه وسلم ابعثنى إلى قومى أدعوهم إلى الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى أخاف أن

(١) فى النسخة المكية . النظرة .

يقتلوك » فقال لو وجدونى نائما ما أيقظونى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « انطلق » فانطلق فمر على اللات والعزى فقال لأصبحنك غدا بما يسوءك فغضبت ثقيف فقال يا معشر ثقيف إن اللات لالات وإن العزى لاعزى أسلموا تسلموا ، يا معشر الأحلاف إن العزى لا عزى وإن اللات لالات أسلموا تسلموا قال ذلك ثلاث مرات فرماه رجل فأصاب أكحله فقتله فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « هذا مثله كمثل صاحب يس » (قال يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) . وقال محمد بن إسحق عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم أنه حدث عن كعب الأحبار أنه ذكر له حبيب بن زيد بن عاصم أخو بنى مازن بن النجار الذى كان مسيلمة الكذاب قطعه باليمامة حين جعل يسأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول له :أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ فيقول نعم ثم يقول أتشهد أنى رسول الله فيقول لا أسمع فيقول له مسيلمة لعنه الله أتسمع هذا ولا تسمع ذاك ؟ فيقول نعم فجعل يقطعه عضوا عضوا كلما سأله لم يزده على ذلك حتى مات فى يديه فقال كعب حين قيل له اسمه حبيب وكان والله صاحب يس اسمه حبيب . وقوله تبارك وتعالى (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضبا منه تبارك وتعالى عليهم لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليه ويذكر عز وجل أنه ما أنزل عليهم وما احتاج فى إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم بل الأمر كان أيسر من ذلك . قاله ابن مسعود فيما رواه ابن إسحق عن بعض أصحابه أنه قال فى قوله تعالى (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) أى ما كاثرناهم بالجموع ،الأمر كان أيسر علينا من ذلك (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) قال فأهلك الله تعالى ذلك الملك وأهلك أهل انطاكية فبادوا عن وجه الأرض فلم يبق منهم باقية وقيل (وما كنا منزلين) أى وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم بل نبعث عليهم عذابا يدمرهم ، وقيل المعنى فى قوله تعالى (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء) أى من رسالة أخرى إليهم قاله مجاهد وقتادة قال قتادة فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) قال ابن جرير والأول أصح لأن الرسالة لا تسمى جندا . قال المفسرون بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه الصلاة والسلام فأخذ بعضادتى باب بلدهم ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم لم تبق بهم روح تتردد فى جسد ، وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هى انطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عند المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام كما نص عليه قتادة وغيره وهو الذى لم يذكر عن واحد من متأخرى المفسرين غيره ، وفى ذلك نظر من وجوه ﴿ أحدها ﴾ أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل لا من جهة المسيح عليه السلام كما قال تعالى (إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون — إلى أن قالوا — ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين) ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام والله تعالى أعلم، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم (إن أنتم إلا بشر مثلنا) ﴿ الثانى ﴾ أن أهل انطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتى فيهن بتاركة وهن القدس لأنها بلد المسيح وانطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، والاسكندرية لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والاساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين . ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم وأوطده ، ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين فإذا تقرر أن انطاكية أول مدينة آمنت فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم والله أعلم ﴿ الثالث ﴾ أن قصة انطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه وغير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ، ذكروه عند قوله تبارك وتعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة فى القرآن قرية أخرى

غير انطاكية كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً . أو تكون انطاكية إن كان لفظها محفوظا في هذا القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة فان هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ولاقبل ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم ، فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا الحسين بن إسحق التسترى حدثنا الحسين بن أبي السرى العسقلاني حدثنا حسين الأشقر حدثنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال « السبق ثلاثة : فالسابق إلى موسى عليه الصلاة والسلام يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى عليه الصلاة والسلام صاحب يس ، والسابق إلى محمد صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب رضي الله عنه » فانه حديث منكر لا يعرف إلا من طريق حسين الأشقر وهو شيعي متروك والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ * وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾

قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى (ياحسرة على العباد) أي ياويل العباد وقال قتادة (ياحسرة على العبادة) أي يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر الله وفرطت في جنب الله ، وفي بعض القراءات يا حسرة العباد على أنفسها ومعنى هذا يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب كيف كذبوا رسل الله وخالفوا أمر الله فانهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم (ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) أي يكذبونه ويستهزئون به ويجحدون ما أرسل به من الحق ثم قال تعالى (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون) أي ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجرتهم من قولهم (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيى) وهم القائلون بالدور من الدهرية وهم الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها فرد الله تبارك وتعالى عليهم باطلهم فقال تبارك وتعالى (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون) وقوله عز وجل (وإن كل لما جميع لدينا محضرون) أي وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ، ومعنى هذا كقوله جل وعلا (وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم) وقد اختلف القراء في أداء هذا الحرف فمنهم من قرأ (وإن كل لما) بالتخفيف فعنده أن إن للاثبات ومنهم من شدد (لما) وجعل ان نافية ولما بمعنى إلا ، تقديره وما كل إلا جميع لدينا محضرون ومعنى القراءتين واحد والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى (وآية لهم) أي دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى (الأرض الميتة) أي إذا كانت ميتة هامدة لا شيء فيها من النبات ، فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ولهذا قال تعالى (أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون) أي جعلناه رزقا لهم ولأنعامهم (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون) أي جعلنا فيها أنهارا سارحة في أمكنة يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره : لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها . وقوله جل وعلا (وما عملته أيديهم) أي وما ذاك كله إلا من رحمة تعالى الله بهم لا بسعيهم ولا كدهم ولا بحولهم وقوتهم قاله ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة ولهذا قال تعالى (أفلا يشكرون) أي فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد

ولا تحصى ، واختار ابن جرير ـ بل جزم به ، ولم يحك غيره إلا احتمالا ـ أن ما فى قوله تعالى (وما عملته أيديهم) بمعنى الذى تقديره ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم أى غرسوه ونصبوه ، قال وهى كذلك فى قراءة ابن مسعود رضى الله تعالى عنه (ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم أفلا يشكرون) ، ثم قال تبارك وتعالى (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض) أى من زروع وثمار ونبات (ومن أنفسهم) فجعلهم ذكراً وأنثى (ومما لايعلمون) أى من مخلوقات شتى لا يعرفونها كما قال جلت عظمته (ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

يقول تعالى ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة خلق الليل والنهار هذا بظلامه وهذا بضيائه وجعلهما يتعاقبان يجىء هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجىء هذا كما قال تعالى (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا) ولهذا قال عز وجل ههنا (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) أى نصرمه منه فيذهب فيقبل الليل ولهذا قال تبارك وتعالى (فاذاهم مظلمون) كما جاء فى الحديث « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم » هذا هو الظاهر من الآية وزعم قتادة أنها كقوله تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) وقد ضعف ابن جرير قول قتادة ههنا ، وقال إنما معنى الإيلاج الأخذ من هذا فى هذا وليس هذا مرادا فى هذه الآية وهذا الذى قاله ابن جرير حق . وقوله جل جلاله (والشمس تجرى لمستقرلها ذلك تقدير العزيز العليم) فى معنى قوله (لمستقر لها) قولان أحدهما أن المراد مستقرها المكانى وهو تحت العرش مما يلى الأرض من ذلك الجانب وهى أينما كانت فهى تحت العرش هى وجميع المخلوقات لأنه سقفها وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة وهو فوق العالم مما يلى رءوس الناس فالشمس إذا كانت فى قبة الفلك وقت الظهيره تكون أقرب ماتكون إلى العرش ، فاذا استدارت فى فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام وهو وقت نصف الليل صارت أبعد ما تكون إلى العرش فحينئذ تسجد وتستأذن فى الطلوع كما جاءت بذلك الأحاديث. قال البخارى حدثنا أبو نعيم حدثنا الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذر رضى الله عنه قال : كنت مع النبى ﷺ فى المسجد عند غروب الشمس فقال صلى الله عليه وسلم « يا أباذر أتدرى أين تغرب الشمس ؟ » قلت الله ورسوله أعلم قال صلى الله عليه وسلم « فانها تذهب حتى تسجد تحت العرش فذلك قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز) » حدثنا عبدالله بن الزبير الحميدى حدثنا وكيع حدثنا عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذر رضى الله عنه ، قال سألت رسول الله ﷺ عن قوله تبارك وتعالى (والشمس تجرى لمستقر لها) قال صلى الله عليه وسلم « مستقرها تحت العرش » هكذا أورده ههنا ، وقد أخرجه فى أماكن متعددة ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من طرق عن الأعمش به وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذر قال كنت مع رسول الله ﷺ فى المسجد حين غربت الشمس فقال صلى الله عليه وسلم « يا أباذر تدرى أين تذهب الشمس ؟ » قلت الله ورسوله أعلم ، قال صلى الله عليه وسلم « فانها تذهب حتى تسجد بين يدى ربها عز وجل فتستأذن فى الرجوع فيؤذن لها وكأنها قدقيل لها ارجعى من حيث جئت فترجع إلى مطلعها وذلك مستقرها ـ ثم قرأ ـ (والشمس تجرى لمستقر لها) » وقال سفيان الثورى عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لأبى ذر حين غربت الشمس « أتدرى أين تذهب ؟ » قلت الله ورسوله أعلم قال صلى الله عليه وسلم « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك

أن تسجد فلا يقبل منها ؟ وتستأذن فلا يؤذن لها ويقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقرلها ذلك تقدير العزيزالعليم) »

وقال عبد الرزاق أخبرنامعمر عن أبى إسحاق عن وهب بن جابر عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما قال فى قوله تعالى (والشمس تجرى لمستقرلها) قال إن الشمس تطلع فتردها ذنوب بنى آدم حتى إذا غربت سلمت وسجدت واستأذنت فيؤذن لها حتى إذا كان يوم غربت فسلمت وسجدت واستأذنت فلا يؤذن لها فتقول إن السير بعيد وإنى إن لايؤذن لى لاأبلغ فتحبس ماشاء الله أن تحبس ثم يقال لها اطلعى من حيث غربت قال فمن يومئذ إلى يوم القيامة لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أوكسبت فى إيمانها خيرا . وقيل المراد بمستقرها هوانتهاء سيرها وهوغاية ارتفاعها فى السماء فى الصيف وهو أوجها ، ثم غاية انخفاضها فى الشتاء وهو الحضيض ﴿ والقول الثانى ﴾ أن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها وهو يوم القيامة يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور وينتهى هذا العالم إلى غايته وهذا هومستقرها الزمانى قال قتادة (لمستقرلها) أى لوقتها ولأجل لاتعدوه ، وقيل المراد أنها لاتزال تنتقل فى مطالعها الصيفية إلى مدة لاتزيد عليها ثم تنتقل فى مطالع الشتاء إلى مدة لاتزيد عليها ، يروى هذا عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما . وقرأ ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم (والشمس تجرى لامستقرلها) أى لاقرار لها ولا سكون ، بل هى سائرة ليلا ونهاراً لاتفتر ولاتقف كما قال تبارك وتعالى (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) أى لايفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة (ذلك تقدير العزيز) أى الذى لا يخالف ولا يمانع (العليم) بجميع الحركات والسكنات وقد قدر ذلك ووقته على منوال لااختلاف فيه ولاتعاكس كما قال عزوجل (فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم) وهكذا ختم آية حم السجدة بقوله تعالى (ذلك تقدير العزيز العليم)ثم قال جل وعلا (والقمر قدرناه منازل) أى جعلناه يسير سيرا آخر يستدل به على مضى الشهور كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار كما قال عز وجل (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) . وقال تعالى (هوالذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) الآية وقال تبارك وتعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا) فجعل الشمس لها ضوء يخصها والقمر له نور يخصه وفاوت بين سير هذه وهذا فالشمس تطلع كل يوم وتغرب فى آخره على ضوء واحد ولكن تنتقل فى مطالعها ومغاربها صيفا وشتاء يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ثم يطول الليل ويقصر النهار وجعل سلطانها بالنهار فهى كوكب نهارى ، وأما القمر فقدره منازل يطلع فى أول ليلة من الشهر ضئيلا قليل النور ثم يزداد نورا فى الليلة الثانية ويرتفع منزلة ثم كلما ارتفع ازداد ضياء وإن كان مقتبسا من الشمس حتى يتكامل نوره فى الليلة الرابعة عشرة ثم يشرع فى النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم . قال ابن عباس رضى الله عنهما وهو أصل العذق ، وقال مجاهد العرجون القديم أى العذق اليابس يعنى ابن عباس رضى الله عنهما أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى ، وكذا قال غيرهما ثم بعد هذا يبديه الله تعالى جديدا فى أول الشهر الآخر والعرب تسمى كل ثلاث ليال من الشهر باسم باعتبار القمر فيسمون الثلاث الأول غرر واللواتى بعدها نفل ، واللواتى بعدها تسع لأن أخراهن التاسعة واللواتى بعدها عشر لأن أولاهن العاشرة واللواتى بعدها البيض لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن ، واللواتى بعدهن درع جمع درعاء لأن أولهن أسود لتأخر القمر فى أولهن منه ،ومنه الشاة الدرعاء وهى التى رأسها أسود وبعدهن ثلاث ظلم ثم ثلاث حنادس وثلاث دآدى وثلاث محاق لانمحاق القمر أول الشهر فيهن ، وكان أبوعبيدة رضى الله عنه ينكر التسع والعشر . كذا قال فى كتاب غريب المصنف . وقوله تبارك وتعالى (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) قال مجاهد لكل منهما حد لايعدوه ولا يقصر دونه إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا ، وقال عبدالرزاق أخبرنا معمر عن الحسن فى قوله تعالى (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) قال ذلك ليلة الهلال . وروى ابن أبى حاتم ههنا عن عبدالله بن المبارك أنه قال إن للريح جناحا

وإن القمر يأوى إلى غلاف من الماء ، وقال الثورى عن إسماعيل بن أبى خالد عن أبى صالح لايدرك هذا ضوء هذا ولا هذا ضوء هذا. وقال عكرمة فى قوله عزوجل (لاالشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) يعنى أن لكل منهما سلطانا فلا ينبغى للشمس أن تطلع بالليل . وقوله تعالى (ولا الليل سابق النهار) يقول لا ينبغى إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار فسلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل ، وقال الضحاك لايذهب الليل من ههنا حتى يجىء النهار من ههنا وأومأ بيده إلى الشرق ، وقال مجاهد (ولا الليل سابق النهار) يطلبان حثيثين يسلخ أحدهما من الآخر ، والمعنى فى هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلبا حثيثا . وقوله تبارك وتعالى (وكل فى فلك يسبحون) يعنى الليل والنهار والشمس والقمر كلهم يسبحون أى يدورون فى فلك السماء . قاله ابن عباس وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة وعطاء الخراسانى ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى فلك بين السماء والأرض . رواه ابن أبى حاتم وهو غريب جدا بل منكر، قال ابن عباس رضى الله عنهما وغير واحد من السلف فى فلكة كفلكة المغزل ، وقال مجاهد الفلك كحديدة الرحى أو كفلكة المغزل لا يدور المغزل إلا بها ولا تدور إلا به

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾

يقول تبارك وتعالى ودلالة لهم أيضا على قدرته تبارك وتعالى تسخيره البحر ليحمل السفن فمن ذلك بل أوله سفينة نوح عليه الصلاة والسلام التى أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام غيرهم ولهذا قال عز وجل (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) أى آباءهم (فى الفلك المشحون) أى فى السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات التى أمره الله تبارك وتعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : المشحون الموقر ، وكذا قال سعيد بن جبير والشعبى وقتادة والسدى ، وقال الضحاك وقتادة وابن زيد وهى سفينة نوح عليه الصلاة والسلام . وقوله جل علا (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) قال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما يعنى بذلك الإبل فانها سفن البر يحملون عليها ويركبونها ،وكذا قال عكرمة ومجاهد والحسن وقتادة فى رواية وعبد الله بن شداد وغيرهم ، وقال السدى فى رواية هى الأنعام . وقال ابن جرير حدثنا الفضل بن الصباح حدثنا محمد بن فضيل عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال أتدرن ما قوله تعالى (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) قلنا لا ، قال هى السفن جعلت من بعد سفينة نوح عليه الصلاة والسلام على مثلها، وكذا قال أبو مالك والضحاك وقتادة وأبو صالح والسدى أيضا المراد بقوله تعالى (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) أى السفن ، ويقوى هذا المذهب فى المعنى قوله جل وعلا (إنا لما طغى الماء حملنا كم فى الجارية* لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) . وقوله عزوجل (وإن نشأ نغرقهم) يعنى الذين فى السفن (فلا صريخ لهم) أى فلا مغيث لهم مما هم فيه (ولا هم ينقذون) أى مما أصابهم (إلا رحمة منا) وهذا استثناء منقطع تقديره ولكن برحمتنا نسيركم فى البر والبحر ونسلمكم إلى أجل مسمى ولهذا قال تعالى (ومتاعا إلى حين) أى إلى وقت معلوم عند الله عز وجل

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن تمادى المشركين فى غيهم وضلالهم وعدم اكتراثهم بذنوبهم التى أسلفوها وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة (وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم) قال مجاهد من الذنوب وقال غيره بالعكس (لعلكم ترحمون) أى لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه وتقدير الكلام أنهم لا يجيبون إلى ذلك بل يعرضون عنه ، واكتفى عن ذلك بقوله تعالى (وما تأتيهم آية من آيات من ربهم) أى على التوحيد وصدق الرسل (إلا كانوا عنها معرضين) أى لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها . وقوله عزوجل (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله) أى وإذا أمروا بالانفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين (قال الذين كفروا للذين آمنوا) أى عن الذين آمنوا من الفقراء أى قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالانفاق محاجين لهم فيما أمروهم به (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) أى هؤلاء الذين أمرتمونا بالانفاق عليهم لوشاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه فنحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم (إن أنتم إلا فى ضلال مبين) أى فى أمركم لنا بذلك ، قال ابن جرير ويحتمل أن يكون من قول الله عزوجل للكفار حين ناظروا المؤمنين وردوا عليهم فقال لهم (إن أنتم إلا فى ضلال مبين) وفى هذا نظر والله أعلم

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة فى قولهم (متى هذا الوعد) (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) قال الله عزوجل (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) أى ما ينتظرون إلا صيحة واحدة وهذه والله أعلم نفخة الفزع ، ينفخ فى الصور نفخة الفزع والناس فى أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم فبينما هم كذلك إذ أمر الله عز وجل إسرافيل فنفخ فى الصور نفخة يطولها ويمدها فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتا ورفع ليتا وهى صفحة العنق يتسمع الصوت من قبل السماء ، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم ولهذا قال تعالى (فلا يستطيعون توصية) أى على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك (ولا إلى أهلهم يرجعون) وقد وردت ههنا آثار وأحاديث ذكرناها فى موضع آخر ، ثم يكون بعد هذا نفخة الصعق التى تموت بها الأحياء كلهم ماعدا الحى القيوم ثم بعد ذلك نفخة البعث

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ * فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

هذه هى النفخة الثالثة وهى نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور ولهذا قال تعالى (فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) والنسلان هو المشى السريع كما قال تعالى (يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون * قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟) يعنون قبورهم التى كانوا يعتقدون فى الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها فلما عاينوا ما كذبوا به فى محشرهم (قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا) وهذا لا ينفى عذابهم فى قبورهم لأنه بالنسبة إلى مابعده فى الشدة كالرقاد . قال أبى بن كعب رضى الله عنه ومجاهد والحسن وقتادة : ينامون نومة قبل البعث قال قتادة وذلك بين النفختين فلذلك يقولون من بعثنا من مرقدنا فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ، قاله غير واحد من السلف (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) وقال الحسن إنما يجيبهم بذلك الملائكة ، ولا منافاة إذ الجمع ممكن والله سبحانه وتعالى أعلم . وقال عبد الرحمن بن زيد : الجميع من قول الكفار (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) نقله ابن جرير واختار الأول وهو أصح وذلك كقوله تبارك وتعالى فى الصفات (وقالوا

يا ويلنا هذا يوم الدين * هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) وقال الله عز وجل (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون * وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون)

وقوله تعالى (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) كقوله عز وجل (فإنما هى زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة) وقال جلت عظمته (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) وقال جل جلاله (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) أى إنما نأمرهم أمرا واحدا فإذا الجميع محضرون (فاليوم لاتظلم نفس شيئا) أى من عملها (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون)

﴿ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ * لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ * سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فنزلوا فى روضات الجنات أنهم فى شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم ، قال الحسن البصرى وإسماعيل بن أبى خالد فى شغل عما فيه أهل النار من العذاب ، وقال مجاهد (فى شغل فاكهون) أى فى نعيم معجبون أى به . وكذا قال قتادة وقال ابن عباس رضى الله عنهما فاكهون أى فرحون ، قال عبد الله بن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن المسيب وعكرمة والحسن وقتادة والأعمش وسليمان التيمى والأوزاعى فى قوله تبارك وتعالى (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون) قالوا شغلهم افتضاض الأبكار ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عنه (فى شغل فاكهون) أى بسماع الأوتار ، وقال أبو حاتم لعله غلط من المستمع وإنما هو افتضاض الأبكار . وقوله عز وجل (هم وأزواجهم) قال مجاهد وحلائلهم (فى ظلال) أى فى ظلال الأشجار (على الأرائك متكئون) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والسدى وخصيف (الأرائك) هى السرر تحت الحجال [قلت] نظيره فى الدنيا هذه التخوت تحت البشاخين والله سبحانه وتعالى أعلم . وقوله عز وجل (لهم فيها فاكهة) أى من جميع أنواعها (ولهم ما يدعون) أى مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ . قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عوف الحمصى حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار حدثنا محمد ابن مهاجر عن الضحاك المعافرى عن سليمان بن موسى حدثنى كريب أنه سمع أسامة بن زيد رضى الله عنهما يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا هل مشمر إلى الجنة ! فان الجنة لا خطر لها هى ورب الكعبة نور كلها يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة ، ومقام فى أبد فى دار سلامة . وفاكهة خضرة وخير ونعمة فى محلة عالية بهية » قالوا نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها قال ﷺ « قولوا إن شاء الله » فقال القوم إن شاء الله ، وكذا رواه ابن ماجه فى كتاب الزهد من سننه من حديث الوليد بن مسلم عن محمد بن مهاجر به . وقوله تعالى (سلام قولا من رب رحيم) قال ابن جريج قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (سلام قولا من رب رحيم) فان الله تعالى نفسه سلام على أهل الجنة وهذا الذى قاله ابن عباس رضى الله عنهما كقوله تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) . وقد روى ابن أبى حاتم ههنا حديثا وفى إسناده نظر فانه قال : حدثنا موسى بن يوسف حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب حدثنا أبو عاصم العبادانى حدثنا الفضل الرقاشى عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رءوسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله تعالى (سلام قولا من رب رحيم) قال فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ماداموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم وفى ديارهم » ورواه ابن ماجه فى كتاب السنة

من سننه عن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب به ، وقال ابن جرير حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب حدثنا حرملة عن سليمان بن حميد قال سمعت محمد بن كعب القرظي يحدث عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال: إذا فرغ الله تعالى من أهل الجنة والنار أقبل في ظلل من الغمام والملائكة قال فيسلم على أهل الجنة فيردون عليه السلام قال القرظي وهذا في كتاب الله تعالى (سلام قولا من رب رحيم) فيقول الله عز وجل: سلوني، فيقولون ماذا نسألك أي رب ؟ قال بلى سلوني، قالوا نسألك أي رب رضاك ، قال رضائي أحلكم دار كرامتي قالوا يا رب فما الذي نسألك فوعزتك وجلالك وارتفاع مكانك لو قسمت علينا رزق الثقلين لأطعمناهم ولأسقيناهم ولألبسناهم ولأخدمناهم لا ينقصنا ذلك شيئاً . قال تعالى إن لدي مزيداً قال فيفعل ذلك بهم في درجهم حتى يستوي في مجلسه ، قال ثم تأتيهم التحف من الله عز وجل تحملها إليهم الملائكة ثم ذكر نحوه . وهذا خبر غريب أورده ابن جرير من طرق والله أعلم .

﴿ وَٱمْتَٰزُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا بمعنى يتميزون عن المؤمنين في موقفهم كقوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم) وقال عز وجل (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) (يومئذ يصدعون) أي يصيرون صدعين فرقتين (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون * من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم) ، وقوله تعالى (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين) هذا تقريع من الله تعالى للكفرة من بني آدم الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم ولهذا قال تعالى(وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم) أي قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان وأمرتكم بعبادتي وهذا هو الصراط المستقيم فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به ولهذا قال عز وجل (ولقد أضل منكم جبلا كثيراً) يقال جبلا بكسر الجيم وتشديد اللام ، ويقال جبلا بضم الجيم والباء وتخفيف اللام ، ومنهم من يسكن الباء والمراد بذلك الخلق الكثير قاله مجاهد وقتادة والسدي وسفيان بن عيينة . وقوله تعالى (أفلم تكونوا تعقلون) أي أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له وعدولكم إلى اتباع الشيطان . قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن إسماعيل بن رافع عمن حدثه عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم يقول (ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون * هذه جهنم التي كنتم توعدون) (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) فيتميز الناس ويجثون وهي التي يقول الله عز وجل (وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون) »

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ * وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة وقد برزت الجحيم لهم تقريعا وتوبيخا (هذه جهنم التي كنتم توعدون) أي هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموهم (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) كما قال تعالى (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا

هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون) وقوله تعالى (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا ويحلفون ما فعلوه فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم بما عملت . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو شيبة إبراهيم ابن عبدالله بن أبي شيبة حدثنا منجاب بن الحارث التميمي حدثنا أبو عامر الأزدي حدثنا سفيان عن عبيد المكتب عن الفضيل بن عمرو عن الشعبي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال صلى الله عليه وسلم « أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم قال صلى الله عليه وسلم « من مجادلة العبد ربه يوم القيامة يقول رب ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول: بلى ، فيقول لا أجيز على إلا شاهدا من نفسي ، فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين شهودا فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي فتنطق بعمله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل » وقد رواه مسلم والنسائي كلاهما عن أبي بكر بن أبي النضر عن أبي النضر عن عبيدالله بن عبد الرحمن الأشجعي عن سفيان هو الثوري به . ثم قال النسائي لا أعلم أحدا روى هذا الحديث عن سفيان غير الأشجعي وهو حديث غريب والله تعالى أعلم . كذا قال وقد تقدم من رواية أبي عامر عن عبد الملك بن عمرو الأسدي وهو العقدي عن سفيان ، وقال عبدالرزاق أخبرنا معمر عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال « إنكم تدعون مفدما على أفواهكم بالفدام فأول ما يسأل عن أحدكم فخذه وكتفه » رواه النسائي عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به ، وقال سفيان بن عيينة عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث القيامة الطويل قال فيه « ثم يلقى الثالث فيقول ما أنت فيقول أنا عبدك آمنت بك وبنبيك وبكتابك وصمت وصليت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع - قال - فيقال له ألا نبعث عليك شاهدنا ؟ - قال فيفكر في نفسه من الذي يشهد عليه فيختم على فيه ويقال لفخذه انطقي - قال - فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل وذلك المنافق وذلك ليعذر من نفسه وذلك الذي يسخط الله تعالى عليه » ورواه مسلم وأبوداود من حديث سفيان بن عيينة به بطوله ثم قال ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا إسماعيل بن عياش حدثنا ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل اليسرى » ورواه ابن جرير عن محمد بن عوف عن عبدالله بن المبارك عن إسماعيل بن عياش به مثله . وقد جود إسناده الامام أحمد رحمه الله فقال حدثنا الحكم بن نافع حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد الحضرمي عمن حدثه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل الشمال » وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية حدثنا يونس بن عبيد عن حميد بن هلال قال : قال أبو بردة قال أبوموسى هو الأشعري رضي الله عنه يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه فيعترف فيقول نعم أي رب عملت عملت عملت قال فيغفر الله تعالى له ذنوبه ويستره منها قال فما على الأرض خليقة ترى من تلك الذنوب شيئا وتبدوا حسناته فود أن الناس كلهم يرونها ، ويدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض عليه ربه عمله فيجحد ويقول أي رب وعزتك لقد كتب على هذا الملك مالم أعمل فيقول له الملك أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا ؟ فيقول لا وعزتك أي رب ما عملته فاذا فعل ذلك ختم الله تعالى على فيه قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فاني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى ثم تلا (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) وقوله تبارك وتعالى (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها يقول ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى فكيف يهتدون وقال مرة أعميناهم وقال الحسن البصري لوشاء الله لطمس على أعينهم فجعلهم عميا يترددون وقال السدي يقول ولو نشاء أعمينا أبصارهم وقال مجاهد وأبو صالح وقتادة والسدي فاستبقوا الصراط يعني الطريق وقال ابن زيد يعني

بالصراط ههنا الحق فأنى يبصرون وقد طمسنا على أعينهم وقال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما فأنى يبصرون لا يبصرون الحق . وقوله عز وجل (ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم) قال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما أهلكناهم وقال السدى يعنى لغيرنا خلقهم . وقال أبو صالح لجعلناهم حجارة ، وقال الحسن البصرى وقتادة لأقعدهم على أرجلهم ولهذا قال تبارك وتعالى (فما استطاعوا مضياً) أى إلى أمام (ولا يرجعون) إلى وراء بل يلزمون حالا واحدا لا يتقدمون ولا يتأخرون .

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ * وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ * لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رد إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط كما قال تبارك وتعالى (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) وقال عز وجل (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) والمراد من هذا والله أعلم الاخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال لا دار دوام واستقرار ولهذا قال عز وجل (أفلا يعقلون) أى يتفكرون بعقولهم فى ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة ثم إلى الشيخوخة ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها ولا انتقال منها ولا محيد عنها وهى الدار الآخرة ، وقوله تبارك وتعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) يقول عز وجل مخبرا عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه ما علمه الشعر (وما ينبغى له) أى ما هو فى طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضية جبلته ولهذا ورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم بل إن أنشده زحفه أو لم يتمه ، وقال أبو زرعة الرازى حدثنا إسماعيل بن مجالد عن أبيه عن الشعبى أنه قال ما ولد عبد المطلب ذكرا ولا أنثى إلا يقول الشعر إلا رسول الله ﷺ ذكره ابن عساكر فى ترجمة عتبة بن أبى لهب الذى أكله الأسد بالزرقاء قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن الحسن هو البصرى قال إن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت * كفى بالاسلام والشيب للمرء ناهيا * فقال أبو بكر رضى الله عنه يارسول الله * كفى الشيب والاسلام للمرء ناهيا * قال أبو بكر أو عمر رضى الله عنهما: أشهد أنك رسول الله يقول تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) وهكذا روى البيهقى فى الدلائل أن رسول الله ﷺ قال : للعباس بن مرداس السلمى رضى الله عنه « أنت القائل : * أتجعل نهبى ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة * » فقال إنما هو بين عيينة والأقرع فقال ﷺ « الكل سواء » يعنى فى المعنى صلوات الله وسلامه عليه والله أعلم . وقد ذكر السهيلى فى الروض الأنف لهذا التقديم والتأخير الذى وقع فى كلامه ﷺ فى هذا البيت مناسبة أغرب فيها ، حاصلها شرف الأقرع بن حابس على عيينة بن بدر الفزارى لأنه ارتد أيام الصديق رضى الله عنه بخلاف ذاك والله أعلم ، وهكذا روى الأموى فى مغازيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يمشى بين القتلى يوم بدر وهو يقول « نفلق هاما » فيقول الصديق رضى الله عنه متمما للبيت

من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

وهذا لبعض شعراء العرب فى قصيدة له وهى فى الحماسة وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم حدثنا مغيرة عن الشعبى عن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ إذا استراب الخبر تمثل فيه ببيت طرفة :

* ويأتيك بالأخبار من لم تزود * وهكذا رواه النسائى فى اليوم والليلة من طريق إبراهيم بن مهاجر عن الشعبى عنها ورواه الترمذى والنسائى أيضا من حديث المقدام بن شريح بن هانىء عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها كذلك ثم قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح ، وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا يوسف بن موسى حدثنا أسامة عن زائد عن

سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كان رسول الله ﷺ يتمثل من الأشعار

* ويأتيك بالأخبار من لم تزود * ثم قال ورواه غير زائدة عن سماك عن عطية عن عائشة رضى الله عنها وهذا فى شعر طرفة بن العبد فى معلقته المشهورة وهذا المذكور عجز بيت منها أوله

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتا ولم تضرب له وقت موعد

وقال سعيد بن أبى عروة عن قتادة قيل لعائشة رضى الله عنها هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشى من الشعر ؟ قالت رضى الله عنها كان أبغض الحديث إليه غير أنه ﷺ كان يتمثل ببيت أخى بنى قيس فيجعل أوله آخره وآخره أوله فقال أبو بكر رضى الله عنه ليس هذا هكذا يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ « إنى والله ما أنا بشاعر وما ينبغى لى » رواه ابن أبى حاتم وابن جرير وهذا لفظه وقال معمر عن قتادة بلغنى أن عائشة رضى الله عنها سئلت هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشىء من الشعر فقال رضى الله عنها لا إلا بيت طرفة

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فجعل صلى الله عليه وسلم يقول « من لم تزود بالأخبار » فقال أبو بكر ليس هذا هكذا فقال صلى الله عليه وسلم « إنى لست بشاعر ولا ينبغى لى » وقال الحافظ أبو بكر البيهقى أخبرنا أبو عبد الله الحافظ. حدثنا أبو حفص عمر بن أحمد ابن نعيم وكيل المتقى ببغداد حدثنا أبو محمد عبد الله بن هلال النحوى الضرير حدثنا على بن عمرو الأنصارى حدثنا سفيان ابن عيينة عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط إلا بيتا واحدا

تفاءل بما تهوى يكن فلقلما يقال لشىء كان إلا تحققا

سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى عن هذا الحديث فقال هو منكر ولم يعرف شيخ الحاكم ولا الضرير وثبت فى الصحيح أنه ﷺ تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ولكن تبعا لقول أصحابه رضى الله عنهم فانهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون فيقولون

لاهم لولا أنت ما اهتدينا * ولا تصدقنا ولا صلينا * فأنزلن سكينة علينا

وثبت الأقدام إن لاقينا * إن الأولى قد بغوا علينا * إذا أرادوا فتنة أبينا

ويرفع ﷺ صوته بقوله أبينا ويمدها وقد روى هذا بزحاف فى الصحيحين أيضا ، وكذا ثبت أنه ﷺ قال يوم حنين وهو راكب البغلة يقدم بها فى نحور العدو .

أنا النبى لا كذب * أنا ابن عبد المطلب

لكن قالوا هذا وقع اتفاقا من غير قصد لوزن شعر بل جرى على اللسان من غير قصد إليه وكذلك ما ثبت فى الصحيحين عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال كنا مع رسول الله ﷺ فى غار فنكبت أصبعه فقال صلى الله عليه وسلم

هل أنت إلا أصبع دميت * وفى سبيل الله ما لقيت

وسيأتى عند قوله تعالى (إلا اللمم) إنشاد

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك ما ألما

وكل هذا لا ينافى كونه ﷺ ما علم شعرا وما ينبغى له فان الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم (الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ولا كهانة ولا مفتعل ولا سحر يؤثر كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال وقد كانت سجيته صلى الله عليه وسلم تأبى صناعة الشعر طبعا وشرعا كما رواه أبو داود قال حدثنا عبيد الله بن عمرو حدثنا عبد الله بن سويد حدثنا سعيد بن أبى أيوب حدثنا شرحبيل بن يزيد المعافرى عن عبد الرحمن بن رافع التنوخى قال سمعت عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما أبالى ما أوتيت إن أنا شربت ترياقا أو تعلقت تميمة أو قلت الشعر من قبل نفسى »

تفرد به أبو داود وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن الأسود بن شيبان عن أبى نوفل قال سألت عائشة رضى الله عنها هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بسائغ عنده الشعر؟ فقالت قد كان أبغض الحديث إليه ، وقال عن عائشة رضى الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الجوامع من الدعاء ويدع ما بين ذلك وقال أبو داود حدثنا أبو الوليد الطيالسى حدثنا شعبة عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا » انفرد به من هذا الوجه وإسناده على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا قزعة بن سويد الباهلى عن عاصم بن مخلد عن أبى الأشعث الصنعانى ح وحدثنا الأشيب فقال عن أبن عاصم عن أبى الأشعث عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرض بيت شعر بعد العشاء الآخرة لم تقبل له صلاة تلك الليلة » وهذا حديث غريب من هذا الوجه لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة والمراد بذلك نظمه لا إنشاده والله أعلم ، على أن الشعر فيه ما هو مشروع وهو هجاء المشركين الذى كان يتعاطاه شعراء الإسلام كحسان بن ثابت رضى الله عنه وكعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة وأمثالهم وأضرابهم رضى الله عنهم أجمعين ، ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب كما يوجد فى شعر جماعة من الجاهلية ومنهم أمية بن أبى الصلت الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « آمن شعره وكفر قلبه » وقد أنشد بعض الصحابة رضى الله عنهم للنبى صلى الله عليه وسلم مائة بيت يقول ﷺ عقب كل بيت « هيه » يعنى يستطعمه فيزيده من ذلك ، وقد روى أبو داود من حديث أبى بن كعب وبريدة بن الحصيب وعبد الله بن عباس رضى الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن من البيان سحرا وإن من الشعر حكما » ولهذا قال (وما علمناه الشعر) يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم ما علمه الله الشعر (وما ينبغى له) أى وما يصلح له (إن هو ذكر وقرآن مبين) أى ما هذا الذى علمناه (إلا ذكر وقرآن مبين) أى بين واضح جلى لمن تأمله وتدبره ولهذا قال تعالى (لينذر من كان حيا) أى لينذر هذا القرآن المبين كل حى على وجه الأرض كقوله (لأنذركم به ومن بلغ) وقال جل وعلا (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) وإنما ينتفع بنذارته من هو حى القلب مستنير البصيرة كما قال قتادة حى القلب حى البصر وقال الضحاك يعنى عاقلا (ويحق القول على الكافرين) أى هو رحمة للمؤمنين وحجة على الكافرين .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التى سخرها لهم (فهم لها مالكون) قال قتادة مطيقون أى جعلهم يقهرونها وهى ذليلة لهم لا تمتنع منهم بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه ولو شاء لأقامه وساقه وذاك ذليل منقاد معه وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير ، وقوله تعالى (فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) أى منها ما يركبون فى الأسفار ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار (ومنها يأكلون) إذا شاءوا نحروا واجتزروا (ولهم فيها منافع) أى من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين (ومشارب) أى من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ونحو ذلك (أفلا يشكرون) أى أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره ولا يشركون به غيره ؟

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ * فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين فى اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى قال الله تعالى (لا يستطيعون نصرهم) أى لا تقدر الآلهة على نصر عابديها بل هى أضعف من

ذلك وأقل وأذل وأحقر وأدحر بل لاتقدر على الاستنصار لأنفسها ولا الانتقام ممن أرادها بسوء لأنها جماد لاتسمع ولا تعقل ، وقوله تبارك وتعالى (وهم لهم جند محضرون) قال مجاهد يعنى عند الحساب يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها ليكون ذلك أبلغ فى حزنهم وأدل عليهم فى إقامة الحجة عليهم وقال قتادة (لا يستطيعون نصرهم) يعنى الآلهة (وهم لهم جند محضرون) والمشركون يغضبون للآلهة فى الدنيا وهى لاتسوق إليهم خيرا ولا تدفع عنهم شرا إنما هى أصنام وهكذا قال الحسن البصرى وهذا القول حسن وهو اختيار ابن جرير رحمه الله تعالى ، وقوله تعالى (فلا يحزنك قولهم) أى تكذيبهم لك وكفرهم بالله (إنا نعلم مايسرون ومايعلنون) أى نحن نعلم جميع ماهم فيه وسنجزيهم وصفهم ونعاملهم على ذلك يوم لايفقدون من أعمالهم جليلا ولا حقيراً ولا صغيرا ولا كبيرا بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديما وحديثاً

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدى وقتادة جاء أبى بن خلف لعنه الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده عظم رميم وهو يفته ويذروه فى الهواء وهو يقول يامحمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال صلى الله صلى الله عليه وسلم « نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار » ونزلت هذه الآيات من آخر يس (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة) إلى آخرهن ، وقال بن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين بن الجنيد حدثنا محمد بن العلاء حدثنا عثمان ابن سعيد الزيات عن هشيم عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال إن العاصى بن وائل أخذ عظما من البطحاء ففته بيده ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أيحيى الله هذا بعد ما أرى ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم » قال ونزلت الآيات من آخر يس ، ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم عن هشيم عن أبى بشر عن سعيد بن جبير فذكره ولم يذكر ابن عباس رضى الله عنهما وروى من طريق العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء عبدالله بن أبى بعظم ففته وذكر نحو ما تقدم ، وهذا منكر لأن السورة مكية وعبدالله بن أبى ابن سلول إنما كان بالمدينة وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات قد نزلت فى أبى بن خلف أو العاص بن وائل أو فيهما فهى عامة فى كل من أنكر البعث ، والألف واللام فى قوله تعالى (أولم ير الإنسان) للجنس يعم كل منكر للبعث (أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) أى أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة فان الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين فخلقه من شىء حقير ضعيف مهين كما قال عز وجل (ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه فى قرار مكين * إلى قدر معلوم) وقال تعالى (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) أى من نطفه من أخلاط متفرقة فالذى خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته كما قال الإمام أحمد فى مسنده حدثنا أبو المغيرة حدثنا حريز حدثنى عبدالرحمن بن ميسرة عن جبير بن نفير عن بشر بن جحاش قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما فى كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى بنى آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة ؟ » ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن يزيد بن هارون عن حريز بن عثمان به ولهذا قال تعالى (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ،) أى استبعد إعادة الله تعالى ذى القدرة العظيمة التى خلقت السموات والأرض للأجساد والعظام الرميمة ونسى نفسه وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود فعلم من نفسه ماهو أعظم مما استبعده وأنكره

وجحده ولهذا قال عز وجل (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) أى يعلم العظام فى سائر أقطار الأرض وأرجائها أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت ، قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبوعوانة عن عبد الملك بن عمير عن ربعى قال : قال عقبة بن عمرو لحذيفة رضى الله عنهما : ألا تحدثنا ماسمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سمعته صلى الله عليه وسلم يقول « إن رجلا حضره الموت فلما أيس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا لى حطباً كثيرا جزلا ثم أوقدوا فيه نارا حتى إذا أكلت لحمى وخلصت إلى عظمى فامتحشت فخذوها فدقوها فذروها فى اليم ففعلوا فجمعه الله تعالى إليه ثم قال له لم فعلت ذلك ؟ قال من خشيتك فغفر الله عز وجل له » فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته صلى الله عليه وسلم يقول ذلك وكان نباشا ، وقد أخرجاه فى الصحيحين من حديث عبد الملك بن عمير بألفاظ كثيرة منها أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه ثم يذروا نصفه فى البر ونصفه فى البحر فى يوم رائح أى كثير الهواء ففعلوا ذلك ، فأمر الله تعالى البحر فجمع مافيه وأمر البر فجمع مافيه ثم قال له كن فإذا هو رجل قائم فقال له ماحملك على ماصنعت ؟ قال : مخافتك وأنت أعلم ، فما تلافاه أن غفر له ، وقوله تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون) أى الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضرا نضرا ذا ثمر وينع ثم أعاده إلى أن صار حطبا يابسا توقد به النار كذلك هو فعال لما يشاء قادر على مايريد لايمنعه شىء . قال قتادة فى قوله (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون) يقول الذى أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه ، وقيل المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت فى أرض الحجاز فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد فيأخذ منه عودين أخضرين ويقدح أحدهما بالآخر فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء وروى هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وفى المثل : لكل شجر نار واستمجد المرخ والعفار ، وقال الحكماء فى كل شجر نار إلا العناب

﴿ أَوَ لَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا منبها على قدرته العظيمة فى خلق السموات السبع بمافيها من الكواكب السيارة والثوابت والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار وما بين ذلك ومرشدا إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة كقوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وقال عز وجل ههنا (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟) أى مثل البشر فيعيدهم كما بدأهم ، قاله ابن جرير ، وهذه الآية الكريمة كقوله عز وجل (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ؟ بلى إنه على كل شىء قدير) وقال تبارك وتعالى ههنا (بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) أى إنما يأمر بالشىء أمرا واحدا لايحتاج إلى تكرر وتأكيد

إذا ما أراد الله أمرا فإنما * يقول له كن قوله فيكون

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن نمير حدثنا موسى بن المسيب عن شهر عن عبد الرحمن بن غنم عن أبى ذر رضى الله عنه قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى يقول ياعبادى كلكم مذنب إلا من عافيت فاستغفرونى أغفر لكم وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إنى جواد ماجد واجد أفعل ماأشاء ، عطائى كلام وعذابى كلام إذا أردت شيئا فإنما أقول له كن فيكون » . وقوله تعالى (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون) أى تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحى القيوم الذى بيده مقاليد السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله وله الخلق والأمر وإليه ترجع العباد يوم المعاد فيجازى كل عامل بعمله وهو العادل المنعم المتفضل . ومعنى قوله سبحانه وتعالى (فسبحان

الذى بيده ملكوت كل شىء) كقوله عزوجل (قل من بيده ملكوت كل شىء ؟)وكقوله تعالى (تبارك الذى بيده الملك) فالملك والملكوت واحد فى المعنى كرحمة ورحموت ورهبة ورهبوت وجبر وجبروت ، ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد والملكوت هو عالم الأرواح والصحيح الأول وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم . قال الإمام أحمد حدثنا شريح بن النعمان حدثنا حماد عن عبد الملك بن عمير حدثنى ابن عم لحذيفة عن حذيفة ـ وهو ابن اليمان ـ رضى الله عنه قال قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فقرأ السبع الطوال فى ركعات وكان صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع قال سمع الله لمن حمده ـ ثم قال ـ الحمد الله ذى الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه ، فأنصرف وقد كادت تنكسر رجلاى . وقد روى أبو داود والترمذى فى الشمائل والنسائى من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن أبى حمزة مولى الأنصار عن رجل من بنى عبس عن حذيفة رضى الله عنه أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى من الليل وكان يقول « الله أكبر ـ ثلاثاً ـ ذى الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » ثم استفتح فقرأ البقرة ثم ركع فكان ركوعه نحوا من قيامه وكان يقول فى ركوعه « سبحان ربى العظيم » ثم رفع رأسه من الركوع فكان قيامه نحوا من ركوعه وكان يقول فى قيامه « لربى الحمد » ثم سجد فكان سجوده نحوا من قيامه وكان يقول فى سجوده « سبحان ربى الأعلى » ثم رفع رأسه من السجود وكان يقعد فيما بين السجدتين نحوا من سجوده وكان يقول « رب اغفر لى رب اغفر لى » فصلى أربع ركعات فقرأ فيهن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة أو الأنعام ـ شك شعبة ـ هذا لفظ أبى داود . وقال النسائى : أبو حمزة عندنا طلحة بن يزيد ، وهذا الرجل يشبه أن يكون صلة كذا قال والأشبه أن يكون ابن عم حذيفة كما تقدم فى رواية الإمام أحمد والله أعلم . وأما روايه صلة بن زفر عن حذيفة رضى الله عنه فانها فى صحيح مسلم ولكن ليس فيها ذكر الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة . وقال أبو داود حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب حدثنى معاوية بن صالح عن عمرو ابن قيس عن عاصم بن حميد عن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه قال : قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ قال ثم ركع بقدر قيامه يقول فى ركوعه « سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة » ثم سجد بقدر قيامه ثم قال فى سجوده مثل ذلك ثم قام فقرأ بآل عمران ثم قرأ سورة سورة ، ورواه الترمذى فى الشمائل والنسائى من حديث معاوية بن صالح به .

آخر تفسير سورة يس ولله الحمد والمنة

تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع ، وأوله سورة الصافات

﴿ فهرس الجزء الثالث من تفسير ابن كثير ﴾

٢ (تفسير سورة سبحان)
٢ قصة الاسراء والمعراج
٢٤ إيتاء سيدنا موسى عليه السلام التوراة، ٢٧ كتاب الأعمال
٢٨ بعثة الرسل ٣٢ الترفين
٣٣ القرون الماضية بعد نوح
٣٣ هلاك من آثر الدنيا على الآخرة
٣٧ الأمر بالتوسط في الانفاق
٥١ تكريم بني آدم
٦٠ الكلام على الروح
٦٢ لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لعجزوا
٦٦ إيتاء موسى عليه السلام التسع آيات
٧٠ (تفسير سورة الكهف)
٧٢ قصة أصحاب الكهف
٨٢ قصة صاحب الجنتين
قصة سيدنا موسى مع الخضر
١٠٠ قصة ذي القرنين
١١٠ تفسير سورة مريم
١١٠ قصة سيدنا زكريا عليه السلام
١١٤ قصة السيدة مريم
١٢٢ قصه سيدنا إبراهيم عليه السلام
١٢٤ قصة سيدنا موسى عليه السلام
١٢٥ قصة سيدنا إسماعيل عليه السلام
١٢٦ قصة سيدنا إدريس عليه السلام
١٣١ المرور على الصراط
١٤١ (تفسير سورة طه)
١٤٣ قصة سيدنا موسى مع فرعون
١٧٢ تفسير سورة الأنبياء
١٨١ قصة سيدنا إبراهيم مع قومه
١٨٥ قصة سيدنا داود وسليمان
١٨٨ قصة سيدنا أيوب عليه السلام
١٩١ قصة سيدنا يونس عليه السلام
٢٠٣ (تفسير سورة الحج)
٢١٠ أذان سيدنا إبراهيم بالحج
٢٢٤ دفاع الله عن المؤمنين
٢٣٧ (تفسير سورة المؤمنون)
٢٤٠ بيان كيفية خلق الإنسان
٢٦٠ (تفسير سورة النور)
٢٦٥ ماجاء في اللعان، ٢٦٨ قصة الافك
٢٧٨ الأمر بالاستئذان
٢٨١ أمر المؤمنين بغض أبصارهم
٢٨٢ أمر المؤمنات بغض أبصارهن
٢٨٦ الأمر بنكاح الأيامى المؤمنات
٢٨٩ تفسير قوله تعالى : الله نور السموات والأرض
٢٩٢ الأمر ببناء المساجد وتعظيمها
٣٠٨ (تفسير سورة الفرقان)
٣٢٤ صفات عباد الرحمن
٣٣٠ (تفسير سورة الشعراء)
٣٣١ قصة سيدنا موسى مع فرعون
٣٣٧ قصة سيدنا إبراهيم مع قومه
٣٤٠ قصة سيدنا نوح مع قومه
٣٤١ قصة سيدنا هود مع قومه
٣٤٤ قصة سيدنا لوط مع قومه
٣٤٥ قصة سيدنا شعيب مع قومه
٣٥٥ (تفسير سورة النمل)
٣٥٦ قصة سيدنا موسى مع فرعون
٣٥٧ قصة سيدنا داود وسليمان
٣٦٦ قصة سيدنا صالح مع قومه
٣٧٤ قصة الدابة التي تخرج من الأرض
٣٧٧ النفخ في الصور
٣٧٩ (تفسير سورة القصص)
٣٧٩ نبأ سيدنا موسى مع فرعون
٣٩٨ قصة قارون
٤٠٤ (تفسير سورة العنكبوت)
٤٠٦ نبأ سيدنا نوح مع قومه
٤٠٧ نبأ سيدنا إبراهيم عليه السلام
٤٢٢ (تفسير سورة الروم)
٤٢٩ الآيات الدالة على قدرته عز وجل
٤٤١ (تفسير سورة لقمان)
٤٤٤ وصية لقمان لابنه
٤٥٦ تفسير سورة السجدة
٤٥٨ صفات المؤمنين
٤٦٥ (تفسير سورة الأحزاب)
٤٦٧ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم الخ
٤٦٩ أخذ العهد على الأنبياء
٤٧٤ الأمر بالاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم
٤٨٢ فضل أمهات المؤمنين
٤٨٧ ما أعده الله للمؤمنين والمؤمنات
٤٩٤ الأمر بالإكثار من ذكر الله
٥٠٣ آية الحجاب، ٥٠٦ الأمر بالصلاة على النبي ﷺ
٥١٨ أمر المؤمنات بتطويل الثياب
٥٢٤ (تفسير سورة سبأ)
٥٢٧ تسخير الريح والجن لسيدنا سليمان
٥٣٠ قصة سبأ، ٥٣٨ إرسال النبي ﷺ إلى الناس كافة
٥٤٦ (تفسير سورة فاطر)
٥٤٦ مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها
٥٥١ الكلام على قوله تعالى : يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله
٥٥٤ الكلام على قوله تعالى: إن الذين يتلون كتاب الله . . الخ
٥٦٢ (تفسير سورة يس)
٥٦٦ أصحاب القرية
٥٨١ الدليل على البعث



